كلمة من الله

د . توحيد الزهيرى

كلمة من الله

رقـــم الإيداع
٩٣/٩٣٠٠
I.S.B.N.
977-00-5928-5

الطبعة الأولى

أكتوبر ١٩٩٣

(١)

السائرون الى الظلمات

(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا)

«مريم : ١٩»

خرج بنو اسرائيل يفرون و«فرعون» (١) الذي أسرف فى تعذيبهم وبالغ فى أهانتهم يطاردهم يريد اصطيادهم قبل أن يفلتوا من قبضته .

كان رسول الله النبى «موسى بن عمران» يقودهم والأمل يحدوهم فى أن ينجوا من بطش «فرعون» وأن يتخلصوا الى الأبد من معيشة العبيد ومذلة الخضوع للكافر الغريب .

ولما عبر الله بهم اليم فى القرن الغربى للبحر الأحمر حيث أغرق «فرعون» وجنوده وعاين القوم المستضعفون منة «الله» عليهم وقدرته على الجبار العنيد انبعث الأمل فى قلوبهم أن يحيوا حياة السادة الأعزاء الذين أختارهم «الله» من بين خلقه ليجعل فيهم النبوة والكتاب .

وذهب «موسى» الى ميقات ربه ليتلقي فى حضن الجبل كلمة «الله» آمرا قومه بانتظاره حتى يرجع اليهم . لكن القوم لم يصبروا حتى يعود اليهم «موسى» بالنور الذى يخرجهم من الظلمات ويهديهم الصراط المستقيم . فأسرعوا بوحى «السامرى» يعبدون عجلا صنعه لهم من الذهب الذى سرقوه من المصريين قبل الخروج . وعاد «موسى» إليهم غضبان أسفاً . فحطم الألواح الحجرية التى حفر عليها «روح الله» الوصايا والشريعة . وجعل «الله» القتل شرطا لتوبته على من سجد للعجل فالذين

تابوا الى «الله» أحبوا لقاءه وقبلوا أن يضعوا أعناقهم تحت السيف فظفروا بالحيا الأبدية لما سقطت رؤوسهم على الأرض بسيف التوبة . وفر الذين لم يتوبوا وكرهو لقاء «الله» أسرعوا يهربون من القتل لأنهم أحبوا أنفسهم أكثر من «الله» الذى يهد أنفسهم الحياة فتركهم «الله» يمضون يضربون فى الضلالة وحرمهم من الحيا الحقيقية إذ جعل مصيرهم الجحيم .

ثم أخذ «الله» الميثاق (٢) على من بقى من بنى اسرائيل عند «جبل الطور» فرفع فوقهم وخروا على الأرض سجدا وهم يمتلئون بالرعب خوفا من أن يفلت الجبل م قبضة «روح الله» فيسقط عليهم فيسحقهم . وفى هذه الرهبة التى لا يستطاع وصفه أمرهم «الله» بطاعته وأن يتمسكوا بالتوراة التى أعطاها «لموسى بن عمران» عبد ورسوله إليهم . أعطوا العهد ونزل الجبل الى مكانه . وقام بنو اسرائيل من سجوده الإضطرارى المضطرب وقد ظفروا بخطاب «الله» وقالوا لأنفسهم أنهم بهذا الخطاب ق أصبحوا «شعبا مقدسا» إذ ظنوا أنهم تحولوا الى شعب من الأنبياء .

لكنهم سرعان ما فقدوا صبرهم وأخذوا يتذمرون لأن سيناء شحيحة الماء قليل الثمار وليست كبنت النيل التى عاشوا فى أحضانها ففجر «الله» لهم بعصاة «موسى الماء في الحجر وأنزل لهم طعامهم من السماء المن والسلوى .

لكنهم عادوا الى التذمر قائلين «لن نصبر على طعام واحد» . لم يحبوا الطعا الذى ينزل طاهرا نقيا من السماء ويأتيهم فى يسر دون مشقة كانوا يشتاقون إلى نبا الأرض الذى يخرج من الطين وتخصبه القاذورات «ما الذى دفع بنا الى هنا ؟ «لماذ جئ بنا إلى هذه الأرض القاحلة ؟ . ماذا سنفعل على هذه الرمال وبين هذه الجبال؟.»

كانوا يريدون أرضا يستقرون عليها ويمارسون فيها سيادتهم يزرعون ويحصدو بأيديهم فلا تبقى حياتهم متوقفة على منحة السماء إن شاءت أعطت وإن شاءت منعت كانوا يريدون الاستغناء عن «الله» .

اشتهى بنو اسرائيل أرضا خصبة مباركة كأرض مصر التى عرفوا فيها الاستقرار وكانت فلسطين التى يسمونها أرض «كنعان» حينئذ هى مضرب الأمثال تعلقت بها قلوبهم وتطلعت إليهم أنظارهم وصار دخولها هو حلم الليل والنهار .

طلبوا من «موسى» أن يدعو ربه أن يمكنهم من أرض «اللبن والعسل» فأجابهم وأمرهم بدخولها . وكان نهر الأردن يشهد على كلتا ضفتيه عمرانا كبيرا وعلى الأخص «المغارب» التى بارك «الله» فيها للعالمين (٣) كانت الأرض تمتلئ بالشعوب والقبائل التى استقرت فيها منذ مالا يحصى من السنين وكونت بمرور الوقت مجتمعات ثابته ذات نظام سياسى . كانت دولا صغيرة أو «دويلات» يحكم كل واحدة منهن ملك» . ولكل واحدة منهن جيش منظم خاض الحروب ويمارس الناس حياتهم في سياق نظام اقتصادى يعتمد على الزراعة والرعى والتجارة .

الى الغرب من «نهر الاردن» كان «الكنعانيون» وعلى الساحل الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط الذي ينحدر إلى سيناء – مصر – كان «الفلسطينيون» أقوى الشعوب حينئذ وفى الجنوب كان «الأدميون» وقبائل «العمالقة» التى يبدو أنها قبائل «مصرية» استقرت على الحدود منذ زمن طويل لأن «الفراعنة» أهل «مصر» القدماء كانوا فى نظر الشعوب الأخرى دائما هم العمالقة أو الجبابرة لتعاليهم فى البنيان وشدة بأسهم وبطش حكامهم .

وإلى الشرق من نهر الأردن كان «العمونيون» و«المؤابيون» و«المديانيون» (أهل مدين) ثم القبائل البدوية الأخرى التى استمرت تندفع فى موجات لا تتوقف من جزيرة العرب ، الأرض التى ولدت البشرية كلها وفى الشمال كان «الفينيقيون» و«الآراميون» سكان سوريا .

هكذا كانت الأرض التى اشتهاها بنو اسرائيل وأمرهم «الله» بدخولها تمتلئ

بسكانها وتحيط بها المجتمعات المستقرة والدول القوية من كل جانب ولم يكن بنو اسرائيل حين عبر «الله» بهم القرن الغربى للبحر الأحمر أكثر من قبيلة تولدت من أسرة واحدة هى عائلة النبى «يعقوب» التى تركت جبال السامرة فى أرض «كنعان» عند حدوث مجاعة منذ أكثر من أربعمائة عام ونزلت ضيوفا على نجم العائلة الساطع «يوسف بن يعقوب» الذى كان حينئذ بمثابة رئيساً لوزراء مصر . لقد تكاثر عددهم فى كرم الضيافة . ولكن «فرعون» (١) أعمل فيهم التقتيل وتجاوز فى البطش بهم كل حد وها هم يخرجون فارين من بطشه بلا سلاح يذكر ليجدوا أنفسهم فى الصحراء . استبدت بهم الظنون أإنهم سيعودون كما كان آباؤهم الذين دخلوا «مصر» رعاة للغنم بدواً لا يعرفون الإستقرار فى مكان ؟! . يرحلون مع أغنامهم حيث سارت تبحث عن الكلأ ؟! ورفضوا هذا المصير وطلبوا أن يدخلوا أرض «اللبن والعسل» وها هو يأمرهم أن يدخلوها لكن كيف سيواجهون هذه الشعوب وجيوشها القوية ؟ كانت هذه الأرض المشتهاة هى الطريق التى مافتئت تشهد زحف الجيوش والحروب التى ما كانت تتوقف لحظة حتى تندلع من جديد بين الملوك الذين حلموا بالسيطرة عليها لتتم لهم السيادة على كل البلاد فى المنطقة . لأن أرض «اللبن والعسل» تربط بين القارتين «آسيا وأفريقيا» وتصل بين البحرين الأبيض والأحمر .

وبالنسبة لمصر فقد كانت بابها الشرقى الذى منه يدخل كل راغب فى السيطرة . لقد انتبه «الفراعنة» من زمن بعيد إلى أهميتها لأمن مصر . فحرص الأقوياء منهم على ادخالها ضمن الامبراطورية المصرية أو على الأقل بسط نفوذهم عليها . ومن هؤلاء كان «فرعون» الذى اضطهد بنى اسرائيل وخرج فى جيشه يتعقبهم فأغرقه «الله» وجنوده أجمعين فى البحر الأحمر .

لقد نجح «فرعون» بعد حروبه مع «الجيثيين» فى أن يعقد اتفاقا معهم يضمن له السيادة على الأجزاء الجنوبية الغربية من «الشام» ومن بينها أرض «كنعان» مشتهى الأسرائيليين . ولا شك أن قواتا مصرية كانت ترابط هناك على الحدود بين «مصر

وفلسطين» وفى أرض كنعان نفسها عنوانا على السيادة المصرية وتأمينا لباب «مصر» الشرقى الذى دائما تأتى منه الفتن والأخطار .

وإذا أراد بنو اسرائيل وهم فى «سيناء» أن يدخلوا أرض كنعان فلابد أن يعبروا الحدود ويمروا فى «صحراء النقب» حيث لابد أن يتقابلوا مع الجنود المصريين المرابطين هناك . ولابد أن يواجهوا القبائل المصرية التى كانت تسكن فى هذه الأرض منذ زمن بعيد . فكيف يمكنهم أن يقاتلوا هؤلاء «الفراعنة» وليس معهم سلاح وليست لديهم خبرة فى القتال وخوض غمار الحروب . كيف يأمرنا «الله» بدخول هذه الأرض وفيها هؤلاء ؟! . فقالوا «لموسى» إن فيها قوما «جبارين» . وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها(٤) . صحيح أن «فرعون» قد هلك مع جيشه فى البحر لكن ما الذى يمنع الجنود المصريين على الحدود وفى أرض كنعان من الانتقام منا لغرق سيدهم وأبادة جيشهم ؟، وما الذى يضمن لنا ألا تسحقنا هذه القبائل . وإذا نشب القتال فماذا معنا لنقاتلهم ؟

ورغم أن «موسى» أكثر من وعظهم بضرورة طاعة أمر «الله» ورغم أن رجلين صالحين من رجالهم قاما بتشجيعهم على الدخول وطمأنتهم على تحقق الوعد الآلهى كما تحققت النجاة من «فرعون» الذي هلك مع جنوده أمام أعينهم على نحو لم يخطر لهم على بال لكنهم كانوا أكثر «حكمة» من أن يجازفوا بإلقاء أنفسهم للموت على يد هؤلاء الجبارين . وأصروا على البقاء في «سيناء» حتى يخلى «الله» لهم الأرض التى سألوا دخولها من سكانها . وإذا كان «موسى» يريد أن يذهب ويقاتل فليذهب وحده ومعه ربه فليقاتلا . «إنا ها هنا قاعدون» (٥) لن نتحرك .

وعاقبهم «الله» على تخاذلهم وعجزهم عن التوكل عليه وإصرارهم على معصيته بالتيه أربعين سنه كانوا لا يستطيعون أن يستقروا فى مكان . الرياح المحملة بالرمال تصفع وجوههم وتقلب خيامهم فيرحلون الى مكان آخر حيث تقابلهم القبائل بالصد والطرد . ظلوا فى ترحالهم الاضطرارى تتقاذفهم الأرض من مكان الى آخر من

شمال «سيناء» إلى جنوبها وتفرقوا ثم تجمعوا ليتفرقوا من جديد مضطرين إلى سلوك دروب مجهولة وشاقة ملتوية في أرض قاحلة لا زرع فيها ولا ماء أربعين سنة فى التيه سقط خلالها الموتى الذين قتلهم الجوع والعطش والحر والبرد وندموا على أنهم لم يسمعوا لكلام «الله»ويجازفوا بالدخول الى الأرض المقدسة التى كتبها لهم وندم الكثيرون على أنهم قد تركوا مصر .

أخذوا يتذمرون ويتمردون على «موسى» ويتهمونه بالجنون وبأنه قد جر شعبه إلى الهلاك فى الصحراء .

وكلما ضعفوا ويئسوا قواهم «موسى» وأنار قلوبهم المظلمة بالرجاء فى رحمة «الله» وكان «موسى» بعد أن حطم الألواح التى حفر عليها «روح الله» الوصايا والشريعة قد كتب بوحى «الله» التوراة فى صحائف أودعها تابوتا سمى «بتابوت العهد» وكان يحمله فى ترحالهم رجال من سبط «لاوى» لأنهم منذ أن حملوا السيف طاعة لله ليقتلوا الذين عبدوا العجل منذ هذه اللحظة صارت ذرية «لاوى بن يعقوب» هم «الأحبار» الذين عليهم حفظ الشريعة وأقامة حدود «الله» ولهم شرف حمل تابوت العهد .

وعندما تتوقف القافلة التائهة فى مكان لتستريح بجوار بئر ماء أو فى ظل جبل كانوا يضعون «تابوت العهد» فى «خيمة العهد» أو خيمة الإجتماع التى يدخلها «موسى» ليصلى لله ليتلقى أمره ثم يخرج إلى قومه حاملا نور «الله» ونال سبط «لاوى» شرف حراسة الخيمة وحملها فى الحل والترحال .

عندما مات «هارون» دفن ووضعت آثاره مع التوراة فى التابوت . فصارت آثار النبى الكريم ضمن مقدسات بنى إسرائيل . وصار لأبناء «هارون» فضل على بقية الشعب ومن هؤلاء الأبناء سيكون «الكهنة» الذين تقوم عليهم الخدمة الدينية وإقامة طقوس الشريعة عندما يستقرون فى الأرض الموعودة .

ومضت الأربعون سنة فتقدم الركب المتعب نحو نهر الأردن حيث حطوا رحالهم على الجانب الشرقى تتطلع عيونهم فى شوق الى الأرض الموعودة التى حرمت عليهم أربعين سنة قضوها فى التية فزاد تعلق قلوبهم بالأرض التى تعالت عزتها عليهم .

وحضر «موسى بن عمران» الموت فلبى نداء ربه . غادر شهود الدنيا وما يزال قومه يتطلعون فى لهفة إلى الأرض الموعودة والحسرة تملاء قلوبهم .

ثم جمع «يوشع بن نون» فتى «موسى» وخليفته شتات قلوبهم وقوى «بروح الله» عزمهم فعبروا نهر الأردن وظفروا بموضع قدم فى المغارب المباركة عند «أريحا» (٦) .

وعبر حروب وصراعات سياسية واتفاقات وتحالفات أستطاع بنو اسرائيل على سنوات ممتدة أن يتناثروا في جماعات متفرقة على الشرق والغرب من نهر الأردن . كانت تلك الجماعات تشبه الجزر وسط بحر الشعوب والقبائل التى كانت تعمر هذه البقعة العجيبة من كوكب الأرض التى تكتنفها الأسرار لقد جذبت القلوب وهوت إليها الأفئدة ودارت من أجلها .. وما تزال تدور الصراعات كأنها مركز دورة التاريخ البشرى على كوكب الأرض .

كل جماعة من تلك الجماعات الإسرائيلية كانت تضم أبناء سبط من الأسباط الإثنى عشر ولها شيخ هو أكبر أفراد العائلة الكبيرة ويحتفظ بنفوذه على ابناء سبطه . ولكن ظروف الصراع من أجل البقاء فى تلك البقعة المليئة بالأخطار أفرزت قيادات تتميز بقوة الشخصية أو الحنكة السياسة أو المهارة فى القتال . وهكذا صار لكل جماعة من الجماعات الاسرائيلية المتناثرة «قاض» يعد هو الحاكم الحقيقى لجماعته . واستمر عصر «القضاة» عشرات السنين امتلاءت بالقتال والصراع والاضطراب (٧) .

كانت الشعوب التى سكنت الأرض من قبل الإسرائيليين تنظر إليهم كغرباء طامعين وكان لابد أن تنشب المعارك التى نال بنى اسرائيل فيها الكثير من الهزائم

لأنهم كانوا رعاة بسطاء ليست لديهم خبرة الشعوب الأخرى فى القتال وكان «الفلسطينيون» الذين يسكنون المدن الساحلية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط هم أشد الشعوب بأسا وأقواهم تسليحا . ولذلك استطاعوا أن يذيقوا الإسرائيليين مرارة الهزيمة مرات كثيرة حتى أنهم نجحوا فى أن يسلبوهم «التابوت» الذى يحوى التوراة وآثار الأنبياء .

وأدرك بنو اسرائيل ضرورة أن يضمهم كيان واحد تذوب فيه الأسباط ويخضعون فيه لقائد واحد يستطيع أن يقودهم فى الحروب ويمكن لهم فى الأرض . هكذا تولدت القومية الإسرائيلية وطلب بنو اسرائيل أن يكون لهم «ملك» (٨) مثل بقية الشعوب فالقومية الوليدة كانت تبحث عن نظام سياسى يعبر عنها .

حاول «طالوت» (شاؤول) أن يؤسس المملكة التى تعبر عن القومية الإسرائيلية ولكنه أخفق . ثم جاء «داود» النبى المحارب الذي أعطاه «الله» الخلافة فنجح فيما أخفق فيه «طالوت» . وعبر حياة مليئة بالحملات العسكرية التى لا تتوقف والصراعات السياسية أستطاع أن يؤسس مملكة تبسط نفوذها على مساحة متصلة من الأرض على جانبى نهر الأردن . انشأ جيشا نظاميا . وقسم مملكته الى أقسام وأقام نظاما إداريا مركزيا وعزم على أقامة بيت لله فى عاصمة مملكته «أورشاليم» وأصدر المراسيم الملكية التى تحدد نظام العمل ببيت «الله» المزمع انشاؤه ووضع رسوم الطقوس وبموجب هذه المراسيم أصبح «الأحبار والكهنة» الذين يقومون بالخدمة الدينية فى بيت «الله» موظفين لدى «الملك» الذي يعد هو نفسه كبير الكهنة أو رئيس رجال الدين لأنه فى حالة «داود» كان نبيا يوحى إليه من «الله».

وأصبح من المفروض أن تقدم «العشور» التى تفرضها الشريعة على كل ما يمتلكه اليهودى الى بيت «الله» . وكذلك النذور وباكورات الثمر والقرابين ومن كل هذه الأرزاق يأخذ الأحبار والكهنة أجورهم باعتبارهم رجال الدين الرسميين لكن «داود»

مات قبل أن ينجز ما عزم عليه وورثه أبنه وخليفته «سليمان» النبى الحكيم فأقام بيت «الله» فى «أورشاليم» الذى أصبح يسمى «هيكل سليمان» وكان آية فى الجمال والفخامة والقوة . إختال به بنو اسرائيل على الناس اجمعين . كان ذلك الهيكل هو علامة العلو الاسرائيلى الذى بلغ أوجه فى أيام حكم النبى «سليمان» الذى ظل فى قلوب اليهود أعظم الملوك . إستقرت فى عهده المملكة وأتسع نفوذها وقامت علاقات سلام وتعاون مع الدول المجاورة . كانت أيام المجد الذى لا نظير له .

لكن أيام المجد ولت بسرعة . لم تلبث أكثر من أربعين سنة . مات «سليمان» وتحولت الخلافة الى «ملك» عضوض فبدأ الأنهيار .

نشب الصراع على «مجد» الدنيا . فاندلعت الخلافات التى سرعان ما قطعت الأسباط أبناء النبى الواحد الى مملكتين متناحرتين تستعين كل واحدة منهما على الأخرى بالملوك الأجانب الغرباء الذين يطمعون فى أرض المملكتين ويودون زوال الطائفتين المتنازعتين .

«مملكة اسرائيل» فى الشمال تدعى أنها الأصل لأنها تضم فى أرضها البقعة التى عاش فيها «إسرائيل» أبو الأسباط ولا تعترف بالأنبياء من بعد «موسى» واذا كانت «يهوذا» المملكة الأخرى تفتخر بالهيكل وتقول عنه أنه بيت «الله» فإن «اسرائيل» انشأت معبدين فى «بيت إيل» وفى «دان» حتى لا يذهب شعب مملكة «اسرائيل» الى هيكل «يهوذا» واذا كانت «يهوذا» تعبد آلها . فإن «إسرائيل» ينبغى أن تتخذ آلها غيره . وهكذا عبدوا «البعل» آله الفنيقيين وأصبحت تقدم له القرابين فى المعبدين وأختلط الاسرائيليون اهل الشمال بالفنيقيين الأثرياء الذين يعملون فى التجارة وأخذوا عنهم ثقافتهم ونمط حياتهم حتى آلهتهم وعباداتهم وتحولوا الى شعب وثنى ينسب نفسه الى اسرائيل نبى «الله» الذي كان اسمه «يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم» «خليل الله» .

وأختالت «يهوذا» على أختها بهيكل الرب الذي أصبح فى نظرهم هو المكان

الوحيد الذى تقبل فيه الصلاة «لله» وأهتم الناس بالاتصال بالشياطين التى سخرها «الله» لسليمان (٩) صار الدين نوعا من الطقوس السحرية للسيطرة على العوالم الخفية وأنتشرت الخرافات ودخلت العرافة والتنجيم بل عبدت الكواكب والأجسام السماوية وضاعت حقائق الدين كما بينها أنبياء «الله» وحلت مكانها فى القلوب ديانة جديدة ابتدعها الأحبار والكهنة والأنبياء الكذابون الذين تكاثروا واختطلت المفاهيم وأخذ الشعب يتخبط فى الظلمات .

خبا نور الايمان فى القلوب حتى أوشك أن ينطفئ . حتى فى يهوذا التى كانت أكثر تمسكا بالشريعة صارت العبادات عادات والطقوس الدينية ليست الا مناسبات وأعيادا قومية يتوارثها الناس ويحرصون عليها حرصهم على عاداتهم وتقاليدهم التى تميزهم بين الشعوب الكثيرة التى كانت تحيط بهم من كل جانب .

صار الدين تراثا قوميا . وصار «الله» آلها قوميا يخص اليهود وحدهم ولا يعتنى بأحد من خلقه غيرهم وكما أعتقد كل شعب وثنى أن له إلها أو آلهة تخصه تمنحهم الرعاية وتسبغ عليهم رداء حمايتها . كذلك انحدر ظن اليهود فى «الله» إلى حد توهمه شيخا لقبيلتهم أو زعيما لشعبهم فأسموه إله اسرائيل ونعتوه بأنه رب الجنود . وحسبوا أن ليس له من عمل إلا التمكين لهم فى الأرض التى أشربوا حبها فى قلوبهم فهو ينزل ليقاتل أعداءهم الذين يعدون فى ذلك الوهم اعداءه هو شخصيا ولا يعبأ «الله» بأحد من خلقه غير اليهود الذين هم ابناؤه وأحباؤه لا يستطيع أن يستغنى عنهم . كما لا يفرط رجل فى أبنائه وجميع المخلوقات التى ابتدعتها يد «الله» إنما قد خلقت من أجل أن يتم تسخيرها لتحقيق مصالح اليهود فى الأرض الموعودة التى أصبحت هى كل ما يعنيهم من رسالات «الله» وكلام الأنبياء .

لقد رفع «الله» ابليس من الأرض . وأعطاه رتبه «المَلَك» وأسكنه فى السماء فظن أبليس أن هذا التكريم يرجع إلي فضل تميز به عن سائر الجن الذين أبقاهم «الله» فى

الأرض أو مسخهم إلى صور قبيحة ورتب دنيئة . أعجبته نفسه وأسكره جماله فنظر إلى الأرض باحتقار وأحتقر كل ما فيها ثم استبد به أعجابه بنفسه فرأى انه أجمل شئ فى السماء وأفضل كائن فيها غافلاً عن الجم الغفير من الملائكة الذين لا يحصيهم الا خالقهم .

إنتهى به كبرياؤه إلى أنه أعظم كائن يمكن ان يوجد وأنه ينبغى على كل ما فى الأرض وما فى السماء أن يقر بهذه «الحقيقة الإبليسية» كان يوشك أن يدعو نفسه آلها ويطلب من الخلق أن يعبدوه حين خلق «الله» الذى يعلم ما فى نفسه «آدم» وذريته من قطعة من الطين كريهة الرائحة من الأرض التى احتقرها أبليس بكل ما عليها .

وعلّم «الله» «آدم» الأسماء المسطورة فى كتاب علمه كلها بعد ان نفخ فيه من «روحه» فصار بهذه النفخة وذلك العلم فى الملاء الأعلى . وأمر «الله» الملائكة ومن بينهم «إبليس» أن يسجدوا «لآدم» . لقد أحب «الله» أن يُذكّر ابليس بعبوديته وأن يساعده بالسجود على التخلص من كبريائه التى تدفع به الى العذاب الأبدى . لكنه فضّل ان يخرج من الرحمة الى العذاب وأن يترك التكريم الي اللعنة ولا يترك كبرياءه التى تنفخ فيه أنه «الأفضل» لقد حول اصطفاء «الله» له إلى لعنة .

وعلى الطريق الذى شقه «إبليس» بكبريائه سار بنو اسرائيل وأخذوا يحثون الخطى إلى الهاوية لقد حولوا اصطفاء «الله» لهم بالخطاب والنبوة والكتاب الى لعنة لأنهم قالوا لأنفسهم أنهم قد صاروا «شعبا مقدسا» جديرا بهذا الاصطفاء فهم الشعب الذى أختاره «الله» الى الأبد وهم حظ «الله» مَن خلقه لا يستطيع أن يستغنى عنهم كأنهم هم الذين أختاروا «الله»وأعطوه مجده .

فى هذه القلوب التى نفخ فيها «إبليس» سم الكبرياء صارت رسالة «الله» هى تشريف وتمجيد الشعب المختار وتحقيق الرسالة هو أن يكون بنو اسرائيل سادة الارض وملوك البشر الذين يخضع لهم كل ما فى الأرض بل كل ما فى الكون الواسع

الذى لم يخلقه «الله» إلا من أجلهم وحدهم هذه السيادة اليهودية هى الغاية التى تسعى الأقدار للوصول إليها وتبتغى الدنيا تحقيقها .

إذن لم يعد بنو اسرئيل مطالبين بالتطهر من الخطايا والتنزه عن النقائص والعيوب. ولم يعد مطلوبا منهم الإستعداد للقاء «الله» والتجهز لتلقي الحقيقة ومن ثم فقدت الرسالة الآلهية إليهم معناها . إنهم ابناء «الله» وأحباؤه ولن ينالهم من «الله» أى عذاب لأنهم شعب «الله» الذى يبقى دوما شعبا مقدسا حتى وإن غرق فى الخطايا وتمرد على الشريعة إنهم طاهرين وكاملين منذ البدء فأى رسالة يمكن مخاطبتهم بها ..؟ وأى ارشاد يمكن وعظهم به .. ؟؟

ولم يعد فى هذا العمى معنى لإبلاغ الرسالة الى الغير فلا أحد فى الدنيا يحب أن يشاركه غيره فى الفضل الذى يتميز به عليه أيوجد ابن يوزع إرثه من أبيه على الغرباء.. ؟؟

نسى بنو اسرائيل العهد والتكليف وغفلوا عن البعث والحساب والجزاء ولم يعد فى وحى «الله» إلا الأرض الموعودة المشتهاة والمجد الدنيوى . لكن رحمة «الله» لم تنسهم . فظل «الله» يذكرهم بأنبيائه الذين يرسلهم اليهم ليصححوا لهم اخطاءهم ويرفعوا عن قلوبهم الأوهام لعلهم يرجعون الى صراط «الله» المستقيم . لكن الشعب أسكرته أوهام الأصطفاء وأنتشى بزعم البنوة المدعاة . وظل سادرا فى غيه فأعطي الأنبياء الصادقين أذنا صماء وانصرف قلبه الى الأوهام الجميلة التى كان يواصل الكذابون بثها .

وجاءت الضربات التي وجهتها يد «الله» بعصا الملوك والجبابرة كما تنبأ الأنبياء الى الشعب الغافل لعله ينتبه من سكرته ويصحو من أوهامه .

أخذ الفراعنة ومنذ وقت مبكر . ثم ملوك «آرام» يشنون الغارات ويأخذون الغنائم بل ويفرضون الجزية فى أكثر الأحيان .

ثم من بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات جاءت الكوارث حتى نجح الآشوريون في ازالة مملكة «اسرائيل» وتعلقت أمال اليهود بمملكة يهوذا والهيكل المقدس فى قلبها فجاء جنود «بابل» أولى البأس الشديد أيام «نبوخذ نصر» فحطموا تلك الآمال بيد من حديد عندما جاسوا خلال الديار(١٠) فهتكوا العورات ودخلوا الهيكل لأول مرة فدمروه وسلبوا كنوزه وأحرقوا التوراة وتراث الأنبياء عندما أحرقوا مدينة الرب المقدسة كلها وألبسوا قلوب بنى اسرائيل عارا لم تستطع مئات السنين أن تمحو أهانته أو تزيل مرارته ..

منذ هذه اللحظة أمسى اليهود عبيدا مضطهدين أو فى أفضل الأحوال اتباعا أذلاء يدينون بالخضوع ويقدمون فروض الطاعة ويدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون للملوك الأقوياء الذين تعاقبوا عليهم .

بعد انقضاء يوم «بابل» سطعت شمس «فارس» فكانت رحمة امتدت بها يد «الله» الى اليهود فحررتهم من الاستعباد البابلى وفكت أسر المسبيين وأعادت بناء الهيكل وجددت «أورشاليم» وأنبعث لهم «عزير» من الموت (١١) ليكتب لهم التوراة التى ضاعت حتى من الصدور ويعلمهم شريعة «الله» التى نسوها في أيام السبي البابلى .

لكن شمس «فارس» غربت بسطوع نجم «الأسكندر الأكبر المقدونى» الذى دخل أورشاليم فاتحا قبل ميلاد «المسيح» بأكثر من ثلاثة قرون لم يكن قاسيا مع اليهود (١٢) ولكن نجمه سرعان ما هوى وكان ورثته أشد قسوة على بنى اسرائيل .

وقع اليهود أولا فى قبضة البطالمة حيث عوملوا كعبيد اذلاء وتم إجلاء عدد كبير منهم الى «مصر» مركز حكم البطالمة اليونانيين ثم أعطوهم حريتهم الدينية مع بعض الحرية السياسية مقابل دفع ضرائب باهظة أثقلت كاهل الشعب المتعب (١٣) .

لكن الأزمة الحقيقية التى ناء بها ظهر المجتمع اليهودى جاءت فى محاولة البطالمة

فرض الثقافة الهيلينية على اليهود باعتبارهم مجرد بعض رعاياهم الذين يسكنون الجزء الجنوبى الغربى من الشام .

حوّل البطالمة المدن الساحلية على البحر الأبيض المتوسط وبعض المدن فى شرق الأردن إلى مدن هيلينية الطابع بدأت تنشر الثقافة اليونانية ونمط الحياة الهيلينية فى عمق المجتمع اليهودى الذي بدأ يترنح ويتفكك .

وأنقسمت النخبة اليهودية الى طائفتين متصارعتين طائفة المتهلنين وطائفة المحافظين . دعا المتهلنون الى الاقتداء بالسادة اليونانيين فى كل شئ من العقائد حتى طريقة ارتداء الملابس . ونظروا بعين الاحتقار لكل تقاليد الشعب وتراثه «المقدس» وبالطبع فقد علا شأن هؤلاء المتهلنون وأعتمد عليهم الحكام فى جلب الضرائب من الشعب(١٤) .

وعلى الجانب الآخر دعا القسم الآخر من النخبة الى التمسك بعقيدة الشعب وتقاليده «المقدسة » والثورة على البطالمة وأيد الشعب فى أغلبه هذه القيادات الفكرية المحافظة التى سعت فى سبيل الخلاص من البطالمة الى الاستعانة بأعدائهم السلوقيين ورثة «الاسكندر المقدونى» فى الشام وسرعان ما فتح السلوقيون حكام الشام أرض فلسطين وأصبح الشعب اليهودى ضمن رعايا الدولة السلوقية .

لكن السلوقيين انقلبوا على اليهود بعد فترة قصيرة ففرضوا الضرائب الباهظة وكانوا أشد اصرارا على فرض الطابع الهيلينى على اليهود شعبا وأرضا وأنتهى المطاف بهم الى اصدار قوانين تنص على تحويل «أورشاليم» الى مدينة هيلينية وأن يكون «الهيكل» هو أحد معابد «زيوس» كبير آلهة اليونان ويحظر فيه تقديم قرابين لآله اسرائيل بل يجب تقديم الخنازير قربانا «ذبيحة مقدسة» «لزيوس» ويمنع الختان ولا حرمة ليوم السبت ويمنع تعليم التوراة والموت هو عقوبة كل من يخالف واحدا من هذه القوانين(١٥) .

كان هدف الملك السلوقي «انطيوخس ابيفانس»[١٦] هو توحيد مملكته دينيا وثقافيا في نطاق الثقافة الهيلينية ومن ثم وجب استئصال الدين اليهودى ومحو التقاليد اليهودية .

وأطاع المتهلنون هذه القوانين ورحبوا بتحول اليهود الى رعايا يتشبهون بسادتهم اليونانيين أما النخبة المحافظة وعلى رأسها «الحسيديم» طائفة المتطرفين الدينيين فقد أعلنت رفضها لهذه العبودية وتمرد الشعب .

وإذ أقام بعض الجنود السلوقيين مذبحا عند قرية «موديعين» قرب مدينة «اللد» ثم قاموا بجمع سكان القرية حول المذبح ووقف القائد يأمر الكاهن العجوز «متتياهو» ان يذبح خنزيرا قربانا «لزيوس» كبير آلهة اليونان ورفض الكاهن العجوز أمر القائد وصرخ فى وجهه «لو أطاعتك كل الشعوب التى تحت سلطان الملك فأنا وأبنائى وأخوتى سنبقى على عهد آبائنا ولن نترك التوراة والوصايا لن نطيع أمر الملك» [١٧] .

وتقدم أحد اليهود المتهلنين لينقذ الموقف بتقديم القربان المطلوب لكن «متتياهو» العجوز وسط دهشة الجنود وانبهار الشعب أخذ سكينا وذبح اليهودى المتهلن وأندلع الحماس وهجم الشعب الذى عانى طويلا من الإذلال على الجنود واشتد القتال وبدأت الثورة الحشمونائية أو الثورة المكابية نسبة الى «الحشمونائيم» وهم عائلة الكاهن «متتياهو» أو «يهودا المكابى» الذي تولى قيادة الثورة بعد موت أبيه .

كانت هذه الثورة صراعا حربيا مريرا طويل الأمد بين السلوقيين الذين يحتلون البلاد وبين الشعب اليهودى الراغب فى الخلاص من الاستعباد للغرباء يقوده الحشمونائيم وكانت من ناحية أخرى حربا أهلية بين دعاة الحفاظ على عقيدة الشعب وتراثه والمتهلنين الذين يدعون الى الاقتداء باليونانيين وتمثل النمط الهيلينى فى الحياة واستمرت الحرب سنوات طويلة وتناول فيها الفريقان المتصارعان الهزيمة والانتصار

ولكنهـا انتـهت الى سـحق المتـهلنيين فى الداخل حـتى أنهـم اضطروا الى الفـرار من «أورشاليم» والاختفاء فى القرى والمدن وعدم اعلان هويتـهم وأضطر «السلوقيون» الى الاعتراف بنوع من الاستـقلال والسيادة للشـعب اليـهودى تحت قيـادة «الحشمـونائيم» الذين كـونوا مملكة كـانت تتـسـع أو تتـقلص مناطق نفـوذها حـسب ضـعف و قـوة «السلوقيين» الذين كانوا يعانون الاضطراب فى عاصمة ملكهم .

ولكن «الحشمونائيم» فى إبان صراعـهم مع «السلوقيين» اضطروا الى اللـجوء الى «الرومـان» والاسـتعـانة بهم . فعقـدوا مـع «رومـا» الاتفـاقـات العـسكرية التى تضـمن لهم المدد والعون فى صراعهم الطويل ضد «السلوقيين» .

وكـانت «رومـا» فى ذلك الوقت تتـجـهـز لأن تكون سـيـدة العـالـم . وتتطلع لبـسط نفوذها على كل الأرض المسكونة وكان لابد أن يمعن قادة «روما» النظر إلى تلك البقعة الحساسة التي تسيطر على الطرق فى العالم القديم كله .

إن أرض «اللبن والعسل» التى اشتهاها الفارين من جحيم «فرعون» المتذمرين من جفاف «سيناء» وقلة ثمارها الذين لم يحبوا طعام السماء . هذه الأرض نفسها كانت ثمـرة مـشـتـهـاة لكل راغب فى السـيطرة على بلاد الشـرق وحلـم كل حـالـم بـأن يكون سيد العالم .

(٢)

«بيــت العنكبــوت»

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)

«سورة العنكبوت : ٤١»

من نداء «الله» لموسى فى الوادى المقدس ومن تكليمه عند جبل التجلى نشأت الأمة اليهودية فمن خطاب «الله» لأنبيائه تنبعث الحياة وتقوم الأمم ومن أجابة الأمم للخطاب الآلهى يتولد التاريخ من كلمات «الله» المسطورة بيد «موسى بن عمران» على صفحات التوراة ولدت الأمة اليهودية ومن موقف اليهود من رسالة «الله» شهد كوكب الأرض تلك القصة الغريبة التى أخذت اسم «التاريخ اليهودى» .

كان «موسى» والأنبياء من بعده هم الشمس التى بثت الحياة فى قلب الشعب اليهودى وصار الأحبار والكهنة هم المصابيح المنوط بها استبقاء النور ليضئ للشعب طريقة فى الظلمات .

ومثل كل كائن حى فان الأمة تضعف وتعتريها الأمراض اذا اضطرب إتصالها بمصدر حياتها كلام «الله» وتنزل بها الشيخوخة لتموت اذا فقدت صلتها به ومن ثم فإن المهمة «التاريخية» للأنبياء ثم ورثتهم من بعدهم هى إبقاء الأمة حية بإبقائها موصولة بمصدر الحياة من خلال تجديد إمدادها بماء الحياة «الإيمان» الذى تظل به مخاطبة من «الله».

لكن بنى اسرائيل نقضوا ميثاقهم مع «الله» وأخذوا يفقدون «ايمانهم» رغم

صرخات الأنبياء والصالحين. انحدرت رسالة «الله» اليهم فأمست فى قلوبهم طلبا للعلو فى الأرض وبحثا عنيدا عن «مجد» دنيوى لا يزول .

فى هذا الوهم صارت «مملكة سليمان» هى الفردوس الذى ضاع وصار استرجاع المجد الغابر الذى جسدته «أيام سليمان» هو محور التاريخ اليهودى الذى دارت حوله حركة الشعب الذى كان يترنح بصفعات التاريخ سكرانا بوهم الإصطفاء الأبدى ظلت «أيام سليمان» فى قلوب بنى اسرائيل هى حلم الطفولة الذى داسته بلا رحمة أقدام التاريخ الثقيلة ولم تكن الثورة التى قادتها عائلة «الحشمونائيم» ضد الدولة «السلوقية» التى كانت لها السيادة على أرض «كنعان» وما حولها فى القرن الثانى قبل «الميلاد» إلاّ محاولة من الأمة التى كانت تعانى من الشيخوخة لإستعادة المجد العنيد الذى يأبى الزمان ألاّ يعيده . كانت تلك الثورة محاولة أخيرة لاسترداد الفردوس المفقود .

ونجحت الثورة فى اقامة «مملكة يهودية» تتمتع بسيادة ذاتية فى نطاق خضوع ظاهرى على الأقل للدولة «السلوقية» وحاول زعماء «الحشمونائيم» زيادة سلطاتهم ومناطق نفوذهم بقدر ضعف الملوك «السلوقيين» بل أنهم حاولوا الاستقلال التام عن الدولة «السلوقية» بالاعتماد على «الرومان» الذين كانوا يتطلعون حينئذ للسيادة على العالم كله وفى هذا السياق «سك» بعض الزعماء «الحشمونائيم» عملة خاصة تعبيرا عن الاستقلال وأسبغوا على أنفسهم بعد ذلك لقب «الملك» وأصبح الزعيم الحشمونائى «ملكا» للشعب اليهودى يلبس التاج على رأسه ويحاول ضم القرى والمدن الى مملكته ويعمل على «تهويد» السكان كلما أحس بضعف القبضة «السلوقية» فازداد عدد «المتهودين» الذين صاروا يدينون باليهودية دون أن يكونوا من سلالة النبى «يعقوب» أبو الأسباط ودون أن يعتقدوا حقاً بصدق التوراة إنهم يهود لأسباب دنيوية أو حتى بالصدفة .

لا يستطيع الإنسان فى أى موقع أو فى أى عصر أن يتجاهل «الله» ليس فى مقدوره أن يمضى قُدُماً فى حياته دون أن يتخذ موقفا من «الله» أو دون أن يعطى أجابةً «ما» على نداء الحقيقة الذى ينبعث من قلبه والذى يطلقه «الله» بواسطة انبيائه فى كل الأزمان فى أى مكان على كوكب الأرض وجد الأنسان نفسه مُضْطَّراً لأن يحدد لنفسه موقفا من نداء «الله» ومُضْطَّراً لأن يختار آلها وكما لا يستطيع الانسان ان يعيش دون طعام أو شراب فكذلك لا يستطيع أنْ يحيى دون أن يكون له آلها يعبده. هذه الحقيقة فرضت نفسها على التاريخ البشرى بل إنها هى التى صنعت حركة المجتمعات التى تُسمَّى «التاريخ» وكانت أشد بروزا فى الأمة اليهودية لأنها أمة أنبتها على الأرض خطاب «الله» لعبده «موسى بن عمران» فكان من المحتم أن تصطبغ كل مملكة يستطيع «اليهود» ان يكونوها بالصبغة الدينية وأن يكون «الدين» هو محور الحياة السياسية فى المجتمع اليهودى وأن تكون المساحة التى ينبغى للشريعة أن تبسط نفوذها عليها هى بؤرة الصراع فى النشاط الاجتماعى وكانت مملكة «اليهود» فى عصر «الحشمونائيم» تجسيدا أو تمثيلا حيا لهذه الحقيقة .

كان زعيم «الحشمونائيم» هو الحاكم الفعلى للشعب اليهودى لأنَ هذه العائلة هى التى قادت الثورة وصنعت بقيادتها للشعب المتمرد «المملكة» ولكن الزعيم «الحشمونائى» كان يستمد شرعيته الظاهرية أى «منصبه» باعتباره رئيساً للشعب وحاكماً له من مجمع اليهود أو ما كان يسمى «السنهدرين» وهو مجلس عرفه المجتمع اليهودى منذ وقت طويل وكان يتكون فى عصر «الحشمونائيم» من سبعين عضوا بالاضافة الى رئيسه الذى يجب أن يكون رئيس الكهنة(١٨) .

كان المجمع «السنهدرين» هو السلطة الشرعية فى المجتمع اليهودى ويضم فى اعضائه الشيوخ وزعماء العائلات الكبيرة والوجهاء بالإضافة الى بعض كبار الكهنة وعلى رأسهم الكاهن الأكبر الذي كان يجب أن يكون من عائلة «صدوق» الكاهن الأكبر

فى أيام المجد الغابر «أيام سليمان» وكان هذا المجمع هو السلطة التشريعية التى لها وحدها حق إصدار القوانين التى تنظم الحياة فى المجتمع اليهودى وهى قوانين ينبغى أن تستمد أو على الأقل لا تتعارض مع نصوص التوراة .

ومن ثم فقد أصبح عمل المجمع فى الغالب هو تفسير «التوراة» لتأويل النصوص الغامضة وكشف المعميات الكثيرة والرموز والألفاظ الغريبة التى امتلاء بها النص الذى أسئ إليه بالتعدى عليه حذفا وإضافة مرات عديدة وفي أزمان ممتدة . وكان من المحتم أن تحتدم المناقشات وتندلع الخلافات بين وجهات النظر المتعارضة فى النص الذى صار هو نفسه موضوعا للخلاف لأن التوراة التى كتبها «موسى» قد ضاعت ولم يعد لها وجود منذ احتراق «اورشاليم» على يد جنود «بابل» أولى البأس الشديد والتوراة الجديدة التى كتبها «عزير» (عزرا الكاتب) . وأخذ يعلمها للشعب من جديد بعد العودة من «سبى بابل» لم تبق على حالها بل أخذت تعتريها التشويهات حيث تم محو النصوص التى لا تتوافق مع اهواء الشعب وأوهامه وأضيفت النصوص التى تحقق مصالح دنيوية رخيصة .

هكذا تحولت الكتب «المقدسة» إلى مسخ مشوه كان الجميع يدركون فداحته دون أن يجرأوا على الإفصاح حفاظا على أوضاعهم فى المجتمع . وكان «المجمع» هو المحكمة العليا للبلاد وهو الذى يعين القضاة فى القرى والمدن . بل هو الذى يعين ولو ظاهريا حاكم البلاد لأنه هو الذى يسبغ الشرعية على زعيم عائلة «الحشمونائيم» الذى يكون عليه الدور فى القيادة . كان المجمع ورئيسه هو ممثل الشعب أمام السلطة الأجنبية الحاكمة . إن خضوع الشعب اليهودى فترات طويلة من تاريخه للسلطة الأجنبية قد ساهم فى ضعضعة مكانة «الكهنة» فى المجتمع وزوال مهابتهم فى أعين الناس . لأنهم صاروا طوال هذه الفترات الممتدة يتعاونون مع السلطة الأجنبية ويجسدون فى قلوب الشعب معنى المذلة أمام الغرباء .

ومر على اليهود حين من الدهر كان كبير الكهنة الذى يعد رئيسا للشعب اليهودى باعتباره رئيسا للمجمع مضطرا أن يدفع «الجزية» للحاكم الغريب مقابل الاعتراف بمنصبه والسماح له بمزاولة سلطته على الشعب لقد تخلى ابناء «لاوى» وذرية النبى «هارون» عن وظيفتهم المقدسة وهى حفظ الشريعة وأقامة حدود «الله» والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وصاروا مثلا فى الهرولة الى متاع الدنيا باعوا كلام «الله» واشتروا به ثمنا قليلا ففقدوا فى الدنيا احترام الشعب .. ثم أمسى أغلبهم أميين لا يعلمون ما فى «الكتب» المنسوبة الى الأنبياء ولا يدرون ماذا تقول الشريعة أو ماذا تريد صاروا موظفين فى الهيكل يحصلون على أجورهم من العُشُور والنذور والباكورات ولا يقومون فى الحقيقة بأى عمل صار أغلبهم متبطلين ولم يبق من هذه «العائلة» إلا الملابس والطقوس وبقايا قصص وذكريات عن المجد الغابر . لم يعد لها من كيانها إلا إسمها .... إسم بلا مسمى .

وبانحدار «الكهنة» أرتفع شأن «الكتبة» و«الفريسيين» أما «الكتبة» فهم فئة من الشعب تخصصت فى حفظ التوراة وكتب الأنبياء وصارت «كتابة» النصوص الدينية وتعليمها للشعب خاصة الأطفال هى حرفتها وبتفشى الجهل فى الشعب بل فى طائفة الكهنة نفسها ازدادت أهمية هذه الفئة التى نشأت منذ عاد «عزير» من الموت ليعلم الشعب الذى نسى كلام «الله» إذ أدرك الشعب أهمية أن تتخصص طائفة من الناس لتتعلم وتعلم كتب الأنبياء فصارت هذه الطائفة هى الحافظة لتراث الأمة «المقدس» لكنها كانت أيدى غير أمينة لم تحفظ كلام «الله» فغيرت فيه ما شاءت لها اهواءها فتعددت النصوص وأختلفت وصار «تصحيح» النسخ هى إحدى المسائل التى تعترض السالك الذى يريد أن يتعلم الشريعة . وأخذت مكانة «الكتبة »تعلو و أهميتهم تزداد باعتبارهم قد صاروا الفقهاء الذين يعلمون شريعة «الرب» فأخذوا مقعد الوعظ فى الهيكل والمجامع المحلية التى تنتشر فى القرى والمدن.

أما «الفريسيون» فهم طائفة ترجع فى أصولها الأولى الى الرجال الذين صاحبوا نبى «الله» «إيلياس» الذى عاش مُضْطَّهداً فى زمن «أخَاب» أحد ملوك «إسرائيل». كان «الفريسيون» يعتزلون الناس زاهدين فى متع الدنيا تاركين صخب الأسواق وصراعها إلى الجبال والأماكن النائية يعتكفون «لله» فى الكهوف والخلوات يروضون أنفسهم بالعبادات راغبين في الوصول الى الحقيقة .

ربما كانوا هم المقصودون بلفظة «الربانيون» التى نطق بها القرآن فى مقابل رجال الدين الرسميين الذين سماهم «الأحبار» (١٩) .

لكن «الطائفة» لم تبق فى العزلة لتطلب الحقيقة بل خرجت الى السوق تطلب السلطة لقد تكاثر عددها ودخلها الأدعياء وصارت حزباً منظما فيه الزعماء والأتباع فيه الشيوخ والتلاميذ من السالكين والمريدين وأصبحت لها تقاليدها ورسومها وملابسها التى تميزها وسط الشعب الذى أصبح ينظر اليهم بعين الإجلال باعتبارهم أهل الشريعة الصادقين المحافظين على تقاليد الأباء .هكذا أصبح «الفريسيون» هم قادة الشعب الدينيين وصاروا يطمعون فى أن يكونوا هم القادة الرسميين أصحاب السلطة فى المملكة إذ كانوا يرون أنفسهم الجديرن بحكم هذا الشعب باعتبارهم أعلم الناس بالشريعة والنصوص وأكثر الناس ورعا وأقدرهم على المعرفة. صار عدد كبير منهم «كتبة» وهكذا تولد من طائفة «الفريسيين» الذين كان أغلبهم من الطبقة الوسطى حزب سياسى يدعو إلى اقامة مملكة يهودية على أساس «التوراة» تحافظ على تقاليد الشعب «المقدس» الذى ميزه «الله» على سائر الشعوب وبالطبع فإن قيادة هذه المملكة «المقدسة» ستكون لهم لذلك كانوا فى البداية أكثر الناس تحمسا للثورة «الحشمونائية» التى قامت تمردا على فرض الطابع الهيلينى على الشعب اليهودى من جانب «السلوقيين» .

وعندما نجحت الثورة فى اقامة مملكة يهودية يتمتع الشعب اليهودى فيها بسيادة

نسبية واندحر «المتهلنون» من اليهود حتي أنهم فروا من «أورشاليم» واختفوا عن الأعين حتى ذابوا ولم يعد ثمة من يدَّعِي أنه «متهلن» فإن الفريسيين ظنوا أن الانتصار كان انتصارهم والدولة الجديدة هي دولتهم وتطلعوا ليكونوا حكام الشعب وأصحاب المناصب الكبيرة فى الدولة لكنهم فوجئوا بأن الزعماء الحشمونائيم لا يقدرونهم حق قدرهم ولا يعطونهم من المناصب ما يستحقون .

صار بعضهم أعضاءً في السنهدرين وحكاماً للمدن والقرى وقضاة فى المحاكم المحلية ولكنهم كانوا يرون أنهم يستحقون ما هو أكثر من ذلك .

وبدأت المتاعب عندما حاول الزعماء «الحشمونائيم» الاستحواذ على لقب «كبير الكهنة» الذى يؤهل صاحبه ليكون رئيسا للمجمع اليهودى الأعلى فى «أورشاليم» إذ أصبح الزعيم الحشمونائى يطمع فى الاستئثار بكل السلطات المدنية والعسكرية والدينية . «إذا كان «شمعون» (سمعان) الذى نجح فى تأسيس الدولة الحشمونائية يحق له أن يحصل على لقب «كبير الكهنة» بالاضافة الى سلطاته الأخرى فإن غيره من الحشمونائيم لا يحق له أن يطالب بهذا المنصب» كان هذا هو موقف «الفريسيين»

[٢٠]وبدأت المعارضة «الفريسية» للحكام «الحشمونائيم» لأن الفريسيون قالوا أنه يجب على رئيس البلاد الحشمونائى أن يكتفى بمناصبه الدنيوية المدنية والعسكرية باعتباره حاكما للبلاد وقائدا للجيش أما الرئاسة الكهنوتية فيجب تركها لمن هو أهل لها . وبالطبع فانهم كانوا يرون أنفسهم أهلها وأخذت المعارضة الفريسية تعلن عن نفسها وتزداد شدتها فاعترضوا على سياسة التوسع والتهويد التى كان الزعماء «الحشمونائيم» ينتهجونها فى أوقات ضعف الدولة «السلوقية» وأعترضوا حتى على أن يسبغ الزعيم «الحشمونائى» على نفسه لقب «الملك» ويلبس التاج ورأوا أن السياسة المتبعة تدفع بالبلاد لأن تكون مجرد دولة دنيوية «عادية» مثل باقى دول البشر واستحكم العداء بين السلطة الحاكمة وبين الفريسيين.

وعلى النقيض من طائفة «الفريسيين» المعارضة كان «الصدوقيون» مؤيدين للسلطة وموافقين على كل خططها واجراءاتها رغم أنهم كانوا هم ورثة «المتهلنين» الذين قامت الثورة باستئصالهم .

كان «الصدوقيون» طائفة تنسب نفسها إلى «صدوق» الكاهن الأعظم أيام «سليمان» وكانوا «دنيويين» بكل ما تعنيه هذه الكلمة لم يؤمنوا بحياة أخرى بعد الموت فليس هناك بعث ولا حساب ولا جزاء بالجنة أو النار بل ليس هناك شئ هام خارج نطاق حواس الجسد وليس أمام الانسان من حياة إلاّ التى يتيحها له جسده وعليه أن يحصل على المتع بقدر ما يستطيع وبالطبع كان «الصدوقيون» على عكس «الفريسيين» يحترمون الثقافة اليونانية التى تهتم بحياة الجسد ولذاته وتقدس الجمال وكان يرون فى «الرومان» المثل الأعلى الذى يجب الاقتداء به ولكنهم تعلموا من المصير البائس الذى آل إليه «المتهلنون» أباؤهم الروحيون فلم يعلنوا إحتقارهم لعقائد الشعب وتقاليده كما كان المتهلنون يفعلون بل «أظهروا» احتراماً مُفْرِطاً للتوراة وتقاليد الشعب وأعجبهم أن التوراة التى وصلت إليهم لم تكن تتحدث عن الحياة الأخرى وليس فيها ذكر للبعث أو القيامة .

وزايدوا على «الفريسيين» فى «إظهار» تقديس التوراة واحترام تعاليم «موسى» فبينما كان الفريسيون يرون ضرورة تأويل النصوص واستنباط أحكام جديدة لتتوافق مع الظروف الجديدة التى يجدها الشعب(٢١) وكان ذلك رغبة صادقة منهم فى تنزيل أحكام التوراة على الأوضاع المتغيرة تشبث الصدوقيون بدعوى التمسك بنصوص التوراة وأحكامها كما فهمها الآباء وتطبيقها بحرفيتها كان هذا التشدد الظاهرى غطاءً يسترون به إنكارهم لأن تكون التوراة وحياً تكلم به «الله» ورغبتهم فى إقامة الدولة على أسس دنيوية وكان الخلاف حول عقيدة البعث بعد الموت هو المعين الذى لا ينضب للمناقشات والمجادلات المحتدمة بين «الفريسيين» و«الصدوقيين» .

لقد أيد «الصدوقيون» السياسة التوسعية التى اعتمدها الزعماء الحشمونائيم لأنهم باعتبارهم يمثلون الطبقة الغنية كانوا يرون فى أقامة دولة قوية واسعة مزيدا من الفرص لاستثمار الأموال فتعاونوا مع السلطة الحشمونائية التى قربتهم اليها واعطتهم المزايا الاقتصادية والمناصب. واشتد الصراع بين الحزبين «الصدوقيون» الدنيويون الذين يؤيدون السلطة والفريسيون المتدينون الذين يعارضونها ويطمعون فى ان تكون القيادة لهم وبلغ الصراع حد الإقتتال حتى أن «الفريسيين» استنجدوا بالدولة السلوقية لترسل جيشا يؤدب الملك الحشمونائى «الكسندريناى» وكانت النتيجة أن انهزم الملك اليهودى وعادت قبضة السلوقيين لتشتد على الشعب اليهودى مرة أخرى (٢٢) .

وحينئذ أدرك الطرفان خطأهما فقرر الملك أن يمنح الفريسيين الأبهة والمناصب التى يطمعون فيها وقرر «الفريسيون» أن يكبحوا جماح عدواتهم للسلطة حتى لا تعود البلاد للخضوع للغرباء كما كانت من قبل لكن الأمر لم يستقر فسرعان ما مات الملك وورثته زوجته «شلوميت» «أوسالومي» التى عملت بنصيحته فقربت الفريسيين وأعطتهم ما يطمعون فيه وجعلت أبنها البكر «هيركانوس» ولى العهد «كاهناً أكبر» وكان ميالاً للفريسيين الذين أنتهزوا هذه الفرصة وأخذوا ينتقمون من «الصدوقيين» (٢٣) ولم يسكت الصدوقيون على هذه الهزيمة فحرضوا الإبن الأصغر «أريستوبولوس» وكان يميل للإتجاه الدنيوى عند الصودقيين ويرفض الأفكار الدينية «البالية» التى يدين بها الفريسيون حرضوه ليزيح «هيركانوس» من الطريق إلى الملك فجمع «أريستوبولوس» جيشا وأحتل بعض الحصون وطالب بتنحية أخيه الأكبر عن ولاية العهد وتدخلت الأم الملكة لصالح إبنها البكر واستنكر الشعب الذى كان يخضع لنفوذ الفريسيين الدينى هذا الاغتصاب للسلطة فاقتنع «اريستوبولوس» بحكمة أن يخفى أطماعه حتى حين فلما توفت الملكة وأوشك «هيركانوس» أن يكون هو «الملك» لأنه هو الوريث الشرعى وأدرك الصدوقيون ان معنى ذلك هو هزيمة ساحقة لهم أسرعوا يحرضون «أريستوبولوس» للوثوب على العرش فى «أورشاليم» وأندلعت حرب أهلية طاحنة انتهت بهزيمة

«هيركانوس»والفريسيين وانتصار«أريستوبولوس والصدوقيين»وأصبح «أريستوبولوس» هو «الملك» وعين نفسه «كاهنا أكبر» وقرب إليه الصدوقيين الذين صاروا سادة المجتمع اليهودى وأصبح الكثير من الكهنة فى الهيكل صدوقيين وأكدت «الدنيوية» التى يمثلها الصدوقيون أصدق تمثيل إنتصارها فأعتزل «هيركانوس» وأنزوى الفريسيون إلى حين .

لكن الشعب الصغير الذى تمزقه الصراعات لم يكن وحده فى هذه البقعة العجيبة من كوكب الأرض فهناك الطامعون الصغار فى المنطقة والطامعون الكبار الذين يسعون للسيطرة على العالم .

فإلى الجنوب من جبال «اليهودية» كان يسكن الشعب «الأدومى» وكان قد تم تهويده بإجباره على اعتناق الديانة اليهودية وضمه لملكة الحشمونائيم فى فترة من فترات ضعف الدولة السلوقية وأنبعث من الأدوميين زعيم تجرى فى دمائه شهوة السلطة وتطلع إلى ان يكون سيد المنطقة .

إنه «انتيباتروس» الذى رأى فى «أريستوبلس» الذى اغتصب من أخيه العرش بالقوة منافسه الأكبر على السيادة فعمل على تحطيمه ليخلو له الجو أسرع إلى «هيركانوس» المنهزم يحثه على المطالبة بحقه المسلوب واسترداد مُلْكَه الذى اغتصبه منه أخوه الأصغر ووعده بالمساعدة ومعاونة «ملك» الأنباط الذي وعد بتقديم جيشه مقابل التنازل عن المدن التى كان «الكسندريناى» والد «هيركانوس» قد استولي عليها من مملكة «الأنباط» مع دفع مبلغ كبير من المال على سبيل التعويض(٢٤) ووافق الملك المخلوع إذ استبدت به رغبته فى استرداد عرشه الى حد التعاون مع اعداء بلاده . أخذ «هيركانوس» بمشورة «انتياتروس» الداهية يعد العدة لاسترداد عرشة المسلوب وأخذ الفريسيون يهيجون الشعب ضد «اريستوبولوس» المغتصب وأعوانه «الصدوقيين» وهكذا تجدد القتال وتم حصار «أورشاليم» لكن دون نتيجة حاسمة .

هنالك أتجهت الأنظار الى «الرومان» سادة العالم الجدد الذين كانوا قد فتحوا سوريا واستقروا فى «دمشق». أرسل كلا الفريقان المتحاربان الوفود الى «دمشق» يطلبون مساعدة «الرومان» ويَعِدُون «بالتعاون» وقدم كل منهما الهدايا وأظهروا الخضوع طمعا فى المساعدة(٢٥) وأستطاع «انتيباتروس» الداهية أن يقنع «بومباى» (بومبيوس) القائد الرومانى بأن وجود «هيركانوس» الضعيف على رأس اليهود خيرٌ للرومان من زعيم محلى مشاكس مثل «اريستوبولوس» فتم اعتقاله مع أولاده وأرسلوا أسرى الى روما وأُعدِم انصاره وتم الغاء المَلَكِية وتعيين «هيركانوس» رئيساً لليهود وكاهنا أكبر لقد رحب الفريسيون بمجئ الرومان وهللوا لفتح «أورشاليم» لأنهم أعتبروا ذلك هزيمة ساحقة للصدوقيين اعدائهم ولكنهم بعيون شاخصة وقلوب تملؤها الحسرة عاينوا أهانة «بومباى» (بومبيوس) القائد الرومانى للهيكل «المقدس».

أدرك الجميع ولكن بعد فوات الأوان أنهم بصراعهم الدموى على السلطة قد دخلوا جميعا كفئران مخدوعة مصيدة الرومان الذين قام سلطانهم فى الأرض على القوة الغاشمة وحدها وكان القمع بيد من حديد هو أسلوبهم الوحيد فى التعامل مع شعوب المستعمرات المتمردة .

ثم فر «أريستوبولوس» من الأسر وحاول مع أولاده تجميع شرائم الشعب التى تبعثرت للقيام بتمرد مسلح ضد الاحتلال الرومانى ولكن باءت كل المحاولات بالفشل . فى هذا الإضطراب برزت قدرة «انتيباتروس» علي الإمساك بمقاليد الأمور واستطاع أن يظهر بطريقة رائعة ولاءه «الصادق» الشديد للرومان الذين كان يدرك «بحكمته» أنهم هم السادة الجدد الذين يستطيع أن يعتمد عليهم فى تحقيق أحلامه فى السلطة وهكذا تم تعيين «انتيباتروس» مسئولا يبسط سلطانه باسم روما على مساحة من الأرض تضم «يهودا» و«الجليل» بالإضافة الى «أدوم» منطقته الأصلية وأُعْطِيَ صلاحيات واسعة وأُعْفِيَ من الضرائب ومُنِحَ حق المواطنة الرومانية .

تحققت أحلام «انتيباتروس«» فصار السيد الصغير فى المنطقة الذى يحكم باسم «السيد الكبير» الجالس على عرش روما أياً كان أسمه ولكن الشعب اليهودى أحس بأنه قد خُدِعَ وتذمر وبدأ التمرد وخاصة فى «أورشاليم» و«الجليل» وتصالح الشقيقان العَدُوَّان من أجل التحرر من قبضة الروم لكن «انتيباتروس» كان حازما جدا فى قمع التمرد وأظهر ابنه «هيرودوس» وحشية لانظير لها فى القضاء على الثوار دفاعا عن سلطة أبية ومكانتـه وأظهـارا لولائه لروما لأنه هو الآخر كان كأبيه يعشق السلطة ويحلم بالمُلْكِ .

وفى خضم هذه الإضطرابات العنيفة التى اجتاحت الشعب اليهودى والتى كانت بمثابة آخر المحاولات البائسة للفأر للخروج من المصيدة التى إندفع اليها خاطئا فر «هيرودوس» ابن «انتيباتروس» مع عائلته إلى روما واستطاع ان يقنع السادة اعضاء مجلس الشيوخ الرومانى بتعيينه «ملكا» يحكم باسم روما منطقة تبدأ من «آدوم وجبال اليهودية فى الجنوب» وحتى الجليل وبادية الشام (الجولان) فى الشمال .

كان «هيرودوس» كأبيه أحد المتهودين تسربل بالديانة اليهودية لأسباب دنيوية وكأبيه أيضا لم يكن يؤمن إلا بجداراته أن يكون هو «الملك» وقد تحقق له ما يريد لأنه استطاع أن يقنع سادة العالم بمهارته وبأنه عبدهم المخلص المطيع الذى يضمن لهم السيطرة على تلك البقعة المليئة بالأخطار والألغاز .

(٣)

شمعـــة تحتـــرق فى الظلمـــات

(سيعلمون غدا من الكذاب الأشر)

«سورة القمر : ٢٦»

«افتح أبوابك يا لبنان لتأكل النار أرزك»
«ولوّل ياسرو لأن الأرز قد سقط لأن الاعزاء قد هانوا »
«اصرخ يا بلوط باشان لأن الحصن المنيع قد داسته الاقدام»
«سيبكى الرعاة لأن مجدهم قد زال»
«ويزمجر الأشبال متذمرين لأن كبرياء الأردن قد تمرغت فى التراب» (٢٦) .

ربما كانت هذه النبوءة المفزعة هى أصدق تعبير عما أصاب الشعب اليهودى مع غيره من الشعوب التى كانت تسكن أرض «اللبن والعسل» عندما دخلت فى حكم الرومان .

لقد قام مجد «روما» على السيف وكان بطش الجبارين هو طريقتها فى حكم رعاياها من أهل المستعمرات الذين اعتبروا عبيدا لدى السادة الرومان ليس لهم من شرف الا السعى بكل اخلاص فى خدمة «روما المقدسة» .

كان اليهود هم أكثر شعوب المنطقة ذوقاً لمرارة القسوة الرومانية ربما لخطورة موقع أرض «اللبن والعسل» فى قلب العالم القديم حيث تلتقى الطرق التى تربط بين أطراف الأرض المسكونة ومن ثم فقد صارت مركزا لدائرة الأمبراطورية الرومانية ووجب على الرومان ومن يحكم بإسمهم أن يكونوا أكثر حزما فى قمع التمرد والقضاء على الاضطرابات فى تلك البقعة الخطيرة حتى لا تنتشر أنباء العصيان الى الاجزاء

الأخرى خاصة وأن «روما» نفسها كانت تعانى من الفتن الناجمة من الصراع على السلطة ذلك الصراع الذى زادته حدة الثورات العنيفة التى قام بها العبيد فى انحاء متفرقة من الأمبراطورية التى صارت واسعة الارجاء خاصة فى «سوريا وصقلية» .

لقد استطاع حفنة من العبيد أن يروعوا جيوش «روما» العظيمة زهاء سنوات طويلة تزعزع فيها الاستقرار فى «العاصمة المقدسة» نفسها وأوشكت شراذم من «الرعاع الأوباش» أن يمرغوا كبرياء السادة فى التراب. لقد جُرحت الكرامة الرومانية التى تشمخ بأنفها الى السماء جروحا عميقة ومهينة حتى استطاعت أن تقضى على تمرد العبيد لم يدخل «بومباى» (بومبيوس) «أورشاليم» فاتحا إلاَّ بعد أن نجح فى إخماد ثورة «سبارتكوس» .

وكانت حينئذ الأحداث المريرة ما تزال حية فى الأذهان ويتردد صداها بعنف فى القلوب التى اشتهت بكل قوتها أن تسترد «روما العظيمة» مهابتها فى أعين عبيدها .

فكُتِبَ على اليهود أن يكونوا ضمن «الدواء» الذى تعالج به «روما» جراح كرامتها وربما لأن اليهود شعب غليظ الرقبة أعطى دوما كتفا معاندة لأنبيائه وحكامه الصالحين أو الفاسدين على السواء فظلت الفتن تشتعل على طول تاريخه الذى تعالت فيه صرخات الآلم والغضب وفاضت منه الدماء . فلم يقع الفتح الرومانى «لأورشاليم» إلا فى سياق فتنة عمياء اشتعل فيها الصراع الدموى على السلطة بين شقيقين من أب واحد وأم واحدة وبين طائفتين تنتميان لشعب واحد يقول عن نفسه أنه شعب «الله» المختار .

وكان الداهية العجوز «انتيباتروس» يشعل الصراع ويزيده احتداما كلما خبا لأن ذلك كان طريقه للوثوب على السلطة التى اشتهاها بكل قلبه وعرف أن الطريق اليها لابد أن يمر «بروما» فخطب ودها وخضع لها فخدعت الشقيقين المتصارعين اللذين من غبائهما احتكما إليها فأعطت السلطة «لانتيباتروس» و«المُلْكَ» لأبنه «هيرودوس» من بعده.

وربما لأن قلوب اليهود كانت تميل بهواها الى «الفُرْسِ» أعداء «الرومان» التاريخيين الذين ظلوا القوة الوحيدة التى فى مقدورها أن تقف أمام تطلعات روما . لقد احتدم الصراع بين القوتين الكبيرتين أزمانا متطاولة تبادل فيها الطرفان المتصارعان كئوس الهزيمة والانتصار ومن ثم فقد أدرك «الرومان» أنَّ عليهم أن يعطوا اليهود كمية كافية من «الدواء» حتى يشفوهم من «الهَوَى» القديم لأهل «فارس» فيكون عليهم أن يفكروا ألف مرة قبل اللجوء إلى «العدو» الفارسى .

كان دخول «الرومان» أرض «اللبن والعسل» كارثة شديدة الوطأة على الشعب اليهودى بعثرته أشلاء ممزقة وأدخلت أمة «بنى أسرائيل» فى غيابة الاحتضار .

وكان البطش الشديد الذى أعقب الفتح حاسما فى القضاء على كل أمل فى خلاص سريع فابتدأت القلوب التى انهكها البحث عن «الفردوس المفقود» تشرب يوما بعد يوم كأس اليأس من عودة المجد الغابر لقد شاخت الأمة وأدركت أن المجد الذى ضاع لن يعود لأن الزمن يأبى أن يرجع فاستسلمت ساخطةً للقضاء المحتوم .

أرسل «بومباى» بمشورة «انتيباتروس» حملة عسكرية من قاعدته فى «دمشق» الى «أورشاليم» تحت دعوى تأديب «أريستوبولوس» المغتصب وأعادة الحق الشرعى «لهيركانوس» الذى تم تنصيبه رئيسا على اليهود وكاهنا أكبر .

ولقد أعتبر الفريسيون هذا الانتصار الرومانى فوزا لهم على اعدائهم الصدوقيين أصحاب «أريستوبولوس» وظنوا أن اللحظة المنتظرة قد حانت ليتولوا فيها مقاليد الأمور فى المملكة اليهودية تحت رئاسة «هيركانوس» ورعاية الرومان .

لكن دعوة الفريسيين الى المحافظة على تقاليد الشعب المقدسة واقامة الدولة اليهودية على أسس دينية تستقى قوانينها ونظمها من التوراة ووصايا الأنبياء هذه الدعوة ما كانت لتروق للسادة الرومان ولا لمن يحكم باسمهم ولذلك فسرعان ما أظهروا

ضيقهم بصديقهم «هيركانوس» وأنصاره الفريسيين فسلبوه لقب الكاهن الأكبر وأخذوا يُقلِصّون سلطاته وأُعْطيت السلطة الفعلية للعجوز «انتيباتروس» الأدومى المتهود وحينئذ فقط أدرك الأخوان العدوان أنهما قد وقعا ضحية لخداع «روما» وتصالحا بعدما أدركا خطأهما القاتل وحاولا تجميع الشعب وقيادة التمرد فانتشرت الاضطرابات التى تعبر عن التذمر الذى اجتاح الشعب اليهودى كله ولكن كان ذلك دون جدوى فقد جاء الرومان ليبقوا طويلا ويستكملوا تتويجهم ملوكا على العالم .

كان «انتيباتروس» يدرك أن «روما المقدسة» هى التى صارت تمنح شارة المُلْك وتعطى المجد لخدامها المخلصين فعمل على توثيق علاقته بالجالس على عرش «روما» أياً كان اسمه فأيد بكل «إخلاص» «بومباى» (بومبيوس) ثم نقل ولاءه بسهولة الى «يوليوس قيصر» وعمل كل جهده ليكسب وده لما أدرك أن «قيصر» قد استتب له الأمر(٢٧) .

وعلى طريق الأب سار الابن المتعطش إلى السلطة مثل أبيه . فشد رحاله الى «روما» مع عائلته هاربا من الإضطرابات التى اجتاحت الشعب اليهودى وعاد منها حاملا لقب «المَلِك» ونقل ولاءه من «أنطونيوس» (انطونيو) الى «أوكتافيانوس» (اوكتافيوس)(٢٨) .لما مالت «الكفة» الى صالح الأخير واستطاع فى مهارة السياسى المحنك اقناعه بأنه عبد «مخلص» له «ولروما المقدسة» فتمكن من أن يظفر من «أوكتافيانوس» بلقب «ملك حليف وصديق للشعب الرومانى» وأُعْطِي صلاحيات واسعة تفوق ما أُعطِي لغيره من حكام الولايات الذين يحكمون باسم «روما»(٢٩) لأن القائمين على الأمر فى «روما» رأوا أنهُ من الأفضل لهم ترك الأمر فى هذه البقعة الغامضة التى تفيض بالاضطرابات وتموج بالأسرار التى تستعصي على الفهم وتحير السادة الرومان لواحد من أهلها يطلقون يده ليديرها ويبقيها خاضعة لروما مع وضعه تحت المراقبة والسيطرة .

لذلك سمحوا «للملك هيرودوس» أن يُكَوِّن جيشا خاصا يخضع له مباشرة بالاضافة الى القوات الرومانية الكبيرة نسبيا التى كانوا يحتفظون بها فى «أورشاليم» وكبريات المدن خاصة فى منطقة الجليل وعلى الأخص فى «كفر ناحوم» وذلك لأنهم اقتنعوا بأن «هيرودوس» يجب أن يكون قادرا على مواجهة الموقف فى حزم بقوة عسكرية تخضع له مباشرة إن اندلعت الاضطرابات ومن الناحية الأخرى فان «هيرودوس» كان يرى فى وجود جيش خاص به أمر ضروري وجوهرى لاستكمال أبهة الملوك اذ كان يطمع فى تكوين مملكة عظيمة .

نظم «هيرودوس» جيشه على الطريقة الهيلينية وأعطى ضباطه وجنوده رواتب كبيرة وميزات مالية واجتماعية ليضمن ولاءهم الشخصى(٣٠) له وحرص علي أن يكون أغلب جيشه من «الأدوميين» شعبه الذى نشأ فيه بالاضافة الى بعض ابناء الشعوب الاخرى مع قليل من اليهود الذين ضمهم الى جيشه ليقنعهم أنهم ضمن «رعاياه» ويذكرهم بأنه قد اعتنق مع شعبه الديانة اليهودية ولكنه إستمر يتبادل مع اليهود «الارتياب» اذ أنهم ظلوا ينظرون اليه كغريب «متهود» أستطاع أن يقفز على العرش بطريق الخداع وظل من ناحيته ينظر اليهم كرعايا متمردين لا يقبلون تملكه عليهم إلا صاغرين فهو بالنسبة إليهم كالرومان ليس إلاً قدرا محتوما لا يملكون الى دفعه عنهم سبيلا .

منع الرومان «هيرودوس» من أن يصدر عملة خاصة أو أن يعقد المعاهدات والمواثيق مع الملوك الأجانب لأن ذلك كان يعنى أنه قد صار ملكا حقيقيا وهو أمر لم يكن الرومان مستعدين لقبوله ولاشك أنهم كانوا يذكرون أن بدء تدخلهم في شأن اليهود وقع عندما عقد ملوك «الحشمونائيم» معهم عهودا واتفاقات عسكرية يضمن بها الحشمونائيم مساندة ودعم الرومان ضد السلوقيين ولذلك كان لابد من كبح جماح

«هيرودوس» حتى لا يتطلع الى أن يصير ملكا حقيقيا أما فيما عدا ذلك فكان الرومان مستعدين لإطلاق يد «هيرودوس» ليفعل ما يشاء طالما أنه يخضع للسيادة الرومانية .

وفى حدود الصلاحيات الكبيرة التى أُعْطِيت «لهيرودوس» كان بوسعه ان يصدر القوانين الخاصة التى تنظم العمل في «مملكته» وأن ينشأ الجهاز الادارى المركزى الذى يضمن به السيطرة على البلاد وأن يفرض الضرائب التى تمكنه من تمويل المشروعات الضخمة التى كان يرغب فى انشائها . لقد كان يطمح إلى تأسيس دولة قوية تقوم على أسس دنيوية وكان الرومان هم مثله الأعلى والنمط الهيلينى هو القدوة التى يحتذيها فأهتم بتقوية جيشه وضمان ولائه له وأقام المستوطنات الزراعية لتعمير الأراضى الصحراوية ووزعها على جنوده والزمهم بالدفاع عنها ضد غارات البدو واللصوص وعمل على تنشيط التجارة بتوسيع المدن وتأمين الطرق .

إلاَّ أنَّ جهده الكبير كان فى البناء اذ حاول اقامة نهضة معمارية فشيد الحصون المنيعة فى المدن المختلفة وبنى الأبراج حول سور «أورشاليم» وأنشأ ملعبا رياضيا كبيرا ومسرحا فخما وقصرا محصنا له كان آية فى الفخامة والقوة والجمال(٣١) .

ولقد لقيت الاتجاهات الدنيوية عند «هيرودوس» قبولا عظيما فى قلوب الصدوقيين فأسرعوا يتقربون إليه يحاولون اغتنام الفرص الكثيرة التى تتيحها طموحاته وتناسوا فى بساطة أنه وأباه قد صعدا إلى سدة الحكم بفضل الرومان الذين جاءوا لتأديب «أريستوبولوس» وأنصاره «الصدوقيين» . إن الدنيا كما تُفَرِّق تُجَمِّع ولذلك رحب «هيرودوس» بهذا التقرب وشجعهم على المزيد لأنه كان يحتاج لحزب يؤيده وقاعدة يستند اليها فى حكمه إذ كان يدرك أن الشعب ظل ينظر إليه كمغتصب للسلطة من أصحابها الحشمونائيم الذين لم يدخر «هيرودوس» وُسْعَاً فى القضاء عليهم واستئصالهم حتى لا يبقى أحد منهم يمكنه منافسته على الحكم إلا أنه لم يستطع القضاء على «إيمان» الشعب بأحقية الحشمونائيم بالحكم .

وكان إنقلاب العلاقة بين «هيرودوس» وسادته «الرومان» من ناحية والصدوقيين من الناحية الأخرى من العداء الشديد الذى بلغ درجة القتال الى الحب الشديد هذا الإنقلاب خيب آمال الفريسيين فى السلطة وأصابهم بغيظ شديد يشبه الجنون فهذه هى المرة الثانية التى يُلْدَغُون فيها من نَفْسِ الجُحْرِ اذ عندما قامت الثورة الحشمونائية توهموا أنَّ السلطة ستؤول لهم ولكن سرعان ما خاب أملهم اذ انقلب عليهم الزعماء الحشمونائيم وقربوا أعداءهم الصدوقيين . وها هم الرومان «وهيرودوس» يكررون نفس القصة معهم اذ أصبح «هيرودوس» يضيق بهم وبأفكارهم البالية ويقرب إليه الصدوقيين ويعطيهم الفرص والمناصب فأصبح الصدوقيون هم أصحاب السلطة فى الشعب حتى أن العدد الأكبر من الكهنة فى الهيكل صار صدوقيا وأصبح منصب الكاهن الأكبر من نصيب أحد الكهنة الصدوقيين وأمسى الفريسيون مستبعدين وهم الذين كانوا يظنون أن دولتهم قد جاءت مع الرومان .

وابتدأ الفريسيون يُنَفِسُّون عن غيظهم لضياع السلطة منهم بتهييج الشعب ضد «هيرودوس» وسادته الرومان فأذاعوا أنه قد أغتصب المُلك من أصحابه الشرعيين عائلة «الحشمونائيم» كأنهم لم يكتشفوا هذا إلاَّ أخيراً. وأنه يَخْضَع للرومان «الكفرة» ويتشبه بهم فى معيشته ولا يحترم تقاليد الشعب «المقدسة» ولا يتقيد بالشريعة ولا يحترم التوراة وأنه يسعى الى اقامة مملكة دنيوية تخالف ما يريده «الله» من شعبه وأخذت الصراعات تشتد مرة أخرى بين الفريسيين على جانب و «هيرودوس» والصدوقيين على الجانب الاخر فأخذ «المَلِكُ» يضطهدهم .

لم تكن إدعاءاتهم إلاَّ غطاء يسترون به شهوتهم غير المُشْبَعَة الى السلطة وكان أكثرهم مستعدين للتوافق والرضى لو إنهم أُعْطُوا بعض ما كانوا يرون أنه حقهم لكن الشعب كان يتأثر بما يقولون لأنهم ظلوا فى نظره رجال «الله» المتمسكين بالشريعة المحافظين على تقاليد الآباء وفى هذا النفوذ «الروحى» لهم عند الشعب كان يكمن خطرهم بالنسبة لصاحب السلطة وبهذا كان يمكنهم ابتزازه .

طائفة صغيرة منهم أخذت هذه الادعاءات مأخذ الجد فأعلنت حربا «مقدسة» ضد «روما» ومن يواليها ولكن «هيرودوس» والسادة الرومان لم يقصروا فى قمع التمرد. بكل قوة فخمدت الثورة فى القلوب حتى ماتت فلم يبق منها الا الإدعاءات الفارغة .

إن المجد الذى يقوم على «السيف» يتكلف أموالا كثيرة ولذلك كان لابد للسلطات الرومانية أن تفرض «الجزية» على الشعوب التى وقعت تحت الاحتلال الرومانى وظلت تزيد من مقدار هذه الضريبة التى تُفْرَض لقيام الدولة الراعية بحماية نفوس رعاياها وهى تعد علامة الخضوع «الرسمية» من جانب الرعايا لسيادة الدولة وكان الرومان يفرضونها بطريقة «الإلتزام العام» حيث تتفق السلطات الحاكمة مع أحد الشخصيات أو العائلات للقيام بتحصيل هذه الضريبة من منطقة معينة ويتعهد الملتزم بتوريد مبلغ معين من المال وفى المقابل تقوم السلطة بأمداده بالقوة العسكرية والحماية اللازمة لقيامه بمهمته وتطلق يده ليفعل ما يشاء طالما يظل قادرا على الوفاء «بالتزامه» .

وبالطبع فإن الشخص أو العائلة صاحبة الالتزام كانت تقوم بتجنيد طائفة من الناس لجباية الضرائب من الشعب مقابل أجر معلوم. هكذا عرفت طرق أرض «اللبن والعسل» طائفة «العشّارين». الرجال الذين كانوا يطوفون فى الأسواق ويمرون على البيوت والمحلات التجارية بصحبة الجنود المدججين بالسلاح ويطلبون من الناس المال المفروض كان حضور الجنود وهم يحملون السلاح ضرورياً لمنع الناس من التفكير فى الاعتراض أو التهور برفض الدفع واكتسبت شخصية «العشّار» أو «جابى الجزية» كراهية شديدة فى قلوب الناس حتى أنه أمسى فى ضمير الشعب هو رمز الشر أو «الشيطان» صار مثلاً للإنسان الخاطئ. ولاشك أن «الملتزم العام» كان يُحْسِن إختيار «عشاريه» من حثالة الشعب فينتقى الأفراد ذوى الأخلاق السيئة والميول العدوانية المستعدين لعمل أى شئ فى سبيل جمع المال لأنه بهؤلاء الأراذل يستطيع جمع المال الكافى لتوريد «الجزية» المفروضة وإعطاء رواتب لهؤلاء الجباة والإحتفاظ لنفسه بنصيب

يضـمن به الحـيـاة الرغـدة ويسـتطيع أنْ يشـتـرى رضـاء الوالى أو «الملك» والسلطات الرومانية ليظل فى منصب «الملتزم» الذى يدر عليه دخلا كبيرا. ثم أصبح مفروضا على الشعب أن يقدم للجنود الرومانيين المصاحبين للجباة (العشّارين) الوجبات الغذائية التى سماها الشعب على سبيل السخرية «العلائف» وبهذه «العلائف» استطاعت «روما» ان تتخفف من بعض اعبائها المالية لأن الانفاق على هذا الجم الغفير من الجنود خاصة مع كثرة الاضطرابات والحروب كان يثقل كاهل الأمبراطورية واسعة الارجاء . لقد حولت هذه «العلائف» جنود «روما» إلى مرتزقة يأكلون طعامهم من القوت الضرورى للشعوب المغلوبة على أمرها .

ومع صعود الأباطرة المتألهين على العرش فى «روما» منذ «يوليوس قيصر» الذين لم يعودوا يكتفون بسرقة الأموال المنهوبة من أقوات الشعوب الفقيرة بل صاروا يتطلعون مثل «ابليس» إلى سرقة مجد «الله» زادت النفقات لأن المجد الزائف للمتألهين الأرضيين يتطلب أموالا طائلة وكان على الفقراء من رعايا الدولة فى المستعمرات أن يدفعوها من أقواتهم ودمائهم وبذلك زادت الأثقال الملقاة على ظهر الشعوب الخاضعة لسلطة روما وزاد من وطأتها على الشعب اليهودى فى أرض «اللبن والعسل» طموحات «هيرودوس» المتطلع الى تأسيس مملكة عظيمة وهو ما يعنى فرض ضرائب اضافية اعطته «روما» صلاحيات فرضها. هكذا ناء ظهر الشعب اليهودى الذى طال انحناؤه لغير «الله» بأثقاله التى أخذت تتزايد يوما بعد يوم فالجنود أصبحوا لا يكتفون «بالعلائف» والعشارين لا يكتفون بالنصيب المفروض اذ صار كل صاحب سلطة يختلس قدرا. من المال بقدر سلطته حتى تنتهى الأموال المسروقة إلى يد السارق الأعظم الجالس على عرش «النسر» فى «روما» .

في هذه المظالم المتراكمة أمسى «المال» هو الآله المعبود من دون «الله» وأصبح كل واحد يلهث وراء «الصنم» يريد جمعه والاستحواذ عليه وفى هذا السباق المحموم

نزل «الكهنة» من الهيكل الى السوق يتنافسون أمسوا تجارا جشعين بضاعتهم «كلام الله» صار منهم التجار الذين يعملون فى تجارة المواشى والطيور التى تقدم كقرابين للإله فى مذبح الهيكل طلبا للغفران أو وفاء بالنذور أو فداء للمواليد الذكران فاتحى الأرحام وفى هذه التجارة تصبح الخطايا والنذور كنز لا يفنى فكلما زادت الخطايا وأشتدت الحاجة الى المغفرة وكلما تكاثرت الرغبات وأصبحت النذور ضرورية للظفر بها كلما زادت ثروة الكهنة «التجار» .

وبارتفاع مكانة المال فى القلوب حتى يصير هو حقيقة الأشياء يكون من المحتوم أن تزداد الفجوة بين الفقراء والاغنياء ويزداد الإحساس بها ومن ثم تشتد حاجة الفقراء الى المال ويحتاجون الى «القروض» وحينئذ لا يمانع الاغنياء فى «بيع» أموالهم الى الفقراء قروضا مقابل ربح معلوم هكذا ولد «الربا» الذى قالوا عنه أنه مثل «البيع» لأنه بيع للأموال حيث يُمْكِن النظر إلى الأشياء على أنها مال متنكر فى صورة أخرى إذ يمكنك أنْ تبادل بالمال أى شئ تريده ولذلك فإنك عندما تقرض شخصاً ما مالاً فأنت فى «الحقيقة» تبيعه «الشئ» الذى يريد الحصول عليه بمالك فما الذى يمنعك من الربح من بيعك ؟ إنشأ الربا فى المعاملات وانتشر الفساد بين الناس وتقطعت الأرحام .

فى هذه الظلمات ابتعث «روح الله» «زكريا» مصباحاً ينير للشعب طريقه للخلاص لقد بوغت اليهود بانقلاب «الرومان» عليهم فعندما استتب الأمر فى أرض «اللبن والعسل» «لروما» خلعت القناع عن وجهها القبيح وكشرت عن انيابها .

كان ذلك صدمة للشعب كله خاصه «الفريسيين» الذين كانوا يستبشرون فهرو ل الشعب الى الهيكل يتضرع الى «الله» ويصرخ باكيا ونصحه القادة الفريسيون بالصوم والكهنة بتقديم القرابين أما «زكريا» النبى فقد وقف ساخرا منهم ممزقا بسيف لسانه قناع توبتهم الزائفة .

قال : «إن صمتم وبكيتم فهل تفعلون ذلك من أجل الله» ؟!

«كلا

بل من أجل أنفسكم

وإن أكلتم وشربتم مسرورين أفليس أنتم الآكلون الشاربون فى سرور أم الله ؟

أليس هذا هو كلام الأنبياء من قبلى

أليس هذا هو كلام الله الذى نطقت به الرسل

لا أقول لكم إلا ما قاله الأنبياء من قبلى لآبائكم حتى عندما كانت «أورشاليم» مسترخية فى مجدها تتقلب فى النعيم والمدن والقرى من حولها تضج بالبهجة»(٣٢) .

كانت موعظته تخالف ما يقوله الشيوخ الفريسيون والكهنة الذين يأمرونهم بالصدقة وتقديم القرابين لعل «الله» يرفع عنهم الكارثة التى حاقت بهم أما هو فيسخر من صومهم وقرابينهم ويستهزئ بالشيوخ والكهنة رغم أنه واحد من الكهنة فى فرقة «أبيا» .

إنهم لم يذهبوا إلى الهيكل ضارعين عازمين على الصوم يقدمون القرابين لأنهم ندموا على خطاياهم وعزموا على اصلاح أنفسهم معترفين أن عقوبة «الله» لهم عادلة كلاً بل كانوا يشعرون أن «الله» قد ظلمهم فأجرى عليهم أقداراً قاسية وعاملهم بشدة لا يستحقونها إنهم شعبه المختار وأبناؤه فكيف يسمح بإهانتهم على يد الغرباء على هذا النحو المرزى وكيف يرضى بمذلتهم. لسان قلوبهم يقول فى صمت «يالَكَ مِنْ إلهٍ قاسٍ لا يرحم أنزلت بنا عقابا لا معنى له»، وهم بقرابينهم وصومهم يحاولون إسترضاءه لعله يرفع عنهم الظلم البين الذى حَكَمَ به عليهم .

لذلك سخر منهم «زكريا» فى موعظته أما الكهنة زملاء «زكريا» والفريسيون فقد مقتوا «زكريا» الذى يهينهم أمام الشعب وأتهموه بأنه يستهزئ بشريعة «الله» التى

نصت على الصوم وأمرت بتقديم القرابين ودعوا الشعب الى عدم الاستماع الى هذا المجنون الذى يجدف على «الله» وشعبه المختار .

لكن أحوالهم ازدادت سوءاً لأن السلطة زادت من بطشها و«العشّارون» زادوا من جورهم وجشعهم ثم أمسكت السماء ماءها ومنعت الأرض غلتها وكان ذلك آيةً بينةً على غضب «الله» عليهم كما يقول «زكريا» ولم يستطع الكهنة والشيوخ شيئاً فهرول الناس الى السحرة والمنجمين والعرافين الذين يَدَّعُون علم الغيب ومعرفة الأسرار لعلهم يجدون طريقا للخلاص من هذه الكوارث المتتابعة التى أخذت تحيط بهم من كل جانب كانوا يرغبون فى فك رباط «النحس» الذى يضيق عليهم الخناق أما «زكريا» فلم يستطع أن يمسك لسانه وهو يرى هذا الكفر الصريح فقام يوبخهم .

«أيها الناس ..

«حين يتأخر عنكم المطر فأطلبوه من «الله» لأن «الله» وحده هو الذى يستطيع أن ينزل الماء من السماء أما العَرَّافُون والسحرة والمنجمون فإنهم لا يرون إلا الباطل ولا يحدثونكم إلا بالأكاذيب ويعزونكم بأوهام لن تتحقق (٣٣) .

«إن آمنتم واتقيتم ربكم فإنه قادرٌ على أن يجعل السماء تفيض عليكم بمائها والأرض بثمراتها وإذا كنتم اليوم أذلة فى الأرض ولعنة بين الأمم فإن «الله» قادرٌ على أن يخلصكم من الذل ويباركم في الأمم فاتقوا «الله» وارجعوا الى كتابه حتى تكونوا بالحق شعب «الله» ويكون «الله» بالحق هو آلهكم (٣٤) .

م على كتاب «الله»». لكن السامعون لم يستمعوا

.كاذيب هذا الرجل الذى يتهم شعب «الله» بالكفر

الى الإيمان والتقوى ألسنا المؤمنون المتقون ؟

أنصرف الشعب عن «زكريا» وأمسى الكهنة والكتبة يدبرون للخلاص منه لأنه يستهزئ بهم أمام الناس أخذوا يشوشون عليه كلما وقف ليعظ الناس فى الهيكل أو خارجه ويجادلونه لصرف الناس عنه فأصبح يشعر أنه غريب وسط أهله .

كان «زكريا» يؤمن أنّ بنى اسرائيل أمة صنعها كلام «الله» وقامت على الأرض لتحمل رسالة «الله» إلى الناس فلا حياة لها إلاّ بحمل كلام «الله» وحفظ شريعته وأنّ الكهنة باعتبارهم رجال الهيكل ينبغي أن يكونوا قادة الشعب فى طريق الخلاص لذلك توجه الى الكهنة زملائه يريد نصحهم لأن منهم يجب أن يبدا الإصلاح .

«أيها الكهنة إصدعوا بالحق ولا تدنسوا كلام «الله» بالأباطيل» لكنهم كانوا يضمرون له الشر ويدبرون للخلاص منه كانوا يريدون قطع لسانه الذى لا يتوقف عن الاستهزاء بهم فقال لهم ناصحاً «إصنعوا السلام فيما بينكم ولا ينتوى أحدٌ فى قلبه شراً لإخيه ولا يدبر أحدنا سوءاً لأخيه أليس هذا هو طريق الخلاص الذى نطق به «الله» على لسان جميع مرسليه» (٣٥) لكنهم لم يروا فيه إلاّ رجلاً يريد أن يتفضل عليهم يحط من مكانتهم فى أعين الناس ليرتفع فوقهم. كانت حياته الخشنة الزاهدة فى متع الدنيا تحقيراً صامتاً ولكنه مبينٌ لإسرافهم فى طلب الدنيا ولهاثهم فى السباق المحموم لجمع المال .

ويئس «زكريا» من إصلاح الكهنة فاتجه الى الناس ينادى عليهم محاولاً إخراجهم من الظلمات التى يتوغلون فيها .

«يا بنى اسرائيل إمضوا الحق توبوا إلى بارئكم وأحسنوا أعمالكم ليرحم كل واحد منا أخاه» .

«لماذا يغدر أحدنا بأخيه ويخفى له في قلبه شرا» «لا تظلموا الأرملة واليتيم

والفـقـيـر ولا تصـدوا الغـريب لا تكونوا مـثل أبآئكم الذين طرحـوا كـتـاب «الله» وراء ظهورهم وأصموا آذانهم حتى عميت قلوبهم وقست» (٣٦) .

«حتى إذا حَلَّ عليهم غضب من ربهم أخذوا يصرخون ويبكون متضرعين فلم يسمع «الله» لدعائهم ولم يلتفت الى مذلتهم أو ينظر الى دموعهم كما لم يسمعوا لدعائه ولم يجيبوا نداءه» (٣٧) .

«أحذروا أن يغضب «الله» عليكم فيعصف بكم ويذروكم كالغبار بين الأمم التى تحتقركم وتدوسكم بأقدامها وينالكم حينئذ خزى عظيم » .

«أيها السامعون لتتشدد أيديكم على كتاب «الله» فى هذه الأيام العسيرة هذا هو طريق النجاة الذى أشار إليه وسار عليه كل الأنبياء منذ أُسِس هذا الهيكل أول مرة بل منذ خلق «الله» السماوات والأرض » .

«توبوا عن الكذب وأطرحوا اليمين الزور التى تلقى بكم الى جهنم وأعلموا أن «الله» قادر على أن ينجيكم من هذه ومن كل كرب كما أنجاكم من قبل من فرعون فى أيام أبائكم فى مصر » (٣٨) .

لكن القطيع الهائج لم يستمع إلى الموعظة لأن القادة من الفريسيين والكهنة قالوا عن «زكريا» أنه نذير شؤم لا يتنبأ إلاَّ بالسوء وتوعدوه بقطع لسانه الذى لا يكف عن السباب .

ورغم الصوم والذبائح والصلوات لم تتحسن الأحوال بل أخذت تزداد سوءا حتى أن الكثيرين أخذوا يجأرون «أين إله العدل»

« بم نفعتنا الصلوات ؟ وبماذا عاد علينا البكاء فى الهيكل وحفظ الشريعة انظروا إلى «الرومان» المستكبرين إنهم لا يفعلون إلَّا الشر ولكنهم يرتفعون. أدآروا «لله» ظهورهم وينجحون فى كل أعمالهم يجب علينا أن نباركهم ونقتدى بهم ».

أما «زكريا» فكلما أمعن النظر فى المصير الرهيب الذي يتربص بقومه إن ظلوا على كفرهم وعنادهم أخذته الرحمة فصرخ فيهم «يا بنى اسرائيل» يقول «الله» لكم ارجعوا إلىَّ أرجع إليكم ولا تكونوا مثل آبائكم الذى ناداهم الأنبياء من قبلى فصموا وعموا» [٣٩] . يابنى اسرائيل «اتركوا سبيل الشيطان وتوبوا إلى بارئكم وأطرحوا عنكم أعمالكم السيئة إنَّ آباءكم لم يسمعوا فغضب «الله» عليهم غضباً شديداً فلا تكونوا مثلهم إسألوا أنفسكم أين ذهب أباؤكم الذين لعنهم الله فجعل منهم القردة والخنازير ؟ لا تقولوا أن «الله» يرحمنا لأن بيته عندنا وفينا أنبياؤه فلن يسمح بعذابنا ألَم تكن الأنبياء فى آبائكم الذين لعنهم «الله» فمسخهم قردة » .

«ألم يتحطم الهيكل الذى بناه سليمان وداسه الكفار بخيولهم وأحذيتهم ألم تكن فرائض «الله» ومواعظ الأنبياء مع آبائكم الذين أهلكهم «الله» بذنوبهم فأحذروا أن يفعل بكم كما فعل بأبائكم» .

«أتظنون أن الأنبياء يبقون فيكم إلى الأبد ؟

«لا تخدعوا أنفسكم وتستسلموا الى الأوهام »

«واحذروا فإن «الله» يوشك أن ينزعكم من رحمته ».

كان صوته يعلو ويرتجف مثل شمعة تتوهج فى ظلام دامس لكن الكهنة صرخوا «أخرسوا هذا المجنون الذى يجدف على شعب «الله». «إنه كاذب قد حرمه «الله» من البركة. ليس له ذرية تحمل إسمه. لو كان صادقا لباركه «الله» وأعطاه الأبناء كما أعطى «إبراهيم» آبانا إنه كاذب ملعون وسوف ينساه الناس بعد حين» «إقطعوا لسانه الذى لا يتكلم الا بالشر» .

ذَبَحَتْ هذه الكلمات القاسية قلبه الطاهر البرئ فانسحب فى هدوء قبل أن يفتك به

الغوغاء الذين اشتعلت فى قلوبهم حمية الجاهلية سار وحيدا وقد أطرق الى الأرض وأثقلت قلبه الأحزان .

ماذا تفعل شمعة وحيدة مهما توجهت فى ظلمات متراكمة يعلو بعضها فوق بعض؟ ليس أمامها ألا أن تذوى وتذوب حتى تختفى .

(٤)

« النذر المحرر »

﴿ رب إني نذرتُ لكَ ما في بطني محررا ﴾

«سورة آل عمران : ٣٥»

وأمسى «زكريا» غريبا فى قومه .

لم يكن «الكهنة» زملاؤه فى الهيكل يحبونه أو حتى يطيقون صحبته. صار أغلبهم «دنيويين» لا يهتمون إلاَّ بجمع المال ويتنافسون فى استرضاء الملك والسادة الرومان طمعا فى الذهب وخوفا من السيف وأنحدرت كثرتهم إلى الجهل حتى بالنصوص فصاروا مثل «الأميين» لا يعلمون ماذا تقول الكتب وضاعت سدى كل محاولاته فى انتشالهم من الهاوية التى سقطوا فيها. حاول كثيراً أنْ يذكّرهم أنهم قادة الشعب الذين يرثون «الأنبياء» وعلى عاتقهم ألقى «الله» قيادة الأمة فى طريق النجاة. لم يكونوا يكرهونه فقط بسبب لسانه الحاد الذى لا يكف عن إهانتهم خاصة أمام الشعب بل أيضا بسبب حياته الخشنة التى كانت تدين إسرافهم حتى لو لم يتكلم. لم يكن فى نظرهم أكثر من «راعى غنم» ونجار فقير خشن الطباع تصعب معاشرته فهو غير قادر على الحياة فى مدينة متحضرة مثل «أورشاليم». كانت حياته تذكرهم بمعيشة «الآباء» أيام البداوة التى صاروا ينفرون منها وهم يتطلعون إلى «روما المقدسة» ويتذكرون «أورشاليم المقدسة» أيام «سليمان» الملك العظيم. لقد صار أكثر الكهنة «صدوقيين» لا يؤمنون بالآخرة وفشا المذهب «الصدوقى» فى أبناء الكهنة الذين هم كهنة المستقبل فلم يجد «زكريا» لنفسه مكانا وسطهم فصار لا يذهب إلى الهيكل إلاَّ فى أيام نوبة فرقته للخدمة .

ولم يكن شيوخ «الفريسيين» أقل كراهية له من الكهنة رغم أنهم كانوا يتخذون موقف المعارضة من السلطة الرومانية والملك ويدعون الى التمسك بتراث الشعب «المقدس» والمحافظة على تقاليد الآباء لكنهم ـ فى الحقيقة ـ لم يكونوا أقل «دنيوية» من «الصدوقيين» فكانوا رغم الإدعاءات العريضة الفارغة أكثر حرصاً على متاع الدنيا «التافه» إلاّ أنّ الوجاهة عند الناس التى تشبع كبرياءهم كانت هى مركز الثقل فى قلوبهم فى مقابل «المال» الذى صار «المحراب» الذى تحوم حوله قلوب الكهنة .

أما «الآسيُون» أصحاب الطب الروحانى الذين آمنوا بكتب «موسى» الخمسة ورفضوا كل الأنبياء الآخرين فإنهم بالطبع لم يؤمنوا «بزكريا» ولا بغيره ولم يحترموا فى الحقيقة شيئا إلاّ كتبهم «وطقوسهم» التى تتحدث عن أمراض النفس وعلاجها . لقد آمنوا بخلود النفس البشرية ولكنهم كالصدوقيين رفضوا رفضا قاطعا البعث والقيامة .

لم يجد «زكريا» لنفسه موضعا وسط كل هذه الطوائف المتناحرة وحاول أن يبلغ «رسالته» إلى الشعب ولكن الشعب لم يؤمن به لأنه رأى أنّ جميع قادته يرفضون نبوة «زكريا» ويصمونه بالكذب والخبل والسفاهة وكان فقره وضعفه وحرمانه من الذرية براهين «كافية» لإثبات أنّ «الله» الذى صار «إله اسرائيل ورب الجنود » غير راضٍ عنه لأنه لو كان راضيا عنه لمنحه الثراء الواسع والذرية الكبيرة وجعله ملكا عظيما مثل «داود» أو «سليمان». انصرف الشعب عن «زكريا» خاصة وأنّ مواعظة كانت «ثقيلة» تتحدث عن الخطايا والتوبة ونبوءاته كانت مخيفة وكريهة لا تتحدث إلاّ عن الشر القادم.

وصار «زكريا» شيخاً طاعناً فى السن مسته يد «الزمن» فتركت على جسده الواهن آثارها أبيض شعره وضمر عوده وأصبح يمشى مستنداً على عصاته يتدبر آيات الله وقد تلألأ وجهه الشاحب بلحيته البيضاء وتاج المشيب يتوهج على رأسه .

رفضت أمرأة «عمران» أن تسمى ما فى بطنها لأنها ظنت أنه ربما يكون نبياً «والله» هو الذى يسمى أنبياءه فانتظرت أن يُلْهِمها «الله» إسم إبنها المنتظر أو أن

يوحى لأحد مختاريه بالإسم ولكن طال انتظارها ولم تظفر بشئ وأخذت اللحظة المنتظرة تقترب ولم يعد يشغلها إلَّا أن تنجو من التجربة العسيرة التى أوشكت أن تدخل فى غمارها فنذرت «لله» إن أنجاها وأبنها أن تجعله خادما «لله» فى «الهيكل» يقضى حياته فى عبادة «الله» لا تريد أن تنتفع منه بشئ فى معيشتها فقد وهبته «لله» خالصا قالت **«رب أنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى أنك انت السميع العليم»** (٤٠).

أضرع إليك «آلهى» أن تتكرم بقبول هديتى التى وهبتنى أنت أياها ، فاجعل مولودى عبداً خالصاً لك لا أريد منه نفعا دنيويا إنك أنت الذى تسمع الأصوات كلها تصغى إلى همس من يدعوك بل تسمع السر الذى لم يخرج من القلوب وتعلم كل شئ فلا يخفى عليك شئ فى الأرض ولا فى السماء .

وأيقنت أن «الله» قد استمع لدعائها وأجابه لأن حملها فى مثل هذا «الظرف» آيه من «الله» ولابد لآية «الله» أنْ تكتمل فانتظرت أنْ تتحقق إجابة «الله» ولم يطل انتظارها لأن اللحظة قد حانت فأخذت قبضة المخاض تعتصرها وضرباته تلهب ظهرها بسياط الألم.

بين موجات الألم المتدافعة تعالت صرخات الإستغاثة تنادى رحمة الرحمن الرحيم وأصوات التشجيع تحث الوالدة أن تصبر وأن تحتسب حتى يأتى فرج «الله» وتتم نعمته ثم تعالت صيحات التسبيح والتحميد والتهليل لما أتم المولود خروجه فتلقفته الأيدى الملتهفة فقطعت الحبل الذى يربطه بأمه ثم لفته فى ملابسه المعدة له وأسرعت أمرأة «عمران» تنظر ماذا ولدت فصدمها أنها ولدت أنثى لقد اشتهت أن يكون مولودها ذكراً تمنحه للهيكل هدية خالصة «لله» ولكنها جاءت أنثى وخافت أن يكون «الله» قد رفض هديتها ولم يقبل دعاءها .

«**قالت رب انى وضعتها انثى وليس الذكر**» ـ (٤١) الذى كنت أريده ـ «**كالأنثى**»(٤١) التى جاءت لأن الذكر هو المتاح له أن يمكث فى الهيكل ليكون كاهنا أوأن يصير نبيا مرسلاً إن تفضل «الله» عليه بالنبوة لأن «الله» لا يرسل إلاّ رجالاً فليس لأنثى أن تطمح إلى مقام النبوة أو الرسالة .

كان ذلك العتاب سحابة حزن شابت صفاء فرحها بعطية «الله» لكنها سرعان ما ولت إذ ألهم «الله» قلبها «الرضى» فاستعادت سماء قلبها صفاءها فاستغفرت ربها وأدركت أنّ عليها أنْ تختار لإبنتها الجميلة إسماً وأنْ تدعو «الله» لها وهى تبدأ إبتلائها فاختارت لها «مريم» إسماً استبشاراً بأخت «موسى بن عمران» الكبرى وأدركت أن أكبر نعمة يمن بها «الله» على عبده هى أنْ يحميه من الشيطان عدوه الذى قرر أن يقضى يوم الدنيا كله فى حرب مع «الله» تدور فى «الانسان» قالت «**وإنى سميتها مريم وانى اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**» (٤١).

اندهشت النسوة اللائى تلقين «مريم» لإنها لم تصرخ باكية مثل بقية الأطفال عندما يخرجون من ظلمة الرحم وأصابهن الفزع للحظات إذ ظنن أنها ربما تكون ميتة فأخذن يحدقن فيها البصر ويتحسسن جسدها البض بأيديهن ويحاولن أن يتسمعن دقات قلبها حتى تيقن أنها حية وأنها على خير ما يرام .

أخذ بقلوبهن جمالُها الهادئ ونظرة الرضي التى ترتسم على وجهها المشرق البديع أما أمها فقد عرفت من صمتها أن «الله» قد أجاب دعاءها فوقى إبنتها من نزغة الشيطان الذى فر مذعوراً من جنود «الله» الملائكة الذين أحاطوا «بمريم» وفشل فى اختراق الحجاب الذى أحاطها «الله» به كما فر مذعوراً تلاحقه حجارة السماء الملتهبة يوم طرده «الله» من رحمته ملعونا إلى الأرض بعد أن رفض السجود للإنسان «آدم» أبو البشر .

إندفعت أمرأة «زكريا» فاحتضنت «مريم» بقوة. ضمتها إلى صدرها بشوق «الأم» التى طال انتظارها للأطفال. لقد تحركت الرحمة فى قلب امرأة «زكريا» فضاق بفيض الحنان الذى نزل فيه ففاضت دموعها وسألت «الله» بكل كيانها فى صمت ودون أن ينطق لسانها فلم تسمع واحدة من النسوة دعاء أمرأة «زكريا» لربها أن يهبها طفلاً جميلا مثل هذه «الدرة النادرة» التى ترقد فى سلام فى حضن أمها وأرسلت إلى «زكريا» أحد الأطفال ليبشره بقدوم «مريم» ويدعوه ليباركها .

فلما جاءه البشير أسرع إلى بيت «عمران» وهو يتوكأ على عصاه وإذ رأته النسوة يقترب تذكرن «عمران» صاحبه الذى رحل وأجهشن بالبكاء. تلقى «زكريا» بيدين مرتعشتين «مريم» فقربها من وجهه وطبع على وجهها المشرق قبلة حنونة وباركها ودعا لها وقال بصوت خنقته الدموع «رحمة الله عليك يا عمران».

لقد مست «مريم» بجمال وجهها ينبوع الرحمة الكامن فى قلب الأب الذى حرم من الأطفال فتدفق الحنان ودعا «زكريا» ربه قائلا «**رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين**» .(٤٢)

«آلهى لا تتركنى أقضي شيخوختى غريبا فى قومى بلا أنيس يبدد وحشتى فهبنى ولدا يرثنى». ولكنه لماَّ كان يعاين وهو النبى العارف «بالله» أنَّ «الله» هو الوارث الذى يرث جميع خلقه فكان سؤاله «وارثا» يرثه فيه شُبْهَة تفضيل ابنه المطلوب على «الله» الموجود فأسرع ينفى هذه الشُبْهَة التى يحملها دعاءه بالثناء على «الله» بأنه خير الوارثين. «آلهى ليس فى طلبى ابنا يرثى إنكار لكونك أنت الوارث الذى يؤول إليه كيانى وكيان كل الخلق وهذا هو أفضل مصير لى ولجميع الخلق فأنا أُقر بأنك أفضل من يؤول إليه كيان الخلق جميعا ولكننى أطلب إبناً يحمل عنى النبوة والرسالة ليبلغ رسالتك الى بنى اسرائيل ويحفظ شريعتك فيهم فيدوم مجدك بينهم». لقد أراد أن يمحو

الشبهات التى تعلق بكل دعاء لأن الدعاء يعنى طلب تغيير حكم «لله» القائم وفيه تقديم بين يدى «الله» والأولى انتظار صدور حكمه وفيه إدعاء الإختيار مع العلم بسبق اختيار «الله» لأن الداعى قد يسأل شيئا لن يُظْهِرَه «الله» .

أراد أن يمحو كل هذه الشبهات بالثناء على «الله» واصفاً أياه بأنه خير الوارثين قاصدا أنه لا يريد بديلا عن «الله» الوارث ولا يختار مع علمه بسبق اختيار «الله» مقراً بأن «الله» وحده هو الذى يريد وأنه وحده الذى يفعل ما يريده فالإرادة واحدة والفعل فى الكون واحد وكلاهما «لله» .

عندما قالت امرأة «عمران» «**رب إنى وضعتها انثى**» قال «الله» لنبيه الأمى الماثل بين يديه يتلقى الخطاب «**والله اعلم بما وضعت**» مشيراً الى أنَّه سبحانه وتعالى أكثر علما من أمرأة «عمران» ومن كل الذين شهدوا الولادة بالذى وضعته أمرأة «عمران» لأنهم لم يستطيعوا بعيونهم البشرية أن يروا «الَذَكَر» الذى كانت تحتويه الانثى التى وُلِدَت فقد أحتجب «الذَكَرُ» الكامن فى جسدها والذى سوف يظهر حينما يكتسب «روحاً» ليصير الرجل الذى عُرِفَ فى التاريخ باسم «المسيح» والذى سماه «الله» «عيسى بن مريم» .

كان «عيسى» حين وُلِدَت «مريم» كلمة من «الله» مستورة فى رحمها لم تستطع أمرأة «عمران» التى وضعت «مريم» أن تراه وهل كان فى وسع أحد من الخلق أن يرى البشرية كلها وهى مجموعة فى ظهر «آدم» ابو البشر عندما أخرجتهم يد «الله» من ظهره وأنبتتهم من الأرض نباتا ثم تلقاهم كلماتٍ من «الله» فى ظهره حيث اختبأوا فى صلبه عندما أخرجه «الله» من الجنة الى الأرض ليبدأ حياة الابتلاء .

وهل كان فى وسع أحد من الخلق أن يرى البشرية وهى تنتقل الى صلب «نوح» والذين معه على السفينة حين هطلت الأمطار وأندلعت السيول فأغرقت من على الأرض.

وهل كـان فى وسع أحـد من الخلق أن يرى الأمـة الكبـيـرة التى قـبعت فى ظهـر «ابراهيم» خليل «الله» وأبو الأنبياء .

وهل كـان فى وسع أحد أن يرى «مريم» نفسـهـا وهى مسـتـورة فى ظهـر أبيـهـا الكاهن «عمـران». ولم تزل البشـرية تنتقل فى أصـلاب الرجال من جيل الى جيل حتى يرث «الله» الأرض ومن عليها دون أن يعرف أحد من الرجال ما الذى يحمله فى صلبه فسبحان الذى أحاط بكل شئ علما .

«إن الله اصطفى آدم ونـوحـا و آل ابراهيم و آل عـمـران على العالمين ذرية بعضها من بعض .. والله سميع عليم» (٤٣). **«إذ قالت امـرأة عمـران رب إني نذرت لك مـا فى بطن مـحـرراً فـتـقبل منى إنك انت السميع العليم »**.

قـال «الله» فى سـورة الأنعـام **«ونوحا هدينا من قبل» «و من ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف و موسى وهارون» وكذلك نجزى المحسنين »** .

«وزكريا يحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين» .(٤٤)

فـهذا تصريح بأن «عيسى» من ذرية «نوح» «إذن فقد حُمِلَ «عيسى» فى صلب «نوح» مع من حـمـل من البـشـر ولننظر الآن إلى الآية الثـالثـة والثـلاثين من سـورة آل عمران لنرى فيـهـا شـجرة نسب «عيسى» فقد خرج «عيسى» مع غيره من البشر من ظهر «آدم» الذى حمله معه فى صلبه مع كل البشر وهو ينزل إلى أرض الدنيا للإبتلاء ومن «آدم» تنقل «عيسى» فى أصلاب الرجـال إلى «نوح» ومن أبناء «نوح» سـافـر الى «إبراهيم» وظل «إبن الانسان» يتنقل حتى وصل الى «عمران» ومن صلْبِ «عمران» ألقى

بمرساه فى رحم أمه «مريم ابنه عمران» وظل هناك ينتظر «رسول الله» ليأخذ منه «روحا» يخرج به الى نور الشهود .

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم .. خلقه من تراب .. ثم قال له كن فيكون».(٤٥)

(٥)

« النبــات الحســن »

«فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا»

«سورة آل عمران : ٣٧»

أسِفَت أمـرأة «عـمـران» على أنهـا وضـعـت «أنثى» بدلاً من «الذكـر» الذى كـانت تشـتـهى أن تحـمله وصَبَغ «العـتـاب» نبـرة صـوتهـا وإن لم تنطق به وهى تناجى ربهـا متوهمة أنه لم يجب دعاءها ولم يتمم لها نعمته ثم خالط «التردد» عزمها على الوفاء بنذرها لما أحست أنها قد لا تستطيع أن تتحمل فراق ثمرة رحمها التى احترق قلبها عطشا إلى رؤيتها إذ صارت «مريم» الرضيعة هى الشمس التى تدفئ نهارها البارد والقمر الذى ينير ظلمة ليلها الطويل ويبدد وحشته «وقدَّرت» أنَّ الأنثى لا تستطيع أن تخدم «الله» كما يمكن «للذكر» أن يفعل حتى أوشكت أن تتراجع عن نذرها لكن «الله» الذى نظر الى إخلاص قلبها حين نذرت إليه ما فى بطنها وهى بين موجات الألم قبل الهدية التى أطاها هو لواهبتها راضياً عن التى نذرت وعن المنذورة .

لقد تغاضى «الكريم» عن الشوائب التى علقت «بالنذر» وكافأه بأفضل منه فمنح الناذرة والمنذورة أفضل ما يعطى عباده وهبهما «رضاءه» الذى يتعالى على الوصف .

وأنبت «مريم» فى بستان رحمته بماء رعايته فتفتحت عن وردة بيضاء لا نظير لها رزقـهـا الصـحـة فلم تمرض أبداً ولم تعـان مما يعـانى منه الأطفـال من نوبات المرض وفاض عليها بالطمأنينة فكانت دوما وديعة هادئة ترقد على فراشها كوردة بديعة تسبح فوق الماء لم يسمعها أحد تبكى أو تصرخ بل كانت تمكث صامته تنظر تجاه أمها كأنها تناديها بنداء خفى فتعطيها أمها ثديها حتى اذا شبعت أخذت تلهو بتحريك يديها

وقدميها وهى تغنى بصوت رقيق ينساب عذبا من بين شفتيها الرقيقتين كأنه اصداء غناء بعيد ينبعث من بساتين الجنة أو كأنها كانت تشكر ربها بترديد ما تسمعه من تسبيح الملائكة.

ألقى عليها محبته فأحبها أهل السماء وأهل الأرض ثم وضع لها القبول فى القلوب فأحبها كل من نظرها كان وجهها البديع يضحك لكل من ينظر اليها وهى ترنو ببصرها نحو السماء كأنها تشير بعينيها إلى ينبوع فرحها .

كانت قطرة من رحمة الرحمن الرحيم نزلت لتبدد بنورها ظلمة تلك الأيام الموحشة.

وفى صباح يوم مشرق ولكنه حزين رحلت امرأة «عمران» لم تدرك النبتة الصغيرة سر النحيب الذى تعالى صوته فى صبيحة ذلك اليوم ولم تفهم لماذا تجمعت النسوة وقد أكتست الوجوه بالحزن وتغطت الأجساد بملابس الحداد وفاضت الدموع من العيون لقد لبس الوجه البرئ رداء الحزن هو الآخر ولكنه لم يفقد هدوءه ولا جماله كانت الدهشة الحائرة تتلألأ على صفحة وجهها الناعم وعيناها الواسعتان تبحثان فى لهفة صامتة عن وجه أمها الحنون التى توارت عن بصرها ولم يعرف قلبها الصغير حينئذ إجابة عن السؤال الذى ظل يتردد فى صمت «متى تعود »؟؟

لقد أصبحت فى ذلك اليوم يتيمة الأبوين وكان من بركاتها وبركات مَنْ تحمله دون أن تدرى فى رحمها أن أعادت الى القلوب التى أظلمت من كثرة الخطايا فى ذلك العصر المظلم أعادت إليها محبة «اليتيم» فتنافس ذوو قرباها على كفالتها كل منهم يريد أن ينال شرف كفالتها ليظفر بثواب إكرام اليتيم. لقد انتعشت القلوب التى أشرفت على الهلاك بالنور الذى تلقته من ابنة «عمران» وأبنها المستور فى رداء جسدها .

لم يكن لها أعمام ولا أخوال وكانت وحيدة أبويها اللذين رحلا فلم يكن لواحد من

الرجال الذين طلبوا شرف كفالتها فضل على غيره يمنحه حق كفالتها دون جدال فاختصموا. كلٌ يريدها لنفسه وجادل «زكريا» القوم عنها جدالاً شديداً فذكر أنه زوج خالتها والخالة بمثابة الأم فهو بمثابة أبيها وأن أباها «رحمة الله عليه» كان صديقه الحميم حتى أنه كان يعده شقيقه وأنه كان أول رجل يعلم بنبأ حملها اذ أسرع «عمران» اليه يزف البشرى وأنه قد حُرِمَ من الأطفال فسوف تكون «مريم» إبنة له ولأمرأته بل أنها سوف تكون ابنتهما الوحيدة فلن تنشأ مشاكل بينها وبين غيرها من الأبناء وسوف يجدان الوقت الكافى لرعايتها فليس عندهما غيرها وأنهم لا يستطيعون أن ينسبوا إليه أو الى أمرأته خطيئة أو عيب يقدح فى أهليتهما لكفالة إبنة الكاهن العظيم «عمران» .

اندفع «زكريا» يسوق الحجج التى تعطيه الحق فى كفاله «مريم» وكان جداله شديداً ودفاعه عن حقه مقنعاً و إلحاحه يعبر عن رغبة صادقة وجارفة فى العناية بها ولم يقل لهم أن الذى أمسك بقلوب العباد بين أصابعه يقلبها كيفما شاء قد سكب حبها فى قلبه وربط بينهما برباط أبدى لا ينقطع. إلاَّ أن القوم لم يسلموا له وقالوا «يحكم الله بيننا» وأجروا كما اعتادوا القرعة فأخذ كل واحد من الذين يطلبون كفالة «مريم» قلما من الخشب وحفر عليه أسمه ثم ألقوا الأقلام فى الماء «وعاء الروح» وأنتظروا بعيون تحدق فى سطح الماء القلم الذى يرتفع فرفعت يد الماء قلم «زكريا» وأغرقت أقلام الآخرين وكرروا التجربة ثلاث مرات كما اعتادوا ليتيقنوا أرادة «الله» وفى كل مرة يَسْبَح اسم «زكريا» وتغرق الأسماء الأخرى فانحنى الجميع لحكم «الله» وسلموا «لزكريا» بحقه فى «مريم» فهرول إليها يضمها الى صدره بحنان أب طال اشتياقه إلى ابنته الوحيدة اليتيمة ويقرب وجهها المشرق الى وجهه فتفيض الدموع من عينيه وهو يتذكر «عمران» أباها الذى سافر فى رحلة الأبد ويتذكر دون أن يفهم السبب «مشرق الوجه» الذى رآه فى الرؤيا .

وناولهـا إلى أمـرأته فـتلـقـتـهـا كـجـوهـرة ثمـينة أُلقِيت عليـهـا من السـمـاء وبـأصـابع مرتعشة وعينين محدقتين تفيض منهما الدموع راحت تتفحص الوجه البديع كأنها تبحث فى ملامحه الرائعة عن وجه «حنة» أختها التى غابت ووارى جسدها التراب وحملت «هدية السماء» وهى تضمها الى صدرها و تقبلها من آن لآخر وهى تشم فى رائحتها العطرة نسيم الجنة أما الوجه البديع فقد تلألأ بدهشة تتساءل عن سر هذا البكاء .

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون» (٤٦).

«وكفلها زكريا» (٤٧).

دخلت الوردة البيضاء بيت «زكريا» حيث أصبح بستانها فى قلبه كان ينفق وقتا طويلا يتأمل جمال «الله» الذى يتبدى فى درته اليتيمة «مريم ابنه عمران» ويمعن النظر فى رحمة «الله» التى ربطت بين أمرأته وبنت شقيقتها ويراقب «مشرقة الوجه» وهى تلهو فى رقة وهى تحبو تريد القيام على ساقيها أما صوتها الجميل وهى تحاول النطق عندما بدأت تتعلم الكلام فقد خلب لبه وإذ بدأت تمشى صار هو عصاتها التى تتوكأ عليها وعندما تريد أن تلعب يصير هو «الجمل» الذى تهوى ركوبه وأمرأته واقفة بالقرب منهما تضحك من الشيخ الكبير الذى استخفه الطرب .

ثم حان أوان الوفاء بالنذر فأخذ «زكريا» يعلمها القراءة والكتابة ويأخذها معه إلى الهيكل يريد إعدادها لتكون المنذورة بحق الى «الله» فأدهشه أنَّ الطفلة الصغيرة تحب الذهاب الى الهيكل وتحب شهود الطقوس والمواعظ. يراقبها من بعيد بعين «الخبير» فيراها تقف فى سكون وقد اتسعت عيناها البديعتان تصغى إلى الكلمات التى تُلْقَى وهى تحتفظ بهدوئها وقد بدا على وجهها البرئ آيات التفكر والتدبر كانت الكلمات تجذبها فتبدو مستغرقة بكيانها كله فى ذلك البحر الواسع العميق الذى يلوح لها أنه

يكمن خلف تلك الأصوات التى تنبعث فى الهيكل فشملتها الرغبة فى اقتحام لجة ذلك البحر ولم تعرف كيف تلقى بنفسها فيه ولا كيف تسبح حتى تنجو من الغرق لم تكن تعرف كيف تبدأ ولا كيف تسير فى ذلك الطريق الذى كان «يومض» لها فى بعض اللحظات ثم يختفى بسرعة كأنه يغيب فى ظلمة الليل قبل أن تستطيع أن تستبين علاماته التى تتوهج فجأة فى نور «البرق» ثم تظلم عليها لأن «البرق» سرعان ما يزول .

صارت فى حاجة إلى من يأخذ بيدها ويهديها الطريق و«زكريا» النبى يرقبها من قريب وبعين «الخبير» رأى أنها قد تهيأت فأقبل عليها يعلمها «التوراة» وكتب الأنبياء وأصول «الشريعة» ومعالم الطريق فأدهشه أنَّ الطفلة الصغيرة تبدى قدرة عجيبة على حفظ النصوص فى زمن وجيز بينما الكهنة رجال «الهيكل» لا يكادون يحفظون شيئا مما قاله الأنبياء ولكن الذى أذهله بحق هو فهمها العميق للنصوص وقدرتها على أن تربط بين الاشياء لتستخرج الحقائق المستورة فى قواقع الألفاظ فى مهارة غواص ماهر عرف السباحة والغوص منذ زمن بعيد .

أما الذى أذهلها هى فهو أن «التوراة» التى تلقتها من فم «زكريا» تختلف تماما عن المواعظ التى يلقيها الكهنة والكتبة فى «الهيكل» وبدأت تكتشف فى دهشة وفزع أن «التوراة» التى تلقتها من فم «زكريا» ليست هى «التوراة» المحفوظة فى «المحراب» وأن الناس لا يعملون «كلام الله» ولا يعلمون به وأن «الكهنة» وشيوخ الفريسيين يتسابقون على متع الحياة الدنيا ولا يلقون بالاً إلي الآخرة بل إن الكهنة أنفسهم صار أكثرهم لا يؤمنون بالآخرة وأزدادت حيرتها لما عاينت أن «الكهنة» والشيوخ يكذّبون «زكريا» ولا يحترمونه وأنهم فى وقوفهم ضده كما يبدو من ظاهر سلوكهم معه لا تساورهم الظنون ولا تخالجهم الشكوك فى صحة موقفهم منه و «زكريا» نفسه على الجانب الآخر عاجز أمامهم لا يستطيع أنْ يقنعهم بصدقه ولا أنْ يدفعهم للإيمان به فأيقنت أنَّ معرفة الحقيقة أبعد من أنْ تصل إليها الكلمات أو يُتَوَسَّلَّ إليها بالحجج والدلائل، أدركت أن

عليها أنْ تكتشف الحقيقة بنفسها. فأخذت المنذورة «لله» وقد صارت صبية تشق الطريق الى «الحقيقة» بمفردها. ذلك الطريق الذى أبانه لها «زكريا» ووضع لها معالمه لكن كان عليها أن تسير بمفردها إذ أيقنت أن «الحقيقة» لا تكشف نفسها إلاّ للذين يتجردون لمعرفتها. «للغرباء» الذين ينعزلون عن صخب الأسواق ويزهدون فى ضجيج الدنيا وبهجتها الزائلة إلى هؤلاء يكشف «الله» عن نفسه .

كانت تستيقظ فى السحر لتجد «زكريا» قد قام من نومه قبلها وجلس «يذكر الله» أو تجده يصلى قائما أو راكعا أو ساجدا فتقوم لتغتسل وتقترب منه وتجلس فى هدوء تراقبه وهو منشغل عنها «بصلاته» حتى إذا التفت إليها فى غبشة السحر بوجه يتلألأ بنور «الذِكْر» دعاها للإقتراب منه وأذِنَ لها بمشاركته فى الصلاة ثم يجلس يعلّمها ويسألها حتى إذا أشرقت الشمس واستبانت الأشياء فى نورها قاما لتناول طعام الأفطار ثم يأخذها «زكريا» الى الهيكل فيُدخِلها المحراب ثم يتركها هناك تقضى نهارها منقطعة الى «الله» فى الصلاة والذكر . فإذا مالت الشمس الى الغروب أسرع الى «الهيكل» ليعيدها إلى البيت قبل أن يهبط الليل أمّا فى أيام نوبة فرقته من الكهنة فإنه كان يقضى النهار كله فى الهيكل ليقوم مع أضاء فرقته بالخدمة الدينية .

فهمت «مريم» أنّ الانبياء يبينون «الطريق» الإنسان فهم المصابيح التى تضئ الطريق وتمهده للسير ولكن «الانسان» عليه أن يسير فيه بمفرده إذ فى الوحدة وحدها يستطيع الانسان ان يتعرف على «الله». إن الإنسان لا يقف بين يدى «الله» إلاّ بمفرده وسوف يحاسبه «الله» على عمله فرداً ليس معه من الخلق أحد. فاخذت من النبى «زكريا» كل ما يمكنه أنْ يعطيها ثم كان عليها أن تخوض الطريق بمفردها وقد تزودت بالزاد الذى يكفيها فى السفر .

تحذف تخرج من البيت بمفردها فى الصباح الباكر لتقوم النهار كله فى «المحراب» حتى إذا أذن الليل بالقدوم وبدأت الأشياء تغرق فى الظلمة الآتية أسرعت

الخطى الى بيت «زكريا» فتدلف إلى غرفتها لتستريح و فى السحر يناديها «الله» عندما يرد اليها «روحها» فتستيقظ وتغتسل وتتهيأ للدخول فى الصلاة، وعاد «زكريا» يراقبها من بعيد وعَيْنُ «الخبير البصير» تقول له أنَّ وراء هذه الصبية مشرقة الوجه سر عظيم يوشك أن يفصح عن نفسه .

صار «المحراب» تلك الغرفة المغلقة التى تلفها الأسرار هو بيت «مريم» الحقيقى الذى تجد فيه نفسها .

فى هذه الغرفة التى تنفصل عن صحن «الهيكل» بالجدران والنوافذ المغلقة كان يسود «الصمت» حيث لا يدخلها إلا الكاهن الذي وقع عليه الإختيار ليقوم بالتبخير ويكون صاحب القربان المقدم «لله» فى هذا اليوم ويكون الإمام فى الصلاة. فى هذه الغرفة كانت ترقد بقايا كلام «الله» محبوسة فى الصفحات التى كتبها «الأحبار» و«الكهنة» بأيديهم حيث أحاطوا كلمات «الله» بأوهامهم وألبسوا الحق رداء الباطل فأخفوه فى هذا المحراب الذى لم يزل يحتفظ ببقية مجد بنى اسرائيل والذى كان اسمه «قدس الأقداس» لإحتوائه على كلمات «الله» قبل تدنيسها .

كانت «مريم» تقطع نهارها في ذكر «الله» فى هذا المكان المحرم الذى يحظر دخوله إلا للكهنة الذين يجب عليهم أن يتطهروا قبل أن يتجاوزوا عتبة بابه. كانت «مريم» تتهيأ لتلقى الحقيقة وكان بوسعها أن تتذكر كلام «الله» الذى استمع إليه الخلق جميعا عندما أخذ «الله» العهد على ذرية «آدم» وأن يستعيد قلبها الذى أناره ذكر «الله» قصص الأنبياء الذين رحلوا .

فى هذا الصمت الطاهر الذى تختفى فيه رسوم الأشياء بسُحب البخور المتصاعدة وهى تنشر فى المحراب الرائحة الزكية كان فى وسع «مريم» أن تتذكر نعيم الجنة التى كنا فيها قبل أن نخرج مع «آدم» إلى الابتلاء على أرض الدنيا بغواية أبليس اللعين .

وكانت تصوم صيام «داود». كثيراً ما خرجت من البيت دون أن تأكل شيئا أو تحمل معها بعض الطعام ولم يكن «زكريا» و أمرأته قادرين من كثرة صيامها على معرفة أيام صومها .

لم تكن تمكث فى البيت طيلة النهار إلاّ فى أيام «الحيض» حيث كانت تلازم غرفتها لا تخرج منها إلا نادرا. وكان كلامها قليلا جدا فأستبد القلق عليها بخالتها لقلة طعامها وكلامها وكثرة صومها وطول غيابها فى المحراب. لذلك كثيرا ما ألحت على«زكريا» أن يذهب ليطمئن عليها ويحمل لها الطعام فكان «زكريا» يدخل عليها المحراب ليجدها مستغرقة فى الصلاة وكثيرا ما كان يجد عندها طعاما فيظن أن أحد «الكهنة» قد تحنن عليها لإنقطاعها فى المحراب فأعطاها شيئا لتاكله لتستعين به على عبادة «ربها» أو أن بعض الأثرياء الذين يتقربون «لله» بتقديم الصدقات والتبرعات إلى الهيكل قد أعطوها شيئا. وكثيرا ما كان يكتشف عندما يعود إليها فى المساء ليصحبها الى البيت أنها لم تمس الطعام الذى حمله إليها فى الصباح فتعتذر إليه وتقول «سوف آكل عندما نذهب الى البيت» أو يراها تفرق الطعام الذى حمله إليها على الفقراء الذين جلسوا أمام ابواب الهيكل يسألون الناس الصدقة .

ولم يعد «زكريا» يسألها عن طعامها موقنا أنها فى يد «الله» الذى لن يضيعها. يقف يراقبها من بعيد وهى منقطعة للصلاة فى المحراب حتى اذا فرغت تقدم اليها ليصحبها فى طريق العودة فى بعض الأحيان كان يسامرها بسؤالها عما قرأت اليوم فى صلاتها ويتجاذب معها أطراف الحديث لكنه فى أغلب الأحيان كان يحترم «صمتها» الوقور الذى كان يشهد أنها تحب أن تبقى فيه .

كانت تنمو ويد «الزمن» تزين الطفلة المنذورة «لله» بآيات الأنوثة التى أفصحت عن أن «مريم» قد أوشكت أن تصبح امرأة ناضجة .

وصار «زكريا» أشد قلقاً عليها إذ كان يعلم أكثر من غيره كيف أوشك بنو

اسرائيل أن يصيروا قطيعا من الذئاب المفترسة فأخذ يحرص على أن يصحبها فى ذهابها وعودتها من الهيكل وكثيرا ما كان يذهب إليها فى أثناء النهار ليطل عليها ويطمئن يدلف الى المحراب فى هدوء وينظر إليها وهى مستغرقة فى صلاتها. يلمح بعض ثمار الفاكهة ملقاة أمامها بالقرب من موضع سجودها فيظن أنها بعض الباكورات التى يتقدم بها الناس الى الهيكل أو أنها هدية من بعض الذين يريدون التقرب الى «الله» بالتودد الى أوليائه الذين انقطعوا لعبادته وهكذا «**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا**»(٤٨) ووجدها مطمئنة فى محرابها فيسكن قلبه ويظل ينتظرها حتى تفرغ فيعود بها الى بيته .

وفى يوم من أيام الشتاء إشتد البرد وزادت حركة الهواء وتجمعت السحب الداكنة فى السماء وأوحى الجو بقرب نزول المطر فأشفق «زكريا» وامرأته على «مريم» التى خرجت منذ الصباح الباكر دون أن تتناول طعاما وألحت عليه أمرأته أن يذهب الى الهيكل ومعه جلباب ثقيل ليضعه على جسد «مريم» ويأتى بها قبل أن يهطل الماء .

فأسرع «زكريا» يتوكأ على عصاه ومعه الجلباب يحث الخطى فى الطريق الذى خلا من الناس اذ أسرع الجميع الى المنازل طلبا للدفء وهروبا من المطر الوشيك ثم دلف الى المحراب حيث وقف مذهولا مما يراه .

كان الوقت هو الأصيل والغمام المتراكم يغطى وجه السماء ويحجب الشمس التى كانت تميل الى الغروب ويستر الأشياء فى غلالة رمادية والهيكل كله فارغ صامت ليس فيه أحد و«مريم» تجلس وديعة هادئة فى محرابها تتناول فى بساطة بعض حبات العنب من قطف موضوع أمامها قرب مكان سجودها . وقد أضاء وجهها بنور غريب حتى بدت «لزكريا» القائم عند باب المحراب يمعن النظر إليها كأنها البدر يتلألأ فى سماء مظلمة رغم أن الليل لم يكن قد جاء وكان ذلك اليوم فى الشتاء فلم يكن الوقت هو «أوان العنب» فمن أين أتاها هذا القطف وقد ولى الصيف. كان الأمر أكبر من كل تأويل

ولا يحتمل الصمت فصرخ «زكريا» منبهرا متحيرا «**قال يا مريم أنى لك هذا**»[٤٩] وأشار بيده الى العنب وكانت أجابتها البسيطة أعجب إذ «**قالت هو من عند الله**» [٥٠] هكذا نطقت في براءة .

نعم يا أبنه «عمران» أيحتاج رب السموات والأرض القادر على كل شئ الى التراب أو الى مرور الوقت أو حرارة شمس الصيف لكي يعطى العنب إلى سليلة «هارون» البتول التى انقطعت فى المحراب لتصلى إليه إنْ اشتهت أنْ تأكل العنب في الشتاء ؟

أتقف الأماكن أو الأزمان حجر عثرة أمام أرادة «الله» إذا اتجهت لتهب الرحمة لمن اصطفى من عباده ؟

أليس «الله» هو الواحد القهار ؟؟

أليست «الجنة» التى فيها رحمته قائمة على الدوام فمن ذا الذى يمنع عبدا صادقا من نيل ثمارها إذا أراد «الله» أنْ تفتح له أبوابها ؟؟

يا بنت «عمران» بأى عمل نلت هذه المنزلة ؟؟

وعلمت «مريم» بما يدور فى قلب «زكريا» فأجابت على سؤاله الذى لم ينطق به إذ قالت «**إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**» .[٥١]

إن «الله»لا يسأل نفسه ولا يسأل غيره أى شئ صنعه عبدى يستحق به أن أرزقه؟ لأن رزق «الله» لعباده ليس أجراً مُسْتحقاً لهم عند «الله» مقابل عمل قاموا به لأن أعمال العباد بل العباد أنفسهم ليسوا إلا بعض ما صنعت يد «الله» فكيف يمكن توهم أجر مستحق للعبد عند «الله» ؟ هذه الثمار ليست أجراً ولم تنل بعمل بل هى فيض من رحمة الرحمن الرحيم إن العبد لا يستطيع أن يفعل شيئا «يستحدث» به

رحمة «الله» ليس ثمة سبب يجعل «الله» يرحم عبده لأن الرحمة صفة «لله» تنبع من ذاته التى تنزهت عن الوصف وتعالت على الكشف .

فإن أطاع العبد ربه فإن هذه الطاعة ليست إلاَّ محض فضل فاض «الله» به لأن «الله» هو الذى خلق عبده إذ أعطاه كيانه الذى به ظهر بعد أنْ كان نسيا منسيا ثم هداه فبين له الطريق وأعانه على السير فبأى كبرياء باطلة ووقاحة لا نظير لها يطلب العبد من «الله» أجراً على عمل قام «الله» به ؟ !.

وإذا كان «الله» قد سَمَّى عطاءه «أجراً» ووصفه بأنه «جزاء» لأعمالنا فان ذلك لم يكن إلاَّ من محض جوده الذى جعله يعطينا الوجود ويسميه وجودنا ويمنحنا المشيئة ويصفها بأنها مشيئتنا ويقوم بالعمل وينسبه إلينا فأوجب لنا من فيض كرمه وبمحض إرادته «رحمة» تجلت لنا فى صورة طاعته ونسبها إلينا وفى الحقيقة لاعمل لنا لأننا لسنا إلا بعض أعماله إننا ظل تجليه الدائم الذى لا ينقطع .

فى هذا المقام الذى وقف فيه «زكريا» النبى الذى سمع بأذنيه كلام «الله» الشيخ الطاعن فى السن الذى قضى عمره المديد فى طاعه «الله» وقف يتعلم من فتاة صغير من «أورشاليم» انقطعت فى المحراب للصلاة فى هذا المقام أحس «زكريا» بقرب «روح الله» فتجدد الأمل فى قلبه فها هى فتاة صغيرة تبث النور من بين شفتيها الرقيقتين وربما لم تعلم هى نفسها ما أحتوته كلماتها .

«هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء» .(٥٢)

(٦)

« النـــــداء »

«كهيعص ـ ذكر رحمة ربك عبده زكريا اذ نادي ربه نداء خفيا»

«سورة مريم : ١ – ٢»

بدأت تتناثر أخبار «المعجزات» التى يصنعها «الله» «لمريم» على الألسنة فى «أورشاليم» تناثر النجوم فى سماء مظلمة فأخذت الألسن تلوك أنباء انقطاعها فى المحراب وأصبح الشعب الجاهل يتحدث عن الثمار والأشياء الثمينة التى تلقى عليها من السماء وهى تصلى فى «قدس الأقداس» وراح القوم يتذكرون «المن والسلوى» اللذين كان «الله» يلقيهما على شعبه فى الصحراء بعد الفرار من «فرعون».

شوه الجهل «آية الله» وأحست «مريم» أنها وعبادتها قد صارت موضعا لتطفل السفهاء لاحظت أن القوم بدأوا يلاحظونها فى سيرها ذهابا ورجوعا وأبْدَى الكثير من الكهنة والشيوخ الرغبة فى الحديث معها فآثرت بعد صراع باطنى شديد أن تترك الهيكل والمحراب لتمكث فى بيت «زكريا» لا تغادره إلا للضرورة. جعلت من غرفتها فى بيت «زكريا» محراباً لها تعبد «الله» فيه بمفردها بعيداً عن أعين المتطفلين وألسنة السفهاء وأوهام الجاهلين. كانت تخشى على نفسها فتنة الرياء ويفزعها أن تؤول فى النهاية الى واحدة من المنافقين الذين يطلبون المجد عند الناس غافلين عن عين «الله» الذي يراهم ويستهزئ بهم .

وكانت آيات الأنوثة قد شرعت تفصح عن نفسها على جسد الطفلة المنذورة «لله» فحولتها إلى امرأة سوية كاملة الزينة تضايقها «النظرات» المتطلعة من الأعين التى لا تغض بصرها عن محارم «الله» ورغم أنها كانت ترتدى جلبابا واسعا فضفاضا لا يبين

شيئا من زينتها وتغطى رأسها بخمار تكاد تخفي من فرط حيائها وجهها إلا عينيها لكنها كانت تشعر أن العيون المتلصصة تلاحقها فصارت تكره الخروج من البيت وتحب أن تبقى مستورة عن الأعين في غرفتها حتى أنها بدأت تفرح بأيام «الحيض» لأنها تمكث فيها حبيسة الجدران .

إشتعل صراع عنيف فى قلبها بين واجبها كمنذوره «لله» يجب أن تبقى فى «الهيكل» وبين شعورها الصادق أن بقاءها فى الهيكل صار بالنسبة إليها عبئا لا تستطيع أحتماله لكنها حسمت أمرها وقررت أن تترك الهيكل لتلزم البيت .

وفى البيت أخذت تواصل عزلتها فى غرفتها كانت تساعد خالتها فى تنظيف البيت واعداد الطعام وسائر أمور المعيشة لكنها كانت ساهمة شاردة النظرات صامتة لا تكاد تتكلم مع أحدلم تعد تسأل «زكريا» عن التوراة والأنبياء. قليلاً ما كانت تأكل معهما لأنها كانت أكثر أوقاتها صائمة. لقد صار بيت «زكريا» بالنسبة اليها هو «الهيكل» وصارت غرفتها فيه هى «المحراب» وليس لها من شاغل يشغلها فى المحراب إلا الصلاة. وأحترم «زكريا» النبى وأمرأته صمت «مريم» وعزلتها وهما يوقنان أن سرا عظيما يلف هذه الفتاة «مشرقة الوجه» وأنها تخوض غمار تجربة عظيمة ليس لها فيها من زاد الا الصمت والصوم والصلاة .

وزادت غربة «زكريا». لقد يئس من أن يستطيع أعادة قومه الى الصراط المستقيم كان يدرك أن الأمة التائهة تتخبط . إنها تحث الخطى إلي الهاوية وهى لا تدرى الشعب يرفض فى عناد أن يخرج الى النور رغم صرخاته وصرخات الأنبياء من قبله .

بقلب «النبى» الذى يحمله كان يحس أن ريحا شديدة تتجمع فى الأفُق توشك أن تندلع لتقتلع الأمة من جذورها وتهوى بها في الظلمات كما هوت من قبل «عاد» وثمود لقد أوشك «بنو اسرائيل» أن يصيروا أحاديث تتناقلها الأمم جيلا بعد جيل مثلاً

مضروبا من «الله» للناس كيف يُمكِن للإنسان أن يُهْلِك نفسه رافضا يد «الله» التى تمتدْ إليه بالرحمة راضيا بالخروج الى العذاب متشبثا بكبريائه .

أمسى «زكريا» محزونا يملأ الأسف قلبه وهو يراقب أحوال قومه وهم يواصلون الانحدار. صار الكهنة تجاراً جشعين يبيعون كلام «الله» بأبخس ثمن وصار أكثرهم «صدوقيين» لا يؤمنون بالآخرة يلتفون حول «الملك» «هيرودوس» وبطانته ومؤيديه من طبقة الأغنياء الذين يباركون اتجاهاته الدنيوية وخططه الرامية الى انشاء دولة قوية ذات طابع هيليني تتخذ من «روما المقدسة» مثلاً أعلا و«الفريسيون» يعارضون للإبتزاز طمعا فى نصيب من الغنيمة التى تتيحها السلطة ويتكئون على احترام الشعب لهم باعتبارهم «رجال الله» الذين يحافظون على الشريعة وتقاليد الآباء المقدسة .

والرومان يزيدون من بطشهم إحكاماً لقبضتهم على الشعب المتمرد ويزيدون من ضرائبهم تمويلا للبذخ الذى يليق «بآلهة الأرض» ان يرفلوا فيه والشعب الذى طحنته أنياب القهر والفقر والخرافات قد يئس من التمرد وخاب أمله فى القادة وبات مشغولا بمتاعب المعيشة الضنك التى أمسى يرزح تحت نيرها الثقيل .

حاول «هيرودوس» الذى كان يعانى من كراهية الشعب اليهودى له حيث ظل اليهود ينظرون إليه كمغتصب للسلطة حاول بكل جهده أن يكتسب ود الشعب فتزوج من «مريم الحشمونائية» على أمل أن يستميل إليه قلوب الشعب الذى كان ينظر لعائلة الحشمونائيم باعتبارهم اصحاب السلطة الشرعيين وأن يحُسّن العلاقه بينه وبين بقايا العائلة التى أعمل فيها الاضطهاد.والقتل حتى يقضى على كل منافس من العائلة يمكنه التطلع للفوز بالسلطة لكن هذه الحيلة لم تفلح لأن الفريسيون ظلوا يثيرون الشعب ضده فحاول «هيرودوس» إستمالة الفريسيين إليه فتودد إليهم وبدأ فى منحهم الأبهة التى يطلبونها وبعض المناصب التى يطمعون فيها وبالفعل بدأ الفريسيون يخففون من لهجة الانتقاد ويتوقفون عن المعارضة وإثارة العامة لكن «الصدوقيين» لم يرتاحوا بالطبع

لهذا التحول من جانب «هيرودوس» وخشوا أن يكون ذلك مقدمة لاضطهادهم وأبعادهم عن السلطة والثروة فسعوا إلى «روما» ينبهون «أوكتافيوس» إلى التغير الذى أصاب «هيرودوس» ويحذرونه من أنه قد بدأ يعمل للاستقلال عن «روما» مستغلا الصلاحيات الواسعة التى منحتها له «روما المقدسة» ولذلك فإنه يعمل للحصول على تأييد الشعب بتقريب «الفريسيين» الذين يتزعمون حركة التمرد ضد حكم «روما» أرسل «أوكتافيوس» يستدعى «هيرودوس» على عجل وظن الأخير أن الأمبراطور قد يأمر بقتله أو على الأقل سجنه أو أقصائه عن العرش ولكنه لم يكن يملكُ إلاَّ تلبية أمر الاستدعاء فأوصى بعض خلصائه أن يقتلوا أمرأته «مريم الحشمونائية»(٥٣) إن لم يعد من «روما» حتى لا يفرح الشعب فى المصيبة التى لحقت به بحزنه على الزعيمة المقتولة ولكن المرأة علمت بهذه الوصية «السرية» ولم يأمر «أوكتافيوس» لا بقتله ولا عزله ولكنه أوصاه بمزيد من الحزم حتي لا تفلت الأمور من بين يديه ويفقد صلاحيته عند «روما» .

وعاد «هيروبوس» مغتاظا من «الصدوقيين الخونة» الذين يطمعون فى الحصول علي كل شئ وساءت العلاقة بينه وبينهم كما تسممت العلاقة بينه وبين أمرأته فقابلته بعبوس مستهزئ فأتهمها بالخيانة وبمحاولة الثورة على سلطة «روما» وأمر بإعدامها لأنها حاولت «دس السم» له وبعد ان تخلص منها عاد ليكتشف أنَّ محاولة قتله بالسم كانت من فعل أولادها من زوجها الراحل وأمها العجوز الشريرة وأنَّ الراحلة كانت بريئة ولكن للأسف لا يمكن إصلاح الخطأ الذي وقع لأنها ماتت بالفعل ولكن «الخونة الحقيقيين» أولادها وأمها يستحقون القتل وبالفعل تم اعدامهم ذبحا بالسيف(٥٤) وبهذه الخطة التى بدت «لهيروبوس» وقتها أنها محكمة وأكثر من رائعة استطاع أن يتخلص من بقايا عائلة الحشمونائيم ليستريح من القلق الذى كان يسببه وجود بقية من هذه العائلة يمكنها المطالبة بحقها في العرش .

لكن هذه «المذبحة» القانونية جلبت له المزيد من كراهية الشعب فأراد أن يمحو

الصورة البشعة التى تكونت له فى قلوب اليهود بإظهار المزيد من احترام تقاليد الشعب ومقدساته فبدأ فى تجديد «الهيكل المقدس» ليكون أية فى الفخامة والمتانة والجمال(٥٥) وقسم العمل فى إعادة بناء الهيكل الى مراحل زمنية ليستمر البناء وقتا طويلا يستطيع فيه أن يستبدل بصورته القبيحة صورة «الملك المتدين» الذى يقدس التوراة وفى سياق إستبدال الصورة قرب الفريسيين قادة الشعب الدينيين وبالغ فى احترام زعيمهم ولكنه كان يتشكك دائما فى نواياهم خاصة بعد أن بدأ يهتز لشعوره بأنه لم يعد موضع ثقة «روما» وأنَّ الصدوقيين أنْصَاره الأول فقدوا هم أيضا الثقه فيه وبدأوا يعملون فى الخفاء ضده. فى هذا الجو المشبع بالشك أراد أن يستوثق من صدق ولاء الفريسيين له فطلب منهم فى اجتماع ضم زعماءَهم أن يُقْسِمُوا أمامه على الإخلاص له ولروما . نزل عليهم هذا الطلب كالصاعقة لأنهم كانوا مستعدين للتعاون معه ولكن دون أن يفقدوا مجدهم عند الشعب الذى أقاموه على إدعاء معارضة الخضوع لروما وإدعاء المحافظة على تراث الشعب «المقدس» ومعنى أنْ يُقْسِمُوا على الاخلاص له ولروما أنْ يهدموا احترامهم لدى الشعب هذا الاحترام الذى لولاه ما أعارهم «هيرودوس» أدنى اهتمام وهكذا وجدوا أنفسهم مضطرين حفاظا على مكانتهم عند العامة أن يرفضوا إعطاء اليمين على الإخلاص «لهيرودوس» وسادته الرومان فعادت العلاقة بينهم وبين السلطة الى التوتر وأخذ «هيرودوس» فى اضطهادهم من جديد وشرعوا هم يعودون إلى إثارة الشعب ضده خاصة بعد أن قَتَلَ أمرأته وبقية عائلة الحشمونائيم فى خطته «البارعة» التى لم ينطل خداعها على أحد .

وفقد «هيرودوس» كل حليف ممكن وخسر تباعا كل أنصاره. خسر «الصدوقيين» بتقربه لإعدائهم «الفريسيين» وخسر «الفريسيين» الذين رفضوا أن يعطوه إخلاصهم وبدأ يخسر مركزه فى «روما» فأخذ يشدد اجراءات القمع ويزيد من الضرائب ويتعامل بالشك مع كل الأطراف وبدأ الإضطراب يجتاح المجتمع اليهودى فى جميع المستويات وفى كل اتجاه .

أما «الكهنة» الذين صاروا يعطون تأييدهم لكل سلطة حاكمة فلم يكن يشغلهم إلا جمع المال ولذلك سمحوا بأن ينتقل السوق الى جوار «الهيكل» لتكون الأنعام والطيور التى تقدم كقرابين أو نذور قريبة من أيدى الذين يريدون شراءها من «زبائن» الهيكل الذين يأتون إليه طلبا للحصول على الغفران أو البركة فى الذرية بتقديم الفداء أو الوفاء بالنذور. إن الكهنة صاروا يتاجرون فى هذه السلع والتاجر الماهر يجب أن يجعل بضاعته قريبه من يد الزبون وأندفعت السوق تحاصر المعبد وتحيط به من كل جانب.

وأصبح «زكريا» محزونا لقد أوشك أن يغادر الدنيا تاركا قومه على شفا حفرة عميقة من النار دون أنْ يستطيع أن يفعل لهم شيئا. كان يرى بعينين تفيضان بالدموع ذرية «خليل الله ابراهيم» أبناء اسرائيل وهم يندفعون إلى الجحيم اندفاع الفراش إلى النار يوشك أن يسقط فيها وهو يقف عاجزاً عن منعهم من ذلك الهلاك الأبدى الذي يسرعون إليه الخطى .

كان عليه فى هذا الصباح أن يخرج الى الهيكل لأن نوبة فرقته قد حلت وأحب أن يذهب مبكرا ليتمشى قليلا بين الحقول ليستنشق عبير البكور الذى يحمل عطر الجنة قبل أن يتجه الى الهيكل .

أطل على «مريم» فوجدها مستغرقة فى الصلاة داخل غرفتها فسلم عليها فى سره ثم اتجه الى باب البيت يريد الخروج .

لقد روض نفسه على قبول حكم «الله» الذى قضى بحرمانه من الأبناء حتى رضى به الى أن جاءت «مريم» مشرقة الوجه ببركتها فحركت فى قلب النبى حنان الأبوة الذى كان ممسكا عن الجريان وراء حاجز «الرضى بحكم الله» فاندفع سيل الحنان يسأل «الله» القادر على كل شئ «الذرية الطيبة» لما عاين الثمار التى تأتى فى غير أوانها. إن «مريم» نفسها ثمرة طيبة قد جاءت فى غير أوانها .

من الذى قال أن «الله» قد حكم بحرمانه من الذرية.؟ إن «الله» لم يقل لقد تقدم العمر وظلت امرأته عاقراً منذ زواجهما لكن «الله» منح «ابراهيم» إبنيه وهو شيخ كبير وكانت «سارة» أم «إسحاق» عقيما لا تلد .

فهل أراد «الله» حرماني من الذرية ؟ إن «الله» يحكم ولا معقب لحكمه لكن من الذي يستطيع أن يدعى معرفة إرادة «الله» إلاّ أن يكون «الله» قد عَرَّفَه فهل أعلمك «الله» يا «زكريا» أنّه قد حرمك من الأطفال ؟ كلاّ ..

إن «الله» لا يحتاج الى الذكر أو الأنثى ليظهر إرادته ألَم يخلق الانسان من قطعة من الطين نفخ فيها من «روحه» فقام من الطين «بشر سوى» بلا أب يحمله فى صلبه أو أم تنبته فى رحمها أو ترضعه من ثديها . لا يحق لعبد مؤمن أن يلتفت إلى سبب ولا يجوز لعبد مؤمن أن ييأس من «رحمة الله» ما دام فى الدنيا «نور» .

شق طريقه وهو يتوكأ على عصاه يقترب من «الهيكل» والسوق التي تحيط به قد إزدحمت بروادها . تعالت أصوات الباعة والمشترين اثناء المساومات المتطاولة وأختلطت مع أصوات الأنعام وصيحات الأطفال وصراخهم حتى خُيِّل إليه أنَّ الهيكل يميد بهذا الضجيج العنيف ويوشك أن يتهاوى متصدعاً رغم أن البنّائين والعُمّال الذين تجمعوا حول «الهيكل» لم يكونوا قد انتهوا بعد من إتمام تجديده وتزيينه.

كان «هيرودوس» يبغى أن يُظْهِر للشعب أنه ملك عظيم قادر على أن يعيد إليهم المجد الغابر الذى ولَّى وأنه «يهودى» صادق يقدس الهيكل فها هو يجدده ليكون نظيرا لما بناه «سليمان» لكن «زكريا» كان يدرك أن هذه الخُدْعَة التى تحاول أن تعيد الزمن الى الوراء لن تفلح لأن الهيكل الذى لا يعمره المصلون الذين يجيئون إليه برغبة صادقة فى الاستماع الى موعظة «الله» واقبال صادق على العمل بها مثل هذا «الهيكل» لن يقوم بل سيتصدع ويخرب مهما حاولوا تقوية دعائمه فى الأرض وتزيين واجهته

وجدرانه بآيات الفن وملئه بالتحف النادرة والثمينة مساجد «الله» تعمر بالإيمان والعمل الصالح أما هذه الزخارف الكاذبة فإنها لا تخدع «الله» لأنه لا ينظر إلى الصور بل الى القلوب ودخل الى الهيكل ليشارك فى الطقوس .

ووقع عليه الإختيار ليكون له شرف الدخول إلى «المحراب» ليقوم بالتبخير ويتلقى «المدد» الآلهى إن صادفه التوفيق كما كان «موسى» يدخل خيمة الشهادة ليتلقى كلام «الله» ثم يخرج ليؤم الناس فى الصلاة ويكون صاحب القربان فى هذا اليوم .

دلف إلى المحراب في هدوء ثم وقف خاشعا وسط سحب البخور كان الصمت يملاء المحراب والضوء الخافت الذى يتسلل فى هدوء من خلال الضباب العطر الذى يصنعه انطلاق البخور يعين على محو الأشياء من طريق البصر والرائحة الزكية التى تنبعث تضئ الذكريات وتطلق الحنين من مجامر الأشواق وأحس «زكريا» بحاجته الى الصلاة فصف قدميه ووضع يديه علي صدره وأحنى رأسه ناظرا إلى موضع سجوده وأنسابت دموعه كأنها المطر ينزل من سماء واسعة تمتد بلا حدود الى ما وراء الأفق.

«قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا» (٥٦).

وأجهش بالبكاء ثم تمالك نفسه ليحسن عرض قضيته على من يعلم السر وما هو أخفى من السر فواصل كلامه قائلا **«وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا»** (٥٧) ثم اندفع يستغيث مناديا رحمة الرحمن الرحيم **«فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا»** (٥٨) .

كانت الكلمات تخرج من فمه محمومة ترتجف وهى تنضح بدموعه الحارة التى تسيل من قلبه وعينيه. صرخة استغاثة اندلعت من قلبه الذى يشتعل بالألم ينادى «الرحمة» كتمها الخشوع والحزن وخنقتها الدموع فخفيت على المنتظرين فى

«الهيكل» خارج المحراب لكن الذى يسمع الجهر والهمس ويسمع الصمت أدركها وسماها «نداء خفيا» .

إن الدعاء لا يضيف إلى علم «الله» بحال الداعى شيئا لأن «الله» هو العليم الخبير المحيط الذى أحاط علمه بكل دقائق حياة الداعى من بدايته قبل ولادته الى نهايته بعد موته ولكن مغزى الدعاء هو أن يخلع العبد رداء الكبرياء عن قلبه ويقف بين يديْ «ربه» طاهراً بريئاً من كل إدعاء باطل .

ولذلك أحسن «زكريا» بدء دعائه بالتذلل إلى «ربه» واصفاً فى بلاغة صادقة عجزه عن الخلاص من أزمته وقلة حيلته أمام ما يحيط به من صعوبات فقال إنَّ «العظم» وهو أشد ما فى الانسان «الهيكل» الذى يحمل الإنسان قال إنه قد أصابه الوهن فهو يشعر أن عظمه لم يعد قادراً على حمله والقيام به، صار كأنه بنيان يريد أنْ ينقض.

وقال إن الفتنة التى يُبْتَلى بها هى نار اضطرمت فى كيانه فاشتعل الرأس الذى يحمل الفؤاد بنار الفتنة التى يخوضها مع قومه وكان «الشيب» الذى ضرب شعره باللون الأبيض هو العلم المرفوع على رأسه دليلا على تلك النار المتقدة فى فؤاده وآية على استسلامه لحكم «الله» .

وعندما يخلع الانسان عن قلبه «فى الدعاء» رداء الكبرياء الذى يحجبه عن ربه فإنه يعود بهذا التجرد إلى حقيقة عبوديته «لله» فيعيده «الله» إلى مقام خلافته الذى سجدت له الملائكة وتم فيه تسخير كل شئ للإنسان حامل أمانة «الله» فمن المحتم أنْ يُجَاب الدعاء لأن كل الاشياء تعود سيرتها الأولى مُذَّللة للإنسان الذى صعد بالدعاء إلى مقام «الخلافة» حيث محا من الانسان كل ادعاء باطل وأعاد الكبرياء إلى صاحبه الذى يليق به ارتداؤه حينئذ تكف الأشياء عن معاندة الإنسان وترجع إليه ذليلة خاضعة تطلب رضاءه بتحقيق طلبه .

لذلك ختم «زكريا» افتتاح ندائه الخفى بقوله «**ولم أكن بدعائك رب شقيا**»(٥٩) ولا ينبغى أن أبقى فى شقائى بعد دعائك يا آلهى إذ يستحيل أن تظل الأشياء فى معاندتى بعد دعائى لك فلابد أن ترجع المخلوقات كلها الى طاعتى بعد أن رجعت إليك ربى بدعائك محققا عبوديتى لك وشاهدا على استخلافك لى «إن دعاءك(٦٠) ربى يجيب دعائى فيزيل شقائى» .

«الشقاء» هو شعور الإنسان بالعجز امام الأشياء التى تؤذيه دون أن يستطيع دفع أذاها عنه لأنها لا تخضع لسلطانه وتتعالى على قدرته فيأتى «الدعاء» الذى يعنى «الصلاة» فيزيل الشقاء لأنه يرفع الإنسان إلى رب الأشياء يصله بالقادر على كل شئ فيتحرر الإنسان من إحساسه بالعجز الذى يناقض شعوره العميق بسيادته على الأشياء بموجب «العَهْد» الذى قطعه مع ربه والموثق فى قلبه بأنه خليفة الله فى أرضه وبهذا التحرر يستريح العبد المؤمن بمجرد دعائه ربه لأنه يُصَدّق وأنَّ «الله» قد استمع الى سؤاله ويُصَدّق أنَّه قادر على أجابة سؤاله لأنه قادر على كل شئ ويُصَدّق أنَّ «الله» هو العليم الذى يعلم حقيقة الأشياء ظاهرها وباطنها ومن ثم فإنه يتنازل عن اختياره وهو بقية كبريائه إلى اختيار «الله» مُصَدّقًا أنَّه الافضل له لأنه يُصَدّقُ أنَّ «الله» هو الأعلم به من نفسه وحينئذ لابد أنْ تقع الإجابة التى ترضى العبد لأنه بدعائه قد أرضى ربه .ذلك «التصديق» هو الإيمان .

وكما أحسن «زكريا» افتتاح دعائه فقد أحسن عرض قضيته فذكر أنَّه يخاف على «كتاب الله وشريعته» من قومه الذين هم أقاربه «مواليه» بعد موته لأنهم قد فسدوا وأفسدوا إنه لم يجد فيهم واحداً يستطيع حمل أعباء الرسالة من بعده والقيام بحفظ «الشريعة» امراً بالمعروف ونهيا عن المنكر وقد ظلت أمرأته عقيما حتى يئست من الحمل ولذلك فهو يسأل أنْ يمنحه ربه رجلا صالحاً يوليه حبه ليعطيه علمه وحكمته فيرث من

«زكريا» النبوة والرسالة ويرث من أبناء نبى الله «يعقوب» العهد الذى عقده «الله» معهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا فَيُمَكِّن لهم فى الأرض .

ولَمَّا كان «زكريا» يعلم أنَّ الدعاء قد يحمل شبهة الاعتراض على حكم «الله» لأن الدعاء هو طلب تغيير حكم «الله» القائم وهو اعتراض خفى أراد أنْ يمحو شبهة الاعتراض بأن يكون الوريث المطلوب كامل الرضى بحكم الله «رضياً» فسؤاله أنْ يكون وريثه كامل الرضىً هو تعبير عن رغبته فى استكمال «الرضى عن الله فى وريثه وهو ما يعنى أنه يتهم نفسه بنقص رضائه عن ربه منكراً على نفسه أنَّ دعاءه يحمل شبهة الاعتراض على حكم قد أنزله «الله» وهذا من صدق رضائه عن ربه كأنه قال «إن لم أكن رب راضياً عنك تمام الرضى فاجعل وريثى المطلوب منك رضياً لأستكمل فيه رضائى عنك» .

وحينما يطلب «زكريا» وريثاً يرث منه النبوة والرسالة ويرث من بنى اسرائيل عهدهم مع «الله» فهو فى الحقيقة لا يطلب إلاَّ انقاذ الأمة التى كَلَّفَهَا «الله» بحمل رسالته من الاهلاك. إنه يطلب إبقاء شعبه حياً بإبقائه مُخَاطبا من «الله» بواسطة وريثه. إذن فهو لا يسأل إلا بقاء الإيمان في قومه وهو ما يعنى استمرار عبادة «الله» وبقاء مجده فى الأرض لذلك فإن إجابة «الله» جاءت أسرع مما كان فى وسعه أن يتصور وعلى نحو لم يخطر بباله فلم يكد يتم دعاءه حتى ملاء سمعه نداء الملائكة الذين هرولوا إليه من كل سماء يلتفون حوله وهو لم يزل واقفاً فى المحراب يصلى. قال «إمامهم» لما وقف قبالته بصوت يملاءه الفرح :

«ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين»(٦١) .

فاجأه النداء فاندهش وأخذ يحدق فى جمع الملائكة الذين ملاءوا المحراب وجوههم

المشرقة الدافئة كأنهم الشمس فى يوم من أيام الشتاء وملابسهم البيضاء الطاهرة كأنها الثلج وقلبه يتدبر الكلمات وفؤاده يسبح فى النور يحاول الوصول الى المعنى .

«يحيى» يا له من اسم عجيب يمتلئ بالحياة لم يُسْمَع به من قبل لم يتسم رجل فى بنى اسرائيل بهذا الاسم فمن يكون «يحيى» (٦٢) هذا ؟!.

«مصدقا بكلمة من الله» مؤمناً بكلمة تنزل من الله إذن سوف يرسل «الله» رسالة جديدة وسيكون «يحيى» مؤمنا بها ومؤيدا لرسولها فمن يكون «النبى» الرسول حامل الكلمة ومن يكون «يحيى» هذا ؟ .

«وسيدا» رجلاً عالياً له السيادة على الناس فهل سيكون ملكا يسوس الناس أم سيكون عالما يقود الشعب فى طريق النجاة .

من سيكون «يحيى » هذا ؟؟

«وحصورا» سيكون رجلاً أعزباً لن يتزوج !! هل هناك مَلِكٌ فى بنى اسرائيل لم يتزوج ؟ أيمكن أن يكون الرجل عالما بشريعة «الله» ولا يتزوج ياله من انسان عجيب «يحيى» هذا تُرَى من سيكون ؟؟؟؟

«ونبيا من الصالحين» إذن سوف يبعثه «الله» نبيا فى بنى اسرائيل اختاره من بين عباده اللائقين بالحياة الباقية فى جنات عدن هو الوريث الذى كُنْتَ تطلبه «يا زكريا» ليرثك النبوة والرسالة ويرث من بنى اسرائيل عهدهم مع «الله» لكن من يكون «يحيى» هذا ؟؟ ابن من سيكون ؟؟ أيكون لى إبن؟ أفى هذا العمر؟ أهذا ممكن ومن هو الرسول النبى صاحب الكلمة الذى سوف يكون «يحيى» مصدقه ؟؟ يالها من بشرى عجيبة تحمل نبأ نبيين كانت الاسئلة تدور فى قلب «زكريا» وفؤاده يسبح فى النور وراء المعنى حين فاجأه نداء أعلى «**يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا**» (٦٣) .

لقد أجاب هذا النداء الأعلى الصادر عن «روح الله» على الأسئلة التى كانت تدور فى قلب «زكريا» وأجلى له بعض المبهمات فعَرَفَ أن «يحيى» هذا هو إبنه الذى طال انتظاره له وعرف أنه الوريث الذى يُبْقى «حبل الله» ممدوداً إلى بنى اسرائيل لعلهم يتشبثون به فينقذهم من «الهاوية» التى صاروا يتأرجحون على حافتها وعَرَفَ أنه قد صار الآن مُخَاطَباً من «روح الله» القائم أبداً فى حضرة «الله» سر الحياة الذى صدر عنه كل شئ فغاب عن بنى إسرائيل ومصيرهم وتغاضى عن وريثه وقصته ولم يعد يشغله إلا خطاب «الروح» إليه لقد صار بهذا النداء الأعلى فى مقام «موسى بن عمران» عندما نودى فى الوادى المقدس إذ رأى فى الظلام شجرة تتوهج ناراً .

إستمع إلى أسمه يُنَادَى « يا زكريا » فأحس أنَّ اشتات نفسه قد تجمعت وتألفت فى كائن واحد عرف فيه نفسه كما عرفها حينما استمع إلى إسمه و«آدم» يتعلم من «الله» الأسماء كلها . لقد استكمل «زكريا» بهذا النداء الأعلى معرفته بنفسه التى يَعْرِفُ بها ربه ولم يعد يشغله إلاَّ إطالة أمد الخطاب. فعندما يتفضل الرب بالنداء على عبده فمن الأدب أن يعمد العبد إلى إطالة حبل الحديث كما فعل «موسى» من قبل .

. **«قال رب أنَّى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر»**(٦٤)

يا آلهى من أين استطيع أن أحصل على غلام لى وقد أصابتنى الشيخوخة وامرأتى عقيم عجزت عن الحمل منذ زواجنا ؟؟

يستحيل أن يكون «زكريا» وهو الرجل الرشيد والشيخ الجليل لا يعلم من أين تأتى الأطفال أو يجهل كيف يولدون ومن ثم فمن غير المكن أن يكون سؤاله طلبا للعلم بكيفية حصوله على الغلام الموعود .

ومن غير المكن فى حقه وهو النبى العارف بالله أن يكون غير عالم من أين تأتى المخلوقات .

لقد قال من قبل وهو يعاين فى المحراب أنَّ الثمار تأتى «مريم» دون وسيلة ظاهرة وفى غير أوانها قال «رب هب لى من لدنك ذرية طيبة» وقال اليوم فى افتتاح دعائه «فهب لى من لدنك وليا» فهو بلا شك يعلم أن الذرية الطيبة وكل الخلق إنما يأتون من **«لدن»** الله .

ولا يمكن أن يكون تساؤله شكاً فى قدرة «الله» على منحه الغلام الذى سبق له أن سأله «الله» فيستحيل فى حقه وهو «النبى» الذى يتلقى كلام بأذنيه أنْ يشك فى قدره «الله» أو أن يسأل «الله» ما يظن أنَّ «الله» يعجز عن إتيانه فهذا عبث لا يليق بعوام المؤمنين فما ظنك بالأنبياء ؟ فضلا عن أنَّ مقامه هذا ليس فيه شك .!!

لقد نطق «زكريا» بهذا التساؤل تعجباً من لطائف صنع «الله» التى لا يمكن توقعها واستعظاما لهبة «الله» الذى أعطاه ما طلب بل أكثر مما طلب وعلى نحو لم يخطر له على بال وهى هبة لا يُسْتَطاع مكافأتها شكراً وتنزيها لقدرة «الله» أن يستطيع مخلوق أن يبلغ وصفها فكأنه قال من وراء تساؤله بلسان حاله «لولا أنك أنت الذى أخبرتنى ما صَدَّقْتُ أننى فى مثل سنى ومن مثل أمرأتى العاقر أستطيع أن أظفر بغلام» فكان تساؤله هو أبلغ شكر لأن كلمات اللغة لا تستطيع أن تحمل ما يملاء قلبه من شكر ربه فارتدى شكره الذي يتعالى على الوصف ثوب السؤال لكنه فى الحقيقة كان يطلب بكلامه إطالة أمد الخطاب فليس من أدب «الأنبياء» العارفين بالله أن يتعجلوا إنهاء الحديث أو يقتضبوا فى الكلام وهم يتكلمون مع «الله» لذلك حقق «الله» رغبته فواصل الخطاب . **«قال كذلك الله يفعل ما يشاء»**(٦٥) .

غلامك المنتظر الذى يشير إليه إسم الإشارة «ذا» هو مثل مضروب من «الله» للناس على أن «الله» يفعل ما تتجه إليه إرادته ليعلموا أن أرادة «الله» هى أصل ظهور الأشياء وقد أشار إلى المثل حرف التشبيه « كـ» . «قال كذلك الله يفعل ما يشاء» .

وخشى «زكريا» أن تكون هذه الإجابة المقتضبة الحاسمة تعنى أن ينقطع حبل الخطاب فأسرع يحاول وصله مكرراً شكره فى تساؤل جديد .

« قال رب أنّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا » (٦٦)

فى هذه المرة عبر عن عقم أمرأته بصيغة الماضى «كانت» لأنه قد أُلهِمَ أنَّ «الله» قد أصلح(٦٧) أمرأته وهيأها للإنجاب لكنه بالغ فى وصف عجزه هو فقال أنه قد تجاوز فى الشيخوخة حداً يستحيل بعده أن تبقى قدرته على الانجاب «بلغت من الكبر عتيا» .

· لقد أعاد تساؤله ليؤكد شكره وهو يعلم أن «الله» يزيد من شكره فكان بشكره الذى اتخذ صيغة التساؤل المتعجب يقصد الإستزادة من المعرفة فحقق «الله» له ما يريد إذ أجاب «الروح» على سؤاله «**قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا**» (٦٨) .

إن خلق «يحيى» من أبوين عاجزين عن الإنجاب وهو الأمر المشار إليه بـ «هو» شئ ميسر لقدرة «الله» يستطيع أن يأتيه فى سهولة فإذا كنتَ تظن أنه أمر عسير بالنظر إلى أسبابك فإن «الله» قال فى نفسه أنه أمر ميسور ناظراً إلى قدرته على كل شئ (٦٩) .

إن هذه الكلمات .. «**هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا**» هى الترجمة التى قام بها «روح الله» الذى يخاطب «زكريا» للكلام الذى قاله «الله» فى نفسه لما أظهر «زكريا» تعجبه من أن يظفر بغلام من أمرأته العاقر وقد أوغل فى الشيخوخة فهذه الكلمات هى صورة مشهودة فى ألفاظ بشرية يمكن للفؤاد أنْ يدركها قام بتصويرها «روح الله» محولاً كلمات «الغيب» إلى شئ مشهود وهذا

التحويل من الغيب إلى الشهادة أو النقل من حال الإستتار الى الظهور هو عمل «الروح». إن «روح الله» هو وحده الذى يمكنه أن يعاين ما فى نفس «الله» وأن يُفْصِح عما «هناك» وبذلك الإفصاح يظهر «الغيب» متحولاً إلى شئ مشهود .

لقد أغلقت أجابة «الروح» باب التعجب وخشى «زكريا» وقد انساب فؤاده فى نور «التذكر» أن ينقطع حبل الخطاب الذى تسرى فيه المودة فأسرع يصل الخطاب طلبا للمزيد من المعرفة .

قال « رب إجعل لى آية » (٧٠)

آلهى أعطنى علامة أعرف بها نزول «يحيى» فى رحم أمرأتى وأعرف بها صحة ما فهمته « **قال: آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار**» (٧١)

العلامة التى تطلبها هى أن تعجز عن الحديث مع الناس لمدة ثلاثة أيام لا تستطيع فيهن أن تنطق بلسانك عندما تريد أن تتكلم مع البشر ولذلك سوف تكون مضطرا للتفاهم معهم إلى استعمال لغة الرموز تشير بحركات رأسك وملامح وجهك ويديك وسائر جسمك أو بالحروف المكتوبة بالقلم إلى المعانى التى تريد أن تنطق بها بلسانك إنك لن تفقد القدرة على النطق بل ستظل فى الأيام الثلاثة محتفظا بقدرتك على النطق ولكن دون أن تُظْهِرَها للناس . سوف تكون إذن هذه الأيام الثلاثة أيام صمت إختيارى فترة صيام عن الكلام مع الناس فقط . لكن كلامك مع «الله» يجب أن يبقى متصلاً ولذلك أطلب إليك أن تبقى منتبها إلى حضور «الله» بأن يبقى لسانك بقدر ما تستطيع ناطقا بالثناء على «الله» والدعاء إليه وأن يظل بدنك وعلى قدر جهدك مشغولا بطاعة «الله» وأن يبقى قلبك ملتفتاً إليه بالمسامرة والمراقبة والمطالعة حتى يغرق ذِكْرُك له فى ذِكْرِه لك هذا هو ذكر ربك الذي آمرك بالإكثار منه وآمرك أن تنفق المساء قبل الغروب

والصباح قبل الشروق فى تنزيه «الله» بالثناء عليه بأسمائه والتدبر فى آياته عن أنْ يحيط به علم أو أنْ تصل إلى كنه ذاته معرفة أو أنْ يشار إليه فى شئ. هذا هو التسبيح الذى آمرك بالقيام به بالعشى والأبكار .

وملأه السرور إذ تدفقت المعرفة إلى فؤاده وإستخفه الطرب «**قال رب إجعل لى آية**»(٧٢) .

«**قال آيتك ألاَّ تكلم الناس ثلاث ليال سويا**»(٧٣) .

وخشى أنْ يتجاوز انبساطه حدود الأدب فالتزم الصمت وانقطع الخطاب وتذكر «زكريا» قومه الذين ينتظرونه فى الخارج ليبدأ الصلاة «**فخرج على قومه من المحراب**»(٧٤) .

نظروا إليه متعجبين تسائله عيونهم وألسنتهم عن سر مكوثه الذى طال فى المحراب حتى أوشك أن ينصرم النهار لقد ضيَّع عليهم كثيرا من الوقت وبدا لهم وجهه غريبا وقد شمل الاضطراب كيانه كله فعرفوا أنه تلقى وحياً من «الله» أو رأى «رؤيا» فأسرعوا نحوه يلتفون حوله يسألونه ماذا رأى ؟؟ وماذا عرف ؟؟

وطفق يلتفت إلى الوجوه التى أحاطت به وقد أتسعت عيناه وبدت على وجهه الدهشة يحاول أن يستجمع فؤاده ليحدثهم والكلمات تندفع من قلبه إلى لسانه تريد الخروج. ولكنها وقفت فجأة عجزت عن الانطلاق واتسعت عيناه أكثر وزادت دهشته وبددت المفاجأة كل الكلمات التى كانت تتجمع على لسانه تتهيأ للخروج إذن فقد بدأ الصوم "**فأوحى اليهم**"(٧٤) بهز رأسه وحركات يديه "**أن سبحوا بكرة وعشيا**"(٧٤) وأنسل من بينهم مسرعاً ليخرج من الهيكل وقد أطبق الذهول على القوم ولم يعرفوا ما الذى حدث ؟؟؟ .

·كان يتوكأ على عصاه وهو يمضى الى بيته مطرقا الى الأرض متعجباً من لطائف صنع «الله». إذن فغلامى قد نَزَلَ فى رحم أمرأتى تُرى منذ كم من الوقت وهو هناك ؟؟

لقد خرج منى دون أن أدرى ؟؟

وأرتسمت على وجهه ابتسامة هادئة تعانق فيها الفرح مع السخرية الفرح بهبة «الله» الخالق والسخرية من جهل المخلوق الذى يطلب الموجود ويرهق نفسه بحثا عن الماثل دوما بين يديه الحاضر معه دون انقطاع سائراً أبداً فى صحبته .

(٧)

« الاصطفــاء »

«وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار»

«سورة ص : ٤٧»

عاد «زكريا» الى بيته وقد أستولى عليه الذهول مما رأى ومما سمع. لقد أدركت أمرأته بمجرد أنْ نظرت إليه وهو يدخل البيت ساهم النظرات شارد الفكر أدركت أنّ شيئا ما أصابه فاقتربت منه وأخذت تسأله لكنها فوجئت بأنه لا يستطيع الحديث معها أصابها الفزع وظنت أنه قد مرض وفقد النطق وبدا عليها الإضطراب رغم محاولتها أن تتمالك نفسها فاتسعت عيناها من الخوف وأوشكت أنْ تصرخ إلاّ أنَّه أخذ بملامح وجهه وهزات رأسه وحركات يديه يوحى إليها أن «إهدئى واطمئنى وأن ليس في الأمر مكروه وبعد قليل سأتكلم »وتركها ودخل إلى غرفته .

وقفت حائرة لا تعرف ما الذى أصابه أيكون قد مسه الشيطان بسوء أو وقع تحت تأثير سحر سئ أو أن القوم قد هددوه وأصابوه بالفزع لما أغلظ لهم القول فى موعظته أو أن مرضا غريبا قد أصابه بالخرس أو أن ..

لم تعرف ما الذى أصابه أو ماذا تفعل له فأسرعت إلى «مريم» تخبرها بما حدث ففزعت «مريم» لما أصاب «زكريا» ولكنها أخذت تحاول إدخال السكينة فى قلب خالتها لأن «زكريا» نبى كريم على «الله» ورجل صالح لا يمكن لرحمة «الله» أن تتركه وحاولت المرأتان أن تطمئنا نفسيهما ما وسعهما الجهد دون أن تظفرا بشئ أما «زكريا» فقد ظل فى محبس صمته منطويا على نفسه داخل غرفته يعانى «معرفة» لا يستطاع النطق بها .

جلست «مريم» فى غرفتها تفكر فيما أصاب «زكريا» خائفة أن يكون قد حضره الموت وأنه قد أوشك على السفر فى رحلة الأبد. لم تكن تخاف عليه من الموت لأنه سيلحق بالأحبة الذين لم تظفر برؤيتهم أبوها «عمران» الذى لم تمتع بصرها بوجهه وأمها الحنون التى لا تتذكر صورتها. لقد غابت ملامحها وراء سحب النسيان التى يمحو بها «الزمن» كل شئ فى مسيره الدائم من الأزل الى الأبد والأنبياء الذين استمعت الى قصتهم من فم «زكريا» النبى وعرفت حياتهم من حياتها مع «زكريا» لكنها لم تظفر برؤيتهم .

لم تكن تكره الموت لأنه الباب الذى سندخل منه الى «الله» ونخرج الى الأبد من مشقة الابتلاء ولم تكن تخاف على «زكريا» من الموت لأنه نبى إستمع الى كلام «الله» ونال الحياة الأبدية لكنها تحزن لفراق «زكريا» أبوها الذى رباها وعرفت منه طريق الحياة الحقيقية طريق «الله» .

لذلك جلست محزونة مطرقة تنظر إلى موضع سجودها .

وعلىٰ حين فجأة أحست بنسيم عطر يملاء غرفتها كأنما فتحت نافذة من الجنة فانساب منها ذلك العطر ورأت جمعا من الرجال تضئ وجوههم عليهم ملابس بيضاء يتقدمون نحوها فى صمت وعليهم سكينة الوقار .

تقدم «إمامهم» قليلاً نحوها وفى صوت وقور يمتلئ بالحنان كأنه المصباح يحمل الأنس للمنتظر قال « **يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين .. يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** ».(٧٥)

واختفي الجمع الطاهر ذابت الوجوه والملابس وبقى العطر يملأ غرفة «مريم» فى بيت «زكريا» .

ذابت وحشتها ودخل الأنس قلبها عندما سمعت إسمها ينادى «**يا مريم**» تنسمت نسيم القرب فلما أتم الملائكة إلقاء البشرى كان الأنس يملأ قلبها كما ملأ العطر غرفتها «**إن الله اصطفاك**» لقد اختارك «الله» يا مريم لتكونى واحدة من نساء الجنة (٧٦) .

«**وطهرك**» ولقد أبرأك «الله» يا مريم من الحيض الذى يعترى نساء الدنيا كل شهر فرحت بهذه الهبة لأنها رأت فيها آية تؤكد بشرى دخولها الجنة لأن نساء الجنة لا يعتريهن الحيض ولا يشوبهن عيب من عيوب النساء فى الدنيا .

«**واصطفاك على نساء العالمين**» (٧٧)

ولقد أختارك «الله» لتكونى أفضل أمرأة فى البشر. بهذا الإصطفاء قد نلت شرف العلو على جميع النساء وعلى الرغم مما حملته البشرى من فرح ومجد إلا أن «مريم العذراء قد استشعرت المهابة وأحست أن أمرا عسيرا يوشك أن يطرق الأبواب لأن «الله» لا يرسل ملائكته إلا لأمر جليل يريد ابلاغه لمختاريه ولأن الملائكة قد نصحوها بالاستسلام لحكم «الله» دون معارضة والسجود طلبا للمزيد من القرب والعودة إلى الهيكل لتشارك المصلين فيه صلاتهم فتركع معهم «**إقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين**» .

إن «الله» يأمرها بأن تخرج من عزلتها التى فرضتها على نفسها وأن تعود سيرتها الأولى فى الذهاب الى الهيكل وحضور المواعظ والصلوات لتركع مع الراكعين.

لابد أن ثمة مهمة شاقة سيلقيها «الله» عليها ولذلك نصحها الملائكة بالرضى بقضاء «الله» والاستسلام لحكمه دون معارضة حتى لا تفقد إيمانها فى السخط. ترى ما الذى سيلقى عليها ؟؟ لماذا يأمرنى «الله» بالعودة الى الهيكل ومشاركة القوم صلاتهم رغم أننى أكون أكثر طمأنينة بمفردى ؟؟ .

وما هو الفضل الذى تميزت به فرفعنى «الله» فوق كل النساء ؟ أخذت الأسئلة تتكاثر فى قلب «مريم» وتزيد حيرتها حتى أنستها الفرح الذى جاءت به البشرى ولم تجد أمامها طريقا إلا السجود لربها تسأله البصيرة والمعونة .

وخرج «زكريا» من غيبة صمته وغادر محبسه فى بيته الى الهيكل حيث أخبر الناس أن سيولد له غلام سماه «الله» «يحيى» وأنه سيكون نبيا يبعثه «الله» إلى بنى اسرائيل وأن غلامه المنتظر هو آية أن «الله» لم يزل يرحم بنى اسرائيل ويمد لهم فى حبل النجاة لعلهم يتشبثون به وهو آية أن «الله» لم يزل يذكر عهده مع الأسباط آبائهم الأول ليخلصوا له عبادتهم فيمكن لهم فى الأرض وأنه سيبعث بعد غلامه نبيا عظيما وسيكون «يحيى» مؤمنا به ومؤيدا له فيجب أن يشكروا نعمة «الله» الذى لم يزل يذكرهم بأنبيائه ولم ينفض يده منهم رغم خطاياهم الكثيرة وليحذروا أن ينزع «الله» رحمته منهم ويلقى بهم إلى النار الأبدية .

كان بيان «زكريا» واضحاً قاطعاً لكل شك وصوته محذرا من عاقبة التكذيب أو التلكؤ كأنه يلقى بإنذار أخير وقد بدا عليه نفاد الصبر ثم أسرع خارجا من الهيكل الى بيته وقد وقف القوم حيارى أطبق الوجوم عليهم وهم ينظرون إليه كالمأخوذين لا يدرون ماذا يقولون أو يفعلون ؟

لقد نزل عليهم خطابه كالصاعقة ثم بدأوا يتعجبون مما قال ويتخاصمون ويختلفون وتعلو أصواتهم تعجب الجميع من هذا الشيخ الفانى الذى ظلوا ينتظرون موته منذ سنوات عديدة للخلاص من لسانه وها هو يخبرهم بأنه سيولد له من أمرأته العاقر غلام بل وقد اختار له أسم غريب «يحيى» من أين أتى بهذا الإسم الذي لم يتسم به أحد من قبل وهل من المعقول أنّ هذا الشيخ المتهالك يكون قادرا على الانجاب حتى هذا العمر وما الذى يجعله متأكداً هكذا من أن مولوده المزعوم سيكون ذكراً بل وقد سماه قبل أن يراه بهذا الإسم الغريب هل أصابه الجنون ؟ أم هو نبى صادق

يشبه أبانا «ابراهيم»؟؟ حتى أمرأة «زكريا» نفسها لم تصدقه عندما خرج من صمته وأخبرها أن رحمها يحتضن جنينا سماه «الله» «يحيى» لم يحاول أن يخبرها بالإشارة عندما كان فى صمته حتى لا تظن أنه قد أصيب بالجنون لأن «الخرس» الظاهرى الذي كان يعتريه كان سيؤيد توهمها مرضه ولكنها حتى بعد أن أفصح لها فى بيان واضح أن «الله» رزقه «يحيى» القابع الآن فى بطنها وأنه قد أصلحها لتصبح صالحة للإنجاب فإنها لم تصدق فى البداية لأن الأمر كان فوق قدرتها على التصديق ولاشك أنه اعتراها ما أعترى «سارة» أمرأة «ابراهيم» عندما بشرتها الملائكة بحملها «بإسحاق» فصكت وجهها من الدهشة وقالت متعجبة من لطائف صنع «الله» «أألد وأنا عجوز عقيم وهذا بعلى شيخا» . وكانت يئست من المحيض منذ زمن بعيد فلم يكن فى وسعها أن تدرك بدء الحمل. لقد تحملت أذي كثيرا من النساء اللاتى عيرنها لسنوات طويلة بعقمها ولكنها صبرت لحكم «الله» عليها وأحتسبت أجرها عنده .

عندما جاءت «مريم» إلى كفالة «زكريا» بعد موت أختها فإنها اتخذت من الرضيعة اليتيمة بنتا وروت برعاية «مريم» عطش الأمومة الذى كان يصرخ فى قلبها حتى رضيت لقد فاجأها «زكريا» «بيحيى» لكنها سرعان ما آمنت وأخذت تصيخ السمع إلى بطنها وتمعن النظر فى جسدها لعلها تسمع حركات غلامها فى بطنها أو ترى على صفحة بدنها آيات «يحيى» المختبىء فى رحمها. لقد عادت الشيخة الكبيرة لتصبح أمرأة شابة فى أول زواجها تعانى من الحمل الأول وتنتظر طفلها الأول وقد كان الظن أنها لا تنتظر إلا «الموت الأول» الذى كتبه «الله» على كل نفس. وفى فرح لم تستطع أبداً وصفه استمعت إلى أول طرقة دقها الوليد على جدار رحمها ليعلن عن «حضوره». لقد دخل بهذه الطرقة فى قلبها وأستقر هناك ملكاً متوجاً بحنانها على عرشه .

وأخذت آيات «يحيى» يتوالى ظهورها على كتاب جسدها. كانت أمرأة عجوزاً واهنة لكن «يحيى» أمدها بالشباب والقوة، وصارت تتحرق شوقا إلى يوم مجيئه لترى الذى استولى على عرش قلبها قبل أن تراه عيناها .

لم يكن يضايقها إلا النسوة اللاتى أخذن يكثرن من زيارتها يسألن عن أخبارها ويسترقن النظر إلى بطنها وصدرها ليعلمن أصحيح أنها حامل؟ . أم أن الأمر وهم اختلقته الرغبة الجائعة إلى الذرية ؟؟

كانت تود لو أمكنها أن تخفى «يحيى» الذى لم تره عن العيون التى تتلصص عليه خوفا عليه من العيون التى لا تحب نعمة «الله» على عباده و القلوب التى لا تخشى «الله» ومن الشيطان الذى يكره الإنسان ويود لو استطاع أن يأخذه معه إلى الجحيم ولكن لم يعد فى وسعها شئ وقد تم «إعلان» نبأ «يحيى» على الملأ وأصبح خبر حملها مشاعاً فى الناس تتناقله الألسنة فلم يعد فى وسعها إلا أن تضرع الى «الله» القادر على كل شئ الذى وهبها «يحيى» أن يحفظه من كل سوء وأن يتم لها نعمته فتضعه فى سلام .

رغماً عنها تجد نفسها تحاول أن تتخيل صورته. لابد أنه سيشبه «زكريا». لقد كان «زكريا» شابا وسيما قويا قبل أن يجرى عليه الزمن. لابد أن «يحيى» سيكون وسيما قويا كما كان أبوه. عرفت من «زكريا» أن ابنها سيكون رجلا عظيما سيكون نبيا فزاد حبها له وشوقها إلى رؤيته لكنها عرفت أيضا أنه سيعيش أعزباً حتى يموت فحزنت عليه لأنه سيعيش وحيداً غريباً. تأملت فى الإسم الغريب الذي اختاره «الله» له أيدل إسمه على أنه سيحيى حياة غريبة فأختار لها أسما يليق بها وزاد حزنها على غربته المنتظرة من حبها له .

لقد رحلت «حنة» وتركت «مريم» نبته صغيرة فهل سيكون علىَّ أن أرحل تاركة «يحيى» وأزداد تعلق قلبها «بيحيى» وراحت تتعجل يوم مجيئه فبدت لها الأيام بطيئة متثاقلة شديدة الوطأة على قلبها الذي لم يعد يحتمل شوقها الى «يحيى» المختبئ فى رحمها.

كانت «مريم» هى أكثر الناس فرحاً بقدوم «يحيى» بعد أبيه وأمه يملؤها شوق

البنت وحيدة أبويها الى شقيق يخفف من قسوة غربتها فى الدنيا . راحت تقسم وقتها بين عبادة «الله» فى الهيكل الذى عادت الى محرابه كما أمرتها الملائكة وعبادة «الله» فى بيت «زكريا» بخدمة «أمها» المسكينة التى تتحمل فى ضعف الشيخوخة أعباء جنين ينمو فى جسدها الواهن الذى ذهب الزمن بقوته .

تغبط نفسها لأن «الله» قد أجزل لها العطاء إذ قام بتربيتها «نبى» أخذت من فمه كلام «الله» وها هو يكرمها بأن تشهد مولد «نبى» وهى تعلم بنبوته ولم يزل جنينا مستورا فى رحم أمه . إن أمرأة «فرعون» التى كانت «مريم» تعدها قدوتها لأنها آمنت «بالله» وهى تحت رجل جبار يناصب ربه العداء لم تكن تعلم حين حملوا لها «موسى» سابحا فوق الماء داخل تابوته الصغير أنه «نبى» بل تحننت عليه وهى تجهل حقيقته لإنها كانت محرومة من الأطفال أما هى فإنها تعلم أن «يحيى» الذى يسبح الآن فى بطن خالتها «نبى» أعلم «الله» الناس بنبوته قبل أن يولد فياله من شرف رفيع ظفر به «يحيى» ويالها من نعمة كبرى فاض بها عليها الرحمن الرحيم أن تشهد هذا .

كانت تنظر إلى بطن خالتها المنتفخ وتقول فى سرها فى هذه البطن يسكن القلب الذى سيتلقى كلام «الله» وترتاح الأذن التى قُدرٌ لها أن تكون وعاءاً لكلام «الله» وتتعجب من لطائف صنع «الله» وعجائب رحمته كيف يحمى مخلوقاته داخل الأرحام على نحو لم يخطر لأحد على بال ويضمن لهم الطعام وهم بعد لا يعرفون أسماءهم بل لا يعلمون من أبوهم ومن أمهم. ربما لا يعلمون عن أنفسهم إن كانوا أحياءً يرزقون من «الله» أم لا ؟؟ ولكن هل يعلم المستقر فى رحم خالتى أن إسمه «يحيى» إن «الله» قد سماه وأبلغت الملائكة «زكريا» بإسمه وهو قائم بالمحراب فهل استمع «يحيى» لإسمه وهو فى الرحم وعرف نفسه من نداء الملائكة ؟؟.

اقتربت اللحظة وجاء المخاض، أسرعت «مريم» تنادى القابلة وهرولت النسوة من الأقارب والجيران و أشتدت ضربات المخاض وهرول «زكريا» إلى المحراب الذى استمع فيه إلى وعد «الله» فخر ساجدا يطلب من «الله» ان ينجز وعده .

ووقفت «مريم» بجوار خالتها التى تشبثت بها وكلما اعتصرتها يد المخاض غرزت أصابعها فى جسد «مريم» كما كانت أم «مريم» تفعل فيها وهى تغلق فمها بإطباق شفتيها بقوة لتمنع نفسها رغماً عنها من إطلاق صرخة مخيفة فيفلت من بين الشفتين المضمومتين صوت صراخ مكتوم نداء خفى يفصح عن أنين غامض ينبعث من قلب كل أم كتب «الله» عليها منذ «حواء» أن تلد فى ألم تستحق بمكابدته وهى تخرج «لله» مخلوقاته من رحمها أن يضع «الجنة تحت قدميها». لقد كرهت النسوة أن تبقى «مريم» فى الغرفة وأن تشهد الولادة وهى شابة لم تتزوج بعد وأوشكن أن يطلبن منها أن تغادر الغرفة لولا أن وجهها كان يبدى تصميماً على البقاء وكان لها من الهيبة ما أعجز النسوة عن أن يطلبن منها الخروج ولما تعسّرت الولادة صرخت القابلة «يا مريم» صلى لخالتك من فمك الطاهر يا أبنة «عمران» تُقْبَل الصلاة وتعالت الدعوات وأنهمرت الدموع فى بيت «زكريا» وفى المحراب حيث يسجد «لله» .

وعلى الطريق الذى شقته صرخات الألم ومهدته «الصوات» وبللته أمطار الدموع تهادى «يحيى» إلى شهود الدنيا .

«وسلامٌ عليه يوم ولد» (٧٨) نزل من «الله» فوقاه من نزغة الشيطان فلم يصرخ باكيا بل جاء صامتاً وقوراً وتطلعت الأعين إلى وجهه البديع وامتلأت القلوب بالرعب خشية أن يكون صمته للموت إلا قلب أمه التى تذكرت مجىء «مريم» فضحكت بينما كان الجمع يبكى لأنها عرفت ان «الله» قد أنجز وعده وأن ابنها سيكون سيداً لا يستطيع الشيطان أن ينال منه.

أيقنت النسوة أنه «حى» إذ حرك أطرافه وفتح عينيه خلال ذلك الشئ الابيض الذى يغطى وجهه فأطلقن صيحات الفرح وأنطلقن يقبلن المولود الجميل ويضعن جسده الصغير فى الملابس التى أعدت له وبينما كان الجمع يضحك كانت أمرأة «زكريا» تبكى. كان بكاؤها شكراً لم يعرف طريق اللغة فانساب من عينيها أما «مريم» التى كانت

تحدق ببصرها فى النبى القادم توا من الغيب خارجا من ظلمة الرحم فكانت تهمس فى سرها «سبحان الله تبارك القدوس أحسن الخالقين» .

حظى «يحيى» باهتمام الجميع .

استحوذ على أمه التى ولدته كانت ترى أن كل يوم جديد يقربها من الموت ويبعدها عن ثمرة حياتها التى جاءتها قرب النهاية فتزداد تشبثا به وهى تخشى أن تضطر لمفارقته صغيراً ضعيفاً يحتاج إلى من يرعاه كما تركت حنة «مريم» فتتضرع إلى واهب الحياة أن يمد فى عمرها حتى يشب «يحيى» ويصبح فى غير حاجة إلى أحد من الخلق.

واستحوذ على إهتمام أبيه الذى كان ينتظر فى شوق أن ينمو الغلام حتى يعده ليكون الوريث الذى يحمل عنه النبوة والرسالة ويجدد عهد بنى اسرائيل مع «الله» لعله ينجح فيما فشل فيه هو أيعود بنو اسرائيل على يد غلامه الى طريق «الله» المستقيم ؟!

واستحوذ على إهتمام «مريم» الفتاة التى بلغت سن الزواج وقد أخذ قلب الأم ينمو فى كيانها والأبنة وحيدة والديها التى تتلهف على شقيق أصغر يكسر حدة غربتها ويجدد حياة البيت الذى عاش زمنا طويلا فى ظلال الموت. الشجرة العجوز التى تضم فى عشها المتهالك «زكريا» و«خالتها» طائران أوشكا أن يرحلا البيت العجوز الذى كان يتهاوى جاء «يحيى» يجدد حياتة وينثر البهجة فى أركانه. تنظر إليه وهو يلتقم ثدى أمه وتتعجب كيف هدى «الله» هذا العصفور الصغير القادم تواً من الجنة الى هاتين الربوتين اللتين تعلوان صدر أمه وعرف أن فيهما قد جهز «الله» له رزقه تراقبه وهو يضحك ويلهو بتحريك ذراعيه وساقيه ويذوب قلبها حنانا عليه عندما تسمعه يبكى فتهرول إليه وتضمه الى صدرها حتى يهدأ ثم تبدأ فى ملاعبته حتى تصدح ضحكاتهما فتنير البيت كله بالسرور وخالتها تنظر إليها فى مودة وقد ارتسمت على وجهها الواهن ابتسامة حنونة «متعك الله يا بنيتى بالذرية الصالحة» فيزداد إشراق وجه «مريم» بحمرة الحياء وتعطى «يحيى» لإمه وتهرول إلى غرفتها .

كـانت تـتلقى دون أن تـدرى دروسـا فى رعـاية الطفل لعلهـا يومـا مـا تكون فى حاجة إليها .

أثار «يحيى» الإنتباه فى «أورشاليم» وغيرها من المدن التى سرى إليها نبأ الكاهن العجوز «زكريا» الذى أنجب غلاما كما تنبأ من قبل وأن هذا الغلام سيكون نبيا وُيْبَعث فى زمن رسـالتـه نبى آخـر سـرت هذه الأنبـاء فى الشـعب المتـعطش إلى عـودة «المجـد الغابر» فروت الآمال القديمة التى كانت قد أوشكت أن تموت فى القلوب وغيرت صورة «زكريا» فى أعين الناس فـألبسـتـه رداء المهـابة وبدأوا ينظرون إليه بإحـترام اذ صـاروا يقـارنون بينه وبين «ابراهيـم» خليل الله الذى جـاءت من ذريتـه الأنبـيـاء وبدأ الناس يتطلعون فى أمل إلـى زوال الكرب الحـاضر ويفتشـون فى الكتب القديمة لعلهم يجدون فيها ما يدعم آمالهم ويمدهم بالأدلة على صدق نبوة «يحيى» والنبى الآخر الذى سيبعث معه كما قال «زكريا» إذ بدأوا يقبلون نبوته .

وصـار «يحـيى» صـبـيـا يمشى فى ظل أبيه. كـان يلازم «زكريا» فى كل مكان وقد حرص أبوه على أن يأخذه معه إلى الهيكل ليشهد الصلوات والمواعظ والطقوس لتنطبع صورها فى فؤاده وتشكل سلوكه .

وعندما ابتدأ يُبين أخذ يعلمـه الشريعة وكتب الأنبياء ويحكى له قـصص المرسلين كما كان يفعل من قبل مع «مريم» .

جذبت كلمات «زكريا» قلب «يحيى». كانت تأخذه إلى «عالم آخر» يعرفه رغم أنه لا يستطيع تسميته وتذكره بحياة موغلة فى القدم عرفها قبل ولادته ثم نساها فجاءت كلمات أبيه لتحيى آثارها فى قلبه .

وأبتدأ الصبى «يحيى بن زكريا» يلاحظ فى انزعاج وحيرة أن الشيوخ والكهنة يكرهون أباه. كان يستطيع أن يلمح ألسنه الغضب التى تندلع من العيون القاسية وهى

تصوب نظرات الحقد على أبيه ويستمع فى خوف وإضطراب الى الأصوات الغليظة التى تندفع من أفواه القوم الذين تجمعوا حول أبيه يجادلونه .

رآهم مرة وقد التفوا حول أبيه يجذبونه من ردائه وأبوه المسكين يترنح بين أيديهم لا يدرى ماذا يفعل كادوا يبطشون به لولآ أن تدخل بعضهم ومنعوه منهم ثم حملوه إلى بيته .

لم يحتمل الرؤية فأغمض عينيه وأسرع يفر ثم جلس وحيدا يبكى «لماذا يكرهون أباه الطيب ؟؟ لماذا يسمح «الله» الذى يحبه ويحب أباه بهذا الظلم ؟؟ ».

وعاد «يحيى» فى الليل محزونا وقد جففت الحيرة دموع عينيه. نظر إلى وجه أبيه الحنون وهو يضئ فى العتمة فعادت الدموع تفيض من عينيه من جديد. هرول إلى أبيه يقذف بنفسه فى حضنه فتلقاه أبوه وضمه الى صدره. ثم أخذ «يحيى» يتلقى الدروس من أبيه .

علمه أن الشريعة هى الطريق الوحيد للظفر بالحقيقة وأن التمسك بها هو الباب الوحيد للدخول الى الحياة الحقيقية وأن أعداء الإنسان الذين يبغون إهلاكه بحرمانه من رحمة «الله» كثيرون أولهم أبليس وجنوده من الشياطين ولكن أقواهم وأشدهم مقاتلة للإنسان هو نفس الإنسان التى تدعوه الى التهاون فى فروض «الله» والإستخفاف بأحكامه وتغويه بإرتكاب المعاصى وأن الدنيا هى ميدان حرب بين الانسان وأعدائه وإذا أراد الانسان الفوز على أعدائه وأشدهم عداوة له هو نفسه فعليه أن يتشبث بكتاب «الله» يتعلم أحكامه ويعمل بها ما وسعه الجهد ويتدبر آياته ليفهم أسرارها ما وسعه الفهم ولا يدع كتاب «الله» يسقط من يديه أبداً. هذا هو طريق النجاة فى هذه الحرب التى تشتعل نيرانها ولا مجال لمجاملة الناس على حساب الحق. إن الفريضة التى افترضها «الله» على الأنبياء ثم العلماء الذين يرثون منهم علمهم هو حفظ شريعة «الله» هذا هو الشكر المطلوب من الأنبياء والعلماء على نعمته التى أنعمها عليهم إذ

استودع قلوبهم علمه وإلا فقد خانوا الأمانة التى حملها «الله» لهم. لقد تلخصت دروس «زكريا» لغلامه فى قوله «**يا يحيى خذ الكتاب بقوة**» (٧٩) .

وأقبل «يحيى» على تعلم التوراة وكتب الأنبياء كما تلقاها من فم أبيه فأظهر قدرة عجيبة على حفظ النصوص وفهمها وأستنباط الأحكام وتأصيلها حتى أن «زكريا» بدأ يتذكر «سليمان» الصبى الذى كان يحضر مجالس أبيه «داود» النبى الملك وكان قادرا بفهمه على مراجعة أحكام أبيه وتعديلها خاصة وأن «يحيى» قد وُهِبَ مهابة الملوك فكان على صغر سنه يوحى بملامحه وسلوكه الوقار إلى أعين الناظرين إليه. قال «الله» مخاطبا النبى الأمى واصفا هبته إلى «يحيى» «**وآتيناه الحكم صبيا**»(٨٠).

لكن «يحيى» كان سيدا من طراز آخر. أحب العزلة فمال الى الخروج منفردا إلى الجبال والأماكن النائية. طلب من أبيه أن يصبح راعياً للغنم فتبسم أبوه ضاحكا من طلبه وقد فهم حكمة «الله» فأعطاه ما طلب فكان «يحيى» يقوم من نومه مبكرا فيغتسل ويصلى مع أبيه وبينما يدخل أبوه فى الذكر فإن «يحيى» كان يقوم بمعاونة «مريم» فى إعداد الطعام ثم تذهب «مريم» إلى المحراب وتنشغل خالتها بشئون بيتها أما «يحيي» فإنه يسرخ مع غنمه إلى المراعى يسوقها الى منابت الكلأ وعيون الماء .

يتأمل الجبال فى شموخها وثباتها ويتعجب من الأزهار البديعة التى تنبت بين الصخور القاسية ويتسآءل فى نفسه عن القدرة العظيمة التى جمعت بين القوة والجمال والصلابة والنعومة فى نفس المكان يجلس هادئا صامتا يراقب أغنامه وهى ترعى العشب الأخضر الجميل وينظر إلى الفراش البديع بأجنحته الرائعة وهو يطير بين الورود الملونة ويقارن بين ألوان الفراش وألوان الورود وبين حدة النسور ووداعة الحمام ورقة صوت العصافير وكآبة صوت الغربان يدهشه هذا التنوع الفريد الذى يزين الدنيا ويذهله أنه يشعر فى أعماق قلبه أن كل الكائنات إنما هى أفراد تنتمى لأسرة واحدة بل أعضاء فى جسم واحد مظاهر حياة واحدة لم تزل تتنوع وتتعدد وتتكاثر على نحو يتعالى على الفهم .

ومن شعوره العميق بوحده الكائنات كلها وصدورها عن نفس واحدة نبت فى قلبه الحنان الذى كان يملأه رأفة على المخلوقات كلها **«وحنانا من لدنا وزكاة»**.[81]

«وزكاة»

أدرك منذ صباه أن مهمة الإنسان فى الدنيا هى التطهر حتى يبقى فى رحمة «الله» ويكون أهلا للاتصال «بروح الله» فكان حريصاً على نظافة جسده وثيابه وطهارة قلبه من الكبرياء والكراهية والخداع وبراءة لسانه من الكذب واللغو والبذاءة لا يطيق أن يرى القذارة على شئ .

«وكان تقيا»[82] شديد الحرص علّى حماية نفسه من عذاب «الله» بالمسارعة فى الطاعة والمبالغة فى الإبتعاد عن المعاصى ومواطن اللغو واللهو والشبهات .

«وبرا بوالديه»[83] ناظراً إلى أنهما الباب الذى أتى منه كل فضل من «الله» عليه لأنهما الباب الذى أختاره «الله» ليهبه منه الحياة فلم يكن يأكل حتى يطمئن أنهما قد أكلا ولم يكن يخرج من البيت فى الصباح قبل أن يقبل يديهما ويسألهما الدعاء ولم يكن ينام قبل أن يتأكد أنهما قد تناولا طعامهما وناما مستريحين كأنهما قد صارا ولديه ولم يكونا والديه .

«ولم يكن جباراً عصيا»[84] إذ أدرك يوما بعد يوم أن المخلوقات كلها تسعى بأقدارها لتحقق أرادة «الله» إنها مثله لا تفعل شيئاً أكثر من تحقيق علم «الله» الذى كان فى «الكتاب» مسطورا .

إنه لم يخلق نفسه وإنما خلقه «الله» من أبوين يعجزان عن الإنجاب ولم يختر لنفسه شيئاً فإن «الله» هو الذى أختار مكان نزوله ووقت ولادته وأختار له حتى أسمه فعلى أى وهم من الأوهام يشيد الإنسان صرح إرادته المزعومة ؟؟

ليس لأحدٍ أنْ يفرض مشيئته إلاَّ «الله» فهو وحده المنفرد بالمشيئة ولا يحق لمخلوق

أن يزعم لنفسه إختياراً يجاور إختيار «الله» لأنه حينئذ يدعى أنه ندٌ «لله» أما توهم مصارعة «الله» ومعارضة إرادته فهو الجنون الذى لا شفاء له. هذا ما أنتهت إليه تأملات الصبى ولذلك لم يكن يحاول أن يفرض رأيه على أحد موقناً أن رغبة الإنسان فى فرض مشيئته المزعومة على غيره هي مصدر كل «الخطايا» التى تربط الإنسان فى الجحيم لأن أصل هذه الرغبة المشئومة هى الكبرياء الذى يهوى بالإنسان الى جهنم سجن المتكبرين. إن على الإنسان أن يجتهد ما وسعه الجهد فى الخضوع لإرادة «الله» لأن «الله» قد خلق الإنسان لطاعته هذا هو طريق النجاة ومن أجل هذا كان «يحيى» مستعداً دائماً لقبول الموعظة من كل أحد. من الشيوخ والكهنة فى الهيكل بل حتى من الرجال البسطاء الذين ربما قابلوه فى الهيكل أو فى الطرق غافلاً عن عيب الواعظ وغير عابئ بمكانته أو مظهره محاولا تبين الحق فى كلامه عازما على الرضوخ لمقتضى الحق عاملاً بإرشاده .

ربما قام بوعظه بعض الجهلاء الذين يفضح كلامهم جهلهم البين وهم يغفلون عن انه ابن النبى الذى تلقى العلم من فم أبيه الذى رباه على عينه لم يكن ليستهزئ بجهلهم بل يقدر دائما حسن نيتهم لرغبتهم فى إرشاده. لم يحتقر أحداً من الخلق لأن «الله» وحده هو الذى يعلم حقيقة خلقه فربما كان هذا الرجل الجاهل التافه الذى لا يأبه به أحد من الناس أفضل عند «الله» منه فليس له أن يظن أنه أفضل من أحد . يوجد واحد فقط هو أفضل من الجميع إنه «الله» الذى يجب أن يخضع له الجميع وهذا هو ما عزم عليه «يحيى» وهو يتجاوز عتبة الصبا إلى الشباب .

وحضر الموت ليحمل إمرأة «زكريا» إلى ربها وألتف الثلاثة حولها «زكريا» و«يحيى» و«مريم» يودعونها وهى تغادر الدنيا وقد اطمأنت على مصير ابنها . وأخذ الكبر من «زكريا» كل مأخذ فمالت شمسه إلى المغيب وصار لا يغادر بيته. لم يعد فى وسعه أن يذهب الى الهيكل أو أن يعظ الناس فمكث فى فراشه ينتظر الرحيل مستسلما إلى حكم ربه راضيا ممتنا يتلقى خدمة «مريم» و«يحيى» وهما يتنافسان على إرضائه ويسألانه الدعاء وقد صار قريبا من لقاء ربه .

أما «يحيى» فزاد ميله الى العزلة ولم يعد يحب أن يذهب الى الهيكل بعد انقطاع والده عنه. كان يكره صخب السوق التى تحيط بالهيكل ويمقت المجادلات العقيمة التى كانت تواصل الإندلاع بين الكهنة والفريسيين وبين الشيوخ من جانب والشباب على الجانب الآخر. كثيراً ما تبادل المتجادلون المتناحرون السباب بل كثيراً ما أشتبكوا بالأيادى فى عراك عنيف مختلفين فى تفاصيل الطقوس التى تضخمت وتعقدت بإضافة عادات الشيوخ وتقاليد الشعوب إلى فروض «الله» إذ استحال على «يحيى» أن يقتنع أن الإنسان يمكنه أن يعلم الحق وأن يعرف الحقيقة فى مثل هذا الجو الذى يخنق «الروح» فكان يفر إلى البرية ويلقى بنفسه إلى حضن الجبال ليظفر بالعزلة التى تمكنه من التهيؤ لتلقى المعرفة .

كان جمال «مريم» يأسر القلوب والعيون وكانت سيرتها الحسنة تعطر سماء «أورشاليم» وأرضها ورغم ذلك لم يتقدم أحد من رجال «أورشاليم» ليطلب يدها المعيشة الخشنة الزاهدة و الحياة التى استغرقتها الصلاة جعلت «مريم» العذراء البتول حلماً بعيد المنال بل حلماً مستحيلاً لا يسعى أحد فى ذلك العصر المظلم للإقتراب منه أما هى فكانت تغبط نفسها أن وهبها «الله» أن تحيى بين نبيين نبى أوشك أن يرحل ونبى أوشك أن يظهر شهدت مولده ولاعبته وهو بعد طفل صغير أطعمته بيدها وحملته على صدرها وهدهدته حتى ينام. راقبته عن قرب وهو ينمو كالشجرة الطيبة تحت بصرها ولم تكن تعلم أنها تحمل فى رحمها نبى آخر هو «عيسى» إبنها .

(٨)

« كلمة من الله »

«إسمه المسيح عيسى ابن مريم»

«سورة آل عمران : ٤٥»

رفعت وجهها من السجود فرأت جمعا كبيرا من الملائكة يتقدمون نحوها فوقفوا ثم خطا نحوها «إمامهم » وقال لها :

«يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين» (٨٥) .

كان الصوت ينبعث رقيقاً ودوداً وينساب فى قلبها محاولا طمأنتها لكن المحاولة لم تفلح لأن «العذراء» قد ملئت رعباً لما سمعته ينطق بـ «**إسمه المسيح عيسى إبن مريم**» فكيف يكون لها ولد ولم تتزوج بعد. ليست هذه بشرى بقرب زواجها لأن الصوت نسب الغلام إليها ولم ينسبه إلى أبيه كما تقضى شريعة «الله» الذى يرسل الملائكة إلى المصطفين من عباده ليخبروا بما يريد «الله» قوله. لا يمكن أن ينطق رسل «الله» الملائكة وهم لسانه بالكذب أو بما يخالف شريعته فكيف ينسبون الغلام إليها. هل هؤلاء حقا ملائكة ؟؟ إنها لم ترتب فيهم ولكن الإسم أفزعها وحيرها فأرادت ما يسكن قلبها ويبدد كل حيرتها فخرت على وجهها «لله» ساجدة تقترب تريد إجابة من «الله» لا يحملها سفير ولا واسطة همست إليه فى سجودها «**قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر**» (٨٦) .

لقد عاشت حياة طاهرة لم يلوثها شئ لم يلمسها رجل واحد ولا مرة واحدة ولم تشتهى رجلاً أو تفكر فى الزواج بل إنها لا تذكر أنها رأت فى أحلامها رجلا يغازلها فكيف يمكن أن تلد ؟؟ وجاءها الصوت من الملأ الأعلى « **قال كذلك الله يخلق ما يشاء** » (٨٧) .

ولدك المنتظر ليس إلا مثلاً مضروباً من «الله» للناس على أنه يُظْهر ما تتجه إليه أرادته فالأشياء تظهر لأن «الله» أراد خلقها «**إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**» (٨٨) .

عندما يحكم بنزول كلمة مستورة فى غيب السماوات والأرض فإنه لا يفعل أكثر من أن يستدعى هذا الشئ الغائب يأمره بالحضور فيكتسب الشئ بنور الإستدعاء وأمر الحضور القوة التى بها يكون «**ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولا الى بنى اسرائيل .. أنى قد جئتكم بآية من ربكم**»(٨٩) .

وانقطع الخطاب والتفتت «مريم» إلى جلوسها فى المحراب فأخذت تستبين فى صعوبة ملامح الأشياء التى بدأت تغيم. قامت ساهمة النظرات شاردة الفكر تحث الخطى إلى بيت «زكريا» وكلمات النبوءة تتردد فى قلبها الذى توهج من الخطاب كانت تهرول توشك أن تعدو وضربات قلبها تتسارع ونسمات ليل الشتاء الباردة تسلع وجهها المحموم دخلت إلى البيت وأسرعت إلى غرفتها ولم تنتبه إلى «زكريا» و«يحيى» اللذين كانا ينتظرانها فتبادلا نظرات تقول «ترى ما الذى أصابها» ؟! ولم يتكلما أو يظفرا بجواب .

رقدت فى غرفتها وهى تشعر بالحمى تذيب جسدها الذى كان يرتجف فأخذت

تلف نفسها بالأغطية الثقيلة. قلبها المتوهج يلهث باحثا عن السكينة وجسدها المتعب يطلب الراحة ولا يجدها. أخذ التعب منها كل مأخذ ثم أسلمها النوم إلى النور فانطلق فؤادها يطلب السكينة .

«إن الله يبشرك بكلمة منه»

إبنك كلمة نزلت من «الله» إليك فأبشري أنك حملت كلمة من «الله». لقد إختصه «الله» بوصف أنه كلمة منه مع أن الخلق جميعاً كلمات من «الله» لأن إبنك هو الذى يُظْهِر هذه الحقيقة ليعلم الناس أنهم فى حقيقتهم كلمات نزلت من «الله» فابنك هو الشاهد على هذه الحقيقة فحُقَ له أن يوصف فى الخطاب بأنه كلمة من «الله» .

«اسمه المسيح عيسى بن مريم»

سماه «المسيح» لأنه سيظهر بمسح رحمك «بروح الله» فهو «الممسوح» بيد الله كما مُسِحَت قطعة الطين فخرج منها «آدم» ومُسِحَ ظهر «آدم» فخرجت بتلك «المسحة» البشرية كلها فى النشأة الأولى قبل الحياة الدنيا. سيظهر فى رحمك بتلقى «المسحة» التى هى «نفخة الروح» فحُق له دون غيره من البشر أن يسمىَ «المسيح» لأنه يكون الدليل على أن الإنسان إنما يظهر بتلقى مسحة يد الله أو نفخة الروح وإذا كان كل البشر منذ هبطوا مع «آدم» إلي حياة الابتلاء قد تلقى كل واحد منهم وهو مضغة فى رحم أمه «مسحة من يد الله» أو «نفخة من الروح» بواسطة واحد من الملائكة وهو لم يزل قطعة من اللحم مغروزة فى جدار الرحم ليظهر فيها الإنسان فإن ابنك لن يُتلقى «روحه» أو «مسحته» بواسطة ملك من الملائكة ينزل إليه من السماء بل سيظفر بنفخته من «روح الله» الذى سيظهر لكِ فلن ينيب عنه أحد جنوده من السماء فى حمل روح «عيسى» بل سيأتى لينفخه فى رحمك (٩٠) .

ونسبه إليك فقال عنه أنه إبن «مريم» لإنك يا مريم بالجسد أمه وأبوه .

«وجيها في الدنيا والآخرة»

سيكون إبنك رجلاً مشهوراً فى الناس مرموقا يتطلع إلى وجهه جم غفير من البشر يعلقون آمالهم عليه وينتظرون الخير على يديه فى الدنيا وفى الآخرة .

«ومن المقربين»

وسيكون ابنك واحداً من عباد «الله» الذين ينعم عليهم بالحياة الأبدية فيواصل حياته بعدما يغادر شهود الدنيا بالموت يبقى حيا مع الذين أنعم «الله» عليهم مثله يتمتعون بجنات النعيم فى الدنيا وقبل قيام الساعة .

«ويكلم الناس فى المهد وكهلا»

وسيكون إبنك قادراً وهو لم يزل طفلا حديث الولادة على مخاطبة الناس خطاب الحكماء البلغاء ليعلن للناس براءتك ويكون كلامه وهو لم يزل فى المهد دليلا على صدقك وسيبقى حياً حتى يتجاوز عمر الشباب إلى الكهولة فيكلم الناس ليبين فضل «الله» عليك وعلى الناس .

«ومن الصالحين»

وسيكون فى الآخرة واحداً من الذين أختارهم «الله» فجعلهم لانقين للحياة فى بساتين الخلود المسماة جنات عدن .

«ويعلمه الكتاب»

وسينير «الله» قلبه حتى ينبعث فيه «علم الله» الذى حواه «ذلك الكتاب» الذى أودع الله فيه ما يعلمه (٩١) .

فيكون عيسى بهذا التعليم واحداً ممن «أوتوا العلم» الذين جعلهم الله شهداء على وحدانيته.

«والحكمة»

ويعلمه سنة «الله» المرضية فيهتدى إلى الطريقة المثلى فيظفر بالحياة الطيبة التى وعدها «الله» عباده الصالحين فى الدنيا مدة الإبتلاء .

«والتوراة»

ويعلمه الأسفار التى أوحاها إلى «موسى بن عمران» عند التكليم ثم ألهمه كتابتها بعد كسر الألواح . إن بنى اسرائيل قد نسوا توراة «موسى» وحذفوا من كلام «الله» وأضافوا إليه ما شاءت لهم أهواءهم فيكون «لعيسى» بهذا التعليم أن يعيدهم إلى كلام «الله» الحق ويجلو لهم بعض الإختلافات الكثيرة التى نشبت بينهم لضياع توراة «موسى» التى أوحاها «الله» إذ استبدلوا بها ما كتبه الكتبة والكهنة .

إن تعليم بنى إسرائيل «التوراة» الحقيقية التى ضاعت من السطور ومن الصدور وبيان مقصود الله من كلامه هو إحدى المهام التى سيقوم المسيح «عيسى بن مريم» بالإضطلاع بها حين يأتي أوان خروجه للناس .

«والإنجيل» (التبشير)

ويعلمه التبشير بالملكوت وهو «روح الله» الذى وهبه حياته فكما يكون «الملكوت» هو الذى يقدم «عيسى» إلى الدنيا بإظهاره من رحمك فإن على «عيسى» المخلوق من رحمك أن يقدم «الملكوت» إلى الدنيا معلناً قرب ظهوره .

«الإنجيل» هذا هو الإسم الذى تأخذه دعوة ابنك بين الناس .

«ورسولاً إلى بنى اسرائيل»

وسيكون غلامك رسولا من «الله» إلى ذرية يعقوب داعيا إياهم الى العودة الى طريق «الله» .

«أنى قد جئتكم بآية من ربكم»

لأن مجيئه مخلوقاً من الرحم دون أب من البشر هو برهان ساطع على قدرة الله الخالق القادر على كل شئ وهو بيان واضح لمن يتدبر يُعْلَم به كيف تكتسب الكائنات كيانها وهو دليل يؤكد صدق «عيسى» حين يأتى أوان تبشيره لأن مجيئه هو نفسه يشير إلى سعى «الملكوت» للظهور ويعلن قرب حضوره للناس. إن مجئ «عيسى» على هذا النحو هو نور إعلان للأمم أنَّ «الملكوت» الذى بشر به جميع الأنبياء منذ فجر الدنيا قد إقترب من الباب يوشك أن يطرق سمع الدنيا بكلمة الله الأخيرة .

وعرفت «مريم» أن أبنها «عيسى» كامن فى رحمها دون أن تدرى وأنَّ «روح القدسُ» هو الذي سيهبه روحه ولن ينيب عنه أحد الملائكة وأن ابنها هو الكلمة من «الله» التى بُشّر بها «زكريا» من قبل حين بُشّر بمجئ «يحيى» وأن «زكريا» و«يحيى» سيؤمنان لها. إن «الله» يريد أن يجعلها وابنها آية للناس يعلمون بها كيف تخلق الاشياء و «القُدس» هو مقام محبة «الله» أن يعرف «وروح القدس» هو «رسول الله» المعبر عن إرادة «الله» فى الظهور ، هو «روح الله» الذي وهب كل شئ خلقه. إنه الأصل الذى ظهر به جميع الخلق منه تستمد كل الكائنات كيانها. لقد عرفت الآن بم فضلها «الله» على جميع النساء لكنها لم تعرف كيف ستواجه «ملكوت كل شئ» وجها لوجه ليس بينهما حجاب ولا وسيط ؟؟

كيف يمكنها أن تقف أمام «سر الحياة» الذى يفيض بكل شئ. السر الأبدى الذى يُخْلَق به كل شئ كيف يمكنها أن تتصل «برسول الله» الذى يحرك المخلوقات كلها ، يد «الله» التى تهيمن على كل شئ وتدير السماوات والأرض كيف سيظهر لها هل يمكنها إحتمال ظهوره ؟ وماذا سيصنع بها أم أنها لن تراه وسيهبها الولد دون أن تدرى كما أنها تحمل الآن «كلمة عيسى» وهى لا تدرى وراحت رأسها تدور وقلبها يموج بالأسئلة وهى تخرج من «الرؤيا» وتلتفت إلى جسدها الراقد فى غرفتها ببيت «زكريا» فى «أورشاليم» وقد أشرق الصباح وأستبانت ملامح الأشياء فى نور الشمس .

عادت الحيرة لتملأها بالرعب من المصير الذي عاد فى ظلمة النسيان مجهولا عاينت أن القدر يسوقها رغما عنها إلى قبضة تجربة بدت لها وهى جالسة فى غرفتها مستحيلة العبور .

أطبق عليها الصمت وهى تشعر أنها قد ألقى بها فى بحر واسع عميق لا قرار له ولا شواطئ تتدافع أمواجه يعلو بعضها فوق بعض وهى تهوى في باطنه لا تملك أرادة ولا قدرة ولا حتى رغبة فى الاستغاثة بمن تستغيث ممن ؟؟ ..

لم تعد تستطيع أن تذهب إلى الهيكل بل لم تعد ترغب فى مغادرة غرفتها اذ كانت تعجز عن مواجهة «زكريا» و«يحيى» لا تعرف ماذا تقول لهما ولا كيف تتصرف ولَمْ تحصل على إجابة للأسئلة الكثيرة التى ظلت تموج فى قلبها وتشتت أفكارها فلم تكن تملك إلا أن تجلس شاردة الفؤاد ساهمة النظر صامتة فى غرفتها تنتظر أن تجد أجابة.

ثم لم تعد تخرج حتى لتتناول الطعام وأستبد القلق بـ «زكريا» و«يحيى» لا يعرفان ما الذى أصابها ولا يملكان إلا احترام العزلة التى فرضتها على نفسها فقد كان يبدو

عليها الضيق والتبرم كلما دعاها أحدهما لتتناول الطعام أو الحديث فآثرا أن يتركاها لوحدتها ويسألان «الله» لها التوفيق .

ثم فاجأت «زكريا» بطلبها أن تغادر غرفتها فى بيته لتصنع لنفسها بيتا خفيفا من الشعر لتحتجب فى الحديقة خلف المنزل لأنها تريد أن تعتكف «لله» تريد «الصلاة» وبدا له طلبها غريبا لا معنى له لأنها تقضى نهارها كله معتكفة تمكث بمفردها ولا يقتحم أحد عزلتها. هى فى صلاة دائمة فما الذى جرى حتى أنها تريد مغادرة غرفتها هل ضايقها شئ ؟؟ ما الذى أصابها ؟ لم يظفر بجواب ولم يملك إلَّا إجابتها إلى ما طلبت فصنع لها «يحيى» الحجاب الذى أرادته على الناحية الشرقية خلف المنزل. فأخذت «مريم» لوازمها الضرورية وأستأذنت «زكريا» و«يحيى» ودخلت الحجاب. لم تستطع أن تقول لهما شيئا. هى نفسها لم تكن تدرى بالضبط لماذا طلبت هذا كل ما كانت تستطيع أن تتبينه فى نفسها هو رغبتها فى الإختفاء عن العيون الرغبة فى الذوبان والتلاشى أن تعود كما كانت قبل الخلق لا شئ .

«واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فارسلنا إليها روحنا .. فتمثل لها بشرا سويا»(٩٢)

بينما كانت ترتفع من الركوع فرأته واقفا أمامها فى القبلة وعلى وجهه المشرق ترتسم ابتسامة لطيفة. رجل جميل الوجه مكتمل الرجولة لم تستطع أن تحدق فى وجهه لتألق مهابته. أنتفض كيانها كله من الفزع واتسعت عيناها وهما تحاولان التحرر من أسر نظرته وأوشكت أن تصرخ إلا أن الصرخة التى اندلعت من قلبها وقفت عند لسانها لا تريد أن تنطلق. صوت رقيق لم تعرف من أين ينبعث همس إليها أن اهدئى

واطمئني، توهمت لأول وهلة أنه إبليس وقد جاء يفتنها عن صلاتها فخرج صوتها في صعوبة «**قالت أني أعوذ بالرحمن منك**» (٩٣) .

تنادي رحمة «الله» التي وسعت كل شئ لتحميها من شر هذا الذي توهمته شيطانا رفعت رأسها من الإطراق لتنظر أذهب الشيطان أم لم يذهب ؟؟

ففوجئت بوجهه المشرق يزداد تألقا وقد فاض من وجهه الفرح «كلا ليس هذا شيطاناً» فلو كان شيطانا لولى أو أحترق إذن هو انسان فاجر تجرأ على اقتحام حجاب أمرأة لا تحل له فحدقت في وجهه تريد أن تستبين ما وراءه وهي تلومه على سوء سلوكه قالت «**إن كنت تقيا**» (٩٤) ما كنت تقيا لم تكن متصفا بالتقوى حين أقتتحمت حجاب أمرأة غريبة عنك دون استئذان فهذا ليس من سلوك الأتقياء وأنتظرت أن يلوم نفسه ويمضي خجلاً من فعلته ولكنه ظل قائما ووجهه الوقور يزداد جمالا في عينيها «كلا ليس هذا وجه فاجر ولا شيطان» فمن يكون ؟! .

وانساب صوته يبدد ما بقى في قلبها من الفزع

«**قال إنما انا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا**» (٩٥) .

ليس الأمر كما توهمتِ يا «مريم» فلستُ شيطاناً ولابشراً معدوم التقوى بل أنا «رسول الله» الذي تتشرفين بعبادته أرسلني إليك من أجل أن أمنحك ولداً ذكراً طاهراً منزهاً عن أن يكون ثمرة زنا ومبرأ من كل عيب، إن جسده الآن ينمو في رحمك.

فهذا إذن هو «روح القدس» الذي ظلت تسآءل نفسها في أي صورة يمكنها أنْ تراه لقد جاءها في صورة «الإنسان» .

لكنها لم تعرف كيف سيهبها الغلام ؟!

«قالت أنىّ يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا» (٩٦)

من أين وكيف أحصل على ولد ولم أتصل برجل ولا حتى باللمس الخفيف السريع ولو مرة واحدة ولست أمرأة تتاجر ببيع جسدها لطالبى المتعة المحرمة. فانظر الى رقتها ودقتها وهى تستعمل اللفظ الذى يعبر عن أقل مباشرة «المس» لتدفع عن نفسها الشبهة وأنظر الى حكمتها وبلاغتها وهى تقبح الزنا فتجعله علاقة لا تليق بالبشر لهذه المحاسن كلها استحقت «مريم» أن تكون أفضل أمرأة فانظر كم يحبها ربها لذلك كره أن يصل النون بالكاف حتى لا تصير «كن» وهو فى مقام وصف دفاعها عن نفسها فلم يقل على لسانها «ولم أكن بغيا» بل قال «ولم أك بغيا» فقطع الكاف عن النون ليؤكد طهارتها من الزنا فنفى أى احتمال لوقوعه فى العلم الآلهى إذ لم يعطه حتى في مقام النفى لفظ «كن» كما لم يرد أن يصل النون بالكاف وهو في مقام وصف «عدمية» «زكريا» قبل خلقه أول مرة فقال له في النداء الخفى «وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا» لم يقل له «ولم تكن شيئا» حتى يؤكد «إنعدامه» وإستحالة معرفته قبل ذلك الخلق الأول فانظروا إلى هذا القرآن الذى لا يستطاع الإحاطة بعلمه ولا وصف بلاغته ولا حتى سبر غور ألفاظه وحروفه .

«قال كذلك قال ربك» (٩٧)

إليك «يامريم» أترجم ما قاله ربك فى نفسه لما ظننت أن منحك الغلام الموعود دون أن تعاشرى رجلا أمراً عسيراً .

«هو علىّ هين»

قال ربك أنه أمر ميسور لقدرتى لأننى القادر على كل شئ .

«ولنجعله آية للناس» (٩٨)

«ورحمة منا» (٩٩)

«وكان أمراً مقضيا» (١٠٠) .

وكان «عيسى» بمجيئه الغريب إرادة «لله» مستورة في غيب السماوات والأرض وكانت قبل ذلك مسطورة فى كتاب العلم قد حكم «الله» بنزولها فلابد أن تظهر فى الدنيا .

أيمكن للمنذورة «لله» التى قضت حياتها فى الصلاة أن ترفض المشاركة فى صنع آية من «الله» للناس أو أن تبخل برحمة «الله» فتكره فيضها أيمكن للتى انقطعت فى المحراب ورباها النبى «زكريا» وتلقت من «الله» المعرفة أن تعارض أرادة «الله» .

وزالت من «مريم» كل معارضة وأسلمت نفسها بالإرادة التى تحررت إلى النور فى لحظة لا زمن لها تجاوزت الأكوان واتصل فيها الأزل بالأبد. لحظة لا يستطيع وصفها حتى الذى عبرها وخرجت «مريم» من الاتصال لتلتفت إلى جسدها راقداً على الأرض فى حجابها المستور الذى ضربته حول نفسها .

كان الليل قد أرخى سدوله وغرقت رسوم الأشياء فى بحر ظلمته وأفزعها من ينتفض فى بطنها فهبت واقفة وقد تملكها الفزع تحسست بطنها فأذهلها انتفاخها .

التفتت هل يراها من أحد .. ؟ لم تكن هناك إلاَّ تلك العيون البعيدة تومض فى سماء «أورشاليم» التى تغط فى نومها .

ربما كان «زكريا» و«يحيى» الآن نائمين أو يستعدان للصلاة لم تعرف ماذا تفعل

وقد ملأتها الحيرة وشتتت كل أفكارها فأسرعت تخرج من حجابها «**فحملته فانتذبت به مكانا قصيا**» (١٠١) .

كانت تهرول وتريد أن تعدو ولكن حملها الثقيل منعها من الإسراع ساقتها قدماها إلى الشرق دون أن تدرى، تريد أن تخرج من «أورشاليم» قبل أن يأتى الفجر تحت الخطى رغم الجوع والظمأ والتعب، وعندما تنفس الصبح ونشر نوره على الأشياء أبصرت أنها فى حضن جبل «الزيتون» فأخذت تبحث عن مكان مستور يخفيها عن العيون حتى تضع حملها .

. إلى جذع نخلة يابسة كانت تقف وحيدة بائسة مثلها وسط الصخور أسندت ظهرها وقد هدها الجوع والظمأ والتعب. كان جسدها الواهن قد أنهكه طول السير فلم تستطع ساقاها أن تحملاها فتساقطت إلى الأرض وقد جف لسانها كأنه شوكة فى حلقها رفعت رأسها تنظر الى السماء من خلال الأوراق الصفراء الجافة التى بدت لها كأشواك تتدلى من رأس النخلة المسكينة الوحيدة التى كانت تشاركها غربتها وحزنها وشقاءها .

تذكرت الأميرة «المصرية» التى تزوجها «خليل الله ابراهيم» وأنجبت له بكره «اسماعيل» إذ أمره «الله» أن يترك أمرأته وبكره فى مكان موحش ويذهب مهاجراً ليدعو الناس إلى عبادة «الله» إن رحمة «الله» لم تترك «المصرية» وأبنها ففجرت بجوار الصغير الذى كان يصرخ من الجوع والعطش ينبوع ماء لم يزل حتى اليوم وبعد مئات السنين عين الحياة للخلق فى جزيرة العرب وتفجرت الدموع من عينيها المحزونتين «ها أنا رَبِ قد جئتُ إلى هنا استسلاما لحكمك تسوقنى أقدراك ليس مَعِىَ طعام ولا ماء ولا أحد من خلقك يعيننى لا أعرف كيف سألد غلامى وأنا بمفردى وليس معى شئ اللهم

فلا تتركني رحمتك فإنني أفقر من المصرية إلى معونتك كان معها أبنها ولها زوج تنتظر رجعته أما أنا فإن غلامي لم يخرج بعد من رحمي وليس لي زوج يعزيني الأمل في عودته ليس لي أحد إلا أنت .

اللهم فاذكرني برحمتك يا أرحم الراحمين» وأنسابت الدموع حتى جف نبعها .

كانت الحيرة تملأها فليس معها من النساء أحد يعينها على الولادة وليس معها شئ لتقطع به الحبل الذي يربطها بمولودها ولا تعرف بماذا ستنظف جسدها من الدماء خائفة ظامئة تحس أنها على وشك الموت تخشى أن يكون أحد من الناس رآها فكانت تتلفت في كل اتجاه وفكرت أن تغادر هذا المكان ولكن إلى أين ستذهب فكل المواضع سواء في هذا الجبل إن رآها أحد من الخلق فسوف يقتلونها وربما قتلوه ملأها الحزن ونسيت البشارات وماجت الاسئلة في قلبها وكان النهار يواصل صعوده والأشياء تتبدى لها بوضوح صارم في نور الشمس ولا تعرف كيف تتصرف ثم جاءت اللحظة فلم يبق فيها إلا الألم .

«فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة» (١٠٢) .

إضطرتها ضربات المخاض إلى أن تتشبث بجذع النخلة الشاحبة وهي تتذكر كيف كانت خالتها أم «يحيى» تتشبث بها وهي تعاني ولادة «يحيى» كان المخاض يهزها بعنف وهي تمسك بالنخلة الضعيفة التي ذكرتها «بخالتها» وشعرت أنّ خالتها «النخلة» تميد بها توشك أن تتهاوى بها على الأرض. أمها التي ما عادت تطيق أن تثبت عليها وأوشكت أن تنطلق من فمها صرخة الألم لولا أنها ذكرت كيف كانت خالتها تغلق فمها بقوة وتزم شفتيها بعنف لتمنع صرخة الألم من الخروج فيتسرب من بين الشفتين المضمومتين رغما عنهما صراخ مكتوم يفصح عن الأنين الغامض الذي تكابده كل أنثى

كتب عليها أن تعانى المخاض وأصبح الألم فوق قدرة إحتمالها فلم تتمالك نفسها وأنطلق لسانها .

«قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» (١٠٣) .

آه كم ودت حينئذ لو كانت قد ماتت قبل أن تعانى هذا الألم الفظيع وأن تعود كما كانت قبل الخلق شيئا مستوراً لا يلتفت إليه أحد .

وتحن عليها الذى فى بطنها وهو يعاين ماتعانيه فى سبيل إظهاره وعاتبها لأنها نسيت البشارات التى أنزلها «الله» إليها ولأنها لا ترى أنه يستحق كل هذا الألم إذ فضلت الموت الذى يعنى عدم ظهوره على الألم العظيم الذى تكابده فى سبيل إظهاره. أحب أن يذكرها بالبشارات وأن ينزل السكينة عليها ليبدد شكها وحزنها وخوفها .

«فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا .. فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا» (١٠٤) .

إنبعث الصوت من رحمها الذى تلقى نفخة «الروح» .

كانت غريقة فى الحزن تتقاذفها موجات الألم والخوف من المصير الذى صار فى ظلمة النسيان مجهولا فبدا لها الصوت الذى يخرج من بطنها كما لو كان يأتيها من بعيد، ذكرها بصوت «الروح» رسول الله الذى رأته فى حجابها فانتشلها نداءه من قبضة اليأس الذى أوشك أن يهلكها وبدأت السكينة تتنزل فى قلبها فزايلها الحزن إذ أدركت أن «الله» معها .

نظرت تحت قدميها فانفجرت فى الحجارة عين ماء رائعة ذكرتها بالعين التى فجرها «الله» عند قدمي «بكر إبراهيم» وعيون الماء التى انبجست فى الصحراء بعصا «موسى بن عمران» فابتسمت فى وجه الماء ونظرت إلى النخلة الجافة الواهنة التى تتشبث بها وأمعنت فى الأوراق الصفراء اليابسة التى كانت كالأشواك وتساءلت أيمكن أن تثمر هذه بلحاً ؟! لكنها بقوة «الإيمان» هزت النخلة اليابسة وهى تقربها من جسدها فاخضرت الأوراق وامتلاءت الأسباط بالبلح الذى تم نضجه فى أقل من طرفه عين فصار رطباً شهياً ميسراً للجنى يتساقط عليها كأنه قطرات الماء تنزل فى المطر فعرفت أن «روح القدس» سر الحياة الأبدى قد فاض عليها فمن مس يديها وتقريب الجذع إلى جسدها تستطيع أن تمنح الحياة للنخلة البائسة. جلست على الأرض فى خشوع وقد شملتها الطمأنينة وأخذت تأكل فى بساطة حبات الرطب وتشرب من عين الماء وقد سكنت عينها ولم تعد تتلفت محاذرة أن يراها من البشر أحد. زال فى الطمأنينة خوفها وشكها وحزنها ولم يبق فيها إلا «شكر الله» وتذكرت الثمار التى كانت تأتيها فى المحراب فى غير أوانها وتذكرت قولها «لزكريا» «إنَّ «الله» يرزق من يشاء بغير حساب **«وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين»** (١٠٥) .

(٩)

« صراط الله المستقيم »

«قال انى عبد الله»

«سورة مريم : ٣٠»

وصلت إلى مشارف «أورشاليم» ونَفَسُ الصبح يحاول ايقاظ المدينة من نومها لقد سرت طوال الليل من جبل الزيتون قاصدة «أورشاليم» دون أن تشعر بالتعب لأن السرور بغلامها كان يملأها فأنساها حتى أنها تسير على الأرض كانت تشعر أنها تطير فى السماء بهذا الملاك الذى تحمله وتضمه الى صدرها تتوقف من حين لآخر للتزود، تزوده برزق «الله» الذي أودعه فى ثدييها وتتزود هى بالنظر الى وجهه البديع ويمس شفتيه المباركتين لحلمة ثديها وهى توقن أنها تنال بذلك بعضا مما أحتواه جسده البرئ الذى تصور فى رحمها بنفخة «روح القدس» رسول الله الذى تمثل لها بشرا سويا قبل أن يأتى أوان ظهوره فى الأرض للناس جميعاً .

وجدت أنها أمام أبواب المدينة التى أستيقظت من نومها فأحست كأنها قد نزلت إلى الأرض مضطرة وأن عليها أن تواجه الفتنة التى سوف تشتعل فى الناس نارها عليها أن تجلس على الأرض لتتدبر أمرها وتعد الإجابة على مطر الأسئلة التى سوف تنهمر عليها .

ضمت ملاكها إلى صدرها وألقمته ثديها وأخذت تفكر وتنتظر لعلها تظفر بإجابة.

إن أبنها آية للناس جميعا أنزلها «الله» ليعلموا سر حياتهم وعظمة ربهم القادر على كل شئ. لقد شرفها «الله» بحمل آيته فعليها أن تؤدى واجب شكرها بإظهارها للناس .

إن أبنها كلمة من «الله» يريد أن يخاطب بها قلوب الناس وأفئدتهم وقد أنبأها «الروح» أنه سيتكلم بلسان أبنها وهو فى المهد طفلاً حديث الولادة إذن فغلامها العجيب هو الذى سيتولى عنها إبلاغ رسالة ربه إلى خلقه والدفاع عنها من شر خلقه ولكن أين ؟؟.

من الهيكل مسجد «سليمان» ينبغى أن تنبعث كلمة «الله». عليها إذن أن تذهب إلى الهيكل لكن هل يمكنها أن تذهب وحدها وهى تحمل طفلاً ولدته دون أن تتزوج وهى المنذورة «لله» إبنة الكاهن العظيم التى قضت حياتها فى الصلاة ماذا سيقول الناس عنى ؟؟ .

هل تذهب إلى «زكريا» و«يحيى» وتدخل الهيكل فى حمايتهما إنهما سيؤمنان لى لأن الذى منحهما النبوة هو الذى منحنى غلامى لكن «زكريا» رجل مسن ضعيف لا يقوى على مواجهة الجمع الهائج و«يحيى» شاب صغير أخاف عليه أن يفتكوا به بل ربما أتهموه أو أباه بذلك البهتان العظيم الذى يتوهموه. ثم وبخت نفسها على قلة ثقتها فى «الله» الذى أطعمها الثمار فى غير أوانها ووهبها غلامها دون أن تتزوج فسلمت نفسها «لله» وثبتت نظرها الى الهيكل وهى تحث الخطى وقد تملكها العزم «وليكن ما يكون .»

أخذت تمضى فى طريقها وهى تتخفى تحت خمارها الذى أصبح يتدلى الى تحت صدرها بقليل بعد أن أقتطعت منه قطعة تلف بها «عيسى» وهى تضمه الى صدرها وبقايا خوف عليه وحزن على فراقه لم تزل تعبث بالطمأنينة فى قلبها الذى كان يتوهج وقد أوشك أن يذوب ليضئ الى الأبد .

بدأت تلاحظ أن «أورشاليم» تزدحم بالغرباء الذين يملأون الطرق المؤدية الى الهيكل لم تكن تلتفت إلى المارين فى الشوارع ولكن كان فى وسعها أن تدرك فى يسر

أن كثيرا من الغرباء قد أتوا من قرى ومدن بعيدة وهم يسيرون فى الطرق رغم أن هذه الأيام ليست أيام «الفصح» ولا غيره من الأعياد لم تفهم السبب ولم تهتم بالنظرات المتطفلة التي كانت تحدق فيها وفى الطفل الذى تحمله على صدرها .

فوجئت عندما أقتربت من الهيكل بأن كثيراً من الضباط والجنود الرومانيين قد أحاطوا بالهيكل وأخذوا يحومون حوله مع جمع كبير من الضباط والجنود «الهيرودوسيين» الذين ينتمون إلى جيش «هيرودوس» الخاص «لابد أن ثمة شئ ما في الأفق» ثم تركت التفكير فى هذا الجمع العسكرى غير المعهود وهى تدخل الى الهيكل وتندفع الى ساحة الوعظ والصلاة .

. كان الهيكل يموج بزواره وساحة الصلاة تمتلئ على غير العادة وأيقنت أن ثمة إضطراب شديد تتجمع سحبه. شملها الاضطراب ولم تعرف كيف تتصرف أو ماذا تقول بأى شئ تبتدئ ؟؟؟ .

كان اندفاعها وسط الجميع وهى تحمل طفلها يثير التعجب فى كل من رآها الذين يعرفونها والذين لا يعرفونها. الذين لا يعرفونها تساءلوا فى حيرة من هذه المرأة التى تحمل طفلها على صدرها هكذا وتدخل به ساحة الصلاة ؟ لماذا تفعل هذا ؟ إن كانت تريد ختانه فليس هذا بمكان الختان وإن لم تكن تريد ختانه فماذا تريد ؟

أما الذين يعرفونها وهم كثيرون فقد كان عجبهم يفوق الوصف «أليست هذه مريم» العذراء المنذورة «لله» ؟! .

ـ «بلى إنها هى »

ـ «فمن هذا الوليد الذى تحمله»

ـ «لا نعلم ؟ »

قـال واحـد مـن «الـغـربـاء» الذين لا يعـرفـونهـا . «ربما كـانت هذه المرأة غـريبـة عن «أورشـاليم» وقد جاءت لتسـجيل ابنها مع زوجها فى الإكتتاب الذي صدر الأمر به فى هـذه الأيام وربمـا أرادت أن تخـتنـه لكنهـا لا تـعـرف الـهـيكل فـضـلت طريقـهـا الى ساحة الصلاة .»

ـ «كيف تقول يا رجل أنها غريبة عن «أورشاليم» إنها «مريم ابنة عمران» الكاهن عليه رحمة «الله» أهناك أحدٌ فى «أورشاليم» كلها لا يعرف «مريم» العذراء !!، وتعجب «الغريب» من وصفها بالعذراء وهى تحمل طفلاً لاشك أنه إبنها طريقة حملها له وضمه إلى صـدرهـا وعـمـرهـا كل ذلك يؤكـد أنه غـلامـهـا قـال: «أعـذرنى فـإننى لست من «أورشـاليم» فمن تكون هذه العذراء ؟!» نطق بالكلمة الأخيرة وقد ارتسمت على شفتيه إبتسامة ساخرة تؤكد لمتحدثه أنه لن يقع فريسة التضليل .

ـ قال له : «فمن تكون أنت ؟! ومن أى القرى قد جئت ؟!».

ـ قـال : «أنا يوسف بن يعـقـوب النجـار من بيت لحم القرية التى ولد فيـهـا «داود» نبى الله وملك اليهود» كان يمتلأ بالفخر وهو يتحدث عن قريته ولكنه أضطر رغماً عنه إلى خفض صوته حتى تحول إلى همس مخافة أن يسمعه أحد من الجنود وهو يتحدث عن «ملك اليهود» .

ثم عـاد صـوته للإرتفـا ع من جـديد حـتى كـأنه يصـيح «لكنك لم تقل لى من هو الطفل الذى تحمله هذه العذراء» و كان يسـأئل نفسه أهذه حقاً هى «مريم» التى سمع عنها كثيراً .»؟!

قال المتحدث وقد بدأ يظهر عليه التبرم من هذا النجار الفضولى كثير الكلام «لقد «عاشت «مريم» فى كفالة «زكريا» معيشة الزهاد فأنقطعت فى «قدس الأقداس» لتصلى طوال النهار ثم مر الوقت مسرعاً دون أن تتزوج ها هى كما تراها الآن» أما الطفل فلا

أحد يعرفه ولكننا حتما سنعرف الآن واندفع الرجل تاركا «يوسف» ساهم النظرات شارد الفكر كيف يمكن لجميلة مثل هذه أن تبقى دون زوج حتى الآن ؟؟ ومن هو الطفل الذى تحمله ؟ أهذه حقاً هى العذراء المنذورة لله التى سمع الكثير عن العجائب التى كانت تنزل عليها من السماء ؟! .»

كان الجميع يندفعون نحو «مريم» حتى أحاطوا بها. لقد أرتفع الهمس الذى كانت تضيق به الساحة وتحول إلى صخب اذ لم يحتمل الناس الصمت أكثر من هذا فراحوا يسألون «مريم» من هذا الذى تحملينه أيتها العذراء ؟ ولم تعرف ماذا تقول لهم كانت تود أن تجيبهم أن تصرخ فيهم «يا قوم هذا ابنى آية من «الله» حملتها إليكم» ولكنها عجزت عن النطق الكلمات نفسها لا تريد أن تخرج من فمها «أين أنت يا «زكريا» الآن لقد قضت حياتها كلها تكاد تكون صامتة كانت تستمع إلى المواعظ التى يلقيها الكتبة والكهنة من على دكة الوعظ التى هناك ولكنها لم تكن تعرف أن مخاطبة الناس بهذه الصعوبة ليتك يا «زكريا» كنت هنا لتتكلم بدلا منى. ولم تخرج الكلمات وازداد اضطرابها وأحمرار وجهها فصرخوا فيها «هل هذا ابنك» «نريد أجابة محددة ؟» لأن بعضهم ظن أنه ربما كان طفلاً لقيطاً ابن زنا لقيته «مريم» وهى فى طريقها الى الهيكل فحملته معها .

كانت المفاجأة المذهلة لهم أن أشارت برأسها تعنى «نعم». جرى بعضهم إلى الكهنة ورئيسهم ليحضروا ويشهدوا الزانية التى لم تكتف بتلويث شرفها وشرف الكهنة لأنها ابنة أحدهم بل لوثت أيضا شرف «الهيكل المقدس» الذى جاءت إليه بثمرة جريمتها واندفع بعض الغوغاء ليخطفوا الطفل ويفتكوا «بمريم» وحال بينهم آخرون يطلبون إنتظار الكهنة وكبيرهم وآخرون يعرفون «مريم» معرفة طيبة رجوها أن تتكلم وتدافع عن نفسها لأن السيف أصبح قريباً من عنقها تكلمى يا «مريم» ودافعى عن نفسك لماذا لا تنطقين ؟؟

وتعالت الأصوات «خدعتنا الفاجرة الزانية بطول صلاتها وبراءة وجهها» لماذا لم يأت «زكريا» الآن إلى هنا ليرى ثمرة تربيته ؟؟

ـ «لقد صدع رؤوسنا بوعظه الممقوت وأحتقر حياتنا وها هو يأوى زانية فى بيته !.

ـ «ألعله «زكريا» نفسه الذى فعلها أم ابنه الضال «يحيى» الذى يهيم على وجهه كالمجانين ؟؟».

ـ كيف يكون «زكريا»، لقد صار كومة من العظام ملقاة على فراش الموت ؟ ألا تذكرون كيف أنجب «يحيى» فلماذا لا ينجب مرة أخرى وقد اشتاق العجوز الفاجر للنساء بعد رحيل امرأته ؟؟ .

كانت «مريم» تكاد تذوب من الخجل وهى تسمع هذه البشاعة وتود لو أن الأرض ابتلعتها قبل أن تشهد هذا لولا ابنها الذى كانت تخاف عليه ولا تحتمل فراقه وهى عاجزة عن الكلام ومن يدافعون عنها ويطلبون الانتظار لا يجدون ما يقولونه للذين يريدون الفتك بها وبغلامها وينتظرون على مضض وجاء الكهنة مع كبيرهم وتدخل الجنود والضباط لفرض النظام وفى لهجة موبخة ..

«قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا» (١٠٦) .

لقد صنعت «يامريم» شيئاً فظيعاً ما كنا نتصور أنه يمكن أن يحدث منك **«ياأخت هارون ما كان أبوك امرء سوء وما كانت أمك بغيا»** (١٠٧) . يا سليلة النبى «هارون» رأس الكهنة فى بنى اسرائيل إن أباك «عمران» الكاهن كان رجلا صالحا ولم يكن شريرا يخون عهد «الله» وأمك «حنة» كانت أمرأة صالحة ما ينبغى لها أن تكون من اللواتى يتخذن من الزنا تجارة محرمة .

ولم تجد ما تقوله رداً على إتهام كبير الكهنة لها بالزنا ثم ألهمت فأسرعت تضعه على دكة الوعظ وأشارت إليهم بيدها اليمنى «أن اسألوه عن نفسه وعنى ولا تسألونى.

فتعجبوا من صمتها وإشارتها وقالوا هل جنت «مريم» أم أنها تسخر منا وأندفع رئيس الكهنة يقول وهو يمتلأ بالحنق والإنزعاج «**كيف نكلم من كان فى المهد صبيا**»(١٠٨) .

أى خبل أصابك يا «مريم» يجعلك تطلبين منا أن نتوجه بالخطاب لطفل لم يزل ملفوفا فى أقمطته ليس له من عمر الدنيا إلا أياما قليلة وأنبعث من فوق منبر الوعظ من الجسد الملفوف فى الأقمطة صوت رقيق لكنه وقور ومهيب يكاد يخلع القلوب من منابتها فى الصدور .

«**قال إنى عبد الله**» (١٠٩) .

أؤكد لكم أننى مخلوق مطيع لله خالقى مقراً بأنه جدير بالطاعة مدفوعاً بحبه راغباً في التقرب إليه .

«**آتانى الكتاب**» .

نوّر قلبى فأضاء فيه علم الله الذى كان مسطوراً فى الكتاب الذى جعله مستودعاً لعلمه .

«**وجعلنى نبياً**» (١٠٩) .

ورفعنى إلى مقام صرت فيه أذناً تتلقى كلام الله .

«**وجعلنى مباركاً أينما كنت**» (١١٠) .

وفاض علّى بالبركة من «روحه» فصرت بفضله قادراً على بث الرحمة فى أى موضع أحل فيه .

«**وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً**» (١١١) .

شدّد علّى فى وعظة لى قبل أن أنزل إلى الدنيا بإدامة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ما دام فى جسدى أثر للحياة (١١٢) .

«وبراً بوالدتى» (١١٣) .

وجعلنى ساعياً إلى إرضاء أمى التى ولدتنى مقراً بفضلها علّى هاتان الكلمتان هما أبلغ دفاع عن «مريم» العذراء الطاهرة فليس لإبن الزنا أن يشعر بفضل والدته عليه .إنَّ الحرمان من شعور الإبن بفضل أمه عليه هو أول عقوبة يعاقب الله بها الزانية.

«ولم يجعلنى جباراً شقياً» (١١٣) .

ويرأنى من الرغبة فى فرض مشيئتى فأنقذنى من الشقاء التجبر هو الرغبة فى فرض المشيئة وهو أصل المعصية لأنه يصدر عن الكبرياء التى توهم المخلوق بأنه قد صار آلهاً له أن يفرض مشيئته وحينئذ لابد أن تعانده الأشياء إذ إبتدأ بعنادها عندما نازع «الله» إنفراده بالمشيئة فيحدث الشقاء من ذلك العناد. إن كل جبار عصى وكل عصى شقى .

«والسلام علّى يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً» (١١٤) .

نزل السلام علّى من الله حين وضعتني أمى فوقانى من نزغة «إبليس» اللعين فلم يتمكن هو وجنوده من إختراق الحجاب الذى أحاطنى الله به .

وسينزل علّى السلام من الله حين يحضرنى الموت فلن يتمكن الشيطان وجنوده من أن يتخبطونى يريدون إضلالى وإختطافى إلى جهنم .

إنها لحظة رهيبة يحاول فيها الشيطان أن يجذب الإنسان معه إلى الهاوية بكل ما

أولاه «الله» من سلطان لأن الموت هو نهاية الإختبار هو اللحظة الأخيرة والفرصة التى لن تتكرر إذ لن يتاح للشيطان بعدها إن نجا الإنسان منها وصار أهلاً لرحمة «الله» لن يتاح له أن يغوى الإنسان مرة أخرى لذلك فإنه يعمل كل ما فى وسعه من أجل إهلاك الإنسان فى هذه اللحظة الأخيرة هذا هو سر صعوبة الموت على الإنسان اذ يكون ميدانا للحرب بين ملائكة «الله» وجنود أبليس صراعا بين أهل الرحمة وأهل العذاب لا يتوقف إلا بنزول حكم «الله» الذى يحسم الابتلاء .

إن «الله» سيتفضل علىَّ بالنجاة فى هذه الحرب الشديدة عند الإحتضار .

«وإن الله ربى وربكم فاعبدوه» (١١٥) .

وأؤكد لكم أن «الله» هو آلهى الذى خلقنى ويربينى من أجل أن أصل إلى كمالى بالوصول إليه وهو آلهكم الذى خلقكم من أجل أن تصلوا إلى كمالكم بالوصول إليه فعليكم أن تطيعوه بطاعة شريعته معترفين أنه أهل للطاعة قاصدين أن تقتربوا منه وحبكم له هو القوة الدافعة لكم للسير إليه وهى قوة تستمدونها من حبه لكم .

«هذا صراط مستقيم» (١١٥) .

ها هو الطريق الموصل إلى «الله». إن العبادة هى الطريق المستقيم والكلام الذى أخاطبكم به الآن هو وصف للطريق الممهد الميسر للسير الذى تصلون عليه إلى ربكم .

ثم توقف الخطاب وقد أطبق الصمت على كل من فى الهيكل حتى الجنود الذين كانوا قد دخلوا لفرض النظام و استولى الذهول على الجميع الكهنة والشيوخ والشعب كله حتى أمه وقفت مذهولة كانت تعلم أنه سيتكلم فى المهد كما قصت عليها الملائكة لكنها لم تكن تتصور أن لابنها كل هذا «السلطان» لقد سيطر على مستمعيه تماماً وقهرهم على الخشوع. كان صوته ينبعث مهيبا ويتردد فى جنبات الهيكل الذى التزم

الصمت هو الآخر حتى خيل للحاضرين كأن الأعمدة والجدران تستمع معهم لصوت «النبى» المتحدث وتردد ما تسمعه فى صدى تخشع له القلوب وهى راغمة .

وقبل أن يفيقوا من ذهولهم أندفع الشيخ «سمعان» وهو يتوكأ على عصاه وأتجه الى الطفل وألقى عصاه على الأرض وأمسك الطفل بكلتا يديه كأنه قد استرد عافية الشباب فقبله ثم خطا نحو «مريم» فأعطاها غلامها وأتجه الى دكة الوعظ ثم رفع صوته قائلا ..

«يا بنى اسرائيل إعلموا أن هذه هى العذراء التى تحدث عنها أشعياء النبى منذ مئات السنين قائلاً «ها هى العذراء تحمل وتلد ولدا» (١١٦) وهذا الغلام هو الملاك الذى تحدث عنه ملاخى حين قال بلسان «روح الله» ها أنذا أرسل ملاكى ليعد الطريق أمامى» (١١٧) . هذا الغلام هو كلمة من «الله» بشركم بها «زكريا» من قبل ولكنكم لم تصدقوا والآن إعلموا أن هذه الكلمة قد جاءت وأفرحوا لأن «الله» لم يزل يذكرنا برحمته فيرسل إلينا انبياءه ولم يرذلنا وينفض يده منا رغم خطايانا الكثيرة .

ثم نزل وتوجه بخطابه الى «مريم» قائلاً «مباركة أنت فى النساء يا مريم» .

«إعلمى أن غلامك هذا قد جاء ليرفع أقواما ويخفض كثيرين إنه نور إعلان للأمم جاء مبشرا بقرب ظهور الملكوت الذى تنتظره السماوات والأرض منذ القدم ونذيراً بقرب حلول المكتوب الذى يقاوم لتعلن النوايا المختبئة فى قلوب كثيرة» (١١٨) .

«والآن اذهبى فى سلام يا بنيتى» وأشار إليها بعينيه أن تسرع فأسرعت «مريم» وهى تحتضن غلامها بالخروج وسط الصمت والذهول . زاد كلام «سمعان» من دهشتهم ثم اندفع الجميع يتساءلون ويتجادلون يموج بعضهم فى بعض وتعالى صخبهم بينما كان «سمعان» يتوكأ على عصاه خارجا من الهيكل مشتاقا الى لقاء ربه

قائلاً «والآن تُطْلِق عبدك يا سيدى فقد أبصرت عيناى كلمتك وبشرى ملكوتك» (١١٩) .

كان «سمعان» رجلاً فقيها عليما بكتب الأنبياء قضى عمره المديد منقطعا للعبادة زاهدا فى زينة الدنيا وكان قد كُشِفَ له أنه لا يموت قبل أن يرى «المسيح» المولود من العذراء وفى هذا الصباح سمع هاتفا فى قلبه يدعوه للذهاب الى الهيكل فذهب ورأى ثم أدى شهادة «الله» على وجهها وخرج ينتظر فى بيته لقاء «الله» .

(١٠)
« إمـا القتـل أو الفــرار »

«ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون»

«سورة البقرة : ٨٧»

عندما أكتشف «زكريا» أن «مريم» قد غادرت بيته لما رأى الحجاب قد سقط ولم تكن «مريم» داخله ولم يعرف الى أين ذهبت ولم يعثر عليها «يحيى» لا في الهيكل ولا في أي بيت من بيوت من الأهل أو الجيران حينئذ تملك الحزن «زكريا» وسرعان ما سقط مريضا ولازم الفراش ولازمه «يحيى» ليقوم على خدمته ولم يعد يخرج مع أغنامه تهامس القوم عن «العذراء» التي هربت من بيت كافلها زوج خالتها وعن سر هروبها فلما أتت الى الهيكل صباح السبت تحمل «عيسى» غلامها تزايد اللغط حول عفتها وتضاربت الأقوال في سيرتها . لقد أندلعت نار الفتنة التي كان لابد منها .

«زكريا» سجين المرض والحزن «ويحيى» الذي يلازمه لم يعلما بما حدث في الهيكل لذلك كانت دهشتهما فوق أي وصف حينما شاهدا «مريم» تدخل عليهما وعلى صدرها غلامها .

إنتفض «زكريا» الشيخ الواهن واقفاً إذ أزالت عنه المفاجأة الطيبة الحزن والمرض وأقبل على «مريم» وهو يحدق البصر مندهشاً الى الوليد الجميل الذي تضمه إلى صدرها فناولته أياه في صمت دون أن تنطق بكلمة واحدة. كانت موقنة أن «نبي» الله لابد أن يتعرف على كلمة جاءت من «الله» وقد بشره «الله» بها حين بشره بمولوده «يحيى» إن ابنها «نبي» مثله. هو أخوه في النبوة أفلا يتعرف الإنسان على أخيه ؟؟!

أخذ «زكريا» الوليد على كفيه وهو يحدق البصر فى وجهه البديع ويسبح «الله» تذكر «مشرق الوجه» الذى رآه فى «الرؤيا» من قبل وتلقى تأويل «كلمة من الله» التى جاءت فى تبشير الملائكة له «بيحيى» غلامه الذى صار الآن فتى يافعا. عرف أنه يحمل على كفيه «الكلمة» التى جاءته من قبل والتى سيكون على غلامه يحيى مهمة أن يؤيدها. قَبلَّ «عيسى» دامع العينين وقد زالت جميع أحزانه وأطمأن على مصير «مريم» إذ عرف أن «الله» فضلها على جميع النساء وأعطاها ما لم يعط واحدة من بنات «آدم» و«حواء» الآن يستطيع أن يموت وهو قرير العين راضى النفس عن ربه الذي أعطاه فوق ما كان يطمع .

ناول «الكلمة» إلى «يحيى» الذى كان يقف مشدوها فأخذ ينظر الى ملامح وجهه الصغير ثم قبله وهو يضحك فى سعادة شقيق لقى شقيقه بعد طول فراق .

ثم أمر «زكريا» غلامه أن يعطى «عيسى» لأمه لترضعه وأن يتبعه. ذهب «زكريا» ليغتسل وتبعه «يحيى» ثم صلى صلاة طويلة أطال فيها الركوع والسجود وأكثر من الدعاء والبكاء ثم فرغ والتفت إلى «يحيى» الذى كان يمتلئ بالحيرة ويتساءل فى نفسه عن سر هذه الصلاة وسبب هذا البكاء .

قال «زكريا» وقد أشرق وجهه كأنه الشمس تميل الى الغروب «إعلم يا بنى أن «الله» قد بشرنى بولادتك وأعطانى إسمك قبل أن تراك عيناى قد منحك إسما لا نظير له فى بنى اسرائيل وقص علىَّ قصتك على الأرض وأنت لم تزل جنيناً فى بطن أمك التى رحلت عليها رحمة «الله» ".

«فاعلم يا بنى أنك ستكون رسولا نبيا يرسلك «الله» الى بنى اسرائيل تنادى عليهم ليعودوا إلى طريقه تأمرهم بالإستغفار وتعلمهم كيف يتوبون فيجب عليك يا بنى أن تعد نفسك لتكون أهلا لحمل كلمة «الله» وكفؤا للقيام برسالته. هذا هو الإرث الذى

أتركه لك من بعدى ولا تبك ولا تحزن على شئ إلا خطيئتك خذ كتاب «الله» بقوة ولا تخشى فى الله لومة لائم .

«وأعلم أن «الله» سيجعل من «عيسى ابن مريم» نبيا عظيما تجرى على يديه الآيات ليعد بنى اسرائيل لتلقى «الملكوت» الذى يرسله «الله»... النبى العربى من نسل إسماعيل الذى يختتم النبوة وتتجهز به السموات والأرض للقيامة ".

اعلم أنَّ «الله» قد وهبك لى علي الكبر كما وهب «ابراهيم» «اسماعيل» و«اسحاق» من أجل أن تكون مؤيدا «لعيسى» عندما يأتى أوان بعثته رسولاً إلى بنى اسرائيل لأن القوم سيكذبونه ويعاندونه ويدبرون له المكائد فكن أنت أول مؤمن به، إشهد له وعاونه فى مهمته العسيرة التى أقبل زمن ظهورها . إن قلوب بنى اسرائيل قد أظلمتها الخطايا حتى أوشك ألا يكون فيها مكان للنور ؟؟.

«تبارك الله القدوس الرحيم الذى لم ينفض يده من بنى اسرائيل على كثرة خطاياهم وشدة عنادهم لم يزل يذكرهم برحمته على قسوة قلوبهم إذ لم يزل يبعث إليهم بأنبيائه لعلهم يرجعون إلى صراطه المستقيم» .

وأعلم يا بنى أن «الله» قادر على أن يُمَكِّن لشعبنا فى هذه الأرض فيحررنا من قبضة أعدائنا المستكبرين الذين سلطهم علينا بخطايانا كما أنقذ آباءنا من فرعون فى مصر وأنجز وعده فأمكننا من هذه الأرض المباركة لنعبده فيها وحده دون خوف. لقد عاهد آباؤنا «الله» على أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا لكن الشعب ظل يخون عهد «الله» فسلط «الله» علينا أعداءنا وأمكنهم منا بذنوبنا فانظر يا بنى هل ترى فى بنى اسرائيل شيئاً يرفعهم عن الشعوب التى لا تعرف «الله» لقد أنغمس بنو إسرائيل فى الدنيا وصاروا يطلبون مجداً باطلاً كغيرهم من الأمم التى لم تستمع إلى كلام «الله» .

«يا بنى إنك وابن «مريم» أنتما الإثنان الفرصة الأخيرة لبنى اسرائيل لإبقاء عهد «الله» وإن الأيام القادمة هى أيام عسيرة تلقى فيها شدائداً كثيرة فاثبت على الحق حتى يحكم «الله» وتلقاه وهو عليك راضٍ»

. ثم صمت «زكريا» كان يشعر أن هذا هو لقاء الوداع هذه هى وصيته الأخيرة إلى ابنه قبل الفراق أما «يحيى» فقد تركته كلمات والده مذهولاً يشعر كأن جبلاً قد ألقى عليه وأن عليه وحده أن يحمله كانت وصية أبيه قولاً ثقيلا ينوء به كاهل الشاب الصغير فلم يهنأ له طعام ولا شراب وظل ساهم النظرات شارد الفكر يسأل نفسه عن المهمة العسيرة التى ألقى «الله» على عاتقه حملها وعما تخبئه الأيام القادمة وأحب أن يستجمع شتات نفسه ليتدبر أمره فأعد زاده واستأذن من أبيه أن يذهب الي الجبل ليختلى بنفسه . لقد نادته الجبال كما نادت الأنبياء من قبله ورأى أبوه بعين «الخبير» حاجته إلى العزلة في الجبل فأذن له وطمأنه أن «مريم» وأبنها سيكونان خير أنيس له من بعده وأعتنق «يحيى» والده وأحس وهو فى ضمة حضنة أن هذا هو الفراق لكنه لا يجب أن يتقاعس عن الرحيل الذى عزم عليه لأنه كما تعلم من أبيه ما شاء «الله» كان وما لم يشأ لم يكن وودع «مريم» وشقيقه الصغير وثبت بصره صوب الجبل .

كانت «أورشاليم» تغلى بنار الفتن و«زكريا» قابعاً فى بيته يتنعم بعودة العذراء الطاهرة إلى بيته والنظر إلى وجه غلامها البديع الذى لا نظير له فى البشر. كان أمر الإمبراطور أغسطس بإحصاء السكان الخاضعين لسلطة «روما» فى جميع أنحاء الأرض هو بداية الإضطراب إذ ظن الشعب اليهودى أن ذلك الأمر الذى فرض على كل رجل أن يرجع إلى مسقط رأسه ليسجل نفسه وعائلته هو توطئة لفرض ضريبة جديدة تؤخذ على الأفراد بالإضافة إلى الجزية التى كانت تفرض على المناطق وكانت وحدها مع الضرائب التى سمح «الرومان» «لهيرودوس» بفرضها تثقل كاهل الشعب فهاج الناس وبدأوا يظهرون العصيان والتمرد فى أنحاء عديدة من البلاد خاصة فى

«أورشاليم» عاصمة المملكة وأخذت القوات الرومانية وقوات «هيرودوس» الخاصة تجوب الطرق لتقضى على التمرد وتفرض النظام خاصة حول «الهيكل» الذى كان بالنسبة للسلطة هو مصدر الخطر وجاءت «مريم» بغلامها الى الهيكل ليحتدم الصراع ويفور الجدل وتزداد الفتن .

الذين آمنوا أنه يستحيل أن يتكلم مولود خرج تواً من ظلمة الرحم ليس له من عمر الدنيا إلا يوما أو بعض يوم إلا بآية من «الله» قالوا إنها امرأة مباركة وأن ابنها سيكون نبيا مرسلا من «الله» حقا وقد شرع يفصح عن رسالته فى خطابه الذى ألقاه من على دكة الوعظ بالهيكل وهو بعد لم يزل ملفوفا فى الأقمطة وأنه ربما يكون على يده يرد «الله» الملك على بنى اسرائيل ويحررهم من مذلة الخضوع للغرباء. «للشعب أن يفرح بتلك المرأة «المقدسة» وإبنها العظيم وأن ينتظر عودة المجد» وأنبعث حلم عودة المجد الغابر فى القلوب بعد أن أوشك أن يموت. «لاشك أن هذا الغلام المقدس هو ملك اليهود الموعود» هكذا صاح المتحمسون .

أما الذين سئموا الآيات وأضجرتهم أسطورة عودة المجد الغابر خاصة الكهنة وشيوخ الفريسيين الذين كانوا يكرهون «زكريا» وكل ما يأتى من ناحيته فقد أصروا على أننا أمام جريمة «زنا». «إن هذه المرأة الملعونة قد لوثت الهيكل المقدس بدخولها فيه.» إنها غير متزوجة وكلنا يعرف ذلك والذى جاءت به الى الهيكل تحمله هو ابنها الذى ولدته من رحمها لقد أقرت هى نفسها بذلك. تلك هى كل الحقائق التى يمكن الاعتماد عليها فى هذه القصة العجيبة وهى تشكل جريمة زنا . معنا جسم الجريمة وإعتراف الزانية يبقى علينا أن نعرف الزانى وأن نقيم حد «الله» بقتلهما وقتل الطفل ثأراً لشرف «الله» الذى لوثه هذا الدنس بدخوله فيه. كل ما عدا ذلك أوهام ووساوس من فعل الشيطان الذى يريد أن يضل شعب الله. إن كل ما يتعرض له الشعب الآن من عسف واضطهاد إنما هو ثمرة غضب «الله» على شعبه الذى يأوى هذه الزانية

ويسمح لها بتلويث هيكله. «على الكهنة والشيوخ الآن أن يحزموا أمرهم ليخلصوا الشعب من غضب ألهه. «إن «زكريا» الملعون هو سبب غضب الرب علينا «لأنه يأوى هذه الفاجرة فى بيته». «العجوز الزانى» «يجب الخلاص منه إرضاء لألهنا الغاضب علينا. نعم يجب أن يقتل ليتطهر شعب الله» .

وأندلعت المجادلات وأحتدمت والشعب فى «أورشاليم» يتابع عن كثب ما تسفر عنه الاختلافات وما يستقر عليه أمر قادته. الحانقون على «زكريا» وجدوها فرصة يجب ألا تضيع فألبوا الشعب ضده وألمحوا إلى أنه ربما كان هو الزانى أو ربما كان إبنه ووشوا به عند الملك «هيرودوس» بإنه يدعو الشعب إلى عدم الإكتتاب ويبشر بمولد ملك اليهود وفى أتون هذه الفتنة كان «يوسف بن يعقوب النجار» يفكر لقد جاء الى «أورشاليم» من بيت لحم ليصحب أخواته البنات مع أزواجهن الذين جاءوا لتسجيل أنفسهم فى الإحصاء المفروض بأمر «أغسطس» الامبراطور الرومانى .

وكان «يوسف» رجلاً تقياً متمسكاً بالشريعة كثير الصوم يفخر دائما أنه من بيت لحم القرية التى خرج منها «داود» نبى الله وملك اليهود وكان يكثر من الذهاب الى «أورشاليم» فى الفصح وغيره من الأعياد ليصلى فى الهيكل ويستمع الى الموعظة التى يلقيها كبار الكهنة وعظماء الكتبة الذين يجلسون على كرسى «موسى» ليعلموا الشعب شريعة «الله». لقد أحب «زكريا» وآمن أنه نبى صادق مرسل من «الله» وزاد من حبه له أن «زكريا» كان يعمل نجاراً مثله فى بعض الأحيان. اشتراكهما فى المهنة فتح له باب الأمل فى رحمة «الله» إذ يؤكد له أن معرفة الله ليست حكراً على الكهنة الذين يرثون الخدمة الدينية عن آبائهم بل إنها متاحة لجميع الناس ولكنه لم يكن يصرح لأحد بإيمانه بنبوة «زكريا» لأن الكهنة والكتبة والشيوخ كانوا لا يصدقون أن «زكريا» نبى ويسخرون منه ويضطهدون كل من يظهر تعاطفاً معه .

سمع عن «مريم» المنذورة لله التى تقضى نهارها كله في «قدس الأقداس»

منقطعة للصلاة وسمع الكثير عن المعجزات والأشياء الثمينة التى كان الشعب يقول أن «مريم» تجدها فى المحراب وهى تصلى. لكنه لم يكن قد رآها من قبل. لم يتكون لها فى ذهنه صورة لذلك فوجئ بها وهى تدخل الهيكل تحمل ابنها. امرأة ناضجة جميلة الوجه وتعجب حينئذ كيف تظل هذه بلا زواج ؟؟ ".

استمع إلى كلام «الروح» على لسان «عيسى» الملفوف فى الأقمطة فآمن أن «عيسى» سيكون نبياً وأن أمه هى امرأة مباركة ولكن أيمكن لمثلها أن تتزوج مثله ؟؟ إننى لست إلا نجاراً فقيراً .

ظل يفكر ويتابع عن كثب الجدال العنيف الذي يدور رحاه فى الهيكل وفى التجمعات ويلتقط الأخبار ويقتفى الآثار حتى يظفر بالدليل القاطع على براءتها ويتيقن ما آمن به فى قلبه وفى سنة من النوم سمع هاتفا فى قلبه يدعوه للذهاب إلى «زكريا» ليطلب يد العذراء الطاهرة «مريم» ويوبخه على قلة إيمانه. رأى وجه «زكريا» يبتسم له فعرف أنه سيوافق فأستيقظ وفى لحظة لم يكن يدرى أنه يدخل فى التاريخ ليبقى فى ذاكرة الإنسان إلى الأبد قرر أن يحث الخطى الى بيت «زكريا» مسرعاً لأنه قد علم أنهم فى الهيكل قد أستقر أمرهم على قتل «مريم» وطفلها و«زكريا» .

لقد حصلوا على تأييد «هيرودوس» لفعلتهم بدعوى أن «زكريا» كان يحث الشعب على عدم الإكتتاب فى الأحصاء ويدعوه إلى رفض الجزية والدليل على ذلك أنه هو نفسه رغم أنه كاهن يعمل في الهيكل لم يسجل نفسه حتى الآن فى الإحصاء لقد جن جنون «هيرودوس» وهو يسمعهم يتكلمون عن نبؤة «زكريا» بولادة «ملك اليهود» .فهموا من كلامه ونظرات عينيه إنه يرحب بالخلاص من ملك اليهود المزعوم ومن يبشر به. وفى رداء الليل الرحيم طرق «يوسف» باب «زكريا» وقص عليه القصص ودعاه للهروب معه لكن «زكريا» أخبره أنه قد سئم الدنيا وأن بينه وبين الشعب حسابا يريد أن ينهيه أما

زواجـه من «مـريم» فـهـو يوافق عليـه وإن كـان يعـز عليـه فـراقـهـا وأبنهـا لكنه حـتـمـاً سيفارقهما فليكونا فى رعايتك يا «يوسف» ولتكن أهلاً لخدمتهما .

وبكى الرجـلان الصـالحـان وتعـانقا عناق الفـراق وودعت «مريم» أباها «زكـريا» وقد أيقنت وهى فى ضـمـة حضنه أنه غداة غد راحل إلى الأبد ليلحق بأبيها الآخر الذى لم تكتحل برؤيتـه عيناها . بكت بكاءً مراً وهى تمضـى تحـمل طفلها اليـتيم الذى لا أب له راضـيـة «بيـوسـف النجـار» الرجل التـقى زوجـا لهـا . مـضـت خـارجـة وهـى تـتـخـفـى برداء الليل الرحيم من ظلم المدينة الفاجرة التى لم تحترم كلمة «الله» ولم توقر النبى أو حتى ترحم الشيخ الكبير الذى ذاب لحمه ووهن عظمه ولم يحن هامته إلا للذى خلقه .

كانوا يعدون العدة لإقامة المجمع للحكم على «مريم» الزانية و«زكريا» الذى آواها فى بيتـه وربما كـان هو «الزانى» الذى زنى بهـا وجـهـزوا الشـهـود الذين يشـهـدون أنه حرض الشعب على عدم الاكتتاب والإمتناع عن دفع الجزية وحين كانوا ينتقون الرجال الذين عليهم أن يذهبوا ليأتوا به وبالزانية وغلامها فوجئوا به يدخل عليهم الهيكل فسقط في أيديهم ولم يعرفوا كيف يتصرفون أطبق عليهم الوجوم بينما كان «زكريا» يتحرك فى ثبات وهو يتوكأ على عصـاه ليصـعد إلى دكة الوعظ ثم جلس فى هدوء وصمت ينتظر تجمعهم .

أخذ الهمس الذى يسرى بينهم يتصـاعد وهرول خـدام الهيكل لينادوا على كبير الكهنة وأخذ بعضـهم ينادي على بعض و«زكريا» مطرق إلى الأرض ينتظر احتشادهم فلما أدرك أنهم قد اجتمعوا قام ثم انطلق صوته يمزق الصمت والتربص .

«قال لى الرب آلهى إرع الغنم التى أُعِدت للذبح»

«الذين يذبحـهم مـالكوهـم ولا يأثمـون وبيـبـيـعـهم بائعـوهم ويقـال تبـارك الله الذى استغنى عن الكافرين»

«الذين لا يشفق عليهم رعاتهم لأن «الله» لا يشفق عليهم قد اقترب الوقت الذى يسلم فيه كل إسان ليد قريبه أو ليد ملكه فيقتله أو يضربه ولا أحد ينقذ .

«فأطعت الله ورعيت الغنم لكنهم كانوا أذل الغنم وأخذت لنفسى عصاتين فسميت الأولى «نعمة» وأسميت الأخرى حبالاً وأخذت أرعى الغنم .

لكنهم كانوا أسوأ غنم فضاقت بهم نفسى وهم أيضا قد كرهتنى أنفسهم فقلت كلا .. لن أرعاكم من بعد الآن .. من يهلك فيلهلك والبقية التى تبقى فليأكل بعضها لحم بعض فأخذت عصاتى نعمة فكسرتها وقيل لى لينقض عهدى الذى كان مع الأسباط فاعلموا أن عهد الله معكم قد نقض .

وستعلمون يا أذل الغنم أنها كانت كلمة «الله» لى قد أرسلنى اليوم لأقولها لكم .

ثم قصفت عصاتى الأخرى «حبالاً» وقيل لى لينقض الإخاء الذى كان بين الأسباط».

فليقتل الآن بعضكم بعضا .

وقال لى لا تكن معهم راعياً حكيما لأنهم لا يحبون الراعى الحكيم فخذ لنفسك إن أردت أن ترعاهم أدوات راعٍ أحمق. كن راعياً أحمقاً فحينئذ يحبونك إنهم يحبون الراعى الذى لا يفتقد المنقطعين ولا يطلب التائهين أو يجبر المنكسرين إنه لا يربى الماكث بين يديه بل يجهزه ليأكل لحم السمان وينزع أظلافها» ثم أرتفع صوت «زكريا» فصار كأنه يصرخ أو ينذر بحرب .

«ويل للراعى الكذاب الذى يترك الغنم للهلاك» .

«السيف على ذراعه وعلى عينه اليمنى. مشلولة ذراعه وعينه اليمنى عمياء» (١٢٠) ذلك الأعور هو الذى تحبونه .

«هـا أنـذا أجعل «أورشـاليم» كأسـاً تترنـح تتداولها أيدى الأمم فتسـقط لتـدوسـها الأقـدام ولا منقـذ سيفـتـح علي «أورشـاليـم» ينبوع النجـاسـة والخطايا التـى غرقـت فيها[١٢١].

«ها هو ذا يوم للرب يقـتـرب فـيه تقـسمـون كـغنيمـة حين تجـتمع الجيـوش على «أورشاليم» للمحاربة فتؤخذ المدينة وتنهب البيوت وتفضح النساء ويخرج نصف الشعب إلى السبى والبقية تطرد من المدينة [١٢٢].

اذكروا ما قاله «الله» لموسى عبده الذي أعطاكم الشريعة .

قـال إن خنتم عـهدى فإنى أفرقكم فى الشعـوب لذلك سـترحلون كغنم ذليلة لا راعى لها .

«على الرعاة اشتد غضبى فعاقبت رؤساءهم ».

«سيـذروكم بين الشـعـوب كـمـا تذرو الريح الغـبـار لتـعـيـشـوا هناك بين أقوام لا يعرفونكم لعلكم هناك تذكرونه. إن كان «الله» معكم فإن الأمم كلها تأتى إليكم كما كان أيام «سليمان» و«الله» قادر على أن يخلصكم فتكونو بالحق شعباً له ويكون بالحق آلها لكم لكنكم قست قلوبكم فلم تقبل كلام «الله» وآذانكم قد صمت فلم تسمع لكلام «الله» وأعينكم قد عميت فلم تروا آياته فويل لكم ».

«إعلموا أن النبوة ستزول منكم لأنكم نقضتم عـهد الله وسيأتـى النبى الذى تزول من بعده الأنبياء ويزول به سلطان إبليس على الأرض ولا يكون لأحد من بعده أن يقول إنى «نبى»[١٢٣] .

«سيأتى اليوم الذى تهربون فيه إلى الجبال وتختبئون وراء الصـخور والأشجار ولكن لا مـهرب لكم» وأندفع أحـدهم وكـان قـد أسـرع فـأحضـر سكيناً ثم تقدم نـحـو

«زكريا» صارخا «بل أنت الذى لا مهرب لك اليوم من أيدينا أيها العجوز الفاجر» وأرتفعت الأصوات «اقتلوا الكاذب الذى يجدف على شعب «الله» » وأنهالت الطعنات على جسد «النبى» الذى أخذ يترنح والدماء تسيل منه حتى سقط على الأرض كالعصفور المذبوح وسقط فى أيديهم وأندفع الجنود والضباط الذين كانوا يحيطون بالهيكل يستطلعون أمر الهياج الذى علا صوته فانبرى الكهنة يقولون إن هذا الشيخ الفاجر كان يهيج الشعب ضد القيصر يدعوه إلى رفض الإحصاء الذى أمر به وإلى رفض الجزية لأن اليهود ليسوا عبيداً عند أحد من البشر وقد زنى بامرأة كانت فى كفالته وأنجب منها ولداً يزعم أنه سيصير يوما ما ملكا لليهود لقد استحق الموت طبقا لشريعة «الله» فر القتلة بتدبير رجال الهيكل الذين يعلمون أن «هيرودوس» مسرور بما حدث وأندفع القليل من المؤمنين نحو جثمان النبى الشهيد يبكون وأسرع الجميع بالخروج من الهيكل.

كان «هيرودوس» حينئذ يعد العدة ليستميل الأمبراطور «أغسطس» للموافقة على نقل «ملكه» إلى أولاده من بعده وتقسيم المملكة عليهم بعد وفاته لأن لقب «الملك» الذى يحظى به كان مقصوراً عليه مدة حياته ولا يحق له أن يورثه أولاده من بعده ولابد من موافقة الأمبراطور على توريث «اللقب» والمملكة .

· لذلك استقبل «هيرودوس» هذه النبوءة الكاذبة التى تتحدث عن «ملك اليهود» الموعود بأشد انزعاج وطلب من جنوده وعيونه إقتفاء أثر هذا الملك المزعوم والتخلص منه فلم يكن مستعداً للسماح لأحد بإفساد خطته الرامية الى نقل الملك لإبنائه وكانت مثل هذه النبوءة لو ترك لها المجال لتنمو فى الشعب الذى أدمن التنبوءات وعاش عليها كانت كفيلة بتهديد الإستقرار الذى يتمناه لإبنائه وهو يطمع فى أن يكون رأس أسرة ملكية عريقة يتوارث أبناؤها «الملك» جيلا بعد جيل .

وإذ طفق «العيون» والجنود يفتشون عن «مريم» وغلامها المزعوم ملكا لليهود في

كل القرى والمدن ألهم «الله» يوسف النجار أن يأخذ «مريم» وغلامها إلى مصر. فى حماية «الله» خرج «يوسف» هاربا من القرية الظالم أهلها حاملاً «مريم» وغلامها إلى أرض مصر حيث طاب المقام .

قضى «عيسى ابن مريم» طفولته بجوار نهر من الجنة «النيل» ينهل من بركته ويأوى إلى سماحة أهل مصر وكرمهم وحبهم لأنبياء «الله» جميعاً فى كل الأزمان مهما كان موقف السلطة الحاكمة من الدين الذى يدعو إليه الأنبياء. لقد طاب المقام فى مصر من قبل لأبى الأنبياء «أبراهيم» ورزق فيها «بإسماعيل» بكره الذى سيظهر فى ذريته «الملكوت» الذى جاء «عيسى» الى الدنيا ليبشر به وإلى هذه الرحلة الخائفة المسافرة إلى الأمن فى أرض مصر أشار «الله» حين قال .

«وجعلنا ابن مريم وأمه آية وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين»(١٢٤).

فمصر هى الربوة التى تتميز بالقرار أى الإستقرار والمعين وهو عين الماء التى استمرت وثبتت فى مكانها حتى صارت إسم مكان «معين» . إنه النيل الذى نبتت حول ضفتيه حياة مستقرة تولد منها مجتمع إنسانى ثابت الأركان مطبوع بطابع النيل الكرم والسماحة وحب السماء التى هى أمه لأن النيل ولد من الأمطار فجاءت ابنته «مصر» مثله تحب الأنبياء الذين جاءوا من السماء .

أخذ «عيسى ابن مريم» ينمو فى أرض مصر التى تذكر القلب بجنة «الله» يرويه حب أمه ورعاية زوجها «يوسف النجار» الرجل التقى ويأوى الثلاثة حب أهل مصر الذين يحبون السماء التى وهبتهم الحياة. كانت «مريم» تلقنه العلم فلما شب قليلاً أحب رعى الأغنام فكان يخرج فى الصباح الباكر مع أغنامه يسوقها إلى المراعى الطيبة ويبحث لها عن الماء ويتفقد أحوالها ويمعن النظر فى آيات «الله» على الأرض وفى السماء وفى المساء قبل غروب الشمس يرجع إلى بيته مع أغنامه وقد أسر بصره جمال

السماء عند الغروب والطيور الراحلة تسرع بالعودة إلى أعشاشها والقلب الذى استنار «بروح الله» يتأمل ويفكر .

لقي «هيرودوس» ابن انتيباتروس» الملك حتفه غير مأسوف عليه من أحد. لقد حاول طوال حياته فى سبيل احتفاظه بالسلطة الشئ الوحيد الذى أحبه وقدسه حاول أن يرضى جميع الأطراف المتنازعة فسخط عليه الجميع سخطت عليه بطانته من الصدوقيين لأنه حاول تقريب واسترضاء الفريسيين وسخط عليه الفريسيون لما طلب منهم القسم على الإخلاص له وهو ما كان يسقطهم فى أعين الناس وساءت علاقته بهم إلى الحد الذى قيل فيه أنه جمع شيوخهم وحبسهم وأمر بعض أعوانه المخلصين أن يذبحوهم بمجرد أن يسمعوا بنبأ موته فى القصر وقبل أن ينتشر الخبر فى الشعب حتى تضيع فرحة الفريسيين بموته فى الحزن على شيوخهم المذبوحين ذبح الأغنام وسخطت عليه عائلة الحشمونائيم لأنه اغتصب السلطة منهم واستأصل العائلة حتى وصل الأمر به إلى قتل أمرأته «مريم الحشمونائية» التى كان قد تزوجها فى سبيل إرضاء العائلة والشعب الذى كان يؤمن بأن الحشمونائيم هم أصحاب السلطة الشرعية وسخط عليه الشعب كله لأنه منافق متقلب فرض عليهم كثيراً من الضرائب التى أثقلت ظهورهم فى سبيل بناء مملكة عظيمة تخصه وحده ولا تعنى الشعب فى شئ .

حتى الرومان الذين قضى حياته كلها فى إسترضائهم سخطوا عليه لأن سياسته أثارت الإضطراب وأشعلت الفتن فى تلك البقعة الحساسة من قلب الأمبراطورية .

لذلك فرح الجميع بموته حتى أولاده الثلاثة لأن الإمبراطور الرومانى «أغسطس» رضى بالموافقة على وصية «هيرودوس» القاضية بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة الذكور «أرخيلاوس» و«هيرودوس انتيباس» و«فيليبوس» (أوفيليب) (١٢٥) إذ رأى فى ذلك ضماناً للأستقرار خاصة وأن «هيرودوس الأب» كان قد أعد أولاده ليرثوا الملك من بعده. فرح الأولاد بمهلك أبيهم لأن كل واحد منهم نال قطعة من الكعكة .

نال البكر «أرخيلاوس» منطقة أورشاليم ويهوذا وكان فيه من أبيه القسوة وعشق السلطة ولكن لم يكن له دهاؤه لذلك أظهر إحتقاره للديانة اليهودية ولم يقتد بوالده فى مجاملة تقاليد الشعب وتملق عواطفه الدينية وحكم منطقة نفوذه بالقوة الغاشمة وحدها لذلك استغاث الشعب بالأمبراطور «أغسطس» وأرسلوا إليه الوفود ليخلصهم من «ابن هيرودوس» الذى لا يصلح للحكم وقامت الثورات فى «أورشاليم» ومنطقة يهوذا واستطاع «أرخيلاوس» إخمادها فى قسوة تجاوزت قسوة أبيه فاضطر «أغسطس» فى نهاية الأمر إلى عزل «أرخيلاوس» وعين بدلاً منه «بيلاطس» وهو رجل رومانى لا يدين باليهودية (١٢٦) وهو غريب عن المنطقة كلها. منذ ذلك الحين اتخذت «روما» سياسة تعيين حكام رومانيين أجانب عن المنطقة وأوصتهم أن يحترموا تقاليد الشعب اليهودى وأن يتركوا له ممارسة حريته الدينية وإقامة الطقوس المتوارثة فى حدود عدم المساس بالأمن أو السيادة الرومانية. إن مهمة الحاكم الرومانى هى إبقاء المنطقة التى يحكمها تحت السلطة الرومانية فقط وآية ذلك أن تقوم بدفع الجزية المطلوبة مهما عظمت. وكانت هذه هى رغبة الشعب اليهودى نفسه عند موت «هيرودوس» الأب إذ اسرع ساعتها وفد من الفريسيين إلي «أغسطس» يطلبون منه عدم تعيين أبناء «هيرودوس» حكاماً عليهم فإنهم مستعدون لطاعة حاكم رومانى غريب وأن يدفعوا الجزية المطلوبة ولا يطمعون فى الإستقلال السياسى في مقابل السماح لهم بحرية إقامة الطقوس الدينية ولكن «أغسطس» رفض هذا الطلب أول مرة وألغى لقب الملك الذى كان يتمتع به «هيرودوس» ووافق على وصيته على أن يتسمى ورثته بالرؤساء فكل واحد منهم صار «رئيساً» وليس ملكا لقطعة من الأرض .

أما «هيرودوس انتيبياس» الإبن الثانى فقد ورث أباه فى منطقة الجليل الشمالية وكان أكثر أولاد «هيرودوس» شبهاً به وربما سمى لذلك بإسمه كان «هيرودوس الإبن» يطمع فى أن يكون الوريث الوحيد لأبيه لأنه يرى نفسه أفضل أولاد أبيه وأصلحهم للملك وقد عمل على إشاعة جو من السماحة الدينية أو بالأحرى التخفف من قيود

الشريعة وتقاليد الشعب المتوارثة لأنه كان يرى أن هذا هو الجو المناسب لنشأة ونمو المملكة العظيمة التى يطمع فى الظفر بها. أحاط نفسه ببطانة من طبقة الأغنياء الصدوقيين ولكنه لم يظهر أحتقاره للطقوس المقدسة تماماً كما كان يفعل أبوه كان مستعداً أن يجامل تقاليد الشعب طالما أنها لا تتعارض مع أطماعه ورغباته .

وعندما عزل الأمبراطور «أغسطس» أخاه «ارخيلاوس» عن رئاسة «أورشاليم» ويهوذا طلب أن تنضم إليه باعتباره الوريث الشرعى لأبيه لكن «روما» كانت حينئذ قد أخذت بسياسة تعيين الحكام الرومانيين الأجانب عن المنطقة التى يحكمونها وكانت تضمر تصفية أسرة «هيرودوس» بحيث يكون أولاده هم آخر الحكام من نسله .

لذلك كان «هيرودوس» الإبن رئيس الجليل لا يمقت شيئا أكثر من «بيلاطس» البنطى الحاكم الرومانى الذى تم تعيينه خلفا لأخيه «أرخيلاوس» إذ كان يراه مغتصبا لحقه الشرعى ولكن لم يكن فى يده شئ ليغير من أرادة روما فقبل الأمر الواقع وهو راضخ يتحين الفرص .

أما الإبن الثالث «فيليبوس» (فيليب) فقد نال «الجولان» أو بادية الشام وحاول إسترضاء الإمبراطور «أغسطس» والحصول على رضاء الرعية التى يحكمها بتطبيق القانون لكنه لم تكن له هيبة الملوك وطمع أخوه «هيرودوس» رئيس الجليل فى اغتصاب الجولان منه وهكذا عاش «هيرودوس» الإبن فى اضطراب وقلق يطمع فى ملك أخيه الأصغر «فيليبوس» وينقم من «بيلاطس» الرومانى أنه أغتصب منه ما يقول عنه أنه إرثه من أبيه .

(١١)

« الابتــلاء »

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور »

«سورة تبارك : ٣»

لم يستطع «يحيى» أن يستقر فى عزلته بالجبل إلا فترة قصيرة بعدها كلما حاول أن يدخل فى الصلاة وجد نفسه يسهو فيخرج من الصلاة ويغتسل ويستعيذ «بالله» من الشيطان اللعين ويعزم على الدخول فى الصلاة إلا أن قلبه لا يطاوعه فيجده مشغولا بأبيه فيخرج وينتظر بعض الوقت لا يدرى قدره ثم ينتبه ليجد نفسه يفكر فى أبيه وهو يحس بشوق جارف إليه وألم غامض يعتصر قلبه فوجد نفسه مضطرا إلى قطع عزلته التى كان قد ترك أباه من أجلها وهو حزين لأن «الله» لا يريده الآن فلو كان يريده ليسر له الصلاة وأخذ يحث الخطى نازلاً من الجبل قاصدا «أورشاليم» .

كلما تقدم كان يحس بكآبة مخيفة تبتلع قلبه شيئا يعد شئ حتى وقف أمام البيت فإذا بالكآبة تغرق قلبه كله. كان الباب مفتوحاً كأن لا أحد فى البيت. أسرع يدخل وهو يشعر أن ثمة كارثة قد وقعت. أخذ ينادى وهو يتنقل فى انحاء البيت الذى خلا من أصحابه «أبى» "يا أبت أين أنت. أين أنت يا أبت" فتش فى كل ناحية ودارت عيناه ولم يجد أحداً . أسرع يعدو خارجاً من البيت يصرخ قلبه «أين ذهبوا» ؟! " .

هل قامت القيامة وأختارهم «الله» ونبذنى مع المنبوذين ؟ لكن البيوت قائمة والناس فى الطرق تضحك وتثرثر وليست هذه حالهم عند البعث "إذن أين ذهبوا ؟! " .

أسرع إلى الجيران يسألهم عن أبيه وعن «مريم إبنه عمران» لكن كان الجميع يتحاشون لقاءه ويطبق عليهم الصمت. شعر أنهم يخفون عنه فى صمتهم فاجعة مخيفة

ورأف بحاله أحد الشيوخ فأخذه من يده وسار به إلى القبور وهناك أشار إلى أحد القبور وقال «هنا يرقد أباك »كان القبر يبدو عليه أنه قد شيد حديثا وقد أعتنى بتشييده فجاء فخما أكثر مما حوله من القبور .

وواصل الشيخ حديثه «لقد تعهد الكتبة والكهنة بتشييد هذا القبر الفخم لإبيك وعزموا على استكماله حتى يكون لائقا بمكانة والدك لأنهم بعد أن قُتِل ندموا وقالوا لابد أن .. وقرعت الكلمة سمع «يحيى» قُتل !! أقتل أبى ؟!.

وأضطرب الشيخ لقد أفلتت الكلمة رغماً عنه. زل بها لسانه ولم يدرى ماذا يقول للشاب المسكين الذي أخذ يجهش بالبكاء المرير فالتزم الصمت وقلبه يتفطر من الحنان على هذا الفتى الذى لم يكن يعرف أن أباه الشيخ قد مات مقتولاً وهو غائب وطال البكاء فأراد العجوز أن يذهب ويترك الفتى لقبر والده. همّ بالذهاب فأمسك «يحيى» بذراعه وهو يحاول أن يتمالك نفسه وسأله وسط بكائه .. «من الذى قتله وكيف ؟؟ ولماذا؟؟ .

أجاب الشيخ: «هون عليك يا بنى لقد استراح من الدنيا لا أعلم من الذى قتله ولكنه ذبح فى الهيكل كما يقولون » وأخترقت الكلمة سمع «يحيى». «ذبح فى الهيكل» إذن فقد قتله الكتبة والكهنة وعاد ليجهش بالبكاء من جديد «قتلوك يا أبى» .

«لا أحد يعلم يا بنى من الذى قتله. صدقنى ولكن نصيحتى إليك هى أن تبتعد الآن عن الهيكل وعن «أورشاليم» كلها فإن «هيرودوس» يفتش عمن زعموا أنه سيصير ملكا لليهود وقالوا أن أباك رحمة الله عليه قد تنبأ به فاخرج من هنا يا بنى إنى لك ناصح أمين» وأسرع الرجل بالذهاب تاركا «يحيى» قائما عند قبر أبيه يتحسر على أنه تركه فى وقت ما كان ينبغى له أن يتركه فيه لكنها مشيئة «الله» التى لا تقهر .

لم يستطع «يحيى» أن يواصل القيام فتهاوى على الأرض جالسا أمام قبر أبيه يتذكر أيامه الأخيرة معه .

قال إن الأيام القادمة أيام عسيرة .

نعم يا أبى هى أيام عسيرة ومريرة بدونك .

فاثبت على الحق حتى يحكم الله وتلقاه وهو عليك راضٍ .

«سمعا وطاعة يا أبى» وأنسابت دموعه فى صمت «إنك الآن بين يدى رب كريم فادع لى أن يثبتنى حتى نلتقى معاً فى رحمته».

ظل «يحيى» جالسا حتى مالت الشمس للغروب رآها وهى تتدحرج فى بطء حتى إختفت خلف القبور وأخذت نسمات الليل الباردة تسلع جسده المنهك الجائع وأصوات الطيور التى تعبر السماء عند قدوم الليل تشعل الحنين فى قلبه المحزون وتومض الذكريات «سبحان من كتب الموت على كل شئ وهو حى لا يموت» .

وأخذ يجر ساقية المتعبتين فى خطى متثاقلة إلى البيت الذي خلا من أهله إنه لم يعد بيته ولا يدرى كيف سيقضى فيه ليلته «أين مريم وطفلها» « هل قتلوهما ؟؟ »

أمام البيت تمالك نفسه لعبور العتبة ثم ألقى بجسده المتعب وأخذه سلطان النوم .

فى الصباح أدرك أنه لن يستطيع أن يبقى فى هذا البيت ولا يقدر أن يمكث فى المدينة التى قتلت أباه. أيمكنه أن يعيش وسط الوحوش الذين فتكوا بنبى «الله» الرجل العجوز الذى طحنت الأيام عظامه أيمكنه أن يقف للصلاة فى الهيكل وسط الذئاب التى افترست أباه الضعيف المسكين وهو بمفرده هل يمكنه أن يتصور نفسه وقد صافحت يده يد قاتل أبيه ؟؟ .

خرج من «أورشاليم» كلها. حث الخطى إلى البرية ينام حيث وقف به المسير تحت الأشجار وعلى الطرق وبين الحقول. فراشه التراب الذى خلق منه الإنسان وغطاؤه السماء التى كانت يوما ما من أيام الخلق بيتا للإنسان . إن كان الوقت شتاءً والبرد شديداً فإنه يصنع لنفسه بيتا من الشعر وغطاء من الوبر. يأكل فى أكثر الأيام من العسل البرى والجراد والبقول والثمار الملقاة على الطريق ويشرب من عيون الماء التى فجرها «الله» من الحجارة التى كانت أرق من قلوب الذين ذبحوا أباه .

وسار الزمن فى دربه الطويل الذى لا أول له ولا نهاية فجفف الدموع وأزال الأحزان والشكوك والمخاوف بالسكينة ثم أخذ يديمها ليملأ القلب بالطمأنينة فى سيره إلى ربه يسوقه «الروح» الذى فيه إلى «الروح» الذى صدر عنه وأدرك «يحيى» أن له مهمة فى الدنيا أنبأه بها والده قبل أن يرحل وأن أوان أدائها قد أوشك فأخذ يستعد وينتظر.

أطمأن «يوسف النجار» أخيراً على هدوء الأحوال فى أرض «اللبن والعسل» وأن الطلب على الغلام قد كف. لقد صار الغلام الآن فتى يافعا يأخذ بالألباب لجماله وفصاحته وحكمته وأدبه الجم .

كان يتلقط الأخبار من أفواه المسافرين وينتظر وكان يعرف من أمرأته المباركه أن قصة غلامها ستكتمل هناك ولكنه لم يكن يعرف متى ستبدأ ولا فى أى يوم يكون السفر حتى جاءت ليلة قضاها ساهراً يصلى مع أمرأته فأخذته سنة من النوم فى السحر فسمع هاتفا ينبعث فى قلبه يأمره بالرحيل فأخبر أمرأته المباركة فوافقت جهز للرحلة ثم توكل على «الله» وأخذ أهله قاصداً أرض «اللبن والعسل» وهو يتذكر النبوءات التى أخبرته بها «مريم» ويشكر «الله» أن جعله فى هذه الرحلة المباركة .

لم يحب أن يرجع الى بلدته «بيت لحم» القرية التى ولد فيها والتى كان يفخر بها لأنه كان يعرف أن اهله لا يرحبون «بمريم» المرأة التى لاكت سمعتها ألسنة السوء

وخاف على «غلامه» كما كان يسمى «عيسى» من أن يؤذيه أحد بذلك البهتان العظيم وأستخار «الله» فألهمه أن يذهب الى الناصرة، قرية صغيرة فى شمال البلاد الذى كان يطلق عليه الجليل وكان أهل يهوذا فى الجنوب يسمونه «جليل الأمم» أى الأرض الدائرية التى تسكن فيها الأمم، كانت هذه التسمية على سبيل التحقير لأن أهل يهوذا يعتبرون أنفسهم هم اليهود الحقيقيون وأبناء إسرائيل الأصلاء الصادقون المتمسكون بالشريعة أما أهل الشمال فهم اليهود الزائفون الذين تركوا الشريعة وتخلوا عن تقاليد الآباء وأصبحوا يخالطون غير اليهود من «الأمم» الأمية التى لا تعرف كتاب «الله» ولم تتلقى كلامه . إن أهل الشمال فى نظر أهل الجنوب قد صاروا من الأمم التى لم يخترْها «الله».

وكان الجليل أو جليل الأمم يموج بالفعل بالطوائف التى تنتمى لشعوب أخرى غير الشعب اليهودى .

كان هناك «الفنيقيون (اللبنانيون)» والكنعانيون واليونانيون وبعض الجماعات القادمة من الشام ومن جزيرة العرب بالإضافة الى اليهود فضلاً عن أن الجليل كان طريقا معتاداً للتجارة حيث كانت كثير من القوافل التجارية تمر به فصار جليل الأمم سوقاً رائجة للسلع والأفكار، وفى الوقت الذى نزل فيه «يوسف النجار» بأهل بيته فى الناصرة كان الجليل يخضع لحكم «هيرودوس الإبن» الذى له لقب «الرئيس» وكان يشجع التخفف من القيود الثقيلة التى افترضها الكهنة والشيوخ بإسم الشريعة إستراح «يوسف» للنزول فى الناصرة حيث أراد أن يبتعد عن الجنوب وكل ما يذكره بأيام الفتنة التى صاحبت زواجه من «مريم» الطاهرة .

وعُرِف «عيسى» فى الناصرة بإسم «ابن النجار» لأنه كان يساعد زوج أمه فى ورشته الصغيرة بالمنزل، رزق «يوسف» من «مريم» بغيره من الأطفال ذكوراً وأناثا إلا أن «عيسى» ظل إلى آخر عمره هو ابنه المفضل الذى لا يؤثر عليه أحداً من أبنائه

الذين من صلبه وكان هذا مثيراً لغيرة أشقاء «عيسى» من أمه فحاول دائما أن يداويها بصبره وحكمته وتنازله الدائم عن حقوقه .

كان «عيسى» يساعد «أباه» النجار فى عمله ولكنه أحب الخروج بمفرده حيث يسير بين الحقول يتأمل جمال «الله» المتبدى على صفحة الكون يراقب الفراشات الجميلة والطيور ويمعن النظر فى الورود وثمار الحقل كثيرا ما ذهب الى «بحر الجليل» الإسم الذي كان يطلق على «بحيرة طبرية» يراقب الصيادين وهم يجهزون الشباك إستعداداً للصيد وهم يركبون القوارب والمراكب أو السفن الصغيرة ويبحرون طلبا للرزق ويتأمل وجوههم وهم عائدون وقد ارتسم عليها الفرح إن كان الصيد وفيراً أو غطتها الكآبة المفصحة عن حزن القلب إن كانت الشباك قد خرجت خاوية. كم استمع إلى الصيادين وهم يقصون حكايتهم مع البحر وكم حن قلبه وبكى من أجل الأمهات والأرامل اللواتى فقدن ازواجهن وأولادهن فى البحر وتمنى من كل قلبه أن يعود هؤلاء المفقودون إلى أهلهم مسرورين. كثيراً ما استغرقه التفكير فى هذه المخلوقات الكثيرة التى ترتبط مع بعضها برباط خفى ولكنه قوى لا يمكن للقلب المتدبر أن يغفل عنه يستهويه السير على الشاطئ يراقب الشمس وهى تسير غاربة حتى تذوب من البصر وراء البحر لكنها حتماً راجعة فإن شيئا لا يضيع ويراقب النجوم وهى تبعث بصورها الى البحر حتى يخيل للناظر إلى سطح الماء أنه ينظر فى السماء فتحيره تلك الحقيقة المذهلة هل نحن فى الأرض أم السماء ولا يملك إلا أن يهمس فى قلبه «سبحان الله».

سماه أخوته من غيرتهم «المخبول» لأنه كثيراً ما كان يسرح ساهم النظرات شارد الفكر يطول غيابه ثم يعود وينسى إن كان قد تناول طعاما أم لا فيضحكون من غفلته ولا يدرون أنهم هم الغافلون .

لكنه كان لا يغفل عن حضور السبت فيبكر فى الصباح بالإغتسال والتطيب ثم يذهب الى «المجمع» ليستمع الى الموعظة والقراءة حيث اعتاد الكتبة على قراءة بعض

النصوص من كتب الأنبياء ثم يحضر الصلاة، كثيراً ما شهد المناقشات التى كانت تحتدم بين الكتبة والكهنة حول نصوص الكتب وتأويلها فكان يتدخل فى النقاش بما يفصح عن حفظه للنصوص وفهمه الذى لا يدانى فكانوا يتعجبون منه ويقولون من أين لهذا الفتى بكل هذا العلم أليس هذا هو ابن النجار أين تعلم ولم يجلس إلى الكتبة؟! وكانت أمه حريصة على الذهاب إلى «أورشاليم» فى الأعياد خاصة فى الفصح تتسمع الأخبار لتعرف هل نبئ «يحيى» أم لا ؟ يصطحبها «يوسف» مع ابنها وبقية ابنائه ويرحلون إلى «أورشاليم» يقضون أيام العيد وينزلون ضيوفا على بعض أقاربهم وأحيانا يزور أهله فى بيت لحم .

. فى «أورشاليم» كان «عيسى» يترك أمه وأباه وأخوته ويمضى وحده يصلى فى الهيكل ويشهد الطقوس ويستمع إلى الموعظة ويتأمل ما يراه من أحوال الشعب .

كانت صدمة شديدة لقلبه أن يرى السوق وقد أحاطت بالهيكل حتى أن أصوات الباعة والمشترين مختلطة مع أصوات الأنعام المعروضة للبيع كانت تخترق الآذان فى الهيكل وأن يرى باعة الحمام وقد جلسوا ببضاعتهم داخل الهيكل ليقدموها للذين يريدون أن يذبحوا فداء عن أبناءهم الذكور فاتحى الأرحام كما تفترض شريعة «موسى».

كان يتساءل فى نفسه كيف يسمح «الكهنة» للباعة أن يدخلوا البيت الذي جعل للصلاة لقد افترضت الشريعة أن نذبح الفداء وأن نقدم القربان ولكنها لم تأمر بأن يكون البيع والشراء فى داخل المسجد ولا أن تقترب الأنعام المقدمة كقرابين من حرم المسجد فتدنسه بمخلفاتها ولا أن تحيط السوق بالمعبد على هذا النحو الذى يخنقه ثم جاءت الصدمة الأشد عندما رأى الصيارفة وقد اصطفوا خلف موائدهم داخل المسجد وأمامهم النقود والصكوك والأقلام وأخذوا «يتاجرون» فى الأموال يقرضون الناس مقابل ربح حرام قال الكهنة والشيوخ أنه حلال وأنها تجارة مشروعة أليست هذه هى

الربا الذى قال عنه الكتاب أنه حرام كيف وقد صار يتم تعاطيه داخل الحرم المقدس الذى اختصه «الله» بالصلاة ؟؟

ثم بدأ يتوغل بفكره داخل «سوق» الكهنة والشيوخ فاكتشف مذهولا أن هؤلاء الصيارفة ليسوا إلا الواجهة الظاهرة للتجار الحقيقيين الكهنة أنفسهم وكبار الشيوخ... رجال «الهيكل المقدس». ليس هؤلاء الصيارفة إلا موظفين لدى رجال الهيكل يسمحون لهم بتصريف تجارتهم مقابل أجر معلوم. وعاين مذهولاً أن أغلبية الكهنة قد صاروا «صدوقيين» لا يؤمنون بالآخرة ويقولون ليس فى الكتب ما يؤكد أن هناك حياة بعد الموت ويتساءل أيمكن أن يوجد رجل يُنْسَب إلى دين الله يجد فى نفسه الجرأة لأن يزعم أن «الله» لم يخبر عن «القيامة» فمتى إذن يُحَاسب الناس على أعمالهم أين يجد التقى جزاءه ويجد الظالم عقابه ؟! أين يكون العدل التام الذى لا يشوبه ظلم ؟؟ إذا لم يكن هناك .

تأمل فى أحوال «الفريسيين» فوجد أنهم يتقاسمون مع الكهنة «السلطة الدينية» لأن أغلب الكتبة منهم. إنهم يختلفون عن الصدوقيين فى الإيمان ببعث الأموات لكنه أدرك أنهم ينكرون بعث الأموات بحالهم وعملهم وإن زعموا أنهم مؤمنون به بلسانهم إذ رأى شيوخهم وقد ساروا فى الطرق والأسواق يختالون على الناس بملابسهم الفخمة الثمينة وعصائب رؤوسهم التى ضخموها وعرضوها لتبرز فى عيون الناس. يظنون أنهم أفضل من سائر الناس وأنهم أعلم من فى الأرض ينظرون إلى غيرهم نظرة الأرباب الذين لا يخطئون الى عبيدهم الخاطئين. لو كان هؤلاء يؤمنون أنهم من تراب وإلى التراب يعودون ثم يقفون بين يدى الجبار القهار الذى لا يحب المتكبرين من عباده أكانوا يسيرون على الأرض التى توشك أن تبتلعهم بكل هذه الخيلاء ؟؟ كلا إنهم لا يؤمنون وإن زعموا بكلام الشفاة أنهم أشد الخلق إيماناً .

كان ينزعج من المناقشات العنيفة التى تندلع بين الشيوخ فى « الهيكل » . إنهم

يتجادلون في أدق تفاصيل العبادات التى غرقت فى بحر ملئ بالاشواك والوحوش صنعته عادات الشيوخ ونصوصهم كان يرى الوجوه وقد أحمرت والأعناق وقد أنتفخت عروقها وتعالت الأصوات الغليظة واختلطت ويتساءل كيف يمكن للإنسان أن يظفر «بالحق» فى هذا الجو الخانق الذى نفخ فيه إبليس سمه. فإذا خرج من «الهيكل » وسار فى طرق «أورشاليم» كسر قلبه رؤية الأطفال الصغار وقد ذبح جمال الطفولة على وجوههم وأجسامهم البريئة سكين الفقر الذى يبرز من ثقوب الخرق الممزقة التى وضعت فوق جلودهم فلا سترت عوراتهم ولا حمتهم من البرد أو الحر . والعجائز من النساء والرجال الذين افترشوا الطرق بجوار القمامة يبحثون فيها مع الكلاب الضالة والقطط الجائعة عن بعض ما يصلح طعاما. مهانة تقتل «كرامة الإنسان» الذى نفخ «الله» فيه من «روحه» وأمر الملائكة بالسجود له . والمجانين الذين يطوفون بالشوارعويثيرون الرعب فى الناس . إنه يراهم فى «أورشاليم» فى الاعياد كما كان يراهم فى «الناصرة» قريته وغيرها من قرى «الجليل». كلما إستبد به «القلق» خرج هائماً على وجهه باحثاً عن السكينة ليس هناك فرق بين «أورشاليم» العظيمة وقريته البائسة الصغيرة «الناصرة» فكلاهما يحمل بؤس الانسان . ويتساءل لماذا لا يأمر «الكهنة والكتبة» الأغنياء بالزكاة ؟

لقد جددوا بناء «الهيكل» وحاول » هيرودوس» الأب أن يجعله آية فى المتانة والفخامة والجمال وجمعوا له التبرعات. لكن ماذا يفعل «الله» بكل هذه الزخارف ؟! وما فائدة «الهيكل»؟ إنه حتى لم يعد مكانا للصلاة .لا يحضر للصلاة فيه إلا أفراد قلائل ولم يعد «الكهنة» يعظون أحداً والكتبة يقرأون بعضاً من «الأسفار» كل سبت ولا أحد يهتم بما يقال أو يري أن له فائدة الإهتمام كله صار الى القرابين والنذور التى صارت هى الطريق للظفر بالغفران وتحقيق الآمال . أمسى «الهيكل المقدس» مكانا ملحقا بالسوق الكبيرة التى يمارس فيها « الكهنة» «والشيوخ» تجارتهم وسوراً يربطون إليه الأنعام التى يجهزونها لتكون «القربان» .

فى إحدى المرات استغرقته التأملات حتى أن أمه وأباه «يوسف» وأخوته عادوا أدراجهم إلى «الناصرة» بعد انتهاء الفصح وقد ظنوا أنه ركب مع آخرين فلما قضوا على الطريق أكثر من يوم أصاب القلق عليه أمه فأخذت تفتش عنه فى القافلة فلم تجده، فرجعت مع زوجها إلى «أورشاليم» لتجده جالسا هادئا فى صمت يستمع إلى مناقشة حادة احتدمت فى «الهيكل » كان يتابعها عن كثب ويتأمل فى كلام المتخاصمين ووجوههم فصرخت فيه أمه وانتبه على الإضطراب الشديد الذى أصابها هى وأبوه «يوسف» فما زاد عن أن اعتذر وابتسم فى وجهيهما فلم يملكا إلا الإبتسام . ثم احتضناه وعادا به إلى «الناصرة» (١٢٧).

فى كل مرة يرجع من «أورشاليم» محزونا وهو يرى الشعب الذى اختاره «الله» ليحمل رسالته قد خان عهد ربه وأخذ يهوى فى الظلمات فكان يستأذن من أبيه «يوسف» وأمه «مريم» ويخرج إلى «العزلة» يناجى «الله» ويطلب منه طريقا للنجاة له ولأمته .

وخرج «يحيى بن زكريا» من عزلته عندما أعطاه «الله» النبوة كما وعد أباه وأذن له بالدعوة. بدأ رسالته بدعوة بنى اسرائيل إلى طلب المغفرة من «الله» والتوبة ليتطهروا ويكونوا أهلا لُتلقى كلمة من «الله» قد حان وقت ظهورها .

كان «يحيى » يسير متوكئا على عصاه وعليه ملابس خشنة مأخوذة من جلد الماعز أو وبر الأبل يقف إلى جوار عين من عيون الماء فيتطهر ويجلس ينتظر القادمين للسقاية فيدعوهم إلى الإغتسال بالماء بنية التطهر من المعصية ويطلب منهم أن يسألوا «الله» ان يغفر لهم خطاياهم لأن الخطايا هى التى تسوق الإنسان الى الهلاك الأبدى وأن يتوب عليهم ليرجعوا أطهاراً فيكونون أهلاً لتلقى رسالة من «الله» يأتيهم بها «نبى جديد» اقتربت لحظة بزوغة فى بنى اسرائيل وسوف يصنع «الله» على يديه العجائب فليستعدوا بالتوبة .

إن قبل الواحد منهم دعوة «يحيى» فإنه يأمره بالنزول الى الماء والاغتسال ثم يصعد

من الماء ليصافح «يحيى» مجدداً عهده مع «الله» ثم يستمع إلى إرشاد «يحيي» له أو يسأله عمـا يحيـره أو يختـلط عليـه ليتـلقى الإجـابة مـن النـبى الذى تلقى العلم من فم أبيه النبى الشهيد .

كان الأمر بالنزول الى الماء والاغتسال فيه يهدف إلى إشعار «الإنسان» بأنه محتاج الى النظافة وأنه لا يستطع البقاء في رحمة «الله» التى تشمله مع احتفاظه بقذارته بل لابد أن يتخلص منها . لم يستطع «آدم» أن يبقى فى الجنة وهى رحمة «الله» بعد أن أكل من الشجرة لأن « الثمرة المحرمة» أنتجت القذارة فى جسده وكشفت له عن عورته التى كان غافلا عنها فى برائته قبل المعصية . أراد «يحيى» أن يذكرهم أن الخطايا هى سبب قذارة الانسان وانكشاف عورته وأن عليه أن يستحم فى الماء بنية الخلاص من أرادة المعصية للتخلص من قذراتها حتى يكون أهلا للعودة إلى رحمة «الله» والبقاء فيها .

ولا شك أن هذا الأمر هو أول ما كان يحتاج إليه الشعب اليهودى لأنه يتوهم أنه «الشعب المختار» الطاهر أبداً الذى لا تدنسه المعاصى مهما تعاظمت .إنهم بوهمهم أبناء «الله» وأحباؤه فأنّى ينجسون فجاءت دعوة « يحيى» التى تأمرهم بالنزول إلى الماء بنية التطهر لتقول لهم «كلا بل أنتم بشر ممن خلق تدنسكم الخطايا وتنجسكم إرادة التمرد على شريعة «الله» وتكونون من ثم في حاجة إلى النظافة حتي تصيروا كغيركم من البشر أهلاً لرحمة «الله» أن تنزل عليكم وأن تبقوا فيها أو تبقى فيكم . كان هذا أمراً جديدا علي بني اسرائيل إذ لم يعتادوا من الكهنة والشيوخ على أن ينظروا إليهم هذه النظرة أو يأمروهم بالنظافة على هذا النحو .

إن الشيوخ كانوا يدققون فى النظافة متوهمين أن القذارة تأتى إلى الإنسان اليهودى من الخارج . فكانوا يبالغون فى الإغتسال وتنظيف الجسم والملابس والأوعية أما «يحيى» فكان يقول لهم أنهم قد صاروا يحتاجون الى النظافة لأن القذارة قد أصابتهم من الداخل

. قد صارت قلوبهم قذرة بإحتوائها على النوايا الشريرة فهم في أشد الحاجة إلى التطهر لا إلى استكمال طهارتهم الأصلية التى يتوهمون أنها دائمة لا تزول بطهارة خارجية تختص بالجسد والملابس والأونى وسائر أدوات المعيشة .

كان يهدف إلى أن يذكرهم بنزولهم إلى الماء ثم خروجهم منه ليجددوا العهد مع «الله» ويستمعوا للنصيحة والموعظة يذكرهم بأنهم نزلوا من السماء مع «الماء» الذى خلق «الله» منه كل شيء وأنهم تلقوا قديماً هداية من «الله» وأعطوه عهدا على السمع والطاعة، وأنه كنبى أرسل إليهم إنما جاء ليذكرهم ويجدد عهد «الله» معهم .إن أمره لهم بالنزول إلى الماء هو دعوة الى التذكر والرجوع إلى «العهد» القديم الذى حملوا به الأمانة وأُعطوا من أجله الخلافة التى سُخّر لها كل شيء فى السماوات والأرض . إن دعوته كلها كانت تتخلص فى كلمة واحدة . «التوبة» .

يقول لهم أن «التوبة» ليست كلمة ينطق بها اللسان أو دمعة تذرفها العين فى لحظة ندم عارضة أو حتى إحساس بالذنب . بل إن التوبة هى رغبة صادقة في الرجوع إلي «االله» بالسير إليه على طريق شريعته وهى رغبة تتحقق فى «عمل» يفصح عنها إنها منهج حياة . جاء إليه بعض العشّارين (الجباة) وسألوه كيف نتوب ؟،

فأجابهم «لا تستوفوا أكثر مما فرض» (١٢٨) كان يعلم أن العشّار صار يجمع من الناس اكثر مما فرض عليهم ثم يختلس لنفسه شيئا ويورد الباقى إلى رئيس «العشارين » الذى يقوم باختلاس «شيء» لنفسه قبل توريد المفروض . هكذا كان قانون «السرقة» العام يحكم العلاقات بين الناس فى تلك الظلمات . ولا شك أن «العشارين» كانوا » حثالة» الشعب اليهودى وصاروا فى نظر الناس «رمز الشر» ومن المؤكد أنهم كانوا غارقين في الخطايا بكل ألوانها ولا يُتصور أن خطيئتهم الوحيدة هى الإختلاس . ولكن «يحيى» لم يقل للراغبين فى «التوبة» منهم إلا «لا تستوفوا أكثر مما فرض» . لأن عبادة المال واستغلال

المنصب في إحراز الثروة المحرمة هي الخطيئة الأولى «للعشار» والتي تتولد منها كل الخطايا الأخرى فإن ابتلاء «الله» لمن وضعه في وظيفة جباية المال من الناس هو في وظيفته نفسها التي تغريه بالطمع في أموال الناس وتمكنه من الحصول عليها . ولذلك فإنه يجب أن يبدأ توبته الى «الله» بالإقلاع عن الطمع في مال الاخرين . عليه أن يركز جهد توبته في الموضع الذي يريد «الله» أن يبتليه فيه فإن أتم الإبتلاء بنجاح تمكن من النجاة من سائر المعاصي فينجو بكيانه كله وتسلم الأمة كلها من شر خطيئته . لو قال «يحيى» للعشّارين امنوا «بالله» وصلوا وصوموا وتصدقوا على المحتاجين ، . وأخذ يعدد لهم أنواع الأعمال الصالحة ليعملوها والخطايا ليجتنبوها لضاعت نصائحه سدى ولم تثمر شيئا . لأن العشار الذي طلب التوبة سوف يضيع جهده في كل اتجاه ولن يعرف من أين يبدأ في إصلاح نفسه .

سوف يضيع منه الطريق ويبقى على حاله . بل ربما ظل يسرق الناس ويختلس لنفسه. ثم يقوم بتصحيح هذه الخطيئة ببعض الصلوات الإضافيه أو الصدقات من الأموال التي جمعها من الحرام وهو يظن أنه بهذا يصلح اخطاءه وأنه قد تاب . وفي الحقيقة إنه لم يفعل شيئا إلا محاولة خداع «الله» ولا يخدع في النهاية إلا نفسه وتبقى الأحوال على ماهي عليه من السوء .

وقال لبعض الأغنياء الذين جاؤا ليتطهروا أمامه ويتوبوا على يديه «من له ثوبان فليعط أخاه الفقير ثوبا . فإن ثوبا واحدا يكفي» (١٢٩) فها هنا التوبة الصادقة لا يتوب الغني بالإكثار من الصلاة أو الصوم وهو يعلم أنه عند الأفطار سيأكل أشهى الأطعمه . إنما التوبة له هي أن يتخلص من عبادة المال التي تحضه على اكتنازه والحرص عليه فابتلاء «الله» له هو في ماله وخطيئته الكبرى هي اكتنازه . وهاهنا يجب أن يصوب سهام توبته إن كان صادقا في رغبته .

كان « يحيى » يسير حيث يكون الماء يصرخ في الناس . « توبوا فقد اقترب الملكوت

وحل فينا بشيره» . «جاءكم كلمة من « الله » «أوشك» » «النبى» المولود من العذراء أن يأتيكم رسولا . النبى الذى قال عنه «إشعياء» صوت صارخ أعدوا طريق الرب واصنعوا سبله مستقيمة فاستعدوا له بالتوبة» .

وكان الناس يخرجون إليه من «أورشاليم» نفسها ومن المدن والقرى ليتطهروا فى الماء . ثم يتلقوا منه الموعظة . يعيش جوالا متنقلا لا يستقر فى مكان . يطوف من مدينة إلى أخرى . ومن قرية إلى التى تليها . وكان أكثر سيره على حافتى نهر الأردن حيث يدعو الذين قدموا إليه بالأغتسال في الأردن وازداد طلب الناس له حتى أن بعض الجنود الذين كانوا يعملون فى الجيش الرومانى كانوا يأتون إليه ويسألونه عن التوبة فكان يقول لهم . «لا تظلموا أحداً ولا تشوا بأحدٍ وأكتفوا بعلائفكم » (١٣٠) وهى الوجبات الغذائية التى كان من حق الجنود أن يطلبوها من الناس وهم يمرون مع العشارين أثناء جباية الجزية أو أثناء عملهم فى حفظ الأمن والنظام .

كانت دعوته شيئا جديدا غريبا لم يألفه اليهود .

هيئتة ونمط حياته وطريقة ظهوره كل ذلك كان غريبا . رجل كهل تجاوز سن الشباب يعيش أعزباً لا يتزوج رغم أنه جميل الصورة وقوي البنية . يرتدى ملابس خشنة مصنوعة من جلود الماعز أو وبر الإبل ويتمنطق بحزام من الجلد يمشي متكئا على عصاً لا يستقر فى مكان. لا يدخل الأسواق إلا نادرا ولا يتوغل فى المدن الإمضطراً يأنف من معيشة المدن والقرى. يحيى فى البرية الموحشة الخالية من الناس يسيرحيث يجرى الماء في نهر الاردن أو فى العيون المتناثرة يأكل من الثمار والبقول البرية والجراد البرى والعسل البرى ربما فى احيان نادرة أكل لحم الغنم أو شرب من لبنها . ليس له مسكن يأوى إليه آخر النهار . بل ينام حيث وقفت قدماه . «ما أغربه من رجل »عندما كان الناس يقارنونه بالكهنة وكبار الكتبه وشيوخ الفريسيين الذين يعيشون في المدن ويسكنون فيما يشبه القصور ويرتدون أفخر الثياب ويأكلون أشهى الاطعمه .

لا يذهب الى « أورشاليم» ولا يدخل «الهيكل» ليعظ الناس فيه مواعظه قصيرة محددة صارمة كأنها ضربات بالسيف تأمر بأعمال معينة ولا تغرق فى التأويل والتفصيل ، لم يتحدث عن شعب مختار . ولا عن نصر قريب من «الله» ولا عن وعد بل إنذار بعذاب وشيك يؤكد أنه الإنذار الأخير . ليس فى إرشاداته ووعظه ما يشبه أقوال الكهنة والكتبة فى «الهيكل» .

خرج علي الناس فجأة بعد غياب أكثر من ثلاثين سنة وقد كان الظن أنه مات بعد مقتل ابيه أو غادر «الأرض» إلى بلاد أخرى فبدا ظهوره على هذا النحو كأنه بعث من القبور. حتى أن الكثيرين نسوا أنه إبن «زكريا» الكاهن الذى قتل فى «الهيكل» منذ مدة طويلة وأقام له الكتبة قبرا فخما . لم يكن يحب « أورشاليم» ولا هيكلها ولا كهنتها وشيوخها الذين قتلوا أباه أو شاهدوا قتله ولم يحاول أحد أن يدافع عنه.

لم يعد فى قلبه بعد اكتمال المعرفة بالنبوة كراهية لأحد من الخلق ولكن بقى فى النفس «شىء» من «أوشاليم» الفاجرة التى قتلت النبى وعابت الطاهرة فلم تطاوعه قدماه لدخولها للوعظ فى «هيكلها» .

لم يكن فى حاجة إلى زيارة أبيه الشهيد فى القبر الفخم الذى شيدوه له ستراً لجريمتهم البشعة . لقد رأى القبر ذات مرة عندما عاد مسرعا من عزلته التى يعرف الان فقط سر وقوعها ولم يحب أن يراه مرة أخرى . إن أباه حاضر فيه هو فقد استمد جسده من جسده الطاهر واستمد روحه من « الروح » الذى كان يستمد منه أباه روحه فكيف يذهب لزيارته وهو معه على الدوام حال فيه يصحبه فى كل مكان . إن أباه الآن فى جنة النعيم مع المقربين من عباد « الله » يذكره فى صلاته بالدعاء ويراه فى «الرؤيا » مع الأنبياء يضحك فعلام يحزن هو ؟ إلى من يذهب فى القبر الذى بناه المنافقون يحاولون خداع «الله» ؟!.

كانت غرابة «يحيى» تجذب إليه الكثيرين رأى فيه المتطلعون إلى مجد «روما» التى

صارت مقدسة أنه مثل للإنسان البدائى شاهد حى على الإنسان القديم قبل نشأة المدن وقيام الحضارة. أثر باقٍ لأناس قد عاشوا من قبل فكانوا يذهبون لرؤيته وهو يعظ ليمتعوا نظرهم «بالفرجة» على تلك الأعجوبة التى لانظير لها .

وذهب إليه آخرون من باب الفضول خاصة الفريسيون الذين يعدون أنفسهم أكثر الناس علما وورعا فكانوا يذهبون يريدون مجادلته وإظهار علمهم ولكنهم « لسيادته» التى وهبها «الله» له لم يكونوا يجرؤن على المجادلة يجدون أنفسهم مضطرين إلى الاستماع اليه صاغرين وأنفسهم تقول لهم ليتنا ماجئنا إلى هذا « السيد » ولكننا لن نعود ويتلمسون الهرب «هل يراكم من أحد ؟»

كان فقهه وفصاحته إهانة بليغة لإدعاءاتهم الفارغة .

إلى هؤلاء توجه « يحيى » وقد أعلمه « الله» حقيقة قلوبهم فقال لهم «ياأولاد الأفاعى» .

«منْ الذى أوهمكم أنكم ناجون من الغضب الآتى » .

« أم تراكم تظنون أنكم تستطيعون الهروب من قبضة الله» .

«لاتقولوا فى أنفسكم نحن أبناء ابراهيم ولن يعذبنا الله ».

« لأنى أقول لكم إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم ».

« اعلموا أنه الآن قد رفعت الفأس على أصل الشجرة توشك أن تنزل فتقتلع الشجرة من جذورها » .

« كل شجرة لاتصنع ثمراً طيباً تقطع وتلقى فى النار » .

« فاصنعوا ثمارا طيبة تليق بالتائبين »(١٣١)

ـ لسانه أحد من السيف أحد من لسان ابيه الذى سمعنا عنه فلعنة الله عليه وعلى أبيه».

لكن الناس ظلوا يذهبون الي «يحيى» ويسيرون وراءه حيث ذهب سواء استجابوا لدعوته فتابوا وآمنوا به وبنبى آخر يوشك أن يبعث أم لم يستجيبوا .

كان لديه دائما جمع من الناس يستمعون إليه «مأخوذين» بمهابته وبقى منهم نفر قليل هم الذين صاروا تلاميذه يصاحبونه فى حله وترحاله وينزل لدى بعضهم ضيفاً فى أسفاره التى لاتتوقف . كانت هذه الأسفار وهذه الجموع مصدر قلق عميق واضطراب شديد فى المجتمع اليهودى خاصة فى دوائر السلطة السياسية ودوائر « الهيكل» لأن كلاً من الفريقين نظر بإرتياب وانزعاج لهذا الشيخ الذى يجوب البلاد «ويجمع الأنصار» فهل هو زعيم سياسى يطمع فى إنشاء «مملكة» شعبية تعتمد على إيمان اتباعه به إذ هو لايتقرب إلى الرومان أصحاب السلطان-الذين صاروا يعطون شارة الإمارة أو الرئاسة . هذا هو السؤال الذى شغل الفريقين وعلى الأخص أصحاب السلطة الدنيوية «بيلاطس» الرومانى الحاكم فى أورشاليم و «يهوذا » و«هيرودوس الإبن» رئيس «الجليل» أرسلوا «العيون» لترى لهم من داخل الشعب مايجرى وبعد تمحيص وتدقيق استراح اصحاب السلطة «ليس هذا بسلوك الزعماء السياسيين». وإن كانت له مهابة تفوق مهابة الإمبراطور الرومانى نفسه إلا أنه لم يتحدث عن «مملكة» ولم يعد الشعب بشئ إلا بعذاب « الله » إن بقى على عناده وليست هذه أقوال ولا وعود طلاب «الملك». ولم تكن راحة أصحاب السلطة خاصة «هيرودوس» الإبن رئيس «الجليل» صادرة عن زهد «يحيى» فى «الملك» فقط بل لأنه أيضاً كان يثير فى الشعب إحتقار الكهنة والفريسيين حتى دون أن يهاجمهم لأن الناس عندما تقارن بينه من ناحية وبين رجال الدين الآخرين الذين يتسابقون فى التقرب الى ذوى السلطان طامعين فى ذهبهم طمع الكلاب التى تنتظر مايلقى إليها من الموائد وهى تحوم حولها بعيون متطلعة وقلوب ذليلة لايملك الناس حينئذ إلا احتقار «الكلاب» . كانت هذه المقارنة تضعف من شوكة رجال الدين سواء الكهنة أو شيوخ الفريسيين والكتبة ومن ثم تقلل من قدرتهم على ابتزاز أصحاب السلطان لذلك ترك «بيلاطس» من جهة و «هيرودوس» من الجهة الأخرى لـ «يحيى» العنان ليتحرك ويقول مايشاء فلم تكن فى دعوته خطر وكان هذا من تمكين «الله» له إلى حين .

أما مصيبة رجال الدين «الكهنة» و «الكتبة» فكانت شديدة إذ بدأ «يحيى» يسحب منهم «جمهورهم وزبائنهم» من أفراد الشعب فازداد انحدار «الكهنة» فى أعين الناس وشاركهم فى هذا الانحدار «الفريسيون» الذين لم يتورع «يحيى» عن الإستهزاء بهم علانية وكان تبشيره بنبى اقترب موعد إرساله إلى بنى اسرائيل يسبب أكبر قلق فى صفوف الكهنة والكتبة لأنه فضح الإضطراب الشديد الذى كتبت به النصوص «المقدسة» وكشف عن الأيادى الكثيرة التى عبثت بكلام « الله» وعن الجهل الذى يتصف به «الكهنة والكتبة» إذرفعت النبوءة الستار عن الاختلاف الشديد فى النصوص المبهمة وأنهت إلى الأبد الثقة الزائفة التى يختال بها من يزعمون أنفسهم «العلماء» الذين يدعون انهم يحفظون كلام «الله» ويعرفون تأويله .

بدأ الناس يتساءلون عن «النبى» الذى يبشر به «يحيى» هل هو مذكور فى الكتب ؟ وهل هذا هو أوان ظهوره ؟.

وما هى علاماته ؟.

ووجد «الكهنة» و «الكتبة» أنفسهم مضطرين إلى قراءة الكتب التى كانوا قد تركوها . أخذوا يفتشون فيها عن الدلائل والقرائن فازدادوا اضطرابا ولم يصلوا الى شئ يتفقون عليه .

وجدوا فى أسفار «موسى» حديثا عن نبى يقيمه «الله» من أخوة بنى اسرائيل ويضع فى فمه كلامه. النص يدل على أنه ليس يهوديا فإنه من أخوة اليهود فهل يبعث «الله» نبيا من غير اليهود ؟ وهل هذا النبى هو الذى يقول عنه «يحيى» ؟ وإذا لم يكن فمن يكون الذى يتكلم عنه «يحيى» ؟

وقلبوا فى الأسفار فوجدوا أن «أشعياء» يتحدث عن العذراء التي تلد ولدا ويكون إسمه «عمانوئيل» وقرأوا «الصوت الصارخ أعدوا طريق الرب واصنعوا طرقه مستقيمة» إن «يحيى» يقول إن ابن العذراء قد ولد وأنه قد أوشك أن يعلن نبيا مرسلا إلى بنى اسرائيل

وهو الصوت الصارخ الذى تحدث عنه «أشعياء» وأخذ الناس يسآئلون «الكتبة» و «الكهنة» من هى العذراء ؟! ومن هو مولودها ؟ ومن هو الصوت الصارخ ؟ هل الأمر كما يقول «يحيى» ولو لم يكن فما هى الحقيقة ؟

وتذكر الشيوخ منهم قصة « مريم» ابنه الكاهن «عمران» التى جاءت منذ سنوات كثيرة إلى «الهيكل» تحمل غلاماً وقيل أنه المقصود وتذكروا كلام «الطفل» فى المهد. ورفض «الكتبة» و «الكهنة» ذلك وقالوا أنه من أوهام الناس البلهاء الذين يعلقون الآمال على الخيالات لكنهم لم يستطيعوا أن يعطوا إجابة على الاسئلة وعجزوا عن أن يتفقوا ومع التفتيش فى الكتب قرأوا عن الوعد الآلهى «لابراهيم» فراحوا يتساءلون أى وعد هذا ؟ وقد صرنا إذلاء عند الكفار المستكبرين ندفع الجزية صاغرين ونقدم القربان فى « الهيكل المقدس» من أجل سلامة «القيصر» الذى يحكمنا والقيصر نفسه لايؤمن «بالله» ويعبد الأصنام وكذلك الذى يحكمنا بإسمه أتراه وعدا مكذوباً لن يتحقق أم أن تحققه آتيا فى الطريق ؟.

و بدأت الأذهان تفكر فى النبوءات الكثيرة التى ازدحمت بها الكتب والأسماء الغريبة التى تناثرت هنا وهناك مثل «شيلون» الذى ذكر سفر التكوين أنه يقضى على قضيب يهوذا ويكون له خضوع الشعوب(١٣٢) وانتبهوا الى ماذكره «دانيال» عن خراب «المدينة المقدسة» «أورشاليم» وقرع الأسماع اسم «ايليا» الذى قال «ملاخى» «أن الله» يرسله قبل مجيئ اليوم العظيم والمخوف»(١٣٣) الذى هو يوم «القيامة» فمن يكون «إيليا» هذا ؟ إنهم يعرفون «إيليا» (إلياس) الذى بعث فى زمن «أخاب» أحد ملوك مملكة اسرائيل وكان ملكاً فاسدا تزوج بأمرأة فينيقية هى «إيزابيل» وفشت فى عهده عبادة إله الفينيقيين «البعل» وقدمت له القرابين فأرسل «الله» «إيلياس» الذى يقولون له «إيلياهو» أو «ايلياء» ليدعو الاسرائيليين إلى ترك عبادة «البعل» والعودة إلى عبادة «الله» الواحد الأحد الذى اختارهم لحمل رسالته. قد مات منذ أكثر من ثمانمائة عام وكانت النبوة من بعده لتلميذه «اليسع» (اليشع)

فمنا معنى قول «سفر ملاخى» هاأنذا أرسل «ايلياء» فهل سيُبْعث من جديد آتيا من عند الأموات ؟.

أم أن «ملاخى» يقصد شخصاً آخر أعطاه كاتب السفر إسم «ايليا»[١٢٤] ؟ فهل كان ذلك على سبيل التمويه ؟ ترى ما السبب ؟ وما معنى تغيير الأسماء والرمز للأشخاص بألفاظ أخرى غامضة تتفق مع الأسم الحقيقى فى حساب الجمل وهو أسلوب غامض ومريب يقضى بأن لكل حرف من حروف اللغة رقم يساويه ومن ثم يمكن كتابة اسم الشخص بتغيير حروف اللفظ الى حروف اخرى بشرط أن يكون مجموع الأرقام فى اللفظين واحدا وهكذا يصبح للإنسان الواحد أكثر من اسم. من الواضح أنه اسلوب للتغطية والتمويه وليس للكشف والتوضيح فمن هو «إيليا» الذى سيأتى لأننا نعرف أن «إيليا» (الياس) قد مات كثرت الاسئلة ولم يستطع «العلماء» من «الكهنة والكتبة» أن يعطوا جوابا وبدا أن زلزالا كبير أتتجمع بوادره تحت السطح يوشك أن يقرع الأبواب .

(١٢)

« الصعود إلى جبل التجربة»

«إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين»

«المؤمنون ٣٠»

أثمرت دعوة «يحيى بن زكريا » فى الشعب اليهودى إذ قطع البلاد جيئه وذهابا يقف عند منابع الماء يدعو الناس الى التطهر والاستغفار والتوبة والاستعداد لتلقى كلمة من «الله» فأصبح كل واحد يتساءل عن «النبى الجديد »الذى يبشر «يحيى « ووصلت انباء التبشير الى « الناصرة « فى «الجليل «حيث « عيسى» المبشر به وأمه يستمعان إلى الانباء فى ترقب وقلق إذ كانا يعلمان أن وقت التجربة قد نزل .

فى «الهيكل» والمجامع لم يكن إلا التربص والإضطراب فقد اختلف الجميع فى شأن الدعوة المنتظرة . كان الجميع يؤمنون ببعثة «نبى» اطلق عليه إسم «مسيًّا» .

لكن هل هو من نسل «يوسف» كما زعم السامريون الذين رفضوا كل الأنبياء من بعد «موسى» ولم يعترفوا إلا بالأسفار الخمسة المنسوبة «لموسى بن عمران» ؟ أم هو من «نسل داود» كما زعم اليهود ؟ وهل سيكون هذا «المسيح» «ملكا» «كأبيه» داود» يرد المجد إلى اليهود؟ واذا لم يكن كذلك ؟ فما هى مهمته على وجه التحديد ؟ وهل هو الرجل الوحيد المنتظر مجيئه من «الله» ؟ أم أن هناك آخر عليه أن يأتى قبل اليوم الموعود ؟ وهل «الآن» هو موعد إرسال المسيح ؟ أم أن الوقت لم يحن بعد ؟ وهل يمكن للمسيح إن كان هذا وقت إرساله أن يحرر اليهود من الخضوع للرومان وإلا فما جدوى إرساله ؟.

ومن هو «ايليا » الذى ذكر فى سفر «ملاخى» وقيل أنه سوف يأتى بعد ؟ ومن هو

«النبى» الذى ذكر فى سفر التثنية أن «الله» يقيمه فى أخوة بني اسرائيل . ويضع كلامه فى فمه . ومن هو «شيلون» المكتوب عنه فى التكوين «تخضع له الشعوب» ؟ وما علاقة كل هذه الأسماء بما يقوله «يحيى بن زكريا» الذى يصر جازما أن «المسيح» قد جاء إلى الدنيا وأنه قد ولد وأن ظهوره فى نبى اسرائيل قد صار على بعد لحظات ؟ .

أمام كل هذه الأسئلة «العسيرة» « وقف» أهل الكتاب» من الكتبة والكهنة حيارى لا يستطيعون أن يعطوا جوابا واضحا لكشف المبهمات وتوضيح الطريق .اكتشفوا أنهم يحملون «أسفاراً» مليئة بالأشواك التى لم يكونوا يظنون أنهم سوف يضطرون للسير عليها وادركوا فى فزع أن ثقتهم الكبيرة فى أنفسهم لا تقوم على شيء. إنها لا تحتمل الثبات عند الإختبار الأول .

لكن الأمر كان بالنسبة إليهم أعجل من أن ينتظروا بيانه وأهم من «مجرد» البحث عن الحقيقة . لأنه إن كان «المسيح» المزعوم أنه قد جاء سوف يكون «ملكا» فإن حياتهم سوف تنقلب رأسا على عقب . لأن الكهنة والكتبة وخدم «الهيكل» ليسوا إلا موظفين عند «الملك» . لقد سُن هذا الحكم منذ «داود» ملك اليهود الذى يقال أن « المسيح » سوف يكون من نسله وإن كان «الملك » المنتظر من نمط «يحيى بن زكريا» فلا ريب أنها الكارثة إذ لابد أنه سوف يطردنا من الخدمة فى «الهيكل ». إذا كان «يحيى» لا يتورع عن سبنا والاستهزاء بنا وهو ليس إلا «متسولاً» حافى القدمين يهيم على وجهه بلا مأوى فكيف سيفعل بنا «مسيحه»الموعود وقد صار«ملكا» يحكم اليهود «لا بد أنه من نمطه ولذلك فهو يبشر به.فى كل القرى والمدن من «الجليل» شمالا حتى آخر «اليهودية» . إذاً نحن مقدمون على زمن سوف نتحول فيه إلى متسولين نسأل الناس الصدقة في الطرقات . وياله من مصير».

حتى وان كان «يحيي» كاذبا فهل نستطيع أن نبقى على حالنا وقد أصبح الناس لا

يحترموننا كما أن «بيلاطس» لا يعبأ بالأمر تاركا «المجنون» يفسد عقول الناس بما يقول . بل لعل الشقى «بيلاطس» سعيد بما يجرى لأن شكوتنا قد ضعفت . لم تعد لنا السيطرة علي الشعب وبعد وقت قليل سوف لا يحتاج إلينا ولن يعبأ بنا أحد .

لا يمكننا الإنتظار مكتوفى الأيدى حتى نجد انفسنا جالسين فى الطرقات نتسول طعامنا وطعام أولادنا .

إندفع «الكتبة الكهنة «يشيعون أن «يحيى» ليس الإمخبولاً مسته الشياطين وقد أثر على ذهنه طول الجوع والحرمان وهو جاهل لا يعلم «الكتب» فأين تعلم المسكين الذى قضى عمره كله فى الطرقات لا يجد ما يأكله.

لكن هذه الإدعاءات لم تكن لتثبت أمام الواقع المشهود فإن لـ «يحيى بن زكريا » مهابة الملوك رغم مظهره البسيط ولا يستطيع أحد أن يتقحمه بالنظر أو أن يتكلم فى حضرته بصوت مرتفع وهو ينطق بالحكمة ويفصح عن علم بالكتب لا يستطيع واحد من «الكهنة أو الكتبة» أن يجارية فيه وقد صار له الآن فى كل قرية ومدينة أتباعا وله تلاميذ يلازمونه على الدوام تركوا كل شيء من أجل الظفر بصحبته وتلقى المعرفة من فمه . فهل من كان هذا وصفه يقال عنه أنه «مجنون» ؟.

وأضطر رجال «الهيكل» إلى الكف عن هذا الإفتراء . وكان لابد من اتخاذ موقف فاجتمع «الكتبة والكهنة» وكبار الفريسيين ليتباحثوا فى الأمر ولم يلتفت واحد منهم الى أنهم فى غمرة إهتمامهم بمصيرهم فى الدنيا وخوفهم على مراكزهم فى الشعب قد تناسوا الإختلافات المريرة التى فرقت بينهم من قبل والمجادلات العنيقة التى احتدمت بينهم .اجتمع الكهنة الصدوقيين مع الشيوخ الفريسيين وكانت هناك «عيون» الرومان يستطلعون الأمر من الداخل. إجتمعوا مضطرين ومضطربين ليتباحثوا معاً أمر الفتنة بل الكارثة التى أوشكت أن تطل عليهم برأسها. .

وعلى النقيض من اضطراب الكهنة والشيوخ فإن «يحيى» كان ثابتاً يتكلم فى ثقة وبساطة رغم أنه لم ير «المسيح» منذ ثلاثين عاما منذ جاءت به أمه من «الهيكل». لقد اختفيا ولم يعرف حتى الآن أين هما لكنه موقن أنهما حيان وأن «عيسى» يوشك أن يظهر نفسه للشعب مرسلا من «الله» قام «يحيى» كما أمره «الله» بالتمهيد له فى قلوب الناس حتى لا يسرعوا برفضه بإدعاء أنه ثمرة زنا إذ يستحيل ان يرسل «الله» نبيا إبن زانية.

كان «يحيى» جالسا بالقرب من «نهر الأودن» عند «بيت عبرة» يحدث الناس عن كلمة «الله» «عيسى بن مريم» الذى أوشك أن يُبْعَث.

قال «أنا أطهركم بالماء التوبة ولكن «المسيح» سوف يطهركم «بروح القدس» الذى أيده «الله» به .

«رزقه فى يده» .

«سيأتى إلى حقله فيجمع القمح الى المخزن . أما التبن فسيلقى إلى نار لا تطفأ.(١٣٥)

إنه الآن قائم بيننا ولكننا لم نره بعد».

وهنا تقدم رجال قادمين من «أورشاليم» كانوا من الفريسيين مع بعض خدام «الهيكل» يسألونه من أنت (١٣٦) ؟ وحدق فيهم «يحيى» فأطرقوا وتلعثموا وهم يقولون فى اضطراب وقد نظروا إلى عيون الناس التى جاءت لتتطهر وتسمع الموعظة «نريد أن نعطى جوابا للذين أرسلونا » (١٣٧) أرادوا أن يتنصلوا من روح الإتهام الذى يحمله سؤالهم . فهم مجرد حاملى رسالة لرجال «الهيكل» فإن كان هناك لوم أو توبيخ فعلى الذين أرسلونا لا علينا .

وصمت «يحيى» . ولم يتكلم فاندفع واحد من الفريسيين قائلا . «أأنت المسيح» ؟(١٣٨)

ـ قال يحيى «لا» .

ـ قال «أأنت ايليا» المكتوب أنه سيظهر؟.

ـ قال «لا» .

ـ قال «أفأنت النبى» ؟ .

قال «يحيى» لا. إذ فهم أن المقصود من السؤال هو النبى الذى يأتى ليختم النبوة ، ولذلك كان السؤال عنه بالتعريف «النبى» فهو معروف إلى الحد الذى إذا قيل «النبى» انصرف الفهم إليه وحده .

كانت إجابات «يحيى» مقتضبة ليزيد من حيرة السائلين لأنهم لم يأتوا ليعلموا الحق ، بل ليبلغوا رسالة إلى رجال «الهيكل» الذين استكبروا أن يأتوا بأنفسهم ليسألوا .

فاندفع الكاتب الفريسى وقد غره صمت «يحيى» وإجاباته المتقضبة فظنها عن عجز أو حيرة اندفع يقول «فإذا كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبى فما بالك تكلم الناس وتأمرهم بالإغتسال وتبشر بدين جديد» فقال «يحيى» قل للذين أرسلوك إننى «يحيى بن زكريا» الذى قتلتموه فى «الهيكل» جئت إلى الدنيا لأبشر بكلمة من «الله» ألقاها إلى «مريم» العذراء ابنة «عمران» وإسمه «المسيح عيسى بن مريم» . وقد جاء هو الآخر إلى الدنيا ليبشر «بالملكوت» ومتى أرسله «الله» إليكم فإنه يخبركم بالحق فيما تختلفون فيه وهو الآن بيننا ولكننا » ولم يكمل «يحيى بن زكريا» كلامه إذ رأى شاباً وسيماً يتقدم نحوه كأن وجهه المشرق وشعره الأسود الناعم المنسدل حتى كتفيه يقطران ماءً وكأن السماء قد انشقت و«روح القدس» قد تشكل فى صورة «حمامة» تنزل عليه فعرف أنه «المسيح» المنتظر ظهوره.

لقد تركه طفلاً مولودا يحمل على اليدين وها هو قد صار شابا مكتمل الرجولة

فانتفض «يحيى» وقام مهرولا يستقبل «المسيح» والجمع الذى كان يستمع إلى حديث «يحيى» مع رسل «الهيكل» ينظر مأخوذا مندهشا من هرولة الشيخ الجليل « يحيى بن زكريا » وانتفاضته ليلقى شاباً صغيراً لا يتجاوز عمره الثلاثين عاما أما « المسيح » فقد هرول هو الآخر ليلقى «يحيى» قد عرفه من حديث أمه عنه لكنه لم يكن يتصور أنه بهذه المهابة التى تفيض بالوقار وتوحى بالثقة لكل من ينظر إلى وجهه الجميل الذى أحاطت به لحية وقورة بدأ المشيب يتلألأ واهنا على صفحتها. تعانق الشقيقان ليمحوا أثر الفراق الذى دام ثلاثين عاما وفاضت الدموع من عيون الرجلين الصالحين واتسعت عيون الجمع من التعجب وقال «عيسى» «فى تواضع» جئت إليك «يانبى الله» لأتطهر بين يديك وأتلقى النصيحة» .

فقال «يحيى» : «لا يحتاج من تطهر «بروح القدس» إلى الطهارة بالماء . يا «مسيح الله» أنت الآن المعلم فأنا الذى أحتاج إلى أن أتطهر بك وجدير بى أن أذهب إليك لا أن تأتى أنت إلى»(١٣٩).

فزاد إشراق وجه «عيسى» من الحياء وقال . « ولكن أرجو أن تسمح لى الآن جد ير بكل عبد يريد أن يكون صالحاً أن يستكمل كل بر» (١٣٩) .

قال «يحيى» وقد تلألأ وجهه من الفرح لكمال أدب «عيسى» وتمام معرفته .

«إذن ليتطهر الماء بنزولك فيه ».

وأسرع «عيسى» ينزل إلى الماء كما يفعل غيره من الناس و«يحيى» يمعن النظر إليه وهو يتذكر هيئته يوم جاءت به «أمه» من» الهيكل ملفوفا في قطعة قماش من غطاء رأسها ويتعجب من فعل «يد الله» .

وعندما كان «عيسى» يهم بالخروج من الماء أوحى إليه «الروح » أن «الله» قد واعده

أربعين ليلة فى جبل الزيتون ليأخذ هناك «الإنجيل» وأنه يستبطىء ذهاب «يحيى» إلى «أورشاليم» . فخرج «عيسى» من الماء ليجلس بين يدى «يحيى » ليستمع إلى إرشاده مع الناس . إلا أن «يحيى» الذى كان منبهرا بما يرى قال: « لا ينبغى أن أتكلم الآن وقد أيدك «الله» «بروح القدس» فمن الآن أنت المعلم يا مسيح الله» فانتحى به «المسيح» جانبا وأسرَّ إليه بما أوحاه «الله» ثم قال« إن شئت أذهب أنا لأكلمهم فى الهيكل ، فقال «يحيى» »بل أذهب إن شاء «الله» «وأبلغ «عيسى» «يحيى» سلام أمه وشوقها إلى رؤيته .

وودع كل خل خليله ثم أخذ «عيسى» يحث الخطى إلى «جبل الزيتون» البقعة المباركة التى شهدت مولده والعيون ترمق فى إجلال ذلك الشاب الصغير الذى لقي من «يحيى» مالم يروه يفعله مع أحد من الناس من قبل. قال «يحيى» بعد أن اطمأن إلى ذهاب «عيسى» في أمان الله : « هذا هو المسيح الذى كنت أحدثكم عنه هذا هو النبى الذى يطهركم «بروح القدس» الذى أيده «الله» به. إنه الآن معلم بنى اسرائيل أرسله «الله» إليكم فآمنوا به واسمعوا له وأطيعوه .لقد صرتُ منذ اليوم تلميذا للمسيح اللهم فاشهد.»

وكان فى الجمع أناس من «الناصرة» جاءوا ليتطهروا فى «الأردن» عند « يحيى» ويتلقوا الموعظة فتعجبوا فى أنفسهم قائلين . «أليس هذا هو «عيسى» ابن «يوسف النجار« وأمه إسمها« مريم» راحو يتهامسون فيما بينهم ويتكلمون عنه مع الجمع الحاضر . أما رسل «الهيكل » فقد أسرعوا يريدون «أورشاليم » ليبلغوا «الكهنة والكتبة» أن «المسيح» قد ظهر ويخبروهم بما قال«يحيى»وما رأوا وما سمعوا. واندفع الرجال الى «يحيى» يسألونه.

«قد عرفنا الآن من تقصد «بالمسيح» فمن هو «إيليا» ومن هو «النبى» الذى قلت لرسل «الهيكل» أنك لست أحدهما ؟.

فأجابهم إن «إيليا» هو نفسه «النبى» الذى سألنى الكاتب الفريسى عنه.

فقال واحد : «أو يكون نبى بعد «المسيح» ؟ ».

قال«يحيى» «نعم الذى جاء يبشر به «المسيح».

قال: فمن هو ؟.

قال: هو أخر الأنبياء الذى يحمل رسالة الله الأخيرة .

قال «قدكنا نظنك هو».

قال «لستُ أهلاً للذى تقول فقد كان قبلى وقبل كل نبى وسيأتى بعدى ولا يكون بعد ظهوره نبى لست أهلاً لأن أحل سيورنعليه ».

فأطبق الصمت على الجمع وانفضوا وهم يتفكرون فيما قال«يحيى» ويتعجبون مما يرون ويسعون .

فوجئ «الكهنة والكتبة» فى «الهيكل» «بيحيى بن زكريا» يدخل عليهم «يوم السبت» وكانوا قد علموا من رسلهم بنبأ ظهور «المسيح» الذى تحدث عنه «يحيى» وأخبرهم رجالهم بما فعله «يحيى» مع الرجل فأسرعوا يعدون العدة لتكذيب هذه «الإقتراءات» وتنبيه الشعب إلى خطر الإستماع الى مدعيى «النبوة» «الغرباء» عن «الهيكل» الذين لم يتلقوا تعليما دينيا من الجهة الوحيدة التى تعطى هذا التعليم «الهيكل المقدس» الذين لا يعلمون كتب الأنبياء ولا يعرفون شريعة «الله» . إن على الشعب ألاَّ يصدق هذا الكذب على كتب «الله» لأن «المسيح» الحقيقى من نسل «داود» ملك اليهود وأن مولده يكون في «بيت لحم» القرية التى ولد فيها أبوه «داود» وإنَّ كل من يقول بغير هذا خاطىء يجدف على «الله» . وسوف نطلب من السلطات القبض عليه لأنه يثير الشعب وينشر الاضطراب» . كانت هذه هى خطبة «الهيكل» لمحاربة دعوة «يحيى» بظهور المسيح المسمى» عيسى بن مريم » لكنهم فوجئوا وهم يستعدون لإلقاء الخطبة فى السبت «بيحيى» يدخل «الهيكل» ويشق الصفوف

ويقف حيث قتل أبوه و كان الهيكل يمتلأ بالناس الذين قدموا يريدون معرفة موقف الهيكل من «المسيح» الذى يشاع أنه ظهر ويعيش فى «الناصرة» بأرض الجليل.

كان دخوله صدمة للجميع فإنه لم يطأ «الهيكل» منذ أكثر من ثلاثين عاما . أبوه نفسه كان قد توقف عن الذهاب الى «الهيكل» قبل مقتله بفترة طويلة. رجال شهدوا مقتله صاروا الآن شيوخا لم يجرؤوا حتى على النظر إلى «يحيى» وأطرقوا إلى الأرض وجاء وقوفه فى البقعة التى شهدت مقتل والده ليضيف إلى مهابته التى وهبها الله له «جلال الموت وعزة «الروح» الذى لا يموت» انطلق صوته قويا حنونا .

«بسم الله»

«يا بنى إسرائيل أوصانى ربى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأن أوصيكم بأن تعملوا بهن . «أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ».

فإن من يشرك «بالله» فهو مثل العبد الذى اشتراه سيده فكساه وأطعمه ثم أمره بالعمل فراح العبد يعمل ولكنه صار يؤدى ثمرة عمله إلى سيد آخر عدو لسيده الذى اشتراه وأطعمه وكساه فمن منا يحب أن يكون عبده مثل ذلك العبد الكفور ؟!.

وأن نقيم الصلاة «لله» فإن «الله» ينظر الى عبده وهو يصلى إليه ويقبل عليه بوجهه مالم يلتفت عن صلاته فإذا صليتم فاخشعوا لنظر «الله» إليكم .

«وإن نؤتى زكاة أموالنا ونتصدق . فإن الصدقة تطفئ غضب الرب عليكم» «وإن نصوم فإن الصائم مثل رجل يحمل زجاجة عطر جميل الرائحة فى قلبه كلما مشى تحركت الزجاجة وأنبعث منها العطر» .

وأن نذكر «الله» كثيرا فإن الذاكر كمثل رجل يطلبه أعداؤه فأسرع إلى حصن حصين فأغلقه عليه فامتنع على أعدائه

«ألاَ إن ذكر «الله» هو أعظم الحصون ولا نجاة بغيره ؟ .

«يابنى إسرائيل إعلموا أن مسيح الله قد جاء فآمنوا به وأسمعوا له وأطيعوا»

وتوقف . وانتظر أن يسألوه عن «المسيح» أو أن يجادلوه فى شىء ولكنهم وجموا ولم يستطيعوا أن ينطقوا بكلمة واحدة . «هل يستطيعون أن يقولوا مثل هذا الكلام العميق الدقيق على بساطته ؟ .

هل يستطيعون أن ينسبوا إليه خطأ أويمسكوه بخطيئة ؟».

وأنتظر الجمع المحتشد أن يقوم كبير الكهنة أو حتى أحد الشيوخ بسؤال «يحيى» عن إدعائه ظهور المسيح أو أن يعلنوا تكذيبهم لذلك الإدعاء ولكنهم صمتوا تماماً وبدأوا ينسلون من الهيكل الواحد بعد الأخر والناس تنظر وتتعجب .

ظلوا على صمتهم حتى خرج «يحيى» فأدرك الناس فى وضوح أنهم لا يستطيعون أن يجادلوا «يحيى بن زكريا» فى شىء. أنسحب كل «الكهنة الكتبة» دون أن يقولوا شيئاً لقد اكتفوا رغما عنهم بخطبة «يحيى بن زكريا» التى جاءت على غير هواهم وأفسدت خطتهم وخرج الناس وهم يتحدثون عن مجيىء «يحيى بن زكريا» وموعظته فى «الهيكل» وعن «المسيح» الذى يقال أنه ظهر. لقد صار «يحيى» بعد هذا الخطاب فى أعين الناس «نبيا صادقاً» ولم يملك رجال «الهيكل» رغم كراهيتهم الشديدة «ليحيى» دفعا لهذه الحقيقة التى صارت مقبولة عند الناس فأخذ يدخل «أورشاليم » ويبشر فى «الهيكل» نفسه «بالمسيح» كلما واتته الفرصة .

والتزم رجال الهيكل حياله الصمت . لم يستطيعوا منعه من دخول «الهيكل» ولم يستطيعوا الإعتراض على دعوته أو إنكار «نبوته» أو حتى مجادلته فى شىء وإنتشر إنتظار «المسيح» فى الشعب وصار الجميع يتطلعون إلى ظهوره الموعود وتعلقت بوجهه المرتقب ش

قيل لك أنك كلمة من «الله» فوجب إذن على جميع الأشياء أن تطيعك أليس لكلمة «الله» يجب أن تخضع جميع الاشياء ؟!. وأنت الآن يامسكين جائع لم تتناول طعاما ولم تذق شرابا قد هممت أن تخرج الآن لتبحث عن شئ تأكله ألا يليق بك وأنت كلمة من «الله» أن تأمر هذه الحجارة أن تتحول إلى «خبز» فتأكله فإن كنت كلمة من «الله» حقا كما قيل لك فمر هذه الحجارة لتصير خبزا (١٤١) دعنا نرى أتطيع الحجارة كلمة من «الله» أم تعصاه؟!.

تعجب «عيسى» من ذلك الرجل المتجهم الذى اقتحم عليه خلوته ويبدو أنه كان يراقبه منذ فترة طويلة دون أن يدرى وتساءل «ما وراءه» و «لماذا لم يلق علىَّ السلام ».

ثم أجاب «عيسى» على تحديه فى بساطة «ومكتوب أيضا أن ليس بالخبز وحده يحيى الانسان بل بوحى «الله» الذى ينطق به «روحه» يحيى الإنسان» . إن الذى أبقاه حيا طوال أربعين يوم وليلة دون طعام أو شراب قادر على أن يبقيه حيا دون طعام أو شراب على الدوام . لماذا هذا التشكيك فى كلام «الله» وهو سر الحياة .

كانت أجابة «عيسى» مفصحة عن حسن فهمه وسرعة بديهته فأفحم الرجل المتجهم . ولكنه لم ييأس فأسرع يقول «لقد قيل لك في الكتاب الذى أُعطِيته أن لا شىء يقع إلا بإرادة «الله» وأنه قد كتب ألاَ يُكْسَر لك عظم أو تصاب بجرح . فألق بنفسك من فوق هذا الجبل ولننظر أصحيح ما كتبه «الله» أم لا . ؟! مكتوب أنه يوصي بك ملائكته لكى يحفظوك وأنهم على أياديهم يحملونك لكى لا تُصْدَم رجلك بحجر فدعنا نرى» ، وأدرك «عيسى» أنه «إبليس» اللعين وقد جاء يفتنه فأجابه فى بساطة «وقد كُتِب أيضا ألاَّ تجرب الرب إلهك لأن العبد لا يبتلى «الله» بل الله هو الذى يبتلى عباده .

فاشتد غيظ «إبليس» حتى اشتعل وجهه وخرج منه دخان فوقع الخوف منه في قلب «عيسى» فى لحظة فأعطاه «الله» سلطاناً عليه فهجم على «عيسى» وأحتمله وطار به إلى

«اورشاليم» فأوقفه على «الهيكل» ثم ارتفع به فى الهواء وطاف به حول الأض فأراه ممالك الدنيا وملوكها و«عيسى» مستسلم فى يد الشيطان لقضاء «الله» يعاين وهو فى قبضة «إبليس» أن لآراد لحكم «الله» وأن لا ملجأ من «الله» إلا إليه لآ أحد يستطيع أن ينقذه الآن إلاّ «الله» ثم قال له «إبليس» «انظريا «عيسى» إلى كل هذه فإن «الله» قد دفعها لى وعن طيب خاطر أهبها لك إن سجدت لى سجدة واحدة» .

إذاً فهو لم يزل يعانى من كبريائه منذ رفض السجود «لآدم» . يريد أن يسجد الإنسان له تعويضاً عن طرده من رحمة «الله» وهذا لا يمكن أبدا . واسترد «عيسى» قوته فأفلت من قبضة إبليس فى يسر ودفعه بيده وهو يقول له « اذهب عنى يا شيطان»

«أليس مكتوباً لله وحده تسجد وأياه وحده تعبد» . فهوى «إبليس» إلى الأرض وهو يولول صارخا إذ رأى ملائكة «الله» وقد أقبلت مسرعة لتنقذ «عيسى» من براثنة صرخ سأتركك الآن «يا عيسى» ولكن إلى حين .

واحتملت الملائكة «عيسى» إلى «جبل الزيتون» فأجلسته واحضرت له من ثمار الجنة فأكل وأخذه سلطان النوم حتى أذن الفجر بالقدوم فاستيقظ وصلى وأخذ الإذن من «الله» ببدء الدعوة .

(١٣)

«رسولا الى بنى اسرائيل»

«سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا»

«الاسراء ٧٧»

عاد «عيسى» إلى «الناصرة» ليخبر أمه بما أوحى «الله» إليه ويستأذنها فى أن يتفرغ لرسالة «الله» التى أخذ الإذن بابلاغها فأحتضنته أمه وأخبرته أنها قد أنبئت بكل هذا قبل أن تلده من رحمها . ودعت له ربها بالتوفيق ودعته إلى الثبات على الحق فإنه سيلقى عنتا شديد.

وبدأت المتاعب من «الناصرة» التى يعيش فيها . إذ كانت الأنباء قد انتشرت ووصلت إلى القرية أن هناك رجل من «الناصرة» يسمى «عيسى» يقال أنه هو « المسيح» الذى ينتظره شعب اسرائيل فتعجب أهل القرية الصغيرة أن يكون هذا النجار الفقير الذى يعمل مع أبيه (يقصدون «يوسف النجار إبن يعقوب » زوج أمه «مريم») تعجبوا أن يكون مثل هذا النجار الفقير «مسيحا» «لله» هل يمكن أن يُذكر مثل هذا الشاب البائس فى كتب الأنبياء ؟ وهل من المعقول أن يكلم «الله» هذا الشاب غريب الاطوار الذين لا يرونه إلا هائما عند حواف القرية سائرا بجوار القبور مثل المجانين . «كلاً إن هذا شىء غير ممكن لكن الشعب المتعب يتعلق بالأوهام.» كلما حاول «عيسى» أن يدخل مجمع القرية ليقرأ عليهم من كتب الأنبياء ويعلمهم وجد الأعين التى تقتحمه ورأى القلوب التى تنكره فأدرك أنه من «أورشاليم» حيث «الهيكل» معقل الشريعة يجب أن تبدأ رسالته لأن الناس الذين لا يرون إلا الرسوم ولا يدركون إلا الظواهر عسير عليهم أن يقبلوا نبيا لايخرج من «الهيكل» رغم أن النبوة قد بدأت قبل «الهيكل» وبقيت مع زواله عندما تحطم وستبقى بعد محوه. إن

«الهيكل» هو الذى يستمد كيانه من النبوة ولكن الشعب الجاهل نكس الأمر على رأسه فصار الأنبياء لايُقبلون عنده إلا إذا أخذوا مباركة «الهيكل» لهم أو إنتزعوا إعتراف «الهيكل» بهم كما فعل «يحيى بن زكريا» الذى قبله الناس نبيا لأن «الكهنة والكتبة» لم يستطيعوا أن يجادلوه أو ينكروا نبوته علنا . وكانت أيام الفصح قريبة فانتظرها «عيسى» ليذهب إلى أورشاليم .

بينما «المسيح» يحث الخطى وهو يقترب من «أورشاليم» رأى أن يذهب إلى البِرْكَة التى تقع على مقربة من «الهيكل من جهة «باب الضأن» وهى بِرْكَة لها خمسة أورقة وقد اعتاد الناس أن يذهبوا إليها ويجلسوا علي حافتها معتقدين أن «الله» يرسل مَلَكاً من السماء كل يوم فيمس الماء ويضع فيه «سر» الشفاء من الأمراض فيهتز الماء . فمن استطاع من الناس المنتظرين أن يمس الماء أولاً عند اهتزازه بلمسة «الملك» فإنه يشفى من مرضه مهما كان نوع المرض الذى أصيب به أو مدة إصابته .

اعتاد المرضى من كل نوع أن يتزاحموا هناك على حافة البركة ينتظرون أن يهتز الماء وكل واحد فيهم يطمع أن يكون صاحب الحظ السعيد فينال شفاء من مرضه وكان الازدحام حول البركة أشد ما يكون فى أيام الأعياد خاصة فى أيام الفصح حيث يأتى الناس إلى «أورشاليم» حاجين إلى «الهيكل» من كل قرية ومدينة يسكنها اليهود بل إن كثيراً من «الغرباء» كانوا يأتون إلى «أورشاليم» فى الفصح لأن الأعياد الدينية قد صارت مواسما للتجارة ولما كان البيع واللهو شيقيقين لا يفترقان فإن الأعياد الدينية التى يُحْتَفل بها لتعظيم شعائر «الله» وتذكر قصص الأنبياء قد انقلبت لتكون مواسماً للهو المحرم ترتكب فيها كل الخطايا التى كافح الأنبياء من أجل أن يطهروا وجه الأرض منها . أصبح «الفصح» سوقا رائجة للبضائع والفواحش وأصبح الناس لايعرفون عنه إلاَّ أنه العيد الذى يؤكل الفطير فى أخر أيامه مع ذبيحة . هكذا كانت «أورشاليم» تزدحم باليهود القادمين إليها من كل صوب كما كانت تموج باليونانيين و«السامريين» والعرب والمصريين الذين

يأتون إليها بحثا عن الربح أو اللذة أو متعة مشاهدة العادات والتقاليد الغريبة للشعوب بالإضافة الى الرومانيين الذين يحكمون البلاد والذين يجب عليهم أن يكونوا أشد يقظة وأكثر حذرا فى هذه الأيام التى يحتشد فيها الناس .

على الطريق إلى «البِرْكة» كان يسير جمع صغير من الرجال المصابين «بالبرص» كانوا من بلاد مختلفه وبعضهم من غير اليهود لكنهم صاروا أصدقاء لإشتراكهم فى «البرص» والذهاب المتكرر إلى البركة طلبا للشفاء. يحثون الخطى فى هذا الصباح خشية أن تفوتهم نزلة الملك إلى الماء فاقترب منهم «المسيح» وسلم عليهم فردوا عليه السلام دون أكتراث ودون أن يلتفتوا إليه . وظلوا على عجلتهم فقال لهم «ماذا تريدون» ؟

حدقوا فيه البصر. رجل وسيم صحيح البدن فلماذا يأتى إلى البِرْكَة واندفع واحد منهم يقول «كما ترى ياسيد نحن نسرع إلى البركة التى عند باب الضأن لعلنا نشفى من «البرص» وأشار بيده إلى جسده وأجساد زملائه التى شوهها «البرص» فصارت بشعة .

فقال «المسيح» كأنه لا يعلم «ولكن لماذا تذهبون إلى البركة التى تقول عنها ؟ فأجاب الرجل في ضجر . «يبدو أنك غريب لست من هذه البلاد رغم أن وجهك مألوفا وملابسك تقول أنك من هنا فاعلم أيها الغريب أن هناك بركة يزدحم الناس حولها كل يوم لأن ملكا «من السماء» ينزل فيهز الماء . فمن استطاع أن يلمس الماء بمجرد أن يهزه الملك نالته البركة فنال الشفاء من مرضه . «كلنا نسرع لعل واحداً منا يكون صاحب البَرَكة اليوم» قال هذا وأخذ يسرع الخطى مع زملائه ولسان حالهم يقول لعيسى «لا تضيع وقتنا». لكن «عيسى» تغاضى عن التبرم الذى ظهر على وجوههم من حديثه واستأنف قائلا «لكننى أريد أسأل هل الماء هو الذى يشفى أم «المَلَك» الذى يهزه أم «الله» الذى أرسل المَلَك ؟!

فقال آخر . «يالك من رجل غريب تسأل أسئلة غريبة ». لكن سؤال «عيسى» غاص فى قلوبهم فحركها بالحيرة. حقاً إنهم لم يسألوا أنفسهم من قبل هذا السؤال . لماذا لم يخطر على بالهم هذا السؤال الغريب على بساطته ؟

وأدرك «المسيح» أنهم قد شرعوا يتدبرون الأمر فى حيرة فأضاف متسائلا «هل الذى يسبق غيره فينال الشفاء قد شُفِيَ لأنه مس الماء أولا ، أم لأن «الله» أراد أولاً أن يشفيه فجعله يصل إلى الماء قبل غيره وجعل الماء يشفيه ، أليس «الله» هو الذى يشفى الأمراض؟»

ازدادت حيرتهم وبدأوا دون أن يدروا يفكرون ، وأخذت خطواتهم تبطىء وهم يمعنون النظر فى كلام هذا الرجل الغريب الذى يصر على صحبتهم دون أن يدركوا لذلك سببا وهمس واحد منهم فى أذن من يجاوره «ألعله شيطان أراد أن يعطلنا ويضيع علينا فرصة الشفاء التى ربما كانت من نصيب أحدنا» . ورد عليه الآخر« ولكن يبدو عليه أنه رجل صالح وليس هذا بوجه ولا كلام شيطان»

قال «عيسى» لماذا لا تدعون «الله»أن يشفيكم دون حاجة إلى الذهاب إلى البركة طالما أنَّ «الله» هو الذى يرسل المَلَكَ . فإن المَلَكَ لا يفعل ذلك من نفسه بل بأمر «الله» فرد واحد منهم فى مرارة «لقد دعونا «الله» كثيرا وأنفقنا كل أموالنا على الأطباء ولم يفدنا كل ذلك بشىء . إن «الله» لم يستمع إلى دعائنا».

فقال «عيسى» ، «لعلكم تلومون «الله» على أنه لم يجب دعاكم وتعتقدون أنه أخطأ فى حقكم إذ لم يستمع لكم».

أذهلتهم جرأته فى الحديث عما يدور فى قلوبهم وصراحته التى بدت لهم وقاحة تجاوزت الحدود لكنه واصل حديثه «ألم تفكروا لماذا لم يجب «الله» دعاكم ، بل لماذا أصابكم بالبرص أولاً . أليس «الله» هو الذى يصيب بالامراض ؟ ».

ياله من رجل غريب ، يسأل أسئلة أشد غرابة من مسيره معنا وحديثه الذى لا نعرف له سببا، قال «من الذى اخطأ» ؟

هل «الله» هو الذى أخطأ فأنزل بكم مرضاً لا تستحقونه لأنكم تقولون فى قلوبكم

إننا لم نخطيء حتى يعاقبنا «الله» بهذا المرض الذى لا شفاء منه تدعُوُن أنكم لم تفعلوا شيئا يوجب كل هذا . أم أنكم أنتم الخاطئون ولولا عفو«الله» عن كثير من خطاياكم لأهلككم فى الجحيم فلم تخرجوا منه أبدا. لعله اكتفى بهذا المرض لكى تنتبهوا إلى خطاياكم وتطلبوا مغفرته ؟"

ثم علا صوته فجأة وقال موبخا لهم :

«كيف تطلبون بألسنتكم رحمتة وتقولون فى قلوبكم أنه قد ظلمكم .إنهُ لا يلتفت إلى كلامكم . بل ينظر إلى قلوبكم ويعرف ما فيها». توقفوا عن السير رغما عنهم وأخذوا ينظرون إليه فى دهشة وإنزعاج. أفزعتهم أسئلته وكلماته التى تجاوزت كل حد. «من الذى أعلمه بنا ؟!" وماذا يعرف عنا حتى يتهمنا بأننا خطاه نستحق ما هو أقسى من «البرص» اللعين" . من هو هذا الغريب». إلاّ أن واحداً منهم أدرك ما يعنيه «المسيح» فقال باكيا "أدع لنا أيها السيد . فإننا خطاة ليغفر «الله» خطايانا» . كان هذا الرجل سامريا

فقال «عيسى» "اللهم ربنا أغفر لعبدك الذى أقر بخطئه وأشفه من «البرص»". ثم قال . «بسم الله» ووضع يده على وجه الرجل الذى كان يبكى فبرأ لتوه وتغير جلده فى لحظة حتى بدا لأصحابه كأنه شخص آخر فاندهشوا وتضرعوا إلى «السيح» صارخين . يا سيد «ارحمنا «فإننا خطاة »

فقال : «يغفر الله لكم وليرحمكم الله الذى شفاه. اللهم يا أرحم الراحمين . اغفر لعبادك الذين أقروا أنهم خطاة واشفهم بقدرتك .ثم قال «بسم الله» وأخذ يضع يده على أجسادهم الواحد بعد الآخر فبرئوا جميعا . وطفق كل واحد منهم ينظر إلى جسده والى وجوه الآخرين وأجسادهم. صارت جلودهم صحيحة ناعمة كأنها جلود أطفال فلم يملكوا أنفسهم من الفرح فأوصاهم «عيسى» أن يذهبوا إلى «الهيكل» ويقدموا قربانا «لله» الذى شفاهم ويعرضوا أنفسهم على «الكهنة» ولينتظروه هناك . فإنه سيأتى إلى «الهيكل». لكنهم

كانوا يندفعون مهرولين. عشرة من «البرص» برئوا فى لحظة واحدة وتفرقوا حتى غابوا عن عين «عيسى» الذى كان يتجه إلى البركة .

كان هناك جمع كبير من المرضى . عمى وبرص ومقعدون ومبتورون ومشلولون يتزاحون حول البركة يحدقون فى صفحة مائها لعلهم يرون هزة السطح فيندفعون. ومن بين كل هذا الجمع البائس المرتقب فرصة للخلاص، التفت «المسيح» إلى رجل مشلول على سريره علي حافة البركة وسط الجموع. كان راقداً على ظهره فوق السرير الذى يشبه طاولة من الخشب عليها بعض الفرش المتسخة والرجل فوقها لا يتحرك فيه شىء إلا وجهه يلتفت إلى اليمين والى الشمال كمن يبحث عن شىء وينظر تارة إلى السماء ثم يحاول أن يقوم ليلقى نظرة على سطح الماء هل تحرك أم لا . رغم عبث المحاولة إلا أنه ظل ينقل بصره بين السماء والارض ويلتفت بوجهه تدور عيناه باحثاً عمن كان معه . وتحركت الرحمة فى قلب «عيسى» فتحنن على الرجل وتقدم نحوه قائلا «سلام من الله عليك» . فقال الرجل «سلام عليك» . والتفت بوجهه عنه تفتش عيناه فى الجمع الحاضر الذى يزدحم حول البركة قال له «المسيح» "عمن تبحث .؟"

قال الرجل . «اتفقت مع بعض الجيران أن يحملونى إلى هنا وأن يمكثوا معى ليلقوا بى إلى الماء إذا رأوا أنه اهتز وأعطيتهم ما طلبوا من النقود آخر ما كان معى من النقود . لكنهم تركونى. وضعونى هنا بعد أن أخذوا نقودي ثم تركونى كما ترى أيها السيد الغريب إننى لا أستطيع الحراك فحتى إن نزل الملك اليوم وحرك الماء فلن يكون فى وسعى أن اظفر بالشفاء لأننى لا أستطيع أن أدفع نفسى . على كل حال» . وخنقت الدموع صوت الرجل وبكى «عيسى» لبكائه فتعجب الرجل لبكاء «عيسى» معه .كان بكاؤه حارا صادقا فطمع الرجل أن يقبل «عيسي» أن يحمله ليدفعه إلى الماء حالما يرى أنه اهتز لنزلة «الملك» وأراد أن يستعطف «عيسي» فاستأنف قائلا . «أيها الغريب الطيب منذ سنوات وأنا آتى إلى هنا طامعا فى كل مرة أن ظفر بالشفاء . لقد انفقت كل ما أملك من أجل أن أشفى . ولكن

دون فائدة .تركتني أمرأتي وتخلى عنى أولادى وها أنذا أستأجر من يحملني إلى هنا. لم يعد معي نقود . لن أجد من يطعمني أو ينظفنى بعد أن صرت وحيداً وأجهش الرجل ببكاء مرير. حتى لو وجدت من يدفعنى إلى الماء فلا شك أن هناك من سيكون أسرع منى .

ـ قال «المسيح» أتريد أن تبرأ (١٤٢) .

ـ قال: أيها الرجل الطيب إننى لا أجد من يحملنى ولا ريب أن هناك فى هذا الجمع المزدحم من سيصل إلي الماء قبلى.

ـ قال «عيسى»: أتريد أن تبرأ»

قال الرجل وقد كف عن البكاء وازدادت حيرته من أمر محدثه . «يا سيد من ذا الذى لا يريد أن يبرأ »

قال «عيسى»: «قد دعوت «الله» لك فقبل صلاتى فقم الآن وأحمل سريرك وأمض إلى «الهيكل» فاعرض نفسك على الكهنة وقص عليهم قصتك وقدم القربان الذي أمر به «موسى» ثم أسرع « المسيح» فغاب عن عين الرجل الذى التفت إليه يريد أن ينادى عليه لم يكن يطمع فى أكثر من أن يمكث معه ليدفعه نحو الماء إذا جاءت الفرصة . ولكنه ذهب اكتشف الرجل أن جسده قد لان وتحرك وهو يميل نحو «المسيح» يريد أن ينادى عليه فأطبقت عليه المفاجأة ثم أخذ فى حذر شديد يحاول أن يقوم ليجلس على سريره فكانت دهشته تفوق الوصف عندما شاهد أنه يستطيع أن يجلس . وأن ظهره يمكنه الإنثناء وذراعيه وساقيه قد اكتسبن الليونة التى فقدنها منذ سنوات طويلة . ثم حاول أن يقف فنجح ثم أخذ يتحرك بعض الخطوات إلى الأمام ثم إلى الخلف ثم يلتفت إلى اليمين ثم إلى اليسار كأنما يجرب آله جديدة حصل عليها أو اشتراها من السوق . فلما تيقن أنه قد عوفى تماما-من الشلل الذي كان يسجن جسده صرخ ضاحكا « أيها الناس لقد شفيت ها أنذا اتحرك الحمد لله الذى شفانى الحمد لله الذى شفانى»

كان صوته عاليا وحركاته وضحكاته تحدث صخبا أثار إلتفات جمع البؤساء الذين تزاحموا على حافة الماء فأخذوا يتساءلون ما الذى حدث؟ لماذا يصرخ هذا الرجل ؟! ولماذا يضحك على هذا النحو « والذين كانوا يعرفونه ويرونه راقداً بلا حراك على ظهره فوق سريره منذ لحظات قليلة أصابتهم الدهشة وتملكهم مايشبه الفزع وهم يرونه ينحنى ليحمل سريره وفراشه ويرفعه على ظهره ويهرول مسرعا الى «الهيكل» كما أمره «الرجل الغريب» الذي كان يحادثه منذ قليل. أخذوا ينادون عليه ليسألوه عما جرى له لكنه كان يهرول ماضياً إلى «الهيكل» لايلوى على أحد فأخذ بعضهم يسرع وراءه يريدون أن يستطلعوا الأمر .

ما أن تجاوز عتبة أحد أبواب «الهيكل» حتى أمسك به كاهن وأحاط به بعض «الكتبة»الفريسيين فأوقفوه وأمروه أن يلقى سريره وفراشه على الأرض ووبخه الكاهن قائلا « ألا تعلم أنه لايحل لك أن تحمل سريرك فى السبت ألا تحفظ شريعة» الله» إيها الخاطئ»(١٤٣).

واندفع فريسى يقول له فى صلف «أيها الخاطئ لقد دنست السبت بفعلتك هذه» فقال الرجل فى مسكنة كأنه يعتذر عن خطيئته التى ارتكبها دون قصد منه «الرجل الذى أبرانى من الشلل قال لى أحمل سريرك وقم فامش إلى «الهيكل» وأعرض نفسك على «الكهنة» وقدم القربان ».

فاندفع الفريسى قائلاً «أذهبت لتعالج نفسك فى السبت أم استدعيت طبيبا ليعالجك يالك من خاطئ فاجر يتمرد على شريعة «الله» .

وقال الكاهن: «أو قال لك اذهب الى «الهيكل» وأرى نفسك للكهنة إنه يتحدى «الهيكل» اذن ويعلن الحرب على «الله» .

قال الرجل صاحب السرير وقد أذهله تطور الأمر على هذا النحو الذى لم يخطر له

على بال « ياسيدى الكاهن وأنت ايها الشيخ الجليل إننى لم اذهب الي طبيب ولم استدع طبيبا ولكنى كنت راقداً بلا حراك على سريرى هذا عند البركة أدعو «الله» أن يشفينى من مرضى وقد استبد بى اليأس من كثرة مادعوت وطول ما انتظرت فجاءنى رجل غريب « مشرق الوجه» يسألنى عن حالى فشكوت له سوء حظى فقال لى قد دعوت » «الله» لك فقبل صلاتى فقم واحمل سريرك واذهب الى «الهيكل» فأطعته وجئت كما أمرنى» .

ـ قال الشيخ الفريسى «إنك كاذب وكلا منكما خاطئ ملعون أنت وطبيبك المزعوم هذا الذى لم يحترم السبت إذ قام بالإبراء فيه وأمرك بحمل السرير والأمران كلاهما لايصحان في السبت الذى حرم «الله» فيه العمل وأمر أن يفرد لعبادته فقط ».

ـ قال «ياسيدى الشيخ إننى لم أكذب ».

ـ قال «بل كذبت لأنك ادعيت أنه أبراك وليس فيما قلته الآن مايدل على أنه فعل شيئا لك».

ـ قال الرجل مذهولاً «كيف ياسيدى لقد كنت أرقد على السرير بلا حراك أبول وأتبرز على سريرى طيلة سنوات عديدة حتى جاء هذا الرجل فأبرانى فكيف تقول أنه لم يفعل شيئا» .

قال الشيخ «إنك خاطئ كاذب وأيضا جاهل ماذا فعل لك ايها الأحمق حتى تقول أنه ابراك إنه لم يعطك دواءاً ولم يجر لك جراحة أو يرشدك إلى شئ ماتفعله فكيف ياأحمق تقول أنه ابراك» .

تضايق الرجل من كثرة السباب الذى ناله من الشيخ ولكنه كظم غيظه وقال «ولكن ياسيدى الشيخ لقد كنت مريضا فعلا لا أستطيع أن احرك جسدى الذى كان متصلبا ثم ها أنذا أقف سليما استطيع أن أحرك أطرافى وجذعى أنظر ».

وأخذ الرجل يركع ويقوم من الركوع ويتحرك الي الامام والخلف وقد أخذه السرور

بليونة جسده والجمع الحاضر الذى كان يتابع المجادلة يضحك من هيئة الرجل واستبد الغيظ بالكاهن والفريسى فقال الكاهن فى كبرياء «تحشم يارجل فإنك تقف أمام كاهن وفى بيت «الله» .

فتوقف الرجل وقد تضاعفت حيرته من كلام الكاهن «عفواً ياسيدى الكاهن فإننى لم اقصد إلا أن أبرهن » .

فقال الكاهن «دعنا مما تقصده وقل لنا من الذى تقول أنه أبرأك وماذا فعل لك حتى تقول أنه أبرأك فليس فيما قلت حتى الآن إلا الهراء الذى لايعنى شيئا ».

قال الرجل وقد أدرك أنه وقع فى ورطة شديدة لايعرف كيف يخرج منها «صدقنى ياسيدى الكاهن إننى لاأعرفه أعتقد أنه رجل غريب ليس من هنا فهذه أول مرة أراه أما ماذا فعل لى بالضبط ؟! فإننى أيضا لا أعرف كيف أقصه ».

فاندفع الفريسى « يالك من مخادع كذاب إنك قلت منذ قليل أنه أبراك ثم ها أنت تقول الآن أنك لا تعرف ماذا فعل لك ماذا تقصد مما قلت ؟! ماقلته أولاً أم ماقلته الآن »؟!

ـ «ياسيدى إننى لم اغير أقوالى فإننى مازلت أعتقد أنه هو الذى أبرانى لأننى كنت مريضا قبل أن أراه ولكن اقصد أن أقول إننى لاأتبين على وجه الدقة مافعل من أجلى أقصد إنه صلى من أجلى وأن «الله» قبل صلاته ولذلك ابرأنى ولكن كيف وقع هذا فهذا مالاأستطيع أن أصفه ».

ـ قال الشيخ «أيها الكاذب كيف تقول أنه صلى من أجلك هل رأيته أوسمعت صلاته».

ـ قال الرجل «لاياسيدى ولكنه قال أنه صلى من أجلى وأعتقد أنه صادق ».

ـ قال« هاقد عدنا لكلمة »أعتقد« لايهمنا ماتعتقد أنت مايهمنا هو أن نعرف ماحدث بالضبط ».

ـ قال « ياسيدى وما الذى يدعوه للكذب لقد قال أنه صلى من أجلى فلابد أنه فعل

فلاشئ يدفعه للكذب فأنا لم أعطه شيئا مقابل صلاته. إننى ياسيدى حتى لاأعرفه ماالذى يجعله يكذب لذلك أعتقد أنه صادق واعتقد أن اعتقادى صحيح ».

ـ « أنظر ايها الأحمق إنك عدت من جديد «لأعتقد» تلك وماذا يفيدنا نحن أيها الجاهل من اعتقادك نحن نريد حقائق ».

قال الرجل وقد فاض به الكيل ولم يستطع أن يكظم غيظه «ياسيدى الشيخ قد أكون جاهلا حقاً ولكننى أعلم أن «الله» لايحاسبنا إلاّ على مانعتقد فنحن نعتقد أنه إله وحيد يستحق العبادة وأنه أوحى إلى «موسى» عبده شريعته ونعتقد أنه كلم «الأنبياء» وهكذا كما ترى ياسيدى فإن «الله» لايحاسبنا إلاّ على مانعتقد إن مانعتقد هو الحقيقة الوحيدة التى يمكن أن نعتمد عليها فى تحديد تصرفنا وعليها وحدها يتوقف مصيرنا الأبدى عند «الله» الذى ليس بالنسبة إلينا إلا مانعتقد أنه هو فهو كما نعتقد أو هو مانعتقد ».

أفحمت كلمات الرجل البسيط الفريسى المتعالم فكأنما إلتقم حجراً بفيه فصمت أما الكاهن فاندفع يقول «كيف تجرؤ على أن تقول أن «الله» قد قبل صلاته هل صعدت الى «الله» وعرفت أنه قبل دعاءه ماهذا التجديف ؟! «فقال الرجل فى بساطة وقد أحس بثبات موقفه وأن ثمة «قوة عليا» تهبه الإجابة «ياسيدى الكاهن إننى لم اصعد إلى «الله» لأعرف منه هل قبل صلاة الغريب الذى صلى من أجلى لكننى أوقن أنه قبل صلاته وأنّ حركتى هذه «وأخذ يحرك ذراعيه كأنه يسبح ويدير رأسه فى كل اتجاه» هى دليل إجابة الصلاة «وصرخ الرجل فى فرح «هاهو الرجل الغريب الذى صلى من اجلى فأبرأنى «الله» «بصلاته» وجرى نحو «المسيح» الذى كان يدخل «الهيكل» وسط جمع صاخب لأن أحد الرجال البرص الذين شفاهم على الطريق قبل أن يصل إلى البركة كان قد رآه داخل «الهيكل» فأخذ يصيح «ياأبناء يعقوب تعالوا لتروا النبى الذي أرسله «الله» إليكم.

ياشعب «الله» أقبل فهذا نبى جاءكم من ربكم»

كان هذا الرجل هو الأبرص «السامرى» الذى فهم كلام المسيح قبل الآخرين .

والتفت الناس الى «المسيح» وعرفه بعض الرجال من «الناصرة» كما عرفه بعض الذين رأوه عند نهر الأردن فى «بيت عبرة» عندما ذهب إلى «يحيى بن زكريا» وامتلاء «الهيكل» بالضجيج وأخذ الناس يتدافعون ليروا «المسيح» الذى قال للرجل الذى كان مصابا بالبرص: «لقد جئت وحدك فأين ذهب الباقون» فقال الرجل وهو يهم بالسجود عند قدمى «المسيح» لقد ذهبوا يانبى «الله» ولم يأتو الى الهيكل . فأقامه «المسيح» وهو يقول له «اشكر الله» الذى أبرأك من البرص ولا تعد إلى الخطيئة حتى لا ترجع إلى أسوأ مماكنت» فقال الرجل «سمعا وطاعة ياسيدى».

أما الكاهن فلم يستطع أن يكظم غيظه مما يرى ويسمع وقد أحنقه هذا التوقير الشديد الذى أبداه الرجل للسيد « المسيح » فقال فى صلف وهو يوجه خطابه «للمسيح» «أيها الطبيب الخاطئ ألا تعلم أن «الله» قد حرم العمل فى السبت فكيف تبرئ المرضى فى السبت وكيف تأمر هذا الرجل الخاطئ بأن يحمل سريره فى السبت وهو محرم عليه » .

فقال «المسيح» فى بساطة «وأنت أيها الكاهن ألاَ تعلم أنَّ «الله» نفسه يعمل فى السبت» كانت إجابة غريبة لم يتوقعها الكاهن ثم زاد «المسيح» من انزعاجه ودهشته عندما أضاف «أم تقول أن «الله» خاطئ لأنه يعمل فى السبت» ولم يتمالك «الكاهن» نفسه فصرخ بأعلى صوته «أيها الكهنة» «أيها الشيوخ تعالوا إلى هنا لتروا هذا الخاطئ الذى يجدف على «الله» وزاد ازدحام الناس حول «المسيح» والكاهن الذى يجادله وأقبل «كبير الكهنة» ومعه بقية «الكهنة» الذين كانوا فى «الهيكل» وجمع كبير من الكتبة وشيوخ الفريسيين وشعر الكاهن بشئ من القوة لما رأى الجمع من رجال «الهيكل» قد أقبل وازدادت ثقته فى نفسه فقال «للمسيح» «كيف تجرؤ أيها الخاطئ الذى لايحترم السبت على أن تقول أن الله يعمل فى السبت» .

فأجابه «المسيح» «وأنت أيها الكاهن الخاطئ الذى لايحترم كلام «الله» قل لى من

الذى يرزق الخلائق ويحيى الموتى ويميت الأحياء ويشفى المرضى ويمرضى الأصحاء فى يوم السبت» ؟!

وبوغت «الكاهن» ولم يستطع أن يرد فأضاف «المسيح» فى ثقة: إن «الله» هو الذى يفعل هذا فى يوم السبت كما فى غيره من الأيام فهو فى كل يوم يرزق مخلوقاته ويحيى بعض الموتى ويميت بعض الأحياء ويشفى بعض المرضى ويمرض بعض الأصحاء وهو الذى شفى هذا المشلول الذى كان يرقد على السرير وشفى ذلك الابرص وتسعة غيره من «البرص» فى هذا السبت» .

فاندفع الكاهن يقول «أو تزعم نفسك أنك أنت الله» .

فقال «المسيح» «انظر الآن من الذى يجدف على «الله» ؟ واضطرب «الهيكل» بالضجيج الذى علا صخبه وطلب رئيس «الكهنة» من خدم الهيكل ومن الجنود أن يفرقوا الناس من حول «المسيح» وأن يصفوهم فى صفوف وأخذ يطلب من الناس أن يلتزموا الهدوء «أيها الناس اصمتوا إنكم فى «هيكل» الرب المقدس» فاخشعوا وأنت أيها الغريب تقدم إلى هنا تعالى إلى الدكة فكلم الناس ».

أخذ «المسيح» يشق طريقه فى صعوبة الى دكة الوعظ وخدم «الهيكل» والجنود يحاولون تهدئة الناس وكبير الكهنة يصرخ طلبا للصمت ثم إبتدأ الهدوء يعود الى «الهيكل» رويدا كلما تقدم «المسيح» نحو دكة الوعظ حتى وقف عند نفس المكان الذى ألقى منه خطبته الأولى وهو بعد طفل صغير ملفوف فى الأقمطة كان الهدوء قد نزل على «الهيكل» فصمت الناس واخذوا يتطلعون إلى وجه «المسيح» منتظرين كلامه .

قال كبير الكهنة « أيها الرجل إن الشعب يريد سماعك فقل لهم من أنت وإذا أعطاك «الله» كلمة فتكلم بإسم الله »(١٤٤).

وقف «المسيح» صامتا حتى أطبق الصمت على «الهيكل» إنه فى هذا المكان منذ أكثر

من ثلاثين سنة جاءت به أمه تحمله آية من «الله» للناس إن «الله» أعطاه الكلمة فكلم الناس فى المهد فسأل «الله» أن يعطيه الكلمة اليوم ليبلغ عنه رسالته وانساب صوته دافئاً من حرارة صدقه منيراً لإكتمال معرفته .

«بسم الله»

«تبارك» «الله» القدوس الذى من فيض رحمته خلق الخلائق ليعبدوه فيعرفوه وبهذا يتمجد» .

« تبارك القدوس الذى من «روحه» أظهر كل الأشياء فكان النور الذى عرفت فيه الأشياء حقيقتها فعرفت ربها واقتبس منه كل الأنبياء نورهم فارشدوا به العباد إلى ربهم».

«تبارك القدوس الذى نفخ فى رحم «أمى» من «روحه» فأظهر نفسى التى كانت كلمة مودعة فى رحمها ثم ها هو يرسلنى إليكم» .

«يابنى اسرائيل إنى رسول «الله» إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه «أحمد»(١٤٥) الذى رمزوا لإسمه «بـ ايليا» وقالوا إن «الله» يرسله قبل مجئ يوم الرب العظيم «روح الله» الذى ظهر به كل شئ نَفَخَ منه فى الطين فكان « آدم» ومسح به ظهر «آدم» فكانت كل البشرية. نفخ منه فى رحم «أمى» التى ولدتنى فكنت أنا. «فأنا مسيح الله» «عيسى بن مريم» مسحنى «روح الله» وأنا فى رحم أمى إذ تمثل لها بشرا سويا لينفخ فيها « سر الحياة» قبل أن يظهر للناس جميعا فى صورة البشر نبيا مرسلا إلى جميع الأمم ».

أنا «مسيح الله» «ابن الإنسان» «الروح» الذى أرسله «الله» إلى أمى ليهبن غلاما لها وهى العذراء الطاهرة .

فتبارك « الله» القدوس الذى كرم الإنسان وأدخله«الجنة» لينعم برحمة «الله» لكن الإنسان عصى ربه وأكل من الشجرة التى نهاه «الله» عن الأكل منها بغواية «إبليس» الذى

اتخذه الإنسان وليا فاستمع إلى إرشاده الخبيث وكان جديراً به أن يتخذه عدواً وقد علم مبلغ كراهيته له وكانت ثمرة المعصية أن هبط ادم مع أبليس الى الأرض وهبطنا جميعا معه لتكون الدنيا دار الإبتلاء فمن صدق كلام «الله» وأطاعه استحق أن يرجع إلى الجنة ومن كذب كلام «الله» وعصاه قذف به إلى النار التى لاتطفأ .

تبارك «الله» القدوس الذى رحم الانسان ونظر إلى دموع «آدم وحواء»[١٤٦] عندما ندما على الخطيئة وفاضت دموعهما أسفا على معصيتهما فتاب «الله» عليهما وأنزلنا إلى الأرض وأمهلنا فرصة اخرى لعلنا ننجح فى العودة إلى جنة «الله» .

تبارك «الله» القدوس الذى رحمنا وتاب علينا وأمهلنا لأننا ندمنا على معصيتنا ولم يلعننا ويديننا كما فعل مع «إبليس» الذى استكبر ولم يندم على خطيئته وأصر عليها .

تبارك «الله» القدوس الذى من رحمته بخلقه يرسل إليهم الرسل ليهدوهم الصراط المستقيم لعلهم يخرجون من الظلمات إلى النور فاذكروا نعمة «الله» عليكم إذ أعطاكم ناموسه الطاهر على يد عبده ورسوله «موسى بن عمران» ومكن لكم فى هذه الأرض المباركة التى نزلتم إليها غرباء مستضعفين فبدد شمل اعدائكم ونصركم عليهم وأبدلكم من بعد خوفكم أمنا حتى تعبدوه بلا خوف من أحد لكنكم تركتم كتاب «الله» وراء ظهوركم ونقضتم الميثاق الذى واثقكم به فاعلموا أن «الله» لايغفل عن الظالمين ولايسكت عن الخاطئين بل يرسل إليهم لينذرهم عذابه ثم ينتقم منهم فيهلكهم إن أصروا كما فعل بإبليس .

لقد علمنى «الله» التوراة التى أنزلها على «موسى» وأوحى إليه كتابتها لكم لكنكم نسيتموها ولم تحفظوها وعندما كتبتموها غيرتم فيها أرسلنى «الله» لأعلمها لكم إننى لم أت إليكم بشريعة جديدة أو لأنسخ التوراة التى أوحاها «الله» إلى «موسى» ... بل «**قد جئتكم بالحكمة**»[١٤٧] لأعلمكم كيف تسلكون بشريعة «موسى» فى طريق «الله» «**ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا «الله» واطيعون**»[١٤٨].

واذكروا كيف أهلك «الله» «فرعون» وجنوده فأغرقهم جميعا فى البحر وهم يطاردون ابآكم وأنتم تنظرون .

واذكروا كيف ضرب «الله» مصر لأن «فرعون» عصى رسول «الله» إليه موسى بن عمران وكيف أغرق «الله» الأرض بالطوفان لأن الناس كفروا برسول «الله» «نوح»(١٤٩).

«فاتقو الله وأطيعون»

«إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه»

« هذا صراط مستقيم»(١٥٠)

توقف «عيسى » عن الخطاب لحظات كان القوم مأخوذين بخطابه لأن كان يتكلم «بسلطان » ينساب صوته فى يسر كأنه نور الصباح يبدد الظلمة فى هدوء دون أن تستطيع مقاومته لم يكن يتلعثم أو ينسى فيحاول التذكر أو يحاول أن يبرهن على كلامه بأدلة أو يرجع إلى نصوص قديمة كما يفعل الكتبة عندما يقفون للإرشاد .

ربما تذكر بعض الشيوخ منهم الذين استمعوا إليه من قبل عندما تكلم وهو فى المهد قصة «العذراء» التى كانت تعطر «أورشاليم» بأريجها وتذكروا «زكريا» الذى قُتِل فى نفس هذا المكان وتذكر الجميع الشيوخ والشباب «يحيى بن زكريا» الذى لم يزل يبشر «بمسيح الله» ويعلن على الملأ إيمانه به لكن «الكهنة والكتبة» الذين رأوا «سلطانه» على الناس تهامسوا فيما بينهم واتفقوا على أنه ساحر ماهر استطاع أن يسيطر على حواس جمهوره بسحره العجيب واندفع بعضهم يقول «**هذا سحر مبين**» (١٥١) ولن يستطيع ان يخدعنا وتعالت أصوات «الكهنة والكتبة» «أخرجوا هذا الكذاب الذى يجدف على «الله» من «هيكل الله» .

«ابن الزانية الذى لايعلم من هو أبوه يدعى أنه قد أتى ليعلم شعب الله »

«اقتلوا الكذاب الذى يجدف على شعب «الله» أيكون نبى من غير اليهود ؟!

«ألم يجد «الله» غير تلك الأمة ليجعل فيها «روحه» الذى يرسله إلى الناس جميعا !! هذا كذب على «الله» وإهانة لشعبه ».

«إنما مسيح الله يكون إبنا لداود ملك اليهود الشعب الذى اختاره الله ».

«أما ابن الزانية هذا فإنه كذاب ».

«ليس إلا سامريا مخادعا أتى بهذين الرجلين ليحكم قصته الملفقة ولكنها لن تنطلى علينا » تعالت الأصوات وتداخلت وهاج الجمع بعضه فى بعض .

فقال «المسيح» وقد علا صوته حتى بدا كأنه الرعد ينذر «لا أشهد لنفسى وإن كانت شهادتى حقا ولكن يشهد لى «يحيى بن زكريا» ووجه خطابه الى الكهنة والشيوخ ألم ترسلوا إلى «يحيى» تسألونه عن نفسه وعن كلمة «الله» التى يبشر بها ؟!(١٥٢).

«ألم ترسلوا إليه ؟ فلماذا أرسلتم إليه وماذا قال لرسلكم ؟».

أطبق عليهم الصمت لأنهم لو قالوا لم نرسل فقد شهدوا على أنفسهم بالكذب لأن كثيراً من الحاضرين يعلمون بنبأ إرسال رجال من «الهيكل» ليستعلموا من «يحيى» عن دعوته التى يبشر بها والسؤال المحرج لهم حقاً هو لماذا أرسلوا إليه ؟ لأنه يعنى أن ليس لديهم شئ مؤكد يبنون عليه موقفهم فلو كانوا متأكدين من كذبه ما أرسلوا إليه يسألونه ولو كان لديهم من النصوص مايجعلهم واثقين ماعبأوا به ولا بما يقول اما ماقاله «يحيى» فهو أن «عيسى» إبن مريم هو «مسيح» «الله» الذى أرسله إلى بنى اسرائيل لقد شهد له والجميع يعلمون هذا .

ثم مزق صوت «عيسى» الصمت قائلا «لقد شهد لى وشهادته حق فأنا «مسيح الله» المولود من «مريم العذراء» ولكن لى شهادة أخرى هى أعظم من شهادة «يحيى» إنها الآيات التى أعطانى ربى أن أظهرها لكم هذه الايات تشهد لى بأن «الله» هو الذى أرسلنى»(١٥٣) «لقد كان هذا الرجل الذى رأيتموه يحمل سريره مشلولا سجينا على

فراشه لايستطيع الحركة والآخر كان أبرصاً مع تسعة آخرين لقد شفاهم «الله» جميعا لأنه قبل صلاتي لقد أعطاني «الله» أن اظهر لكم الايات التي تطلبونها لتؤمنوا أنه أرسلني». وأراد أن يتحداهم فقال «وسترون أعمالاً أعظم مما رأيتم اليوم فلا تتعجبوا بل اعلموا أن «الله» القادر على كل شئ قد أرسلني إليكم لأعيدكم إلى طريقه المستقيم الذى حدتم عنه» . إننى لست فى حاجة إلى شهادة من إنسان لأن الذى أرسلنى يشهد لى(١٥٤) إننى من نفسى لا أستطيع أن أفعل شيئا لأن «الله» هو الفاعل بى ألا ترون أن الأب المحب لإبنه يعلمه كيف يصنع والإبن المطيع لأبيه ينظر إليه ويتعلم منه كيف يصنع فالأبن لايستطيع أن يفعل إلا ما أحب أبوه له أن يفعله وكذلكم أنا لا أفعل إلا ما أحب «الله» أن يفعله فأعلم أيها الكاهن الذى اتهمتنى بأننى أكذب على «الله» . أن «الله» هو الذى يشفى الأمراض وأنه يفعل هذا فى السبت كما فى غيره من الأيام إننى لم انقض السبت ولم أدنسه لأننى لم أفعل سوى أننى صليت « لله» من أجل هؤلاء المرضى المساكين فأبرأهم «الله» ألاَ تحل الصلاة فى السبت ؟!. لقد جُعِلَ السبت للصلاة وأنا لم أفعل شيئا غير الصلاة فمن الذي دنس السبت »

كان الكهنة يحتدمون غيظا من كلامه ولكنهم خشوا أن يعارضوه فيزيد من توبيخهم أمام الناس وخشوا أن يتحدوه حتى لايظهر المزيد من الآيات فيصدقه الناس جميعا فالتزموا الصمت على مضض وهم يقولون ليت كُبير الكهنة ما أعطاه الكلمة» ولكنه كان بقلب النبى يعلم مايدور في قلوبهم فأراد أن يبين لهم أن لاسبيل أمامهم للمداهنة أو المجاملة على حساب الحق فقال موجها كلامه إليهم .

«أيها الكهنة لقد تركتم خدمة «الله» فلم تقيموا للناس صلاتهم ولم تأمروهم بطاعة «الله» وتنهوهم عن معصيته بل تركتموهم ينغمسون فى الخطايا ويستغرقون فى المطامع الدنيوية ليقدموا القرابين والنذور التى تبيعونها ثم تأخذونها منهم وتأكلوها لقد صرتم تعبدون المال بدلا من «الله» تتكالبون على الدنيا ونسيتم يوم الحساب فأحذروا يوم

تسمعون الصيحة بالحق فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى الرحمة الدائمة ويخرج الذين عملوا السيئات إلى الجحيم الذى لاخلاص منه. ثم توجه إلى الكتبة قائلا .

« أيها الكتبة يامن تعلمون الشعب شريعة «الله».

«لقد دنستم كلام «الله» وصرتم تعلمون الناس تعاليم فاسدة وتركتم شريعة «الله» النقية أيها الفقهاء لقد أبطلتم دين «الله» كما علمه أنبياءه وصرتم تتمسكون بتقاليد شيوخكم الباطلة ».

«لاتقولوا كيف تحكم علينا وبأى حق تديننا لأننى كما أسمع من «الله» أحكم وحكمى عادل لأننى لا أفرض مشيئتى بل مشيئة «الله» الذى أرسلنى ولا أطلب مجداً لنفسى بل مجد «الله» الذى أرسلنى».

بهذا الخطاب قد أعلن الحرب على «الكهنة والكتبة » وحتى يقطع فى قلوبهم كل أمل فى المساومة قال «مجدا من الناس لا أريد » (١٥٥).

« أيها الكهنة والكتبة».

«إننى لا أطلب مجدا من الناس».

وبدت على وجوههم الكآبة ولكن لم يكن فى وسعهم شئ إلا الإستماع صاغرين» ثم انطلق صوت «المسيح»

«الآن عرفتكم»

«ليس فى قلوبكم محبة «الله» لذلك لاتؤمنون بى وأنىٌ لكم الإيمان وأنتم تطلبون مجد الدنيا الباطل تقبلون المجد من بعضكم البعض أما المجد الحق من الإله الواحد فلستم تطلبونه» لاتظنوا أنى أشكوكم إلى «الله» لأن هناك من يشكوكم إنه «موسى» الذى عليه رجاؤكم. إنكم الآن قد كفرتم «بموسى» لأنكم لو كنتم تؤمنون «بموسى» لكنتم تؤمنون بى

لقد أتيت إليكم بإسم «الله» ولذلك فأنتم لاتقبلونني ولكن عندما يأتيكم آخر مسيح كاذب يتكلم بإسم نفسه فذلك الذي تقبلونه لأنكم مثله كاذبين »(١٥٦).

«يابني اسرائيل».

«إن الله أرسلني إليكم لكنكم نسيتم الله ولم تثبت فيكم كلمته»

«لقد أسلمتم أنفسكم إلى الغرور وتظنون أن لكم حياة أبدية لأنكم كما تقولون ابناء ابراهيم وشعب الله».

« يابني اسرائيل.

أقول لكم فتشوا في الكتب التي بين أيديكم لتعلموا إن كان لكم حياة ابدية أم عذاب مقيم هذه الكتب نفسها هي أيضاً تشهد لي »(١٥٧).

ونزل «عيسى» وشق طريقه وسط الجموع التي احتشدت في «الهيكل» وهي تنظر إليه بعيون شاخصة وقلوب قد بدأت تستيقظ من غفلة طويلة فأخذت تتلفت من الحيرة إذ صدمها ماسمعت وما رأت .

لقد عرَّف نفسه أفضل تعريف وبين مهمته فأفصح إنه لم يأت ليهدم شريعة «موسى» بل ليعلمهم «كيف» يطيعونها لتكون الشريعة طريقا يصل بهم الى «الله» وهذه هي «الحكمة» وإنه قد جاء ليحل بعض مسائل الإختلاف التي اندلعت بينهم لإضطراب النصوص التي عبثت بها يد الإنسان وقد استدل على صدقه بثلاثة شهود لايمكن دحض شهادتهم «يحيى بن زكريا» والايات التي أيده «الله» بها وتحداهم أنه مستعد لإظهار المزيد إن أرادوا التحقق من صدقه وليس بعد هذا زيادة في الثقة في صدقه وأخيرا الأسفار التي بين أيديهم. ولم يجدوا مفرا من التزام الصمت فقد خشوا أن يجادلوه في كتب الأنبياء حتى لايزيد من فضح جهلهم وقرر «الكهنة والكتبة» وزعماء الفريسيين ان يجتمعوا

مع بعضهم ليصلوا إلى قرار واحد يجمعون عليه فى شأن هذه الفتنة التى يثيرها في الشعب هذا «الساحر» عظيم القدرة الذى استطاع أن يسيطر على «جمهوره» وأن يخضعهم لسلطانه اما الشعب فقد اندلع فيه الإختلاف بين مؤيد لصدق «عيسى» معتقداً أنه بالحق «مسيح الله» وبين منكر يرى أن «المسيح» لم يزل بعد في الغيب لم يحن أوان ظهوره وأخذت «أورشاليم» تضطرب بالمناقشات المحتدمة .

«فاختلف الأحزاب من بينهم »

«فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم »(١٥٨)

(١٤)

« ماء الحياة »

«أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ماكانوا يعملون »

« الأنعام ١٢٢»

بدأ الناس يتساءلون عن «المسيح» النبى الجديد القادم من «الناصرة» إذ كانت آيات الشفاء التى رأوها أو سمعوا عنها تدهشهم وكانت موعظته التى انتشرت انباؤها فى «أورشاليم» هى «حديث» المدينة كلها التى كانت تزدحم من الناس بالذين جاءوها لزيارة «الهيكل» فى أيام الفصح.

« نبى من الناصرة ؟!». من الجليل. هذا والله شئ عجيب. لأن « الجليل» الذى كان يدعى «جليل الأمم» كان موطن الفساد والخروج على شريعة «الله» فى عين أهل «أورشاليم» ويهوذا كلها الذين يعدون أنفسهم هم وحدهم أهل الشريعة المتمسكون بتقاليد الاباء المحافظون على كلام «الله» المقدس أما بالنسبة للقادمين من «الجليل» فقد كان خروج «نبى» من إحدى قرى منطقتهم أمراً يلقى رضاهم لأنه يرد إليهم إعتبارهم إزاء تغطرس رجال اليهودية خاصة أهل «أورشاليم». لذلك مال أهل «الجليل» إلى تصديق «نبوة» «المسيح عيسى الناصرى» خاصةبين الذين كانوا يذهبون الى «يحيى بن زكريا » ليتطهروا فى الأردن بين يديه ويستمعوا إلى موعظة لأنهم استمعوا كثيراً إليه وهو يبشر بقرب خروج «المسيح» .

كان بعض الرجال القادمين من «الجليل» يتحدثون همسا وجهرا عن «عيسى الناصرى» فاشتد حماس «اندراوس بن يونا » الذى كان يتحدث مع صديق عندما رأى

«عيسى» يخرج من «الهيكل» ويشق طريقه وسط الجموع التى كانت تنظر إليه بعيون شاخصة. أسرع «اندراوس» يحث صديقه قائلاً له : «دعنا نذهب وراءه لنعرف أين يمكث » وأخذ يجذب صديقه قائلا «هيا يارجل لاتبطئ» وأحس بهما «المسيح» فالتفت إليهما بوجهه المشرق قائلاً «هيا تقدما».

«تقدم يا «أندراوس» «ماذا تريد» ؟ ألجمت المفاجأة «أندراوس» وصديقه «كيف عرف اسمه» ولم يملكا إلا أن يسيرا نحوه كالمأخوذين فقال لهما بصوت حنون «ماذا تريدان» ؟

تلعثم «اندراوس» ثم تمالك نفسه قائلا «يامعلم نريد أن نعرف أين تمكث » ؟ فقال بصوته الحنون ووجهه الذى زاده الترحيب إشراقا «إذن تعاليا وأنظرا »[(١٥٩)] ثم سار ودفعهما برقة ليسيرا إلى يمينه ظل صامتا وهو يتجه شرقا إلي «جبل الزيتون» كانا يسيران مطرقان إلى الأرض ويختلسان إليه النظر من حين لآخر . «كأن ماءً يقطر من وجهه وشعره كأنه خرج توا من الإغتسال » و «أندراوس» يحس بشئ مايجذبه نحو هذا الرجل الصامت.

«أيمكن أن يكون هو «المسيح» الذى بشر به «يحيى بن زكريا» ؟.

«لكن «الكتبة والكهنة» يقولون أن «المسيح» يجب أن يكون من نسل «داود» ويخرج من «بيت لحم» وهذا الرجل من «الناصرة» ولايعرف له أب إنهم يقولون أن «يوسف النجار» هو زوج أمه وليس أبوه فمن هو أبوه ؟ يصف نفسه بأنه إبن «الإنسان» ويقول أن «الله» خلقه دون أب آية للناس على قدرته وأنه أرسله ليعيد بنى اسرائيل إلى ربهم ويبشر برسول «الله» الذى يأتى قبل القيامة .

أيكون هذا الرجل هو حقا «مسيح الله" ؟!

ومن هو «الإنسان» الذى يقول أنه إبنه ؟!

« صنع معجزات إذ شفى الرجل المعقد وعشرة من «البرص» ولم يستطع «الكهنة

والكتبة» أن يعارضوه أو يجادلوه وعرف اسمى دون أن اخبره «أنبى» «صادق جاء من عند «الله» أم تراه ساحراً قديراً كما يقول الكهنة؟». وجاء «جبل الزيتون » قطع صوت «المسيح» الصمت قائلا «هاهنا أمكث فتعاليا » «هل يمكن أن نبيت ليلتنا فى هذا المكان الموحش بلا طعام ولاشراب أو غطاء كيف سننام على هذه الصخور وسط الثعابين والعقارب» وبدا على وجه الرجلين الفزع من هذه الدعوة الغريبة فقال لهما «المسيح» «إذن فامضيا إلى «أورشاليم» وانتظرانى غدا فى الهيكل ».

ثم تقدم وحده إلى الجبل وأخذ يصعد عليه سائرا بين الصخور حتى غاب عن بصرهما والرجلان يقفان مشدوهين من هذا «الغريب» الذى يقضى الليل وحده بين الصخور. هبط الليل واختفى الجبل بأحجاره وأشجاره ومن فيه عن الأبصار وجاءت النجوم لتقف فى أرض السماء لتشهد على الإنسان وهو يواجه كلمة «الله». كانت مصابيح الليل بعيدة لاتستطيع أن تضئ الطريق «لأندراوس» وصديقه وهما يسرعان يحثان الخطى الى «اورشاليم» .

أسرع «اندراوس » إلى أخيه «سمعان» يخبره أنه قد رأى «المسيح» وعرف أين يمكث وأنه سيأتى إلى «الهيكل» وعلينا أن نذهب إلى هناك لنرى ماذا سيصنع وماذا سيفعل «الكهنة والكتبة» معه ومر «أندراوس» وأخوه«سمعان» على فيلبُس (فيليب) صديقه الذى كان يجلس مع «نثنائيل» فأخبره «أندراوس» عن عيسى ابن يوسف النجار «القادم من «الناصرة» الذى يقال أنه هو «المسيح» الذى كُتب عنه فى الأنبياء وبشر به «يحيى بن زكريا» فامتعض «نثنائيل» قائلا « أمن «الناصرة» يمكن أن يأتى شئ طيب »(١٦٠) .

ورد عليه «فيلبُس» لانخسر شيئا تعالى لننظر فإنه كما يقول «اندراوس» سيأتى اليوم أيضا إلى «الهيكل» واعترض «نثنائيل» «يستحيل أن يقوم «نبى» فى «الجليل» وقال بعض الذين استمعوا إليهم وهم يتخاصمون «أيمكن أن يأتى «المسيح» من الناصرة» وقال آخرون

لقد تكلم بالأمس ولم يستطع أحد من «الكتبة أو الكهنة ان يعترض عليه ورأينا الكثيرين يبكون من موعظته ».

«لكن «المسيح» يجب أن يكون من نسل «داود» وبينما هم يتجادلون كان «المسيح» يتقدم نحوهم فى طريقه إلى «الهيكل» فانتبه الجميع إلى حضوره فقال موجها خطابه «لنثنائيل» «تقدم إليّ يا «نثنائيل» ولا تشك. إن «الله» أعلم حيث يضع رسالته» فقال نثنائيل «وقد بوغت» «من أين لك أن تعرفنى»؟!.

قال «المسيح» «الذي خلقك أنبأنى من أنت وأعلمنى بحديثك مع «فيليبس» وأنت تجلس تحت «التينة»(١٦١) فندم «نثنائيل» على شكه وتقدم إليه منحنيا مطرقا إلى الأرض «يامعلم أنت نبى الله حقا » قال «المسيح» «أآمنت لأني أخبرتك بأسمك فسوف ترون آيات أعظم من هذه الحق أقول لكم أنكم من الآن يمكنكم أن تشهدوا ملائكة «الله» وهم ينزلون على «ابن الانسان» لتؤمنوا أننى رسول «الله» «إليكم» وتقدم إلى «الهيكل» فسار الجميع وراءه.

لم يكد «المسيح» يدخل «الهيكل» وحوله الجمع الصغير الذى يسير وراءه حتى اندفع إليه أحد الكهنة. تقدم نحوه وقد بدا عليه تواضع ظاهر وقال للمسيح «أيها المعلم الصالح نشهد أنك رجل صالح وتعطى تعليما صالحا فأخبرنى ماهو الجزاء الذى يعطينا أياه «الله» فى الجنة على أعمالنا الصالحة ؟»!

كان «الكاهن» يتكلم فى تواضع ويحاول أن يتأدب فى خطابه «للمسيح» الذى فاجأه بقوله « أيها الكاهن لماذا تدعونى صالحاً ألا تعلم أن لا أحد يمكن أن يوصف بالصلاح الا «الله» وحده إن الصالح هو النقى الكامل ولا أحد يكون بهذا الوصف إلا «الله» ألم تقرأوا قول نبى «الله» «أيوب» الطفل الذى ليس له من عمره إلا يوما واحدا لايكون نقيا » إن قلبه لا يكون خالياً من الإثم.

وقال أيضا «إن الجسد يجذب الخطيئة كما تمتص الإسفنجة الماء ».

لأحد من الخلق لايخطئ كما يريد «الله». «الله» وحده هو الذى لايخطئ.

ثم التفت الى الجمع الذى تزاحم حوله يستمع فى انبهار إلى هذا الكلام الذى لم يعتادوا سماعه من «الكتبة والكهنة».

قال « إحذروا الذين يثنون عليكم فهم يخدعونكم باللسان ويهلكونكم فى الحقيقة باللسان أثنى إبليس على «آدم وحواء» أبوينا الأولين وكان يود فى قلبه إهلاكهما وإهلاكنا نحن ابناءهما فكان عاقبة كلامه هذا البلاء وعلى هذا النحو بارك حكماء مصر «فرعون» فطغى وأدعى أنه الإله الذى يجب أن يعبد وبارك أربع مائة نبى كذاب «أخاب» ملك اسرائيل حتى أوردوه التهلكة فلم يكن المدح إلا باطلا فهلك الممدحون بمدح المادحين ولذلك قال «الله» على لسان «إشعياء» النبى «ياشعبى إن الذين يباركونك يخدعونك»(١٦٢).

بوغت «الكاهن» بكلام «المسيح» الذى لم يكن يتوقعه وكان الكهنة والشيوخ والكتبة لما اجتمعوا بالامس يتباحثون فى أمر الفتنة التى أحدثها المدعو «عيسى الناصرى» بشفائه للمرضى وموعظته التى بهرت الشعب قد استقر أمرهم بعد نقاش طويل ومحموم على أن «عيسى الناصرى» ساحر قدير وعالم بليغ يجيد الخطابة ويستطيع أن يسيطر على الجمهور بسحره وبلاغته ومن ثم فإن المصلحة تقتضى منهم أن يهادنوه ويحاولوا تملقه واغراءه بالانضمام إلى جماعتهم ليصير واحدا من «الكهنة» رغم أنهم يجهلون نسبه بل يمكنهم اعطاءه منصب أعظم المعلمين «بالهيكل» وبهذا يضمنون ان تكون «أسلحته» فى جانبهم بدلا من أن تكون عليهم لقد ظن كبير الكهنة ورجال الهيكل أن «عيسى» سوف يشكرهم على أن منحوه شرف الحديث من فوق دكة الوعظ «بهيكل» «أورشاليم» فى أيام الفصح وهو شرف لايناله إلا الكبار من شيوخ الفريسيين الكتبة وعظماء «الكهنة» ولكنه على غير المتوقع أخذ يوبخ رجال «الهيكل» حتى تحولت خطبته الى سباب مقذع لهم وفسروا هم ذلك فى اجتماعهم بالليل على أنه رغبة فى الحصول على مكانة رفيعة بين

رجال «الهيكل» واتفقوا على أنه لامانع لديهم من مجاراته فى هذا على الأقل الآن فى أيام العيد حتى لاتحدث فتنة .

واستقر رأيهم فى نهاية المطاف على أن يبعثوا إليه بهذا الكاهن الذى استقبله فى تواضع ظاهر وسأله عن جزاء الآخرة الذى يعطيه «الله» لعباده الصالحين كانوا بهذا يريدون جرف كلام «المسيح» فى اتجاه لاضير عليهم منه فما أن يأخذ «المسيح» كما ظنوا فى بيان الثواب العظيم الذى يدخره «الله» لعباده الصالحين حتى تنهمر الأسئلة تستطلع خبر الجنة ويستغرق الناس فى أحلام النعيم القادم الذى يدخره «الله» لهم ثم يُبدى «الكهنة» اعجابهم بعلم «المسيح» وسعة إطلاعه على الكتب ثم يعرضون عليه أن يصبح واحداً من رجال «الهيكل» بعد أن يغرونه بأن يكون أعظم رجال «الهيكل» وهكذا تمر الفتنة بسلام على الأقل فى هذه الأيام العصيبة. أوصوا الكاهن الذى اختاروه أن يقوم بهذه المهمة فى تواضع وأن يتمالك نفسه إنهم سوف يتركون «الهيكل» وينتظرونه فى الخارج حتى إذا سارت الأمور على مايرومون دخلوا وأعلنوا اعجابهم «بالسيد» القادم من «الجليل» ويكون ذلك بمثابة اعتذار عما حدث بالأمس من «سوء فهم» لكن «المسيح» أفسد الخطة بكلامه عن رفض المدح ثم زاد الأمر سوءا عندما شرع يوبخ الكهنة والكتبة قائلا :

«الحق أقول لكم أن لا شيء أخطر على الإنسان من لسانه .لأنه بكلامك أيها الإنسان تظفر بالرحمة أو تلقي فى الهلاك . هكذا قال «سليمان» نبى الله الحكيم قال . «الحياة والموت تحت سلطة اللسان» (١٦٣) .

«الويل لكم أيها الكهنة والكتبه . والويل لكم أيها الأحبار والشيوخ الفريسيون . لأنكم تسكتون عن قول الحق . وإن تكلمتم فالباطل تنطقون

«لقد أفسدتم ذبيحة الرب . تقولون للشعب أحضروا من أنعامكم ذبائح للرب هاتوا من أنغامكم وثيرانكم الى «الهيكل» وقدموا نصيبا لإلهكم .

ولكنكم لا تخبرونهم عن أصل الذبيحة حتى صار الشعب الجاهل يتوهم أن «الله» يأكل لحما مطبوخا مثل الناس .

«لماذا لا تقولون لهم إن الذبيحة التى تقدم قربانا «لله» هى شهادة الحياة التى أنعم «الله» بها على النبى «إبراهيم» خليل «الله» . لماذا لا تقولون لهم إنها تذكار دائم للناس حتى لا ينسوا إيمان وطاعة «إبراهيم» وابنه «إسماعيل» لأن «إبراهيم» قبل أن يذبح ابنه البكر الذى كان وحيده إذ رأى فى «الرؤيا» أن «الله» يأمره بذلك . و«إسماعيل» قَبِل أن يُقْتَل طاعة «لله» . لماذا لا تقولون للناس أن «الله» قد كافأ «إبراهيم» و«إسماعيل» على ذلك بان أعطاهما الوعد أن يبارك بنسلهما الأرض كلها(١٦٤) .

«من أجل سكوتكم عن الحق وكلامكم بالباطل . قال «الله» لكم على لسان نبيه «حزقيال». «أبعدوا عنى ذبائحكم هذه . إن ضحاياكم مكروهة عندى».

«والآن إعلموا أنى قد جئت إليكم من «الله» لأقول لكم أنه قد اقترب الوقت الذى يتحقق فيه ما قاله «الله» على لسان «حزقيال» . سيصنع «الله» ميثاقا جديدا مع شعبه ليس مثل الميثاق الذى أعطاه لآبائكم فلم تفوا به ونقضمتوه سيأخذ «الله» منهم قلبا من حجر يعطيهم قلبا جديداً . وما قاله «الله» على لسان «هوشع» «النبى» إنى أدعو الشعب غير المختار مختاراً(١٦٥) .

إعلموا أن «الله» سينزع منكم النبوة ويعطيها الأمة التى قلتم عنها أنها أمة غبية . لقد أعطاكم «الله» مفتاح الحقيقة. شريعته . لكنكم لم تفتحوا به بل أخذتم تسدون الطريق وتغلقون الباب على الذين يريدون أن يدخلوا .»

كان الناس يستمعون فى إندهاش وإنزعاج شديد لكلام « المسيح» . فهذه أول مرة يستمعون فيها أن الذبيح كان «إسماعيل» الذى كانوا يصفونه بإبن الجارية وأن الوعد مع «إبراهيم» كان بمباركة الأرض كلها بنسله الخارج من «إسماعيل» وابتدأ الهمس الذى

يدور بين الحضور يتحول إلى صخب وكبار «الكهنة والشيوخ المختبأون خارج «الهيكل» ينتظرون نتيجة سعى الكاهن الذى إدعى أنه جاء ليتعلم من المعلم الصالح «وعيون» «الكهنة والشيوخ» ترصد ما يحدث لتقوم بالتبليغ وهَمَّ الكاهن بالخروج ليبلغ المنتظرين بالخيبة بل الكارثة التى حلت لكن «المسيح» أوقف الصخب ومنع الكاهن من الإنصراف حين علا صوته كأنه نذير خطر قائلا . «قف أيها الكاهن حتى أجيبكِ عن سؤالك . فإننى لم أجب بعد . ووقف الكاهن صاغرا . وعاد الصمت ليطبق على الحاضرين فى «الهيكل». أما المنتظرون فى الخارج فقد أوشك أن ينفد صبرهم .

قال «المسيح» تسألنى ماذا يعطينا «الله» جزاءً على أعمالنا الصالحة فى الجنة ؟.

« الحق أقول لكم إن الذين يهتمون بالأجر لا يحبون صاحب العمل ولا العمل نفسه فالراعى الذى يملك قطيعا من الغنم متى رأى الذئب مقبلا ليفتك بواحد من قطيعه فإنه يسرع بالإستعداد للدفاع عن غنمه بمهاجمة الذئب لأن الغنم غنمه وهو يحب رعايتها أما الراعى الأجير فإنه متى رأى الذئب يفتك ببعض القطيع فإنه لا يهتم بل يترك الغنم ويهرب إن أدرك أنه نفسه قد صار فى خطر مادام قد أخذ أجره من صاحب الغنم . فهل هذا الأجير يحب الغنم أوصاحبها ؟.

«كان هناك ملك عظيم ورحيم رأى أثناء سيره رجلا جريحا أشرفَ على الهلاك . فتحنن عليه وأمر عبيده أن يحملوه إلى المدينة . ثم أمرهم أن يدخلوه قصره وأن يعتنوا به حتى استرد صحته ومن حنان الملك أحب الذى عثر عليه جريحا فى الطريق فزوجه ابنته وجعله نائبا عنه ووريثا له وملّكه على سائر مملكته .

لا شك أن الملك كان رؤوفا جدا .

«أليس هذا صحيحاً؟!».

قالوا : بلى .

قال : «لكن الرجل بعد ما صار نائبا ووريثا للملك طغى فأمتهن بنت الملك التى تفضل عليه بتزويجه إياها وظلم العبيد الذين ملكه عليهم بل أخذ يتكلم عن الملك نفسه بالسوء. ويغرى العبيد بعصيان الملك والتمرد عليه والخضوع له شخصيا وكلما أمره الملك بعمل شيء قال له ما هو الجزاء الذى تعطينى أياه نظير قيامى بهذه الخدمة لك ، وظل على هذا النحو حتى أغضب الملك عليه فقولوا لى ماذا يفعل الملك العظيم الرحيم بهذا الكنود اللئيم ؟. فقال واحد من الحضور «ويل لذلك الكنود ، لأن الملك ينزع منه كل شيء وينكل به تنكيلا ، قال «المسيح»: «إن الملك العظيم الرحيم» هو إلهنا الذى وجد بنى اسرائيل أذلاء مستضعفين فى الارض مفعمين شقاء ، فأحب أن يمن عليهم فسلمهم إلى عباده الصالحين «يوسف» و «موسى وهارون» الذين اعتنوا بهم كل عناية ، وأحب إلهنا الحنان المنان بنى إسرائيل فزوجهم شريعته وجعلهم خلفاء له الأرض وضرب من أجلهم مصر ، وأغرق فرعون وجنوده وأهلك شعوبا كثيرة ومكن لهم فى هذه الارض التى جاءوها غرباء مستضعين فماذا فعل بنو اسرائيل ؟. لقد امتهنوا شريعة «الله» انظروا كم عصى الشعب شريعة «الله» ، وتذكروا كم قتلوا من الأنبياء ، وكيف دنسوا كلام «الله» ، وكيف نجسوا النبوة .كم من الناس انصرفوا عن «الله» وكرهوا شريعته من أجل هذا وذهبوا ليعبدوا الأصنام بخطيئتكم أيها الكهنة والكتبة والاحبار .»

وعلا صوته يقول ، «أيها الكهنة والكتبة والشيوخ الفريسيون ، وأنت يارئيس الكهنة الذى تسمع صوتى الآن ، إنى أعيد عليكم ما قاله «الله» على لسان نبيه « أشعياء» لقد ربيتُ عبيداً ورفعت شأنهم ، أما هم فقد امتهنونى .

«كم تمتهنون «الله» بأعمالكم ، ثم الآن تسألوننى ، ماذا يعطينا «الله» جزاء فى الجنة على أعمالنا».

«كلا ما كان يجب أن تسألوا هذا السؤال. حرى بكم أن تسألوا أى قصاص عادل

يحكم به «الله» علينا في الجحيم نكالا لأعمالنا السيئة . وماذا يجب علينا فعله من أجل التوبة الصادقة حتى يرحمنا «الله» فهذا ما أستطيع أن أقوله لكم ومن أجل هذا قد أرسلني «الله» أليكم.»(١٦٦).

«تالله لو كان «الله» إله آبائنا هو آلهكم ماخطر في بالكم هذا السؤال الوقح. ماذا يعطيني «الله» ؟ . كان يجب أن تقولوا ما قاله «داود» نبي «الله» ماذا عليَّ أن أقدم «لله» شكراً جزاء على ما أعطاني من فضله .؟! .

«من منكم يكون له عبد يعمل عنده في الأرض يحرث أو يرعى يقول له عندما يأتي مساء من العمل هيا أيها السيد تقدم واتكأ لتتناول عشاءك الذي أعددته لك ؟!.

«ألاَ تقولون لمن يخدم عندكم هيا أيها العبد جهز ما أتعشى به وقف هنا لتخدمني حتى أنتهي من طعامي وبعد ذلك لك أن تأكل وتشرب ولاتستريح قبل أن تنظف كل شئ ؟»

«هل تنسبون للعبدالذي فعل ما أُمِر به أي فضلٍ يوجب له جزاءً عندكم كلاًّلاأظن أنكم تفعلون هذا .

«وكذلكم أنتم أيضا متى فعلتم كل مايأمركم به «الله» فليس لكم فضل بل يجب أن تقولوا أننا عبيد سيئون لأننا لم نعمل إلا ماكان يجب علينا عمله فما بالكم إن كنتم لاتعملون حتى هذا ؟».

«قلت لكم إنني لا أطلب مجدا من الناس ».

«لعمر «الله » الذي تقف نفسي في حضرته إنكم لن تنالوا مني تملقا فلن أقول لكم إلا الحق لذلك أقول لكم يجب عليكم أن تتوبوا كما تاب آباؤنا بعد أن عبدوا العجل واحذروا أن تقسوا قلوبكم »(١٦٧)

فاحتدم «الكهنة والكتبة» وتذمروا ونفد صبر بعضهم فأسرعوا يدخلون الى «الهيكل»

ليواجهوا «المسيح» الذى كان يواصل كلامه مخاطبا الحضور قائلا «أيها الكهنة» أيها الأحبار والكتبة والشيوخ».

إنكم تحبون الخيل مثل الفوارس لكنكم لاترغبون أن تسيروا بها إلى القتال .

إنكم تحبون الملابس الجميلة مثل النساء لكن أنفسكم تعاف الغزل وتربية الأطفال.

تحبون ثمار الحقل وتكرهون حراثة الأرض.

تشتهون الأسماك وتستثقلون صيدها .

تحبون السلطة لكنكم لاترحبون بحمل أعباء الملك.

ولذلك فأنتم تحبون العشور والباكورات التى تقدم الى «الهيكل» ولكنكم لاترغبون فى خدمة «الله» بالحق.

راغبون فى كل لذة دون أدنى مشقة فماذا يفعل «الله» بكم ؟ الحق أقول لكم أنه سيعطيكم كل مشقة دون أدنى لذة (١٦٨).

وتوقف «المسيح» عن الكلام اذ دخل بعض الرجال والنسوة وهم يدفعون نحوه شابا قويا وسيما كان من الواضح أنه أعمى رغم أن عينيه مفتوحتان وتقدم رجل عجوز ذو لحية بيضاء نحو «المسيح» بوجه باك وقال بصوت تقطعه الدموع «يامعلم» هذا ابنى كان شابا رائعا ثم لاندرى ما الذى أصابه لقد كُفّ بصره وسمعه وأحتبس صوته فأنت كما تراه الآن لايبصر ولايسمع ولاينطق صار كتلة من اللحم والعظام .

وعلم «المسيح» من «الله» أن الشاب به شيطان هو الذى أفقده سمعه وبصره ونطقه فقال «رب آله آبائنا أرحم هذا العبد الضعيف ورد عليه صحته ليعلم هذا الشعب أنك أرسلتنى إليه(١٦٩).

ثم تقدم «المسيح » نحو الشاب المريض ووضع يديه اليمنى على رأسه وقال «بسم

الله» انصرف أيها اللعين عن هذا الرجل «فأخذت الرجل الرجفة وخر على الأرض وخرق الاذان صوت صاخب اندفع من الرجل كأنه صرخة ألم شديد ثم أفاق الرجل والعرق يسيل من جسه كله ثم نطق فى يسر «الحمد لله» وأخذ يتمالك نفسه وهو يدير بصره فى أرجاء «الهيكل» ويمعن النظر إلى الوجوه فعرف أباه فهب واقفا ليحتضنه باكيا وبكى «الشيخ» بكاء تفطر له قلب «المسيح» فشارك أهل المريض البكاء أما الذين كانوا يشهدون مايحدث فقد أخذهم الرعب لشعورهم أن ثمة شيطان فى «الهيكل» أخرجه «المسيح» من الرجل وأذهلهم أن «المسيح» يخاطب الشياطين واحد من الكتبة الذين نفد صبرهم اندفع يقول وقد فقد قدرته على ضبط غيظه من أقوال «المسيح» وأفعاله «أيها الشعب المخدوع إحذروا هذا الكاذب الذى يجدف على «الله» وشعبه إنه لم يخرج الشيطان إلا بقوة رئيس الشياطين الذى يركب ظهره».

فقال «المسيح» فى هدوء يوحى بالثقة «كل مملكة تنقسم على نفسها لابد أنها سرعان ماتتحطم وكل بيت يتقاتل أهله فمن المؤكد أنه لايبقى بل سريعا مايخرب فكيف يخرج رئيس الشياطين أحد جنوده أيعمل رئيس الشياطين على تدمير مملكته ؟(١٧٠).

«إن أبناءكم الذين فى أصلابكم يشهدون أننى أخرج الشيطان «بروح الله» الذى به يخرجون من أرحام نسائكم بشراً على صورة «آدم» وإنهم لذلك سوف يكونون يوم القيامة قضاتكم الذين يدينوكم أمام «الله» إذ يشهدون على تجديفكم على «روح الله» الحق أقول لكم إن التجديف على «روح القدس» لامغفرة له فى هذه الدنيا ولا فى اليوم الآخر لأن الشرير إنما ينبذ نفسه من رحمة «الله» بإختياره (١٧٠).

«إننى أخرج الشيطان «بروح القدس» الذى وهبنى حياتى ووهب كل شئ حياته فوجب عليكم أن تفرحوا لأن هذا يعنى أنه قد صار قريبا منكم وأنه بولادتى وبإرسالى إليكم قد أكد حضوره إلى الدنيا وبعثنى من أجل أن أبشر به » .

فخرج «الكتبة والكهنة» من «الهيكل» صاغرين وأخذ الناس يدفعون إلى «المسيح»

مرضاهم ويطلبون منه الصلاة لشفائهم فصلى «المسيح» من أجل جميع المرضى الذى حضروا فنالوا جميعا الشفاء ثم خرج من «الهيكل» وسط تعظيم الناس الذين شهدوا هذه الايات وانتشرت الأنباء فى الشعب وتناقلتها الألسن حتى أن الجنود والضباط الرومانيين الذين شهدوا وسمعوا قالوا إن «المسيح» هو أحد الآلهة هبط من السماء ليتفقد أحوال شعبه.

أخذ بعض الشباب الذين هزتهم كلمات «المسيح» وقدراته الخارقة يتسللون من «أورشاليم» ويذهبون الى «جبل الزيتون» حيث يمكث «المسيح» أحسوا أن ثمة قوة «عليا» تجذبهم إلى هذا الرجل الغريب الغامض الذى أتى إلى «أورشاليم» فى هذا الفصح . لقد حول «المسيح» بكلماته ومعجزاته حياتهم إلى سر موغل فى الغموض ، ونبتت فى قلوبهم الحائرة الرغبة فى اكتشافه . أدرك كل واحد منهم أنه عاجز عن سبرغورهذا «السر» بمفرده وإنه لابد أن يصحب «المسيح» ويبقى بجواره ليتلقى منه النور ليبدد الظلمات التى اكتشف مذهولاً أنها تحيط به لعله يظفر بإجابة عن اللغز الذى يتعالى على الفهم .

كانوا جمعا صغيرا من صيادى السمك وصغار الموظفين والملاك جاء أغلبهم من قرى ومدن «الجليل» إلى «أورشاليم» ليشهدوا الفصح فانجذبت قلوبهم إلى «المسيح» الذى رحب بهم فى «جبل الزيتون» وكان قد عزم على ترك «أورشاليم» والعودة إلى «الناصرة» ليبدأ منها إعادة تربية الشعب الذى أفسدته تعاليم «الكهنة والكتبة» الفاسدة . لم يكن يريد إشعال صدام بينه وبين «الهيكل» الآن رغم تيقنه أن «الهيكل» برجاله من «الكهنة والكتبة» والشيوخ الفريسيين هو العقبة التى تقف أمام الناس تمنع عنهم «الإيمان» . لكن الشعب نفسه لم يكن أهلا لتلقى الإيمان وغير قادر على فهم حقيقة الصراع بينه وبين رجال «الهيكل» ومن ثم فهو غير قادر على المشاركة فى إنهاء هذا الصراع الأبدى لصالح «الله» . إن الناس لم تنبهر إلا بالمعجزات بالقدرة العجيبة التى أظهرها «المسيح» فى القضاء على الأمراض كأنه قد أتى ليعلم الناس نهجا جديدا فى علاج الأمراض أو أسلوبا غريبا فى

الطب كأنه مثل أصحاب الطب الروحانى «الآسيون» الذين كانوا يكونون طائفة صغيرة محكمة التنظيم لها طقوسها الغريبة وكهوفها التى تعتزل فيها الناس لتمارس طريقتها في علاج أمراض النفوس وكانت لهم كتبهم التى يقدسونها ولا يؤمنون إلآ باسفار «موسى» ولا يؤمنون ببعث الأموات. قليل من المتعلمين المطلعين على بعض الثقافات الأجنبية الملمين بأطراف الأسئلة الأبدية التى تدور حول الحقيقة والروح والموت قد أعجبوا بقدرة «المسيح» على الجدل وطريقته الفذة فى التعبير واستطاعته التلغب دائما على مجادليه من «الكهنة والكتبة» . أما قدرته التى لا نظير لها على الاستشهاد بنصوص التوراة وكتب الأنبياء فكانت موضع حسد الجميع حتى «الكهنة و الكتبة» الذين كانوا يحتدمون من الغيظ بسبب توبيخه لهم وعجزهم المفضوح عن مجادلتهم .

أحس «المسيح» أن الجميع الذين ناصبوه العداء والذين أظهروا اعجابهم به أومالوا لتصديقه أو حاولوا التقرب منه الجميع قد أساءوا فهمه ولم يعرفوا معنى رسالته ولا حقيقة ما يجاهد من أجله . شعر بغربة رهيبة فى هذه الدنيا التائهة وأحس برغبة جارفة تدفعه إلى «الناصرة» ليجلس عند قدمى أمه «مريم» الطاهرة يستنشق عندها أنسام الجنة ويستمد منها القوة ليواصل سيره على الطريق الضيق الملىء بالأشواك . إن الشعب الذى طال عليه الأمد بعيدا عن «الله» يتلقى تعاليما فاسدة من قواده العميان قد قسي قلبه وأظلم فؤاده فامتلاء بالأوهام والأكاذيب والخرافات يحتاج إلى نار المعرفة المقدسة لكى يتطهر .

صمت «المسيح» ولم يتحدث مع زواره الذين أتوا إليه فى جبل الزيتون ولم يظهر لهم المزيد من العجائب التى خلبت ألبابهم . ظل صامتا مطرقا أغلب الوقت لا يرونه إلا جالسا ساهم النظرات يبدو عليه الشرود أو ساجدا على الأرض يمرغ وجهه فى التراب باكيا والقوم يتعجبون من صنيع هذا «المعلم الغريب». ثم ذهب فى اليوم الأخيرمن العيد إلى «الهيكل» ووقف ينادى بأعلى صوته حتى إن الذين فى السوق سمعوا صوته وأقبلواً «إن

عطش أحد فليقبل إلىَّ ليشرب ماءً لا يظمأ بعده أبداً. من آمن بى كما قال الكتاب تجرى من تحته الأنهار . (١٧١) أنهار الحياة الأبدية التى وضع «الله» فيها رحمته» . ثم أخذ يشق طريقه ليخرج وكان الكثيرون قد تحمسوا لإتباعه فأراد أن ينبه الجمع المحشد إلى صعوبة الطريق ومخاطر السير معه إلى «الله».

قال : "من منكم إذا أراد أن يبنى برجا عظيما لا يجلس أولاً ويطيل التفكير والتدبر ويحسب ما معه من النفقة هل تكفيه إلى أن يتم بنائه أم لا ؟ حتى لا يشرع فى البناء فيحفر حفرة ليضع فيها أساس بنائه ثم يكتشف أن ما معه لا يكفى فلا يستطيع أن يكمل ما بدأه وحينئذ يصبح موضع سخرية الناس الذين يشيرون إليه مستهزئين يقولون أنظروا لمن أراد أن يبنى برجا عظيما فحفر لنفسه حفرة .

« دلونى على ملك يذهب إلى مقاتلة عدوه دون أن يجلس ويتشاور . هل يستطيع بالجنود والأسلحة التى معه أن يتغلب على عدوه الذى قد يملك قوة أكبر من قوته فإن قدر أنه لا يقدر على الحرب فعليه أن يسرع بارسال سفارة ويبحث عن الصلح حتى لا يهلك نفسه دون فائدة»(١٧٢) .

وانفض الناس من حوله ولم يبق معه إلا القليل الذين اظهروا إصراراً على اتباعه فأعلن لهم إنه ذاهب إلى «الناصرة» قريته فشعروا بالراحة لأنهم كانوا من «الجليل»، من بيت صيدا ومن «كفر ناحوم» ومن «قانا» و «كروزين» وزيلولون . إذن «فالناصرة» تقع فى طريقهم ولن يخسروا شيئا فى صحبته إن استقر رأيهم فى النهاية على تركه والعودة إلى بيوتهم ومزاولة معيشتهم كما كانوا يفعلون قبل أن يلقوه .

خلفوا «أورشاليم» التى تمتلىء بالصخب وراء ظهورهم وأخذوا يشقون طريقهم في صمت مع «المعلم». أحسوا أنهم فى قبضة المجهول الذى لا يعرفون ماذا سيفعل بهم ؟

«هل تسرعنا؟ ماذا سنفعل فى «الناصرة» ماهو «الملكوت» الذى وُعِدنا أن نصير من أهله إن نجحنا فى هذه التجربة وما هو النجاح . كيف سنعرف أننا نجحنا ؟.

آه بل من هو هذا الرجل الغريب الذى أستولى على عقولنا وإلى أين يسوقنا ؟ .

كانت تحذيرات «المسيح» فى «الهيكل» قبل أن يشرع السفر تتردد فى قلوبهم وتملؤها بالاضطراب والحيرة .

وكان الصمت ثقيلاً على قلوبهم حتى بدا لهم أنهم لا يتحركون كأنما تتحرك أقدامهم دون أن يتقدموا فتحنن عليهم «المسيح» وأراد أن يخفف عنهم بعض أحمالهم فقال «كان رجل على سفر وبينما هو سائر رأى أن هناك كنز فى الحقل يعرضه صاحبه للبيع نظير خمس قطع من النقود فتعجب المسافر لقلة الثمن ولكن لم يكن معه أية نقود فماذا يفعل ليحصل على ذلك الكنز بمثل هذا الثمن الرخيص ؟ .»

«حينئذ فكر كيف يحصل على الكنز . ثم أسرع إلى السوق فباع رداءه وحصل على الخمس قطع من النقود فأعطاهن إلى صاحب الحقل وظفر بالكنز .

«فهل كان حكيما فيما فعل أم كان مجنونا ؟!».

فأجابوا: «لقد كان حكيما . لأنه بالكنز الذى حصل عليه يمكنه أن يشترى ما يشتهى من ملابس أو طعام أو شراب .

إن المجنون حقا هو من لا يشترى كنزا بخمس قطع من النقود» . قال «المسيح» وأنتم أشد جنونا من ذلك لأنكم لا تحبون أن تبيعوا حواسكم الخمسة التى فى أجسادكم من أجل أن تشتروا أنفسكم التى عند ربكم حيث يستقر كنز محبة «الله»

«إن محبة الله هى الكنز الذى لا نظير له» (١٧٣) .

فمن يحب «الله» كان «الله» له ومن كان «الله» له صار له كل شيء. زالت وحشة الطريق بكلام «المعلم» وعاودهم الحماس فقال «سمعان بن يونا» يا معلم قل لنا كيف يجب على الإنسان أن يحب «الله» محبة خالصة (١٧٤) .

قال «المسيح»: الحق أقول لكم إن من لا يبغض أباه وأمه وابناءه وامرأته وحياته كلها في سبيل «الله» لا يكون محبا «لله» ويكون غير أهل لأن يحبه «الله» قال «سمعان» «يا معلم لقد كتب في «الناموس» أكرم أباك لتعيش طويلا على الأرض وكتب أيضا ليكن ملعوناً الإبن الذي لا يطيع أباه وأمه ولذلك أمر «الله» أن يرجم مثل هذا الإبن العاق أمام باب المدينة ليشهد عذابه الشعب فيكون عبرة لغيره فكيف تأمرنا أن نبغض آباءنا وأمهاتنا؟.

قال «المسيح» وقد لاحظ نبرة الإنكار في كلام «سمعان»

«كل كلمة من كلماتي صادقة لأنني أتكلم باسم «الله» الذي أرسلني إليكم ولا تتعارض مع شريعته التي أوحاها «لموسى». فانظروا إلى ما أقول لكم إن كل ماعندكم ليس إلا نعمة تفضل بها «الله» عليكم فأي الإثنين أعظم قدراً المنعم أم النعمة ؟ المعطى أم العطية ؟ .

فعندما يكون أبوك أو أمك أو أمرأتك أو أبنك أو أي شيء في الدنيا عثرة لك في عبادة «الله» فواجب عليك أن تنظر إليه كعدو وأن تنبذه وتذكروا «إبراهيم» خليل الله» كيف هجر أباه وبلدته التي نشأ فيها وظل طوال عمره في هجرة دائمة ثم تذكروا كيف قدم ابنه البكر الذي كان حينذاك وحيده قربانا «لله» وأجرى السكين على عنقه بيده لولا أن السكين بأرادة الله لم تذبح .»(١٧٥)

لقد ضرب «إبراهيم» للإنسانية كلها المثل الذي يجب أن يحتذى في حب «الله» حبا خالصا وكذلك إبنه الذي قدم نفسه عن طيب خاطر قربانا خالصا لله وهو الذي لم يكن حينذاك إلا شاباً صغيراً ينظر الى الحياة بأمل .

قال أحدهم: «يا معلم قلت أن «الله» وعد «ابراهيم» بأن يبارك الأرض كلها بنسله مكافأة له على أنه قدم ابنه قربانا ذبيحة «لله».

قال «المسيح» نعم هكذا وعد «الله» «إبراهيم» قائلا «أنظر فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض وكما حطمت يا «ابراهيم» الأصنام تحطيما فإن ابنك المبارك سيفعل» .

قال التلميذ «يا معلم قل لنا بمن صُنِع هذا العهد ؟ .»

فإن اليهود يقولون لقد صنع عهد «الله» «بإسحاق» والإسماعيليون (العرب) يقولون إنما صنع «بإسماعيل» فقل لنا أنت يا معلم بمن صنع عهد «الله» ؟ .

لقد أخبر «المسيح» فى «الهيكل» أن الإبن الذى قدمه «إبراهيم» قربانا ذبيحة «لله» هو «إسماعيل» ومن ثم فإن الوعد الآلهى «لإبراهيم» لابد أن يكون «بإسماعيل» لا «بإسحق».

ومعنى السؤال أنهم لم يؤمنوا بما قال « المسيح» لقد ظلوا يتلقون من «الكهنة والكتبة» تعليما يقول أن بَرَكة «ابراهيم» قد انتقلت إلى ابنه «إسحق» وحده ومن ثم فإن «الأنبياء» جميعهم ينبغى أن يخرجوا من نسل «إسحق» أو بالأحرى من نسل « يعقوب ابن اسحق » لأن» «عيسو» الإبن الآخر قد حرم من بركته .

إن التلاميذ باعتبارهم من ذرية «يعقوب» الذى هو «إسرائيل» لا يتصورون أن يكون هناك نبى ليس من سلالة «يعقوب» السلالة الوحيدة التي يمكنها أن تنتج الأنبياء وقد ظلوا يتلقون تعليما يقول أن «مسيح الله» المنتظر ينبغى أن يكون من نسل «داود» الذى هو من ذرية «يهوذا » إبن «يعقوب». إن النبى المنتظر ينبغى أن يكون من نسل «داود» .

فكان كلام «المسيح» عن عهد «الله» مع «إبراهيم» يمثل صدمة كبيرة لهم اذ يتعارض مع ما ظلوا يعتقدونه وتصديقهم بكلام «المسيح» يعنى أن يشكوا فى نص الكتب التى بين أيديهم وأن يرتابوا فى صدق التعليم الذى ظلوا يستمعون اليه . كان كلام «المسيح» يلقى معارضة شديدة من الجميع لأنه يعنى تحطيم «أسطورة» الشعب المختار إلى الأبد ويطلب منهم أن يشكوا فى صحة النصوص التى يقبلونها على أنها كلام «الله» المنزه عن الخطأ ويدعوهم إلى إعادة النظر فى كل ما كانوا يعتقدونه وهى مهمة عسيرة أدرك «المسيح» وهو يسير معهم مقدار ما يعانونه من صعوبة فى فهم كلامه لأن الشك فيه لم يزل يسود قلوبهم .

فقال لهم «صدقونى لأننى أقول الحق لكم . إن العهد قد صُنِعَ «بإسماعيل» لا «بإسحاق» .

فقالوا معترضين «يا معلم إن العهد كان «لإسحق» هذا هو المكتوب فى كتاب «موسى» . وهذا ما يقوله كل « الكهنة والأحبار والكتبة» (١٧٦).

فأجاب «المسيح» متأوها «آه. نعم هذا هو المكتوب وهذا هو مايقولون . ولكن هذا لم يكتبه «موسى» ولا «عيسى» ولم يقله واحد من الأنبياء بل كتبه «أحبارنا « الذين لا يتقون «الله» ويقول به الكهنة والكتبة الذين لا يعلمون .

وانتبه الجمع الصغير إلى ما يقوله «المعلم» . فواصل كلامه «انظروا الآن إلى المكتوب ثم تدبروه.

كتبوا يقولون أن « الله» قال «لإبراهيم» خذ أبنك وحيدك وأصعد الجبل لتقدمه ذبيحة . أليس هذا هو المكتوب» (١٧٧) .

قالوا بلى.

قال . «لكنهم قالوا إن «إسماعيل» قد ولد قبل «إسحق» «أليس هذا صحيحاً».

قالوا «بلى . قيل إن اسماعيل كان يبلغ أربع عشرة عندما ولد اسحق» .

قال «المسيح» إذن فكيف يكون «إسحق» هو الذبيح ولم يكن هو البكر» . فأدرك «التلاميذ» أن ثمة خطأ لابد أن يكون قد وقع فى النص الذى كانوا يمرون عليه وهم غافلون . وأخذوا يتعجبون كيف لم ينتبهوا إلى هذا التناقض البين فمن المستحيل أن يكون «اسحق» هو الوحيد فى أى وقت من الأوقات . فكيف يكون هو الذبيح . لقد كانوا على خطأ . لكن هذا الإدراك يعنى أن يعيدوا النظر فى كل شىء ونبتت لديهم الرغبة فى التعلم ومعرفة الحق . فأخذوا يسألون «المسيح» وهم يسيرون معه عن «إبراهيم» وقصته . وراح

يقص عليهم وهم مأخوذون «ببيانه» لكن الشك في صدقه كان يفسد عليهم متعة الحديث . من أين أتى بهذه القصة وليست مكتوبة في أسفار «موسى» . وما هوالدليل على صحة ما يقول ؟ هل هو نبي صادق من «الله» أم أنه ساحر قد يركما قال «الكهنة» ؟! أو أن الشيطان على ظهره يتلو عليه ما يخبرنا به. كانت هذه الأسئلة تدور في قلوبهم وتحول بينهم وبين تصديق ما يقول مما ليس له أثر في الأسفار التي يعلمونها أو يعارض المكتوب فيها أو يخالف ما كانوا يفهمونه من نصوص الأسفار التي كانوا يستمعون إليها في المواعظ أو يستنسخونها في الأوراق .

لقد أزال حديثه وحشه الطريق . وخفف من كآبة قلوبهم وهم يشعرون أنهم يساقون إلى المجهول . لكنه ملاءهم بالإضطراب إذ أجبرهم على أن يطرحوا من قلوبهم وأذهانهم كل ما كانوا يتوهمون أنها حقائق لا يرقى إليها الشك وأن عليهم أن يعيدوا بناء حياتهم على أساس جديد لا يعرفون ما هو ولا يعرفون كيف وبم يبدأون ؟! .

وفوجئوا أنهم في السامرة عند قرية صغيرة يقال لها « سوخار» (١٧٨) بجوار بئر عتيقة يقال أن نبي «الله» «يعقوب» كان قد حفرها عندما كان يسكن في هذه البلدة قبل أن يرحل إلى مصر مع أبنائه عندما دعاه ابنه «يوسف» لما مكن «الله» له في «مصر» وجعله الحاكم الفعلي عليها .

كان التعب قد أخذ منهم كل مأخذ وشعروا بالجوع الشديد يعض بطونهم ويحول بينهم وبين مواصلة السير حتى «المسيح» نفسه بدا عليه الإرهاق من كثرة السير وشدة الجوع. فطلب منهم أن يستريحوا وجلس هو بجوار البئر مستندا إلى صخرة كبيرة واستقلوا هم على الأرض وقد شعروا بأن أجسادهم تفككت أوصالها . لكن الجوع كان يحول بينهم وبين النوم . وبعد قليل من الراحة طلب «المسيح» من بعضهم أن يذهبوا إلى السوق في داخل القرية ليحضروا طعاما .

ولم يكن هناك بد من شراء الطعام من هذه القرية السامرية . فذهب بعضهم وانتظر الباقون مع «المسيح» وقد استرخوا على الأرض فى تعب . كانوا يتساءلون كيف يقبل «المعلم» وهو يهودى أبوه «يوسف النجار» من «بيت لحم» كيف يقبل أن يجلس فى قرية «سامرية» وأن يشترى منها طعاما . ولماذا يختارها دون غيرها لأن نستريح فيها .

كانت هذه الأسئلة تتردد فى قلوبهم ولكن الأرهاق الشديد والجوع المؤلم لم يكونا حتى ليسمحا لهم بالإعتراض والإستفسار فجلسوا والتعب يدعوهم إلى النعاس لكن الجوع يحول بين أعينهم وبين الاستغراق فى النوم فظلت رؤوسهم تهتز وأعينهم تغفو وتصحو متى جاءت أمرأة تقترب من البئر الذى كان «المعلم» يجلس بجواره فانتبهوا ونهضوا ليجلسوا .

كانت المرأة طويلة ممشوقة القوام تحمل جرة الماء فى رشاقة وتمشى فى إختيال وقد كشف الهواء الذى يعبث بردائها عن زينة الأنثى التى يتحلى بها جسدها الممتلىء.

لاحظ « المسيح» أن الرجال الذين كانوا يرقدون على الأرض صرعى الإرهاق والجوع قد اعتدلوا فى جلستهم وأخذت عيونهم تمعن النظر فى مفاتن المرأة التى كانت تتقدم نحو البئر . أثار تعجبها هذا الجمع من الرجال الذين تبدو عليهم آثار السفر ولكن ليس معهم ما يدل على أنهم قد جاءوا إلى البئر من أجل أن يحصلوا على الماء أخذت تتمايل فى سيرها وهى تضرب الأرض لتزيد من فتنة العيون التى كانت تنظر إليها رغم ما كان يساورها من الخوف إذ غلب على ظنها أن هؤلاء الرجال هم بعض اليهود الذين فى طريقهم من «أورشاليم» الى «الجليل»! «ما الذى دفع بهم إلى الرقود هاهنا ولا يبدو عليهم أنهم متعجلين للرحيل ما الذى يدفع بعض اليهود إلى الراحة فى قرية سامرية وقد أفتى شيوخ اليهود منذ زمن طويل بمقاطعة أهل السامرة.»

كان « السامريون» يؤمنون فقط بأسفار «موسى» الخمسة ولا ينظرون إلى الأنبياء من بعده إلا على أنهم بعض ملوك اليهود العبرانيين ويؤمنون بنبى سوف يرسله «الله» ليبين

لهم كل شيء ويوضح الخلافات التي وقعت بينهم وبين اليهود هذا النبى المنتظر سوف يكون من سلالة «يوسف ابن يعقوب» . ويطلقون عليه «مِسّيا». إن «مسيا» المنتظر سوف يبين خطأ اليهود العبرانيين بينما كان اليهود العبرانيون ينتظرون مخلصا نبيا ملكا من نسل «داود» من سبط «يهوذا» يرد الملك إليهم ويجعلهم سادة العالم وقد ظن كلاً من اليهود والسامريين أن مخلصهم المنتظر سوف يكون هو اخر نبى يرسله «الله» يحمل كلمة «الله» الأخيرة فهو نهاية النبوة وآخر الرسالات. نسب كلا من الفريقين ذلك الفضل لنفسه مدعيا أن آخر الأنبياء سوف يبعث فيه. كلا منهما يتوهم أنه يحمل كلمة «الله» الأخيرة(١٧٩) . وقد اتفق كلا منهما أيضا على تسمية ذلك المخلص المنتظر بـ «مِسيا» .

لم يكن هذا الإعتقاد إلا ثمرة العداوة الشديدة التى نشبت بين اليهود والسامريين فأخذ كلا منهما يؤكد أن آخر الأنبياء سوف يكون منه . وأنه سوف يؤكد سلامة موقف الفريق الذى يخرج فيه وصحة اعتقاده ولاح على وجه «المسيح» الذى لم يضحك فى الدنيا أبداً شبح ابتسامة خفية وهو ينظر إلى الرجال الذين كانوا مرهقين جائعين وقد دب النشاط فى أجسادهم وبدا على وجوههم الإنتباه لمجرد رؤية المرأة السامرية وهى تختال فى مشيتها مقتربة من البئر وتعجب فى سره من لطيف صنع «الله» الذى خبأ «سر الحياة» بين ذكر وأنثى وجعل اجتماعهما وسيلة للكشف عنه .

قال «المسيح» للمرأة التى ملأت جرتها «أعطينى لأشرب»(١٨٠) فأجابت فى جفاء «ألا تخجل من نفسك كيف تطلب مني ماء لتشرب وأنت رجل عبرانى وأنا أمرأة سامرية ».

فتألم «المسيح» لغلظة إجابة المرأة وتنهد «آه لو كنت تعلمين نعمة «الله» وتعرفين من الذى يطلب منك شربة ماء لو كنت تعرفين لطلبت منه أنت لتشربى ».

فاندهشت المرأة من كلامه وتساءلت فى سرها «من هذا «المخبول» ؟! ومن يظن نفسه !!» وأخذت تحدق النظر إلى وجهه فراعها وسامته ووقاره «كلا ليس هذا وجه

مجنون» ولكن من يكون ؟ ومامعنى كلامه الغريب هذا ؟ قالت ولم تزل تحقق البصر فيه تحاول أن تستطلع أمره :

«ياسيد كيف تعطينى لأشرب كما تقول ولا إناء معك ولا حبل والبئر كما ترى عميقة».

قال «أيتها المرأة من شرب من هذا الماء» وأشار الى البئر «فإنه سرعان ما يعاوده العطش أما من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فإنه لايعطش أبداً بل إنه بعد أن يشرب يعطى العطاش ليشربوا فلا يظمئوا أبدا حتى يصلوا الى الحياة الأبدية فإننى أعطى ماء الحياة الذى لايكون من بعده عطش ».

أذهلت كلمات «المسيح» المرأة وجميع الرجال الذين صحبوه وأخذوا ينتبهون إلى الحديث قالت المرأة وهى تواصل تعجبها من حديثه الغريب «ألعلك تظن نفسك أعظم من أبينا «يعقوب» الذى حفر هذه البئر وشرب منها هو وأبناؤه ومواشيه حتى تركوها إلى مصر» .

فصمت «المسيح» ولم يجب ولكنه تهلل لأن المرأة تذكرت «نبى الله» «يعقوب» ثم قال «الماء الذى أعطيه أنا يصير فى مَنْ شربه ينبوع حياة يصله بالحياة الأبدية فلا يعطش أبدا ».

فقالت المرأة «إذاً أعطنى ياسيد من مائك هذا الذى تقول حتى لا أعطش أبدا ولا أضطر إلى المجئ إلى هذه البئر لأستقى ».

فأجابها «المسيح» «إذهبى إلى بيتك وائتنى بزوجك وأنا أعطيكما سويا لتشربا ».

قالت المرأة «أيها الغريب ليس لى زوج»

فتهلل «المسيح» لأنها تحدثت بالصدق وكان يمكنها أن تكذب قال لها «حسنا قلت أن ليس لك زوج لأن الذى معك الآن فى البيت ليس زوجك قد أجبت بالحق وقد كان لك من قبل خمسة أزواج».

فاضطربت المرأة وأشرق وجهها بحمرة الخجل وأطرقت الأرض ثم رفعت عينها تمعن النظر فى وجه «المسيح» وقالت «ياسيد أرى أنك نبى» فتهلل وجه «المسيح» وأندفعت المرأة تقول «إذاً اخبرني بالحق إن كنت نبيا آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل وشيوخنا يقولون إن السجود يجب أن يكون على جبال السامرة حيث عاش «يعقوب» أبو الأسباط جميعهم أما أنتم أيها اليهود فإنكم تقولون إن السجود ينبغى أن يكون فى «أورشاليم» حيث «الهيكل» الذى بناه «سليمان» ملك اليهود تقولون على جبل «صهيون» يكون السجود لأنه هناك أُخذ عهد «الله» فأخبرنى ياسيد إن كنت نبيا أين يكون السجود «لله» ومن هم الساجدون الحقيقيون الصادقون عند «الله» ؟!

فقال «المسيح» «لك الويل يا «أورشاليم» ويا بلاد اليهودية تفخرين قائلة «هيكل الرب» «هيكل الرب عندنا» ولكنكِ تعيشين منغمسة فى عرض الدنيا وتغرقين فى الخطايا وكأنه لا إله لك سوف يحاسبك حسابا عسيرا» .

ووجه كلامه إلى من يزمعون أن يكونوا تلاميذه «الحق أقول لكم إن هذه المرأة السامرية سوف تبعث يوم الدين لتشهد على الذين يتفاخرون بالباطل فَيُحْكَم عليهم بالجحيم» وتعجبوا كيف يمكن لهذه المرأة الخاطئة أن تكون شهادتها مقبولة عند «الله» فواصل كلامه «لأن هذه المرأة لم تزل تطلب كيف تجد طريقا الى «الله» لم تزل تريد أن تعرف كيف تسجد وماهو السجود الصادق عند «الله» .

ثم التفت إليها قائلا «إنكم معشر السامريين قد صرتم تسجدون لما لاتعلمون لأنكم تكفرون بأنبياء «الله» الصادقين الذين أرسلهم «الله» من بعد «موسى» أما نحن اليهود فإننا نسجد لما نعلم لأن معرفة «الله» لم تزل مع اليهود والخلاص لم يزل مع اليهود ولكن صدقينى يا أمرأة أنه تأتى ساعة لايكون فيها السجود فى هذا الجبل ولافى «أورشاليم» لأن «الله» يعطى عهده فى مدينة أخرى وتكون رحمته فى شعب آخر ولن يكون الخلاص حينئذ مع اليهود حينئذ يكون السجود «لله» فى كل مكان ويقبل «الله» الصلاة الصادقة

فى كل أرض لأن الأرض جميعا سوف تكون مسجدا ، حينئذ يكون الساجدون الحقيقيون ولابد أن يكونوا لأن «الله» يريد هؤلاء الساجدين له بالحق. إن «الله» ظاهر وباطن حق وحقيقة وينبغى أن يكون السجود له بالظاهر بالباطن بالجسد والقلب لأن السجود الحقيقى هو سجود «الروح» لخالقه».

آمنت المرأة أن «عيسى» نبى صادق وأرادت أن تعرف من هو فقالت «إننا ننتظر «مسِيّا» ومتى جاء فإنه يعلمنا ويخبرنا بكل شئ».

ويعلم «عيسى» أنها كواحدة من السامريين تظن أن «مسِيّا» ذاك هو آخر الأنبياء الذي يحمل كلمة «الله» الأخيرة وتظن أنه من نسل «يوسف» فقال لها «أتؤمنين أن «مسيا» لابد أن يأتى» ؟.

فقالت المرأة فى ثقة «نعم ياسيدى».

فتهلل وجه «المسيح» وقال لها «يلوح لى أيتها المرأة أنك مؤمنة» ؟ قالت المرأة «ألعلك هو ياسيدى».

قال لها «لست الذى تقصدين».

«ولكننى نبى مرسل من «الله» إلى بنى اسرائيل وإسمى «المسيح عيسى بن مريم » وسيأتى بعدى رسول اخر هو آخر الأنبياء يرسله «الله» الى جميع الامم وهو الذى تقولون عنه «مسِيّا».

«ورمز اليهود إلي إسمه بـ «إيليا» هو الذى يكون فى زمنه السجود «لله» بالحق فى كل مكان حيث تُنَال رحمة «الله» فى كل موضع وأتباعه الصادقون هم الساجدون الحقيقيون الذين سألتِ عنهم».

فتركت المرأة جرتها وأسرعت تهرول الى قريتها بينما كان «التلاميذ» الذين ذهبوا لإحضار الطعام من السوق قد حضروا ورأوا المرأة السامرية وهى تعدو وتساءلوا ما بالها

تهرول تاركة جرتها. لم يفصحوا عما دار في قلوبهم من شكوك وتقدموا نحو «المسيح» وقال واحد منهم «هيا يامعلم لتأكل» جلسوا على الأرض مع زملائهم ليتناولوا الطعام. قال «المسيح» وقد زال عنه الجوع ولم يشعر برغبة في طعامهم «كلوا أنتم لاحاجة بى الى طعامكم فإن لى طعام آخر »

فتعجبوا من كلامه وأحتاروا . أرسلهم ليحضروا طعاما لأنه جائع وهم أيضا جائعون وبعد أن أتوا بالطعام هاهو يقول لاحاجة بى إلى طعامكم فماذا يقصد بالطعام الآخر هل أتى له أحد بطعام قبل أن نصل أم أن المرأة التى رأيناها تهرول قد وعدته بطعام وهمسوا بهذه الأسئلة الى من كانوا معه فأجابوهم أن لا أحد قد أحضر طعاما بالفعل لم يتناول أى طعام إنه لم يتحدث إلا مع المرأة التي قد أسرعت دون أن تعد بشئ بل إنها كانت متعجلة إلى الحد الذى جعلها تنسى جرتها التى كانت قد ملاءتها تواً من البئر زادت حيرتهم وشكوكهم فى هذا «المعلم » الغريب ولكن الجوع الذى كان يلدغ بطونهم لم يدعهم يطيلون التفكير في الأمر أكثر من هذا فاندفعوا جميعا يأكلون و «المسيح» ينظر إليهم فى هدوء حتى فرغوا من الطعام ثم فاجأهم بالسؤال «ماهو الطعام» ؟ فرفعوا إليه عيونا شاخصة وأفئدتهم عاجزة عن الأجابة على هذا السؤال البسيط الغريب.

أجاب على سؤاله قائلا «الطعام هو مايحفظ عليك حياتك هو الشئ الذى يبقيك حيا».

«فما هو الطعام الحقيقى » ؟!

«إن الخبز وكل ماتناولتموه الآن هو طعام الجسد الذى سيفنى بالموت ويصير ترابا كما. كان لايبقى إلا «الروح» فما هو طعام الروح» ؟

.ياله من سؤال غريب

قال : «إن الملائكة الأطهار لايأكلون ولاشك أنهم أحياء. إنهم الأرواح الطاهرة فما هو طعامهم الذى يبقيهم أحياءً ؟»

«إن «موسى» بقى فى الجبل «بسيناء» أربعين يوم وليلة لايأكل وقد ظل حيا ومكثت أنا فى جبل «الزيتون» أربعين يوم وليلة وبقيت حيا.

«وكذلك كل الأنبياء فما الذى يبقينا أحياء طوال هذه المدة » رغم أننا لانتناول أثناءها أى طعام أو شراب ؟.

«إن الطعام الحقيقى هو طاعة «الله» انفاذ إرادة «الله» هو طعام «القلب» الذى يبقيه حيا . إنها الطعام الآخر الذى تناولته فزال عنى جوع الجسد ولم يعد لى رغبة فى طعامكم فأنظروا الآن إلى الحقول من حولكم وقولوا لي متى يكون الحصاد ؟»

رفع الرجال عيونهم وحدقوا فى الحقول فأدركوا أن الوقت مبكر جداً ليس هذا أوان الحصاد فقالوا «بعد أربعة أشهر».

كان «المسيح» يريد أن يعلمهم كيف يتلقون تعليمه وينظرون إلى كلماته فقال «أما أنا فأقول لكم أرفعوا أعينكم الآن لتروا أن الحقول قد أبيضت بالحصاد وأنه اليوم يكون حصاد كبير ».

فرفعوا أعينهم فلم يروا لاحصاداً ولابياضاً وأطبق عليهم الوجوم وأطرقوا الى الأرض عاجزين عن الفهم كان يجب على الأقل أن يسألوا بعد كل هذا الشرح عن الطعام «أى حصاد تقصد أو عن أى حصاد تتكلم» ولكن كانت قلوبهم ثقيلة وأذهانهم بليدة فأحتاروا ولم يسألوا.

قال «المسيح» «أنظروا الآن كيف أن الجبال قد أبيضت بالحصاد. هذا هو الحصاد العظيم قد أقبل علينا » «وأشار إلى جمع كبير من الرجال والنساء قد أقبلوا نحوه لأن المرأة التى جاءت لتملأ جرتها من البئر أخذت تعدو فى القرية وهى تقول «هيا لتنظروا النبى الجديد الذى أرسله «الله» إلينا » أيها الناس تعالوا إلى البئر لتروا نبياً أرسله «الله» «إلينا» فأخذ الناس يخرجون من بيوتهم على صياحها ويسألونها فأخبرتهم بما حدث بينها وبين

«المسيح» فخرجوا ليتحققوا مما قالت فوجدوا «المسيح» يجلس بجوار البئر مع جمع من أصحابه فتضرعوا إلى «المسيح» أن يمكث عندهم ليعلمهم كلام «الله» فقبل أن يمكث عندهم يومين ودخل مع أصحابه إلى القرية وسط ترحيب الناس.

كان «عيسى » يدعو الناس للتطهر ثم يجلس معهم على الأرض يحدثهم عن «الملكوت» الذى جاء إلى الدنيا ليبشر به ويسألونه عما يصعب عليهم فهمه من نصوص «التوراة» التى معهم وقدموا إليه الكثير من المرضى فشفاهم جميعا ثم دعا الناس إلى مزاولة معيشتهم كما اعتادوا مع مراقبة عين «الله» التى تشهد كل مايفعلونه ولاتغفل عن شئ. كان يبقى مع الذين أختاروا صحبته بين الحقول يتمشى موجها أنظارهم إلى آيات «الله» فى الأرض ومجيبا عن استفساراتهم الكثيرة التى كانت تفصح عما يعانونه إزائه من شكوك وحيرة. يأكل مع أصحابه مما يقدمه إليه أهل القرية هدية وفى الليل يسهر فى الصلاة وفى تعليم أصحابه الذين قبلوا ملازمته .

قالوا له «يامعلم إن «مسيا» الذى ينتظره اليهود يجب أن يكون من نسل «داود» !!

قال لهم «لاتغشوا أنفسكم»

«ألم تقرأوا فى «المزامير» قول «داود» قال الرب لربى إجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك يرسل الرب قضيبك الذى سيكون ذا سلطان فى وسط اعدائك(١٨١)

قالوا «بلى »

قال : «داود» يخبر فى هذا المزمور أن «الله» قال لمن وصفه بأنه «ربه» أى «سيده» آمرا أياه بالجلوس على يمينه حتى ينصره على أعدائه. «فالله» يطلب من «سيد» «داود» أن يطيعه وهذا هو معنى الجلوس على اليمين يعني على جانب الطاعة لكى يمكنه من التغلب على أعدائه .

فمن هو «سيد» «داود» هذا الذى وصفه «داود» بانه «ربه» ؟! فصمتوا ولم يجيبوا

فقال : إنه «رسول الله» الذى يرسله «الله» إلى الناس جميعا (١٨٢) فكيف يكون إبنا «لداود» و«داود» نفسه يدعوه فى «المزمور» ربه أيكون الأبن سيد أبيه ؟ لا أنا ولا رسول «الله» الذى يأتى من بعدى إبنان «لداود».

وتركهم «المسيح». ابتعد قليلا عنهم ثم دخل فى الصلاة فظلوا ينظرون إليه وهو قائم واضعا يديه على صدره ثم رافعا يديه الى السماء ثم راكعا وساجدا. كانوا لا يسمعون ما يقول لأنه كان يهمس ولا يرفع صوته ولا يستطيعون رؤيته إلاَّ فى صعوبة لأن القمر كان هلالاً صغيراً يبث نوراً واهنا إلى أبصارهم الكليلة والنجوم البعيدة لا تضيء لهم المكان لكن كان فى وسعهم أن يحسوا بحركات جسده وهو يركع ويسجد وإن أرهفوا السمع كانوا يلتقطون صوت همهمات غامضة تزيد من حيرتهم واضطرابهم. فى كل مرة يسألونه يأتيهم بجواب يزيد من غموضه فيشعرون أن الهوة العميقة التى تفصلهم عنه تزداد إتساعا بكلامه بدلا من أن يقترب منهم ولا يعرفون إلى أين يندفع بهم السير مع هذا الغريب الذى يزداد غموضه.

أقترب «المسيح» منهم وكان فى وسعهم أن يروا فى ظلمة الليل أن وجهه يتلألأ كأنه يبتسم قال لهم «إن هذه ليلة مباركة فلا أحب أن ننام فيها بل ينبغى أن نصلى ولذلك أطلب منكم أن تسجدوا «لله» مائة سجدة قائلين فى كل مرة «أقرأنك يا آلهنا الرحيم القدير واحد»

ليس لك بداية ولا يكون لك نهاية.

برحمتك أعطيت كل شيء بدايته .

وبقدرتك وضعت لكل شيء نهاية .

لا شيء يشبهك لأنك الدائم الذى لا يعتريه التغير .

أرحمنا يا ربنا لأنك خلقتنا فنحن عمل يدك» (١٨٣) .

وتركهم «المسيح» ليعود إلى صلاته وقاموا ليسجدوا كما أمرهم لكنهم سرعان ما أصابهم الملل بعد سجدة أو سجدتين وأخذ كل واحد منهم يفكر فى مصيره غداً عندما يرحلون من هذه القرية فإلى أين يذهبون وإن ذهبوا معه إلى «الناصرة» فماذا سوف يعملون وكيف يكتسبون عيشهم. هل سيترك الواحد منهم مركبه الذى يصطاد فيه السمك أو وظيفته أو أرضه ؟ أخذوا يتلفتون هل يراهم «المسيح» أم أنه عنهم غافل ثم حسموا أمرهم بعد تردد وخرجوامن السجود يتحدثون مع بعضهم عن المصير الغامض الذى ينتظرهم مع هذا الرجل الساجد هناك وحده لا يعبأ بهم. فلما كان الليل يوشك على الرحيل أقبل عليهم «المسيح» وقال لهم وصوته يفصح عن فرح عميق «الحمد لله الذى وهبنا فى هذه الليلة المباركة رحمة عظيمة فرفع عنا بالصلاة ضرراً كان يوشك أن يقع علينا. ومنحنى أن أصلى مع «رسوله» وقد سمعت صوته وهو يناجى ربه »

فانتبه التلاميذ وأستيقظت حواسهم وأفئدتهم قال واحد منهم «يا معلم علمنا شيئا فى هذه الليلة المباركة »(١٨٤) .

قال «المسيح» «هل رأيتم رجلاً رشيداً يمزج البراز بالمرهم الذى يداوى به جروحه والدواء الذى يتناوله؟» .

أفزعهم السؤال فقالوا فى لهجة «تشى» بإعتراضهم على هذا الإستخفاف بعقولهم لا يا سيدى بل لا يوجد مجنون يفعل هذا»

فقال «وأنا أقول لكم أنه يوجد أناس أشد جنونا من ذلك لأنهم يمزجون عبادة «الله» بمشاغل الدنيا فتراهم متى دخلوا فى الصلاة راحوا ينشغلون بأمور معيشتهم غافلين عن صلاتهم «لله» فصاروا حينئذ ممقوتين من «الله» ولكن الشيطان قد خدعهم فتوهموا أنهم قد أقاموا الصلاة فيعيشون بلا لوم لأنفسهم يظنون أنهم يستحقون رحمة «الله» ولم يظفروا إلا بنقمته .

وأحاط بهم الفزع لكلامه ولأن صوته قدعلا يفصح عن الغضب قال «قولوا لى إذا أردتم أن تصلوا ألا تتطهرون. أولاً ثم تحذرون أن يمسكم شيىء نجس ؟»

قالوا :« نعم بكل تأكيد»

قال : «ولكن ماهى الصلاة ؟ »

«إن الصلاة هى أن نغتسل من خطايانا برحمة الله».

«لكن إذا إنشغلتم عن «صلاة الله» بأمور معيشتكم وأخذتم تتحدثون مع بعضكم فى أمور دنياكم فإن كل كلمة من هذا الحديث الباطل تصير برازاً للشيطان يضعه على نفس المتكلم بالباطل فيزداد بصلاته الباطلة إثما على إثمه ويزداد قذارة بدلا من أن تطهره «صلاة الله» فأحذروا أن تفعلوا ذلك».

وأرتجف التلاميذ من الرعب لأن صوته قد احتد وقالوا فى مسكنة «يا معلم وماذا نفعل إذا جاء صديق ليكلمنا ونحن نصلى» .

قال «دعوه ينتظر حتى تكملوا صلاتكم» قال واحد منهم «ولكن إذا حدث هذا فإنه يغتاظ منا وينصرف غاضبا» .

قال «المسيح» إنه إذا اغتاظ وأنصرف غاضبا فصدقونى إنه لا يعد صديقاً بل عدواً لدوداً ولا يكون مؤمناً بل كافراً ولياً للشيطان. قولوا لى إذا ذهب واحد منكم ليكلم صديقه الذى يعمل باسطبل «هيرودس» رئيس «الجليل» فوجده منحنيا يهمس فى أذن «هيرودس» الذى يرهف إليه السمع وقد لاح على وجهه السرور بكلام غلامه الذى يعمل فى الأسطيل فإن كان هذا الغلام صديقا محبوبا حقا فهل يغتاظ الواحد منكم لأنه رآه يتكلم مع «هيرودوس» هامساً فى أذنه و «هيرودس» به مسرور ؟ .

كلا إن الصديق يفرح لأن صديقه قد أرتفع الى تلك المنزلة أما إذا إغتاظ وأنصرف غاضبا فهو عدو حسود وليس بصديق أليس هذا بصحيح ؟ !.

قالوا «بلى بل هو الحق بعينه»

قال«الحق أقول لكم إن من يصلى فهو إنما يكلم «الله» و«الله» يقبل عليه بوجهه وهو به مسرور أفيصح أن تتركوا التكلم مع «الله» وتغضبوه وقد أقبل عليكم لتتكلموا مع الناس؟ .

«هل يحق للصديق المحب أن يغتاظ لأنكم تحترمون «الله» أكثر منه أيعد هذا صديقا؟ .كلا بل هو عدو وجندى شديد من جنود أبليس لأن إبليس لا يطلب شيئا أكثر من أن يترك الناس عبادة «الله» لينشغلوا بأنفسهم لا يريد أكثر من أن لا يحترم «الله» .

لعمر «الله» الذى تقف نفسي فى حضرته إنه يجب على كل إنسان يتقى «الله» أن ينفصل عن الدنيا كلها حينما يشرع فى عمل من أعمال العبادة التى يقبل «الله» عليه فيها حتى لا يفسد العمل الصالح .

ثم سأل «إذا أراد واحد أن يتكلم بالسوء أو يفعل سوءاً فذهب إليه آخر ليمنعه فبماذا نصف صنيع هذا الآخر» (١٨٥)

قالوا «إنه يعمل صالحاً»

قال «المسيح» «نعم لأنه بهذا يطيع «الله» الذى يحب أن يمنع الشر كما تطرد الشمس الظلام »

«فإذا أراد واحد أن يفعل صالحا أو يتكلم صالحا فذهب إليه آخر ليمنعه فبماذا نصف هذا الآخر ؟

قالوا «إنه يصنع شرا»

قال «لأنه يخدم الشيطان الذى لا يريد سوى أن يمنع طاعة «الله»

«فماذا أقول لكم» ؟

«أقول لكم ماقاله «سليمان» نبى «الله» من كل ألف تعرفونهم لا تستطيعون أن تظفروا إلا بصديق واحد» .

قال واحد منهم «إذن لا نستطيع أن نحب أحداً ؟ قال «المسيح» «الحق أقول لكم بل يجب ألا تكرهوا شيئا إلا الخطيئة حتى الشيطان لا يجوز لنا فى الحقيقة أن نبغضه بإعتباره أحد مخلوقات «الله» وصنعة يده التى أتقنت كل شىء فمن يكره الصنعة فإنما يكره «الصانع» ومن يبغض المخلوقات فإنما يبغض الخالق ولكن ينبغى أن نبغض الشيطان بإعتباره عدواً «لله» يتمرد على شريعته فالمعصية هي الشىء الوحيد الذى ينبغى لنا أن نكرهه لأنه موضع كراهية «الله». إن «الله» لا يكره إلا أن يُعْصَى فلا ينبغي أن نكره أحدا من خلق «الله» ولكن الصديق شىء خاص فينبغى لنا أن نعرف أولا من هو الصديق ما المقصود بكلمة الصديق ؟ الصديق هو طبيب النفس هو الإنسان الذى تلجأ اليه عندما تكون فى حاجة إلى من يرشدك. من يخفف عنك حزنك من يدلك على الطريق الذى ينقذك من ورطة وقعت فيها من يقيلك من عثرتك هذا هو الصديق وكما أنه يندر بين أطباء الجسد أن يوجد طبيب ماهر يعرف المرض على نحو دقيق ويحدد موضع الداء ثم يصف الدواء المضبوط فكذلكم لا يوجد بين الجم الغفير من. الناس الذين يطلق عليهم لفظ «الأصدقاء» إلا القليل بل أقل من القليل ممن يستحقون إسم «الصديق». فلا يكاد يوجد بين الناس من يعرف أمراض النفس ويستطيع أن يحدد موضع الداء وأن يصف بدقة الطبيب الماهر «الدواء» بل يوجد دائما من يغضون الطرف عن «خطايا» أصدقائهم ويقولون عنها أنها مجرد «هفوات صغيرة» بل يوجد من يعذرون أصدقاءهم ويقدمون لهم التبريرات بل يوجد من يدافعون عن أصدقائهم بالباطل ويوجد أصدقاء أكثر شرا من كل ماتقدم وهم الذين يحثون أصدقاءهم على الخطايا ويعاونونهم على ارتكابها وستكون آخرتهم أكثر سوءاً نظير لؤمهم.

فاحذروا أن تتخذوا مثل هؤلاء أصدقاء لأنهم هم الأعداء الذين يقتلون النفس حقا

لأنهم يساعدونها على أن تبتعد عن رحمة «الله» وهذا هو الموت الحقيقى. إنه الخروج من رحمة «الله» .

إن الصديق شيء نادر حقاً يصعب دائما الظفر به ويسهل على الدوام فقده لأن الإنسان بكبريائه لا يسمح لأحد بالأعتراض علي ما يحبه .

فكيف تختارون أصدقاءكم ؟!

أحذروا أن تختاروا من لا يحبون ما تحبون أصدقاء لكم. إذن يجب أن تعرفوا أولاً ماالذى تحبونه حتى تختاروا أصدقاءكم ولكن إذا كان الإنسان لا يعرف كيف يحب نفسه لأنه غالبا يحب ما فيه هلاكه ويكره ما فيه حياته فكيف يمكن أن يحب غيره؟!

يجب على الإنسان أن يعرف أولاً كيف يحب نفسه حتى يستطيع أن يظفر بصديق حقيقى ولا يستطيع الإنسان أن يعرف كيف يحب نفسه إلا إذا عرف كيف يحب «الله» خالقه لأن «الله» هو الوحيد الذى يستحق الحب فمتى مضيت لتختار صديقاً فلا تنظر إلى نسبه العريق أو مكانة أسرته أو فخامة بيته أو حسن ثيابه أو جمال صورته أو حلاوة لسانه أو ضخامة ثرائه او إرتفاع مكانته بين الناس لأنك إذا نظرت إلى شئ من هذه الأشياء فإنك سوف تخدع بسهولة فتختار عدواً لك يلقى بك إلى الجحيم ولكن انظر الى تقواه ومدى زهده فى متع الدنيا وإقباله على الأعمال الصالحة وانهماكه فى العبادة وترويضه لجسده وتقبله للإصلاح كميل الإنسان للضحك عندما يكون سعيدا وأنه كما يقبل أن يُتْرَكَ كل شئ حبا فى «الله» فإنه يرضى منك أن تتركه من أجل عبادة «الله»[١٨٦] فإن وجدت إنسانا على هذا النحو فقد ظفرت بصديق حقيقى ومن يظفر بصديق حقيقى واحد فقد وجد إحدى مسرات الفردوس فالحق أقول لكم إن «الصديق» الحقيقى هو مفتاح الجنة ومن لاصديق له فهو فى الحقيقة فقير جداً ولكن احذر أن تحب صديقك الحقيقى هذا لذاته لأنك حينئذ تكون وثنيا عابد صنم لأن «الله» وحده هو الذى يستحق أن يحب لذاته بل تحب

صديقك باعتباره هبة من «الله» وهبها إياك. نعمة أنعم «الله» بها عليك فحينئذ يفيض «الله» عليه وعليك بمزيد من رحمته.

قال «تدايوس» ولكن يامعلم لايتفق لكل إنسان أن يجد صديقا ينطبق عليه ماقلت فماذا يجب علي الإنسان فعله مع أصدقائه هَل يهجرهم ؟

قال «المسيح» ماذا يفعل النوتى (البحار) بالمركب الذى يسير به فى البحر ؟

إنه يصلحه ويسير به مادام يرى فيه نفعا وأنه قادر على حمله ولكن متى وجد ان لافائدة فيه وأن ركوبه فيه خطر إذ قد ينقلب به ويغرقه فحينئذ يجب عليه أن يتركه غير آسف عليه .

«كذلك يجب أن تفعل مع صديق لك شر منك أتركه فى الأشياء التى يكون لك فيها عثرة إذا كنت لاتحب أن تتركك رحمة «الله» وصاحبه فى الأشياء التى يكون لك فيها عونا على عبادة «الله» أو علي الأقل لايمنعك من عبادة «ربك» .

«ويل للناس من العثرات ولابد أن تاتى العثرات لأن الدنيا قد أقيمت علي الخطيئة ولكن الويل للذى يكون سببا فى عثرات الآخرين خير للإنسان أن يعلق فى عنقه حجر الرحى أو أن يموت غريقا فى لجة البحر من أن يعثر أخاه»(١٨٧)

«إن كانت عينك عثرة لك فاقتلعها لأنه خير لك أن تدخل الجنة أعوراً من أن تلقى في الجحيم ولك عينان تبصران »(١٨٧)

«إن أعثرتك يدك فاقطعها أو اعثرتك رجلك فابترها لأنه من الخير لك أن تدخل الملكوت اقطع أو أعرج من أن تطرد ملعونا وأنت سليم اليدين ولك عينان ورجلان».

ففزع التلاميذ وقال «سمعان بن يونا » يامعلم كيف يمكننى أن أفعل هذا بنفسى. حقا إننى أصير مسخا مشوها بعد زمن وجيز ؟». أجاب «المسيح» «إخلع الحكمة الجسدية التى تقف عند اللفظ تجد الحق توا . عينك هي من يعلمك ويدك هى من يساعدك فى عملك ورجلك

هي سعيك فمتى كان شئ من هذه الأشياء عثرة لك في الطريق إلى «الله» إذ يكون باعثا لك على الخطيئة فانبذه فمن الخير لك أن تدخل رحمة «الله» وأنت جاهل فقير قليل الأعمال من أن تدخل الجحيم وأنت حكيم غني كثير الأعمال» .

«إطرح عنك كل مايمنعك عن عبادة «الله» كما يطرح السائر علي الطريق كل مايعيق بصره "

كان الليل قد أدبر وأوشك الصبح أن يتنفس إذ بدت لهم كلماته أبعد من تلك النجوم التي رحلت وغابت عن أعينهم في نور الفجر الذي جاء وأدركوا أن ثمة «شئ» ماينقصهم ويعجزهم نقصانه عن أن يلحقوا بكلماته التي تبتعد عن أذهانهم وتفر من قبضة قلوبهم فرار النور من اليد التي تحاول عبثا أن تمسك به. قال «يحيى بن زيدى» (يوحنا أخو يعقوب).

«يامعلم علمنا ماهو «الإيمان»؟(١٨٨)

فتهلل وجه «المسيح» في نهاية تلك الليلة المباركة لقد أدركوا أخيراً ماينقصهم فقال مسرورا «قد حان الآن وقت الصلاة فهيا اغتسلوا ثم نصلي وبعد الصلاة أخبركم ماهو الإيمان ».

قال: «لما أتم «الله» خلق السماوات والأرض أحب أن يكشف عن نفسه لخلقه فأوحى إلي «رسوله» الكتاب الذي سجل فيه علمه ووهبه «الإيمان» الذي هو التصديق بكلمات «الله» التي تحمل علمه فآمن «الرسول» بما أنزل إليه من ربه ومن قلبه الذي امتلأ «بالإيمان» فاض علي جميع خلق «الله» فمس «الإيمان» بعض القلوب فأبصرت لأن الايمان هو النور الذي يُرىَ به «الله» ولم يصل الإيمان إلى القلوب الأخرى فظلت في الظلمات لم تخرج الى النور كما أن العميان لايستطيعون أن يروا بنور الشمس التي تضئ كل شئ على الأرض حتىَ أجسادهم لأن نورها لايصل الى أبصارهم.

«الإيمان» نور يمس القلب وبه نرى حقيقة الأشياء لأن «الله» هو حقيقة الأشياء وهى رؤية ثابتة لاتخطئ لأن أساسها هو كلمات «الله» التى لاتتغير أو تتبدل والإيمان واحد لأنه نبع من مصدر واحد هو قلب «الرسول» الذى فاض بما وهبه «الله» الواحد وهو بمثابة صبغة صبغ «الله» بها قلوب مختاريه فتهيأت لرؤيته واستعدت لمعرفته. هو هبة وهبها «الله» المختارين من عباده بواسطة النبى عبده القائم دوماً فى حضرته (١٨٩)

بالإيمان يَرَى الرسول ربه ومن رؤيته يرى المؤمنون ربهم فيكون ذلك الرسول هو «روح الله» الذى يُعْرَف به «الله» فهو النور الذى يخرج به العباد من الظلمات والإيمان هو وسيلة الرؤية ولاسبيل إلي إرضاء «الله» بدون الإيمان ولذلك فإن غاية الشيطان هى أنْ يمحو الإيمان من القلوب فإن تمكن الشيطان أن يزيل الإيمان من القلوب مع المحافظة على الشعائر مثل الصلاة والزكاة والصوم فإنه لايكف عن حث الناس على الإكثار من هذه العبادات مع محو الإيمان من قلوبهم لأنه عدو للإنسان يسره أن يعمل الإنسان ويتعب دون أن يحصِّل ثمرة لعمله لأنه بدون الإيمان لايقبل «الله» أى عمل مهما كثر لذلك كان أوجب الواجبات على العبد الذى يريد أن يكون مقبولا عند «الله» أن يحرص على حفظ الإيمان فى قلبه وآمن طريقة لذلك هى أن يترك الإنسان قولة «لماذا»

«لماذا » فعل «الله» كذا ولماذا قال «الله» كذا .

لأن لماذا هذه هى التى أخرجت «آدم» و «حواء» من الجنة وأخرجتنا معهم وهى التى حولت «ملكا» جميلا إلى شيطان رجيم لايستطاع وصف قبحه.

فقال «يحيى بن زيدى» (يوحنا) كيف يامعلم نترك لماذا وهى باب العلم ؟! قال «المسيح» المعلم «بل لماذا هى باب الجحيم» فالتزم «يحيي» والتلاميذ الصمت وهم صاغرون

فقال «المسيح» «متى علم الإنسان أن «الله» قال كذا أو فعل كذا فبأى كبرياء باطلة يقول الإنسان لماذا قلت يا «الله» كذا ولماذا فعلت كذا.

هل يستطيع إناء أن يقول لصانعه لماذا صنعتنى ؟ ولماذا وضعت فيَّ الماء بدلا من

الخمر. فى كل إبتلاء ينبغى عليكم أن تقولوا لقد قال «الله» كذا وعلينا أن نطيع. لقد فعل «الله» كذا وعلينا أن نرضى. يريد «الله» كذا وعلينا أن نسعى لتحقيق مايريد فإن سرتم على هذا النحو عشتم فى أمن وأطبق الصمت على الجميع.

وجاء أهل القرية إلى «المسيح» يرجونه أن يمكث معهم أكثر بعد أن أحسوا ببركته على قريتهم ولكنه أعتذر وودعهم بعد أن طلب منهم أن يحفظوا وصاياه وأن يعملوا بها ويبشروا وخرج من القرية يتبعه «التلاميذ» يواصل طريق العودة الى «الناصرة» .

(١٥)

«لاكرامة لنبى فى وطنه»

«كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر او مجنون»

« اتواصوا به بل هم قوم طاغون»

«الذاريات ٥٢-٥٣»

كان «التلاميذ» يسيرون مع «المسيح» صامتين يفكرون فى كلماته الغريبة على قلوبهم وتعاليمه العسيرة على الفهم ويتساءلون عن «رسول الله» الذى ظل يحدثهم عنه طوال الطريق كيف يمكنه أن يصلى معه كما يقول وهو لم يولد بعد وكيف يدعى أنه سمع صوته ليلة أمس وهو يقول أن زمن مجيئه لم يحن بعد وكيف يمكننا تصديق كل هذه القصص الغامضة ؟

قال «أندراوس بن يونا» «يامعلم لقد حدثتنا بأشياء كثيرة عن «رسول الله» الذى يقولون عنه «مِسِّيا» حتى اختلط الأمر علينا وأصابنا الإضطراب فإن أذنت فتكرم علينا بالتوضيح وقل لنا مانستطيع فهمه »(١٩٠)

قال «المسيح» «كل مخلوق يعمل لأنه محتاج إلى العمل لأن فى نفسه نقص يريد أن يمحوه بعمله فهو مفتقر إلى العمل ليستكمل به نفسه أما «الله» فإنه كامل ليس فى نفسه نقص ولكنه أحب أن يكشف عن نفسه فخلق «رسوله» الذى كشف به عن نفسه إذ أفصح له عن علمه فهو إرادة «الله» فى الظهور به تعرف الخلائق ربها وهذا هو معنى «روح القدس»(١٩١) وأعلموا أنه سوف يبعث رسولا إلى البشر جميعا وإذا كان كل نبى أرسله «الله» إلى أمة من الأمم فإن رسالته تكون منحصرة فى الشعب الذي أرسل إليه فإن «رسول الله» الذى أحدثكم عنه سوف يبعثه «الله» نبيا بشراً مرسلاً إلى جميع الأمم يحمل

رسالة «الله» إلى البشرية كلها وستنتشر دعوته فى جميع الشعوب يحمل النجاة والرحمة لكل من يقبل تعليمه مهما كان نسبه وسيكون حربا على المستكبرين ويبيد عبادة الأصنام من الأرض ويزيل سلطان «إبليس» عليها فيخزى الشيطان فى زمن أمته فلا يعود له السلطان الذى كان له قبل نزول وحى ذلك النبى وتتبارك به جميع قبائل الأرض كما وعد «الله» خليله «ابراهيم» .

قال «أندراوس» «صفه لنا يامعلم».

أدرك «المسيح» «أنهم لايزالون غير مؤمنين فقال:

«إن «الله» قد أعطاه كل الجمال فهو مزدان بالرحمة والمحبة والحكمة والبصيرة والقوة والعدل والعلم والمشورة والخشية والصبر والتقوى واللطف ماذا أقول لكم

لكن بدا على وجوههم الإنكار الذى يشى بعدم إيمانهم فامتلأ قلب «المسيح» بالأسف هل يرضيهم أن يقال لهم أنه ممتلئ الجسد يميل إلى الطول أبيض اللون مشرق الوجه كأنه الشمس واسع العينين أسود الشعر يتدلى شعره حتى كتفيه عريض المنكبين إذا غضب أحمرت عيناه وعلا صوته كأنه نذير حرب وإذا ابتسم تلألأ وجهه لكنه لايقهقه هل هذا هو مايودون سماعه ؟ أم أن الحماقة بلغت بهم حداً توهموا فيه أن «المسيح» سوف يقوم برسم صورته على الأرض أم أنهم لن يؤمنوا حتى يروه قائما أمامهم صبغ الأسف صوت «المسيح» وهو يقول لهم «صدقونى إنى رأيته كما رآه كل نبى لأن الأنبياء بمثابة وكلاء عنه لذلك فإن ظهوره للناس فى صورة رجل عربى يحيى على الأرض ليبلغ رسالة «الله» إلى جميع الأمم ذلك الظهور يغلق باب النبوة فلا معنى لعمل الوكيل عند حضور «السيد» صاحب الأمر إنه آخر الأنبياء الذين يرسلهم «الله» ولقد رأيته فامتلأ قلبى بالعزاء عن كل ماسوف ألاقيه من الناس ومن الشيطان فى هذه الدنيا من كفر وتشويه وعنت وقلت له ليتمجد «الله» وليجعلنى «أهلا لأن أحُلَّ سيور حذائك لأننى إذا ظفرت بهذا صرت نبيا عظيما فى الأنبياء»(١٩٢)

بدا لهم أن هذا التواضع مبالغ فيه ولامعنى له فاندفع «أندراوس» أيضا يقول

«يامعلم» إنك دعوتَ «الله» أنْ يجعلك أهلاً لتحل سيور حذائه» و«يحيى بن زكريا» قال لستُ أهلاً لأن أحل سيور نعليه فما معنى كل هذا ؟

إن التواضع خلق غريب فى بنى اسرائيل الشعب الذى يظن أن «الله» قد اختاره إلى الأبد إختيارا لارجعة فيه حتى كأنه قد فُرِض على «الله» فكيف يتواضع هذا «المعلم» اليهودى ومن قبله الشيخ «يحيى بن زكريا» إلى هذا الحد لرجل عربى من سلالة ابن الجارية «إسماعيل»

قال «المسيح»: «من تواضع لله رفعه فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرفعه «الله» إذا علمتَ ماهى القدم عرفتَ المقصود من الحذاء وفهمت معنى حل السيور ألم تقرأوا أو تسمعوا أن «الله» قال لعبده «موسى بن عمران» إخلع نعليك ؟ فما هما الحذاءان وما هى القدم ؟» وصمتوا لقد قرأوا وسمعوا ولكنهم لم يسألوا أنفسهم ابدا هذه الأسئلة الغريبة

قال «القدم هى نفس الإنسان التى تَقَدّم حضورها بين يدى «الله» نفس الإنسان التى عند «الله» و التى سبقت ظهوره فى الجسد والحذاءان هما الوعاءان اللذان انسكب فيهما «الروح» الذى حضرت به النفس من الغيب . «الجسد» و«القلب» ثوب الطين المأخوذ من الأرض والثوب المأخوذ من السماء وهذا الثوبان هما الحجابان اللذان تستتر فيهما النفس وينبغى على الإنسان أن يخلعهما إن أراد «الله» أن يكشف له عن «نفسه» لذلك طلب «الله» من موسى وهو فى مقام الكشف له عن نفسه أن يخلع حذاءيه ومعنى قول « يحيى بن زكريا » أن «الله» لم يمنحه أن يكون هو النبى الذى يكشف للناس عن نفس «رسوله» «النبى» الخاتم وهو الشرف الذى منحنى «الله» أياه إذ أرسلنى الى الناس لأبشر به ولذلك دعوت «ربى» أن أنجح فى أداء هذه الأمانة التى ائتمننى «الله» عليها وهذا هو معنى دعائى .

كان التلاميذ يقفون مشدوهين صامتين ينظرون إلى «المسيح» وهو يتحدث وقد

شخصت عيونهم وبدا على وجوههم الذهول بينما واصل «المسيح» حديثه قائلا «الحق أقول لكم إن الشيطان يحاول دائما إبطال كلام «الله» ولذلك فقد نجس هو وأتباعه من الأحبار والكتبة الذين لايتقون «الله» نجسوا كلام «الله» بأكاذيبهم وأزالوا منه مالا يوافق أهواءهم وكان ثمرة هذا أنكم قد تلقيتم تعليما فاسدا ففسدت قلوبكم وأفئدتكم وقام الآخرون بإكمال عمل الشيطان فانغمسوا فى معيشة الإسراف والخلاعة حتى أمسى الحق غريبا فى الدنيا لايكاد يعرفه أحد من الناس .

«ويل للمرائين الذين يبحثون عن المجد الباطل لأن الثناء الذى يظفرون به فى الدنيا سينقلب عليهم إلى لعنة أبدية»(١٩٣).

وتركهم «المسيح» وأبتعد قليلا ليصلى.

أما «سمعان بن يونا» شقيق «أندراوس» فقد استبدت به الغيرة من أخيه الذى ظل يكلم «المسيح» ويسأله طوال كل هذا الوقت. امتلأ قلبه بالغيظ منه فقال له فجأة «يالك من ثرثار منافق ظللت تكلم «المعلم» بمفردك كأنك تريد أن تستأثر بكلامه لنفسك».

ورد عليه «أندراوس» أنا ثرثار منافق أيها الغبى إننى أسأل حتى أتعلم ولا أبقى غبيا جاهلا مثلك»

- «أنا غبى أيها الثرثار اللص».

- «بل غبى ودعى لأنك تصمت صمت العليم بكل شئ مع أنك أحمق لاتدرى مايدور حولك ولاتفقه شيئا ».

- «أنا غبى ودعى أيها اللص» وأندفع الشقيقان ليشتبكا فى معركة بالأيدى كل واحد يريد أن يفتك بأخيه وتدخل الزملاء فحالوا بينهما وكان المسيح قد أنهى صلاته وتقدم نحوهم بوجه حزين ومال إلى ناحية «سمعان» وهمس له «إذا أخطأ إليك أخوك فاذهب إليه

وصالحه ولاتوبخه»(١٩٤) وكان «اندراوس» حزينا غاضبا وقد انتحى جانبا مبتعدا عن شقيقه واعترض «سمعان» على نصيحة «المعلم» «كيف أصالحه» ؟!

كان يقصد كيف أصالحه أنا وهو الذى اخطأ إلىَّ فينبغى أن يأتى هو ليصالحنى ولكن «المسيح» بلطف حكمته تغاضى عما يقصده هو وقال «تصالحه بالطريقة التى تحب أنت أن يصالحك بها ولكن إحذر من أن تظن نفسك أفضل منه بل يجب أن تقول لنفسك أنه لولا أن «الله» ساعدتى لكنت أسوأ منه ينبغى أن تعامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك».

«صدقنى لأننى أقول لك الحق إنك فى كل مرة تذهب لتصالح أخاك وهو المخطئ إليك فإنك تنال رحمة عظيمة من «الله» وتثمر كلماتك بعض الشئ فإن كررت المحاولة فإنك تربح فى النهاية أخاك وهو كنز عظيم لك من «الله» وتظفر برحمة «الله» الذى يغفر لك خطاياك كما غفرت أنت لأخيك ولكن أحذر أن تفعل هذا بالعنف والقسوة بل بالرقة واللين لأن القسوة لاتثمر شيئا ويعدل «الله» تلقى نظير قسوتك حسابا عسيرا».

«قل لى هل يغسل الفقراء هذه القدور الفخارية التى يطبخون فيها طعامهم بالحجارة والمطارق الحديدية أم بالماء النظيف الدافئ »؟ إنما تغسل القدور الفخارية القذرة بماء نظيف دافئ . فإن الحجارة والحديد يحطمان القدور قبل أن يستطيعا تنظيفها وكذلك الإنسان لاتصلحه إلا الرحمة».

«وقل لنفسك دوما أنه لولا معونة «الله» لعدت غداً أسوأ من اليوم». كان المثل الذى ضربه «المسيح» باهرا انبهرت به أفئدة التلاميذ وتعجبوا من قدرته التى لاتجارى على الوصف والتمثيل. الكلام ينساب من فمه كالماء الصافى من كأس نظيف أو كالنور يمحو الظلمات.

فقال «سمعان» يامعلم كم مرة أغفر لأخى »؟

قال «المسيح» «عدد ماتريد أنْ يغفْرِ َ«الله» لك»

قال «سمعان» «سبع مرات فى اليوم مثلا ؟!»

فتأسف «المسيح» لغلظة القلوب وقال محتدا «لا أقول سبع مرات بل تغفر له فى كل يوم سبعين مرة وكل مرة سبع مرات » «الحق أقول لك إن من يغفر يغفر له ومن يدن فإنه يدان يوم الدين .»

ـ قال «كم يجب على أن أمهل أخى ليتوب عن خطئه إلى» ؟.

ـ قال « بقدر ماتريد أن تُمْهَل».

ـ قال «لايفهم كل أحد هذا الكلام فكلمنا بوضوح أكثر».

ـ قال «أمهل أخاك بقدر مايمهلك «الله» ».

ـ قال «ولا هذا نفهمه أيضا » ؟.

ـ قال «أمهله مادام له وقت للتوبة »

فحزن «سمعان» وكل التلاميذ لأنهم لم يفهموا هذا الكلام أيضاً ولم يعرفوا ماهو المقصود .

قال «المسيح» وقد بدا عليه الضجر من غلظة قلوبهم وبلادة أفئدتهم «لو كان عندكم أدراك صحيح لعرفتم أنكم أنتم أنفسكم خطاة تستحقون الإدانة والعذاب وتحتاجون إلى الرحمة وحينئذ لم يكن ليخطر على بالكم أبدا أن تحكموا على الخاطئ وتنزعوا الرحمة من قلوبكم عليه وأقول لكم فى وضوح وبساطة أمهلوا الخاطئ مادام فيه نَفَس يخرج من وراء أسنانه لأنه على هذا القدر يمهله «الله» ليتوب فإن «الله» يقبل توبة عبده مادام فيه نفس هكذا يفعل «آلهنا» الرحيم وهو القدير. إن «الله» لم يقل إنى أغفر للخاطئ فى الساعة التى يصوم فيها أو يتصدق أو يصلى أو يحج لأن كل هذه الأشياء قد قام بها الكثيرون وهم ملعونون لعنة أبدية ولكنه قال فى الساعة التى يندم فيها الخاطئ على خطاياه فإننى أنسى إثمه فلا أذكره من بعد ومتى يندم الخاطئ على خطاياه ؟!»

«إنه يظل قادرا على الندم مادام يتنفس أفهمتم ؟.» قالوا فـ«همنا بعضا دون بعض»

.قال «فما الذى لم تفهموه »؟.

قالوا «كون كثيرين صاموا وصلوا وتصدقوا وحجوا وهم ملعونون ؟!».

قال «الحق أقول لكم إن المرآئين والأمم الوثنية يصلون ويتصدقون ويصومون ربما أكثر من أصفياء «الله» ولكن لا إيمان فى قلوبهم لذلك فهم عاجزون عن التوبة إلى ربهم الذى لايقبل إلا «الإيمان» ولذلك فهم ملعونون رغم كل هذه الطقوس .»

وعاد الصمت ليطبق عليهم من جديد .

أحسوا أنه قد حطم أساس حياتهم. نجح فى إثارة شكهم فى كل ما كانوا يعتقدون أنها حقائق لايرقى إليها الشك وأصبح كل شئ فى نظرهم محلاً للجدل لكهنم لم يظفروا منه بشئ يستندون إليه أو يتشبثون به. إنه لم يترك لهم شيئا يثقون فيه ويتكئون عليه. «النصوص» التى كانت فى نظرهم مقدسة لايجوز عليها الخطأ أصبحت موضع شك ومليئة بالأخطاء والأدلة التى تثبت «عبث» الأيدى البشرية فيها وحتى النصوص التى قبلها وشهد بصحتها فإنه يفهمها على نحو يخالف ماكانوا يفهمونه منها ودلهم على معانٍ لها لم تكن تخطر ببالهم. فكما زالت ثقتهم فى النصوص فقد زال اطمئنانهم إلى فهمهم لها والعبادات التى تفرضها الشريعة لم تعد لها نفس الأهمية التى كانت لها قبل لقائهم به فها هو يخبرهم أن كثيراً من المصلين والمتصدقين الصائمين قد يكونون ملعونين لعنة أبدية ويقول أن الوثنيين يؤدون من العبادات أكثر من أصفياء «الله» فعلام يتكئون وأين يضعون ثقتهم ؟

«أفى الإيمان» ؟!

«هل هو نبى صادق مرسل من «الله» ؟ أم أنه ساحر قدير ؟ أم تراه مخبولاً أفسد الشيطان عقله. وماهو هدفه؟! هل يسعى إلى أن يكون ملكا لليهود وهل سيعمل على إعادة المجد للشعب اليهودى وماذا سيفعل مع الرومان ؟ إن كان هذا هو هدفه بل من هو

في الحقيقة ؟ إننا لانعرف من هو أبوه. يقولون إنه «ابن يوسف بن يعقوب النجار» من بيت لحم ولكنه هو نفسه يقول عن نفسه أنه ابن الإنسان وأحيانا يصف نفسه بأنه إبن الملكوت فمن هو هذا الإنسان الذى يقول أنه أبوه ومن هو هذا الملكوت ؟ هل يمكن أن نؤمن بإنسان لانعرفه ؟

وأدرك الذين صحبوا «المسيح» فى رحلة عودته من «أورشاليم» الى «الناصرة» أنهم عاجزون عن معرفة «المسيح» غير قادرين على الإقتراب منه فضلا عن الإيمان به. أحسوا أنهم قد صاروا بفعل كلماته فيهم مثل الأشجار التى أقتلعت من الأرض التى نبتت فيها ولكنها لم تجد بعد الأرض الجديدة التى تثبت فيها جذورها يتقلبون حائرين تتقاذفهم الأفكار الغامضة والعواطف المتناقضة لايعرفون أين المستقر .

وأصبحت «الناصرة» على الأبواب فبدأ الجمع الصغير الذى كان يصحب «المسيح» يتسرب افراده واحد بعد الآخر بأعذار شتى إذ أدرك الجميع أن البقاء معه أمر يفوق طاقتهم . عاين كل واحد منهم بعد كل مارأى وسمع أنه يحتاج إلى وقت يحسم فيه أمره بعد أن يقلبه فى رأسه حتى لايقع ضحية الخداع أو يهلك نفسه فى مخاطرة مجنونة . أما «المسيح» فكان يحث الخطى منذ بدت «الناصرة» فى الأفق تسرع قدماه إلى حيث يحب أن يستريح عند قدمي أمه.

عند بيت «يوسف بن يعقوب» النجار حيث يقيم «المسيح» مع أمه وأخوته أبناء «يوسف» كان يحتشد جمع كبير من أهل «الناصرة» حول ضابط رومانى قائد مائة قادم من «كفر ناحوم» وهى بلدة صغيرة تقع على بحيرة طبرية التى كانت تسمى حينئذ «بحر الجليل» ومعه بعض شيوخ اليهود الذين أصروا على صحبته من «كفر ناحوم» حتى «الناصرة».

كان هذا القائد الرومانى رجلا قد اقترب من الشيخوخة ولم يكن لديه إلا طفل واحد غلام رزق به بعد طول إنتظار فكان بالنسبة لأبيه هو حياته الأخرى يرى فيه خلوده يحبه حبا جما لا يطيق أن يراه يتألم ولا يستطيع أن يرفض له طلبا وحدث أن الطفل المدلل

سقط مريضا أخذته «الحمى» ولم يستطع واحد من الأطباء الكثيرين الذين استدعاهم الوالد الحنون لإبنه الوحيد أو الذين ذهب إليهم به لم يستطع واحد منهم أن يشفى الغلام فظلت «الحمى» تمسك بجسد الصبى الواهن لا تريد أن تفارقه وصار الغلام على شفا الموت. أمسى كأنه شيخ ضعيف غارت عيناه وشحب لونه وجف حلقه وتحول إلى كومة من العظام المتآلة يغطيها رداء من الجلد الملتهب أخذ ينطق بكلمات غير مفهومة ويتحدث عن أشياء لامعنى لها ويخاطب أناسا قد ماتوا من زمن طويل وجن جنون والده لم يستطع أن يرى غلامه الوحيد وهو يذوى من بين يديه على هذا النحو لقد فعل كل مايمكنه من أجل أن يشفيه ولكن دون جدوى.

ترك أمرأته والنسوة من الأقارب والجيران حول سرير الطفل المحموم وهو يهذى وأغلق على نفسه الحجرة التى كان يخصصها لإستقبال ضيوفه. رفض أن يستقبل أحدا من شيوخ القرية أو الزوار القادمين من القرى والمدن الأخرى الذين جاءوا لمجاملته بعيادة طفله المريض .

كان قائد المئة هذا رجلا طيب القلب بالمقارنة مع غيره من السادة الرومان. حرمانه الطويل من الإنجاب كسر حده كبريائه وخفف من غلوائها وفرض عليه نوعا من التأمل العميق والتدبر الطويل لمعاني الموت والحياة والخلود. تأمل وتدبر نجحا إلى حد كبير فى تهذيب أخلاقه وتحسين معاملته للآخرين خاصة أفراد الشعب اليهودى الذى كان السادة الرومان ينظرون إليهم كعبيد متمردين لاتصلح إلا القسوة فى معاملتهم بهدف استئصال «روح التمرد» من قلوبهم العنيدة كان يرى أن مجاملة شعوب المستعمرات وإظهار الإحترام لعقائدها وطقوسها وعاداتها هو السبيل الآمن لضمان خضوع هذه الشعوب لسلطة «روما المقدسة» والطريقة المثلى لإنتزاع فتيل التمرد من النفوس المشتعلة وهى السياسة التى كانت «روما» قد بدأت بالفعل فى انتهاجها مع الشعب اليهودى فى «فلسطين» أرض «اللبن والعسل» بعد أن رأت أنَّ سياسة القمع العنيف تكلف كثيرا ولاتعطى الثمرة المرجوة

إذ ظلت أعمال الشغب والإضطرابات تتواصل خاصةً فى «أورشاليم» ومنطقة «الجليل» ورغم القسوة المفرطة التى ظلت السلطة الرومانية تظهرها دون أية قيود أو حدود.

لقد ساعد «قائد المئة» سكان قرية «كفر ناحوم» من اليهود على بناء «مجمع يهودى» فى القرية وتودد إلى شيوخ اليهود فيها واكتسب بذلك محبة أهل القرية خاصة شيوخها ولذلك سارع الكثيرون منهم إلى زيارته لعيادة غلامه المسكين وأظهروا الكثير من الحزن ليشاركوه فى المصيبة التى نزلت عليه. أدرك أن موت غلامه قد صار وشيكا فاستغرقته الكآبة وأصابه الإضطراب الذى كان أشبه بالجنون فأغلق على نفسه الحجرة وأخذ قلبه المطعون بفقد غلامه الوشيك يتدبر الكارثة التى حلت به وفؤاده يشتعل بنار الأسئلة التى لاجواب لها يحاول أن يختطف من بين السنة اللهب جوابا عن هذه الألغاز الموغلة فى الغموض .

كان حصوله على الغلام مفاجأة طال انتظارها لم يعرف وقتها كيف احتمل قلبه ما أُلقِى فيه من الفرح لكن هاهو الغلام المسكين يفلت من بين يديه رغما عنه تأخذه «الحمى» إلى قبضة «الموت» التى لايستطيع أحد ان يسترد منها ما أخذته يشعر أن الموت ينزع منه قلبه ليترك له حفرة خاوية فى صدره. بيتا خربا بعد رحيل من كان يسكنه إلى الأبد. عندما وصلت إلى «كفر ناحوم» أنباء المدعو «عيسى الناصرى» الذى قال الناس العائدون من «أورشاليم» أنه أظهر معجزات كثيرة وقدرة عجيبة على علاج الكثير من المرضى الذين يئسوا من الشفاء عرض بعض شيوخ اليهود ووجهاء «كفر ناحوم» على السيد «قائد المئة» أن يذهبوا لإستحضار هذا «الرجل الناصرى» لعله يستطيع أن يُذهِب «الحمى» عن الغلام ويرد إليه عافيته لكن الأب الحزين رفض الفكرة لأنه كان قد يئس من كثرة ماعرض وحيده على الأطباء دون فائدة لكنه لما جلس وحده فى الغرفة المغلقة يتقلب فؤاده فى نيران «التجربة» ألح عليه هذا السؤال «لماذا يصر الأمل فى شفاء ابنى علي البقاء فى قلبى رغم كل شئ ؟»

«لماذا يظل رافضا لموت الغلام معتقدا بإمكان استرداده لصحته رغم فشل جميع الأطباء الذين فحصوا الطفل وقدموا علاجات ونصائح لم تسفر عن أية فائدة ؟ لماذا لايتقبل موت الغلام كحقيقة محتمة لاسبيل إلى محوها رغم أن الأطباء جميعا عجزوا عن اكتشاف المرض ولم يهتدوا إلى علاجه ؟».

لقد إرتدت النسوة السواد وفاضت أعينهن بالدموع وأستعد الجميع «للنبأ» الذى صار على بعد لحظة قصيرة فلماذا يظل قلبه معتقدا أن وحيده يمكنه أن يستعيد حيويته ويرجع كما كان قبل مرضه ؟.

إلى أى شئ يستند قلبه فى هذا الأمل الذى ليس له أى سبب ؟ أعلى الوهم يتكأ ؟! فى نار الإبتلاء أمكنه أن يرى فى صعوبة أن «القوة» التى منحته هذا الطفل على غير توقع وهو يعبر عتبة الكهولة إلى الشيخوخة لاشك أنها قادرة على أن تمنح هذا الغلام المحموم عافيته وأن تزيل عن جسده الضعيف هذه «الحمى» الخبيثة. لكن ماهى هذه القوة ؟ هل هى الطبيعة ؟ هلى هى الآلهة التى تسكن السموات ؟. إنه يدرك الآن فقط أن لاشئ إسمه «الطبيعة». هذا الإسم لامسمي له. وهمٌ نبت فى عقل الإنسان بسبب جهله وعجزه عن معرفة الأشياء وتحديد أسماءها. إن هذه اللفظة «الطبيعة» لاتعنى شيئا ولاتشير إلى شئ إن كان يُقْصَد بها القوانين التى تحكم حركة الأشياء وتتحكم فى الظواهر المشهودة فهذه «الطبيعة» يستحيل أن تكون هى السر فى الأمل الذى يصر على البقاء فى قلبى الذى يحدثنى رغم كل ما أشهد أن شفاء غلامى المسكين ممكن فطبقا لهذه «القوانين» يجب أن يموت غلامى لأن مرضه اللعين لم يعرف الأطباء له علاجا حتى الآن بل لايعرفون ماهو» .

«هل يمكن أن أكون معتمدا على قوة الآلهة ؟! ونظر بإستهزاء الى التماثيل الرائعة التى كان يزين بها غرفة استقبال ضيوفه حيث حبس نفسه. هل يمكن أن اكون آملا فى

شفاء ابنى معتمدا على الآلهة التى تمثل هذه التماثيل صورها ؟ أوشك أن يبصق على تلك الأحجار التى لامعنى لها .

«كلاًّ يستحيل أن أكون متعلقا بهذه الالهة. إنها لم تخطر لى من قبل على بال . عندما سقط الغلام مريضا فإننى أسرعت به إلى الأطباء وعندما كنت أعرضه على الأطباء فإننى كنت آمل ان يهتدى الطبيب إلي علاجه الصحيح وكنت استمر فى العلاج حتى يصيبنى اليأس فألجأ إلى طبيب آخر حتى ملأ اليأس قلبى من كل الأطباء لكن ظل الأمل فى شفاء ابنى قائما فى قلبى بالرغم من كل شئ فعلام يتكأ قلبى فى هذا الأمل ؟ إن هذا الأمل يعذبنى لو أنه .....لأسترحت. كلاًّ إن هذا شئ فظيع ».

كان يعتقد دوما أن «الآلهة» وماينسج حولها من قصص ليست إلاَّ إحدى ثمار العقل البشرى الذى ابتدع هذه «الأسماء» ونسبها الى شخصيات من وحى خياله وصنع منها «مسرحيات مقدسة» تعبر عن خلاصة تجربته وتفصح عن القيم الجوهرية التى استطاع استخلاصها من مجموع حركته فى الحياة على الأرض. تلك «المسرحيات المقدسة» ضرورة فرضتها الطبيعة الإجتماعية للإنسان التى تحتم عليه العيش فى جماعة إذ يستحيل تصور إمكانية أن يدوم بقاء الإنسان على الأرض فى «مجتمعات» إلا إذا كان لها قيم جوهرية تجمع بين الأفراد المنتمين لها ومعايير وضوابط تحكم سلوك الأفراد من هنا تأتى الحاجة إلى «المسرحيات المقدسة» لأنها هى التى تطبع الأفراد بطابع القيم الجوهرية التى يريد «المجتمع» لأفراده «أن يصطبغوا» بها وهى التى تفرض على الأفراد حتى دون أن يدروا المعايير والضوابط التى يريد «المجتمع» من أفراده أن يلتزموا بها فى سلوكهم فكان لابد أن يكون لكل جماعة انسانية ظهرت فى «التاريخ» مسرحياتها المقدسة أو بالاحرى «خرافاتها المقدسة » المعبرة عنها واللازمة لاستمرارها .

ولقد أتاحت له أقامته فى «جليل الأمم» أنْ يتعرف على الكثير من تلك «الأساطير» أو «المسرحيات المقدسة» التى تتناقلها الشعوب عبر أجيالها لأن «جليل الأمم» كان يمتلأ

بالجماعات التى تنتمى لأمم كثيرة من الأرض وكانت هناك أيضا القوافل التجارية التى تعبر فى رحلاتها المستمرة بين الشرق والغرب. أدرك «قائد المئة» أن لكل شعب من الشعوب «خرافاته المقدسة» وأن الإنصاف يقتضى أن يحترم كل شعب من الشعوب «أساطير» غيره ولايحاول رفع «خرافاته» فوق خرافات الآخرين. إن محاولة شعب من الشعوب فرض خرافاته «المقدسة» على غيره هى السبب الأول وراء الكثير من الحروب التى يحترق «الإنسان» بنارها غير المقدسة لم تكن «آلهة الأوليمب» التى إنتقلت إلى «روما» وأتخذت أسماء أخرى والطقوس المرتبطة بها والحكايات التى نسجت حولها بالنسبة «لقائد المئة» القادم من «كفر ناحوم» أكثر من وسائل إجتماعية لجأ إليها الرومان كغيرهم من الشعوب لضمان استمرارهم كشعب. إنه لم يكن. فى الحقيقة يخشى عقاب هذه الالهة ولايرجو رضاها عنه ولايطلب منها أن تساعده فى وقت افتقاره الى المساعدة . لكنه «الآن» يدرك فى وضوح اكثر أن ثمة آله قادر على كل شئ. إله حقيقى ليس من تأليف العقل البشرى ولا من اختراع المجتمع البشرى هذا الإعتقاد هو سر الأمل الذى لم يزل يحيى فى قلبه. إن شفاء ابنه ممكن رغم عجز الأطباء واسترداد عافيته أمر ميسور رغم أن موضع الداء مجهول والدواء الناجح لاسبيل إلى الوصول اليه لأن الإله المقصود لاريب أنه هو «السيد» المهيمن على كل المخلوقات لأنها صنعة يده وهنا برقت فى فؤاده ومضة أليس من الممكن أن يكون هذا الإله الحقيقى هو الذى عناه اليونانيون بإسم «زيوس» وسماه الرومانيون «جوبيتر» وهو نفسه الذى يقول عنه اليهود أنه إلههم. أليس من الممكن أن تكون كل هذه الأسماء هى لإله واحد حقيقى ليس من صنع أحد من البشر بل هو الذى صنع كل هؤلاء البشر وصنع كل هذه الأشياء التى تملأ الأرض والسماء .

«بلى إن هذا ممكن بل ربما ليس ثمة شئ أكثر إمكانا من هذا . إنْ صح هذا فإن الإله الحقيقى الذى خلق غلامى المسكين يكون هو وحده الطبيب الحقيقى القادر على أن يشفيه ويرد إليه عافيته لأنه من صنع يده وهو أدرى به من كل أحد غيره «أيمكن أن يحدث

هذا»؟! وأستبد به القلق إذ أدرك أن هذا ممكن وزاد تعلق قلبه بهذا الأمل الذى يشبه المستحيل رغم انه يشعر لشدة لهفته أنه يكاد يمسك به !!

إن الآلهة الرومانية لم تتحدث مع أحد من البشر ولم تبلغ رسالة لأحد ولكن إله اليهود يقولون أنه كلم أفرادا منهم وأبلغهم رسالته وأنهم قد استمعوا الى خطابه وعرفوا منه مايريد. «هل يمكن أن يكلمنى الإله الحقيقى القادر على كل شئ ؟! أيمكن أن تصلنى رسالة؟! وعلى حين فجأة وجد قلبه يصرخ متضرعاً «أيها الإله الحقيقى القادر على كل شىء يا من لاتراك عيناى ولكنك ترانى وتعلم مايدور فى قلبى ... إرحمنى ».

وأحس «قائد المائة» أن رأسه تدور لم يعد قادرا على الوقوف على قدميه إذ خيل إليه أن الغرفة تميد به والأشياء التى تملأها ... المقاعد والمناضد وتماثيل الآلهة تغرق فى بحر الظلام الآتى مع الليل وأخذه سلطان انوم.

فى الصباح نهض مسرعا وأعلن عزمه على الذهاب الى «الناصرة» وأمر خدمه بتجهيز العربة ذات الخيول. فوجئ أهله بهذا السفر المفاجئ كيف يترك غلامه المحموم وهو يهذى متأرجحا على حافة الموت ولكنه أصر على موقفه وعلم بعض الشيوخ بعزمه فأصروا على صحبته فى السفر مجاملة له ولعلهم يستطلعون عن قرب نبأ هذا المدعو «عيسى الناصرى» الذى يزعم أنه نبى جديد أرسل إلى بنى اسرائيل. وصل الركب إلى «الناصرة» وعلموا أن «عيسى بن يوسف النجار» لم يعد بعد من «أورشاليم» ولايدرون ما الذى أخره وأوشك «قائد المائة» أن يعود الى «كفر ناحوم» محزونا ليلقى على غلامه الوحيد نظرة الوداع قبل رحيله إلى الأبد وعلى حين فجأة جاء «المسيح» مهرولا مع النفر القليل الذى ظل فى صحبته. أقترب من البيت حيث كان «قائد المائة» والقادمون معه من «كفر ناحوم» يقفون يحيط بهم جمع كبير من أهل «الناصرة» يتعجبون ويتساءلون عن سر هذه الزيارة الغريبة وتعالت «الأصوات» ها هو «عيسى بن يوسف النجار» الذى تسألون عنه. أسرع

«قـائد المائة» وأنحنى أمـام «المسيح» فى احـترام بـالغ حتـى كـاد أن يركـع لولا أن «المسـيح» جذبه فى رفق ليقوم.

قال «قـائد المائة» وهو يرفع وجهـا باكيا إلى «المسيح» «يارسـول الإله الحقيقى الوحيد إن غلامى يشرف على الموت فـأرحم شيـخوختى(١٩٥) وأندفع بعض الشيوخ الذين قـدموا معه من «كفر ناحوم» يتشفعون له عند «المسيح» «أيها الطبيب العظيم إنه رجل طيب يحب شـعبنا المقدس ولقد سـاعدنـا على إقامة مجمع لنا فى «كفر ناحوم» » وكان «المسيح» يبكى لبكاء «قائد المائة » وقال له «ليرحمك الرب إله اسرائيل».

«إنتظرنى قليلاً وسآتى معك لأصلى على إبنك».

كـان «المسـيح» فى شـوق جـارف إلى رؤية أمـه وأدرك «قـائد المـائة» أن «المسـيح» الذى وصل تواً من السفر لابد محتـاج إلى الراحة فليس من الأدب أن يجشمه مشقة سفر آخر فـقـال فى تواضـع «يارسـول الإله الحـقـيـقى الوحـيـد تكفـينى كلمـتك فـإننى أيضـاً رجل ذو سلطان وتحت يدى جنود أقول وأنا واقف فى مكانى أذهب يافلان إلى كذا فـيذهب وائتنى يافلان بكذا فيـأتينى به وأنت رسولٌ قد أعطاك ربك سلطانا على كل مرض كمـا أُخْبِرتُ فى «الرؤيا» وتحت يدك جنود يأتمرون بأمرك فتكفينى كلمـتك أيها السيد العظيم لستُ أهلاً لأن تدخل تحت سقف بيتى ».

كان «المسـيح» يسـتـمـع مـتـعـجبـا إلى كلام الرجل الرومـانى «قـائد المائة» أمـا الشـيوخ الذين قـدمـوا من «كفـر ناحوم» وأهل «النـاصـرة» الذين التـفـوا حـولهم فكانوا مـذهولين من إحـترام «القـائد الرومـانى» لنجـار بسـيط من قرية صـغيرة من قـرى «جليل الأمم» وأذهلهم أكثر حديث الرجل واطرائه له حتـى أن بعض أهل «النـاصـرة» استـشـاطوا غضبـا من هذا المجد الذى نزل على غير أهله وأكل الحسد قلوبهم فـأخذوا يتـهامسون فيمـا بينهم «انظروا كيف ركع القائد الرومانى لإبن الزانية».

«ماذا سيظن فى نفسه هذا المخبول بعد أن يستمع بأذنيه لهذا الثناء من قائد «المائة» الذى أصيب بالجنون من فرط حزنه على إبنه».

خاطب «المسيح» الجمع المحتشد عند بيت زوج أمه «أنظروا إلى هذا الرجل الأجنبى الغريب» «الحق أقول لكم إننى لم أجد فى بنى اسرائيل كلهم إيمانا بهذا القدر».

ثم التفت إلى الشيخ الرومانى «قائد المائة» وقال له «اذهب يارجل فكما آمنت يكون لك إن غلامك قد برأ الآن » فتهلل وجه الرجل وانحنى ليقبل يد «المسيح» ثم أسرع نحو العربة ذات الخيول التى كان قد أتى بها مع الشيوخ من «كفر ناحوم» وكان النفر القليل الذين بقوا مع «المسيح» من الرحلة من «كفر ناحوم» نفسها والقرى التى تجاورها حول بحيرة «طبرية» فهرولوا مع القائد الرومانى يريدون ركوب العربة التى كان الرجل قد جهزها «للمسيح» إن قبل المجئ معه. لقد شعروا بالفخر لأنهم تلاميذ ذلك «المعلم» الذى انحنى له القائد الرومانى وأوشك أن يسجد بين يديه وأرادوا أن يتأكدوا من كلام «معلمهم» هل سيتحقق أم لا وأن يتباهوا أمام هذا القائد وجمع الشيوخ بأنهم أصحاب هذا الرجل العظيم هكذا تركه النفر القليل الذين بقوا معه حتى «الناصرة» وأسرعوا يركبون العربة «الفخمة» التى يجرها زوجين من الخيول الرائعة ليحدثوا الركب المسرع إلى «كفر ناحوم» عما يعلموه عن «معلمهم» العظيم. نظر إليهم «المسيح» متأسفا ثم التفت الى الجمع المحتشد حوله وقد أوشك الغيظ أن يبلغ ببعضهم حد الجنون فقال لهم «الحق أقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع «ابراهيم وإسحق ويعقوب» فى مجد الجنة أما بنو إسرائيل أهل الكتاب الذين كان ينبغى عليهم أن ينتظروا الملكوت الذى جئت لأبشر به انتظار الأبناء لعودة أبيهم الذى طال غيابه فسوف يطردون بكفرهم بى وبالملكوت الذى أبشر بقرب مجيئه سوف يطردون من الرحمة إلى الظلمات فى الخارج حيث البكاء وصرير الأسنان.» فزاد غيظهم وتركهم ودخل مسرعاً إلى أمه التى كانت تنتظر عودته فى شوق.

اجتمع «وجهاء» الناصرة وتباحثوا فى أمر هذا النجار الغريب الذى يمكن أن يجلب لهم «المجد» أو «الكارثة» لأنه إن صح مايقال عن المعجزات التى صنعها فى شفاء المرضى وعن مولده فى «بيت لحم» القرية التى أنجبت «داود بن يسى» ملك اليهود فإنه قد يكون هو «المسيح» المنتظر الموعود أن يكون «ملكا لليهود» يرد إليهم الملك ويعيد إليهم المجد الذى أفلت من بين أيديهم مسرعا وفى هذه الحال فإن خيراً كثيراً لابد أن يصيب «الناصرة» وأهلها لأنها ستكون القرية التى نشأ فيها «الملك» ولابد أن «الملك» سوف ينظر بعين العطف والرعاية لأهل بلدته الذين نشأ فيهم أما إن كانت هذه المعجزات ليست إلا أوهاما اختلقها الشعب البائس الذى طحنته أنياب الفقر والجهل والمرض وطال انتظاره للخلاص الإلهى من معيشة العبيد ومذلة الخضوع للكافر الغريب فإن هذا «النجار المتكبر» سوف يكون كارثة على «الناصرة» وأهلها لأن «هيرودوس انتيبياس» رئيس «الجليل» الطامع فى أن يمنحه الرومان لقب أبيه الراحل «هيرودوس» الكبير« ملك وصديق حليف للشعب الرومانى العظيم» لن يسكت على هذه الدعوى وسوف يسرف فى تأديب «الناصرة» القرية التى احتضنت ذلك الذى يدعو نفسه ملكا لليهود وفى هذه الحال علينا أن نسرع بإعلان براءتنا منه بل يجب علينا أن نسرع بتسليمه «لهيرودوس» حتى نأمن غضبه علينا فما هو الجواب لهذا السؤال العسير هل هو حقا «المسيح» ملك اليهود المنتظر أم هو كذاب دعى سوف يوردنا الهلاك ؟.

وأندفعوا يتجادلون فى شأنه فذكر بعضهم أنه لابد أن يكون قد ولد فى «بيت لحم» لأن أباه «يوسف بن يعقوب النجار» من «بيت لحم» فعلاً قرية «داود» ملك اليهود وأنه تزوج أمه «مريم» بنت الكاهن «عمران» فى السنة التى صدر فيها أمر الأمبراطور «أغسطس» بالإكتتاب ولايعقل أن تكون كل هذه الأخبار عن معجزاته مجرد تَقَوْلاَت إختلقتها الاوهام إذاً هو الملك المنتظر لليهود «وانظروا إلى احترام القائد الرومانى له لقد أوشك أن يسجد بين يديه هذه علامة على أنه سوف يقهر الرومان ويستعيد الملك منهم لليهود .»

لكن الآخرون قالوا إنه ليس ابن «يوسف النجار» بل هو ابن زنا حملته أمه سفاحا ويقال أن أباه هو أحد الجنود الرومان وقد تزوجها «النجار» ليسترعارها لأنه كان يحبها حبا جما وقد فر بها إلى «مصر» ثم جاء بها إلى هنا هروبا من أهله الذين كانوا يرفضون زواجه من هذه الزانية الفاجرة ولو كان المدعو «عيسى» من «بيت لحم» حقا وابنا «لداود» الملك كما تزعمون لأفتخر بهذا ولأعلن نسبه المشرف على الملأ ولكنه يستر خبث أصله بأساطير لايقبلها العقل الرشيد واصفا نفسه بإبن الإنسان. «هذه كلها ليست إلاَّ أقوالا خداعة وحكايات مزيفة لايقبلها الإنسان الذكى» و«تأكدوا أنه سوف يكون كارثة على «الناصرة» وأهلها».

واختلف الفريقان ثم أستقر الجميع على أن يذهبوا إليه ويطلبوا منه أن يظهر لهم أية فى السماء تكون برهانا علي أنه مرسل من «الله» وحينئذ سوف يؤمنون به فنظر إليهم «المسيح» فى إزدراء ثم قال لهم(١٩٦) «إذا رأيتم السحاب يتكاثر طالعا من المغارب فإنكم تقولون سيكون مطر لأن السماء مليئة بالغمام وينزل المطر وإذا رأيتم السماء صافية محمرة قلتم سيكون الجو صحوا وإذا رأيتم الريح تهب من الجنوب قلتم سيكون حر فيأتى الحر».

«يا مراؤون تستطيعون أن تميزوا وجه السماء ووجه الأرض ولاتستطيعون أن تروا آيات «الله» ولا أن تميزوا علامات الأزمنة. أليس لهذا الزمن علامات تصدقنى. جيل شرير فاسق يطلب آية ولايؤمن فلن تعطى له اللهم إلا آية النبى يونس (يونان) فكما لم يؤمن أهل «نينوى» إلا بعد أن غاب عنهم «يونس» ورجع إليهم بآية من «الله» فكذلكم يكون إبن الانسان».

لقد تاب أهل «نينوى» بنداء «يونس» وهاهو ذا أعظم من «يونس» ههنا». وأشار إلى نفسه بوضع يديه على صدره «لكن قومه لايؤمنون به ولايريدون أن يتوبوا لذلك سيقوم أهل « نينوى» فى يوم الدين مع هذا الجيل الشرير ليشهدوا عليهم فيحكم عليهم بالطرد من رحمة «الله» .

«لقد جاءت ملكة «اليمن» لتستمتع إلى حكمة «سليمان» وها هو ذا أعظم من «سليمان» ههنا» «وأشار بكلتا يديه إلى صدره ولكن أهله لايريدون سماع الحكمة منه لذلك فإن ملكة «اليمن» ستقوم فى يوم الدين مع هذا الجيل الشرير لتشهد عليه فيحكم عليه بالجحيم. (١٩٧)

وأطبق عليهم الصمت ولم يعرفوا ماذا يقولون أو يفعلون رغم أن الغيظ كان يشعل قلوبهم نارا وخرج «المسيح» من البيت، وتركهم واقفين وهم ينظرون إليه بعيون شاخصة «من يظن نفسه ابن الزانية هذا الذى لانعرف له أباً».

وبدأ الناس يتوافدون على «المسيح» من القرى والمدن الأخرى بعد أن ذاعت انباء «معجزاته» فى شفاء الأمراض فكان بيت زوج أمه «يوسف النجار» يكاد لايخلو فى وقت من الأوقات من سائل يسأل عن «عيسى الناصرى» الذى يستطيع شفاء جميع الأمراض بصلواته ومس يده المباركة كما بدأ يتردد عليه بعض الباحثين عن الحقيقة الراغبين فى تلقى المعرفة جذبهم علمه الواسع الدقيق بالتوراة وكتب الأنبياء. كانت هذه الوفود التى تكاد لاتتوقف تسبب إزعاجا كبيرا لإخوته من أمه الذين يعيشون مع أبيهم يضايقهم أن ينال هذا «الغريب» كل هذا الاهتمام من الناس وأن يستحوذ على بيت أبيهم وقلبه لأن «يوسف النجار» كان يحب «عيسى» اكثر من أبنائه وبناته الذين خرجوا من صلبه وكان «عيسى» يدرك هذه الغيرة فى قلوب أخوته فيقضى يومه كله سائرا أو جالسا أو مضطجعا بين الحقول أو بالقرب من القبور أو فى الجبال بعيدا عن القرية والذين يأتون للسؤال عليه حاملين مرضاهم أو المسائل التى تستعصى على فهمهم يُضْطَرون للبحث عنه فى مثل هذه الأماكن الغريبة وأبتدأ يأتى إليه بعض الذين صحبوه فى رحلة العودة من «أورشاليم» إلى «الناصرة» بعد انتهاء أيام الفصح وفَضل بعضهم ملازمته.لتلقى العلم والحكمة من فمه فصاروا.يصحبونه فى كل مكان يمضى إليه وعُرِفُوا بإسم «التلاميذ» كما عُرِفَ هو بإسم «المعلم» وظل أهل «الناصرة» يتعجبون مستنكرين من هؤلاء الحمقى الذين يكلفون أنفسهم

مشقة السفر للمجئ إلى هذا «المخبول» كما كان يسميه أخوته، «إنه ليس أكثر من صبى نجار يعمل عند زوج أمه»، «مخبول مجهول النسب تضاربت الأقوال فى شأن ابيه» ويتساءلون «هل يمكن لإله إسرائيل القدوس أن يعطى المُلك والحكمة لمثل هذا الفقير ابن الزنا الذى بلغ به الجنون حد أن يعد نفسه أفضل من «سليمان بن داود» الملك العظيم الذى كانت تأتمر بأمره الشياطين والطيور فضلا عن البشر ».

وأصبحت «الناصرة» كلها حائرة فى أمر هذا «المعلم» الغريب «ماذا يجد الناس فيه» وأخذوا يكثرون من سؤال الكهنة وشيوخ الفريسيين عنه فتضاربت أقوالهم فيه فبعضهم يقول أنه طبيب بارع تلقى علم الطب من «الجن» وبعضهم يقول أنه ساحر يستطيع ن يسيطر على عقول الناس بسحره فيُدْخِل عليهم الأوهام التى يريد إدخالها فى أذهانهم وبعضهم يقول أنه رجل متصل بالشياطين الذين يمدونه بكل هذه القدرات الخارقة ولم يظفر أهل «الناصرة» برأى يستقرون عليه فى شأن ابن قريتهم الذى يأتى إليه الناس من كل مكان دون سبب مفهوم !!.

كان شباب «الناصرة» ورجالها يراقبون «المعلم» وهو يسير مع «تلاميذه» ومريديه فيبعثون «بالعيون» التى تأتيهم بأخباره وتنقل إليهم أحاديثه فلما علموا بعزمه على حضور الصلاة فى المجمع يوم السبت تدافع الناس مبكرين للذهاب إلى هناك وقد حمل بعضهم المرضى ليروا هل يستطيع هذا المعلم شفاءهم أم أن الأمر كله أوهام تنتشر فى شعب أدمن الخرافات.

شق «المسيح» طريقه نحو منبر الوعظ وتفرق تلاميذه بين صفوف الناس الذين احتشدوا ليستطلعوا أمر هذا «المعلم» المحير. جلس «المسيح» هادئا صامتا عليه سكينة الوقار مطرقا إلى الأرض. شخصت أعينهم إليه وأمعنوا النظر فى وجهه المشرق وشعره الناعم الأسود الذى يتدلى متموجا حتى كتفيه. خيل إليهم أن قطرات الماء تنساب من شعره ووجهه كأن مطراً ينزل عليه وحده فلما أطبق الصمت على الجمع وتطلعت إليه الأعين

وتهيأت الأذهان للإستماع طلب من خادم المجمع أن يأتيه بنسخه من سفر «إشعياء» فناوله الخادم الكتاب ففتحه فى هدوء وثقة كأنه يعلم مسبقا الصفحة ثم قرأ فى صوت وقور يفيض بالحنان وينفذ الى القلوب رغما عنها قال : «روح الله معى إذ مسحنى من أجل أن أبشر المساكين، أرسلنى لأشفى الذين فى قلوبهم مرض، لأنادى على المحبوسين فى الظلمات فينطلقوا، وأهب العمى نعمة البصر وأحرر المقهورين وأدعوا إلى سنة «الله» المقبولة.(١٩٨)

ثم طوى الكتاب وسلمه إلى الخادم، صمت للحظات يحدق فى الوجوه التى تتطلع إليه ثم قال«اليوم تحقق المكتوب فى سفر «إشعيا» الذى ألقيته على مسامعكم فأنا الذى تكلم عنه «أشعياء» يابنى إسرائيل إنى رسول «الله» إليكم **قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فأعبدوه هذا صراط مستقيم.**(١٩٩)

ثم جلس صامتا وهو يحدق البصر فى الوجوه والقلوب القاسية التى ترفض التصديق كانوا يقولون في أنفسهم ويتهامسون فيما بينهم أليس هذا ابن النجار «يوسف» أليست أمه هي التى تدعى «مريم» وأخوته يعقوب ، ويوسى وسمعان ، ويهوذا ، فمن أين له كل هذا الذى يدعيه ؟!.

لقد عجز عن أن يأتى بآية واحدة، لم يستطع أن يشفى مريضاً واحداً فى قريتنا ولو كان ما يقولون عنه صحيحا لأستطاع أن يفعله هنا فى قريته، لكنه لن يستطيع، إننا نعرف من هو فلن يستطيع خداعنا بسحره وألاعيبه كما يفعل مع «الغرباء» الذين لا يعرفونه. وأخذ الهمس يتزايد ولكن صوت «المسيح» إنطلق ليوقفه قال «لعلكم تقولون في أنفسكم هذا المثل أيها الطبيب إشف نفسك كم سمعنا عما جرى فى «أورشاليم » و «كفرناحوم» من المعجزات فأفعل هنا فى وطنك أيضا إن كنت صادقا (٢٠٠) .

«الحق أقول لكم إنه لم يوجد نبى قط مقبولاً فى وطنه، فى زمن « إلياس» (إيليا) كان

هناك أرامل كثيرات فى إسرائيل حين أغلقت السماء أبوابها ثلاث سنوات وستة شهور ووقع جوع شديد فى الأرض كلها ولكن لم تكن هناك إلا أرملة واحدة تستحق أن يرسل إليها «الله» نبيه «إلياس» أرملة واحدة كانت فى بيت صيدا ».

«وفى زمن «أَلْيَسع» (اليشع) النبى تلميذ «إلياس» كان هناك برص كثيرون ولكن واحداً فقط هو «نعمان السريانى» كان يستحق أن يُطَهِّره «الله» بيد نبيه(٢٠١) .»

الحق أقول لكم إنه بكفركم وخطاياكم لم تروا آيات ولم تنالوا شفاء» ولم يستطع الجمع المحتشد أن يكظم غيظه فأندفعوا نحوه يسبونه بأفظع السباب ثم هجموا عليه فأمسكوا به وأخذوا يجرونه ليخرجوه من مجمعهم «الطاهر» وهو مستسلم فى أيديهم لايبدى أية مقاومة أو يظهر اعتراضا ولو باللسان حتى دفعوه إلى حافة مرتفع عال وأرادوا إسقاطه ليهلكوه فبوغتوا «بشئ» يدفعهم بعيدا عنه حتى أوشكواهم أن يسقطوا فأصابهم الفزع وأخذوا يفرون منه مرعوبين. وقف ينظر إليهم وقد أعطوه ظهورهم وأسرعوا يهربون حتى غابوا عن بصره. ثم راح ينزل من الجبل مطرقاً وهو ينظر إلى الصخور التى تشتكى إلى ربهما من قسوة قلوبهم أما التلاميذ فقد وقفوا من بعيد يرقبون مايحدث هالهم تحول المعلم الباهر عظيم السلطان إلى إنسان مسكين يستسلم لأيدي أعدائه ثم حيرهم الفزع المفاجئ الذي أصاب القوم وجعلهم يتركون «المعلم» ويهرولون كأن خطراً أحدق بهم بغتة. لم يفهموا شيئا مما وقع أمام أعينهم وعاد «المسيح» كما كان وحيدا غريبا حزينا يسأل «الله» الهداية والقوة على مهمته العسيرة.

(١٦)

«الصيد الثمين»

«وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون»

«الحشر ٢١»

خرج «المسيح» من «الناصرة» قريته التى رفضته وقد عزم على أن يتجول بين قرى «جليل الأمم» مبشرا بالملكوت ناشرا النور الذى يحمله داعيا بنى اسرائيل إلى التوبة.

كان يشبه نفسه بالصياد الذى يخرج فى الصباح إلى البحر راجيا من «الله» أن يمن عليه ببعض الرزق ولكن إذا كان كل صياد يطمع فى أن يستطيع أن يخرج من البحر أكبر قدر من السمك فإن «المسيح» لم يكن يطمع إلا فى أن يمكنه «الله» من إخراج قليل من قومه من الظلمات التى غرقوا فيها . يأمل فقط فى أن ينقذ من الهلاك بعض الأفراد يحملهم رسالة «الله» لينشروها فى الناس من بعده إذ كان يدرك أن بعثته الحاضرة «قصيرة» الأمد ليست أكثر من إعلان للأمم وتمهيد لظهور «الملكوت». إن بقاءه على الأرض فى هذه المرة ليس أكثر من لحظة قصيرة ولذلك لم يكن يطمع إلاّ فى قليل من السمك الصغير يتمكن من إخراجه من بحر الظلمات التى غرقت فيها الأمة لعل تلك السمكات الصغيرة تستطيع بعد نجاتها أن تستبقى «النور» فى الأرض حتى يأتى «النور الحق» الذى أنار السماوات والأرض.

لقد أدرك بعد أن عاين رفض رجال «الهيكل» له وبعد أن عانى من عدم ثبات الذين زعموا أنهم يريدون أن يصبحوا تلاميذا له أدرك أن عليه أن يخرج ليختار أتباعه بعد أن عجز أتباعه عن اختياره. عليه أن يخرج لينتقي من هذا الجم الغفير من السمك الميت الذى

تفوح منه رائحة العفن بعض السمكات الصغيرة التي لم تزل تحتفظ فى جسدها بأثر من «سر الحياة». عليه أن يتفحص بكل تدقيق هذا الكوم الهائل من الفساد مكابدا فى ذلك كل الالام من أجل أن ينقذ كل مايمكنه انقاده.

إن كل الصيادين يخرجون إلى البحر وهم يطمعون فى رزق وفير إلا هذا الصياد الغريب فإنه لم يكن يطمع إلا فى صيد قليل كان يعده لكثرة الفساد أثمن صيد ويدعو «الله» ألا يرجع إليه خالي اليدين.

شق طريقه إلى «بحر الجليل» (بحيرة طبرية) فى صباح يوم مشرق يمشى وحيدا علي شاطئ البحر مقترباً من جماعة الصيادين كان الرجال يستلقون على ظهورهم فى استرخاء وقد بدا عليهم التعب بعد أن غسلوا الشباك ونشروها لتجف فى حرارة الشمس التى كانت تسطع فى هذا اليوم وقد أفصح نورها عن الكآبة التى تعلو الوجوه تعبر عن الحزن وخيبة الأمل اللذان يملأن القلوب وكان «اندراوس» وشقيقه «سمعان» يجلسان فوق سفينة الصيد التى يملكانها ويجريان بعض الإصلاحات البسيطة وقد نمت طريقتهما فى العمل عن الضجر أما «يعقوب» و«يحيى» (يوحنا) إبنا زبدى فكانا يجلسان على السفينة الصغيرة الأخرى مع أبيهما والثلاثة ينظرون فى ملل إلى سطح الماء الذى يهتز دون انقطاع تحت الشمس وهى تواصل صعودها دون كلل. الحر وإلتماع سطح الماء المهتز بأشعة الشمس كانا يزيدان من شعور الرجال بالتعب .

فوجئ «سمعان بن يونا» وشقيقه «اندراوس» «بالمعلم» يقف على الشاطئ قبالتهما ينظر إليهما وقد أفصحت نظرته عن أنه ظل يراقبهما منذ فترة وهما لايدريان فتوقفا عن العمل وشعرا بالخجل وأسرعا ينزلان من السفينة الصغيرة على استحياء ليرحبا «بالمعلم» الذى جاء لزيارتهما فجأة ودون أن يدعوه أحد. لقد كانا ضمن الذين صحبوه فى رحلته من «أورشاليم» إلي «الناصرة» لكنهما تركاه وأنشغلا بعملهما فى صيد السمك لتدبير

معاشهما وكانا يملكان أيضاً السفينة الأخرى التي يجلس عليها «زبدى» وولداه «يعقوب» و «يحيى» (يوحنا) الذى أسماه على إسم النبى «يحيى بن زكريا» لأن «زبدى» كان من الذين يذهبون لسماع مواعظ «يحيى بن زكريا» ويعتقدون بصدق نبوته.

قال «المعلم»: «لماذا تجلسون هكذا فى حزن ؟ لماذا لاتصطادون ؟ قال «سمعان» : يامعلم قد تعبنا الليل كله ولم نظفر بشئ قال «المعلم» : إذن هيا أدخلوا الماء وألقوا شباككم قال : «سمعان» : «يامعلم لن نظفر الآن بشئ .»

لكن «المعلم» نظر إليه يعاتبه علي تكذيبه وعصيانه ورجمه بالغيب فتراجع «سمعان» قائلا «على كلمتك ندخل الماء ونلقى شباكنا»(٢٠٢)

أخذ «سمعان» وأخوه «اندراوس» الشباك وصعدا المركب ومعهما «المسيح» ثم دخلوا إلى الماء وألقيا بالشباك فأندفعت الأسماك تسعى للدخول فى الشباك كأنها تنجذب للصيد بدلاً من أن تفر والشقيقان يُدْهَشَان لايكادان يصدقان ماترىِ أعينهما ثم طفقا يحاولان جذب الشبكة بعد أن شعرا أنها قد امتلأت ولكنهما عجزا عن جذبها لثقلها من كثرة مادخل فيها من السمك فأخذ كلا منهما ينادى على «يعقوب» و «يحيى» ليأتيا بالسفينة الأخرى مع الرجال ليساعدوهما فى رفع الشبكة الممتلئة بالصيد إلي سطح المركب و«المسيح» ينظر إليهما مراقبا . جاء الرجال على السفينة الأخرى ثم جذبوا الصيد الوفير وعاد الجمع راكبا السفينتين الى الشاطئ حيث دب النشاط فى الرجال الذين كانوا يستلقون على الأرض فى تعب فهبوا يتسلمون الصيد ويقسمونه ويعدونه للبيع وهم فى تعجب من كثرة السمك «كيف أتى كل هذا الرزق اليوم وقد وقفوا الأمس كله يحاولون دون فائدة» وعرف الجميع أن «عيسى الناصرى» كان على سفينة «سمعان» و «اندراوس» وأنه ببركته قد تم الحصول على كل هذا الرزق.

بكى «سمعان بن يونا» وقال «للمعلم»: «يانبى الله» أخرج من سفينتى فإننى رجل خاطئ لا أستحق أن تقوم على سفينتى (٢٠٢)

فتهلل وجه «المسيح» وقال له «لاتخف لأن «الله» يحب أن يغفر لك وأن يتوب عليك.

»ودعا «سمعانُ» «المعلمَ» لينزل عنده ضيفا فقبل وذهب معه الى بيته ومعهما «يعقوب» و «يحيى» ابنا «زبدى» اللذان أحبا أن يلازما «المعلم» بالإضافة الي «اندراوس» شقيق «سمعان».

ذهب هذا الجمع الصغير الى بيت «سمعان»(٢٠٣) بينما كان بقية الرجال على الشاطئ منهمكين في إعداد الصيد الثمين الذى حصلوا عليه وقد ملاءهم السرور.

أخبرت امرأة «سمعان» زوجها أن أمها التى كانت تعيش معهما قد سقطت مريضة تلازمها «الحمى» منذ خرج أمس للصيد فتضرع «سمعان» إلى «المعلم» أن يصلى من أجلها فذهب «المسيح» إليها ووضع يده على رأسها ودعا لها فى سره فغادرتها «الحمى» على الفور وقامت لتخدم الضيوف وتشارك بحماس ونشاط في إعداد الطعام «للمعلم» «وتلاميذه» وسرعان ما ذاع الخبر فى القرية كلها « «عيسى الناصرى» فى بيت «سمعان بن يونا» قد شفى «حماته» من «الحمى» وببركته حصل الصيادون على رزق وفير». فاندفع أهل القرية الى بيت «سمعان» يريدون رؤية النبى القادم من «الناصرة» وانتشرت فى القرى المجاورة أنباء شفائه للمرضى الميئوس من شفائهم فحمل الناس مرضاهم إليه يطلبون أن يصلى من أجلهم وأن يمسهم بيده المباركة.

حملوا إليه محمومين ومشلولين وبرصاً ومجزومين ومرضى من كل نوع فصلى «المسيح» من أجلهم ونالوا جميعا شفاءهم........

تزاحم الناس حوله حتى ضاق بهم بيت «سمعان» فخرج الى العراء أمام البيت وجلس يستقبل المرضى ويلقى بإرشاداته حتى مضى أكثر الليل وأخذ التعب من الجميع كل مأخذ فصرفهم «المسيح» ودخل ليرتاح فى الغرفة التى أعدها «سمعان» لضيوفه. كان الجميع متعبين فسرعان ما استغرقوا فى النوم أما «المسيح» فلم يضطجع إلا قليلا من الوقت وعندما أذِنَ الصبح بالمجئ تسلل فى السحر وخرج إلى البحيرة حيث اغتسل

بمفرده في نور الفجر وقام يصلى لربه على الشاطئ ثم جلس يسبح وهو يعاين جمال «الله» الذى يتبدى فى نور الشمس التى تواصل سيرها.

استيقظ «سمعان» ولم يجد «المعلم» فى غرفته مع التلاميذ الذين كانوا مايزالون يغطون فى نومهم وقد بدأ الناس يتوافدون على البيت طلبا لرؤية «النبى» القادم من «الناصرة» ثم خرج الجمع الذى احتشد عند البيت الى البحر فوجدوا «المسيح» يجلس هادئا على الشاطئ بجوار السفينتين فأسرعوا نحوه يتزاحمون يطلبون الإستماع الى كلمته فصعد «المعلم» الى سفينته «سمعان» و«اندراوس» وطلب منهما أن يدفعاها قليلا فى داخل الماء وأمر الناس أن يجلسوا فى هدوء على الشاطئ ليستمعوا إلى كلمة «الله» فاصطف الناس جالسين يتطلعون بأعين شاخصة الى «كلمة الله» الآتية من الماء.

قال.(٢٠٤) «هاهو الزارع قد خرج من بيته إلى الحقل وفى يده البذور وبينما هو فى الطريق سقطت بعض البذور فداستها الأقدام وجاءت الطيور فالتهمتها.

«وسقطت بعض البذور الأخرى على الأحجار بين الصخور فنبتت فى التراب القليل الذى يغطى الأحجار ولكن لما كانت الصخور قاسية فإن النبات لم يستطع أن يمد فيها جذوره ولذلك عندما سطعت الشمس لم يستطع الزرع أن يقاوم حرارتها فأحترق لأنه لم يكن له أصل قوى يضرب فى عمق الأرض».

«وسقطت بذور أخرى بين الأشواك فلما جاء الماء نبتت البذور ولكن نبتت أيضا الأشواك ولما كانت الأشواك كثيرة فقد نمت وتكاثرت حتى استطاعت أن تخنق النبات فمات»

«ثم وضع الزارع مابقى معه من البذور فى التربة الجيدة وسقاها بيده فأنبتت نباتا حسنا وأعطت ثمارا جيدة فبعضها أثمر ثلاثين وبعضها أثمر ستين وبعضها أثمر مائة(٢٠٥)

ومن له أذنان للسمع فليسمع.

«بماذا أشبه لكم الملكوت» ؟».

«أشبهه بإنسان رب بيت خرج من بيته الى حقله فزرع فيه زرعا جيدا ثم عاد إلى بيته وبينما كان الناس نياما جاء عدوه فوضع زُوَاناً فى وسط الحقل فلما نما الزرع وشرع يعطى ثمارا طلع الزوان أيضا وأشتبك مع الزرع فجاء عبيد الإنسان صاحب الحقل ورأوا الزوان يختلط بالزرع فذهبوا إليه وقالوا له ياسيد ألم تزرع زرعا جيدا ووضعت بذورا طيبة فمن أين جاء هذا الشوك فى حقلك ؟».

«قال لهم إنه من عدوي بينما كان الناس غافلين.»

«قالوا «هل نذهب الآن فنستأصل الشوك ونطهر الحقل منه »؟!

«قال «لاتفعلوا هذا لأنكم إن اردتم استئصال الشوك اقتلعتم الزرع الجيد أيضا معه. فدعوا الحنطة والزوان ينموان فى الحقل حتى وقت الحصاد وحينئذ يفترقان فأقول للحصادين أذهبوا فأحصدوا فيحصدون الزوان أولاً ويحزمونه حزما ثم يحرقونه فى النار ثم يأخذون الحنطة ويضمونها الى خزائنى ».

ومن له أذنان للسمع فليستمع.

«بماذا أشبه لكم الملكوت »؟

«إنه يشبه بذرة صغيرة لاتكاد تُرى. وضعها الإنسان فى حقله فإذا نمت صارت شجرة عظيمة تتشابك أغصانها حتى أن طيور السماء تأتى إليها وتأوى بين أغصانها فأنظروا كم يخرج من بذرة واحدة لاتكاد ترى ؟»

«بماذا أشبه لكم الملكوت» ؟.

«إنه يشبه إنسانا صاحب بستان لديه تين جيد أراد أنْ يمنح الناس بعضا من ثماره الجيدة فأرسل عبيده يحملون التين الجيد الى السوق ولكن الناس لم تكن تهتم بالثمار الجيدة بل تنظر الى الورق الذى لُفَّتْ فيه الثمار ولما كان عبيد الإنسان صاحب البستان لايهتمون بجمال الورق الذى يَلِفُّون به ثمارهم الطيبة بل يهتمون فقط بجودة الثمار فإنهم

لم يستطيعوا أن يبيعوا تينهم الجيد ورأى ذلك أحد التجار الأشرار فقال إننى أستطيع أن أصبح غنيا جدا فأمر جنوده وأبناءه فجمعوا الثمار العفنة الملقاه على الأرض وأخذها فلّفها فى ورق مزوق جميل المنظر وذهب بها الى السوق ليبيعها للناس الذين إشتد إعجابهم بها حتى أنهم اشتروها بثمن كبير فكانوا يأخذون الثمرة مقابل وزنها ذهبا فصار التاجر الشرير ثريا جدا أما الناس الذين أكلوا من الثمار العفنة التى لفت فى ورق جميل فقد هلكوا أو مرضوا مرضا خطيرا جدا.»

ثم قال «ها هو رجل لديه ينبوع ماء يأتى إليه الجيران فيغتسلون وينظفون ثيابهم أما هو فيبقى قذرا ويترك ثيابه حتى تنتن».

ثم سكت وتملكت الحيرة الجمع المحتشد الذى كان يتطلع الى «المسيح» الجالس على السفينة فى الماء. ماهذا الكلام الغريب وماذا يقصد بهذه الامثال ؟ ثم أعلن «المسيح» عن عزمه الرحيل إذ يريد أن يبشر بالملكوت فى القرى الأخرى وتدافعت الجموع إليه تطلب منه أن يمكث معهم لأنهم أحسوا بركته على قريتهم ولكنه أصر على الرحيل لأن عنده رسالة من «الله» يريد إبلاغها للناس فأندفع الكثيرون يطلبون أن يصحبوه قائلين «نترك بيوتنا ونتبعك أينما تمضى فقال لهم «بل أبقوا فى بيوتكم وأتركوا الخطيئة فإنكم بذلك تتبعونى أينما أسير ».

اندفع إليه واحد من الكتبة الفريسيين استحوذت عليه قدرة «المسيح» على الكلام البليغ وكان قد استمع اليه من قبل فأذهلته قدرة «المسيح» على الإستشهاد بنصوص التوراة وكتب الأنبياء فقال له «يامعلم» أتبعك أينما تمضى(٢٠٦) لكن «المسيح» كان يعرف بعين «الخبير» ان هذه الحماسة الطارئة لاتثبت وأنها سرعان ماتزول لأنها تقوم على أساس باطل فقال للكاتب محذرا «للثعالب أو جرة ولطيور السماء أوكار أما ابن الانسان فليس له مكان يسند إليه رأسه» فانطفأت حماسة الكاتب وطأطأ رأسه متفكرا أما «المسيح» فقال

«لسمعان بن يونا» وأخيه «أندراوس» «إتبعانى وأنا أجعلكما تصيدان الناس لرحمة «الله» بدلاً من أن تصطادا السمك»

وقال «ليعقوب بن زبدى وأخيه «يحيى» (يوحنا) إتبعانى فصعدا إليه على السفينة وتركا أباهما وقال لواحد «هيا تعالى معى» فقال له يا «معلم» «أتبعك أينما تمضي ولكن ائذن لى أن اذهب لأودع الذين فى بيتى »(٢٠٧)

فقال له «المسيح» «لايوجد أحد يضع يده على المحراث ثم ينظر خلفه لئلا ينقلب به المحراث فيهلك. لا أحد يلتفت وراءه يصلح لأن يكون إبناً لملكوت «الله».

«من كان لايستطيع أن يكره أباه وأمه وأمرأته وأبنائه وأخوته وأصدقائه بل ويكره حتى نفسه من أجل «الله» فلا ينبغى أن يتبعنى إذ لايستطيع أن يكون لى تلميذاً.

فأخذ الجمع المحتشد ينفض من حوله قائلين في أنفسهم ومتهامسين لبعضهم البعض «أى معلم هذا الذى يدعونا لأن نكره أهلنا وأقاربنا الذين أمرنا «الله» وأوصانا أنبياؤه أن نحبهم ونحسن إليهم».

«يبدو أن «الكهنة» كانوا على حق حين قالوا إن عليه شيطان يأمره بمخالفة شريعة «الله» التى أمرنا بها «موسى».

«ساحر قدير يجدف على الله».

وقال آخر «يامعلم إسمح لى أن أذهب أولاً لأدفن أبى فقد جاءنى الآن خبره ».

فقال له «لماذا لاتدع الموتى يدفنون موتاهم وتأتى أنت الآن معي لتكون مثلى مبشرا بملكوت «الله» الذى وهب كل حى حياته» فأصاب الذهول الشاب ولم يعرف كيف يتصرف وشخصت الأعين الحائرة إلى «المسيح» وهو ينتقى مختاريه ويركبهم معه فى السفينة الصغيرة التي أخذت تتحرك مبتعدة عن القرية حتى غابت عن أنظار الذين وقفوا على الشاطئ ينظرون.

كان هولاء الذين ركبوا معه فى سفينة «سمعان بن يونا» وأخيه «أندراوس» هم أول تلاميذه الذى ساروا معه أينما سار يضيف إليهم كل من يرى فيه أملا للنجاة كما كان يتخلف عنه كل من يجد نفسه غير قادر على مواصلة الطريق معه. منذ ذلك الحين سمى «سمعان بن يونا» باسم «بطرس»(٢٠٨) لأن هناك تلميذ آخر كان يسمى «سمعان القانونى» فأراد «المسيح أن يفرق بينهما فى التسمية حتى لايقع الخلط بينهما كما أن اعطاء «سمعان» إسما جديدا كان يحمل معه معنى أنه قد صار شخصا آخرا إنسانا جديدا غير الذى كان قبل صحبة «المسيح».

لقد أختار « المسيح» أن يعلم من داخل الماء وهو فوق السفينة الصغيرة لعله يستطيع بذلك أن يزيح غطاء النسيان السميك الذى أحاط بالقلوب الغافلة وقد طال عليها الأمد فى الظلمات لعلها تتذكر كلام «الله» الذى نزل إليها وهى على سفينة «نوح» عندما كان هؤلاء الذين خاطبهم «المسيح» «عيسى بن مريم» الآن من فوق سفينة «سمعان» كانوا مع غيرهم من البشر محمولين فى ظهور «نوح» والذين آمنوا به وركبوا معه السفينة التى تم بها نجاة البشرية من الطوفان الذى أهلك به «الله» كل من كان على الأرض لكن القلوب التى طال عليها الأمد لم تتذكر وإن نجحت أمثال «المسيح» فى دفعها الى التفكر وهو مقدمة التذكر. بدا للنفر القليل الذين مستهم رحمة «الله» أن أمثال «المسيح» تشير إلى اشياء غامضة موغلة فى القدم وتحثهم على التساؤل فقالوا «للمسيح» وقد انفردوا به «لماذا كلمت الناس بالأمثال ولم تكلمهم صراحة لقد حيرتهم وأربكتهم » ؟.

قال «لأن هؤلاء لايستطيعون أن يفهموا حتى وإن كلمتهم بأوضح عبارة لأن لهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها ولهم قلوب لايفقهون بها. لم يُعْطُوا أن يعرفوا الملكوت ولذلك كلمتهم بالأمثال لعلهم يتفكرون فيها أما أنتم «فطوبى لكم» لأن «الله» وهبكم أن تعرفوا الملكوت وأتاح لكم أن تشهدوا ما أشتهى الكثير من الصالحين أن يشهدوه ولم يظفرو. (٢٠٩)

وأحس «التلاميذ» بالفخر ودبت فيهم الحماسة لكنهم أيضا لم يفهموا هذه الأمثال ولم يستطيعوا أن يفكوا طلاسم رموزها. لقد نجحت فى إثارة تفكيرهم وهذا هو ماقصده «المسيح» فقالوا وقد أشتدت رغبتهم فى التعلم «يامعلم فسر لنا مثل الزارع».

فقال لهم «الزارع هو «روح الله» «الملكوت» الذى صدر عنه كل شئ والبيت هو جنة «الله» التى يمكن فيها شهوده والحقل هو العالم هذه الدنيا التى جعلها «الله» حقلا للإبتلاء والبذور التى سقطت على الأرض هم الذين لايقبلون كلمة «الله» فسرعان مايتركونه رافضين رسالته التى تقدم إليهم رحمته فيسرع الشيطان إليهم بجنوده فيلتهمهم وينجح فى محو مازرعه «الله» فى قلوبهم».

«أما التى سقطت على الأحجار فإنهم الذين يتعجلون «الإيمان» بكلمة «الله» ويفرحون بها لكن دون أن تتعمق كلمة «الله» فى قلوبهم فيبقى «الايمان» على السطح دون أن يستطيع أن يضرب بجذوره فى قلوبهم المتحجرة القاسية ولذلك فإنه عندما تأتى الفتن التى يمتحن «الله» بها «الإيمان» فإنه سرعان مايحترق فى نارها فلايبقى من كلمة «الله» المزروعة فيهم «شئ» فيهلكون. هولاء هم الذين يزلون عند حدوث الضيق والاضطهاد الذى لابد أن يأتى لإمتحان الإيمان ».

«وأما التى سقطت بين الأشواك فهولاء الذين يؤمنون بكلمة «الله» ولكن حب الدنيا وكثرة مشاغلهم فيها تخنق كلمة «الله» المزروعة فيهم فتقتل الايمان فلا تأتى كلمة «الله» فيهم بثمر.

أما البذور التى وضعها الزارع بيده فى التربة الجيدة فهؤلاء هم الذين يقبلون كلمة «الله» ويعملون بها فيتعمق الإيمان في قلوبهم ويضرب بجذوره فى أعماقهم فيثمر فيهم على قدره فبعضهم يأتى بثلاثين ثمرة وآخرون بستين وآخرن بمائة.

كانت كلماته كنور الشمس يزيل الظلام عن الأشياء ويوضح المبهمات فاندفعوا مسرورين يقولون «فسر لنا يامعلم مثل الزوان فى حقل الحنطة ».

قـال: «الحنطة» الزرع الطيب هى أبناء الملكوت الذين أنبتـهم «الله» والعدو هو أبليس الذي يحارب «الله» فى الدنيا التى هى الحقل والزوان هـو الناس الذين استطاع «إبليس» أن يستحوذ على قلوبهم فصاروا بمثابة أبنائه وجنوده، هم زرعه فى الدنيا كما أن المؤمنين هم زرع «الله» وقد أختلط أبناء «الملكوت» المؤمنون بأبناء الشيطان فى الدنيا كلها كما اختلطت الحنطة بالزوان بحيث يستحيل التفريق بينهما وهما ينموان معا فى الحقل والعبيد هم أنبياء «الله» الذين يتعجبون أن يكون فى حقل «الله» شر و يطلبون من «الله» أن يستأصلوا الشر من الدنيا والحصاد هو القيامة التى يتم فيها التمييز والفصل بين الأخيار والأشرار كما يتم الفرز بين الحنطة والشوك عند جمع المحصول والحاصدون هم الملائكة الذين سيحصدون الأشرار فى جماعات كما يجمع القش والشوك والحشائش السامة من الحقل في حزم ثم يلقون بهم فى الجحيم كما تلقى الحزم فى النار ثم يجمعون الأخيار إلى خزائن «رحمة الله» *كما تجمع الحنطة فى المخازن».*

«ألاترون أن كثيرا من الآباء الكافرين يلدون أبناء مؤمنين، من أجل ذلك أمهل «الله» الدنيا .

ومن له اذنان للسمع فليسمع.

ـ قالوا «فسر لنا مثل بائعوا التين الجيد».

قال «صاحب التين الجيد هو «الله» وعبيده الذين أرسلهم به إلى السوق هم أنبياؤه الذين أرسلهم الى الدنيا والتين الجيد هو التعليم الجيد الذى يعطيه الأنبياء الى الناس لكن الناس لاتهتم بجودة التعليم بل تنظر إلي الألفاظ الجميلة والعبارات المنمقة لذلك يقوم الشيطان الذى هو التاجر الشرير بتغليف تعاليمه الباطله وأكاذيبه فى ألفاظ جميلة وعبارات منمقة ويوجهها الى أوليائه وجنوده من البشر الذين يبيعونها للناس بأغلى ثمن ألا وهو حياتهم لكن الناس تُسَر بالعبارات المنمقة وتفرح بالألفاظ الجميلة فتقبل الأكاذيب وتعمل بالتعاليم الباطلة فتخسر حياتها الأبدية أو تمرض مرضا شديدا حتى تشرف على

الهلاك الأبدى ويتسلط الشيطان عدو الإنسان عليه بفضل هذه الأكاذيب والتعاليم الباطلة التى غُلّفت بأوراق جميلة ».

قالوا «من هو صاحب الماء الذى يترك ثيابه حتى تنتن ولايغتسل ؟»

قال «هو هذا الشعب بكهنته وكتبته لأن «الله» أعطانا شريعته ينبوع الماء الذى أتاح لنا أن نتطهر به ولكن «الكهنة والكتبة» يأمرون الناس بالبروينسون أنفسهم يحضون الناس على العمل بشريعة «الله» ولايعملون هم بها فيأتى الناس إليهم ويستمعون إلى تعاليم الله ويعملون بها فيغتسلون من أوساخهم ويستعدون للعودة إلى جنة «الله» أما المعلمون فيبقون فى أدرانهم لابثين فى الخطايا دون توبة ».

ما أتعس الانسان الذى يَعْلَم ويُعَلّم غيره مايجب فعله أما هو فلا يعمل بما يقول. إن ذلك الإنسان يكتب بلسانه العذاب الذى سيناله فى جهنم ».

أيكون شيئا عجيبا لايصدق أن يوجد كائن صغير دقيق الجسم أصغر من النملة ولكن لسانه أكبر من منخار الفيل» ؟!

نظروا إليه متعجبين شاخصة أعينهم فقال «الحق أقول لكم إن من يدعو غيره إلى التوبة ولا يتوب هو نفسه عن خطاياه لأشد غرابة من ذلك المسخ المشوه ».

«ذهب رجلان إلى سوق المدينة فأما أحدهما فكان يحمل تفاحا طيبا وأراد أن يهب الناس مما معه دون مقابل لكن الناس أساءوا الظن به وقالوا لابد أنه يحمل ثمارا عفنة لذلك يريد أن يعطيها بغير ثمن أما الآخر فلم يكن معه إلا قشر التفاح لكنه قال للناس أنه لن يبيع مامعه إلا بزنته ذهبا فقال الناس لأنفسهم لابد أن معه شيئا ثمينا فاندفعوا يشترون منه قشر التفاح بزنته من الذهب ويحتقرون الرجل الذى أراد أن يهبهم التفاح الحقيقى دون مقابل و يستهزئون به ويطردونه من مدينتهم. أما الذى باعهم قشر التفاح فقد صار ملكا عليهم لأنه أصبح أغناهم وصاروا جميعا مفتقرين إليه إذ أعطوه كل ماكانوا

يملكون مقابل قشر تفاح ليس فيه أى فائدة لهم فألقوا به على الأرض .لقد خسروا كل شئ مقابل لاشئ، ثم سكت.

لكنهم قالوا «يامعلم فسر لنا هذا المثل» ؟.

إن المثل واضح الدلالة لايحتاج الى تفسير لكن القلوب التى أثقلها الإخلاد إلى الأرض كانت تجد مشقة كبيرة فى الإرتفاع الى هذه الكلمات.

فقال «المسيح» فى صبر الأب الرحيم بأطفاله الجهلاء «الرجل الذى يريد أن يهب التفاح هو المعلم الحقيقى الذى أرسله «الله» إلى الناس فهو يهدى الناس إلى طريق ربهم لايريد منهم أجرا يعمل مدفوعا بمحبة «الله» ولذلك فهو لايداهن أحدا من الخلق بل يبلغ رسالة «الله» راضيا بأن يعيش فى الدنيا معيشة الفقير لكن الناس لشدة فسادهم لايقبلون رجلا كهذا بل هم جديرون بإحتقاره أما الذى يبيع قشر التفاح بزنته ذهبا فإنه المعلم الفاسد الذى يطلب مجد نفسه ولذلك فهو مستعد لأن يداهن الناس ويطلب رضاءهم ويقول لهم مايهوون سماعه وهكذا تهلك النفوس التى تتبع هذا التعليم الفاسد آه وكم من اناس هلكوا لهذا السبب.

قال «برنابا» وكيف يمكننا أن نعرف المعلم الحقيقى الذى يبشر من أجل محبة «الله» كيف نميزه عن المعلم الفاسد» ؟.

قال «المسيح» «إن من يترك التوبيخ على الخطايا مداهنا أصحاب الشأن فى الناس متقربا إلى أصحاب السلطة يجب تجنبه والفرار منه لأنه أفعى. إنه في الحقيقة يحمل السم فى تعليمه إلى القلب الإنسانى».

الحق أقول لكم «إن الجريح لايحتاج إلى عصائب جميلة بل الى جراحة ومرهم جيد لمعالجة جروحه وكذلك لايحتاج الخاطئ إلى كلام مزوق بل إلى توبيخات صالحة حتى يقلع عن خطيئته».

قال «برنابا» «وكيف يجب علينا أن نستمع إلى المعلم الحقيقى» ؟

قال «المسيح» «يجب أن نصغى إلى المعلم الحقيقى كأن «الله» نفسه هو الذي يكلمنا لأن المعلم الحقيقى هو من أرسله «الله» لتعليم الناس. رسول الله هو لسان «الله» الذى يكلم به الناس فكما لايمكننا التفريق بين الإنسان ولسانه الذى يتكلم به فكذلكم يجب ألا نفرق بين «الله» ورسله لأن رسل «الله» هم لسانه فى خلقه: يجب الإصغاء الى المعلم الحقيقى كأن «الله» هو الذى يتكلم بفمه أتفهمون »؟!

ومن له أذنان للسمع فليسمع. كانت الكلمات أكبر من قدرتهم على السمع والمعانى أكبر من قدرة أفئدتهم على الفهم والأسئلة تموج فى قلوبهم يعلو بعضها فوق بعض محدثة صخباً وإضطراباً وحيرة تحول بينهم وبين التصديق وتمنع التصديق من أن يستقر فى قلوبهم لكنهم قالوا «نعم».

(١٧)

«الحكم»

«إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه»

«ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون»

«يوسف ٤٠»

انتقل «عيسى» مع تلاميذه الى «كفر ناحوم» فأسرع الى المجمع يتبعه تلاميذه حيث كان الناس يجتمعون لإستماع الموعظة يوم السبت.

كان الكاتب يقرأ من سفر «المزامير» حتى وصل الى قول «داود النبى»: «متى أفرغ فإننى أقضى بالعدل.» فانتصب «المسيح» واقفا وتقدم الى دكة الوعظ حيث يقف الكاتب وكان الناس المجتمعون فى المجمع قد عرف بعضهم «المسيح» فأخذوا يتهامسون فيما بينهم عن سبب حضوره الى قريتهم و أصواتهم تتعالى وهم يتناقشون فى المعجزات التى أجراها «المسيح» فى شفاء الأمراض وكان شفاء إبن قائد المائة وتحيطمه الأصنام هو محور الأحاديث.

طلب «المسيح» من الناس أن يلتزموا الصمت وهو يومئ بيديه ثم انساب النور من بين شفتيه قائلا(٢١٠) «قد سمعتم ياأخوتى ماقاله «داود النبى» حيث أخبرنا أنه يقضى بالعدل متى تهيأ لذلك ووجد نفسه مستعدا ».

«لقد خاطب «الله» نبيه «داود» قائلا «**ياداود إنا قد جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل «الله»**»(٢١١) وخاطبنا «الله» بلسان نبيه «داود» فقال لنا «ياأبناء الإنسان اقضوا بالعدل». الحق أقول لكم إن كثيرين يقضون فيخطئون ويهلكون ». فمن أين تنبع الخطايا ؟!»

«إنهـا تنبع من مـخـالفـة حكم «الله» لأن الذين يحكمـون يقـبلون حكم «الله» إذا وافق أهواءهم بل إنهم يسرعون في إنفاذه حتى لينزلونه أحيانا قبل وقته أما مالايوافق أهواءهم فإنهم يرفضـونه وإن قبلوه صـاغرين فـانهم يتـحـايلون على إنفـاذه حتى يبطلونه فـعلا وإن قبلوه قولا أو يتبـاطئون فى إنفاذه حتى تضيع الفائدة المرجوة منه فـهم ينقضونه بالفعل وإن ادعوا التسليم له باللسان. هم فى الحقيقة يحتكمون إلى أهوائهم لا إلى حكم «الله» ولذلك يضلون عن سبيل «الله» فيهلكون.»

لو تذكر أولئك الذين ينصبون أنفسهم قضـاة على الناس أنهم سـوف يقفـون فى يوم عسير أمـام «الله» الذى يأتى ليحاسبهم وأن عليهم فى ذلك اليوم الآتى لامحـالة أن يعطوا إجابة عن سؤاله بماذا حكمتم ؟ ولماذا ؟»

إ«ذن لأسرعوا يفرون من كل منصب يجعلهم يقفون بين الناس فى موقف القاضى .»

«قولوا لى «مـاذا يفـعل أولئك المتبطلون الذين يجلسـون فى الطرقـات وعند المنعطفـات ولاعمل لهم إلا مراقبة الناس والحكم عليهم قائلين دون أن ينصبهم أحد قضاة هـذا صالح وذاك فاسد.»

«هذا الرجل يستـحق الجـحـيم وذلك الرجل خـاطئ وسـوف ينال عـذاب «الله» وهذا جميل وهذا قبيح.»

«ويل لأولئك القـضـاة الكاذبون الذين يغـتـصـبـون سـيف الحكم من يد «الله» ينازعـونه سلطتـه ويل لهم لأنهم قـد نصـبـوا أنفـسـهم قـضـاة دون أن يـأذن «الله» لهم. «الله» هو القاضى وهو الشهيد ولم يعط مجده لأحد.»

ويل لهم لأنهم يحكمون على مـالايعلمون ويشـهـدون زوراً بما لم يروا أو يسمعوا. ويل لهم لأنهم يأكلون أعـراض الناس بـأسنان الشـيطان فى أفـواههم ولذلك فـإنهم يكونون مكروهين على الأرض وفى السماء ويمقتهم «الله» وسيعذبهم فى يوم الدين.

«ويل لهم لأنهم يمدحون الشر ويسمونه خيرا ويكرهون الخير ويسمونه شرا إنهم فى حكمهم الباطل يتهمون «الله» بأنه خاطئ ويدعّون أنه مصدر الشرور ويصفون الشيطان بالصلاح ويزعمون أنه مصدر الخير فى الدنيا وهو سر لعنتها فانظروا أى قصاص عادل ينبغى أن ينزل بهم ؟!.»

«الحق أقول لكم «إن الشياطين أنفسهم تقشعر أبدانها من هول العذاب الذى ينزله «الله» بهؤلاء الذين يحكمون للخاطئ من أجل نقوده ولايقضون فى دعوى الأرامل واليتامى.»

«أيها الإنسان المنصوب من «الله» قاضيا لاتنظر الى القرابةأو الصداقة أو المكانة التى يحتلها أحد الخصوم فى المجتمع أو الى المال الذي يمكنك أن تكسبه أو تخسره ولا تنظر الى النفع الذى يمكنك أن تحصل عليه أو الضرر الذى يمكن أن ينزل عليك كلا بل انظر الى شئ واحد وجه «الله» الذى ينظر اليك يراقبك وعليك ان تطلب العدل الذى هو حكم «الله» بأقصى اجتهاد وأن تصلى «لله» من أجل أن تصل اليه لإنك حينئذ فقط تكون فى مأمن من عذاب «الله».»

«أيها الانسان الذى تحكم على غيرك إننى أنذرك فكما تدين تدان. إن من يحكم بلا رحمة سوف يحكم عليه كذلكم بلا رحمة فانظر كيف تحب أن يحكم عليك.

أيها الانسان الذى تحكم على غيرك ألاَ تعلم أن منشأ جميع البشر من طينة واحدة فلماذا تظن أنك أفضل من غيرك ؟(٢١٢) أتقول عن نفسك أنك صالح ؟

ألا تعلم أنه لايوجد أحد صالح إلا «الله» وحده.

صدقنى عندما أقول لك أنك إذا كنت تدين غيرك على ذنب تراه فإن قلبك يحتوى على ذنب أكبر ولكنك لاتراه فاعلم أيها الإنسان أن فى قلبك ماتدان عليه .

«ما أشد الخطر الذى يحيط بالقضاة وما أكثر الذين هلكوا بسبب حكمهم الجائر.»

«ألم يحكم «إبليس» بأنه أفضل من الإنسان لأنه خُلِق من نار أما الانسان فقد خلق من طين وبسبب حكمه الجائر ظن أن الانسان أدنى منه فأبى ان يسجد له مخالفا أمر «الله» وأصر على خطيئته رافضاً التوبة ومتشبثا بحكمه الظالم فكان ذلك الحكم الجائر هو أصل الشر فى الدنيا.»

«وقد حكم «آدم وحواء» بأن الشيطان صادق ومخلص وأطاعاه فأكلا من الشجرة التى نهاهما «الله» عنها فكان ذلك الحكم الجائر هو سبب خروج البشر من الجنة ونزولهم الي الدنيا أرض الابتلاء ليكابدوا المشقة بعد أن كانوا يرفلون فى النعيم وليحذر كل منا أن يلوم «آدم» على خطيئته لأنه حينئذ يدعى أنه أفضل منه وهذه هى الدعوى التى أدعاها أبليس وأصر عليها حتى طُرِدَ من الرحمة الى اللعنة. إن كل إنسان كان سيأكل من الشجرة المحرمة لو أنه كان فى مكان «آدم» فإن قلب الانسان يهوى المعصية كما ينجذب الفراش الى النار التى تحرقه وكل انسان خاطئ وكاذب.»

«الحق أقول لكم إن الحكم الخاطئ هو أصل كل الخطايا فلا أحد يخطئ دون أن يريد ولا أحد يريد مالايعرف فعندما يريد الانسان المعصية أفلا يحكم أولاً بأنها صالحة أو نافعة أو جميلة وإلاَّ ما أرادها فلا أحد يريد لنفسه الضرر أو الفساد. إذن فالخاطئ يقول بخطيئته أن «الله» كاذب أو مخطئ لأن «الله» أخبرنا أن الخطيئة فساد يعود علينا بالضرر والخاطئ يحكم بغير هذا ولذلك يختار المعصية وينبذ الطاعة فانظروا إلى بشاعة هذا الجور الذى يحكم به الخاطئ بإرادته الخطيئة وانظروا الى مايستحق من عذاب ينزل به قصاصا بعدل «الله» الذى لايظلم أحدا من خلقه مثقال ذرة.»

ما أكثر الذين أُهْلِكوا أو أوشكو على الهلاك بسبب حكمهم الجائر. لقد حكم «فرعون» على « «موسى» وبنى اسرائيل بالكفر لأنهم رفضوا عبادته. وحكم الملك الفاجر «أخاب»

«على نبى «الله» «إلياس» (ايليا أو الياهو) فقضى نبى «الله» حياته مطاردا من الملك الفاجر وأمرأته الفاسدة التى وجدت عشرات من الأنبياء الكذابين الذين أدانوا نبى «الله» الصادق وحكموا عليه بالكذب .لقد أدان الملوك عباد الاصنام أنبياء «الله» وحكموا عليهم بالموت.»

ما أرهب قضاء «الله» حين يأتى فى يوم الدين ليدين الظالم وينجى المظلوم.»

«بل ما أشد ماكان قُرب الصالحين من الهلاك بسبب الحكم الجائر. ألم تروا كيف حكم أباؤكم أبناء «يعقوب» على أبيهم نبى «الله» الكريم بأنه قد ظلمهم بحبه «يوسف» أكثر منهم وحكموا على «يوسف» نفسه بأنه سارق وحاولوا التخلص منه بقتله ثم رموه فى البئر.»

«ألا تذكروا كيف أعنت نبى «الله» وخليفته «داود» «أوريا» الجندى إذ خيره بين الزواج من المرأة التى يحبها أو رفع رتبته فى الجيش فعاتبه «الله» عتابا شديدا على شدته مع «أوريا» الجندى المطيع حتي أن «نبى الله» ندم على خطئه ندما شديدا وظل يبكى شهوراً طويلة».

كثيرون هلكوا أو أشرفوا على الهلاك بسبب حكمهم الجائر الذى يخالف عدل «الله» الرحيم بعباده لذلك أقول لكم لاتحكموا على أحد وأتركوا الحكم «لله».

«لاتدينوا حتى لاتدانوا».

فبكى كثير من الحاضرين نادمين على خطاياهم وأسرع أخرون يحضرون مرضاهم وتزاحم الناس حول «المسيح» الذى كان يجلس فى الرواق مع تلاميذه وأخذ نبى «الله» يصلى من أجل المرضى الذين حضروا بين يديه ولمسهم بيده المباركة فنالوا شفاءهم من «الله» بإيمانهم وسبح الكثيرون «الله» الذى وهب بنى اسرائيل هذا النبى العظيم وطلبوا إليه أن يمكث معهم فاعتذر لأنه يريد أن يبشر بملكوت «الله» فى القرى الأخري فرجاه الكثيرون ان يأذن لهم بصحبته ليخدموه فقال لهم «لم آت إلى الدنيا لأخدم بل لأكون

خادما» وطلب إليهم أن يبقوا في قريتهم قائلا «لاتتركوا بيوتكم بل اتركوا الخطيئة وحينئذ تتبعوني وأينما أمضي تكونون معي بل تكونون مع «الله» ويكون «الله» معكم أعبدوا «الله» وأستعدوا للقائه فبهذا وحده تكون النجاة ».

ثم ودع الذين تجمعوا حوله ودعا «الله» لهم وسار مع تلاميذه وهو صامت يطرق الى الأرض ثم اعتزل تلاميذه. ابتعد عنهم وصلى منفردا وأطال السجود حتى أستبد القلق بالتلاميذ فأخذوا يقتربون منه في حذر فلما انتهى من صلاته تقدموا إليه وقلوبهم تموج بالحيرة والأسئلة تتدافع في صدورهم وهو ينظر إليهم صامتا.

قال «برنابا» وقد أرتدى ثوب الحكمة الزائفة محاولا محاكاة «المسيح»: «ويل للرؤساء لأنهم سيذهبون الي الجحيم(٢١٣)

فقال «المسيح» «لقد صرت غبيا يا «برنابا» إذ تنطق بهذه الحماقة. الحق أقول لك لو كان الحمام ليس ضروريا لجسم الأنسان أو كان اللجام غير مفيد للفارس أو كانت الدفة غير ذات نفع في تسيير السفينة فإن وجود رئيس للشعب يكون غير ضروري بل أن وجود رئيس للشعب أشد ضرورة من هذه الأشياء.»

«قل لي لماذا أعطى «الله» سيف الحكم «لموسى» و «يوشع» و «صموئيل» و «داود» و «سليمان» وآخرين غيرهم .»

«لماذا أذن «الله» لهؤلاء أن يصدروا أحكاما » ؟

إن «الله» أعطى الحكام سيف الحكم لكي يستأصلوا الإثم من الشعب» قال «برنابا» «ولكنك يامعلم قلت يجب أن نفر من كل منصب يجعلنا نقف بين الناس موقف القاضي وقلت لاتدينوا حتى لاتدانوا فكيف يجب إصدار الحكم بالادانة أو البراءة ؟»

قال «المسيح»: «يا «برنابا» ليس كل أحد مؤهل لأن يكون قاضيا لأن «الله» هو الملِك

وقـد أعطى المُلْكَ لبـعض خلقـهْ و«الله» هو القـاضـي وأذن لبـعض خلقـه ببـعض سلطانه فالقاضي وحده هو الذى يجب عليه أن يقتص من المجرم وأن يبرئ المظلوم وكما يجب على الفلاح أن يستأصل الحشائش والنباتات السامة حتى لاتفسد زرعه يجب على القاضى الـذى نصبه «الله» أن يزيل الأشرار حتى لايفسدوا بقية الشعب ولاحياة للشعب بدون هذا .»

قـالوا «يا معلم كـيف تقـول أن «إبليس» مُصّرٌ على خطيئـتـه وأنه لا يريد أن يتـوب عنها؟»(٢١٤) يريدون أن يقولوا كيف عرفت هذا ؟ من أنبأك بهذا ؟! وهل تعرف ما يدور فى نفس «إبليس ».

قال «عرفت هذا من محادثتى معه»

قالوا «محادثتك مع من» ؟

قال «مع ابليس».

قالوا «وهل حدثت «إبليس» وكيف حدث هذا أخبرنا يا معلم كيف كلمته» ؟

قال «الحق أقول لكم لقد رثيت لحال إبليس وعطفت عليه ليقينى من المصير الرهيب الذى ينتظره وفكرت فى أنه مصدر الشر على الأرض وسبب الفتنة التى يهلك فيها الكثيرون وعطفت على الإنسان الذى كُتِب عليه أن يقضى حياته الدنيا فى صراع لا يهدأ مع الشيطان» فقلت إن «الله» قادر على كل شىء ومن الممكن له أن يهدى «إبليس» وأن يتوب عليه وحينئذ تزول الفتنة من الأرض وينعم الخلق جميعا بالسلام فرغبت فى اجراء المصالحة بين «الله» و«إبليس». صُمْتُ «لله» منتظراً نداءه ثم نادانى قائلا ماذا تطلب يا عيسى ؟ »

قلت «رب إن إبليس ليس إلا واحداً من خلقك الذين لا يحصيهم أحد غيرك وبفتنته يهلك الكثيرون وأنت القادر على كل شىء فارحمه ربى لينجوا الناس من شره» .

قال «الله»: «يا «عيسى» إنى أقبل أن أغفر له وارحمه فاحمله على أن يقول «أيها الرب آلهى لقد أخطأتُ فارحمنى » فإنى أتوب عليه وأعيده الى سيرته الأولى قبل عصيانه.»

قال «عيسى » فملأنى السرور إذ ظننت أننى أوشكت على أن أصنع المصالحة التى يزول بها الشر من الأرض وسرعان ما جاءنى «إبليس» كما جاءني من قبل وقال لى فى صلف «ماذا تريد منى يا «عيسى» أن أصنع لك» ؟.

قلت: «إننى لا أريد منك شيئا بل أريد أن أصنع لك معروفا فإننى أدعوك لما فيه صلاحك» .

قال: «إن كنت لا تريد منى شيئا فأنا أيضا لا أريد منك شيئا وكيف تستطيع أن تصنع لى معروفا وأنا أشرف منك فإننى من النار وأنت من طينه نجسة. إنك لست أهلاً لأن تكون خادما لى «فتمالكت نفسى مستعينا «بالله» على الصبر وقلتُ دعك من هذا وقل لى أليس حسنا أن تعود إلى هيئتك الأولى قبل معصيتك «لله» ألا تعلم ما ينتظرك من مصير رهيب يوم الدين. إنك ستضرب فى يوم الدين مائة الف ضربة بسيف «الله» ينالك من كل ضربة عذاب عشر جحيمات» .

فقال وقد امتلأ بالغيظ «سنرى أينا أكثر جندا وأشد قوة أنا أم «آلهك». إن لى أنصاراً كثيرين من مردة الجن وينضم إلى جيشى الكثيرون من عتاة الكافرين وسنكون قادرين على إزعاج «إلهك» وسيعلم حينئذ أى غلطة فظيعة أرتكبها بطردى من الجنة من أجل طينة نجسة ».

فقلت وقد ملأنى الرعب خشية أن ينزل «الله» علينا نقمته: «يا أبليس إنك لمجنون سخيف العقل لا تدرى ماذا تقول ».

فارتسم على وجهه الإستهزاء بى وهز رأسه ساخراً منى وهو يقول «إننى حقا

مجنون فقل لى أيها العاقل الرشيد يا من تريد أن تتم المصالحة بينى وبين «الله» أيها المعلم الحكيم ؟ ماذا تريد أن أفعل ؟. »قلت: «ليس عليك إلا أن تنطق بكلمتين فقط».

قال «وما هما»؟

قلت «أيها الرب الهى أخطأت فارحمنى » .

قال «إننى عن طيب خاطر أقبل مسرورا هذه المصالحة شريطة أن يقول «الله» لى هاتين الكلمتين».

فأصابنى الذهول وصرخت فيه: «أغرب عن وجهى أيها الملعون إن «الله» منزه عن الخطأ إنك أنت الشرير المنشىء لكل شر على الأرض.»

فقال مذعورا: «إن الأمر ليس كما تقول يا عيسى ولكنك تكذب لتجامل «الله»

ثم التفت «المسيح» الى تلاميذه الذين يستمعون إليه وقد أطبقت عليهم الدهشة وشخصت أعينهم «أنظروا الآن أنىّ يجد رحمة».

قالو: «إبداً يا معلم لا يجد رحمة».

قال «لماذا» ؟ .

فأصابهم الوجوم فأسرع يجيبهم «لإنه غير تائب إنه لم يندم على خطئه ولا يريد أن يتوب .»

قال «سمعان» الذى أصبح إسمه «بطرس»: «يا معلم قل لنا كيف يعذب آلهنا الكافرين وصف لنا الجحيم وأخبرنا كم يكون بقاءوها حتى يهرب الانسان من الخطيئة ؟ »

«وما معنى عشر جحيمات »؟!

قـال «المسـيح»: «لقـد سـألت يـا «بطرس» عن شيء عظـيم وإني مـجـيـبك عليـه إن شاء «الله»

«يا تلاميذ إن الجحيم واحدة وفيها يعذب الملعونون الى الأبد إلاَّ أن لها سبع طبقات كل واحدة أعمق من التى فوقها فهى مثل سجن يجلس فيه المنبوذون فى سبع دركات أو سبع دوائر. الدائرة الأولى من الخارج تحوى الدوائر التى تليها فى اتجاه الأعماق ومن يذهب أعمق ينال عذابا أشد وكل دائرة من الدوائر لها باب فيكون لجهنم سبعة أبواب لأن للخطيئة سبعة أبواب هى منافذ الشيطان الى قلب الانسان فأعمق تلك الأبواب وهو المؤدى الى أشد العذاب هو «الكبرياء» لأن المتكبر يدعى هنا فى الدنيا أنه أفضل من غيره غيرعابئ بأوامر «الله» ولايعترف بأن أحدا يعلوه مكانه حتى «الله» نفسه ومن ثم يكون عقابه أن يوضع أسفل جميع المنبوذين ماراً فى هبوطه الى الأعماق بجميع أنواع العذاب ليكابد كل الآلام ثم يستقر تحت أقدام الملعونين مع «إبليس» ليكون موضع سخرية كل المنبوذين .

ويكون الحسود فى الدركة السادسة فوق المتكبرين الذين ينازعون «الله» رداءه وكما أن الحسود فى الدنيا يتمنى ويعمل على زوال نعمة «الله» من عباده ويبتهج بالمصائب التى تحل بغيره من خلق «الله» فإنه وهو يعانى من أنياب أفاعى الجحيم التى تنهشه يخيل إليه أن جميع شركائه فى اللعنة يبتهجون لعذابه ويتأسفون لأنه لم يهبط إلى السابعة ويناله من هذا الخيال ألم أشد من ألم نهش الأفاعى فى قلبه فى ذلك المكان الملعون الذى لاموضع فيه للبهجة يخيل للحسود أن الجميع مبتهجون بالعذاب الذى نزل به ويتمنون له عذابا أشد.

هذه هى نهاية الحسود الذى يسخط معترضا على حكم «الله» هذا هو المصير التعس الذى ينتظره بعدل «الله» .

ألا ترون أن النائم يخيل إليه فى الحلم أن شخص «ما» يركله فيناله ألم شديد ويصيبه الغم من تلك الركلة التى خُيّل إليه أنها اصابته .

أما البخل فإنه يهبط بصاحبه الى الدركة الخامسة حيث يُطْبِق عليه فقر مدقع وهو يرى النعيم العظيم الذى يتمتع به أهل الرحمة وستزيد الشياطين من عذابه بأن تقدم إليه مايشتهى حتى اذا صار بين يديه وأوشك أن يناله جاءت شياطين أخرى فاختطفوه فى غلظة وهم يبوخونه قائلين «تذكر أنك لم ترد أن تعطي أحدا شيئا مما أعطاك «الله» فاليوم لايريد «الله» أن يعطيك شيئا مما تشتهيه».

ويتذكر النعيم الذي كان يتقلب فيه فى الدنيا والسعة التى كان يتمتع بها ويتحسر لأنه كان بوسعه بتلك السعة التى لم يعد يستطيع أن يستعيدها كان بوسعه ان ينال النعيم الأبدى فيزداد حينئذ عذابه.

وتهبط الفواحش بمرتكبيها الى الدركة الرابعة فيأتى الزناة نساء شعورهن من الأفاعى وعيونهن أحواض من الكبريت الملتهب ومن أفواههن تخرج السموم ومن السنتهن يقطر العقلم وتغطى أجسادهن أشواك فظيعة كأنها الشصوص التى تصطادون بها الأسماك ولهن مخالب مثل مخالب العقبان وأظافر كأنها السكاكين الحادة ومن فروجهن تنبعث النيران ويعانق الذين غيروا الطريق التى أعطاهم «الله» الأفاعى الجهنمية. على سرير من حصب جهنم يكابد الشهوانيون ممارسة فواحشهم مع تلك الشياطين البشعة حيث لا لذة على الإطلاق بل ألم لاينتهى .

ويهبط الكسول للدركة الثالثة. إنه لايحب أن يقوم الآن ليغتسل ليصلى أو أن ينهض ليقدم خدمة أو مساعدة إلى أخيه وسيكون عليه فى جهنم أن يحمل الأثقال على ظهره ويديه مغلولتين بالسلاسل وأفاعى جهنم تلتف حول ساقيه تريد جذبه لإسفل والشياطين وراءه تركله وتدفعه تريد رميه وهو يقاوم السقوط يريد أن يصعد بالأثقال التى على ظهره

الي حيث يجب بناء القصور والقلاع والحصون ويسقط عدة مرات ويضطر للقيام ويعاود الصعود ولا أحد يساعده كما أنه لم يكن يرغب في مساعدة أحد وكلما قام وعاود السير وضعت عليه أثقال أكبر حتى اذا وصل هدمت كل تلك الابنية وتهاوت أحجارها من جديد لأنـــها قـــد وضـــعت بطريقـــة خـاطئـة ويكون على الكسـول أن يعـاود الكرة مـرة أخـرى وهكذا الى الأبد.

ويهبط المسرفون الى الدركة الثانية حيث لايجدون مايأكلون إلاّ العقارب والأفاعى السامة ولايشربون إلاّ الصديد والسوائل الملتهبة العفنة. إن أيديهم وأرجلهم تكون مغلولة فى القيود والسلاسل والشياطين التى تستهزئ بهم تقدم إليهم مايتوهمون أنه طعام شهى أو شراب لذيذ كما يحسب الظمآن السراب ماء من شدة عطشه حتى إذا اقتربت الشياطين منهم وقدموا إليهم مايحملون . أصاب المسرفين الفزع من بشاعة ما يقدم إليهم لكنهم لايملكون دفع الضر عن أنفسهم فيأكلون ويشربون ما يقدم اليهم رغماً عنهم فتتقطع أمعاءهم وتغلى بطونهم وتخرج منهم القذرورات التى سيكون عليهم إلتهامها مرة أخرى وهكذا الى الأبد .

ويهبط الغضب بالمستشيط به الى الدركة الأولى حيث يمتهنه كل الملعونون وهم فى طريقهم.الى الدركات الأسفل فيصفعونه ويرفسونه ويلقون به واضعين أقدامهم على عنقه وهم يهرولون تطاردهم اللعنة الأبديةالى أعماق الجحيم وهو لا يستطيع حتى أن يظهر غضبه لأن لسانه ممسوك بما يشبه الشص الذى يستعمله بائع اللحوم فكما أنه لم يكبح غضبه وأهان الآخرين فإنه فى جهنم يهان من الجميع ولا يستطيع أن يظهر غضبه .

الكبرياء والحسد والبخل والكسل والفواحش والاسراف والغضب هذه هى أبواب جهنم. فى ذلك المكان الملعون يكون عقاب عام يشمل كل الدركات كما أنكم من مزيج مأخوذ من عدة حبوب تستطيعون أن تصنعوا رغيفا واحدا .

ستتجمع فى تلك البقعة الملعونة كل المتناقضات وستتحد بعدل «الله» لتصنع عذابا لا يستطاع وصفه سيكون هناك البرد القارس والحرارة الشديدة ولكن البرد لا يخفف الحرارة ولا الحرارة تزيل البرد. سيكون هناك الجليد والنار ولكن الجليد لا يطفىء النار ولا النار تمحو الجليد بل كلا منهما ينتج عذابا لا يستطيع صنعه إلاَّ «الله» وحده.

فى تلك البقعة الملعونة يقيم الكافرون الى الأبد ولو كان يتاح للكافرين أن يعلموا أنهم سيقضون فى جهنم وقتا أطول من الوقت الذى يقضيه طائر واحد فى نقل كومة هائلة من الحبوب غطت كل الأرض ينقل فى كل مائة عام حبة واحدة لسرهم ذلك وكان لهم عزاء إذ سيكون لعذابهم نهاية لكن لا يتاح لهم علم ذلك فلن يكون لهم عزاء إذ يدركون أن عذابهم بلا نهاية فليس لهم الأمل فى الخلاص من الجحيم ودخول الجنة وكما أنهم لم يريدوا أن يجعلوا لخطاياهم نهاية فمن العدل ألا يكون لعذابهم نهاية. أما المؤمنون فسيكون لهم عزاء أنَّ لعذابهم نهاية» .تملك الذعر التلاميذ لما سمعوا هذا الكلام وقالوا .

«أيدخل المؤمنون جهنم ؟»

قال «المسيح»: «نعم بل يتحتم على كل الخلق أن يدخلوا جهنم. بل إن رسول «الله» نفسه يدخل جهنم. لكن الأنبياء والصالحين يذهبون الى هناك ليعاينوا عدل «الله» لا ليكابدوا عذابه ويصيب المؤمنين من عذاب جهنم بقدرذنوبهم ولكن بفضل إيمانهم يستطيعون الخروج من جهنم. أما الكافرون فإنهم لا يقدرون على الإفلات من قبضتها فيُحْبَسون فيها وتغلق عليهم أبوابها فيدركون أن عذابهم دائم لا ينتهي وحينئذ ييئسوا من رحمة «الله» .

لقد قضى «الله» أن يذهب الجميع إلى جهنم حتى « رسول الله» ولكنه لا يمكث هناك إلا أقل من طرفة عين ويتوقف العقاب عن جميع الخلق لحظة مُكْثِ رسول«الله» فى جهنم ليعرف كل مخلوق أنه نال رحمة من رسول «الله» الذى هو رحمة «الله» إلى الخلق كلهم.

إن الجحيم ترتعد لحظة مرور «رسول الله» عليها وتفر الشياطين هاربة من وجهه تحاول الإختفاء وهم يولولون «إهربوا إهربوا» فإن عدونا قد أتى ويصفع «إبليس» وجهه بكفيه وقد ملاءه الغيظ لأن الشياطين لم تعد تخاف منه وأنهم قد خافوا من «رسول الله» ويصرخ« إن هذا لظلم كيف يكون هذا أشرف منى .»

كان التلاميذ يستمعون الى «المسيح» وقد شخصت أعينهم لا يصدقون ما يقول وظلت مسألة العشرة جحيمات تحيرهم فواصل «المسيح» حديثه قائلا «إن من يرتكب خطيئة واحدة يستحق جحيماً واحدة ومن يرتكب خطيئتين يستحق جحيمتين ومن يرتكب عشرة يستحق عشرة جحيمات لأن ماهى الخطيئة ؟ !»

«إن الخطيئة هى قطعة من جهنم ظهرت فى صورة معصية «الله» فليست المعصية إلا نفساً من أنفاس جهنم أخرجته من جوفها لتخفف من غيظها فلابد أن تستعيد جهنم ما أفرزته من باطنها فمن يرتكب معصية واحدة فإنها تجره إلى جهنم «أمها» التى ولدتها. المعصية الواحدة تؤدى بحاملها الى الجحيم مرة والمعصيتان تذهب به الي هناك مرتين وعشرة معاصى تلقى به في جهنم عشر مرات. ياتلاميذ إن جهنم واحدة ولكن من فيها يعانى من العذاب بقدر خطاياه فيشعر أنه يكابد عشرة جحيمات أو مائة أو الف وكلامى صحيح عندما قلت لكم إن كل ضربة ينالها «إبليس» يوم الدين تساوى عشرة جحيمات و «الله» قادر على كل شئ سيجعل بقوته وعدله الشيطان يكابد عذابا كأنه دخل ألف ألف جحيم وكل خاطئ غير مغفور له يكابد على قدر إثمه.

وينال المؤمنين عذاب على قدر ذنوبهم التي لم يغفرها «الله» لهم ولكنهم لايهبطون إلى أعمق من الطبقة الثانية. إنهم يتعذبون فى الدركتين الأولتين ولكن الى حين فسيأتى عليهم وقت يقبل «الله» فيه شفاعة رسوله فيرحمهم ويغفر لهم فيخرجون من جهنم الى الجنة لأن فى قلوبهم شئ من الايمان ربما يكون مثل مثقال حبة من القمح أو حبة من الخردل أو مثقال ذرة فبالإيمان وحده ينجو الانسان من جهنم وربما بقى الواحد منهم فى العذاب

سبعين ألف سنة ولكنه يعلم أنه سيأتى عليه يوم يخرج فيه من اللعنة. بذلك الإيمان يبقى الأمل فى قلوبهم ويظلون يتضرعون الى «الله» ويسألون رسوله الشفاعة فيهم صارخين باكين حتى ينظر «الله» إليهم ويقبل شفاعة رسوله الذى يتضرع الى «الله» أن يعتق المؤمنين العصاة من تلك العذابات الرهيبة ».

وسكت السيد «المسيح» وقد بدا على وجهه الحزن وأطرق الى الأرض. طال صمته والتلاميذ يشعرون بالإضطراب لأن كلماته كانت غريبة علي قلوبهم والشك لم يزل يملأ قلوبهم بالحيرة والأسئلة الكثيرة التى تتدافع داخلهم كالأمواج فى بحر هائج لاتتيح لهم أن يصطادوا المعنى المختبئ فى تلك الألفاظ والأمثال التى تزيدهم حيرة علي حيرتهم.

قال «بطرس»: «يامعلم إن عذاب «الله» شديد حقا وعدله عظيم ولقد جعلك الكلام اليوم حزينا لذلك نرجوك أن تستريح وفى الغد تخبرنا أى شئ يشبه الجحيم !!»

بعد كل هذا الشرح الطويل لم يعلموا بعد أى شئ يشبه الجحيم فقال «المسيح»: «يا «بطرس» إنك لاتدرى ماتقول وإلاَّ لما قلت لى استرح الآن الحق أقول لكم إن الراحة هى السم الذى يقتل التقوى فى القلوب والنار التى تأكل الاعمال الصالحة .

«ألا تذكروا أن الانبياء جميعا قد نددوا بالكسل.

«أنسيت ماقاله «سليمان» النبى «إن الكسول لايحرث فى الشتاء خوفا من البرد ولذلك فهو يتسول فى الصيف وقال أيضا «كل ماتستطيع يدك أن تفعله فافعله دون راحة».

وقال «أيوب» نبى الله الصابر «كما أن الطير مولود للطيران فإن الانسان مخلوق للعمل»

«الحق أقول لكم أننى لا أعاف شيئا فى الدنيا أكثر من الكسل».

«الجحيم واحدة وهى نقيض الجنة كما أن الشتاء نقيض الصيف والبرد ضد الحر ولايستطيع أن يعرف الجحيم الإ من يكابد عذابها ولايستطيع أن يصفها إلا الذين عرفوا رحمة «الله» حقاً ولذلك فإن الأنبياء هم أقدر الناس على وصف جهنم. ذلك المكان الملعون بعدل «الله» الذى لايظلم مثقال ذرة ولا أقل من ذلك. إنها المكان الذى وصفه نبى «الله» «أيوب» فقال «ليس فيه أى نظام بل خوف أبدى».

«إنها السجن الذى يعانى المحبوسون فيه من الجنون والهلع. إنها الاضطراب الدائم الذي لايحتمل.»

قال «إشعياء» النبى فى وصف أهل جهنم «إن اللهيب الذى يحترقون فيه لاينطفئ والدود الذى يعيش على أجسادهم المتعفنة لايموت ».

وقال «داود» باكيا وهو يذكر بعض مايعانيه أهل العذاب «يُمْطَر عليهم الكبريت الملتهب وترعبهم البروق والصواعق والعواصف الشديدة».

«يالهم من خطاة تعساء ليس لهم أى أمل فى الخلاص». «ما أشد الآلام التى يكابدونها من الجوع والعطش ومن الأشواك والحيات والعقارب التى سيكون عليهم أن يقتاتوا بها والصديد والسوائل الحارقة التى سيضطرون لتجرعها من شدة عطشهم لكن عطشهم لايزول ولايُخَفف بل يزداد ضراوة. إنهم يضطجعون على جمر محرق ويرتدون ثيابا من النار. إنهم يواصلون الصراخ والبكاء المر ولكن دون جدوى لأن «الله» لايلتفت اليهم».

وسكت «المسيح» وأطبق الصمت ثم عاد ليقول وقد إمتلأ صوته بالأسي «حقاً لقد كان خيرا لهم لو لم يولدوا من أن يعانوا كل ذلك العذاب الشديد وما أشد كراهيتهم حينئذ للأطعمة الشهية والثياب الفاخرة والآرائك الوثيرة والألحان الرخيمة وكل ملذات الدنيا التى ضيعوا عمرهم فى الجرى ورائها ».

«تصوروا إنسانا يعانى عذابا فى كل جارحة فى جسده وليس له من يرثى له بل الجميع يستهزئون بعذابه ويسخرون منه .ألا يكون ألمه مبرحا ؟!»

قالوا «أشد تبريح».

قال «إن أهل جهنم يعدون ذلك الإنسان بالنسبة إليهم فى النعيم».

«الحق أقول لكم لو أن الله خَيَّر أهل جهنم بين كل الآلام التى عانى منها الخلق جميعا منذ بدأ الدنيا حتى نهايتها وبين مكابدة ساعة واحدة من عذاب جهنم لاختاروا الآلام الدنيوية لأن العذاب فى جهنم سيكون على يد من لاشفقة لهم على الإطلاق ولايخففه شئ من رحمة «الله». ما أشد صرير الاسنان والبكاء والعويل. إن ماء الأردن أقل من الدموع التى ستجرى من عيونهم فى كل لحظة ولكن دون أمل لأنها لاتجذب إليهم رحمة «الله» .

وفاضت الدموع من عين «المسيح» وبكى التلاميذ بكاء شديدا ثم نزل الصمت على الجميع.

لقد أكثر «المسيح» من الاستشهاد بكلمات الأنبياء من قبله لعله ينجح فى اختراق جدار الشك السميك الذي يحيط بالقلوب ثم قام ليصلى وأدرك التلاميذ أن «المعلم» قد صار كئيبا الى الحد الذى لم يستطيعوا معه أن يحدثوه فتركوه لصمته وحزنه ووحشته وجلس كل واحد منهم يفكر فى كلام «المعلم» وقد أحاط بهم الجزع من كل جانب .

(١٨)

«الايمان»

«احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين»

«العنكبوت ٢-٣»

أمر «المسيح» تلاميذه أن يركبوا معه «السفينة» ليذهبوا الى الجانب الشرقى من بحر الجليل (بحيرة طبرية) ليبشر فى القرى والمدن هناك فدخلوا إلى السفينة وأخذوا يعبرون البحر إلى الشرق .

كان التلاميذ مايزالون فى وجومهم يتفكرون مكتئبين فى كلام «المسيح» عن جهنم وأهوال القيامة وقد التزموا الصمت «لماذا كل هذه العذابات الرهيبة»؟!

أيمكن أن تقع فى الحقيقة كل تلك الأهوال أم أنها خيالات شاعر أصاب عقله المرض ؟! أيدخل المؤمنون جهنم «بل يقول إن الأنبياء أنفسهم يدخلونها حتى النبى الذى يقول أنه جاء إلى الدنيا ليبشر به ؟!

ما فائدة الايمان إذن ؟!

كان التعب قد أستولى على «المسيح» فنام فى مؤخرة السفينة وقد وقد وضع تحت رأسه وسادة خشنة وأستسلم لسلطان النوم فتلألأ وجهه ببراءة الطفولة .

وعلى حين فجأة تغير الجو فاشتد الريح وأمتلأت السماء بالسحب الداكنة حتى أنها حجبت الشمس. بدا كأن الليل قد هبط فجأة وأندفعت الأمواج تتعالى وسفينة الصيد الصغيرة التى يركبون ظهرها تتأرجح بصفعات الموج وضربات الريح ومياه البحر تدخل عليهم حتى أوشكت أن تبتلع السفينة بركابها وفزعوا وظنوا أنهم قد أحيط بهم حتى

توهمـوا أن هذه هى نهـاية الدنيـا وأن القـيـامـة التى كـان يتـحـدث عنهـا منذ قليل قـد أتت وهرولوا إليه يوقظونه فى عنف صـارخين(٢١٥).

«إستيقظ يا معلم فإننا نهلك »

«أيها النائم ألا يعنيك هلاكنا »

«قم فإن البحر يوشك أن يبتلعنا »

فقام «المسيح» من نومه ونظر إليهم غاضباً وقال لهم موبخاً «مالكم» ؟!

لماذا تخافون هكذا » ؟ !

«أين إيمانكم ياتلاميذ «المسيح».

«هل أنا الذى خلقتكم» ؟ !

ثم نظر إلى السـمـاء وقـال فى هـدوء «أيهـا الريح أسكن» ونظر الى الماء وقـال «أيهـا البحر إهدأ» .

فـسكن الريح وهدأ البـحـر وأسـرعت السـحب الداكنة تذوب حـتى بدا وجـه الشـمس سـاطعاً كأنه يضـحك وسطح الماء يتلألأ بنورها وتملك الرعب «التلامـيذ» من هذا الانسـان الذى يركب معهم سفينة «بطرس» إنه يأمر الهواء والماء فيطيعانه ؟ !

وصلوا الشاطىء صامتين يختلسون النظر الى وجه «المعلم» الغريب من حين لاخر ثم نزل إلى البر فنزلوا وراءه.

إتجـه إلى إحـدى المدن وأقـتـرب من القـبـور(٢١٦) فـأسـرع نحـوه رجل عـريان يتـغطى جـسـده بالقـروح والقـاذورات ليس عليـه شئ من الملابس كـان يعـدو نحـوهـم صـارخـا وقـد إلتمعت عيناه فبدا لهم بشعره الأشعث وجسده العريان ونظرة الرعب فى عينيه كأنه ميت

قد خرج توا من القبور وأنبعث الصوت منه مخيفا «ما لنا ومالك يا «عيسى» دعنا وشأننا لماذا خرجت من «الناصرة» .

«إننا نعرفك أنت المسيح إبن «الله» .

وفر التلاميذ وهم يصيحون «هيا يا معلم دعنا نهرب من هنا» .

لكن «المعلم» لم يهرب مثلهم بل وقف وخاطب الرجل المجنون «إخرسوا أيها الشياطين وأخرجوا من هذا الإنسان»

ـ قال الصوت وقد أفصحت نبرته عن الخوف «هل أتيت قبل الأوان لتعذبنا» ؟!

ثم هوى الرجل عند قدمي «المسيح» والصوت المنبعث منه يصرخ متضرعا «لاتأمر الملائكة بالقائنا فى جهنم»

قال «المسيح» «كم عددكم» ؟!

قال الصوت «أكثر من ستة آلاف »

أصاب التلاميذ الرعب لما استمعوا الى هذا وهم يقفون على البعد يراقبون مايحدث بقلوب واجفة وعيون شاخصة تتقلب فى حيرة بين المعلم والمجنون الذى أقعى عند قدميه.

قال الصوت مستعطفا «المسيح» «إن كنت تأمرنا بالخروج فأذن لنا بالدخول إلى قطيع الخنازير الذى يرعى هناك على الجبل، والتفت «المسيح» والتلاميذ فوجدوا بعض الرعاة مع جمع كبير من الخنازير التى ترعى الحشائش والقاذورات على الجبل.

قال «المسيح» «هيا أخرجوا وأذهبوا إلى ماتحبون». تولت المجنون رجفة شديدة فأخذ جسده العريان الملطخ بالقروح والقاذورات ينتفض وهو يتقلب على الأرض ثم غشيته موجة من العرق كأن المطر يهطل عليه ثم قام الرجل كأنه يستيقظ من كابوس مرعب. تقدم هادئا نحو «المسيح» وقد بدا عليه الوقار رغم جسده العارى وأنحنى ليقبل يد «المسيح» والتلاميذ

ينظرون فى ذهول ثم أنتبهوا على صراخ الرعاة الذين أخذوا يجرون وهم يولولون «أدركونا أدركونا» كانوا يسرعون إلى داخل القرية يطلبون النجدة لأن الخنازير قد تهيجت واستولى عليها الإضطراب فجأة فاندفعت ترمى بأجسادها من قمة الجبل لتسقط فى البحر .

التفت «المعلم» إلى تلاميذه وهم يقتربون منه وقد أستولى عليهم الذهول فأمرهم «المسيح» أن يستروا جسد «أخيهم» الذى كان يجلس هادئا صامتا وقد تعلقت عيناه بوجه «المسيح» «فأعطوه ثوباً مما كانوا يحملون معهم فأرتداه الرجل وجلس معهم . «قال المسيح» «أين إيمانكم» ؟!

«من الذى ينبغى له أن يذهب أنا أم الشياطين ؟» استولى الخجل على التلاميذ وأطرقوا الى الأرض صامتين.

وجاء أهل المدينة يسرعون ومعهم الرعاة الذين قصوا عليهم ماشهدوا . بوغت الناس بالرجل المجنون يجلس هادئا صامتا بين يدى هذا «الرجل الغريب» والذين معه. إنها أول مرة يرونه فيها وقد أرتدى ثوبا . لقد جاء إلى مدينتهم منذ زمن طويل ولايعرفون من أين أتى إليهم فوجئوا به ذات يوم يخرج عليهم من القبور عريانا بهيئته البشعة وكانوا يحملون أحد الموتى يريدون دفنه فتركوا الميت يسقط على الأرض وهرولوا مفزوعين كل إلى بيته. ظنوا أنه أحد الموتى بعث من قبره وظلوا يراقبونه من بعيد حتى اختفى فزال رعبهم ولكنه عاد ليظهر فى شوارع المدينة يبث الرعب فى القلوب. وظل يظهر ويختفى دون أن يعرفوا لذلك سببا أو موعدا .

كان غالبا مايسكن فى القبور حتى أنهم عندما يموت واحد فيهم كانت المشكلة الأولى التى تواجههم هى «هل المجنون فى القبور أو لا ؟» فيرسلون بعض من لديهم «شجاعة» كافية لإستطلاع الأمر فإن رأوا المجنون فى القبور فإنهم يرجعون إلى أهلهم مذعورين فيدفنون الميت حيث يكون ويغلق كل واحد عليه ببيته تنتظرون ذهاب المجنون عن مدينتهم.

تملكتهم «الشجاعة» يوما فأجمعوا أمرهم على الإمساك بهذا المجنون الذى أحال معيشتهم إلى لعنة ومدينتهم إلى سجن مرعب فخرجوا عليه فى جماعة كبيرة حيث ألقوا عليه الشباك وقيدوا يديه ورجليه بالإغلال وأرادوا إلقاءه من الجبل ليهلكوه ولكن على حين فجأة مزق الشباك وقطع الأغلال ففروا من أمامه مرعوبين وضحكاته البشعة تستهزئ بهم وبكيدهم الضعيف. أدركوا من يومها أنه لاقبل لهم به ولذلك عندما يعلمون أنه قد جاء فإنهم يسرعون إلى حبس أنفسهم فى بيوتهم ويمنعون أطفالهم من الخروج الى الطريق ويبقون فى سجنهم صاغرين حتى يحسوا أنه قد اختفى.

لكنه الآن يجلس وديعا بين يدي هذا الرجل الغريب وسألوا «المسيح» عن نفسه وعن سبب مجيئه الى مدينتهم فأخبرهم أنه «نبى مرسل» من «الله» إليهم يدعوهم الى التوبة ويبشرهم بقرب مجئ الملكوت فرفضوا دعوته وطلبوا منه أن يبتعد عن تخومهم ولا يعود إليهم مرة أخرى بشياطينه !!

فقام «المسيح» ليغادر المدينة وتضرع إليه «الرجل» الذى كانت ترتديه الشياطين أن يأذن له بصحبته لكن «المسيح» طلب منه أن يعود إلى بيته وأن يحدث الناس بما صنع «الله» له فَقَبَّل الرجل «المسيح» وودعه باكيا وذهب ليعود إلى قريته أما «المسيح» فقد سار حزينا على الإنسان الذى يرفض يد «الله» التى تتقدم إليه بالرحمة ويؤثر صحبة الشياطين على التوبة.

وطاف «المسيح» فى القرى والمدن يبشر «بالملكوت» ويدعو الناس إلى التوبة. كان يترك البلدة التى ترفضه ويمكث فى البلدة التى تقبله بعض الوقت يعلم الناس شريعة «الله» ويصحح الأخطاء التى عاشوا طويلا عليها. يبين لهم كيف يتوبون الى «الله» ويستعدون للقائه ويشفى المرضى ويخرج الشياطين من «المجانين» ثم ينتقل إلى أخرى والتلاميذ يتابعون «المعلم » الغريب الذى لايستقر فى مكان وبدأ «الإيمان» يطرق أبواب قلوبهم التى عاشت طويلا فى الظلمات.

وكان الكثيرون من القرى والمدن التى يطوف بها «المسيح» يصحبونه بعض الوقت ليتعلموا منه أو ليروا «الآيات» التى سمعوا عنها كثيراً وكان «المسيح» يأذن لهم لعل كلمة «الله» تجد لها مكانا فى قلوبهم كما كان يفارقه الذين يعجزون عن مواصلة الطريق معه .

فى ظهيرة يوم شديد الحر إقترب «المسيح» مع الجمع الذى يصحبه من باب مدينة «نايين»(٢١٧) فإذا بجنازة كبيرة تتجه الى القبور. كان الرجال فى المقدمة يحملون النعش وقد ظهر الحزن على الوجوه وعلا صراخ النسوة ومن بين الوجوه الكثيرة التى تغيم ملامحها فى الغبار الذى تثيره الأقدام الزاحفة الى القبور. التفت «المسيح» إلى وجه أمرأة تجاوزت سن الشباب. كان وجهها ممتقعا يفيض بالدموع الساخنة. صامتة لاتصرخ لكن وجهها يفصح عن حزن لايستطاع وصفه. كان الميت هو أبنها الوحيد الذى رزقت به بعد زواج قصير انتهى بموت زوجها المفاجئ وهو فى سن الشباب فعزمت على أن تقضى مابقى لها من العمر فى خدمة إبنها. رفضت أن تتزوج مرة أخرى رغم أن الكثير من الرجال طلبوها لجمالها لأنها خافت أن يسئ من يتزوجها إلى ابنها الذى صار بالنسبة لها هو كل حياتها أو مابقى لها من الحياة. فعلت كل شئ من أجله حتى صار شابا رائعا. كانت مجرد رؤيته هى «النعيم» الذى يسر قلبها وكان الشاب صالحا بارا بها فاكتملت سعادتها به إلاّ أن يد «الموت» انتزعته فحزنت المرأة لفراقه حزنا لاتستطيع هى نفسه ان تصفه .

كانت تطمع أن يكون لها العصا التى تتوكأ عليها وهى تودع الشباب إلى غير رجعة والأنيس الذى يخفف وحشة الأيام الأخيرة ولكن «الموت» اختطفه منها ولم يعد لها إلا الحزن على فراقه واليأس من رجعته تقدم «المسيح» معترضا الجنازة وسط دهشة الجمع المحتشد ولمس النعش بيده يريد إيقاف المسيرة فوقف حملة النعش وقد استولت عليهم الحيرة من هذا «الغريب». وألتف الناس حوله فأمرهم أن ينزلوا النعش فأنزلوه ثم قال «المسيح» مخاطبا الميت «أيها الشاب بإسم «الله» أقول». لك قم نهض الشاب جالسا فى

النعش وهو يحاول أن يفك أكفانه فقال «المسيح» للواقفين حوله «حلوا أربطته» فلم يملكوا إلا طاعته وهم مذهولون مما يرون. ثم نهض الشاب واقفا وقد تهلل وجهه وأندفع يحتضن «المسيح» ويقبل يده فقبله «المسيح» ودفعه إلى أمه التى لم تكن تصدق ان ابنها الحبيب يمكن أن يعود إليها واستولى الخوف على الجميع وأخذوا يمجدون «الله» وهم يصيحون .

«لقد بعث «الله» فينا نبيا عظيما» .

«لقد افتقد الله شعبه».

وأقسم الشاب العائد من الموت أن ينزل «المسيح» عليه ضيفا وخرت الأرملة عند قدمي «المسيح» تريد تقبيلهما . قَبِلَ «المسيح» دعوة الشاب وأمه فنزل عليهما ضيفا مع من معه من «التلاميذ» وصار الناس يأتون إليه فى بيت الأرملة يسألونه شفاء مرضاهم وكثيراً ما أتى إليه الكتبة والفريسيون يريدون مجادلته لكنه كان يحب أن يخرج الى الحقول يمُعِن النظر فى آيات «الله» ويبين لتلاميذه معالم الطريق .

وفى صباح يوم شديد الحر أقبل جمع كبير من الرجال والنساء والأطفال على «المسيح» وهو جالس على الأرض أمام بيت الأرملة مع تلاميذه صرخ الناس «يانبى الله أدركنا».

«لقد أكلت الديدان القمح فى الحقول ولن نحصل على خبز من أرضنا هذه السنة»

فقال «المسيح» «ولماذا كل هذا الهلع ؟!».

«ألا تعلمون أن نبى «الله» «داود» قد عاش مايقرب من سنتين على الثمار البرية دون أن يذوق الخبز سوى مرتين فقط.

«ولقد عاش «إيلياس» (ايليا) «نبى الله» ثلاث سنين متغذيا على البقول والثمار البرية لم ير خبزا عندما اضطهده «أخاب» ملك اسرائيل فلماذا كل هذا الهلع الذى أصابكم ؟!»

قال شيخ طاعن فى السن قد أبيضت لحيته: «يانبى الله» إنهما كانا نبيين ولذلك

استطاعا زن يحتملا كل شئ. إن «الله» يطعم أنبياءه فيستطيعون إحتمال الجوع لأنهم يتغذون ثمرة «الروح» ولكن ماذا يفعل هؤلاء الأطفال وماذا نقدم لهم عندما يصرخون من الجوع ؟!

تحركت الرحمة فى قلب «نبى الله» وقال بصوت توشك أن تخنقه العبرات «كم بقى للحصاد» ؟

قالوا «عشرون يوماً»؟

قال «إذن يجب أن نقضى مدة هذه العشرين يوما فى الصلاة صائمين «لله» متضرعين له أن يرحمنا وثقوا أنه سيرحمنا».

وبقى «عيسى» معهم يصلى ويعظمهم حتى جاء موعد الحصاد وخرج الناس الى الحقول فرأوها قد تلألأت بالقمح فأسرعوا إلى «المسيح» يخبرونه بإستجابة «الله» لدعائهم فقال لهم «إذهبوا ياأخوتى وأجمعوا الخبز الذى أعطاكم «الله» وأشكروه .»

كان الحصاد وفيرا وتشاور أهل «نايين» فيما بينهم أن ينصبوا «المسيح» ملكا عليهم وأوحى الله بما يدور فى نفوسهم إليه فأسر إلى تلاميذه أن ينسلوا فى هدوء ويتجهوا شمالا إلى «صور» حيث سيلقاهم هناك واختفى «المسيح» من «نايين». لم يعثر عليه أحد من أهلها وتحير تلاميذه ولكنهم فى نهاية الأمر اضطروا إلى الإنصياع إلى أمره فأخذوا يحثون الخطى شمالا نحو «صور» الواقعة على حدود «الجليل» مع أرض «فينيقية» على البحر الكبير (البحر الأبيض المتوسط).

كانت الفتنة قد اندلعت فى «أورشاليم» وغيرها من المدن بسبب «المسيح» والمعجزات التى صنعها إذ أصر قادة الشعب من الكهنة وشيوخ الفريسيين على أنه ليس أكثر من ساحر قدير وخطيب بارع وقائد يستطيع أن يستحوذ على قلوب اتباعه وأن يخضعهم لسلطانه وأن «المُلْكَ» هو الغاية التى يسعى للوصول إليها لو كان مستعدا «للتعاون» معهم

مقدرا مكانتهم فى الشعب فربما أقبلوا على «التعاون» معه وساعدوا على تنصيبه «ملكا» لليهود ولكنه كان لايتورع عن إهانتهم أمام الشعب ولا يبالى بهم فلو تم تنصيبه «ملكا» لكان ذلك كارثة محققة إنهم بلاشك سيكونون أول الضحايا لذلك «العهد الجديد». سيفقدون مكانتهم ويتحولون الى «متسولين» إن لم يفقدوا حياتهم.

أما الشعب المقهور الذى طال عليه الأمد فى الذلة والمسكنة فقد إنبعثت فى قلوب أفراده ذكريات المجد الغابر التى تطالعهم فى الكتب والمواعظ وزستيقظ الأمل فى إعادة الزمن القديم فها هو «ملك» عظيم خارق القدرات يبعثه «الله» إلى شعبه ليخلصه من «الإستبعاد» للغرباء ويعيد إليه المجد الذى يستحقه وبدأ الناس يظهرون إحتقارهم للكهنة والكتبة وشيوخ الفريسيين الذين يناصبون «ملك اليهود» المنتظر العداء. أخذوا يسخرون من مواعظ الكتبة التى لاتستيطع أن تقف للمقارنة مع «مواعظ» «المسيح» الباهرة ويستهزءون بالكهنة الذين أفرطوا فى تملق السادة الرومان ويقارنون بينهم وبين «المسيح» الملك الموعود الذى لايعبأ بالرومان ولابغيرهم وأحس قادة الشعب بالخطر إذ عاينوا أنهم بدأوا يفقدون مكانتهم فى الشعب بسبب هذا «الساحر» القدير وألاعيبه المذهلة التى تستحوذ على قلوب الناس وعقولهم وكان لابد لهم أن يجتمعوا ليتدبروا أمرهم ويتوصلوا إلى أفضل الطرق لدرء هذا الخطر الداهم الذى يوشك ان يقتلعهم وأبلغوا الحاكم الرومانى «لأورشاليم» «بيلاطس» بالأمر ونبهوه الى خطورة تفاقم هذه الدعوى على سلطة «روما» المقدسة .

ولكن «بيلاطس» كان يدرك أن الحسد هو الذى يدفعهم الى هذا الموقف فلم يهتم بتحذيراتهم ولكنه من باب التحوط لكل الإحتمالات أصدر الأمر الى ضباطه وجنوده بأن يأخذوا حذرهم ونبه «عيونه» الى اليقظة الدائمة والمراقبة المستمرة .

اختلفت الأقوال فى «المسيح» فقال بعض «الرومان» أنه أحد الآلهة التى نزلت من السماء ومن الواجب على الشعب اليهودى أن يظهر الإحترام الواجب لهذا «الإله» الخاص به فلا أقل من إقامة تمثال فخم فى «الهيكل» وأعترض آخرون على هذا لأنه تشجيع لروح

التمرد على سلطة «روما» وتهييج للرغبة فى التحرر من الإستعباد وأختلفت طوائف الشعب اليهودى فى وصف «المسيح» بالرغم من شيوع الإعتقاد بأنه «المَلِكُ» الموعود فقال البعض إنه «نبى» جديد ذَكَرَ «الله» به شعبه وقال آخرون بل هو «نبى» قديم عاد من الأموات وهذا هو سر قدراته المذهلة فهو «روح» أفلت من قبضة الموت وأدعى أناس أنه «النبى» «أرميا» على وجه التحديد لأنه لايكف عن التوبيخ والتحذير من الغضب كما كان يفعل قبل إقتحام جنود «نبوخذ نصر» «للهيكل». هو «أرميا» أرسله «الله» مرة أخرى ليحذر الشعب ومن الواجب علينا أن نؤمن به وألانترك الكهنة يجلبون علينا الدمار مرة أخرى وأعلن البعض أن هذا «الرجل الناصرى» هو آخر الأنبياء الذين يرسلهم «الله» الى شعبه إنه «إيليا» وعلينا أن نستعد فقد إقتربت نهاية العالم وقالوا بل هو «الله» قد تجسد بشراً ليظهر نفسه لمخلوقاته وآخرون قالوا بل هو «ابن الله» لأن «الله» يستحيل أن ينحصر فى صورة واحدة محدودة وتحولت هذه الأقوال الى مناقشات محتدمة ثم الى اشتباكات بالايدى والاسلحة فى «أورشاليم» وبعض قرى «الجليل» حيث كان يبشر «عيسى» لذلك أحب «عيسى» أن يختفى عن الأنظار حتى تهدأ الفتن التى نشأت بسببه فأختبأ بعد خروجه من «نايين» ثم أخذ يشق طريقه خارج «الجليل» كله إلى «صور» حيث أمر تلاميذه ان ينتظروه هناك.

كان التلاميذ يسيرون على شاطئ البحر عند «صور» على غير هدى قد امتلأت قلوبهم بالحيرة ينظرون الى البحر الواسع الذى يمتد حتى نهاية الأفق لاتتوقف مياهه عن التدفق والإهتزاز فيملأهم الخوف من المصير المجهول الذى أصبحوا أسرى فى قبضته القوية الغامضة .

لقد صاروا يحملون زادهم على ظهورهم يتنقلون من قرية إلى أخرى ومن شاطئ البحر الى الصحراء يبيتون حيث يقف بهم السير لايعلمون لسيرهم نهاية ولايعرفون متى يستقرون إلى أين يذهب بهم هذا «المعلم» الغريب؟!

لماذا أمرهم بالتسلل فى الخفاء من «نايين» والمجئ إلى هنا ماذا سنفعل فى هذه البلدة الغريبة ؟

هل سنعيش مع الفنيقيين ونترك شعبنا ؟

ولماذا لم نبق فى «نايين» وقد بالغ أهلها فى إكرامنا ولماذا لايريد أن يصبح ملكا ولماذا اختفى ؟ واين هو الآن؟ بل من هو «إننا حقا لانعرف من هو !»

كانوا يسيرون على الشاطىء وقد بدأ كل واحد منهم يفكر فى العودة إلى بيته وأهله ليمارس حياته كما كان يفعل من قبل ان يتعرف على هذا «الإنسان الغريب» الذى أحال حياتهم الى لغز محير موغل فى الغموض.

وجاء «المسيح» كان يسير هادئا على الشاطئ يقترب منهم لكن وجهه كان يفصح عن كآبته فأطبق عليهم الصمت كانوا يريدون أن يسألوه عن سر كل هذا الإضطراب وسبب هذه الرحلة التى لاضرورة لها ولكن كآبته أجبرتهم على الصمت. ساروا وراءه مطرقين الى الأرض يختلسون النظر من آن لآخر إلى وجهه الحزين وهو يرنو الى الأفق كأنه ينتظر شيئا هناك.

لم يقل لهم شيئا بل ظل صامتا يسير متجها الى الشمال كأنه يريد الذهاب الى «صرفة» أو «صيدا» «هل سيأمرنا بالهجرة من بلادنا ؟ أم أنه يريد الهرب ولكن مما يهرب؟! هل علم «الرومان» برغبة الناس فى تنصيبه ملكا فقرروا القضاء عليه. «سوف نقتل فى هذه المذبحة التى لامعنى لها ماذا يخبئ لنا هذا الرجل الغريب الأطوار؟!»

وعلى حين فجأة هرولت نحوهم أمرأة فنيقية فرمت بنفسها عند قدمي «المسيح» «يا ابن «داود» أرحمنى فإن ابنتى معذبة(٢١٨) لقد ربطناها وخرجنا من بلدتنا نريد لقاءك بعدما سمعنا عن معجزاتك فى شفاء المرض. إن الإله القدير هو الذى أرسلك إلينا الآن وألهمنى أنك أنت «عيسى الناصرى» فارحم الطفلة المسكينة التى يعذبها الشيطان». وأخذت المرأة

تجهش بالبكاء وقال ابنها الأكبر «أيها السيد الطبيب إرحمنا لأن المسكينة الصغيرة تتعذب وتعذبنا إن روحاً خبيثا يستولى عليها فتهيج فتأخذ فى تحطيم كل ماتجد أمامها ثم تأخذ فى تحطيم نفسها تضرب رأسها فى الجدران أو فى الأرض أو تتناول حجرا وتجرح به جسدها حتى تسيل منها الدماء وهى تصرخ صرخات مفزعة أو تضحك ضحكات بشعة لامعنى لها فأرحمنا أيها الطبيب».

لكن «المسيح» ظل صامتا لا يتكلم ثم واصل طريقةدون أن يفعل شيئا كأنه لم يهتم بما سمع فأخذت المرأة تسرع وراءه وهى تصرخ «أيها الملك العظيم يابن «داود» أرحمنا أيها الطبيب أرحم التى يعذبها الشيطان .»

كان التلاميذ يتعجبون ويتحيرون من «قسوة» المعلم اليوم واندفع الناس يتجمعون حولهم بسبب صياح المرأة.

فقال واحد من التلاميذ «يا معلم تحنن عليهم وأنظر الى حزنهم وصراخهم ».

وقال آخر «إفعل لها شيئا حتى تنصرف فإن صياحها يجذب الناس إلينا».

فوقف «المسيح» وقال للمرأة «إننى لم أرسل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل التى ضلت فدعى البنين يشبعون أولا فليس حسنا أن يؤخذ طعام الأطفال ويلقى الى الكلاب» .

فقالت المرأة وقد وقفت وتمالكت نفسها: «نعم أيها السيد العظيم ولكن الكلاب تأكل أيضاً من الفتات الذى يسقط من المائدة ».

فتعجب «المسيح» من إيمانها وتهلل وجهه حتى أوشك أن يضحك لفطنة المرأة وفصاحتها وقال لها فى احترام: «عظيم إيمانك يا أمرأة من أجل هذه الكلمة ليكن لك كما تريدين اذهبى فإن ايمانك قد شفى ابنتك. هى الآن تجلس هادئة على سريرها »

فابتسمت المرأة وأخذت تهرول عائدة الى بيتها لتنظر هل تحققت كلمة «المسيح» .

وكان جمع كبير من الناس قد تجمعوا على صياح المرأة وبكائها وأخذوا يتساءلون عن

هذا «الغريب» والذين معه وعرفه بعضهم وخشى «المسيح» أن يطلبوا منه البقاء عندهم فأسرغ بالذهاب كأنه يهرب لأنه لم يكن يريد أن يعلّم والتلاميذ يحاولون اللحاق به ويتساءلون عن سر كل هذا الإضطراب .

عندما صاروا فى مكان منعزل خال من الناس توقف «المسيح» ليستريح وقد زالت كآبة وجهه فتشجع التلاميذ على الحديث معه «فسألوه لماذا قلت للمرأة أنهم كلاب ؟».

فقال «المسيح» : « «الحق أقول لكم إن الكلاب أفضل منهم». فصدمتهم كلمات «المسيح» وأفزعتهم القسوة البادية فى كلماته وصوته والكآبة التى عادت لتطل من وجهه وواصل «المعلم» حديثه الجاف قائلا «أيها الجهال لو أمعنتم النظر إلى ما يفعله الكلب الذى لا عقل له مع سيده لعرفتم أن كلامى صحيح. أنظروا إلى ما يفعل الكلب فى خدمة صاحبه ألآيحرس البيت ويعرّض نفسه للصوص ويظل وفيا لسيده ؟!.»

«بلى لكن ماذا يكون جزاءوه ؟»

«قليل من الخبز والعظم مع ضرب كثير وعقاب مستمر ومع ذلك فإنه يظل يظهر لسيده وجها مسرورا ويهز ذيله فرحا به إذا رآه مقبلا عليه من بعيد .»

«أليس هذا صحيحاً»

قالوا «بلى» أنه لصحيح يا معلم»

قال: فانظروا إلى مايفعل الانسان مع «الله» لتعرفوا أن الكلاب أفضل »

«إن هؤلاء غير المختونين يعبدون غير «الله». الله هو الذى خلقهم لكنهم يعبدون غيره ويرزقهم فيشكرون سواه ما أعظم النعم التى وهبها «الله» للإنسان لكن تلك الشعوب تتخذ لها سيداً غيره خائنين لعهدهم معه إذ أقسموا ألاّ يعبدوا غيره. ألم يصف «داود» «جالوت» (جليات) بأنه مثل الذئب أو الدب». لكن التلاميذ لم يهتموا الإ بالختان فسألوا «المعلم» عن السبب الذى أمر «الله» من أجله بالختان فقال وقد بدأ يستولى عليه الضجر من قلة

إيمانهم وتفاهة اهتماماتهم «يكفيكم أن تعلموا أن «الله» أمر به «ابراهيم» إذ قال له «يا أبراهيم اُقطع غرلتك وغرلة أهل بيتك ليكون ذلك شهادة على العهد بينك وبينى إلى الأبد .»

لكنهم ظلوا مهتمين بمعرفة الحكمة من الختان وأصله فأخبرهم «المسيح» أن «آدم» لما عصى «الله» وأكل من الشجرة المحرمة ونزل إلى الأرض مطرودا من الجنة فإنه غضب على نفسه التى دعته الى معصية «الله» وأقسم أن يهلكها فأرشده «الله» إلى قطع تلك الزائدة من جلده ليكون ذلك وفاءً بالقسم الذى أقسمه وتذكاراً دائماً له حتى لا ينسى عهد «الله» فكان الختان شاهداً على العهد بين «الله» والإنسان ثم نسى الإنسان عبادة «الله» وانتشرت عبادة الأصنام فى الارض وتُركَ الختان وجاء «ابراهيم» ليجدد عهد الإنسان مع «الله» ولذلك سُن الختان تذكيرا بعهد «الله» .

كان «المسيح» يتكلم وقد أفصح صوته عن احتدام الغضب فى قلبه فالتزم التلاميذ الصمت وساروا وراءه مطرقين .

ظل صامتا لا يتكلم والتلاميذ يتهامسون فيما بينهم عن سبب هذا الفرار والى أين يتجه بهم كان يجلس كلما أحس بالتعب ثم يقوم ليواصل السير حتى وصلوا الى مدينة قيصرية فيلبس (فيليب) فى بادية الشام (الجولان) وهى المدينة التى بناها «فيليبوس» رئيس بادية «الشام» تخليدا للقيصر «أغسطس» . وعندما صاروا فى مكان منعزل التفت الى تلاميذه فجأة وسألهم

ماذا يقول الناس عنى (٢١٩) ؟.

«قالوا يقول البعض إنك «ايليا» الذى يبعثه «الله» قبل يوم القيامة ويقول آخرون أنك أحد الأنبياء وآخرون يدعون أنك «أرميا» وقد رجع من الأموات .»

قال «وماذا تقولون أنتم فى» ؟ .

فاندفع «بطرس» يقول «إنك المسيح إبن الله» (٢٢٠)

فأحمر وجه «المسيح» من الغضب وصرخ فى « بطرس» «إذهب بعيداً عنى ياشيطان» . إنك تريد أن تسىء إلىَّ » ثم توجه الى التلاميذ الآخرين الذين صدمهم غضبه العارم ويل لكم إذا صدقتم هذا البهتان الفظيع. إن «الله» قد كتب اللعنة على كل من يدعى هذا الباطل ».

«إننى أخشى أن تنزل السماء علينا أو تبتلعنا الأرض بغضب الله» فارتاع التلاميذ أما «بطرس» فقد ابتعد حزينا وجلس منفردا يبكى فى مرارة وأخذ التلاميذ يتضرعون إلى «المسيح» ليصلى من أجله فقال لهم «سرتم معى زمنا. وسمعتم منى وسألتمونى وأجبتكم بعد كل هذا لا تعرفون من أنا.»

وجلس على الأرض مطرقا وأبتعد التلاميذ وأخذوا يطلبون من «بطرس» أن يذهب إلى «المعلم » ليسترضيه ويعتذر عن خطئه فتقدم «بطرس» على استحياء وقال بصوت ذليل «يامعلم اغفرلى لأننى تكلمت بغباوة» قال «المسيح» «بل أطلب من «الله» أن يغفر لك. لقد قلت ماقالته الشياطين عنى »

قال «بطرس»: «ليغفر «الله» لى فصلى من أجلى يا نبى «الله»

قال «المسيح» : «الا تعلمون أن «الله» قد خلق كل شىء بكلمة واحدة .»

«ألا تعلمون أن «الله» قد خلق البشر جميعاً من قطعة من الطين. منشأ البشر جميعاً هو كتلة من الطين وأنا واحد منهم. من ظهر «آدم» الذى سواه «الله» من الطين خرجنا جميعا أنبتنا «الله» من الأرض كما تنبت الأشجار».

«ومن جسد أمى التى ولدتنى اكتسبت جسدى هذا فهى أمى وأبى ومن «الملكوت»الذى وهب كل إنسان حياته اكتسبت «روحى» فأنا بالجسد ابن «مريم بنت عمران» وبالروح «ابن «الإنسان» «روح الله»الذى تمثل لأمى الطاهرة بشراً سوياً ونفخ فى رحمها حيث كنت كلمة مستورة فخرجت من الغيب وصرت بشراً أرسلنى «الله» إلى بنى اسرائيل أدعوهم

الى التوبة وأبشرهم بقرب ظهور «الملكوت» الذى وهبنى ووهب كل شىء حياته إذ يخرجه «الله» نبيا بشرا رسولا الى جميع الأمم فويل للذين يرفضون تبشيرى وويل للذين يَدعُون الشيطان يخدعهم ».

كان «المعلم ي»تكلم وهو يمتلأ بالغضب.

فأخذ التلاميذ يبكون وقد أحسوا أنهم يشرفون على الهلاك. فتضرعوا الى «المعلم» أن يستغفر لهم «ربه» وأن يصلى من أجلهم فاعتزلهم «المسيح» كما اعتاد أن يفعل عندما يريد أن يصلى منفرداً وظل التلاميذ ينتظرونه وطال انتظارهم حتى هبط الليل فاستولى عليهم الفزع ولم يعرفوا ماذا يفعلون فى هذه البلدة الغريبة طفقوا يبحثون عن «المعلم» فى كل مكان دون جدوى. لقد أختفى ولم يعرفوا الى أين ذهب. هل صعد إلى ربه ؟ هل هجرهم غاضبا ؟ تُرى أين ذهب ؟

أهكذا تنتهى قصته على الأرض ولن يصير ملكا لليهود؟! ماذا يفعلون الآن؟ هل سيشكوهم إلى «الله»؟ أيمكنهم أن يعودوا الى سيرتهم الأولى قبل أن يروه؟ بحثوا عنه فى كل مكان. بعضهم ذهب الى «الناصرة» يسأل عنه وذهب آخرون الى «أورشاليم» وبحث عنه بعضهم فى «كفر ناحوم». كانوا يتفرقون للبحث عنه ثم يلتقون ثم يعودون للبحث عنه مرة آخرى دون جدوى.

ثم حاول كل منهم بعدما يئسوا من العثور عليه أن يرجع الى أهله ليعاود معيشته التى كان يمارسها قبل أن يلتقى «بالمسيح» ولكنهم أدركوا أنهم لايستطيعون.

عاينوا أنهم لايقدرون أن ينسوا «المعلم» وكلماته لقد ترك «المسيح» فيهم أثراً لايمحى. شيئا لايمكنهم تجاهله. صاروا يعجزون عن أن ينغمسوا فى حياتهم الدنيا كما كانوا يفعلون قبل أن يلتقوا به فعادوا يبحثون عنه من جديد. وكالأطفال الذين ضاع منهم أبوهم فى زحمة السوق كانوا يشعرون بالضياع .

(١٩)

«ابن الانسان»

«هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحدوليذكر أولو الالباب»

«ابراهيم ٥٢»

هام «المسيح» على وجهه متجها صوب «دمشق» يريد الفرار من الشعب الضال الذى دعاه إلهاً أوابنا «لله» بعد أن كان يكفر به ويرميه بالسحر والجنون حتى التلاميذ الذين أذن لهم بصحبته وظل يعلمهم ويضرب لهم الامثال ويفسرها لم يعرفوه ولم يؤمنوا به كما يريد «الله».

لقد بعثه «الله» الى الدنيا ليكون دليلا يهدى الناس الى ربهم ولكن هاهو يتحول الى صنم يعبد من دون «الله» وياله من مصير رهيب لم يخطر له علي بال «أيمكر به الله كما مكر بإبليس ؟! ».

وأحس «عيسى» بأن الأرض تميد به وأن السماء توشك أن تتفتت لتسقط عليه فخر إلى «الله» ساجدا وأخذ يمرغ وجهه فى التراب ويبكى متضرعا الى «الله» أن يأخذه من هذه الدنيا المجنونة أن يرفعه من هولاء الناس الذين لايريدون أن يؤمنوا. فلما أنزل الله سكينته عليه هدأ قلبه وجفف دموعه ودخل فى صيام «لله» يطلب به البصيرة والنصر على الشيطان وجنوده..

ثم خرج «المسيح» من عزلته وذهب الى شاطئ نهر الأردن حيث التقى بالنبى «يحيى بن زكريا» فتعانق الرجلان الصالحان ورآه بعض تلاميذ «يحيى» الذين يلازمونه وكانوا يعرفون أن «بيلاطس» الحاكم الرومانى لأورشاليم واليهودية قد أعلن عن جائزة مالية لمن

يعثر على «عيسى الناصرى» فذهبوا الى «أورشاليم» وأخبروا الحاكم والكهنة أن المدعو «عيسى الناصرى» قد ظهر عند شاطئ الأردن فى صحبة «يحيى بن زكريا»

وكانت الإضطرابات قد إستمرت فى «أورشاليم» بسبب الخلاف حول «المسيح» واختلف قادة الشعب فيما بينهم إذ أصرت الغالبية منهم على أن المدعو «عيسى الناصرى» ليس إلا دعى مخادع يستطيع أن يسيطر على العوام والجهال بسحره وفصاحته وذهبت قلة منهم إلى ضرورة الاستماع الى الرجل وأمتحانه فلعله يكون المسيح أو «مسيا» المذكور فى الكتب لأن الايات التى أظهرها وتواترت أنباءها يستحيل أن تتحقق إلا على يد رجل مؤيد من «الله» .

أما الشعب الباحث عن الخلاص والمنبهر بالمعجزات التى صنعها الرجل القادم من «الناصرة» فقد وجد فيه «الملك» المنقذ الذى يستطيع أن يخلص شعب «الله» من محنته وتصارع المختلقون فى «المسيح» بالأيدى والاسلحة وأشتبكوا فى معارك رفع فيها الأخ يده على أخيه والأبن على أبيه(٢٢١) وتدخلت السلطة الرومانية لفض هذه الاشتباكات كان مايعنى «بيلاطس» الحاكم الرومانى أساسا هو الادعاء بأن «عيسى الناصرى» يعمل على تنصيب نفسه ملكا لليهود ولذلك عندما جاء الى «أورشاليم» من يخبر بأنه رأى «عيسى» يسير على شاطئ الأردن فى صحبة «يحيى بن زكريا» إهتم «بيلاطس» وأصدر أوامره لضباطه بأن يبعثوا ببعض القوات بصحبة من يستطيع التعرف عليه للبحث عنه وأحضاره لاستجوابه بشأن هذه الدعوة خاصة وأن الفصح على الأبواب حيث تزدحم «أورشاليم» وعلم تلاميذه الذين كانوا يتحرقون شوقاً إلى رؤيته فخرجوا للبحث عنه وعثر عليه «برنابا» ويعقوب ويحيى (يوحنا) أبنا «زبدى» فبكوا بكاء مراً لما رأوه جالسا مع النبى «يحيى بن زكريا» وعاتبوه عتابا شديدا «لماذا تركتنا لقد ضعنا فى غيابك كاد أن يقتلنا الحزن على فراقك».

قال «المسيح» «عما قليل ستشهدون الفتنة العمياء التي اندلعت فى بنى اسرائيل».

واستأذن «المسيح» و«يحيى بن زكريا» فى الذهاب إلى «أورشاليم» لقمع الفتنة التى نشأت فى الشعب بسببه وازهاق الباطل الذى نما فى القلوب التى استحوذ عليها الشيطان وسأله أن يدعو «الله» له بالتوفيق والسداد وتعانق النبيان وافترقا.

كان «المسيح» يحث الخطى نحو «أورشاليم» مع من لقيه من التلاميذ حين رآه أحد الرجال الذين يؤمنون أن «المسيح» هو «الله» قد تجسد فى صورة البشر(٢٢٢) فهرول نحوه صارخا يكاد يطير من الفرح ثم سجد على الأرض عند قدمى «عيسى» وهو يصيح «مرحباً بالإله القادر على كل شئ».

فأحمر وجه «عيسى بن مريم» بالغضب وأنتهره قائلا «إرفع رأسك أيها الملعون فإننى لست ألا عبدا «لله» الإله الوحيد القادر على كل شئ».

ولكن الرجل لم يهتم بما قال «المسيح» ولم يلتفت إليه بل أخذ يعدو داخلاً المدينة وهو يصرخ بأعلى صوته «إفرحى يا «أورشاليم» فإن آلهك قد حضر إليك».

«يابنت صهيون ابتهجى وتهيأى لإستقبال الرب المجيد».

كان «المسيح» يحاول أن يتمالك نفسه وهو يشعر أن الأرض تميد به والسماء توشك أن تنفتح لتصب غضب «الله» عليه وعلى هذا الشعب الضال وأسرع الخطى نحو «الهيكل» والناس يجتمعون حوله لصياح الرجل إذ خرج الرجال والنساء والأطفال يستطلعون سر هذا الصراخ واشتبك بعضهم مع الرجل الصارخ.

ـ كيف تدعى أيها الكافر أن هذا الرجل هو «الله»

ـ «وهل يمكن لغير «الله» أن يصنع كل هذه المعجزات التى رأيناها وسمعنا عنها».

«يالك من أحمق مجنون»

ـ «بل إنك أنت الأحمق المجنون»

ـ «إذن خذ هذه لعلك تفيق من أوهامك» وصفعه صفعة قوية على خده فرد عليه الآخر بلكمة وأشتبك الرجلان ثم أتسع نطاق الإشتباكات. هاج الناس بالإضطراب و «المسيح» يهرول نحو «الهيكل» والناس تسعى وراءه وأمام «الهيكل» خر له جم غفير من الناس وهم يصرخون «مرحبا بإلهنا المقدس» وآخرون يقولون «ليتمجد إبن «الله» العلى».

فلطم «عيسى» خديه وهو يصرخ مذهولا «أرفعوا رؤوسكم أيها المجانين. إننى أمقتكم وأمقت كلامكم الكريه. أغربوا عن وجهى إننى أخشى أن تفتح الأرض فمها لتبتلعنى وأياكم فى الجحيم(٢٢٣).

فارتاع الساجدون ورفعوا رؤوسهم وهم يتحيرون «ما الذى اغضبه» وأخذوا يبكون.

وتجمع الناس وتزاحموا حول «المسيح» الذى أخذ يصرخ وهو يومئ إليهم بالصمت «أصمتوا اصمتوا إننى أريد أن أبلغكم رسالة» «الله» يابنى اسرائيل لقد ضللتم ضلالا بعيدا إذ دعوتمونى إلهاً(٢٢٤) أو ابنا «لله» ولست إلا إنسانا عبدا «لله» أننى أخشى أن ينزل «الله» غضبه على هذه المدينة بسبب هذا الكفر الفظيع.

«لعن «الله» أبليس الذى أشعل فيكم هذه الفتنة» وصفع «عيسى» وجهه بكفيه وخر على الأرض باكيا ممرغا وجهه فى التراب فعلا نحيب الجمع المتزاحم حتى لم يعد يسمع إلا البكاء.

ثم تمالك «المسيح» نفسه وهدأ النحيب فقام من سجوده وقد تعفر وجهه بالتراب وسالت الدموع على خديه فصنعت بمائها طيناً لطخ صفحة وجهه المشرق «أيها الناس إننى برئ من كل ماقلتم بشأنى».

والتفت الناس إلى مجئ كوكبة من الفرسان إذ كان «بيلاطس» قد خرج ليستطلع

الأمر بنفسه وخرج «رئيس الكهنة» وعليه الملابس الكهنوتية يحيط به جمع من «الكهنة والكتبة وشيوخ الفريسيين» وأقترب الجمعان من «المسيح» واندفعت الجنود لتصنع حلقة واسعة تحيط بـ «المسيح» وتمنع الجمهور الغفير من الاقتراب .

نزل «بيلاطس» من فوق حصانه وترجل ومعه ترجمانه ورجال حاشيته وتقدم الكهنة مع رئيسهم نحو «المسيح».

وطفق الناس يتدافعون مقتربين يريدون الاستماع الى مايدور من حديث ورؤية مايقع عن قرب فأخذت الحلقة تضيق وأجساد الجنود دورعهم وسيوفهم تصنع حاجزا يمنعهم من اختراق الدائرة التى يقف فيها «المسيح» فى مواجهة «بيلاطس» ورجاله مع رجال الهيكل.

قال رئيس الكهنة(٢٢٥) «إن الشعب قد اضطرب بسبب تعليمك وماقيل عن المعجزات التى قمت بها حتى أن بعض المجانين صاروا يقولون إنك «الله» وآخرون يقولون إنك ابن «الله» ويقول البعض أنك «نبى» لذلك نطلب إليك فى حضور الوالى العظيم «بيلاطس» وأشار اليه وهو ينحنى أمامه اظهارا لاحترامه. «أن تخمد هذه الفتنة التى ثارت بسببك وأن توضح لنا ماذا تريد» ؟

فقال «المسيح» ولماذا لم تخمد الفتنة أنت وأنت رئيس كهنة الهيكل ؟ أليست عندكم شريعة «موسى» وكتب الأنبياء ؟ هل صارت كتب الأنبياء شيئاً لاقيمة له ؟

«وإذا كان الشعب قد أصابه الجنون فهل جننت أنت أيضا ؟»

«لماذا لم تستطع أن تخمد الفتنة وعندكم شريعة «الله» ؟»

«ويل لكم يامن تركتم الشيطان يخدعكم ؟»

وبوغت رئيس الكهنة بهذا التوبيخ «الفظيع» أمام الناس وأمام الحاكم الرومانى الذى لاحت على وجهه ابتسامة ساخرة وهو يعطى أذنه للترجمان الذى كان ينقل إليه كلام «عيسى» وتذمر الكهنة والكتبة ولكن رئيس الكهنة لم يجد مناصا من تفويت الفرصة على

«عيسى» فقال صاغراً «ليغفر الله لنا ونطلب منك أن تصلى من أجلنا ومن أجل المدينة المقدسة.(٢٢٦)

قال «المسيح» «إننى أشهد أمام «الله» وحملة عرشه وملائكته وجميع الأنبياء والرسل وأمام كل خلق «الله» إننى بشر فان مولود من رحم أمرأة فانية أكابد الالام الجوع والعطش وأعانى من إخراج القاذورات من جسمى وعرضة لأقدار «الله» أعيش كسائر الناس وإننى برئ من كل قول يجعل منى أكثر من إنسان مخلوق ومتى جاء «الله» ليحاسب خلقه فإننى سألعن كل من جعلنى أعظم من إنسان.

قال «بيلاطس» «ياسيد إنه من المحال أن يستطيع بشر عادى أن يفعل ماقيل أنك فعلته».

فأجاب «عيسى» وهو يخاطب الترجمان «قل له إنه يقول ذلك لأنه لم يؤمن بإلهنا الواحد القادر على كل شئ ولم يقرأ كتب أنبيائنا فإن «موسى بن عمران» قد شق البحر بعصاه وحجب الشمس عن مصر كلها أياما وأستطاع «يوشع بن نون» أن يوقف الشمس بصلاته وأن يشق نهر الأردن معبرة لبنى اسرائيل دون أن تبتل أحذيتهم وأنزل «إيلياس» النار والمطر من السماء......

«ولم أفعل شيئا من كل ذلك وكثيرون غيرهم من الأنبياء والأطهار فعلوا بقوة «الله» أشياء لاتستطيع أن تتصورها أذهان الذين لايؤمنون «بالله» الواحد القادر على كل شئ.»

«والجميع يعترفون أن «موسى ويوشع وإلياس» وغيرهم من الأنبياءهم بشر قد ماتوا وينتظرون بعثهم فإن الإنسان يشبه حانوت يتنافس للدخول والعمل فيه إثنان «روح الله» و «إبليس»».

«فإن ظفر به «روح الله» صنع الإنسان الخير واستطاع أن يفعل مالايخطر على بال أحد من الذين لايؤمنون «بالله» وان استحوذ عليه الشيطان صنع الإنسان الشر واستحق أن يلقى فى العذاب الأبدى.

وبدا على وجه «بيلاطس» التفكير العميق والإهتمام بما قاله «المسيح» وأخذ ينظر إليه فى احترام ولكن الجمع المتزاحم بدأ يعلو صوته يريد الاستماع إلى مايقال ومعرفة مايدور فطلبوا من «المسيح» أن يرتقى مكانا مرتفعا ليتمكن الشعب من الإستماع إليه وطلب «المسيح» من رئيس الكهنة أن يرتفع معه ليتمكن من التحقق من كلامه.

ثم قال «المسيح» بصوت مرتفع وقد بدأ الصمت يخيم على الجمع المحتشد.(٢٢٧)

«لقد كتب فى عهد «الله» الحى أن ليس «لله» بداية ولايكون له نهاية أليس هذا صحيحاً أيها الكاهن ؟»

قال كبير الكهنة «بلى».

قال المسيح «وآلهنا قد خلق كل شئ بكلمته ولاتستطيع العقول أن تحيط بعلمه أو أن تدرك كنه ذاته ولا يطرأ عليه تغيير ولايتركب من أجزاء.

قال كبير الكهنة «نعم يامعلم».

قال «المسيح» «ومكتوب أن السماوات والأرض لاتسعه لإنه غير محدود أو منتهى ولاينحصر فى صورة».

وصمت الكاهن وهو يحاول أن يتابع بذهنه تدفق كلمات «المسيح».

قال «المسيح» وآلهنا لا يأكل الطعام ولاينام ولايعتريه نقص أو مرض ولايموت فهو حى على الدوام.»

قال الكاهن «نعم إنه لكذلك».

قال المسيح «وآلهنا لايخلو منه مكان ومكتوب أن لا إله سواه وهو الذى يحيى ويميت وينفع ويضر ويفعل كل مايريد» قال كبير الكهنة «نعم هكذا كتب».

وحينئذ رفع «المسيح» يديه وقال في صوت مهيب «آلهى هذا هو إيمانى الذى آتي به

إليك فى يوم الحساب شاهدا على كل من يؤمن بغير هذا ثم خاطب الشعب قائلا «والآن عرفتم خطيئتكم من كل ماقال الكاهن أنه مكتوب فى أسفار موسى والأنبياء فاستغفروا ربكم وتوبوا إليه فإن كلام «الله» لايتغير إلى الأبد.»

«هاأنذا بشر منظور منحصر فى هذا الجسد المخلوق من طين الأرض كانت لى بداية وستكون لى نهاية. ولدت من رحم أمى «مريم أبنة عمران» فأنا قطعة من الطين وهبت سر الحياة من «روح الله» الذى وهبكم ووهب كل مخلوق حياته فأنتم أخوتى يا أبناء الانسان وأنا بشر يموت كسائر البشر.

«فاستغفروا ربكم وتوبوا إليه لئلا يحل عليكم غضبه» فارتفع صوت البكاء من الجمع المحتشد وتعالت أصواتهم «لقد أخطأنا فاغفر لنا يارب» وقالوا «للمسيح» إستغفر لنا ربك وصلى من أجل المدينة المقدسة لكى لايدفعها «الله» فى غضبه لتدوسها الأمم فقال «المسيح» «ليرحم الله من يتوب»

لكن الكهنة والكتبة والشيوخ أكلت قلوبهم نار الحسد إذ عاينوا تدفق الكلمات من فم «عيسى» كأنها شلال من النور يفصح عن حفظ متين للنصوص وفهم عميق لها لم يكن يتلعثم أو يتردد أو يحتاج إلى مراجعة أقواله بل كانت الأقوال تنساب من فمه فى يسر كأنها المطر ينزل من السماء ولاحظوا أنه استطاع أن يسيطر على مستمعيه الذين سكنوا تماما وأصاخوا السمع إلى كلماته وأدركوا انه فى بساطة استطاع ان يزيل الشقاق الذى دب بين أفراد الشعب ودفعهم إلى حمأة الصراع الذى بلغ حد الاقتتال فأخذ المتخاصمون والمتقاتلون يعتذرون إلى بعضهم البعض ويتعانقون طلبا لإصلاح ذات البين.

والأهم من كل ذلك أنه ظفر بإحترام «بيلاطس» الحاكم الرومانى وحاشيته وقد بدا ذلك الإحترام واضحاً فى نظرات «بيلاطس» الى وجه «المسيح» وهو يزداد تألقا وأحس الكهنة والشيوخ أنهم سرعان مايفقدون مكانتهم فى الشعب وأهميتهم بالنسبة للحاكم الرومانى إن استمر «المسيح» فى خطابه المبهر الذى يأخذ بالألباب ولكن «المسيح» كان

يزمع الإنصراف إذ أدرك أنه قد حقق الهدف الذى جاء من أجله الى «أورشاليم» وفى محاولة من كبير الكهنة لإستعادة المكانة التى أحس بعمق أنها قد أوشكت على الضياع إلى الأبد قال فى صوت عال «قف ياعيسى لأننا لم نعرف حتى الآن من أنت ولا ماذا تريد ؟ » أتريد أن تصبح ملكا لليهود ؟!

إنتبه بيلاطس وحاشيته وخيم الصمت المفعم بالتوتر على الجمع المحتشد.

قال «المسيح» «أنا عيسى بن مريم» بشرٌ فانٍ خلقنى «الله» دون أب من البشر لأكون لكم آية تعرفون بها كيف يخلق «الله» الأشياء وتعلمون بها قدرة «ربكم» الذى لايعجزه شئ أطلعنى «الله» على كتاب علمه وعلمنى التوراة التى أوحاها إلى عبده ورسوله «موسى بن عمران» وجعلنى نبيا وأرسلنى إليكم لأدعوكم الى التوبة وأبين لكم بعض الذى تختلقون فيه من كلام «الله» ولأبشر «بالملكوت» الذى نفخ فى رحم أمى فوهبنى كما وهب كل شئ الحياة ولست إلا عبداً من عباد «الله» أرجو أن أكون من الصالحين ولاأريد سوى تمجيد «الله» الذى له المجد الى الأبد.»

إطمأن «بيلاطس» وحاشيته لأن الرجل لم يشر الى «الملك» من قريب ولابعيد فهو لايطلب إلا عبادة ربه وهذا أمر لايضير «روما» فى شئ وبدأ «بيلاطس» يفقد اهتمامه بما يدور من حديث بين «عيسى» ورئيس الكهنة الذى واصل كلامه قائلا:

«إننا نعتقد من كلامك وماقيل عن معجزاتك أنك ربما تكون نبيا ولذلك أطلب اليك أن توضح لنا هل أنت الرجل الذي كتب فى أسفار «موسى» أن «الله» يرسله ليخبرنا بكل مايريد ويكون رحمة للعالم كله ؟»

قال «المسيح»(٢٢٨) حقا إن «الله» وعد بهذا وسيحقق «الله» وعده ولكننى لست هو إنما أرسلنى «الله» إليكم لأبشركم بمجيئه لأنه سيأتى بعدى فعندما يأخذنى «الله» من الدنيا وينجح الشيطان اللعين فى إثارة هذه الفتنة العمياء مرة أخرى إذ ينجح فى حمل الذين لايتقون «الله» على تنجيس تبشيرى وتغيير تعليمى فتعود الضلالة لتنتشر فى الدنيا

كلها فيعتقد «الضالون» أننى أنا «الله» وأننى ابن «الله» ولايكاد يوجد على الأرض إلا القليل من المؤمنين فحينئذ يرحم «الله» الدنيا فيرسل إليها رسوله الذى يختم النبوة وسيأتى من الجنوب وسيبيد عبادة الأصنام من الأرض ويزيل سلطان الشيطان على الإنسان وسيحمل الخلاص ورحمة «الله» لكل الذين يؤمنون به من كل الشعوب ويكون كل من يؤمن بكلامه مباركاً. هو الذي يتحقق به وعد «الله» إلى «ابراهيم» إذ قال له «بنسلك أبارك كل قبائل الأرض فذلك الرسول النبى الخاتم هو البركة التى تنال كل قبائل الأرض اذ سيكون رسولاً الي جميع الناس وليس لأمة واحدة.

قال كبيرالكهنة(٢٢٩) «لاتحزن ياعيسى ولاتزعج نفسك فإن هذه الفتنة لن تحدث مرة آخرى لأننا سنرجو من السيد المبجل «بيلاطس» أن يكتب إلى مجلس الشيوخ الرومانى أن يصدروا أمرا امبراطوريا أن لا أحد يدعوك فيما بعد آلها أو إبن «الله» ومن يفعل ذلك يكون عقابه القتل لمخالفته شريعة موسى وهز «بيلاطس» رأسه يشير بموافقته على رجائهم لكن «المسيح» قال «إن كلامكم لايعزينى لأنه سيأتى الظلام من حيث ترجون النور(٢٣٠) ولكن عزائى أن الرسول الاتى سيبيد كل رأى باطل تعلق بى وسيبقى دينه صحيحا حتى النهاية لأن «الله» سيحفظه وبهذا يعرف الناس كلهم من أنا وفى هذا عزائى.

قال كبير الكهنة «هل سيأتى رسل آخرون بعد رسول «الله» الذى تكلمت عنه ؟»

قال المسيح «لن ياتى بعده أنبياء صادقون مرسلون من «الله» لأنه هو الذى يغلق باب النبوة.

ولكن سيأتى عدد كبير من مدعى النبوة الكذابين وهو مايحزننى لأن الشيطان سيثيرهم بحكم «الله» العادل إلى إضلال الناس مستترين تحت دعوى تبشيرى (إنجيلى)(٢٣١)

قال «كيف يكون مجئ هؤلاء الكذابين بحكم «الله» العادل ؟

قال «من العدل أن من لايؤمن بالحق من أجل نجاته فإنه يؤمن بالباطل من أجل لعنته

الحق أقول لكم أن الناس قد ظلوا يمتهنون الأنبياء الصادقين على الدوام ويحبون الكذابين وأذكروا «إلياس» و«اليسع» (اليشع) وأرميا بل اذكروا «زكريا» الذى قتل هاهنا فى «الهيكل» لأن الشبيه يحب شبيهه.

واضطرب الكهنة والكتبة لذكر مقتل «زكريا» وأحب رئيس الكهنة أن يغير سياق الحديث فعاد للحديث عن الرسول الذى جاء «عيسى» ليبشر به فسأل «ماهو اسم ذلك الرجل الذى تقول عنه»؟

قال «إسمه أحمدوهو من نسل «إسماعيل» ابن «ابراهيم» أبو الانبياء.»

وصدمتهم كلمات «المسيح» ولكنهم لم يجرؤا على تكذيبه أو مجادلته فقال كبير الكهنة «سنوصى الوالي العظيم أن يكتب إلى «روما» حتى لاتحدث الفتنة مرة أخرى» وانصرف بيلاطس وحاشيته ودخل الكهنة والكتبة والشيوخ وهم يتذمرون من هذا الساحر الفصيح الذى سلب أفئدة الناس واستحوذ على قلوبهم.

أما الناس فقد التفوا حول «عيسى» يسألونه الدعاء ويحضرون إليه المرضى ليشفيهم ثم غادر أورشاليم متجها إلى جبل «الزيتون» وقد تبعه جمع كبير يطلبون سماع كلمة «الله» منه.

فى الجبل جلس «المسيح» على حجر كبير أمام أحد الكهوف بينما افترش الجمع الذى تبعه الأرض أمامه وخاطبهم «المسيح» قائلا(٢٣٢) لقد رأينا اليوم إثماً كبيراً وهو إثم يرتجف له قلبى من شدة غضب «الله» بسببه.»

«ماذا يفعل شاب قوى معتد بنفسه لايقبل أن تهان كرامته عندما يرى المرأة التى أحبها من كل قلبه تهجره وتحب رجلا آخر بل وتظهر حبها للآخر أمام عينه ؟!»

«إن قلبه يضطرم بالغيرة ويندفع لقتل حبيبته التى خانته وقتل من أحبته من دونه وهو

الذى أخلص لها حبه وليس الذى آثرته عليه بأفضل منه بل من المؤكد انه رجل سئ خائن يطمع فى الذى ليس له.»

«أليس هذا صحيحاً»؟!

قالوا «بلى»

قال «الحق أقول لكم إن الله أشد غيرة على قلب الانسان من ذلك الشاب القوى المعتد بنفسه على المرأة التى يحبها

«لقد أحب «الله» «إسرائيل» وأبناءه وأخلص لهم الحب فأعطاهم شريعته بواسطة أنبيائه حتى يعرفوه ولايحبوا غيره ولكنهم هجروا «الله» وأخذوا يجاهرون بخيانتهم فعبدوا غيره فماذا يفعل «الله» ؟ إنه يهلكهم ويهلك الشئ الذى أحبوه أكثر من «الله» ونسوا بسببه الإهم الجدير وحده بالحب.

أى شئ أحب الى «الله» فى هذه الأرض الملعونة بإبليس وجنوده ؟ لا شك أن الصلاة والعبادة هى أحب شئ الى «الله».

لكن عندما أحب بنواسرائيل «الهيكل» الذى لم يكن له نظير فى الارض كلها وتفاخروا به واختالوا على الناس. صار الهيكل لهم صنما يعبد من دون «الله» فحمى عليهم وعلى «الهيكل» غضب «الله» فأثار عليهم «نبوخذ نصر» الملك الكلدانى فاقتحم «أورشاليم» بجنوده الأشداء ودمر الهيكل الذى يحتوى على التوراة وكتب الأنبياء وأثارهم والذى كان يسجد فيه «لله» فأحرق الجنود المدينة المقدسة وأحرق الهيكل بكل مافيه حتى أن الأشياء المقدسة التى كان الأنبياء والصالحون يرتجفون من مجرد مسها داسها الكافرون الممتلئون إثما بأقدامهم وأحذيتهم الملوثة فانظروا إلى شدة غضب «الله» وشدة غيرته.

لقد أمر «الله» خليله «ابراهيم» أن يذبح ابنه البكر «إسماعيل» حتى يستأصل من قلب إبراهيم كل محبة أثيمة تعارض محبة «الله» وهو أمر كان يمكن ان يحدث لولا أن السكين توقفت عن الذبح لأن قلب «ابراهيم» وقلب «اسماعيل» قد تطهرا من كل محبة أثيمة تعارض

محبة «الله» .تطهر قلب إبراهيم من محبة الإبن التى تعارض ارادة «الله» وتطهر قلب اسماعيل من محبة النفس ولم يبق فى قلب الرجلين الصالحين إلا الحب الخالص «لله» لذلك امتنعت السكين عن الذبح رغم أن «ابراهيم» قد وضعها على عنق إإنه وأخذ يحركها

ولقد كتب «الله» على «يوسف» أن يباع فى سوق العبيد بمصر بيع المتاع وأن يظل «يعقوب» حزينا على فراقه نائحا عليه سنوات عديدة من أجل ان يتطهر قلبه من حب ابنه الأثير لديه .

وكتب على «داود» أن يلقى العنت من بكره «إبشالوم» حتى لايبقى فى قلب «داود» إلأحب «الله».

وكتب «الله» على «أيوب» أن يفقد كل ابنائه وبناته وثروته كلها بل وصحته أيضا فأصابه بمرض عضال لاشفاء له عند الناس كل هذا من أجل أن يمتحن حب «الله» فى قلبه.

لعمر «الله» الذى تقف نفسى فى حضرته لقد خشيت أن ينزل «الله» علينا نقمته فيهلكنى وإياكم لأن بعض بنى اسرائيل أحبونى محبة أثيمة فدعونى إلها أو قالوا إننى ابن «الله» وهو مايرتجف له قلبى رعباً من غضب «الله» وخر عيسى على الأرض ساجدا متضرعا «لله» ممرغا وجهه فى التراب.

فبكى الجمع وعلا صوت نحيبهم ثم تمالك «عيسى» نفسه فقام من السجود فقالوا له «إننا مستعدون لفعل كل ماتأمرنا به ليغفر «الله» لنا خطيئتنا.»

قال «سنصوم ثلاثة أيام وننقطع للصلاة طالبين من «الله» الرحمة والمغفرة وفى كل ليلة عندما يأذن الليل بالمجئ ويلوح أول نجم يجب أن نستغفر «الله» ثلاث مرات ونسأله رحمته لأن خطيئة بنى اسرائيل اليوم ثلاثة أضعاف الخطايا الأخرى.

وأعـتـزل «المسـيح» داخل الكهف وأنصرف الجمع وهم يتفكرون فى كلماته عازمـون عيل الطاعة.

لقد انتزع «المسيح» بعد محاورته مع رئيس الكهنة إعترافاً ضمنياً من «الهيكل» بنبوته ولقد آمن به العوام نبيا بعدما شاهدوا أن رئيس الكهنة لم يستطع أن يكذبه فأخذت الجموع تتوافد على «المسيح» فى الجبل طلبا لرؤيته أو لإستماع موعظته أو ليسألوه الصلاة من أجل شفاء مرضاهم ولكن «المسيح» ظل محتجبا صائما عاكفا على الصلاة

ولما خرج من عزلته فوجئ بأن الجمع الذى ينتظره كبيراً بضعة الآف من الرجال والنساء والأطفال بل أن بعض النسوة قد حملن صغارهن المحتاجين للرضاعة.

كان الناس يفترشون الأرض وقد بدا عليهم الإعياء لأن «الطعام» نفد بعضهم لم يأكل منذ يومين فتحنن عليهم «المسيح» وأخذته الشفقة عليهم وأندفع تلاميذه نحوه لما رأوه خارجامن الكهف.

قال(٢٣٣) «لفيلبس أين نجد لهؤلاء طعاما حتى لايهلكوا من الجوع ؟ قال «فيلبس» «ياسيدى إن مئتى قطعة من الذهب لاتكفى لشراء مايتبلغون به من الخبز فقط.»

قال «المسيح» أليس معكم طعام أذهبوا وأنظروا» قال «اندراوس» «ليس معنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان ولكن ماذا يفيد هذا مع كل تلك الجموع؟!»

قال «المسيح» «أئتونى بما معكم وأذهبوا فأجلسوا الجمع على العشب فى جماعات»

فذهبوا وأخذوا ينظمون الناس فى جماعات كل جماعة من خمسين فرد أو من أربعين ثم تقدموا نحو «المسيح» الذى أخذ الخمسة الأرغفة فكسرها الى قطع صغيرة وهو يقول «باسم الله» وظل يناول التلاميذ خبزا وسمكا ليحملوه الى الجماعات التى اصطفت على العشب في حلقات وقد شخصت العيون من الدهشة وكل منهم يسأل نفسه «أحقا ما أرى أم أننى واهم هل أنا مستيقظ أم أن ما أراه هو رؤيا نائم». ظلوا يأخذون الطعام

من المسيح ويعطونه للجالسين على العشب ثم جلسوا هم ليأكلوا. شبع الجميع من خمسة أرغفة وسمكتان وكان الليل قد هبط وأحس الجميع بالتعب بعدما شبعوا فناموا ودخل «المسيح» إلى كهفه يصلى.

وفى الصباح إختار «المسيح» تلاميذه إثنى عشر رجلا وأخبرهم أنهم سيصبحون رسله إلى قرى ومدن بنى اسرائيل وأمرهم ان يجمعوا كسر الخبز التى تبقت من عشاء الأمس فملأت اثنتى عشرة قفة فأمر أن يحمل كل واحد منهم قفة وأن يسبقوه الى شاطئ الأردن فحمل كل واحد منهم قفته ثم ذهبوا. وبدأ الناس يستيقظون وتجمعوا حول «المسيح» فأمرهم بالعودة الى أهلهم وأن يجتهد كل واحد منهم فى طلب رحمة «الله» ومغفرته فبدأ الناس ينصرفون الإسبعين رجلاً أصروا على البقاء معه وصحبته أينما ذهب فقبلهم «المسيح» لما رأى إيمانهم وأخبرهم أنهم سيصبحون تلاميذا له وسيجعلهم رسلا الى الشعب وأمرهم أن يأتوا معه الى الناصرة حيث كان قد عزم على العودة ليواصل من هناك دعوته.

كان «المسيح» قد سأل ربه أن يمنح بعض القدرة التى وهبها له لمن يختارهم من أتباعه ليجعل منهم رسلا إلى بنى اسرائيل يطوفون بالقرى والمدن يبشرون بالملكوت ويصححون اعتقاد الناس فى «المسيح» ويدعون الشعب الضال الى العودة للسير فى طريق «الله».

(٢٠)

«طريق العودة»

«قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما آلهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين»

«فصلت ٦»

أدرك «المسيح» ومعه الرجال الذين أصروا على صحبته التلاميذ الإثنى عشر وكل منهم يحمل قفة مملوءة بكسرات الخبز التى تبقت من عشاء الأمس فأمرهم بالتوجه إلى شاطىء الأردن ثم جلسوا ليستريحوا ثم اغتسلوا وصلى بهم وبعد الصلاة قال لهم :

(٢٣٤) «رأى نبى الله إيلياس (إيليا أو إلياهو) رجلا أعمى يبكى فسأله «لماذا تبكى ياأخى ؟»

قال الأعمى «لأننى أحب رؤية قدوس «الله» إيلياس ولا أستطيع.» قال إيلياس «أيها الرجل يجب أن تكف عن هذا البكاء لأنك ببكائك هذا تخطىء .»

فقال الأعمى مندهشا «أرؤية النبى الذى أحيى الموتى وأنزل النار من السماء تعد خطيئة».

قال «أيلياس» «إنك لا تنطق بالصدق فإن «أيلياس» لم يفعل شيئا مما قلت فإنه رجل مثلك والمخلوقات جميعا لا تستطيع أن تحيى ميتا أو أن تخلق ولو ذبابة واحدة» .

قال الأعمى «لابد إنك تكره قدوس «الله» «إيلياس» ولذلك قلت ماقلت لعله وبخك على بعض خطاياك».

قـال «أيليـاس» : «عـسـى أن تكون قـد نطقت بالحـق أيهـا الرجل فـإننى كلمـا أبغـضت «إيلياس» فإننى أزداد حبا «لله». بقدر إبتعادى عن «أيلياس» يزداد قربى من «الله».

قال الأعمى: «تالله إنك لرجل فاجر أيمكن لأحد أن يدعى حب «الله» وهو يبغض نبيه إنصرف عنى أيها الملعون فإننى لا أحب أن أستمع اليك » .

قال «إيلياس «الآن تستطيع أن تنظر بعقلك أيها الأخ إنك كنت تتمنى أن ترى «أيلياس» ولكنك تكره «نبى الله» وتحتقر تعليمه .»

قال الأعمى وقد استحال عليه أن يتمالك نفسه من الغضب "إبتعد عنى أيها الشيطان لانك تريد أن تجعلنى أخطىء إلى نبى الله»

قـال «إيليـاس» وقـد غلبـه البكاء على أمـره "لقـد نطقت بالحق أيهـا الأخ فـإننى كنت بالنسبة إليك الشيطان الذى يحول بينك وبين «ربك» فإن جسدى الذى كنت تبكـى شوقا إلى رؤيته هو الذى يفصلك ويفصلنى عن «الله».»

قال الأعمى وقد استبد به الغيظ «ومن قال لك إننى كنت أريد أن أراك والله لو كانت لى عينان لأغمضتهما حتى لا أراك » .

حينئذ قـال «إيليـاس» مسـروا «اعلم أيها الأخ إننـى أنا «إيليـاس» الذى تبكى لعـجزك عن رؤيتة».

قال الأعمى «إنك كاذب ولا تنطق بالحق» .

فصرخ تلاميذ «إيلياس» "أيها الأعمى إنك تكلم «إيلياس» نبى الله نفسه»

فـأطبق الوجوم على الأعمى وأصـابته حيرة شديدة ثم قال «إن كـان هو إيليـاس النبى فليخبرنى من أى ذرية أنا وكيف أصابنى العمى» ؟

قـال «إيلياس» «إنك من سبط لاوى وقد صـرت ضـريراً لأنك وأنت فى الهيكل وبجوار

المحراب نظرت إلى امرأة جميلة كانت تقف هناك واشتهيتها فأزال آلهنا القدير بصر عينيك».

فبكى الأعمى قائلاً اغفر لى يا نبى «الله» الطاهر لأننى أخطأت إليك فى الكلام ولو كنت بصيراً ما أخطأت فاعذرنى ».

فقال «إيلياس» ليغفر لنا آلهنا أيها الأخ ولكنى أعلم أنك فيما يخصنى قد نطقت بالحق فكلما ازددت بغضا لنفسى ازددت قربا من «الله» وأننى كنت بالنسبة إليك الشيطان لأننى بصورتى التى كنت تشتهى أن تراها أحول بينك وبين آلهك الذى خلقك وهو الوحيد الجدير بأن يبكى الإنسان لا حتجابه عنه. إن «إيلياس» لم يخلقك بل «الله» هو الذى خلقك وهو الذى يستحق أن نحزن ونبكى لإحتجابه عنا وعجزنا عن رؤيته ولو كنتَ رأيتنى لخمدت رغبتك فى رؤيتى وهي رغبة آثمة لا يرضى عنها «الله» والآن تستطيع أن تدرك أنه لم يكن لك نور فى قلبك يريك الحق من الباطل فلذلك إحتقرت تعليمى مع أنك كنت تبكى لعدم رؤيتك صورتى فأعلم أيها الأخ أن الكثيرين يأتون إليّ من بلاد بعيدة لرؤيتى وآخرون يتمنون رؤيتى وهم مع ذلك يحتقروننى إذ يحتقرون تعليمى لذلك كان من الأفضل لهم لخلاصهم ألا يكون لهم عيون فكل من يحب شيئا مخلوقا راغبا من كل قلبه أن يتصل به واجداً لذة فى القرب منه تاركا من أجله كل شىء حزينا لفراقه فإنه قد أقام صنما فى قلبه جاعلا من هذا الشىء المخلوق آلها يعبد من دون «الله» أياً كان هذا المخلوق حتى إن كان نبيا مرسلاً من «الله» لهداية البشر .

ثم تنهد «المسيح» قائلا "أفهمتم كل ما قاله «إيلياس» للأعمى؟؟ قالوا: «نعم ولكننا فى حيرة لأنه لا يوجد على الأرض إلا قليل جدا من الناس الذين لا يعبدون الأصنام .»

قال «المسيح»: "نعم لقد نطقتم بالحق وها أنتم ترون أن الشعب أبناء أسرائيل النبى كانوا عازمين على إقامة صنم فى قلوبهم إذ قالوا عنى إننى إله وترون الكثيرين يأتون من قرى ومدن بعيدة ليروننى وآخرين يتمنون رؤيتى ولكنهم فى الحقيقة يستهزئون بى ويهينوننى

إذ لا يحترمون تعليمى ولا يعبأون بمواعظى ولا يعملون بكلماتى. إنهم يقولون فى أنفسهم إننى أحمق أو مجنون إذ أرضى أن أعيش معيشة الفقراء متنقلاً من قرية الى أخرى لا استقر فى مكان مع أنه فى وسعى أن أصير ملكا لليهود وأن أعيش معيشة الملوك والسادة العظماء الذين يسكنون القصور ويتقلبون فى النعيم .

«ما أشد تعاستك أيها الإنسان تحترم النور الذى يشاركك فيه الذباب والعقارب والحيات وتحتقر النور الذى تشترك فيه مع الأنبياء والملائكة المطهرين وأصفياء الله» .

«قوموا لنواصل الطريق» .

وسار ركب «المسيح» بجوار نهر الأردن صاعداً نحو «الجليل» .

والتقى ركب «المسيح» بالنبى «يحيى بن زكريا» حيث كان جالسا بجوار النهر مع نفر قليل من تلاميذه فقام الشيخ الجليل «يحيى بن زكريا» وهرول ليتلقى «المسيح» فى حضنه وتعانق النبيان ثم جلسا يتحدثان فى صوت هامس والتلاميذ تلاميذ «يحيى» وتلاميذ «عيسى» ينظرون إليهما ويتعجبون .

ثم ودع كل منهما صاحبه وقام تلاميذ «عيسى» ليرحلوا معه واستأذن بعض تلاميذ «يحيى» ليصحبوا «المسيح» فأذن لهم. وبعد أن ابتعد الركب قال بعض تلاميذ «يحيى» فى غيظ : يا معلم أنظر إلى ذلك الرجل الذى شهدت أنت له(٢٣٥) لقد صار يعمِّد أيضا مثلك وأصبح الجميع يذهبون إليه» كانوا يتوهمون أن ثمة منافسة بين «يحيى» و«عيسى» كما لو كان النبيان تاجرين يتنافسان على اجتذاب الزبائن أو قائدين يتصارعان أيهما أكثر أتباعا قال «يحيى» «لا يستطيع أحد أن يأخذ شيئا إلا إذا أُعْطِى من «الله» وأنتم أنفسكم قد شهدتم أننى اعترفت أمام الجميع أننى لست «المسيح» بل أنا «نبى» مرسل أمامه لأبشر به وأشهد له .»

«من له العروس فهو العريس أما صديق العريس الذي يحبه فهو يقف مع المدعوين

للعرس ويفرح من قلبه عندما يسمع صوت العريس. لقد اكتمل فرحي اليوم وينبغي للعريس أن يظهر وينبغي لي أن أختفي. إنه يشهد بما رأى وبما سمع ولكن شهادته لا يكاد يصدقها أحد إنه يتكلم بكلام «الله» ومن يقبل كلامه فقد أقر أن «الله» صادق ولكن من بين كل هؤلاء يكاد لا يؤمن به أحد. إن «الله» لا يعطى « الروح» بمكيال (٢٣٦) .

بعد أن أكل الركب من كسرات الخبز المجموعة في الإثنى عشرة قفه واغتسلوا بماء الأردن صلى بهم «المسيح» وجلسوا ليستمعوا إلى كلمة «الله» .

قال «المسيح» سأرسلكم إلى خراف بني إسرائيل الضالة في جميع القرى والمدن في الجليل واليهوديه لتدعوا المبتعدين عن طريق «الله» إلى التوبة وتنذروهم أن الفأس قد رُفعت توشك أن تهوى لتقطع الشجرة من جذورها لأن غضب «الله» قد اشتد على الشعب الذى نقض ميثاقه معه يوشك أن ينتزعه من رحمته ليلقى به إلى الجحيم وتبشروهم أنّ من يؤمن «بنبى» لم يره بدعوة «نبى» آخر فأجر «نبى» يأخذ. (٢٣٧) أخبروهم أننى أنا « مسيح الله» «عيسى بن مريم» المولود من العذراء الطاهرة دون أب من البشر اية من الله إلى الناس جميعا وإننى «نبى» أرسله «الله» إلى بنى إسرائيل ليعيدهم إلى طريقه المستقيم. جئتُ إلى الدنيا مبشرا «برسول الله» الذى يختم «الله» به النبوة وإننى لست إلا عبداً من عباد «الله» أرجو أن أكون من الصالحين. أطلعنى «الله» على كتاب علمه وعلمنى التوراة التى أنزلها على موسى بن عمران وعلمنى التبشير (الإنجيل) بالنبى الأمى العربى الأمين الذى يؤمن «بالله» وكلماته قد سلطنى «الله» على كل مرض و استجاب لدعاء عبده ولم يحتقر طلبه فمنحكم أيضا القدرة على كل مرض فالمسوا المرضى وصلوا عليهم «لله» فيمنحهم «الله» بإذنه الشفاء .

اندفع تلميذ يقول يامعلم لكن ماهى التوبة ؟ وكيف نتوب ؟ ماهى الطريقة التى ينبغى بها تحقيق التوبه إن سئلنا عن هذا فماذا نقول (٢٨٩) ؟.

تهلل وجه «المسيح» وأجابه قائلا «إذا أضاع رجل كيس نقوده الذى يحفظ فيه كل ماله فكيف يبحث عنه ليسترده؟ هل يجلس ويدير عينيه في أرجاء المكان لعله يعثر عليه؟ أم أنه يسأل عنه بلسانه فقط ويطلب من الآخرين البحث عنه وإذا رآه هل يمد يده فقط ليتناوله؟ .

أم أنه يبحث عنه بكل كيانه ويستعمل كل قوته وجميع قدراته ليجده ويلتفت إليه بكل جسده ؟ من المؤكد أنه يفعل هذا أليس هذا صحيحاً ؟

قالوا «بلى» .

قال «وعلى هذا النحو ينبغى تحقيق التوبة» .(٢٣٩)

«التوبة هى عكس الحياة الشريرة فينبغى على التائب أن يتصرف على النقيض من سلوكه وهو فى الخطيئة ينبغى عليه أن يستعمل حواسه على نحو يناقض ما كان يفعل قبل توبته فإذا كان الخاطىء يقضى وقته ضاحكا مسرورا فيجب على التائب أن يبكى حزينا على نفسه وإذا كان الخاطىء يمارس معيشته كسولا باحثا عن اللذة مثرثرا بالباطل فينبغى على التائب أن يصوم بدلا من الإفراط فى الملذات وأن يسهر بدلا من النوم وان يتعب بدلا من الكسل وأن يحول الثرثرة إلى صلاة وتأمل والبخل والجشع والأثرة الى تصدق وزهد وإيثار وإن لم يستطيع أنْ يفعل هذا فعليه أن يروض جسده .

قالوا «كيف نستطيع أن نفعل كل هذا كيف نحزن وكيف نبكى وكيف نصوم وكيف نصلى كيف نتعب وكيف نزهد فى ملذات الدنيا وكيف نصمت وكيف نتأمل وكيف نعاقب أجسادنا ؟»

قال «سأجيبكم عن كل ما سألتم بإذن «الله» فاقتربوا منى وأصيخوا السمع إلى ما أقول وما أقوله لواحد منكم أقوله للجميع .»

قال : «لماذا يجب علينا أن نتوب ؟.»

«إن كل بناء إذا أزيل أساسه الذى عليه يقوم تساقط خرابا أليس هذا صحيحاً ؟

قالوا «بلى» إنه لصحيح .

قال «المسيح» «إن أساس خلاصنا من الجحيم هو «الله» ولا نجاة لنا بدونه ولكن الخطيئة تحجب «الله» عن الإنسان فيفقد الإنسان أساس خلاصه ومن هنا من الأساس يجب أن نبدأ ..

«قولوا لي إذا أخطأ خادم وأغضب سيده فحزن الخادم لغضب سيده عليه ولكن الخادم لم يحزن لأنه أغاظ سيده الذى كان يحسن إليه بل لأنه سوف يخسر العطايا الكثيرة التى كان سيده يفيض بها عليه حين سروره به وعلم سيده سبب حزنه فهل تراه يغفر له إساءته ويعود إلى الإحسان إليه أم أنه يزداد غضبا عليه لأنه لم يهتم بغضبه عليه بل بالجزاء الذى كان يحصل عليه قبل خطئه ؟ »

"لا ريب أنه يزداد غضباً عليه ."

«الحق أقول لكم إن «الله» يزداد غضبا على الذين يَدعُّون أنهم يتوبون لأنهم بالخطيئة خسروا الجنة التى فيها يحصلون على ما يشتهون، لقد حزنوا لأنهم فقدوا العطاء غير مبالين بغضب المعطى عليهم، إن الشيطان اللعين نفسه حزين أشد الحزن لأنه فقد الجنة وأصيب بجهنم إلى الأبد ومع ذلك فلن يجد من «الله» رحمة فهل تعلمون لماذا ؟

«لأنه لم يتب لأنه لا يحب خالقه بل يبغضه ولا يريد أن يتواضع لعظمته ومجده .»

(٢٤٠) «الحق أقول لكم إن كل دابة على الارض تحزن لفقد ما تشتهى فهل يعد ذلك الحزن توبة، كلاّ.»

«فيجب على التائب أن يكون نادما ندماً صادقاً حزينا لأنه أغضب خالقه بعصيانه مقرا بخطئه لائماً لنفسه راغباً فى الإقتصاص منها استرضاءً لربه لا يجرؤ على أن يطلب في صلاته الجنة شاعراً أنه مستحق للجحيم بعدل «الله» الذى لا يظلم أحداً مثقال، ذرة

يسجد لربه مضطرب الفكر يقول بقلبه انظر يا رب إلى الخاطىء الذى أغضبك دون سبب فى الوقت الذى كان ينبغى فيه أن يطيعك لذلك أطلب إليك يارب أن تؤدبنى لكى تطهرنى فأكون عبدا لائقا بسيد عظيم مثلك فإنك مهما عذبتنى فإنك لاتعذبنى بقدر ما أستحق لأنك أنت الغفور الرحيم فأنقذنى ولا تسلمنى بخطيئتى إلى يد الشيطان حتى لا يشمت اللعين بصنعة يدك. إن سار الخاطىء على هذا الطريق المستقيم فسيجد الله غفورا رحيما وسيظفر من «الله» بأكثر من العدل الذى كان يتوهمه .»

«إن هذه الدنيا كما قال «داود» هى وادى الدموع إذن فإن ضحك الخاطىء هو حقا شىء دنس ومكروه .»

(٢٤١) «كان هناك «ملك» يسير على الطريق فوجد إنسانا فقيرا جائعا مريضا عريانا لا يقدر على شىء فآواه وتبناه وجعله سيدا على كل ما يملك فى حقله وقصره ولكن الإنسان أساء إلى سيده «الملك» بسعاية ماكر خبيث فوقع هذا التعيس تحت غضبة الملك ففقد كل ما كان يملكه باسم «الملك» وفقد مكانته فى الحقل والقصر وأخذ الجميع يسخرون منه ويستهزئون به لقد انتزع «الملك» منه كل ما كان قد أعطاه وطرده إلى الطريق فعاد فقيرا جائعا عريانا مريضا لا يقدر على شىء .

«أتظنون إن مثل هذا الرجل يضحك مرة ما ؟ »

قالوا «كلاً . لا يمكن أن يضحك .»

قال: «ولو عرف الملك إنه يضحك لأمر بقتله لأنه سيقول فى نفسه أنه «لا يعبأ بغضبى عليه .»

إذن على الخاطىء أن يبكى حزينا على نفسه ليلاً ونهارا ."

ثم بكى «المسيح» وقال بصوت تخنقه الدموع:

«ما أتعسك أيها الإنسان لقد جعلك «الله» خليفة له فكنت له بمثابة الابن لأبيه ووهبك

الجنة ولكنك أيها التعيس سقطت بعمل الشيطان تحت غضب «الله» فطردك من الجنة وحكم عليك بالإقامة فى هذه الدنيا النجسة حيث لا تنال شيئا إلاّ بالكدح وكل عمل صالح تقوم به يُحْبَط بتوالى ارتكابك للخطايا ولكنك أيها التعيس الذى لا يدرى شقاءه تضحك والذى يخطئ أكثر من غيره يضحك كالمجنون أكثر من غيره وكما رأيتم فإن «الله» يحكم بالموت الأبدى على الخاطىء الذى يضحك ولا يبكى على خطيئته .»

«ويجب أن يكون بكاء الخاطىء مثل بكاء أب على ابنه الوحيد المشرف على الموت .»

"ما أشد جنون الإنسان الذى يبكى على الجسد الذى تفارقه النفس بالموت ولا يبكى على النفس التى تفارقها رحمة «الله» بالخطيئة ."

«قولوا لى إذا قُدِّر للنوتى الذى كَسَرت العاصفة سفينته الوحيدة التى لا يملك غيرها إذا قُدِّر له أن يسترد بالبكاء كل ما خسره فماذا يجب عليه أن يفعل .؟!»

«من المؤكد أنه لا يتوقف عن البكاء .»

«ولكن عَلاَمَ يبكى الانسان ؟! »

الحق أقول لكم إن بكاء الإنسان خطيئة إلاّ على خطيئته. فكل شقاء ينزل بالإنسان فى الدنيا إنما ينزل من «الله» ليطهره من ذنوبه ويساعده على التحرر من قبضة جهنم ولذلك كان على الإنسان أن يتهلل وأن يفرح لكل مصيبة تنزل عليه لأن فيها رحمة «الله» ولكن الإنسان يحزن لما يأتيه من رحمة «الله» ولا يحزن على الخطايا التى تأتيه من الشيطان الذى يعمل بكل قوته على جذبه إلى اللعنة معه .»

«حقاً إن الإنسان لا يدرك أنه يسعى إلى خسرانه وهو يظن أنه يسعى إلى فوزه .»

(٢٤٢) قال واحد من الجمع «ولكن ماذا يفعل ياسيد من لا يستطيع أن يبكى لأن البكاء غريب على قلبه ؟»

قال «المسيح» «ليس الباكِ هو كل من يسكب العبرات. لعمر «الله» الذى تقف نفسى

فى حضـرته يوجد قـوم لـم تسـقط من عـيونهم عبـرة واحـدة لكنهم بكوا أكثـر من الذين يسكبون العبرات أكثر من ألف مرة. فليس المقصود بالبكاء هو إفراز الدموع من العينين بل الحزن العميق على النفس لإرتكابها الخطيئة وهو حزن يطهر القلب من الهوى فهو يحرق الأهواء ويمحو سحب الباطل لتسطع شمس الحقيقة .»

«كما أنه يوجد جم غفير من الناس الذين لم يبكوا قط مع أنهم تفيض الدموع من عيونهم فيضاً. أولئك هم الذين بين يجمعون محبة المعصية فى قلوبهم وانسكاب العبرات من عيونهم إنهم يبكون بسهولة ولذلك فبرغم فيض الدموع من مآقيهم فإنهم يهرولون فى الخطيئة ويزداد اندفاعهم إلى المعصية كلما زادت دموعهم فمثلهم كمثل الحصان الذى تزداد سرعة عدوه كلما خفت الأحمال التى على ظهره .»

«فعند البكاء ينظر «الله» إلى القلب لا إلى العين ويزن الحزن فى القلب لا كمية الدموع التى تخرج من العين .»

قال «يحيى» (يوحنا) بن زبدى «كيف يا معلم يكون البكاء على غير الخطيئة خطيئة وكيف يكون خسارة ؟: قال «المسيح» إذا أعطاك «هيرودوس» رئيس الجليل رداءً لتحفظه عندك أمانة ثم جاء ليطلبه منك أيكون هذا باعثا لقلبك على الحزن والبكاء .؟!

قال «يحيى»: لا

قال «المسيح» «فاعلم أن «الله» هو مالك كل شىء وحده ومن ثم فله وحده القدرة على التصرف فيما يملكه فلماذا يحزن الإنسان إذا مافقد شيئاً أو فاته شىء مما يريد أليس كل ما يقع للإنسان إنما يأتيه من يد «الله» ؟. بلى .

«أيعارض الإنسان المخلوق إرادة «الله» خالقه فى التصرف فى أشيائه التى تفرد بملكيتها !!»

«ألاَ يكون الإنسان غبيا إذا حزن وبكى على شىء وقع له بيد «الله» الرحيم به. لا

يملك الإنسان إلاّ خطيئتة وعليها وحدها يجب أن يبكى ومن الخطأ أن يبكى على أى شىء آخر، فإنه حينئذ يبحث لا محالة عن الخسارة . فاندفع أحدهم يقول «لقد اعترفتَ يا معلم أمام كبير الكهنة وجموع الناس أن ليس «لله» شبه بالبشر وها أنت تتحدث عن يد «الله» فإن كان «لله» يد فهو شبيه بالبشر ».(٢٣٤)

قال «المسيح» «إنك لفى ضلال كبير ولقد ضل أكثر الناس لأنهم لا يفقهون الكلام إذ ينبغى على الإنسان ألاَّ يتوقف عند ظاهر الألفاظ بل يبحث عن المعنى المستور فى الألفاظ فليست اللغة البشرية إلا بمثابة ترجمان ينقل لنا المعنى الذى يريد «الله» أن يفصح عنه. «الألفاظ» وسيط بيننا وبين «الله» يحمل المعنى الذى يريد «الله» إبلاغه لنا وعلينا ألاَّ نتحجر أمام الألفاظ بل أن نغوص وراء المعنى. ألاَ تعلمون أن «الله» لما أراد أن يكلم بنى إسرائيل عند الجبل فى سيناء أدرك أباؤكم أنهم لن يستطيعوا الثبات أمام كلام «الله» ولذلك صرخوا فى موسى «قائلين» .بل كلمنا أنت يا «موسى» لانريد أن يكلمنا «الله» لكى لا نموت. إذن فقد اختاروا مضطرين وسيطا بينهم وبين «الله» هو «موسى بن عمران» الذى منحه «الله» أن يثبت عند التكليم وليس لكل واحد من البشر أن يتلقى الكلام من «الله» إلاَّ الذين اختارهم «الله» ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه ومن هؤلاء الوسطاء نتلقى «الألفاظ» التى تحمل المعانى التى أفصح «الله» عنها .»

قال «الله» على لسان «أشعياء» «كما بَعدُت السموات عن الارض بَعُدَت حكمة «الله» عن حكمة البشر وارتفع كلام «الله» عن كلام البشر .»

«إن السماء الأولى التى تحمل الكواكب والنجوم التى ترونها فى الليل تحيط بالأرض التى ليست بالنسبة إليها إلا كثقب أبرة فى بيت أو خاتم فى صحراء شاسعة والسماء الثانية تحيط بالسماء الأولى والثالثة تحيط بالثانية وهكذا تحيط كل سماء بالتى قبلها حتى السابعة وكل سماء بالنسبة للتى بعدها كالخاتم فى صحراء ممتدة أو كقطرة الماء بالنسبة إلى البحر والارض والسماوات السبع التى تتراكب فوق بعضها يحيط بكل ذلك كرسى

«الله» ثم يحيط بالكرسى عرش «الله» كل سماء تحوى التى قبلها وكل واحدة تعد بالنسبة للتى بعدها كقطرة فى المحيط أو خاتم ملقى فى الصحراء والسموات جميعها بالنسبة لله صغيرة كحبة رمل على شاطىء فهل هذه العظمة يمكن قياسها» ؟ قالوا «كلا لايمكن قياسها .»

قال «إن «الله» لا يحيط به علم ولا يدركه قياس إلى حد أننى أرتجف من وصفه فانظروا الآن إن كان «لله» شبهٌ بالبشر الذى ليس إلا قطعة طين تتحرك بروح «الله» على الأرض فانتبهوا جيداً وأحذروا أن تأخذوا الكلام بظاهر ألفاظه بل اجتهدوا أن تصلوا إلى المعنى إن أردتم أن تظفروا بالحياة الأبدية؛ رحمة «الله» الدائمة التى لا يستطاع وصفها».

«لا يستطيع أن يعرف «الله» إلاَّ «الله» وحده هو بمفرده الذى يقدر أن يعرف نفسه. «إنه حقاً «إله» محتجب عن الحواس البشرية كما قال «إشعياء». هذا هو الحق ولكننا سنعرف «الله» فى الجنة كما يمكننا الآن فى الدنيا أن نعرف البحر من قطرة ماء أخذت منه ».

«وأعود الآن إلى حديثى عن الخطيئة فأقول لكم إن «الانسان» يجب أن يبكى على خطيئته فقط لأنه بها يفقد «الله» خالقه ويفارق رحمته .»

«ولكن قولوا لى كيف يمكن أن يبكى حزينا من يحضر الولائم ومجالس الطرب ؟ إن أعطى الثلج ناراً فإن ذلك الإنسان الشره يمكنه أن يبكى .»

«فعليكم إذن أن تتحولوا عن الولائم ومجالس الطرب إلى الصوم إن أحببتم أن يكون لكم سلطة على حواسكم فبالصوم تتحقق سلطة إلهنا ."

قال «تداوس» «إذن فالله «حاسة» يمكن التسلط عليها بالصوم». أجاب «المسيح» فى ضجر أتعودون للقول بأن «لله» كذا وأنْ ليس «لله» كذا. كفوا عن هذا اللغو ولا تقولوا عن «الله» إلا ما قاله عن نفسه كما أخبرنا على لسان أنبيائه وقوموا إلى الصلاة .»

بعد الصلاة قال «المسيح» «قولوا لى ماذا يعبد الكفار ؟ ! فأخذتهم الحيرة ثم أجاب «إنهم يعبدون حواسهم التى تندفع بهم باحثة من اللذة. يعبدون «الهوى» فيتجاوزون حدود «الله» ويعرضون عن نداء العقل فيخطئون إذ يعرضٌون أنفسهم للهلاك الأبدى الذى لا لذة فيه على الاطلاق ».

«إذن فأول شىء يجب على الخاطىء الذى يريد أن يتوب أن يعمله بعد أن يحزن لأنه اقترف الخطيئة هو الصوم» .(٢٤٤)

«فعندما يرى الإنسان أن الإفراط فى تناول طعام ما قد أمرضه فإن أول شىء ينبغى عليه أن يقوم به بعد الحزن على إفراطه فى أكل ذلك الطعام المضر هو أن يمتنع عن تناول ذلك الطعام. الشهوات هى التى دفعت الإنسان إلي الخطيئة وإندفاع الانسان وراء حواسه الباحثة عن اللذة وحدها هو الذى يجعله يخطئ ويعرضه للحرمان من ربه الذى له وحده أن يهبه الحياة الأبدية. هكذا يكون الاندفاع وراء الحواس طريقا للوقوع فى جهنم حيث الحرمان الأبدى من كل لذة ».

«فعلى الإنسان إذن أن يهذب حواسه بالصوم. إن الإنسان طالما أنه يحيى على الأرض فى هذا الثوب الطينى لا يستطيع أن يستغنى تماما عن طيبات هذه الدنيا ولكن يجب عليه أن يسيطر على حواسه بأن يجعل الجسد تحت سلطان «الروح» وبهذا وحده يصير يحق عبدا «لله» ولا سبيل إلى ذلك إلاَّ بالصوم. إن الحواس تمقت الصوم وتدعو الإنسان للإنصياع وراء نداء اللذة فعلى الإنسان حينئذ أن يضع نُصْبَ عينه عذاب جهنم حيث لا لذة على الإطلاق بل ألم لا يحتمل وأسف لا ينتهى وأن يذكِّر نفسه بمسرات الجنة التى تفوق لحظة واحدة من نعيمها كل ما على الأرض فى الدنيا كلها من بدايتها حتى نهايتها من نعيم بهذا يتمكن الإنسان من القيام بالصوم الذى يمنحه الصبر ويجعل الجسد خاضعا لسلطان الروح فيتمكن الإنسان من السيطرة على حواسه.»

إن القناعة بالقليل لنيل الكثير خير من إطلاق العنان فى القليل مع الحرمان من كل شيء بعد ذلك والبقاء من الجحيم ».

«لكن على السائر فى طريق التوبة أن يكون متيقظا لخداع الشيطان.»

«لأن الشيطان لا يكره أحداً من الخلق أكثر من التائب لأنه قد انقلب عليه إذ تحول من عبد مطيع وجندى مخلص من جنوده فى الخطيئة إلى عدو عنيد بمحاولته العودة إلى العبودية «لله» لذلك يعمد الشيطان إلى محاولة إبطال كل عمل صالح يشرع الراغب فى التوبة فى القيام به فهو يحاول أن يثنيه عن الصوم بشتى الطرق والأعذار فمرة بسبب المرض ومرة بسبب شدة الحر ومرة بسبب كثرة العمل الذى ينبغى القيام به وهكذا فإن لم ينجح فى مسعاه حاول تشجيع التائب على المبالغة فى الحرمان والغلو فى الصوم إلى الحد الذى قد يسبب المرض أو الاضطراب فى سياق معيشته حتى يكره التائب الصوم فينقلب ضده مندفعا إلى الشراهة مبتعدا عن طريق التوبة. لكن العبد قد يكون صبورا وقوى الإرادة إلى الحد الدى يُعْجِز الشيطان فى مسعاه فحينئذ يحاول الشيطان أن ينحدر بالصوم إلى مجرد الحرمان الجسدى مع إغراق العبد فى الخطايا فيصير العبد صائما بالجسد محرما على نفسه ماأحل «الله» له ولكنه يرتكب الخطايا على الدوام لأن الشيطان ينفخ فى قلبه سم الكبرياء فيحتقر العبد الصائم الذين لا يصومون حاسبا نفسه أفضل منهم ويأخذ فى السخرية منهم والاستهزاء بهم وهكذا يحرم جسده من لذته ويملأ قلبه بالكبرياء... الباب الأكبر من أبواب جهنم الذى يؤدى إلى أعمق دركات العذاب .»

«قولوا لى أيحق للمريض الذى فرض عليه الطبيب «الحمية» أن يفاخر بها ويظن أنه أفضل من الذين لم يُفْرَض عليهم مثل هذا الحرمان أو يقول عنهم أنهم مجانين لأنهم لا يفعلون مثله .؟!

«كلاّ! بل ينبغى عليه أن يكون حزينا من أجل مرضه الذى إضطره إلى أن يُحْرَم من بعض أنواع من الطعام ولو كان سليما مكتمل الصحة لم يُحْرَم من شيء .

وكذلكم الصائم لا ينبغي له أن يفتخر بصومه أو يحتقر الذين لا يصومون بل يجب أن يكون حزينا لأن نفسه الراغبة في الخطيئة تضطره إلى علاجها بالصوم (٢٤٥). فمتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرآئين فإنهم يغيرون وجوههم لكى يظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم .أماً أنت أيها التائب فادهن رأسك واغسل وجهك لكى لاتبدو صائما . ولايجب علي التائب الذى يتعالج بالصوم أن يجهِّز لنفسه أشهى الأطعمة عند انتهاء صومه بل عليه أن يقتصر على الطعام الخشن لأن الإنسان لايكافئ الحصان الذى رُبِطَ بالسلاسل ومُنِعَ عنه الطعام من أجل تاديبه لأنه كثير الرفس يميل الى إيذاء الاخرين لايكافئة الإنسان بتقديم أشهى الاطعمة إليه بل يجب أن تُقَدَّم إليه الأطعمة التى تعافها نفسه حتى يكتمل تأديبه وكذلك ينبغى أن يكون الصائم.

«والآن أصيخوا السمع لتعرفوا ماهو «السهر». إنَّ لكل شئ وجهان ظاهر وباطن ومن ثم فإن «النوم» نوعان نوم الجسد عندما يسترد «الله» «النَفْس» فتتحرر من حصار الجسد لها ولكن دون أن تفقد اتصالها به حينئذ يفقد الجسد نشاطه ويسترخى فتضعف قبضته على «النَفْس» التى تتحرر من أسره لكنها تبقى متصلة به وإلاً مات «الجسد» لأن موت الجسد هو مفارقة النفس له بحبسها عنه فى قبضة الغيب ولايمكن حينئذ أن تعود إليه إلا بآية من «الله» يعنى بقوة «الروح» الذى يعيد إسكانها فى الجسد. نوم الجسد هو النوم «الظاهر» الذى جعله «الله» آية تتكرر كل يوم ليعلم بها الإنسان أنه فى قبضة «الله» التى تحيط به وتهيمن على كل شئ وأنه لايملك من «نَفْسِه» شيئا إذ لايختار لحظة دخوله الى عالم «النوم» ولا لحظة خروجه إلى عالم «اليقظة» لأن «النَفْسَ» هى كلمة «الله» التى يحملها الإنسان فهى تظهر و تختفى تبعا لمشيئة المتكلم بها وحده إن شاء نطق بها فتظهر وإن شاء سكت فتختفى .

أما «النوم الباطن» فهو نسيان القلب لكلام «الله» وغفلته عن لقاء «الله» وعن حضوره الدائم بين يديه وكما أن «نوم الجسد» هو «إنذار» بموته فإن «نوم النفس» هو إنذار بموتها

وهو مفارقتها رحمة «الله» بحبسها فى العذاب الى الأبد. وذلك هو الموت الحقيقى الذى ينبغى على التائب أن يفر من الوقوع فى قبضته «بالسهر».

«وللسهر» وجهان ظاهر وباطن فأما الظاهر فهو «سهر» الجسد بقيامه فى الليل والناس نيام للصلاة وأما «السهر الباطن» فهو يقظة القلب بالتدبرفى كلام «الله» والتفكر فى آيات «الله» التى ملأت الأرض والسموات والإستعداد للقاء «الله» فى يوم الحساب الرهيب وهو «سهر» يؤدى إلى رؤية «الله» فى كل شئ وشكر «الله» على كل شئ والإنتباه الى حضور «الله» الدائم الذى لاينقطع فيظفر الإنسان «بوجود» «الله» وهو الحياة الحقيقية حينئذ يصبح الإنسان فى عبادة دائمة «لله». إن القلب اليقظ هو القلب الذى يتردد فى سمعه على الدوام نداء «الله» لمخلوقاته للمثول بين يديه للحساب(٢٤٦)

«النفس السهرانة» هى النفس الحية «بالله» التى تعاين أنها تنال من «الله» فى كل لحظة نعمة من فيضه الذى لايتوقف وهذه هى الغاية التى يسعى إليها «السهر» .

«قولوا لى أيمكننا أن نرى فى الليل وعلى نور النجوم أفضل أم فى النهار وعلى نور الشمس ؟!

قالوا «بل فى النهار وعلى نور الشمس».

قال : «ففى الليل وبالرغم من بزوغ النجوم فإننا لانرى فى وضوح جبلا قريبا منا أما فى النهار وفى نور الشمس فإننا يمكننا أن نرى أصغر الحبوب على الأرض».

«ولذلك فإننا فى الليل نسير بخوف أما فى النهار فإننا نمضى فى طريقنا بإطمئنان»

«وكذلكم يكون سير الإنسان الذى استيقظت نفسه «بالسهر». إن الإنسان لايستطيع أن يبقى دون نوم فإن حرمان الجسد من الرقاد أمر مستحيل وهو عذاب لاضرورة له ولاحكمة فيه لذلك ينبغى على التائب أن يمنح جسده بعض الرقاد وقليل من الراحة ولكن الإفراط فى النوم والاستغراق فى الراحة هو مايجب مقاومته بكل قوة لذلك يجب على

السـائر فى طريـق «الله» أن يتـجنب كثـرة الطعـام وزيـادة الإنشـغـال بـأمـور الدنيـا لأن هذين يثقلان الجسد عن القيام «لله» إذ يجذبانه إلي الأرض ويحولان بين الإنسان و«السهر».

«ولكن يجب عليكم أن تحـذروا أن يبـقى الجسـد سـاهرا بينمـا القلب نـائم لأن هذا هو الخطأ الفـاحش الذى يقع فيـه من يريد التوبة وهو خطأ يجعله أشبه بالمجنون. قـولوا لى مارأيكم فى رجل أراد السير فى طريق وعر لايعرفه طريق ملئ بالأشواك والعثرات وخوفا من أن تصطدم قدمه بحجر أخذ يسير على رأسه رافعاً قدميه نحو السماء»(٢٤٧)

أجاب التلاميذ «ياله من رجل تعيس ،لاريب أنه مصاب بالجنون».

قـال «المسيح» «الجسـد هو قـدم الحيـاة الذى تعيش به النفس علـى الأرض والقلب هو رأس الحيـاة الذى تحيي به النفس مع الملائكة والأنبياء وتشهد به حضـور «الله» لأن القلب هو «وعـاء الروح» الذى له وحـده أن يعـرف «الله» وأن يعـاين شـهوده فـمن يسـتيقظ بـالليل ليصلى بجسده ولكن قلبه يكون غـافلاً عن «الله» فهو «يسهر» بجسده الذى هو قدم حياته وينام بقلبه الذى هو رأس حياته فـهو أشد جنونا من الذى يسـير علـى رأسه خوفـا من أن تصـاب قدميه باصطدامـهـا فى صـخور الطريق فيقظة القلب هـى المقصـود «وسـهر» النفس هو الغاية المطلوبة

ولكن إذا كان يجوز لنا أن نرقد بأجسادنا بعض الوقت كل ليلة فإن رقـاد النفس الذى يعنى غفلتها عن «الله» لايجوز أبداً ولو للحظة واحدة (٢٤٨)

فـاندهش الجمع الذى كـان يصيخ سـمعـه إلى كلمات «المسيح» واندفـع «تلميـذ» ليقـول «ولكن يامعلم كيف يمكن لنا أن نذكر «الله» على الدوام يلوح لنا أن ذلك شئ محـال».

قـال «المسيح» : «إن مـصـدر «الشـقـاء» هنا علـى الأرض هـو أن الانسـان لايستطيع أن يذكر ربه على الدوام ولكن الأطهار أصفياء «الله» يستطيعون لأن اتصـالهم «بالله» قد توثق فاستـمـر ولـم يعد ينقطع. لقد إستقر فى قلوبهم «نور الله» فـاستيقظت قلوبهم ولم تعد تنام عـرفـوا أنهم أوعـيــة «لروح الله». إنهـم أبنـاء «الملكوت» الذين لايقـدرون أن ينسـوا «الله» لأن

«روح القدس» النبي الأبدى القائم أبدا بين يدي «الله» قد حل فيهم، فهم يذكرون «الله» على الدوام أو بالأحرى لايذكرونه أبداً لأنهم لاينسونه فى أى لحظة إنهم فى شهود دائم.

وشخصت إليه الأعين غير مصدقة «هل هذا ممكن ؟»

قال : «ألم تروا إلى الرجال الذين يعملون فى تقطيع الأحجار بالآلات الحديدية إنهم يضربون بآلاتهم الحجر وهم يتكلمون مع بعضهم البعض لاينظرون الى حركة أذرعهم ولا أين تقع آلاتهم ومع ذلك لايخافون أن تصاب أيديهم لأنهم لرغبتهم فى الإتقان ولطول التمرن يستطيعون أن يعرفوا أين تقع آلاتهم دون أن يلتفتوا اليها».

«وكذلكم يجب عليكم أن تفعلوا أن أردتم أن تصبحوا أطهاراً أصفياء: «لله» لاتغفلون عنه طرفة عين.»

«ارغبوا أولا أن تكونوا أطهاراً إذا أحببتم أن تتغلبوا تماما على شقاء «الغفلة» ثم عليكم بالتمرن المستمر فمن المؤكد أن الماء يستطيع أن يشق أقوى الصخور وأشدها قسوة بقطرة واحدة منه إذا تكرر وقوعها عليها فى نفس الموضع زمناً طويلا .

«أتعلمون لماذا لم تتغلبوا على هذا الشقاء ولماذا تظنون أن الوصول إلى هذه الحال مستحيل ؟!»

«لأنكم لا تعتقدون أن الغفلة عن «الله» طرفة عين هى خطيئة فلو أدركتم أنها خطيئة لأسرعتم إلى التوبة عنها وحينئذ تعلمون أن لا شىء مستحيل أمام رحمة الله .»

«إذا أعطاك «ملك» هبة أليس من الخطأ وسوء الأدب أن تغض عينيك أو أن تلتفت عنه أو أن تدير له ظهرك وهو يناولك الهبة ؟ »

قالوا «بلى» قال «ألا ينعم «الله» علينا فى كل لحظة وعلى الدوام نعمه التى لا نستطيع

عدها أو تقديرها فإنه يجود علينا بالنَفَس الذى نتنفسه فى كل لحظة ونبقى به أحياء أليس هذ صحيحاً؟ !»

قالوا «بلى»

قال «الحق أقول لكم إنه يجب علينا أن نقول فى كل لحظة طوال حياتنا ومع كل نفس نتنفسه «الحمد لله»(٢٤٩) نشكرك يا آلهنا. فمن الخطأ أيها الإنسان أن تغفل عن «الله» ولو طرفة عين لأنه لا يغفل عنك طرفة عين ويهبك فى كل لحظة هبات عظيمة لا تستطيع حصرها أو إدراكها .

قال «يحيى بن زبدى» إن ما تقوله يا معلم هو الحق فعلمنا الطريقة التى نبلغ بها هذه الحال السعيدة ؟ »

قال «المسيح» «الحق أقول لكم إنه لا يتاح لأحد من البشر أن يصل إلى هذا بقدرة بشرية بل هى رحمة «الله» التى يختص بها من يختار من عباده.»

«لكن من المؤكد أن الإنسان لاينال مالا يشتهى فإذا جلستم إلى المائدة فهل تتناولون الأطعمة التى لا تحبونها بل حتى تأنفون من مجرد النظر إليها ؟ !

«كلا إن هذا محال» .

« ولكنكم تتناولون ما تحبون وتمدون أيديكم إلي ما تشتهون أكله وإذا كان الطعام الذى ترغبون فيه بعيدا عنكم لا تستطيعون الوصول إليه بإيديكم فإن صاحب المائدة الذى دعاكم يرى إلى أى شىء تتجه أعينكم فيسارع بتقريبه إليكم حتي تتناولوه .»

«من المؤكد أنكم لن تنالوا مالا تشتهون، فعلى الإنسان أن يشتهى الصالح فحينئذ يهبه «الله» له. إرغبوا فى الطهارة يمنحكم «الله» أياها فى أقل من طرفة عين فإن إلهنا الرحيم بنا على كل شىء قدير ولكنه يريد منا أن نطلب وأن ننتظر عطيته لكى يشعر الإنسان بقيمة الهبة فيعرف بها الواهب .»

«ألم تنظروا إلى الجنود الرماة وهم يحاولون إصابة الهدف ؟ »

«حقاً إنهم يرمون مرات عديدة ولمدة زمن طويل خارج الهدف ولكنهم فى النهاية يستطيعون إصابة الهدف بكل يسر بل ربما دون أن يبذلوا جهدا ملحوظا. قد يرى الناظر إليهم فى البداية أنهم يرمون عبثا ولكنهم لا يرغبون مطلقا رغم كثرة أخطائهم فى أن يرموا عبثا فهم يؤملون دائما وفى كل مرة أن ينجحوا فى إصابة الهدف حتى يصلوا إلى ما يشتهون .»

«فافعلوا مثلهم حتى تظفروا ومتى غفلتم عن «الله» فنوحوا على أنفسكم حينئذ يهبكم «الله» رحمته لتنالوا شهوده.»

«إن صوم القلب عن الخطيئة وخلاصه من الغفلة عن «الله» هما الغاية المرجوة من الصوم والسهر أما صوم الجسد وسهره فينبغي أن يكونا علي قدر إحتمال العبد فكما أن كل إنسان يرتدي من الملابس ما يكون علي قياسه الخاص وما يناسبه فكذلك ينبغى على العبد التائب أن يتناول من صوم الجسد وقيام الليل ما يقدر عليه. يوجد دائما مرضى وحوامل ومرضعات ومن يمتهنون مهناً شاقة ومن يكونون على سفر متواصل وهناك الشيوخ الذين صاروا مثل الأطفال وهناك الواهنون أصحاب البنية الضعيفة فيجب على كل واحد أن يختار صومه وسهره واضعاً نُصْبَ عينيه على الدوام أن «الله» هو الغاية من كل عبادة وأن العبادة نفسها ليست غاية بل وسيلة لمعرفة الله.»

«ولكن احذروا فإن الشيطان قد يحمل أحدكم على أن يسهر طوال الليل ثم يتركه ينام بعد ذلك طوال النهار تاركا وصايا الرب وغافلا عن كل الأعمال التى يجب أن يقوم بها طبقا لشريعة «الله» إنه لا يصلى ولا يصغى إلى كلمة«الله» بل يقاوم رغبته في النوم. قولوا لى إذادعاكم أحد أصدقائكم إلى مائدته ثم أخذ يأكل اللحم ويناولكم العظام التى بقيت منه أترضون بعمله وتعدونه صديقا ؟ »

قال «بطرس» : «كلا يامعلم فإنه يُعد مستهزئاً لا صديقا» فشجعه «المسيح» قائلا «بالحق نطقت يا بطرس لأن من يغالى فى سهره الجسدى أكثر مما يطيق فيظل يقاوم

النعـاس وهو مـثـقل الرأس نـائم القلب فـى حين أنه ينبـغى عليـه أن يكون منتبـهـا للصـلاة ومصـغيا إلى كلام «الله» فذلك التعيس إنما يستهزىء بربه تحت دعوى قيام الليل ويكون بسـهره الذى لا معنى له مرتكبا للخطيئة وفوق ذلك فإنه لص يسرق الوقت الذى ينبغى أن ينفقه في سبيل «الله» .»

«دعا رجل أهل قريته لحضور عرس ابنه الوحيد فأجابه كل أهل القرية حتى أعداءه فـأخـذ الرجل يسـقى أعـداءه من الخـمـر التى أعدهـا حـتـى إذا صـار الشـراب حـثـالة وجـاء «الملك» إلي العرس أخذ التعيس يسقى ملكه حثالة خمره فماذا تظنون أيسُرُّ سيدُه بهذا الشراب فيرضى عنه أم يغتاظ ويغضب عليه ؟ !

«حقا إن «الملك» يأمر جنوده بإحضار ذلك التعيس ثم يأخذ فى ضربه بل ربما أمر بقتله بغيظ عادل طبقا لشرائع الدنيا وعرف الناس .»

فماذا يفعل «الله» بالعبد الذى ينفق أفضل أوقات نشاطه فى مشاغل الدنيا حتى إذا ثقل جسمه ومالت رأسه ونام قلبه قام للصلاة ومطالعة كتاب «الله» .»

«ويل للإنسان لأن قلبه مثقل بالخطايا»

«وأعـود لأخلص لكم كل مـا قلت. إن الضـحـك يجب أن ينقلب بكاًء ويجب أن يكون البكاء من القلب لا من العين لأن إلهنا الذى خلقنا مـسـتـاء جـداً منا وأن تنقلب الولائم إلى صـوم لكى تكون لكم السلطة على حواسكم وصوم القلب عن الخطيئة هو الغاية المرجوة من الصوم وأن ينقلب الرقاد إلى سهر وخلاص الإنسان من غفلته عن حضور «الله» هو المقصود من السـهر وأن طاعة «الله» بالجسد يجب أن تكون بقدر ما يطيق الجسد فإن «الله» «لا يكلف أحدا من خلقه مالا يطيق».(٢٥٠)

كان التعب قد استولى على الجميع وقد نفد الطعام الذى حملوه فصرفهم «المسيح»

ليرتاحوا ويذهبوا لإحضار الطعام وخلا هو بنفسه وجلس مطرقا إلى الأرض وبعض التلاميذ والأتباع يراقبونه من بعيد .

لقد ساروا معه أياما طويلة على شاطىء الأردن لا يتناولون إلا كسرات الخبز التي جُمعت في «القفف» وما كان مع بعضهم من الطعام ويشربون من نهر الأردن أو من عيون الماء التي يجدونها في الطريق فكان هذا التقشف الذى فُرِضَ عليهم فجأة مع السير الطويل والصلوات الكثيرة التي أضطروا إلى أدائها والانتظار أوقاتا طويلة حتى يَفْرُغ «المسيح» من صلواته ويخرج إليهم تضافر كل ذلك ليزيد من شعورهم بالتعب والملل فما أن أذن لهم «المسيح» بالراحة والخروج للبحث في القرى المجاورة عن طعام حتى انطلقوا في جماعات صغيرة يريدون التخفف من ثقل تلك التعاليم شديدة الوطأة. لقد خرجوا ليحضروا طعاما يواصلون به الرحلة ولكنهم كانوا يريدون التحرر من القيود التى تفرضها عليهم صُحْبَة «المعلم» يرغبون في الإستغراق في الراحة بعد كل هذا التعب الذى تكبدوه ولكنهم في النهاية وبعد تباطؤ عادوا للمسيح الذى كان ينتظرهم .

«لقد أطعم عدة آلاف بسمكتين وخمسة أرغفة فلماذا لا يطعمنا نحن الذين صحبناه وسرنا معه طوال الطريق. لماذا يتركنا نذهب لنبحث عن الطعام وقد قيل لنا إن رزقه في يده فلماذا لا يعطينا طعامنا دون مشقة وقد عزمنا على طاعة «الله». ألاَ نستحق مكافأة على كل هذا التعب الذى تحملناه؟!» قال لهم «المسيح» .

«قولوا لي ما الذى أضافه إلى الدنيا ذلك الإنسان الذى يرغب في أن يستريح؟ ماذا صنع ذلك الذى يود أن يقضي عمره في الراحة طالبا من جميع الأشياء أن تعمل في خدمته ؟ !»

«من المؤكد أنه قد نزل إلى الدنيا عريانا ضعيفا لا يقدر على شىء ولا يعلم شيئا ومن ثم فمن المؤكد أن كل ما يتمتع به الإنسان في معيشته هو ثمرة عمل الآخرين وكدهم ولذلك ينبغي على الإنسان أن يقدم حسابا عن كل النعم التى وجد نفسه يتمتع بها دون أى

مجهود منه فإنه لم يكن أكثر من متصرف فيما صنعه الآخرون بتعبهم. فبأى حق يريد الانسان أن يقضي عمره فى الكسل قائلا فى كل لحظة «آن لى أن أستريح». إن «الله» لم يجعل الدنيا بيتا نرتاح فيه بل حقلاً نعمل فيه وميداناً نجاهد فيه فواجب على كل إنسان أن يعمل. ومن الخير للإنسان أن يأكل بعمل يده وقد جعل «الله» التعب فى سبيل الحصول على الرزق باباً لمغفرة الخطايا وطريقا للحصول على البركة .

قال «يحيى بن زبدى» نعلم يا معلم أن العمل شىء حسن ولكن الفقراء هم الذين ينبغى عليهم أن يعملوا من أجل معيشتهم ولكن الأغنياء يكونون غير مضطرين للعمل(٢٥١).

قال «المسيح» : «نعم ينبغى على الفقراء أن يعملوا لأنهم لا يستطيعون غير ذلك. ولكن ألاّ تعلم أن العمل لا يُعَدُّ صالحاً إلا إذا تحرر من قام به من الضرورة وأنبعث للقيام به بإختياره. هل قال «الله» يعيش الفقير من عرق وجهه أم أنه قال للإنسان وهو يخرجه من الجنة «بعرق وجهك تأكل خبزك» فهذا الأمر موجه إلى الإنسان إلى كل من يمكن وصفه بالإنسان ومن ثم فإن غير الانسان هو الذى يمكنه أن يعفى نفسه من هذا الأمر الإلهى. واذا كان «الله» قد أمر الإنسان بأن يعمل وأن يأكل خبزه بعرق وجهه فلابد أن هذا الأمر يحمل «رحمة الله» للإنسان ولذلك قال «داود النبى» «إننا إذا أكلنا من تعب أيدينا نتبارك .»

وإذا كان «النبى داود» وابنه «سليمان» وكانا ملكين على بنى اسرائيل قد عملا بأيديهما وأكلا من ثمرة كدهما فكم يجب على الخاطئين الذين ليسوا أنبياءً ولا ملوكاً أن يعملوا لذلك قال «أيوب» نبى الله «كما أن الطير مولود للطيران والسمك للسباحة فى البحر فإن الإنسان مخلوق للعمل فى الأرض .»

«يجب على كل إنسان أن يعمل حتى وإن كان غنيا وعليه أن يختار العمل الذى يناسب.».

«لا شيء أضر على الإنسان من الكسل الذى هو بمثابة المرحاض الذى تتجمع فيه الخطايا ومن الشهوة الآثمة الممقوته من «الله» لأنها تنحدر بالإنسان إلى رتبة الدواب غير الناطقة التى تهيم على وجه الأرض. وليحذر الإنسان فإن عدوه من أهل بيته بل من نفسه التى بين جنبيه. ليس ثمة مكان لا يوجد فيه عدو للإنسان وما أكثر الذين أُهلكوا بسبب الشهوات الآثمة .»

قال «يعقوب من زبدى» «يا معلم ما هى الشهوة الآثمة (٢٥٢) ؟

قال «المسيح» «الشهوة الآثمة هى كل حب لشيء مخلوق غير مكبوح الجماح يتجاوز حدود شريعة «الله» ولا يرشده العقل ولما كان الإنسان لا يعرف حقيقة نفسه ولا يعلم ما الذى يضره وما الذى ينفعه لذلك فإنه يندفع إلى حب أشياءٍ يكون فيها هلاكه فهو يحب ما يجب عليه إبغاضه ويبغض ما يجب عليه حبه فيهلك .»

الحق أقول لكم إنه إذا أحب الإنسان شيئا ليس باعتباره هبة وهبها «الله» أياه بل أحبه لذاته فقد زنى وأشرك «بالله» لأنه بهذا الحب الآثم طلب أن تتحد نفسه بغير «الله» ولهذا وبخ «الله» الأمة على لسان «إشعياء» النبى قائلا «إنك قد زنيتِ بعشاق كثيرين ولكن إن رجعتِ إلىّ قبلتك .»

«لعمر «الله» الذى تقف نفسى فى حضرته لو لم يكن فى قلب الإنسان حب المعصية واللذة بالذنب لما ارتكب الجسد المعصية فإذا أقتلعت الجذر فإن الشجرة سرعان ما تموت».

«ليكن الرجل قانعاً بالمرأة التى أعطاها أياه خالقه زوجاً وليغض بصره عن كل امرأة أخرى لا تحل له .لينسى كل امرأة أخرى .»

قال «إندراوس» بصراحة «ولكن كيف يا معلم يستطيع الإنسان أن يغض البصر وينسى النساء الآخريات والمدينة التى يعيش فيها تمتلأ بهن .»

قال «المسيح» «حقا يا «إندراوس» فإن العيش فى المدينة يجذب الخطايا كما يمتص الإسفنج الماء لذلك يجب على الإنسان الذى يعيش فى المدينة أن يكون مثل الجندى فى الحرب عندما يحيط به أعداؤه من كل جانب إن عليه أن يحتمي بحصن حصين ليدفع عن نفسه هجمات الأعداء من الخارج وأن يكون منتبها على الدوام حذراً من خيانة أهله فى الداخل فكما يكون الأنسان معرضا لإغراء الخطيئة بواسطة الآخرين فإنه أيضا ينجذب إليها بنفسه المحبة للمعصية وحواسه المندفعة إلي اللذة والتى لها شغف شديد بكل الأشياء الدنسة التى حرمها «الله». كيف يستطيع الإنسان أن يدفع عن نفسه الخطيئة إذا لم يكبح جماح عينه التي تكون بحق أوسع الابواب إلى الخطايا الحق أقول لكم إن من أفقده «الله» بصر عينيه فقد آمنه من عذاب جهنم إلا ما كان إلى الدركة الثالثة أما الذى منحه بصر العينين فقد تعرض إلى عذاب جهنم حتى الدركة السابعة. فإذا لم تحفظ عينيك يا «أندراوس» من النظر إلى محارم «الله» فإننى أقول لك إن عدم الانغماس فى الخطايا يكون حينئذ من المحال »(٢٥٣) .

«لذلك بكى النبى «أرميا» قائلا «عين لص يسرق نفسى» وصلى النبى «داود» إلى «الله» بأشد رغبة من أجل أن يحول عينيه عن النظر الى الباطل .

«كان لرجل فلسان فقط فهل يشترى بهما خبزاً ليقيم أوده أم يذهب ليشترى بها سماً ؟» (٢٥٤)

«فعلى الإنسان أن يستخدم بصر عينه مع بصر قلبه لكى يطلب معرفة «الله» خالقه وألا يجعل غايته أحد المخلوقات أياً كان ذلك المخلوق» .

«وهبك أحد أصدقائك شيئاً لتحفظه عندك ليكون تذكاراً له فتظل تذكره به لكنك أُعْجِبت بالشيء جداً إلى الحد الذى أنساك صديقك الذى منحك أياه أو رأيت الشيء الذى أخذته يساوى ثمنا كبيراً فذهبت فبعته لتشترى شيئا آخر أحببته أكثر من صديقك الذى وهبك التذكار و علم صديقك بما فعلت فماذا يكون جزاءك عنده ؟!» .

«كذلكم منح «الله» الإنسان كل شيء ليذكره الإنسان فى كل شيء وبكل شيء لكن الإنسان نسى «الله» الذى منحه الأشياء جميعها وجعل تلك المنح المخلوقة غاية فكفر بنعمة ربه عليه وجعل تلك المنح التى خلقت من أجله آلهـا من دون «الله» فانظروا الى جحود الانسان!! »

«فمن ينظر إلى المرأة التى خلقها «الله» ويشتهيها الى الحد الذى ينسى فيه ربه الذى خلق تلك المرأة ويكون مستعداً لمخالفة شريعة «الله» من أجلها فإنه قد عبد تلك المرأة واتخذ منها إلهاً بدلا من «الله» ولذلك فهو يحب كل شيء يذكره بالمرأة التى أحبها واشتهاها إلى هذا الحد وكما أن السفينة لا يمكن أن تسير بدون الريح الذى يحركها فإن الجسد لا يمكن أن يخطئ بدون «الحس» الباحث عن اللذة ولا يمكن أن يوضع «الجسد» تحت سلطان «الروح» إلا بالسيطرة على «الحس» ولا سبيل إلى ذلك دون وضع لجام للعينين (٢٥٥) .»

«إذا تمكن رجل من تحويل التراب إلى ذهب أو الى سكر فما رأيكم فى العمل الذى ينبغى عليه القيام به؟» قالوا «ينبغى عليه ألا يعمل شيئا سوى صناعة الذهب أو السكر .»

قال «وكذلكم ينبغى أن ينفق التائب الوقت الذى منحه «الله» أياه فى الصلاة بدلا من إضاعته فى الثرثرة. إن تحويل الثرثرة إلى صلاة أكثر ربحا للإنسان من تحويل التراب إلى ذهب أو إلى سكر فلماذا لا ننفق الوقت الذى وهبنا «الله» فى الصلاة بدلا من الثرثرة .إن هذا مما يقول به العقل حتى إن لم يكن وصية من «الله»، « هل يمكن لأخرس متهم فى قضية أن يدافع عن نفسه أمام قاضى أعمى ؟»

«لعمر «الله» الذى تقف نفسى فى حضرته إن قدرة الإنسان على أن يكون صالحا بدون صلاة لهى أقل من قدرة الأخرس على الدفاع عن نفسه أمام أعمى .»

«هل يمكن لرجل بلا يدين أن يتناول شيئاً أو أن يدفع عن نفسه عدوا مهاجما ؟»

«الحق أقول لكم إن الصلاة هي يدا حياتنا اللتان يدافع بهما المصلى عن نفسه أمام «الله» فى يوم الحسا ب.»

«هل يمكن مداواة جرح بدون مرهم أو مهاجمة عدو بدون سلاح أو حفظ اللحوم بدون ملح أو إقلاع سفينة بدون ريح أو سيرها بدون دقة ؟ »

«الحق أقول لكم إن الصلاة هى دواء النفس وهى سلاح المؤمن وهى لجام «الحس» الذى يحفظه فى حدود الشريعة وهى ملح الجسد الذى يحفظه من الفساد بالخطيئة إذ تصون الإيمان فى القلب وتحفظه من أن تدخل فيه النوايا الشريرة وهى الريح الذى يدفع سفينة الجسد فى طريق البِر والدفة التى تسيِّر القلب فى صراط «الله» المستقيم فينال من «االله» كل ما يطلب وهى شفيع النفس فى يوم الدين (٢٥٦) .

«إن الإنسان يخطىء فى كل كلمة قبيحة ينطق بها ويمحو «الله» خطيئته بالصلاة .»

«كان هناك «ملك» منح عبده مدينة ليحكمها ويعيش فيها ولكن العبد بعد أن أخذ المدينة كَّون جيشا وأثار حربا ضد الملك .»

«كذلكم أعطانا «الله» الوقت فى حياتنا الدنيا لنعبده لكننا أخذنا الوقت لنحاربه بالمعاصي .»

سلعمر «الله» الذى تقف نفسى فى حضرته لو علم الناس إلى أى صورة بشعة ينحدر الإنسان بالكلام الباطل لفضلوا أن يعضوا ألسنتهم بأسنانهم بدلا من النطق بالباطل .»

«ما أتعس بنى اسرائيل اليوم لأن الناس لم تعد تذهب إلى الهيكل للصلاة بل إن الشيطان يجمعهم فى أروقة الهيكل بل فى الهيكل نفسه للتكلم بالباطل بل لما هو شر من ذلك .(٢٥٧)

«إن الكلام الباطل يوهن البصيرة إلى حد أن يصير الإنسان غير مستعد لقبول الحق فالرجل الذى اعتاد أن يضيّع وقته فى المزاح عندما يريد أن يصلى يأخذ الشيطان فى تذكيرة بكل الفكاهات التى قالها أو استمع إليها من قبل فيستغرق الإنسان فى الضحك فى الوقت الذى ينبغى عليه أن يبكى على خطاياه طالبا من «الله» المغفرة والرحمة فيثير بضحكه غضب «الله» فيطرده من رحمته .»

«وإذا كان «الله» يمقت المازحين بالباطل والمتكلمين باللغو فماذا يفعل بالمتذمرين الذين يعلنون سخطهم على قضاء «الله» أو الذين يغتابون جيرانهم وأهلهم أو الذين يفترون الإثم على غيرهم طلبا للربح .»

«إن ذلك العالم الدنس لا يستطيع أن يتصور الصرامة التى يقتص بها «الله» منه فعلى من يريد أن يتوب أن يجاهد نفسه ولا يعطى كلامه إلا بثمن الذهب .»

قالوا «وكيف يجاهد نفسه ومن الذى يشترى الكلام بثمن الذهب لاشك أن الإنسان سيصبح طماعاً جداً ».

قال «المسيح» «إن قلوبكم ثقيلة جداً لا أستطيع أن أرفعها ولذلك فأنا مضطر أن أشرح لكم كل كلمة أقولها . لا تحزنوا ولا تغضبوا ولكن أشكروا «الله» أن أتاح لكم أن تعرفوا «الحكمة». إننى لا أقصد أن التائب ينبغى عليه أن يبيع كلامه بثمن الذهب ولكننى أقصد أن التائب عندما يريد أن يتكلم وجب عليه أن يَحْسِب أنه يخرج من فمه ذهباً لاهواءً فكما أن الإنسان لا يبعثر ما يملك من الذهب ويلقي به على الأرض وكما أنه لا يشترى به ما يضره فهو لا ينفق ما معه من الذهب إلاَّ عند الضرورة الشديدة وعندما يكون متأكداً أن هذا الإنفاق سيعود عليه بالنفع لا بالضرر فعليه أن يتكلم على هذا النحو .(٢٥٨)

أصدر الحاكم أمراً بسجن أحد الأشخاص ثم أرسل إليه ليستجوبه أمام القاضى والكاتب يسجل الأقوال .»

«قولوا لى كيف يتكلم مثل هذا الرجل ؟»

قالوا «إنه يكون حذراً فلا ينطق إلا إذا سُئِل وإذا أجاب فعلى قدر السؤال حتى لا يزج بنفسه فى التهم وعليه أن يكون فى منتهى الحذر حتى لا يقول شيئا يغضب الحاكم وإن استطاع أن يقول شيئاً يحمل الحاكم على أن يطلقه فعليه أن يسرع بالنطق به وإلاَّ فليصمت (٢٥٩) .

قال «المسيح» «وكذلكم ينبغى أن يكون كلام التائب فإن «الله» قد سجن الإنسان فى هذا الجسد ووضع عن يمينه وشماله كاتبين يسجلان عليه أقواله فإن أحب الإنسان أن يطلقه «الله» من هذا السجن إلى الرحمة فليزن الكلام الذى ينطق به بأدق مما يزن الذهب والإفإنه سيذهب من هذا السجن إلى سجن آخر أشد ضيقاً لا خروج منه ».

«إن أعطاكم «هيرودوس» بستانا لتزرعوه له وتأكلوا منه ثم أرسل إليكم في نهاية الموسم بعد الحصاد عبيده ليحملوا إليه الثمر الذى جُمِع من بستانه فرفضتم أن تسلموا العبيد الثمر مدعِّين أن الثمر ثمركم والزرع زرعكم والبستان بستانكم وأن «هيرودوس»ليس له شىء عندكم فلايحق له أن يطالبكم بشىء .»

«ألاَّ تكونون بذلك قد جعلتم أنفسكم ملوكاً على البستان الذى منحكم الرئيس «هيرودوس» أياه». قالوا «بلى ».

قال «المسيح» «فماذا يفعل بكم ؟!»

«إنه يطردكم من البستان ويلقى بكم فى السجن ويستبدل بكم قوماً غيركم. أليس هذا صحيحاً ؟

قالوا «بلى»

قال «وكذلكم يفعل «الله» مع البخيل لأن البخيل قد جعل من نفسه إلها على الثروة التي منحها «الله» أياه وهو يقول بعمله وإن لم ينطق لسانه «لا إله إلا أنا ولا إله غيرى»

ولذلك فهو ينفق كل ما أعطاه «الله» علي ملذاته الخاصة محاولاً جمع كل ما يستطيع من المال ومتوهما أن ذلك يضمن له الخلود رغم أن العقل بمفرده يصرخ فيه «إن هذا عبث لا طائل من ورائه وأن ما يقوم به باطل لا معنى له». إنه يغفل حتى عن بدايته المنظورة حيث ولد عريانا لا يملك شيئا ويغفل عن نهايته المنظورة حيث يموت عريانا لا يملك شيئا تاركا وراءه كل ما ضيع حياته فى جمعه. فكما تكون نهاية اللص السجن فإن نهاية البخيل هى جهنم حيث لا لذة على الإطلاق فمن المستحيل أن ينال البخيل خيراً من الجنة ».

ثم رفع «المسيح» يديه إلى السماء وقال «آلهنا الرحيم القدير .

أنت خلقتنا فنحن صنعة يديك .

نقر بأننا عبيدك.

ونشكرك على أن رفعتنا إلى رتبة الإنسان وجعلتنا علي دين «رسولك» ونشكرك على كل نعمك التى نعترف بأننا لا نستطيع أن نحصيها أو نقوم بشكرها . نريد أن نعبدك وحدك كل أيام حياتنا نادمين على خطايانا مصلين ومتصدقين صائمين مجتهدين فى فهم كلمتك مكابدين الآلام من أعدائك حباً فيك وباذلين أنفسنا للموت فى سبيلك راغبين فى تعليم الذين يجهلون مشيئتك فنجنا يا رب من الشيطان ومن أنفسنا ومن كل اعدائك إكراما لرسولك الذى من أجله خلقتنا وكرامة لجميع أنبيائك ورسلك كما نجيت المؤمنين من عبادك تمجيدا لذاتك التى تتعالى على كل وصف» وكانوا يكررون وراءه «آمين آمين ».(٢٦٠)

ثم صرفهم «المسيح» ليستريحوا واعتزل بنفسه ثم اضطجع قليلا على الأرض .

وفى الفجر أيقظ «المسيح» تلاميذه وأتباعه حيث أمرهم بالإغتسال ثم صلى بهم وجلس يعلمهم بينما كانت الشمس تشرق ونورها النازل إلى الأرض يبدد الظلمة ويضىء الأشياء

قال «المسيح» :

«فى مثل هذا اليوم (وكان يوم جمعة) خلق «الله» الإنسان من كتلة من الطين لقد

نفخَ فيها من «روحه» الحياة فكان «الإنسان» وانتشر «سر الحياة» فى كل أجزاء الجسد ونتج عن ذلك «الحس» ثم نزلت «النفس» بقوة «الروح» لتستقر فى «القلب» فتتسلط من هناك على سائر الجسد .»

«ثم نُّور القلبَ ليعرف الإنسان حقيقته ويعلم من هو ويدرك أن «الله» هو غايته هذا النور هو الذى يسميه الناس «العقل» (٢٦١) ثم وضع «الله» الإنسان فى الجنة. لكن «الحسَ» الباحث غن كل لذة استطاع أن يغرى «العقل» بالخطيئة بغواية الشيطان فعصى «الإنسان» ربه فطُردَ من الجنة ففقدت «النفس» براعتها فزال عنها الجمال الذى كان لها فى الجنة وفقد «الجسد» راحته فصار عليه أن يكابد الألم والموت وفقد «الحس» اللذة التي يبحث عنها ولا يحيى إلاَّ بها وأوشك الإنسان على الهلاك الأبدى بمفارقته رحمة «الله» إلاَّ أن رحمة «الله» أدركته فأعادت «النور» الى قلبه فاسترد الإنسان «عقله» وهذه هى توبة «الله» على عبده. أن يعيد نورالعقل إلى قلبه فيأخذ الإنسان بهدا النور فى السير إلى ربه.

«وكما ترون فإن الإنسان لا يستطيع أن يتوب إلا بمعونة «الله» لأن «الله» هوالذى يتوب على عبده بإعادة النور إلى قلبه فيأخذ العبد فى التوبة إلى ربه فلا توبة إلاَّ من «الله» لأنها تجديد حياة القلب ولا يملك ذلك إلا «الله» وحده. ربنا هو الذى ينعم علينا لنتوب لذلك قال «داود» «هذا التغيير يأتى من يمين الله(٢٦٢) فلنشكر «الله» ربنا الذى وهبنا اليوم أن أبلغ كلمته ».

«وأحب أن أعود الى البخل الذي حدثتكم عنه الليلة الماضية فأقول لكم إن البخل هو عطش «الحِسَ» إلى اللذة التي فقدها بالخطيئة التى طَرَدَتْ الانسان من الجنة .»

«إن «الحس» يطلب اللذة ولكن الإنسان يفقد نور العقل بخطيئته لذلك فإن «الحس» يضل الطريق فى بحثه عن المسرة فلايجد له هادياً إلا النور الذى يصل إليه من العينين ولكن عين الجسد لاترى إلا الباطل لأنها لاتستطيع أن تدرك إلاَّ رسوم الأشياء ولذلك فإن الحس يأخذ فى حث الإنسان على جمع الأشياء الأرضية وإحاطة نفسه بها لعله يتعزى عن

اللذة التى فقدها بخطيئته خادعا نفسه بأن يجد فيها بديلا عن جنة «الله» موهماً نفسه بأنه قد يظفر بالخلود وكلما رأى نفسه بعيدا عن «الله» محروما من رحمته كلما ازداد بخله قوة فازداد تشبثه بالأشياء الدنيوية وهكذا كلما حصل البخيل على المال ازداد عطشه إليه وازداد حرصه عليه ولايملأ عينه إلا التراب ».

«إن البخل يجب أن يتحول إلى تصدق فمتى رأى الإنسان نفسه راغباً فى الحصول على شئ أو شديد الحرص على شئ فليسأل نفسه أولاً هل هذا الشئ له نهاية أم لا ؟!»

«ومن المؤكد أن جميع الأشياء لها نهاية فمن الجنون إذن أن يحبها الإنسان وأن يشتد حرصه عليها لأن الإنسان لاينبغى له أن يحب إلا الأبدى الذى لانهاية له ولايحرص إلا على الباقى الذى لايفنى فليتخلص الإنسان من البخل موزعا بالعدل ماأدعاه بالظلم »(٢٦٣)

«ولكن يجب هنا أن أحذركم من الرياء فينبغى على التائب عندما يتصدق ألاَّ تعلم يده اليسرى ما أعطت اليمنى. إن الإنسان يأخذ أجرته ممن يشتغل عنده والمرآؤون يحبون أن ينظر إليهم الناس وأن يمدحوهم وهذا هو كل جزاءهم على صدقتهم الكاذبة التى لم يريدوا بها وجه «الله». فإن أراد المتصدق أن يأخذ أجرا من «الله» فعليه أن يبتغى بصدقته وجه «الله» وذلك بأن يعتقد جازما أنه يعطى «الله» مال «الله» حبا فى «الله» الذى منحه هذا المال طالبا منه أن يرضى عنه وأن يغفر له خطاياه وأن يرحمه. »

«فلاتبطئوا فى العطاء ولاتعطوا إلا خير ماعندكم ».

«قولوا لى أتحبون أن تنالوا من «الله» شيئا رديئا ؟» «كلاَّ لا أحد يحب ذلك .»

«فلماذا أيها الطين تعطى آلهك شيئا رديئا وأنت تدعى أنك تحبه. هو الذى خلقك ووهبك الحياة من «روحه». ألاَّ تتصدق خيرٌ لك من أن تتصدق بشئ ردئ تعافه نفسك لأنه يمكن الاعتذار عن عدم العطاء ولكن يا أيها التراب الذى منحك «الله» «روحه» ماهو عذرك فى أن تتصدق بشئ خبيث لاقيمة له مع احتفاظك بالأفضل لنفسك ؟!»(٢٦٤)

«لكل ذلك أقول لكم لا أمل للإنسان فى التوبة إلا اذا أعاد «الله» تنوير قلبه ليتبين الإنسان فى نور «الله» الطريق إليه فيأخذ فى السير وبدون ذلك النور المنبعث من «روح الله» فإن علم كل العلماء وحكمة كل الحكماء لاتجدى شيئا»

قال «يحيى بن زبدى» «إذن فما هى الجدوى من كلام الإنسان ؟»

قال «المسيح»: «إن الإنسان من حيث هو مخلوق لايستطيع تحويل خاطئ إلي التوبة ولكن الإنسان من حيث وسيلة يستعملها الله يستطيع أن يجدد الحياة فى قلب الإنسان لأن «الله» هو الذى يعمل فى الإنسان ليخلصه من الشقاء ويعيده إلى الجنة حيث الرحمة الدائمة لذلك يجب على الإنسان أن يصغى لكل إنسان حتى يستطيع أن يظفر بالذى يريد «الله» أن يكلمنا به .»

فقال «يعقوب» شقيق «يحيى» «ولكن يامعلم إن أتى معلم كاذب أو مدعى نبوة وأدعى أنه يريد أن يعلمنا ويهدينا فماذا نفعل ؟»(٢٦٥)

قال «المسيح» «يذهب الرجل الى البحر ليصطاد فيلقى شباكه ثم يخرجها ويطرح مافيها ويأخذ فى فحص الصيد فيحتفظ بالجيد ويلقى بالردئ بعيدا»(٢٦٦)

«وكذلكم يجب أن تفعلوا. تصغوا إلى الجميع ثم تفحصوا ماسمعتم فتقبلوا الحق فقط لأن الحق وحده هو الذى يحمل إليكم الحياة الأبدية ».

قال «إندراوس» «ولكن كيف نعرف الحق» ؟!

قال «المسيح»: «إن «الله» واحد ولذلك كان الحق الذى ينطق به واحد ومن ثم فإن التعليم الذى جاء به جميع الانبياء المرسلين من «الله» من بدء الدنيا حتى زوالها واحد ولذلك يكون كل ما أتفقت عليه أقوال الأنبياء صادرا عن «الله». الحق أقول لكم لو لم يُمْحَ الحق من كتاب موسى إذ أزال منه الأحبار والكتبة مايكرهون وأضافوا إليه بأهوائهم مايشاءون لو لم يحدث هذا ما أنزل «الله» رسالات جديدة مع أنبياء جدد وما أعطى

«داود» كتابه ولو لم تُدَنَّس كتب الأنبياء بالباطل الذى أحدثه الكهنة والشيوخ ماعلمنى «الله» «التوراة» و«التبشير» ولكن «تبشيرى» أيضاً سيدنس بأقوال الذين لايتقون «الله» ولذلك سيرسل «الله» رسوله «روح القدس» الذى يغلق باب النبوة وسيحفظ «الله» وحيه حتى تقوم الساعة إذ لن يكون نبى بعده فيبقى كتابه صحيحا لأيدَنَّس لأنه يحمل كلمة «الله» الأخيرة الى البشر. إن «الله» واحد وثابت لايطرأ عليه تغيير ورسالته الى البشر واحدة نطق بها جميع الأنبياء فى كل الأمم ولذلك متى جاء نبى «الله» الأخير فإنه يصحح الأخطاء التى وقعت فى كتب الأنبياء بفعل الأيدى الخبيثة ويطهرنى من الإثم الذى يلحقه الفجار بى فيرفع عنى «العار» الذى يحاول الشيطان أن يدمغنى به ويطهر كتابى من الدنس وفى ذلك يكون عزائى كما قلت لكبير الكهنة وأمام الجموع» .

قال برنابا «لكنك يامعلم قلت أمام كبير الكهنة أن أنبياء كذابين سيظهرون وسيعطون الناس تعاليماً فاسدة ومن ثم فلابد أن شريعة «الله» سيصيبها الفساد فماذا نفعل حينذاك» ؟!(٢٦٧)

قال «المسيح» «إن هذا أمر عظيم ولذلك أقول لكم إن الذين يظفرون بالخلاص فى مثل هذه الفتن قليلون لأن أكثر الناس لايؤمنون لأنهم لايبالون ولايفكرون فى المصير الذى يندفعون إليه دون أن يشعروا»

«فيجب عليكم أن تعلموا أن كل تعليم يحول بين الإنسان وآلهه الذى خلقه ويقف حجر عثرة أمام الغاية التى ينبغى للإنسان أن يسعى اليها وهى الوصول إلى «الله» كل تعليم يفعل ذلك فمن المؤكد أنه تعليم فاسد. فانظروا فى كل تعليم إلى ثلاثة أشياء محبة «الله» والرحمة بخلق «الله» وكراهية النفس التى تُغْضِب «الله» كل لحظة بالمعصية فكل تعليم ينطق بذلك ويحقق هذه الثمار لديك فهو تعليم صالح جاء من «الله» وكل تعليم يخالف ذلك هو تعليم فاسد يحمل للإنسان الهلاك »

ثـم قـال «المسـيح» «هـذا كـل مـا أملك أن أقـوله لكـم فـى التـوبة». قـالوا «إلـى متى تستمر التوبة» ؟

قـال «المسـيح» «تسـتمـر التوبـة ما اسـتمـرت الخطيئـة ولأن النفس البشـرية تـخطـئ على الدوام فيجب عليها أن تجاهـد نفسـها وتتـوب دائـما فـهـل تُعَدُّون أحذيتكم أفضـل مـن نفوسكم؟»

«لأنه كلما أنفتق الحذاء أسرعتم تصلحونه(٢٦٨) فـهل حذاءك أكرم عليك من نفسك يا أيها الإنسان ؟».

(٢١)

(الشريعة)

«شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولاتتفرقو فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب»

(الشورى ١٣)

قام المسيح ونادى على الجمع الذى يصحبه فى طريق العودة فاصطفوا أمامه فخطبهم قائلا (٢٦٩)

«ها أنا أرسلكم الى بنى اسرائيل مثنى مثنى»

«لأنكم الآن شهداء على أنى رسول من الله الى بنى اسرائيل فكما تطلب شريعة الله شهادة رجلين على الحق فانا أرسلكم كل رجلين معاً. إذهبوا وبشروا كما سمعتم منى. قولوا لبنى اسرائيل إن «ملكوت الله» قد اقترب وبشروهم أنَّ من يؤمن بنبى لم يأت بعد بدعوة نبى قد جاء فأجر نبى يأخذ فطوبى لمن آمن ولم يرى .

«وأعلموا أن من يقبلكم فإنما يقبلنى ومن يقبلنى فإنما يقبل الذى أرسلنى ويكون أهلاً لأن يحل فيه «روح القدس» فيصير مثلى «إبنا للملكوت» وأن من يعمل صالحا إستجابة لدعوتكم ولو أن يسقى طفلاً صغيراً كأس ماء بارد فى يوم شديد الحر فالحق أقول لكم إنه لايضيع أجره . وأعلموا أن ليس تلميذ أفضل من معلمه ولارسولٌ أفضل من الذى أرسله ولا عبد أفضل من سيده. غايةُ التلميذ أن يصير كمعلمه والرسول أن يطيع الذى أرسله والعبد أن يقترب من سيده. لاتظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض بل حربا ماجئت لألقى سلاما بل نارا فما يضيرنى إن أضرمت؛ فإني جئت لأفرق فيقوم الإنسان ضد أبيه والإبنة ضد أمها والأخ ضد أخيه والكنة ضد حماتها بل الرجل ضد أمرأته بل

ضد نفسه واعلموا أن عدو الإنسان هو أهل بيته بل نفسه التي في قلبه وأنّ من أحب شيئا وإن كان أباه أو أمه أو إبنه أو أمرأته أو نفسه أكثر من الله فلا يستحق أن يكون لى تلميذا . من يحرص على حياته فإنه يضيع نفسه ومن يبذل نفسه للموت في سبيل الله فإنه يجد حياته .

ماقلته لكم في الخفاء فأعلنوه للناس وماهمست به إلى آذانكم فنادوا به من فوق الأسطح .

إنى أرسلكم كغنم بين الذئاب فكونوا حكماء كالحية التى لاتدع أحداً يُمْسِك بها وبسطاء كالحمام الذى يبحث عن رزقه وهو القادر على الطير فى السماء بين القمامة وفضلات الناس.

لاتسيئوا الظن بأحد ولاتحسنوا الظن بأحد ولكن أحذروا الناس فإنهم سيسلمونكم إلى المحاكم والمجامع ويسوقونكم أمام الرؤساء والولاة فتُحْبَسون وتجلدون وتقتلون شهادة عليهم من الله ولكن لاتخافوهم فإنهم لايقدرون إلا على الجسد أما القلب فإنهم لايستطيعون أن يصلوا إليه . إنما ينبغى عليكم أن تخافوا من الله وحده لأنه هو وحده الذى يقدر على النفس وعلى الجسد هو وحده القادر على هلاك الجسد بالموت وإهلاك النفس بجهنم. من الله وحده يجب أن يكون خوفنا .

إن عصفورين صغيرين يباعان بفلس واحد لايمكن أن يسقط أحدهما على الأرض إلا بإذن الله فلا تخافوافإنكم عند الله أفضل من عصافير كثيرة.

لاشئ يحدث دون علم الله وإذنه فحتى شعور رؤوسكم جميعاً محصاة ولا تسقط منها واحدة إلاّ بإذن الله.

ومتى أمسكوا بكم فلا تهتموا بما تقولون أو كيف تدافعون عن أنفسكم لأنكم تُعْطَوْن فى تلك الساعة العصيبة ماتتكلمون به فلستم أنتم المتكلمون بل «روح القدس» أبوكم الذى

يأتى إليكم ليتكلم فيكم لاتتكلوا على أحد من الخلق لأن الأخ سيسلم أخاه والأبن أباه والأب ولدَه راضياً أن يُلْقى به إلى الموت وسيقوم الأولاد على أبائهم ليقتلوهم والأباء على إبنائهم وستكونون مبغضين من الجميع من أجلي ولكن الذى يصبر إلى النهاية فهو الذى ينجو .

إن طردوكم من مدينة فأهربوا إلى أخرى لتبشروا فيها .

لقد قالوا عن «روح القدس» أنه رئيس الشياطين إذن فقد سموا رب البيت شيطانا فانظروا كيف سيصفون أبناءه الذين يبشرون به .

لاتحملوا شيئاً للطريق اللهم إلا عصا ـ

لاتحملوا خبزاً ولانحاسا ولاتقتنوا ذهبا ولافضة ـ

ولاتحملوا ثوبين بل يكفى الواحد منكم نعلان وثوب واحد ـ

ولاتكلموا أحدا فى الطريق حتى تدخلوا القرية التى تقصدونها فإذا دخلتموها فانظروا البيت الذى يستحق أن تنزلوا فيه فسلموا على أهله فإن كان هناك ابن للسلام نزل سلامكم عليه وإلاً فقد عاد السلام عليكم وأعرضوا دعوتكم فإن قبلوكم فأبقوا فى هذا البيت ولاتغادروه حتى تخرجوا من القرية كلها .

بشروا كما سمعتم منى وأدعوهم إلى التوبة وأزيلوا من بنى اسرائيل كل الضلالات وأبلغوهم كلمة الله كما كلمتكم بها وكما نطقت بها أمام كبير الكهنة .

أخرجوا الشياطين وأشفوا المرضى فإن الله قد سلطنى على كل مرض وقد منحكم كما منحنى بل يمكنكم أن تحيوا الموتى فبقدر إيمانكم تأخذون. مجاناً أخذتم مجانا يجب أن تعطوا كلوا مما يقدم لكم أهل البيت الذى قبل أن يضيفكم فإن الفاعل مستحق طعامه.

لاتدخلوا مدن السامريين وإلى طريق الأمم لاتمضوا بل أذهبو إلى بنى اسرائيل فإلى خراف بنى اسرائيل الضالة قد أرسلنى ربى ومن لايقبلكم ولايحب أن يستمع لدعوتكم

فاخرجوا من عنده وأنفضوا غبار نعالكم قائلين حتى الغبار الذى التصق بأحذيتنا من قريتكم نرده عليكم وأعلموا أنه كذلكم ينفضكم الله من رحمته ولكن إعلموا أن «ملكوت الله» قد اقترب. الحق أقول لكم إن قوم لوط سيكون لهم يوم القيامة حالاً أفضل مما لأولئك الذين رفضوا «تبشيرى» ولم يؤمنوا بى إذ لم يقبلوا رسلى .

ثم أشار «المسيح» إليهم أن تقدموا إلىَّ فتطلعت أعينهم إلى وجهه الذى أخذ يتلألأ وتفيض منه «مهابة» لايُستَطَاع وصفها أو التحديق فيها فخشعت أبصارهم وأصواتهم وأطرقوا إلى الأرض وقد أحنوا رؤوسهم وهم يتقدمون إليه فى احترام وقد ملأت مهابته القلوب فراح «المسيح» يمسح رؤوسهم بيده وهو يقول : «بسم الله» ليباركهم. شعروا أن ثمة نور قد قذف فى قلوبهم وأدركوا أن هذا «الرجل» حقاً مرسلٌ من الله ثم طلب المسيح منهم أن يختار كل رجل صاحبه ليذهب الإثنان معاً إلى قرية من قري اليهودية والجليل .

وودعهم «المسيح» طالباً منهم الإنصراف إلى رسالتهم بكل كيانهم وأداء الأمانة التى استودعهم الله وأستبقى بعض تلاميذه معه ليظلوا فى صحبته ليكونوا شهداء على كلمة «الله» التى ينطق بها. انصرف الرسل كل اثنين معاً ليؤدوا شهادة الله ولم يبق مع المسيح إلا الذين اختارهم ثم أمرهم أن يسبقوه إلى الناصرة إذ أراد أن يعتزل منفردا بنفسه بعض الوقت .

ركب «التلاميذ» المختارون سفينة صغيرة كانت تبحر الى الشمال قاصدة بحر الجليل (بحيرة طبرية) تاركين المسيح لصلاته كما ركب بعض الرسل سفنا أخرى لأنهم اختاروا أن يذهبوا الى القرى الواقعة حول بحر الجليل ليبشروا فيها(٢٧٠) وفى المساء عندما اقترب الظلام اضطرب الجو فعصفت الريح وعلت الأمواج وأخذت السفينة الصغيرة تتأرجح بصفعات الماء الغاضب توشك أن تغرق واستولى الفزع علي الجميع وظلت الريح تعاكسهم والبحر يفتح فمه يريد أن يبتلعهم وقد عم الظلام إذ استمر هبوط الليل وتكاثفت السحب السوداء فغطت النجوم ولم يكن هناك قمر .

أحاط بهم الموج من كل جانب وأخذ يقتحم عليهم سفينتهم الصغيرة «المفزوعة» وظنوا أن أحيط بهم ، ثم فجأة فى الهزيع الأخير من الليل عندما كان الفجر يوشك أن ينبلج وهم معذبون فى قلب البحر الهائج لايعرفون إلى أين تتجه سفينتهم. رأى التلاميذ كأن شبحا يسير فوق الماء يقترب من سفينتهم فظنوا أن الشيطان الذى يقال أنه يسكن فى أعماق البحر قد خرج إليهم من مخبئه يريد أن يلتهمهم فأخذوا يصرخون ويندبون حظهم العاثر الذى أوقعهم فى هذه المصيدة المخيفة بينما كان السائر على الماء ينادى عليهم «لاتخافوا لاتخافوا أنا معلمكم ياتلاميذى أنا المسيح عيسى بن مريم» لكنهم ظلوا فى فزعهم وقد أمسك الرعب بألسنتهم فلم يستطيعوا أن ينطقوا بحرف واحد. جفت أفواههم وتعالت ضربات قلوبهم وشخصت عيونهم الى الشبح الذى يسير على الماء مقتربا منهم وقد أضاء وجهه فاستطاعت عيونهم فى غمرة الفزع أن تصطاد ملامح «المعلم» الذى ظلوا يستمعون إليه أياما طويلة .

«ياتلاميذ المسيح إطمئنوا إننى هو »

قال «بطرس» : إن كنت هو حقا فمرنى أن آتى إليك على الماء كما تسير أنت الآن»

قال «المسيح» : «تعالى يابطرس على الماء لتعرف إننى المسيح حقا » فاندفع «بطرس» من السفينة وقد استولت عليه الرغبة فى التحقق وألقى بنفسه إلى الماء يريد أن يسير عليه لكنه بدلاً من يرفع وجهه نحو «المسيح» الذى وقف على سطح الماء هادئا كأنه يقوم على الأرض نظر الى سطح الماء الهائج وأحس أنه لن يستطيع أن يثبت عليه. أدرك أنه يغوص فى فم البحر الذى فُتِحَ ليبتلعه فصرخ «يارب نجنى» فأسرع «المسيح» إليه والتقطه كأنه طفل صغير وهرول يحمله إلى السفينة فدخلها فى هدوء ووضع بطرس الذى كان يرتعش من الفزع على أرض السفينة وجلس «المسيح» ساندا ظهره إلي جدارها. ونظر إلى السماء وهو يتمتم بكلمات لم يسمعها أحد من ركاب السفينة ثم نظر الى البحر فانقشعت السحب الداكنة وبدت السماء صافية بنور الصباح الذى قد أتى وهدأ البحر وتعجب من فى

السفينة والسفن الاخرى مما يرون فظلوا ينظرون صامتين الى «المسيح» فى دهشة وهو يقول لبطرس الملقى على أرض السفينة .

«ياقليل الإيمان لماذا شككت ».

سكن ارتعاش «بطرس» ونهض جالسا مطرقا وهو يغرق في الخجل.

نزل المسيح من السفينة واصطحب معه الذين اختارهم لملازمته بينما واصلت السفينة رحلتها قاصدة «بيت صيدا» سار «المسيح» على البر وخلفه الجمع الصغير الذى لم يزل مأسورا فى قبضة الحيرة .

قال «المسيح» «ماذا يجب علينا الآن ؟!»

كرر السؤال ثلاث مرات والجمع «المتحير» لايعرف جوابا فأجاب «المسيح» «يجب علينا الآن أن نصلى شكرا لله على نجاتكم فهيا اغتسلوا من البحر وصلوا وأطلبوا فى صلاتكم الإيمان لتكونوا أهلا للهبة العظيمة التى شاءت رحمة الله أن تمنحها لكم .»

ثم أخذ «المسيح» يشق طريقه الى الناصرة يتوقف بين الحين والآخر للصلاة وكلما مر على قرية صغيرة فى طريقه دخلها لبعض الوقت فإن عرفه أهلها وقبلوه وعظهم وشفى بإذن الله مرضاهم لكنه كان متعجلا الذهاب الى الناصرة ليشم عطر الجنة عند قدمي أمه الطاهرة .

وكانت الأنباء قد سبقت «عيسى» إلى الناصرة إذ أذاع الذين ركبواالسفن آية سيره على الماء كما أن محاورته مع كبير الكهنة قد أكسبته احترام الشعب الذى ابتدأ ينظر إليه كنبي ويصدق ماظل «يحيى بن زكريا » يقوله عنه وهكذا عندما عاد «عيسى» الى الناصرة وجد أن أهلها قد قبلوا نبوته كما آمن أهل نينوى «بيونس» (يونان) لما رجع اليهم بعد غيابه فى البحر ساكنا بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال سوياً . اجتمع عند «المسيح» فى بيت يوسف النجار زوج أمه جمع غفير من الناس من الناصرة وغيرها من القرى فى الجليل بل

إن بعضهم قد أتى من أورشاليم نفسها وقرى اليهودية وكان من بين هؤلاء بعض الفريسيين والكتبة ، كما اندس بين الجميع بعض «عيون» الهيكل ليروا ماذا سيفعل هذا المزعوم ملكا لليهود ويسمعوا ماذا سيقول ليبلغوا المتربصين فى الهيكل .

لقد أتى الكثيرون من كل صوب يحملون مرضاهم لعلهم يظفرون بشفائهم وأزدحم البيت بالناس حتى لم يعد فيه موضع لقدم بل إن الساحة الواسعة التى تمتد أمام البيت قد زُرِعَت أرضها بالناس وتذمر أخوة «عيسي» «إننا حتى لانستطيع أن نتناول طعاما فى بيتنا أو نجد راحة» أصاب الضيق والضجر يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا أبناء يوسف النجار من هذا «الغريب» الذى يقتحم عليهم منزل أبيهم ويملأه بالمجانين والمرضى الذين أتى بهم الحمقى من أهلهم لهذا الذى كانوا يسمونه وهو طفل «المخبول». كانوا يتساءلون مندهشين ما الذى فى هذا «المخبول» يجعله قادرا على جذب كل هؤلاء الناس. ليس فيه شئ غير عادى فماذا أصاب الناس ؟!

(٢٧١) لكن الناس ظلوا يتوافدون يطلبون رؤية «المعلم» الذى سمعوا عنه وعن آياته ويسألونه شفاء مرضاهم وجاءت جماعة صغيرة من الرجال يحملون رجلا مشلولا على سريره . لم يستطيعوا من شدة الزحام أن يصلوا الى الحجرة التى يجلس فيها «المسيح» لذلك هداهم تفكيرهم إلى أن يصعدوا على السطح وأن يدلوا بمريضهم المشلول على سريره الى «المسيح» بواسطة الحبال عن طريق شق صنعوه فى سقف الحجرة ووجد «المسيح» رجلا عاجزا عن الحركة مطروحا على سريره يتدلى إليه بالحبال من السقف. تعجب الحاضرون فى الغرفة من هذا العمل الغريب ونظر «المسيح» الى المريض المطروح على سريره وإلى الرجال الذين ينظرون إليه من الفتحة التى صنعوها فى سقف حجرته ورأى «إيمانهم» فقال للمريض المستسلم لعجزه «ثق يابنى مغفورة لك خطاياك».

فتذمر الكتبة والفريسيون وتهامسوا «من هذا الذى يجدف على الله ؟! من يملك أن

يغــفـر الذنــوب إلا اللـــه ؟! أيزعــم أنه هــو اللــه حتى أنه يدعى مـغـفـرة الخطايا ياله من فاجر جرئ .»

وأدرك «المسيح» مايقولون فى أنفسهم ومايتـهامسون به فوجه إليهم خطابه قائلا : «لماذا تسيئون الظن بى وتقولون من هذا الذى يجدف على الله، كلاً والله إننى لم أجدف على ربى، أيها الحمقى أيما أيسر أنْ يُقَال لمريض مغفورة لك خطاياك أم أن يقال لمفلوج عاجز عن الحركة قم وأحمل فراشك واذهب الى بيتك»؟!

«ولكن لكى تعلموا إننى لا أتحدث من تلقاء نفسى بل أنطق بما يقوله لى ربى فإننى أقـول لك أيـها المريض قم واحـمل فـراشك واذهب الى بيـتك سليـمـا مـعـافـا بإذن الله» . فـاندهش الجميع حتى المريض نفسه ولكنه قام وهو لايكاد يصدق جسمه الذى يتحرك ثم انحنى ليقبل يد المسيح ثم حمل فراشه وأسرع يخرج الى أهله وهو يكاد يطير من الفرح وتعالت أصوات التسبيح فى الجمع المحتشد أما الكتبة والفريسيون فقد أطرقوا الى الأرض وهم صاغرون ثم أخذوا ينسلون من وسط الناس الذين كانوا لايتمالكون أنفسهم من كثرة مارأوا من آيات الشفاء ويندهشون أن الله أعطى مثل هذا السطان لإنسان قائلين «قد رأينا اليوم عجباً». ولكن المسيح أدرك أن اخوته المتذمرين من هذا الاضطراب الذى يقضى على راحتهم فى منزلهم قد بدأوا يفقدون صبرهم وأوشكوا ألاَّ يتمالكوا أنفسهم بعدما رأوا «المجانين» الذين أحدثوا الثغرة فى سقف الحجرة خاصة وأن أباهم يوسف النجار قد صار مريضا وأصبح يلازم الفراش ويحتاج الي الهدوء فصرف «المسيح» الجموع وخرج من المنزل وهو عازم على أن يجد لنفسه بيتا آخراً ليترك لإخوته بيتهم.

(٢٧٢) سار فى الليل مع تلاميذه فرأى «لاوى بن حلفى» العشار الذى يعرف بـ «متى» جالسا عند مكان الجباية، كان «متى» قد أطرق إلى الأرض وقد استغرقه التفكير فى مصيره. إن «العشار» فى المجتمع اليهودى حين ذاك كان هوالشيطان مجسدا فى صورة آدمية وكان العشَّارون يُخْتَارون من حثالة المجتمع ولذلك كانت طائفة «العشارين» منبوذة

فى الشعب اليهودى فلم يكن يجلس مع العشّار إلا عشار خاطئ مثله ولايعرف العشار من النساء إلاّ الزوانى اللاتى يبعن أجسادهن لطالبى المتعة المحرمة .

كان «متى» يسآءل نفسه «أيمكن بعد كل هذا العمر الذى قضاه فى الخطيئة أن يصبح رجلا صالحا ؟»

«أيمكن أن يغفر الله له ذنوبه ؟»

«هل مثله يمكن أن يدخل الجنة ؟»

لقد سمع عن «المسيح» وعن آياته لكن الذى استحوذ على قلبه هو قول «المسيح» «إن الله يفرح بتوبة الخاطئ وصوت بكائه نادما على ذنوبه أكثر مما يفرح لتسبيح الملائكة» وكان يسأل نفسه أحقا يمكن أن يقبلنى الله وأن يغفر لى. لقد كره نفسه وحياته ونظرة الإحتقار التى تطل عليه من عيون الناس أينما ذهب. كان يرغب من كل قلبه أن يُحْدِث «تغييراً» فى حياته يريد أن يتطهر ولكن لم يكن يعرف كيف ولا بأى شئ يبدأ فقد كانت حياته كلها مفعمة بالخطايا تفيض قذارة وكان احتقار الشعب له ولطائفته يزيد من شعوره بالمرارة وإصراره على الخطيئة متحديا «المنافقين» الذين كان يعتقد أنهم لايقلون عنه قذارة لكنهم يدّعون الطهارة .

كان يدرك كلما استغرقه التفكير أنه لن يستطيع أن يخرج من اليأس الذى يغرقه إلا إذا انتشلته يد الله وأحس «متى» بيدٍ تربت على كتفه فعاد من شروده ورفع وجهه فرأى وجه «المسيح» يطل عليه فى حنان وقال له «قم فأتبعنى فقد اخترتك اليوم تلميذاً لى» فقام مأخوذا وسار معه وخرج «المسيح» إلى أطراف الناصرة حيث جلس على مقربة من القبور وكان التعب قد إستولى على التلاميذ فسرعان ما استسلموا لسلطان النوم. أقبل الفجر فأيقظ تلاميذه إلاّ «متى» الذى كان مستيقظا يراقب «المسيح» وهو يصلى.

وقال «متى» فى نفسه إنْ قَبِلَ الله توبتى فإن «مسيحه» سيقبل دعوتى وينزل علىّ

ضيفا فى بيتى. وفى الصباح بعد الصلاة فاجأ «المسيح» «متى» بقوله «أتقبلنى يا «متى» ضيفاً عليك وتلاميذى».

وبكى العشّار لأن الله قد قبل توبته. كان يحاول أن يستجمع فى ذهنه الكلمات التى يجب عليه أن يقولها حتى يُقْنِع «المسيح» بالنزول عليه ضيفا لكن هاهو «المسيح» يعرض عليه أن يكون ضيفه .

استولى الفرح على قلب «متى» لنزول «المسيح» مع تلاميذه فى البيت الذى لم يدخله من قبل إلا العشّارون الخطاة والزوانى وأعلن أنه سيصنع لنبى الله الذى قبل النزول عنده وليمة كبرى تظل الناصرة تتحدث عنها زمنا طويلا وهكذا أخذ «متى» يستدعى زملاءه وأصحابه ليساعدوه فى إقامة وليمة عظيمة تليق بضيفه العظيم. وفى المساء كان كل شئ قد أعد فجاء «المسيح» ومعه تلاميذه وجلسوا أمام بيت «متى» حيث أصر «المعلم»أن يجلس هناك على الأرض ليتناول الطعام ورضخ «متى» لرغبة «المعلم» وجُهّزَت الوليمة ودعا «المسيح» كل المتسولين والفقراء والأطفال الذين تصادف مرورهم بالطريق وجلس يأكل مع تلاميذه من وليمة العشار الذى استضاف كل أصحابه. أخذ الكتبة والفريسيون يقتربون وينظرون فى تعجب لهذا الذى يزعم نفسه نبياً مرسلاً من الله مابالُه يجلس مع الخطاة الذين لايصلون ولايتصدقون بل يرتكبون الفواحش ويأكلون الحرام .؟!

وقفوا على مقربة ينظرون الى هذا المشهد الغريب. «المعلم» يجلس على الأرض وحوله جمع من العشارين والمتسولين والأطفال الذين يضعون على أجسادهم القذرة ملابس ممزقة أشد قذارة من أجسادهم وأيديهم تمتد فى لهفة إلى الأطعمة الشهية التي حُرِموا منها طويلاً وبعد أن أكل الجميع ورُفِعَت الصحاف جلس «المسيح» ليعلم أصحابه والذين تجمعوا ليروا هذا النبى الذى يخالط الأشرار .

همس الكتبة إلى تلاميذ «المسيح» يقولون لهم «كيف يسمح معلمكم أن يأكل مع

الخاطئين وهو الذى يقول أنه جاء ليعيد بنى اسرائيل الى طريق الله ومابالكم صرتم تجالسون أحط الناس وأكثرهم بعداً عن الإيمان»

وعلا صوت «المسيح» وهو يقول «أيها الكتبة والفريسيون قولوا لى إلى من يذهب الطبيب إلى المريض أم الى الصحيح ؟!»

قالوا «يذهب الطبيب إلى المريض لأن الصحيح لاحاجة به الى طبيب».

قال «فمن يحب الطبيب أكثر المريض أم الصحيح ؟!»

قالوا «المريض لأن الصحيح لاحاجة به الى طبيب فلماذا يحبه». قال «ألاَ تعلمون أن الخاطئ هو المريض بقلبه توشك نفسه على الهلاك لذلك يرسل الله إليه رسله. لينقذوه. إن الله يريد رحمة لاذبيحة. جئتُ إلى الدنيا لأدعو الخطاة الى التوبة أما الذين يظنون أنفسهم أبراراً فإن الله لايعبأ بهم .»

«صعد رجلان إلى الهيكل يقصدان الصلاة. كان أحدهما كاتبا فريسيا وكان الآخر عشارا فأما الفريسى فقد شخص بعينه إلى السماء وقال : «أشكرك يا آلهى لأننى لست مثل الناس الآخرين الخاطفين والظالمين والزناة ولست مثل هذا العشار القذر الذى يقف رغماً عنى إلى جوارى لأننى أواظب على الصلوات كلها وأصوم يومين فى الأسبوع وأُعَشّر كل ماأقتنيه ولا أفعل مثل بقية الناس الذين لايتوقفون عن إرتكاب المعاصى في كل لحظة». أما العشّار فقد وقف خاشعا منحنيا الي الأرض مطرقا لايجسر على رفع رأسه نحو السماء ولا أن يشخص بعينيه الى المحراب شاعراً أنه ليس أهلاً للوقوف للصلاة بين يدى الله لأنه أخطأ كثيراً بل لم يتوقف لحظة واحدة عن الخطأ ولم يجد شيئا يقوله سوى أن ضرب صدره بكفيه وهو يخر ساجداً صارخا بصوت لم يسمعه أحد إلا الله قائلاً «اللهم أغفر لعبدك الخاطئ فإنه قد اخطأ كثيرا فارحمه»(٢٧٣)

«الحق أقول لكم إن العشّار قد نزل من الهيكل مغفوراً له لأن الله يحب أن يغفر

لعباده الذين يعترفون أنهم قد اخطأوا وهو قادر على مغفرة جميع الخطايا ولايبالى بعددها أما الفريسى فقد نزل من الهيكل مغضوبا عليه من الله الذى لايحب المتكبرين لأن إلهنا العادل الرحيم قد رفض كل أعماله التى يختال بها على خلق الله ماقتاً نفسه».

وامتلأ الفريسيون والكتبة الحاضرون بالغيظ وتذمروا كيف يدعى هذا «الفاجر» أن الله يغضب على فريسى كاتب يخدم الشريعة ويغفر لعشار إمتلأ إثما وتركوا المكان وهم ساخطون على هذا المعلم الكذاب الذى «لو لم يكن خاطئا لما جلس وأكل مع العشارين والخطاة ».

أما «المسيح» فقد واصل حديثه للجمع الذى بقى معه قائلاً : «أيحق للفأس أن تختال وتتكبر على الإنسان لأنها قطعت له شجرة مع أن الإنسان هو الذى صنعها بيده وضرب بها بقوة ذراعه وهو الذى أنبت الشجرة وأعد البستان كله ؟[٢٧٤]

وأنتبهت القلوب إلى حديثه الغريب وأصاخت السمع.

«فكيف يفتخر الإنسان لأنه عمل شيئا حسنا والله هو الذى خلقه من الطين وأودع فيه «روحاً» من «روحه» وصنع فيه كل الخير الذى يأتى به. لماذا يا أيها الانسان تحتقر أخاك الخاطئ ؟ ألاّ تعلم أنه لولا حفظ الله لك من الشيطان لكنت اسوأ منه بل أسوأ من الشيطان نفسه ؟

«بأى حق يريد الإنسان أن يحيى على هواه وأى سلطان يخوله أن يعيش فى الدنيا بلا خوف من عذاب الله ؟»

«ويلٌ لك أيتها الطينة التى تتغطرس على آلهها الذى خلقها لإنكِ ستوضعين تحت الأقدام ويركلك الملعونون فى أعمق أعماق الجحيم.» «ياأخوتى إن الشيطان وحده من بين كل ماخلق الله هو الذى يقول عن نفسه أنه أشرف من غيره لأنه من نار مقدسة لذلك فإنه

لن يجـد رحمـة اللـه أبـداً لأنه لايمـكن إصـلاحه فكيف يتم إصلاحه وهـو يعتقد أنه لا يخطئ أبدا » .

«ألم تقـرأوا يا أخـوتى مـاقـاله النبى «داود» إن إلـهنا يذكـر دائمـا أننا من تراب والى التراب نعود وأن «روحنا» يتركنا ويمضى إليه لذلك يرحمنا .» (٢٧٥)

«طوبى للذين يعرفون هـذه الكلمات لأنهم لايخطئون إلى ربهم فإنهم بعد أن يخطئوا يتوبون فلا تدوم خطيئتهم لأن الله يمحوها بالمغفرة فلا تبقى لهم إلاَّ الرحمة.»

«أتعرفون لماذا يحب الله توبة الخاطئين ويفرح لبكائهم أكثر من تسبيح الملائكة ؟»

«لأن الخاطئ الذى يتوب هو الذى يظهر أكثر من غيره رحمة الله.»

«ويلٌ للمتكبرين لأنهم سيعانون مذلة رهيبة على جمرات الجحيم ؟»

«قولوا لى يا أخوتى هل يوجد سبب واحد يحمل الإنسان على الغطرسة ؟

«كلاَّ فلينظر الإنسـان إلى السـمـاء الواسـعـة هل هو أكبـر من الشـمس أو القـمـر أو الكواكب والنجوم هل يسـتطيع الإنسـان أن يظل حـيا لو اقـتربت الشـمس قليـلاً أو اخـتـفت بعض الوقت.

«فليذكر الإنسـان عدد الذين ماتوا من شدة حرارة الشمس أو الذين مـاتوا من شدة البرد أو الصقيع والصواعق والسيول .»

«ولينظر الإنسان إلى الأرض هل هو أكبر من الجبـال أو أوسع من البـحـر وليذكركم عدد الذين ابتلعـهم البحـر عند هياجه أو التـهمـتهم الأرض عندما تفتح أفواهـها بالزلازل أو الذين تهشمت أجسادهم تحت الصخور عندما تتساقط الجبال.»

«أيستطيع أحدٌ أن يحصى عدد الذين افترسـتهم الوحوش أو نهشتهم الأفاعى والحيات بل كم عدد الذين ما توا فى الأوبئة والمجاعات أو حتى الذين خنقهم الطعام وهـم يأكلون .

«فبأى سلطان يتكبر الإنسان ؟ »

«أيقول الإنسان عن نفسه أنه صالح ؟ أ»

«أيمكن أن يوجد صلاح على الأرض ؟

«كلاً فإن «سليمان» النبى يقول «إن كل ما تحت الشمس باطل»

إن الإنسان لا يكاد يطلب إلا الخطيئة فلولا رحمة الله علينا ما صنع أحدٌ منا شيئا طيبا .»

«فصدقونى يا أخوتى إن الكبرياء ليس إلا إغلاق باب رحمة الله وبذلك فإن الإنسان بدلاً من أن يطلب رحمة الله فإنه يغلق بابها ليفتح باب جهنم. لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته إن الله يمكن أن يرحم إبليس لو أنه أقر أنه أخطأ. ولكن اللعين لا يعترف بخطئه فلن يجد رحمة. إن الكبرياء هو الذي أسقط الإنسان وكان السبب في طرده من الجنة .»

قال واحد منهم «يا معلم كيف تقول إن الإنسان قد سقط بكبريائه وأنه قد طرد من الجنة بسبب ذلك مع أنك قد قلت من قبل أنه طُرِد لأنه أكل من الشجرة عاصياً أمر ربه بغواية الشيطان ؟ »

قال «المسيح» «ولماذا أطاع الإنسان «إبليس» وعصى ربه ؟»

«لأن أبليس أوهمه أنه إذا أكل من الشجرة فسوف يصبح خالداً لا يموت ويصير نداً لله وأنَّ الله لم ينهه عن الأكل منها إلا ليمنعه من أن يصير مثله فلو لم يُرِدْ الإنسان أن يصير نداً لله ما أطاع الشيطان وماهو الكبرياء ؟! أليس أن يتوهم المخلوق أنه صار مثل الله الذى خلقه أو يظن أنه قادر على الإستغنا عن الله ؟ »

«بالكبرياء سقط كل من الشيطان والإنسان ولكن الشيطان تشبث بكبريائه وأصر على خطيئته لذلك لم يرحمه الله أمَّا الإنسان فإنه أقر بخطئه وتضرع لله باكيا أن يغفر له ويرحمه ولذلك تاب الله عليه».

وفي الليل بعد الصلاة قال التلاميذ «للمسيح» «يا معلم كيف نتخلص من الكبرياء.»(٢٧٦)

قال «من منكم رأى فقيراً مدعواً إلى بيت سيد عظيم ليأكل على مائدته .»

قال «يحيى بن زبدى » «أنا فقد مر «هيرودوس» ذات يوم علينا ونحن نفحص السمك الذى أصطدناه فأُعْجِب بسمكة كبيرة فرجوناه أن يأخذها فقبل فحملتها إلى بيته ثم أمرنى أن آتى إليه كلما اصطدت شيئاً ممتازاً وحدث ذات يوم أننى اصطدمت سمكة كبيرة جدا وكانت حقا سمكة نفيسة فأحببتُ أن أحملها إلى «هيرودوس» لعله يكافئنى عليها بثمن وبالفعل ذهبت إلى بيته وأعطيت الخدم السمكة وتصادف .أن كان هناك بعض الضيوف العظماء الذين دعاهم «هيرودوس» ليتناولوا فى قصره الطعام فلما أخبروه سُر جداً منى فأعطانى ثمناً كبيراً وأصر أن أبقى معه لأتناول مع ضيوفه الطعام وأصابنى الذهول فكيف سأجلس مع هؤلاء العظماء وكيف أستطيع أن آكل على مائدة رئيس الجليل نفسه وفي حضوره وبالفعل عندما أعدت المائدة لم أستطع أن أجلس مع هؤلاء الرؤساء والعظماء وظللت واقفا بعيداً لا أجسر على النظر إليهم فتحنن علّى «هيرودوس» ونادى علّى وناولنى قطعة صغيرة من «السمكة» ورغيفا من الخبز فأخذتهما وكأن العالم كله يوضع على يدى وجلست لأكل لا أكاد أصدق نفسى من كرم «هيرودوس» علّى. لقد كنتُ مجرد صياد وبائع سمك فقير أرتدى ملابس رثة أما هؤلاء الضيوف فكانوا يلبسون ثياباً فخما وأغلبهم كانوا من الرومان ، وربما جاءوا من روما نفسها والله لولاّ أننى سمعت من النبى «يحيى بن زكريا» أن «هيرودوس» رجل كافر لأنه لا يحترم شريعة الله بل يجاهر بفجوره ويستهزىء بأحكام الشريعة علناً لولا ذلك لقبلت أن أقضى عمرى كله فى خدمة هذا السيد العظيم الذى كان كريماً معى إلى أقصى حد وعلى نحو لم أكن أتصوره .»

قال «المسيح» «فهل طلبت يا يحيى أن تجلس فى المقاعد الأولى بجوار «هيرودوس»

نفسه أو أخذت تتكلم على المائدة دون إذن من «الرئيس» صاحب البيت أو دون أن تسأل وهل كنت تظن نفسك أكثر إستحقاقا بالجلوس إلى المائدة أكثر من الآخرين وهل طلبت أن يقدم أليك أشهى الأطعمة أو أخذت تقلب بصرك فيما وضع على المائدة أمامك ثم أعلنت عدم رضائك عما قُدِم إليك وطلبت غيره .

قال «يحيى» «كيف يا معلم وقد كنت لا أجرؤ على رفع عينى ؟! .»

قال «المسيح» «لاشك يايحيى أنك كنت مخطئا أشد الخطأ لتلك المذلة المهينة التى تصرفت بها أمام مخلوق مثلك ليس إلا قطعة صغيرة من الطين صارت إنسانا بنفخة «الروح» فيها ولقد خشيتُ أن يطرحنا الله في الهاوية وأنت تتكلم بهذا التواضع المقوت لغير الله» فأرتعد الحاضرون من كلام «المسيح» الذى واصل قائلا «ولكن الله أذنَ بذلك لتصير اليوم معلمنا يا يحيى» .

«فانظروا يا أخوتى إلى تصرف أخيكم على مائدة أمير من الأمراء. إن هذه الدنيا هى بمثابة بيت الله وهذه الأرض التى نعيش عليها هى مائدته التى ملأها برزقه ودعانا لنأكل منها مع الأنبياء والأطهار. نحن ضيوف على مائدة الله وكما تصرف «يحيى» على مائدة «هيرودوس» ينبغى أن يتصرف كل انسان على مائدة الله بل بتواضع أعظم بمقدار الفرق بين عظمة ما يسبغه الله علينا من نعم وتفاهة ما أعطى «هيرودوس» وبقدر الفرق بين عظمة الله القادر على كل شىء وعجز «هيرودوس» الذى لا يستطيع أن ينفع أو يضر أحداً حتى نفسه إلا بإذن الله .»

«هكذا تكونون خالين من الكبرياء .»

«ويل للذين يعيشون فى كبرياء لأنهم سيموتون فى مهانة وسيذهبون إلى الإضطراب».

وأصبحت الناصرة ملتقى وموضع نظر الكثيرين لأسباب شتى ومتناقضة فكان

يقصدها المرضى طلبا للشفاء على يد «المعلم» الذى تناقلت الألسنة والآذان أخبار «معجزاته» وكان يقصدها طلاب المعرفة الذين يرغبون فى سماع الحكمة وكذلك المغرمون بجمع الطرائف والعجائب وعلى الجانب الاخر فإن رجال الهيكل كانوا يعانون من الحيرة والإضطراب خاصة بعد أن أخذ تلاميذ «المسيح» يجوبون القري والمدن يبشرون بدعوته ويصنعون الأعاجيب . هل «الساحر» القدير يدبر لتنصيب نفسه ملكاً علي اليهود وهاهو يرسل رجاله ليمهدوا له الطريق فى كل القرى والمدن من الجليل وحتى أقصى جنوب اليهودية وأفصحوا عن مخاوفهم للسادة الرومان لعلهم يأخذون حذرهم وكذلك أصاب القلق «هيرودوس» وأخذ كل من رجال الهيكل و«هيرودوس» فى إرسال «العيون» لاستطلاع أمر هذا الملك المنتظر .

خرج «المسيح» فى صباح يوم سبت قاصدا المجمع وكان قد قضى الليل كله فى الصلاة بعد أن ظل يستقبل الناس الذين وفدوا إليه من كل مكان وشعر بالجوع اذ لم يكن قد تناول طعاما طوال الأمس وكان يجتاز بين الحقول التى تلألات بسنابل القمح فمد يده وتناول بعض السنابل وأخذ يفركها بين يديه(٢٧٧) ثم أكلها وكذلك فعل تلاميذه الذين كانوا معه وكانت «العيون» ترصد مايحدث. أما الفريسيون الذين أهانهم يوم وليمة «متى» العشار فقد ظنوا أنهم أمسكوا به متلبسا بخطيئته إذ كيف يسمح لنفسه وتلاميذه بقطف سنابل القمح «وفركها» وهو مالايحل فعله فى السبت فأسرعوا الى المجمع ليحاكموه على خطيئته قالوا له «لماذا تفعلون مالايحل فعله فى السبوت ؟!»

فى بساطة أجابهم «أماً قرأتم قط أن «داود» عندما جاع هو وجنوده الذين كانوا معه دخل الى بيت الله وأكل من خبز التقدمة وأعطى جنوده ليأكلوا وهو مالايحل أكله إلا للكهنة فقط» فلم يعرفوا كيف يجيبوه أما هو فقال لهم «إنما جُعِلَ السبتُ من أجل الإنسان ولم يَخْلُق الله الإنسان من أجل السبت وها هنا أعظم من الهيكل» وأشار الى صدره -

«لكنكم لاتعلمون فلو كنتم تعلمون لما حكمتم على الأبرياء ألَم تقرأوا أن الكهنة فى الهيكل يدنسون السبت دون أن يفعلوا شيئا » فانصرفوا وهم يمتلئون بالغيظ لأنهم لم يستطيعوا أن يردوا عليه ولأنه قال عن نفسه أنه أعظم من الهيكل وأتهمهم بالجهل وأتهم الكهنة بتدنيس السبت وعجزوا عن أن يقولوا له شيئا رغم كل ذلك .

ونقل جواسيس «هيرودوس» إليه أن المدعو «عيسى» الناصرى ابن «يوسف» النجار يذكره في أحاديثه لاتباعه ويقول أنه لايستطيع أن يفعل شيئا لأحد فهو لايضر ولاينفع وهو رجل عاجز تافه لايستحق أن يكون رئيساً كما أن المدعو «يحيى» إبن الكاهن زكريا وهو قريب «لعيسى» يقول فى أحاديثه أن «هيرودوس» رجل فاجر لايحترم شريعة الله ولايحق له أن يحكم ومن المؤكد أنه يساعد قريبه ليصبح ملكا لليهود فقد أخذ رجال «عيسى» يجوبون البلاد ينشرون دعوته ويعدون الناس لقبوله ملكا للبلاد وقد أعطاهم بعض «سحره» ليبهروا به العوام ليقنعوهم بأن «ملكيهم الموعود» لانظير له . وأجتمع «هيرودوس» مع حاشيته ليبحث معهم هذه الكارثة التى تعصف بكل طموحه إذ كان «هيرودوس» يسعى منذ زمن طويل لإستمالة قلوب أصحاب القرار فى «روما المقدسة» لمنحه لقب «الملك» وإعطائه إرث ابيه «هيرودوس بن انتيباتروس» لأنه أحق أبناء أبيه بالُملك فإن شقيقه الأكبر «أرخيلاوس» أثبت أنه مندفع أحمق لايستطيع إدارة الحكم بحكمة وقد تم عزله وتعيين «بيلاطس» حاكما رومانيا على «أورشاليم» واليهودية أما فَيليب (فيلبوُس) رئيس بادية الشام (الجولان) فإنه شخص ضعيف لايستطيع الإمساك بزمام الأمور وإمعانا من «هيرودوس» فى إذلال أخيه «فيليبُس» فإنه اغتصب منه أمرأته «هيروديا» وأقام معها علاقة آثمة صارت حديثا يتسامر به الناس فى جلساتهم لأن المرأة الفاجرة كانت كثيرا ما تترك زوجها وتأتى الى «هيرودوس» لتقيم معه وقتا قد يمتد إلي أيام بل أحيانا إلى شهور ومعها ابنتها الفاتنة «سالومى» التى بهرت «هيرودوس» بجمالها الذى لايقاوم. كانت «هيروديا» أمرأة قوية يجرى فى عروقها عشق السلطة تقول لنفسها إن الله كان يجب عليه أن يخلقها

رجلاً لا أمرأة وأنه لوفعل لأصبحت «ملكا عظيما» ربما خضعت له الأرض كلها لكنها قد خُلقَت رغما عنها أنثى وأجبرتها الأقدار أن تتزوج رجلا ضعيفا خائفا لايصلح للُملك . لقد أحبت شقيقه «هيرودوس أنتيبياس» .كانت ترى فيه الرجل الذى يُمكّنها من الجلوس على «العرش العظيم» الذى كانت تحلم به. وجدت فيه الوسيلة التى تصل بها الى العرش المأمول وكان يعجبها فيه «عشقه» للسلطة وعدم إكتراثه بالأوهام والطقوس والتقاليد التى لامعنى لها ، وإمعانا منها فى إذلال زوجها «الحقير» كما كانت تصفه فإنها تذهب علنا إلى «هيرودوس» في قصره تتباهى بتعاليها على «القيود» التى تحاول «أساطير» الآباء وخرافاتهم أن تمنعها من الحصول على كل ما تشتهيه ولم تكن تتورع عن شئ وإذ أدركت أن يد «الزمن» قد عبثت كثيراً بجمالها فإنها وجدت فى جمال ابنتها البديل عن جمالها المفقود وأسرعت تستخدم هذا الجمال كسلاح فتاك في حربها «المقدسة» للحصول على «العرش» لأنها كانت تعرف أن «هيرودوس» الشره لن يقنع بجمالها الذابل فلا بأس من إغرائه «بسالومى» الفاتنة لابقائه تحت السيطرة وإملاء شروطها عليه. كانت تطمع فى أن تتزوج «هيرودوس» الرجل الوحيد الذى يليق بها ليتعاونا سويا لتأسيس مملكة عظيمة وأسرة ملكية «مقدسة» يتوارث أبناؤها العرش جيلا بعد جيل وإلى الأبد. لاشك أنها بسيف جمال «سالومى» تستطيع إقناعه بأن يتزوجها وأن يزوج ابنتها لأبنه البكر ومن ثم يؤول العرش الموعود لها ولأبنتها من بعدها ومن السهل عليها بعد ذلك أن تتخلص من نسائه الآخريات ليبقى المجد لها ولإبنتها. لكن يجب أن يتم طلاقها من «الحقير» أولاً ولابد من المزيد من إذلاله حتى يرضخ ويذعن.

أما «هيرودوس» فقد وجد فى عشق» «هيروديا» له سكينا يضعها على رقبة أخيه ليجبره على التنازل له عن نصيبه من «إرث أبيه»: فيستطيع إقناع «روما المقدسة» ومجلس شيوخها الموقر أنه من الأفضل أن يؤول نصيب أخيه إليه وإنْ تحقق هذا فيمكن التقدم خطوة أخرى بتنحية «بيلاطس» الوالي الروماني وإعطاء ولاية «أورشاليم واليهودية» إليه

وبذلك يتحقق «الحلم العظيم» .يصبح «هيرودوس» الإبن ملكا مثل أبيه ويُوَضع الأساس لملكة عظيمة تدوم الى الأبد وتظل على الدوام فى ذاكرة الناس لايملون الحديث عن «مجدها».

وجاءت الأنباء التى حملها «الجواسيس» لتقلب هذه الخطة رأسا على عقب فها هو «يحيى» يقول للناس أن «هيرودوس» الفاجر لايصح أن يكون حاكماً ورئيسا للشعب وهاهو «عيسى الناصرى» يقول : عنه أنه عاجز وهاهم رسله يطوفون فى القرى والمدن يمهدون لاستيلائه علي العرش فماذا يفعل ؟!

هذا ماجتمع من أجله «هيرودوس» مع رجاله بعد أن أمعن النظر فى الأمر بمفرده معتزلا بنفسه ليالٍ طويلة ولم يهتد الى شئ لأنه لايستطيع التصرف من تلقاء نفسه دون استشارة «روما المقدسة» وأصحاب القرار فيها . فوجى «هيرودوس» أن نفوذ «عيسى الناصرى» قد أمتد الى قصره وإلى رجاله فقد علم أن «يونا» أمرأة خوزى(٢٧٨) وكيله قد ذهبت لتُشْفَى على يد هذا «الساحر» بل فوجئ أن بعض رجاله يتكلم عنه بإحترام شديد وتبدو عليهم الكآبة ويظهرون الإمتعاض عندما يتحدث عنه «هيرودوس» بطريقة غير لائقة وجن جنونه «هيرودوس». إذن فقد أصبحت «الكارثة» وشيكة وهى قادمة لامحالة. وجاءه وفد من الهيكل ليتباحثوا معه فى هذه الفتنة الهوجاء التى أصبحت تهدد باقتلاعهم. كان الوفد يضم بعض كبار الكهنة وشيوخ الفريسيين الذين تلقوا «الأنباء» من «عيونهم» وكان «الساحر» لايترك فرصة إلا وأهان الكهنة والفريسيين مدعيا أنهم سبب ضلال الشعب وفساد أحواله «لو صار هذا «الساحر» الشيطان ملكا فإنكم ستفقدون كل شئ». وبالطبع فإن رجال الهيكل لايستطيعون التصرف بإرادتهم إذ لابد من الرجوع الى الوالى الرومانى الذى لسوء حظهم لايشاركهم مخاوفهم ويرى أن الرجل لاخطورة منه ولايبدو أنه يطلب «المُلْك» وبعد بحث طويل مدقق وتقليب الأمر على أوجهه المختلفة اتفق المجتمعون مع

«هيرودوس» فى قصره أن يكلفوا مجموعة من الجواسيس سيكون عليهم أن يضعوا المدعو «عيسى» وقريبه «يحيى بن زكريا» تحت المراقبة لنقل الأخبار بإستمرار الى الهيكل والى «هيرودوس» وليتعاون الفريقان فى جمع المعلومات ويتشاوروا باستمرار قبل اتخاذ القرارات والخطة العامة هى أن يتم إصطياد «الرجلين» «عيسى» ، «يحيى» ببعض الأقوال التى يمكن أن تكون موجهة ضد سلطة «روما» ويسهل الإدعاء بإنها تدعو الشعب للتمرد على حكامه ، وبهذا يُلْقَى القبض عليهما ثم الحكم بقتلهما ويتم القضاء على الخطر المحدق بمكانتهم وثروتهم .

وبالطبع فإن على الكهنة والفريسيين أن يكتموا غظيهم وأن يتظاهروا بإحترامهم «للمعلم» وقريبه حيث تندس «العيون» بين التلاميذ والأتباع تحت دعوى طلب العلم والبحث عن الحكمة ويتم توجيه الأسئلة «ذات المغزى» فيندفع الرجل المطلوب صيده نحو الفخ الذى نصب له ويتم إصطياده .

وتم تدبير أول محاولة إذ قام أحد شيوخ الفريسيين بدعوة «المعلم» ليتناول الطعام فى قصره مع تلاميه حيث أعد الفريسى الثرى وليمة عظيمة تليق بمكانة «المعلم العظيم» الذى جاء لينقذ شعب الله!! بالطبع سيكون على المائدة وسط الضيوف عيون «هيرودوس» وعيون «الرومان» الذين سيكون عليهم إخبار سادتهم بالأقوال الخطيرة التى نطق بها «المعلم» والأمر متروك بعد ذلك «لحكمة» روما وحزمها .

ولبى «المسيح» الدعوة ورحب بها ففرح الشيخ الفريسى. ذهب «المسيح» مع بعض تلاميذه فى يوم السبت التالى إلى قصر الذى دعاه.

فى الطريق لاحظ الفقراء العجزة الذين يجلسون على الأرض. ،وعند باب القصر وجد كومة من المتسولين من الرجال والنساء الشيوخ والعجائز يبحثون عن الطعام فى القمامة الملقاة ومعهم بعض الأطفال العرايا الذين لاتستر عوراتهم تلك الخرق البالية التى وضعت

على أجسادهم الهزيلة ومجموعة من القطط والكلاب تبحث معهم عن طعامها ولفت «المسيح» أنظار تلاميذه الى مايرى.

ثم دخل القصر الفخم فقام «الشيخ» الفريسى بالإحتفاء به وقدمه الى الضيوف على أنه «معلم» الشريعة الذى جاء «لينقذ الشعب » !! ولاحظ «المسيح» أن فى الضيوف بعض الكهنة والكتبة الذين جاءوا من أورشاليم وبعض الذين يعملون فى قصر «هيرودوس» كما كان هناك بعض الضباط الرومان الذين كانوا ينظرون فى دهشة الى هذا «المعلم» الغريب الذي جاء الى هذه المأدبة الفخمة بمثل هذه الملابس الرخيصة وأتباعه الذين لايمكن أن يكونوا إلا من حثالة الناس «أيمكن أن يكون هذا الرجل مطالبا بعرش أورشاليم وهل هؤلاء السوقة يمكن أن يكونوا حاشية ملك ؟»

دعا صاحب القصر «المعلم» الذى جاء «ليخلص» الشعب ! إلى التقدم نحو المائدة الواسعة التى احتشدت عليها أشهى الأطعمة وتلألأت الأكواب والأباريق والكؤوس التى تناثرت فى جميع أرجاءها .

أسرع الضيوف من «الكهنة» والشيوخ بغسل أيديهم بتدقيق شديد ثم هرولوا يتسابقون كل واحد منهم يريد أن يكون فى صدر المائدة بجوار صاحب القصر والقواد الرومان ؟.

جلس « المسيح» بهدوء علي المقعد الذى أشار إليه صاحب الدعوة ولم يذهب ليغسل يديه ولم يجد تلاميذه الذين جاءوا معه مقاعداً ليجلسوا عليها فأضطر الفريسى صاحب الدعوة أن يأمر خدمه بإحضار بعض المقاعد الإضافية فجلس التلاميذ على الناحية الأخرى وهم ينحشرون بين الضيوف كأنهم متطفلون غير مرغوب فيهم ولذلك كانوا يغرقون فى الخجل من أنفسهم وهم يتطلعون بانبهار شديد إلى الفخامة التى ينطق بها كل شيء في القاعة المائدة والمقاعد والجدران والأوانى.... كل شيء يفصح عن الثراء والنعيم ولم يغسل التلاميذ أيديهم كمعلمهم وبدأوا يأكلون لما رأوا أن المعلم بدأ يتناول الطعام تبادل الكهنة والشيوخ النظرات والهمسات الساخرة المستهزئة. أي معلم هذا الذى لا يحترم الشريعة

ولا يعرف تقاليد الشيوخ. إن اليهودى لا يجب أن يجلس إلى المائدة ليتناول الطعام قبل أن يغسل يديه بأشد تدقيق. وإن كان قد قدم من السوق فعليه أن يغتسل قبل أن يأكل، ولهم في كل موضع أدعية وألفاظ لابد من ترديدها قبل الأكل وعند شرب الماء وأثناء تناول الخبز وعند القيام بعد الإنتهاء من الطعام. كانت تلك العادات والتقاليد «عبادات مقدسة» لا يخرج عليها إلا الخاطيء الذي لا يحترم الشريعة وها هو الذي يزعم نفسه حكيماً ومعلماً للشريعة لا يبالى بها. لقد تناول الطعام دون أن يغسل يديه.

إن «المسيح» لم يفعل سوى أن همس لنفسه «بسم الله» ثم أخذ يأكل صامتا فى هدوء وفرغ من الأكل بسرعة وهمس لنفسه قائلا «الحمد لله» وجلس يراقب الذين جلسوا يراقبونه .

ولم يعد فى وسعهم السكوت أكثر من هذا فأندفع واحد من الفريسيين وقال وعلى وجهه ترتسم السخرية " «يامعلم مابالُ تلاميذك يأكلون بأيدى قذرة ولايغسلونها قبل الأكل مخالفين شريعة الله – ومتجاوزين تقاليد الشيوخ الأجلاء »(٢٧٩)

قال «المسيح» «وأنا أسألكم «لماذا أبطلتم شريعة الله لتتمسكوا بتقاليد شيوخكم الفاسدة !!»

فتوقف الجميع عن الأكل وأمتلأ الجو بالاضطراب إذ بدا كأن معركة مريرة توشك أن تندلع وارتسمت على الوجوه الغاضبة الحيرة كيف يتهمنا هذا «الأفاق» بأننا ابطلنا الشريعة؟! هل تقاليد الشيوخ الأجلاء فاسدة؟!»

واصل «المسيح» كلامه «تقولون لإبناء الفقراء قدموا للهيكل قربانا عن آبائكم وأنذروا لله نذورا وهم لايقدمون القربان ولا ينذرون النذور إلا من النزر اليسير الذى جعلوه للإنفاق على آبائهم فإذا احتاج الأباء والأمهات لشئ من المال وسألوا أبناءهم أن يعطوهم صرخ الأبناء فيهم «ليس معنا لكم شئ مامعنا إلاَّ الذى نقدمه لله فهذه النقود لله» فيصيب الآباء والأمهات فى شيخوختهم العاجزة ضيق شديد وغم ويتذمرون من الشريعة التى

تفرض هذه القسوة. أيها الكذابون المرآؤون أيستعمل الله هذه النقود ؟! أيأخذ الله هذه النذور ؟! أم أنه يأكل هذه القرابين ؟! إن الله لايأخذ النقود ولايأكل اللحوم أو يشرب الدماء .

«أيها الكذابون المرآوون إنكم إنما تقولون هذا لأنكم تريدون أن تملأوا كيس نقودكم لقد تركتم أثقل مافى الناموس محبة الله والرحمة بخلقه وأخذتم تعشّرون النعناع والسذاب والبقول وتتوهمون أنكم تقيمون شريعة الله. الحق أقول لكم إنكم قد أبطلتم شريعة الله لتحافظوا على تقاليد الشيوخ الباطلة .»

«أيها الكذابون المرآوون أنتم الذين قال عنهم الله على لسان «أشعياء» النبى هذا الشعب يكرمنى بشفتيه أما قلبه فمبتعد عنى بعيدا . بالباطل يعبدوننى إذ يتركون شريعتى ويعملون بوصايا الناس».

«الحق أقول لكم إن كل شر نزل الى الدنيا إنما جاء من التمسك بتقاليد الناس الباطلة إن تقاليد الشيوخ هى التى تحول عبادة الله الى عبادة أصنام.»

«لقد قال «موسى» أكرم أباك وأمك ومن يشتم أبا أو أما فليهلكه الله إهلاكا أما أنتم فتقولون للأبناء يكفى أن يقدم الإبن قربانا للهيكل لكى يفعل كل ماعليه نحو والديه ولا عليه أن يفعل بعد ذلك لهما شيئا مبطلين شريعة الله. الحق أقول لكم إن الأكل بأيدى غير مغسولة أو حتى بأيدى غير نظيفة لاينجس الإنسان فلا شئ من خارج الإنسان يستطيع أن ينجسه. مايخرج من الفم لامايدخل فيه هو الذى يمكنه أن ينجس الإنسان» فاندفع أحد «الكتبة الناموسيين» الذى يعدون أنفسهم فقهاء الشريعة وقال فى إمتعاض «ياهذا أإن أكلت لحم خنزير أو شربت خمرا أو دماً أو غير ذلك من المحرمات التى منعتها شريعة موسى – أفلا يتنجس ضميرى ».

قال «المسيح» : «إنك إن تناولت شيئا مما ذكرت فإن قلبك يتنجس لأنك تناولت طعاما او شرابا محرما . إن العصيان لايدخل الى الانسان بل يخرج منه فإن قلبك يتنجس قبل أن

يصل الى فمك شئٌ مما ذكرت لأنك أردتَ المعصية. إرادة المحظور هى التى تنجس القلب لا الطعام أو الشراب المحظور .

ثم إندفع «المسيح» قائلاً : «ويل لكم أيها الكتبة لأنكم تستغرقون حياتكم الدنيا فى توضيح أشد الطرق وضوحا للآخرين ولاتسيرون فيها أنكم تعسّرون شريعة الله على الناس وتضعون على عواتق الآخرين أحمالا ثقيلة لايطاق حملها ولكنكم أنتم أنفسكم لاترغبون حتى فى مسها بإحدي أصابعكم.»

«أيها الفريسيون والكتبة إنكم مثل القبور المختفية فى الناس من الخارج تبدو بيضاء لأنها مطلية وفى الداخل عفن ودود وقذارة». صعق الحاضرون من الفريسيين والكتبة وقال واحد منهم «إحذر ياهذا فإنك تشتمنا أيضا .»

فقال «المسيح » «بل لكم الويل أيها الناموسيون لأنكم تبنون قبور الأنبياء الذين قتلهم آباؤكم فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتله الأنبياء آباؤكم قتلوهم وأنتم تبنون قبورهم إنكم إذن تتمون عملهم وتشهدون على أنفسكم بأنكم راضون عن عملهم ولذلك تكملونه» !! .

«لقد اقتضت حكمة الله أن يرسل أليكم أنبياءً ورسلا لتقتلوا بعضهم وتطردوا بعضهم.

أوّلا تذكرون دم زكريا الذى سُفِكَ فى الهيكل قريبا من المذبح. الحق أقول لكم إنكم ستأخذون جزاء عادلاً على كل هذا ".

«لكم الويل أيها الناموسيون لقد أخذتم مفتاح المعرفة؛ شريعة الله ثم أغلقتم الباب فلا دخلتم أنتم ولا تركتم الناس يدخلون بل الذين يريدون الدخول تمنعوهم فويل لكم .»

وأصبح الموقف على شفا الإنفجار. إمتلاء الكتبة والفريسيون بالغضب المجنون ولم يعرفوا ماذا يقولون أو يفعلون وفسدت الخطة فإنهم الآن لا يمكنهم إصطياده بشيء فلم

يعد فى وسعهم التفكير الهادىء ولا التدبير الحكيم وأراد صاحب الدعوة أن يلطف الجو لعلهم فى الهدوء يستطيعون عمل شيء فقال كاظما غيظه ومحاولاً تمالك نفسه لإنقاذ ما يمكن انقاذه من خطتهم التى أوشكت على الفشل التام .

قال «يا معلم» ما هى أعظم خطيئة ؟ ".

فأجاب «المسيح» «أى خراب فى البيت يكون أعظم ؟ ».

فسكت الجميع إذ لم يعرفوا كيف يجيبون على هذا السؤال المفاجيء فقال«المسيح» وهو يشير بأصبعه إلى الأرض «خراب الأساس لأنه إذا تزعزع الأساس سقط البيت ولم يعد يصلح لشيء إلاَّ أن يُعاَد بنائه من جديد بأساس جديد ولكن فساد أى جزء آخر يمكن إصلاحه» فنظروا إليه مندهشين من سرعة بديهته وفصاحته ثم فاجأهم بسوال آخر قال «فما هو أساس حياتنا ؟».

فواصلوا الصمت. فأجاب «أساس حياتنا هو عبادة الله وحده لأنها هى التى تُبْقِى الله معنا ولذلك فإن عبادة الأصنام هى أعظم خطيئة لأنها تجرد الإنسان تماما من الإيمان فتحجب «الله» عنه أما كل خطيئة أخرى فإنها لا تغلق باب الرحمة بل تترك للإنسان أمَلَ أن ينال رحمة ربه» «قال أحد الكتبة» : «يا هذا لقد تكلمت كثيراً عن عبادة الأصنام كأننا شعب يعبد الأصنام مع أننا شعب يعبد الله. إنك تسىء إلينا. لا يوجد لدينا أصنام فى الهيكل ولا فى أى مكان آخر فعن أى أصنام تتكلم».

قال «المسيح»: «أعلم تماما أنه لا يوجد أصنام من حجر أو خشب فى إسرائيل ولكن يوجد أصنام من جسد وأنتم لها عابدون» .

فصاحوا فى غضب «أإنك لتجرؤ على القول بأننا عباد أصنام» ؟! قال «المسيح»: نعم أقول الحق. إن شريعة الله لم تقل أطع الرب إلهك أو إخضع للرب إلهك بل قالت «أحب الرب ألهك» بكل نفسك ومن كل قلبك أليس هذا صحيحاً ؟

قالوا صاغرين «بلى» .

قال «إذن فما هو الصنم ؟»

فسكتوا .

قال «الصنم هو كل شيء غير الله يحبه الإنسان إلى الحد الذى يترك من أجله كل شيء صنم الزانى هو الزانية وصنم البخيل هو المال الذهب والفضه وصنم السكير هو الخمر وصنم الأكول هو الطعام الشهى فانظروا الآن هل يوجد فى بنى اسرائيل عباد أصنام أم لا ؟»

«لذلك لم يكن عبثا أن قال الله على لسان الأنبياء موسى ويوشع وداود وسائر الأنبياء فى ناموسه الدائم الذى لا يتغير قال مخاطبا كل واحد فى بنى اسرئيل «لا تصنع لك تمثالا لشيء فى السماء أو لشيء تحت السماء ولا تصنع لك صنما لشيء فوق الأرض أوتحت الأرض ولا فوق الماء ولا تحت الماء لأننى أنا الله إلهك واحد وقوى وغيور» .

«تذكروا أن آباءكم قد صنعوا العجل من الذهب الذى سرقوه وعبدوه حتى أن الله أمر بقتل كل من عبد العجل فانظروا إلى شدة غضب الله على عبدة الأصنام وأنظروا هل عبد بنو اسرائيل الأصنام أم لا ؟ لماذا كل هذه الكبرياء .»

وبينما كانوا يستمعون إليه مبهوتين وقد عاينوا أنهم لا يستطيعون مجاراته وأنه لا يمكن الرد عليه إندفع أحد المتسولين وألقى بجسده عند قدمى «المسيح» بينما الخدم وعبيد صاحب القصر يهرولون وراءه ليمنعوه من دخول القاعة الفخمة التى أقيمت فيها الوليمة العظيمة. كان الرجل يعرج فى مشيته إذ أصيبت ذراعه اليمنى وساقه بالشلل منذ زمن طويل لكنه أفلح فى أن يفلت من قبضة الخدم. نظر إلى «المسيح» نظرة استرحام وفاضت الدموع من عينيه وهو يرفع بيده اليسرى ذراعه اليمنى التى تيبست .

وكان المتسول قد سمع أن «عيسى الناصرى» نبى الجليل قد جاء فاندفع ليسأله الشفاء من الشلل الذى أصابه. قال «المسيح» مخاطبا الكتبة والفريسيين «أيحل الإبراء فى السبت أم لا ؟» .

فواصلوا صمتهم الذليل لأنهم يؤمنون إن الإبراء محظور فى السبت فقال «المسيح» «إذن ماذا يحل فى السبت فعل الخير أم فعل الشر .إنقاذ نفس حية أم إهلاكها ولكى تعلموا أني مرسل من الله وأننى أنطق بالحق أقول لك يا أيها الانسان». والتفت إلى المتسول ـ «مد يدك فقد أزال الله ما بها وأمضى فقد صرت معافا بإذن الله» .

فحرك الرجل يده وقام مسرعا وهويسبح الله «الذى أعطى الإنسان كل هذا السلطان.

«الحق أقول لكم إن تقاليد الشيوخ الباطلة هى التى تفسد شريعة الله وتفسد على الناس حياتهم. إن إحراق مدينة كاملة أفضل من ترك عادة رديئة تستشرى فيها ولقد أعطى الله الملوك والرؤساء السيف ليمحوا الأثام من الأرض ولكنهم يستعملون سيف الله لإبقاء الإثم ومن أجل ذلك يغضب الله عليهم» إنتبهوا لأن حديثه تحول إلى الملوك والرؤساء لكنه فجأة قال للفريسى الثري صاحب القصر الذي دعاه (٢٨٠).

«إذا صنعت طعاماً أو أردت أن تقيم وليمة فلا تدع إليها أصحاب السلطة أو أصدقاءك ولا تدع إليها جيرانك الاغنياء لأن كل هؤلاء يمكنهم أن يكافئوك علي وليمتك ولن يكون لك إذن مكافاة عند الله بل أدع العمى والعرج والمبتورين والفقراء والمساكين. إنهم على مقربة منك ستجدهم علي باب قصرك وهم لن يستطيعوا أبدا مكافأتك ومن ثم فإن مكافأتك تكون عند الله الذي يكافئك علي حسن عملك في قيامة الصالحين» واستشاط صاحب الدعوة غضبا وبدا الحنق عليه لكن «المسيح» واصل اندفاعه حيث لم يعد فى امكان واحد منهم أن يوقفه .....

قال : « أيها الفريسي الأعمى كان يجب عليك ان تنقى الكأس من الداخل أولاً قبل أن تنظفها من الخارج إليس الذى صنع ما فى الخارج يعلم ما بالداخل أيضاً!!»

«إنكم معشر الفريسيين تحرصون على نظافة الأوانى والأباريق والأكواب وطهارة الجسد والملابس ولكن باطنكم مملوء بالعفن والقذارة قلوبكم تنضح بالخبث. كان يجب أن تنظفوا قلوبكم أولاً وستجدون أن كل شئ لكم صار تواً نظيفا . لو أنك أعطيتَ ماعندك صدقة لصرت نقيا».

وصعق الثرى «صاحب الدعوة» وأخذ ينظر حوله فى اضطراب وحيرة الى ضيوفه «المحترمين» وقد جف حلقه وفرت كل الكلمات من لسانه. ثمة ابتسامة ساخرة تلوح على وجوه السادة الرومان الذين لم يكن فى وسعهم متابعة كل شئ بتدقيق ولكن كان من الواضح لهم أن ذلك الرجل الوديع الذى يرتدى جلبابا أبيضاً رخيص الثمن ويبدو عليه وعلى أصحابه الفقر كان الواضح أنه قد انقلب الى أسد مخيف بينما تحول صاحب القصر وضيوفه الآخرين إلى فئران مذعورة تفر من وجه الأسد الذى يعلو صوته بين الحين والآخر ولايجسر الآخرون على الرد عليه لإسكاته أو حتى مجرد التحديق فى وجهه بغضب .

وكان من الواضح أن الخطة قد فشلت تماما «لايمكن إستدراج هذا الساحر الي شئ يمكن اصطياده به ؟»

ثم قال «المسيح» وقد أطبق الصمت على الجميع:(٢٨١)

«كان رجل غنى يعيش مرفها يلبس الثياب الفخمة ويبحث في كل يوم عن متعة جديدة نهماً يحب الأكل ويكثر من إقامة الولائم العظيمة. على بابه كان يقف رجل فقير إسمه «لعازر» جسده الهزيل يمتلئ بالقروح. يرقد على الأرض يبحث عن طعامه فى البقايا التى تخلفت عن ولائم الغنى. لم يكن يطمع فى أكثر من أن يسد جوعه من الفتات الذى ألقى من على الموائد.

لم يتحنن عليه الغنى أبداً رغم أنه كان يراه كلما خرج من قصره أو أتى إليه ولم يرغب فى أن يعطيه شيئا بل كان يطلب من خدمه أن يبعدوه عن القصر حتى لايشوه بهيئته القذرة جمال الطريق الذى يقوم عليه القصر ولم يتصدق عليه أحد من الناس بل كانوا يسخرون منه ويستهزؤن به. ربما لم ينل خيراً من أحد إلا من الكلاب التى كانت تشاركه البحث عن الطعام فى القمامة فإنها أحيانا كانت تلحس بألسنتها قروحه وحدث أن مات «لِعازر» فحملته الملائكة الى الجنة حيث إتكأ مع ابراهيم أبينا ومات الغنى أيضا فحُمِل إلى العذاب الشديد حيث أصبح يعانى من كل شئ من حرارة جهنم وبردها ومن العطش الشديد الذى لايطفئه «الحميم» ومن الجوع الشديد الذى لايزيله أكل الاشواك والعقارب الحية بل يزداد ألما بتقطيع أمعائه وهو يجأر بالعذاب من كل جارحة في جسده يستصرخ رحمة الله ولامجيب .»

«وحدث أن الغنى المتعذب فى جهنم لمح «إبراهيم» خليل الله متكئا فى الجنة وفى حضنه «لعازر» «فصرخ الغنى قائلاً

«ياأبت ابراهيم إرحمنى».

فقال له «إبراهيم» : «تذكر أنك نلت كل طيباتك فى الدنيا وأنك إستوفيت أجرك وكانت البلايا من نصيب «لِعازر» فمن العدل أن تنال أنت الآن عذابك وأن يتعزى «لعازر» عما أصابه فى الدنيا ».

قال الغنى وهو يتعذب فى الهاوية «ياأبت فاسمح بأن يأتى إلىَّ «لعازر» لحظةً واحدة ليبل بطرف أصبعه لسانى الذى يحترق فى هذا اللهيب»

قال «ابراهيم» : ألاَ تعلم أن بيننا وبينكم هوة مستحيلة لايمكن عبورها فالذين عندنا لا يستطيعون أن يصلوا إليكم حتى لو أرادوا وهم لايريدون كما أنكم لاتستطيعون أن تصلوا إلينا رغم أنكم تحبون الآن ذلك ».

قال المتعذب «فأسألك ياأبت أن ترسله الى بيتى فإن لى أبناء وأخوة فليكلمهم بما نشهد حتى يأخذوا حذرهم فلا يصلوا إلى موضع العذاب هذا» .

قال «ابراهيم» «عندهم الأنبياء فليسمعوا منهم» .

قال «المتعذب» : «كلا ياأبت بل إن قام واحد من الأموات وكلمهم فإنهم يصدقون »

قال «ابراهيم» «كلاً فإن الذى لايصدق الأنبياء فإنه لا يصدق الموتى عندما يقومون»

«ويل للذين يعيشون لخدمة أجسادهم فإنهم عباد أصنام ولن ينالوا خيرا فى الحياة الآخرة بل عذابا لاينتهى»

وعلى من يريد أن يعرف ماهو الجسد فليذهب الى القبور هناك سيقرأ فى كتاب القبور ويعرف ماهو الجسد الذى يقضى عمره كله فى خدمته(٢٨٢) ما أشقى أولئك الذي يحملون أجساد الآخرين الى الدفن ليعطوها طعاما للدود ولايتعلمون الحق بل على النقيض من ذلك يعيشون فى الدنيا كأنهم سيخلدون فيها فهم يشترون أملاكا كثيرة ويبنون بيوتا فخمة ويعيشون فى الكبرياء يفرون من الموت كأنهم لن يلاقوه مع أنه لابد آتيهم.»

وألتفت إلى شيوخ الفريسيين الذين تزاحموا وحرصوا على أن يظفروا بالجلوس فى صدر المائدة على المقاعد الأولى بجوار السيد صاحب القصر وقال(٢٨٤) إذا دعاك صديق إلى عرس أو وليمة لتأكل عنده طعاماً فلا تسرع إلى المقعد الأول لعل واحداً أكرم منك عليه يكون قد دُعِىَ فعندما يأتى سيقول لك الذى دعاكما قم وأعط المكان لهذا فحينئذ يصيبك الخجل وتقوم لتبحث عن مكان فلا تجد إلا الموقع الأخير وربما لاتجد لك مكانا لأن جميع المقاعد تكون قد وجدت الجالسين عليها لكنك إذا جلست فى المقعد الأخير فإن صاحب الدعوة متى رآك فإنه يقول لك ياصديق ليس هذا مكانك قم لتجلس فى الأمام وحينئذ تشعر بالسعادة لأن كل من فى الحفل ينظر اليك باحترام. إن من يرفع نفسه يتضع ومن يتواضع لله يرفعه» فأخذ الشيوخ الفريسيون يتذمرون لأنهم يعلمون أنهم هم

المقصودون من كلامه. لم يترك لهم شيئاً قالوه أو فعلوه إلا خطأه ولكنه واصل حديثه قائلا «تذكروا أن الكبرياء هو الذى مسخ ملكاً جميلاً كان يختال على سائر الملائكة فى السموات بجماله إلى شيطان لعين لايستطيع أحد من الخلق أن يحدق فى بشاعته يوم يأتى على حقيقته فى القيامة وبالكبرياء تحول أكمل مخلوق خلقه الله على صورته إلى كائن يكابد الشقاء والألم والموت فى الأرض التى طرد إليها ليعانى الإبتلاء. فانظروا كم يجلب الكبرياء على صاحبه إن الشيطان لم يخذل إلا بتشبثه بكبريائه» .

قال النبى «إشعياء» موبخاً «إبليس» «كيف سقطت من السماء ياكوكب الصبح يامن كنت بجمال الملائكة تشرق كالفجر حقاً إن كبرياءك قد سقطت على الأرض» زاد تذمرهم وأخذوا يقولون «ما هذه التجاديف»!!

فقال لهم «ويل لكم أيها الفريسيون لأنكم تحبون المقاعد الأولى فى المجامع وأن يحييكم الناس فى الأسواق ويعظمونكم قائلين «ياسيدى» فويل لكم .»

وأنصرف «المعلم» مع التلاميذ الذين كانوا يرتجفون من الخوف خشية أن يأمر السيد صاحب القصر خدمه بضربهم أو قتلهم. خرج «المسيح» وتلاميذه أمامه يهرولون وحاول الكهنة والفريسيون أن يتمالكوا أنفسهم بعد أن ذهب «الساحر» فأخذوا يتناولون الأطعمة الشهية التى احتشدت على المائدة ولكن دون فائدة فقد استولى عليهم غم شديد وشعروا أنهم أهينوا أهانة بالغة لكنهم لم يعرفوا كيف يتصرفون وزاد من غيظهم أن السادة الرومان «وعيون» بيلاطس قد أصبحوا مقتنعين تماما أن «عيسى الناصرى» لايدعو لتنصيب نفسه ملكا وأنه ليس إلا رجل دين وحكيم يدعو لإصلاح شعبه أما خلافاته مع رجال الهيكل فإنها لاتعنيهم فى شئ ومن الناحية الأخرى فإن جواسيس «هيرودوس» قد استقروا على نفس الرأى وكانوا أكثر الحاضرين سرورا بالمهانة التى عاناها الشيوخ والكهنة والكتبة ولاريب أن «هيرودوس» عندما علم بما دار أستخف به الطرب لأنه إذا كان «الناصرى» يدعو للتنديد بتقاليد الشيوخ ويوبخ التزمت الدينى فإنه يجب تشجيعه على هذا فهذه

التقاليد هى أشد أعداء «هيرودوس» لأنها تقف حجر عثرة أمام رغبته العارمة فى التمتع بجسد «سالومى» البديع الذى سحره وهى التى تحول بينه وبين الإستيلاء على نصيب أخيه من «الملك» دون تأنيب من بقية ضميره الذى يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة .

ازداد الكتبة والشيوخ غيظا لأنهم فشلوا فى إقناع كلا من الرومان ممثلين فى الوالى «بيلاطس» من ناحية و «هيرودوس» حاكم الجليل من الناحية الأخرى بمشاركتهم فى معركتهم ضد المدعو «عيسى» الناصرى.

وأجتمع الكتبة والشيوخ مع كبار الكهنة واتفقوا على أن كلاً من «بيلاطس» «هيرودوس» غبيان إذ لايدركان خطورة «عيسى» وقريبه «يحيى» على السلطة فى البلاد وأنهم أى رجال الهيكل لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا لإخماد تلك «الفتنة» العارمة التى تنذر باقتلاع كل شئ فى طريقها إلا بإقناع أصحاب السلطة بخطورة هذين الرجلين إذن فإن إفساد العلاقة بين السلطة من ناحية و«عيسى» و «يحيى» من الناحية الاخرى هو الحل الوحيد فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟!

وهكذا تفرغ رجال الهيكل للتفكير فى الوسائل التى يمكن بها إشعال الحرب بين السلطة والنبيين حتى يمكنهم القضاء على رسالة «عيسى» والتمتع بنعيم القرب من السلطة.

أما التلاميذ الذين فرحوا بقدرة «معلمهم» على إفحام خصومه فقد أخذوا يسألونه عن معنى الكلمات التى نطق بها فى الوليمة وهم يسيرون معه والخوف يسيطر على قلوبهم قالوا له «هل تعلم يامعلم أن الفريسيين قد غضبوا جدا عليك ولابد أنهم سيفعلون شيئا » فقال لهم ليزيل خوفهم «لاتخشوا إلا الله فإن كل زرع لم يزرعه بيده فإنه يُقْتلَع ويزول فلا يبقى. دعوهم فإنهم عميان يقودون عمياناً. إن كان أعمى يقود أعمى فلابد أن الإثنين سيقعان كلاهما فى حفرة» زايلهم بعض خوفهم فسأله «بطرس» «فسِّر لنا يامعلم هذا المثل» فقال «المسيح» أى مثل ؟ إنه لم ينطق بأمثال .

قال «بطرس» : «مايخرج ويدخل الفم ؟»

قال «المسيح» «أحتى الآن لم تفهموا بعد ؟!

«ماذا يدخل الفم إنه الطعام والشراب فيسير فى مجراه ويستفيد منه الجسد بقدرة الله ، ثم يخرج من المخرج فلا يصل إلى قلب الانسان ، أما الذى يخرج من الفم فإنما يصدر عن القلب فمن فيض القلب ينطق اللسان فالرجل الصالح من كنز قلبه الصالح ينطق بالصالحات والرجل الشرير من كنز قلبه الشرير ينطق بالسيئات. من القلب تخرج النوايا الخبيثة والأفكار الشريرة القتل والخطف والزنا وشهادة الزور والتجديف على الله والكبرياء والجهل ، وهذه هى التى تنجس الإنسان ، أم الأكل دون أن يغسل يديه فلا ينجس الإنسان.»

«الحق أقول لكم إن كل كلمة شريرة يتكلم بها الإنسان سوف يقدم عنها حسابا عسيرا يوم الدين لإنه بلسانك يمكنك أن تنجو وبلسانك يمكنك أن تُدَان ليلقى بك فى الجحيم(٢٨٤) قال «يحيى بن زبدى» يامعلم أيجب علينا التطهر والاغتسال كما تفرض شريعة «موسى»(٢٨٥)

قال «المسيح» وقد أفصح صوته عن غضبه وتعجبه من غلاظة أفهامهم «أتظنون أنى جئت لأنقض شريعة موسى أو أبطلها. لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته إننى لم آت إلا لأحفظها بعد أن أفسدتها أوهام البشر وتقاليدهم الفاسدة. شريعة الله واحدة وقد نطق الله بها لجميع أنبيائه وكل الأنبياء يعلمون على حفظها.»

«إن تغيير كلام الله هو أكبر الآثام وسوف ينال الذى اجترأ على كلام الله وحاول تغيير شريعته أكبر هوان يوم القيامة لأنه يحقق مايروم الشيطان تحقيقه فهل تتصورون أن نبياً مرسلاً من الله يمكن أن يقدم على أكبر خطيئة ؟!»

«إن الله قد أمرنا بلسان جميع أنبيائه بالإغتسال فيجب علينا إذن أن نغتسل ولايمكن

لأحد أن يقدم لله صلاة مقبولة إلا إذا كان طاهرا وإلا فإنه يحمل نفسه وزر خطيئة تقترب من عبادة الاوثان ولكن لنفهم جيدا ماقاله الله بلسان «إشعياء» النبى : «إغتسلوا وكونوا أنقياء وأبعدوا أفكاركم عن عينى» يعنى فى الصلاة. الحق أقول لكم أنه إذا كان قليل من الماء يمكنه أن يطهر الجسد ، فإن ماء البحر كله لايمكن أن يغسل القلب الذى يحب المعصية ويفرح بارتكابها.»

قالوا «يامعلم» علمنا كيف نصلى »؟

قال : «الحق أقول لكم إن الذين يقيمون الصلاة قليلون وهؤلاء هم الذين يحاربهم الشيطان لأنهم أعدائه ، أما أكثر المصلون فهم جنوده ولذلك يمقتهم الله لأنهم يكرمون الله بشفاههم يطلبون الرحمة فى الهيكل بألسنتهم ولكنهم يستصرخون عذاب الله بقلوبهم التى تحب المعصية وتهرول إلى ارتكابها قال الله لإشعياء «قل لهذا الشعب أن يبتعد عنى فإننى لم أعد أحب صحبتهم لأنهم يحترموننى بشفاههم أما قلوبهم فإنها تفر منى »(٢٨٦)

«الحق أقول لكم إن الذى يذهب ليصلى دون أن يتدبر فيما يفعل ويقول فإنه يستهزئ بالله».

«إذا أساء إليك أحد الناس ثم أنحنى لك وقال بشفتيه «إغفر لى» ثم قام فضربك على وجهك أو قفاك ثم أسرع يركع ويسجد عند قدميك وهو يصرخ بشفتيه «إغفر لى» ثم قام ليضربك مرة أخرى وأستمر على هذا النحو دائما فماذا تسمى صنيعه ذاك وهل تغفر له أم تغضب عليه. إنه يستهزئ بك ولاشك أنك ستنتقم منه »

«وكذلكم يفعل الله مع الذين يقولون بشفاههم «يارب أرحمنا» وهم يهمون فى قلوبهم بخطايا جديدة»

فبكى التلاميذ وتضرعوا قائلين : «يامعلم علمنا كيف نصلى»(٢٨٧)

قال «ألقى الحاكم الرومانى عليكم القبض وحكم عليكم بالإعدام وجاء جنوده ليسوقوكم إليه لينفذ فيكم حكمه »!!

وشعر التلاميذ بالرعب إذ توهموا للحظات أن ذلك شئ قد وقع ثم أنتبهوا .

قال : «أمعنوا النظر متأملين فيم يجب عليكم فعله وقوله وأنتم ماثلون بين يديه ترغبون من كل قلوبكم أن تكلموه حتى يعفو عنكم. على هذا النحو ينبغى أن تكون صلاتكم مع إدراك الفرق العظيم بين الحاكم الرومانى الذى لايملك إلا أن يأمر بإهلاك جسدكم إن أراد الله ذلك لأن كل مخلوق حتى الحاكم نفسه لايعمل إلاَّ مأراد الله أما الله فإنه يملك إهلاك النفس فى جهنم ولا أمل إلى الأبد فى الخلاص منها بهذا يمكنكم أن تعرفوا كيف يجب أن تكون صلاتكم .»

«هل يمكن أن يقف الرجل منكم أمام «بيلاطس» أو «هيرودوس» ولايعرف لماذا هو يقف بين يديه ولاماذا يريد منه؟ كلا لا أحد يفعل هذا لأن كل الناس عند وقوفهم بين يدى الحاكم يعرفون بالضبط ماذا يريدون منه وكيف يطلبون مايحبون الحصول عليه ويبذلون كل مافى وسعهم لإستمالة قلبه حتى يُصْغِىَ إليهم لعله يحقق لهم مايرغبون أليس هذا صحيحاً ؟!

قالوا : «بلى»

قال « فكيف يجب على الإنسان أن يقف بين يدى ملك السماوات والأرض الجبار الذى يفرض مشيئه على كُل المخلوقات القادر على كل شئ.»

«ماذا يطلب الإنسان من الله ؟!»

«يجب عليه أن يطلب الرحمة والمغفرة لخطاياه ويشكر ربه على نعمِه الكثيرة التى يستحيل حصرها أو تقديرها . هل يمكن لأحدكم وهو ماثل بين يدى الحاكم أن يوليه ظهره أو يلتفت يمنة ويسرة أو يفكر فى أى شئ آخر غير مايريد أن يحصل عليه من الحاكم»

«هل يمكن لأحدكم وهو عند «هيرودوس» أن يتحدث عن الأشياء التى يكرهها أو يذكر «بيلاطس» الوالى الرومانى بخير وهو يعلم كم يبغضه «هيرودوس»(٢٨٨) «بالطبع لا.»

«فكيف يقف الواحد منكم بين يدى ربه فى الصلاة ثم يلتفت عنه ويفكر فى أمور معيشته بل تبلغ به الوقاحة أن يفكر فى خطايا جديدة ويظل قلبه مشغولا بما ينوى أرتكابه من ذنوب لم يزل قلبه محبا لها لم يتب عنها. إن الانسان حين يفعل هذا إنما يعطى وجهه للشيطان ويولى ظهره لله الذى يغضب عليه بدلا من أن يرحمه. »

«صلوا دائما دون إنقطاع»

«كان فى مدينة قاض لايخشى الله ولايهاب إنسانا وكانت هناك أرملة مظلومة لها قضية عند ذلك القاضى فكانت كثيراً ماتأتى إليه وتصرخ قائلة: «إنصفنى من خصمى» ولكنه كان قاسى القلب فلم ينظر إليها ولم يرحمها وظل ممتنعا عن الحكم فى قضيتها غير راغب فى إنصافها ولكنها ظلت تلح عليه وصارت تزعجه فى الليل والنهار وأينما ذهب فإنها تطارده قائلة: «إنصفنى من خصمى».

«فقال القاضى فى نفسه: «يجب أن أنصفها من خصمها حتى تتوقف عن إزعاجى فحكم لها وأنصفها. فانظروا إلى مافعله القاضى الظالم مع المرأة المظلومة التى ظلت تلح عليه.»

«أفلا ينصف الله القاضى العادل عباده المختارين الذين يلحون عليه صارخين إليه بالليل والنهار وهو يتمهل عليهم يحب سماع صوتهم. الحق أقول لكم أنه ينصفهم سريعا(٢٨٩)

«فلعلى عندما أرجع إلى الأرض أجد إيماناً عليها(٢٩٠)

«من منكم يأتيه صديقه بعد منتصف الليل ويطرق الباب قائلا أقرضنى ياصديقى ثلاثة أرغفة فقد نزل علىَّ ضيف وليس عندنا ماأقدمه له من منكم يقول حينئذ لصديقه

أذهب الآن فإنني مع أولادى فى الفراش والوقت قد تأخر والباب مغلق. إن لم تقم له من أجل أنه صديقك فمن أجل لجاجته تقوم وتعطيه مايحتاجه لأنك لن تقدر أن ترتاح دون أن تفعل هذا.

«من منكم يسأله ابنه خبزا فيعطيه حجراً أو يسأله سمكة فيعطيه حية أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً.»

«فإن كنتم وأنتم أشرار تستطيعون أن تعطوا أبناءكم أشياء طيبة أفلا يستطيع الله البر الرحيم أن يعطى «روح القدس» للذين يسألونه(٢٩١)

«إسألوا تعُطَوا فكل من يسأل لابد أن يأخذ.

أطلبوا تجدوا فكل من يطلب لابد أن يجد

أقرعوا يُفْتَح لكم فكل من يقرع لابد أن يُفْتَح له (٢٩٢)

«ولكن العبرة ليست بكثرة الكلام فلا تكونوا مثل الأمم التى لم يتفضل الله عليها بعلم كتابه، فإنهم يتوهمون أنه بكثرة الكلام وكثرة الصلوات يستجاب لهم، فلا تتشبهوا بهم، لأن آلهكم الذى خلقكم ويعلم مافى قلوبكم لابد أنه يعلم ماتحتاجونه قبل أن تسألوه»

«فإذا صليتم فلا تكثروا من الكلام ولاتكرروا دون تدبر»

«ومتى صليتم فلا تفعلوا مثل المرآئين الذين يحبون أن يصلوا في المجامع أمام الجميع وفى زوايا الشوارع لكى يراهم المارين إنهم يحبون أن يُظْهِروا صلاتهم للناس ليقول الناس عنهم أنهم أبرار. الحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم أما أنتم فإذا أردتم الصلاة فأدخلوا الى المخدع وأغلقوا عليكم الباب وصلوا لله فى الخفاء فان الذى يراك وحدك فى الخفاء يجازيك علانية.»

«إن الله ينظر الى القلب وكما قال على لسان «سليمان النبى» «ياعبدى إعطنى قلبك»(٢٩٣)

«الحق أقول لكم إن المرآئين يصلون كثيراً ولكن قلوبهم تكون ممتلئة بالشر فهم غير جادين فى صلاتهم فلن ينالوا بها إلا الغضب !!»

«يجب أن تكون مُخْلصا فى صلاتك إذا أردت أن يقبلها الله وصدقونى عندما أقول لكم إنه إذا صلى إنسان «لله» كما يجب أن تكون الصلاة فإنه ينال كل مايطلب ولايصير بالنسبة إليه أى شئ مستحيلا. اذكروا أن «موسى بن عمران» شق البحر بصلاته فأغرق فرعون وجنوده «ويوشع» أوقف الشمس بصلاته «وصموئيل» أنزل الرعب فى قلوب الفلسطينيين وأنزل «إيلياس» النار من السماء بصلاته وأقام «اليسع» (اليشع) ميتا بصلاته وكثيرون غيرهم من الأنبياء والصالحين نالوا كل مايريدون بصلاتهم لأنهم لم يطلبوا فى الحقيقة إلا مجد الله القادر على كل شئ وهذه هى الغاية من الصلاة .»

«إن الشيطان لم يكن له عبرة قبل سقوطه ولكن الإنسان قد جاءته الأنبياء والرسل ليدعونه إلى التوبة ولكنه يصرٌ على أن يعيش وكأنه لا إله له سوف يحاسبه على كل شئ يمضى فى حياته الدنيا وكأنه لن يموت ودون أدنى خوف من حساب الله مع أنه له أمثلة لاحصر لها على عدل الله .

قالوا «يامعلم» ماذا نقول فى صلاتنا ؟»

قال «قولوا : آلهنا رب السموات والأرض ليتقدس إسمك وليأت ملكوتك. طهر قلوبنا لتكون مشيئتك مقبولة عندنا ، كما هى مقبولة فى السموات

نسألك رزقا يكفينا كل يوم.

وأغفر لنا خطايانا لأننا ونحن عبادك نغفر لمن يخطئون إلينا. لاتدخلنا فى فتنة ولكن نجنا من الشيطان

أنت وحدك الهنا لك المجد الى الأبد .

أمـــــــــــين(٢٩٤)

(٢٢)

قبضة القدر

«إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيب ويعلم ما في الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى تموت . إن الله عليم خبير»

(لقمان ٣٤) .

أوشكت «الناصرة» أن تصبح العاصمة الدينية للشعب اليهودى بفضل السيد «المسيح» الذى كانت رسله تجوب القرى والمدن تنشر دعوته وتصنع الآيات بفضل «البركة» التى نالوها منه وأثار هذا الانتشار القلق فى دوائر السلطة الرومانية وعند «هيرودوس» رئيس الجليل الأدومى المتهود الطامع فى إسترداد عرش أبيه .وفى دوائر الهيكل حيث أشرف رجاله على فقدان مكانتهم فى الشعب وأهميتهم بالنسبة للسلطة الحاكمة .

أصبح من المألوف أن يتوافد الناس على «الناصرة» قادمين من كل القرى و المدن فيذهبون الى المجمع ينتظرون «المعلم» في يوم السبت إذ أعتاد أن يذهب لإلقاء الموعظة ولشفاء المرضى أو يبحثون عنه فى بيت «يوسف بن يعقوب» النجار زوج أمه أو فى بيت «متى» العشار حيث نزل ضيفا بعد ما ترك بيت زوج أمه ثم فى أى بيت آخر حيث كان الناس يستدعونه للمس المرضى والصلاة عليهم فإن لم يجدوه فى كل تلك المواضع خرجوا يبحثون عنه فى الطرق والأماكن المنعزله الموحشه أو عند القبور. كان لا يستقر فى مكان شديد الرغبة فى العزلة لا يصحب معه إلا القليل من تلاميذه ليكونوا شهودا على كلمة الله التى ينطق بها وكثيرا ما تسلل فى الخفاء لينفرد بنفسه غير راغب فى صحبة أحد من الناس حتى تلاميذه .

فى صباح يوم سبت خرج «المسيح» فى صحبة قليل من أصحابه اذ كان قد أرسل

أغلبهم ليبشروا فى القرى والمدن وذهب إلى المجمع حيث كان ينتظره جمع غفير من المرضى مع أهلهم جاء أكثرهم من قرى ومدن بعيدة وأثار ذلك غيرة رئيس المجمع «يايروس» الذى كان يدهشه هذا الجم الغفير من الناس الذين أصبحوا يترددون على المجمع الصغير بالناصرة بينما كان هذا المجمع نفسه قبل المدعو «عيسى» يشكو من قلة الناس الذين يذهبون إليه لسماع الموعظة والصلاة .

من بين الجموع المحتشدة إلتفت « المسيح» إلى أمرأة تقترب من الشيخوخة وقد أخذت تسير على يديها وركبتيها (٢٩٥) انحنى ظهرها على نحو أثار ينبوع الرحمة فى قلب النبى فتقدم إليها ووضع يده ظهرها ودعا الله فى سره ثم همس قائلا «بسم الله» فانتصبت المرأة وهى لا تكاد تصدق جسدها الذى يقف مستقيما بعد سنوات عديدة قضتها تسير على أربع كأنها أرتدت على «سلم الحياة» إلى ما قبل الإنسان فجاء «المسيح» اليوم بمسحة «روح القدس» الذى أيده الله به فوضع يده على ظهرها فأعادها إنسانا كما كانت قبل أن يمسها الشيطان .

انحنت المرأة على يد «المسيح» تقبلها وفاضت عيونها شكرا لله وتعالت أصوات التسبيح والتحميد من الجموع التى ملأت المجمع وأحاطت به وأستولى الحسد على قلب «يايروس» رئيس المجمع وكان معه بعض «الضيوف» القادمين من «أورشاليم» جاءوا ليوصوه بمراقبة المدعو «عيسى» وإبلاغ الهيكل بكل شىء لأنهم يعدون العدة للإجهاز عليه والقضاء على فتنته. لم يتمالك «يايروس» نفسه فاندفع يوبخ «المسيح» قائلا «أيها الطبيب لديك ستة أيام فى الأسبوع لإبراء مرضاك» والتفت إلى الناس قائلا : «لا مانع لدينا من المجىء إلى المجمع للإستشفاء فى جميع الأيام إلا يوم السبت فهذا اليوم هو لخدمة الله فقط. أمامكم ستة أيام فى الأسبوع للعمل والإستشفاء فاحفظوا السبت ولا تدنسوه». «أيها الناس هذا الرجل ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت إذ أبرأ فيه مريضا وهو ما لا

يجوز » فأجابه «المسيح» قائلاً : "يا مرائى ألا يفك الواحد منكم قيود ثوره أو حماره ويذهب به ليسقيه فى يوم السبت. أإن سقط لأحدكم خروف فى يوم السبت ألاً يسرع إليه ليقيمه من عثرته أليس الانسان أفضل من الخروف ؟ "

«وهذه إبنة إبراهيم قد ربطها الشيطان ثمانى عشرة سنة أفلا يحل لى أن أحُل رباطها فى يوم السبت. ألا يجوز لى أن أبطل عمل الشيطان فى يوم السبت. فما الذى يحل عمله فى السبت ؟ ألا يحل فى السبت تقديم الصلاة من أجل خلاص الآخرين؟» وغرق «يايروس» وضيوفه فى الخجل. مضى «المسيح» عائدا إلى بيت «متى» ولم يرغب فى إلقاء موعظة فى المجمع وهرولت الجموع خلف «المسيح» تاركة «يايروس» وضيوفه فى المجمع الذى خلا عليهم وقد أخذت نار الحقد تأكل قلوبهم .

تقدم إليه بعض تلاميذ النبى «يحيى بن زكريا» وقد لاحظوا خلال مراقبتهم «للمسيح» وتلاميذه أنه لا يصوم. إندهشوا لأنه يلبى الكثير من الدعوات التى تأتيه لحضور الولائم وحفلات العرس حيث يشارك الناس طعامهم وتعجبوا لأنهم لم يسمعوه يأمر تلاميذه وأتباعه بالصوم بينما «يحيى» معلمهم « يأمرهم كثيرا بالصوم وكذلك شيوخ الفريسيين يأمرون تلاميذهم بكثرة الصيام فقالوا له:

«لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيرا أما تلاميذك فإنهم لا يصومون بل نراهم يأكلون ويشربون طوال الوقت ؟»(٢٩٦) .

لم يراقبوه إلا فترة قصيرة ورغم ذلك حكموا عليه بأنه كثير الأكل عاجز عن الصيام رغم أ نه فى الحقيقة كان أكثر الناس صياما ربما مر عليه بضعة أيام دون أن يأكل شيئا وإن أكل فبعض البقول أو قليلاً من الفاكهة ولا شيىء أكثر من هذا وقد أوصى تلاميذه كثيرا بالصوم ولكن تلاميذ « يحيى» يتسرعون فى الحكم وقد تكلموا بنفخة الكبر يتفاخرون بأنهم كثيروا الصوم .حقاً إنهم لم يظفروا بالغاية التى من أجلها شرع الله الصوم لعباده.

قال لهم «المسيح» «هل تستطيعون أن تجعلوا أهل «العريس» ينوحون ويعافون الأكل والعريس معهم. كلا لأنه في العرس ينبغي أن يفرح الناس وأن يأكلوا ولكن ستأتي على تلاميذي أيام حين يرفع «العريس» فحينئذ سيكون عليهم أن ينوحوا وأن يصوموا .

استعمل «المسيح» في وصف نفسه لفظ «العريس» وهو نفس اللفظ الذي يستعمله «يحيى بن زكريا» في وصف «المسيح» لكي يشير إلى أنه يتفق مع «يحيى» وأنه لا تناقض أو اختلاف بين تعاليم «يحيى بن زكريا» وتعاليم «المسيح» «عيسى من مريم» فكلاهما نبيان مرسلان من الله الواحد الذي نطق برسالة واحدة على لسان جميع انبياءه لكن تلاميذ «يحيى» لم يقتنعوا بكلام «المسيح» ولم يفهموا ماذا يعني بهذا المثل الدي ضربه. إنهم لا يفهمون إلا شيئا واحدا هل الصوم أمر مفروض على العبد أم لا ؟ فإن كان أمرا فرضه الله فلماذا لا يصوم تلاميذ «عيسى» كما يصومون هم وكما يصوم الفريسيون يومين في الأسبوع وإن لم يكن أمرا فرضه الله فلماذا أمرنا به «يحيى» ؟ من هو المخطيء «يحيى» أم «عيسى» ؟

وبدا له على وجوههم ما يدور في قلوبهم فأراد أن يبين لهم أن لا أحد مخطيء غيرهم فقال: «إن كان لدى أحدكم ثوب قديم قد تَخَرَّق فليس من الحكمة في شيء أن تعمدوا إلى قماش جديد فتقطعوا منه رقعة لتسدوا بها الخرق الذي حدث في الثوب القديم لأنكم بهذه الحماقة تفسدون القماش الجديد وفي نفس الوقت لا تصلحون الثوب القديم لأن الرقعة الجديدة لا تناسب الثوب القديم وهي قوية شديدة فلا بد أنها ستشد الثوب القديم فتزيد من الخرق ويصير أردأ فإن كان ثوبك القديم يمكن إصلاحه فأصلحه بقطعة منه فإنها مثله وتليق به أما إن كان لا يمكن إصلاحه فاتركه وأصنع لنفسك ثوبا جديدا من قماش جديد يليق بك .فإنهم لا يضعون الخمر الجديدة في أوعية قديمة لأن الخمر الجديدة قوية لا تتحملها الأوعية القديمة المتهالكة فإنها تتشقق وتتسرب منها الخمر الجديدة وتضيع. لذلك يجب أن يأتوا بأوعية جديدة ليضعوا فيها الخمر الجديدة حتى يحفظوا كلاهما الأوعية

والخمر فيجب أن تظفروا بقلوب جديدة لكى تحصلوا على التعاليم الجديدة». لكنهم لم يفهموا ما قال وأصروا على أنه لا بد يكون أحدهما «يحيى» أو «عيسى» خاطئا وما هذه الأمثلة المضروبة إلا تلاعبا بالألفاظ للهروب من الإجابة على السؤال .

أخذ تلاميذ «يحيى» ينصرفون متذمرين من هذا «المعلم» الذى لا يحترم شريعة الله وتقاليد الشيوخ ، بينما كان «المسيح» يخاطب تلاميذه بالجمع المحتشد قائلا: «إن الذى إعتاد على القديم لا يستطيع أن يقبل الجديد بسرعة لأنه دائما يقول إن العتيق أطيب .»

«بماذا أشبه هذا الجيل ؟» (٢٩٧)

«إنهم يشبهون رجالا متبطلين لا عمل لهم يجلسون على الطرقات لا يشعرون بشيء ولا يعرفون شيئا جاءهم أصحابهم يبكون ويلطمون الخدود لكنهم لم يشاركوهم أحزانهم ولم ينوحوا معهم ثم جاؤهم يضحكون ويزمرون لهم يدعونهم للقيام والعمل معهم لكنهم لم يقوموا ولم يطربوا لضحكهم وزمرهم فصرخوا فيهم ماذا نفعل لكم بكينا فلم تبكوا وضحكنا وزمرنا لكم فلم تطربوا وترقصوا فتبا لكم من قوم لا يريدون أن يفهموا. جاءكم «يحيى» زاهدا صواما لا يأكل خبزا فقلتم مجنون به مس من الشيطان وجاءكم «إبن الانسان» يأكل ويشرب معكم فقلتم رجل خاطيء أكول وشريب يصاحب الخطاة والعشارين. »

وأخبره تلاميذه الواقفون بجواره أن أمه وأخوته على الباب يطلبونه ولكنهم لشدة الزحام لا يستطيعون الوصول إليه فقال لهم «من أمى» ؟

«ومن أخوتى» ؟

وأشار إلى الجمع المحتشد الذى جاء ليسمع منه كلمة الله ويطلب الهداية «هؤلاء هم أمى وأخوتى. إن من يطيع الله هو أمى وأخى وأختى (٢٩٨) واندفع إليه مقتحما الجمع المتزاحم «يايروس» رئيس المجمع وخر عند قدمى «المسيح» باكيا ثم رفع وجهه متضرعاً إلى

السيد «المسيح» بصوت تخنقه العبرات «يا سيد أدركنى فإن إبنتى على آخر نَفَس ولقد عجز الأطباء عن علاجها فتحنن على أيها السيد العظيم» (٢٩٩)

كان هذا هو أبلغ إعتذار «للمسيح» من الرجل الذى حاول إهانته فى الصباح وأتهمه بتدنيس السبت لأنه أبرأ المرأة التى كانت تسير على أربع منحنية الظهر.

وتحنن «المسيح» عليه وقال «آتى معك لأصلى من أجلها» لكن الزحام حوله كان شديداً فتعسر عليه الخروج فقد أسرع إليه الجميع كلٌ يريد أن يسأله الشفاء ومدت أمرأة يدها من بين الأجساد المتزاحمة حوله فمست ثوبه وأحس «المسيح» بمن يلمسه فى ظهره فالتفت وقال «من لمسنى» ؟.

وصمت الجميع ولم يجبه أحد فكرر «من لمسنى» ؟ «من لمسنى» ؟.

فقال له التلاميذ الذين معه «يا معلم الجميع يزحمونك ويتدافعون نحوك وأنت تقول من لمسنى» ولكنه لم يلتفت إلى ما قالوا وظل واقفا ينتظر إجابة عن سؤاله فلما رأت المرأة أنها لم تستطع أن تتخفى أقبلت نحوه وهى ترتعد من الخوف والحياء قالت وألفاظها تتعثر على لسانها: « يانبى الله لقد أيقنت أن الله قد سلطك على كل مرض وأنا مريضة منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة وأحمر وجهها من الخجل - وخفت صوتها وهى تقول «أعانى نزيفا لا ينقطع» ثم واصلت «ولقد أنفقت كل مالى على الأطباء دون فائدة. لم أنتفع منهم بشىء فلما سمعت بك جئتك لعلى أظفر بالشفاء فلما رأيتك آمنت أنى سَأُشْفَى لكنى لم أستطع أن أصل إليك من الزحام وعلمت أنك الآن ستذهب فأسرعت نحوك وقلت لنفسى لو أن الله مكننى من أن ألمس ثوبك سأشفى وغلبها البكاء على أمرها وبكى «المسيح» لبكائها وقال لها «إذهبى يا أمرأة فإن إيمانك قد شفاك».

فذهبت المرأة والجميع ينظرون إليها ويتعجبون وجاء الخدم من عند بيت «يايروس» وأخبروه أن البنت قد ماتت فلا داعى لأن تتعب «المعلم» فقد حل القضاء وفات الوقت.

فتهاوى الرجل على الأرض باكيا وتعالى نحيبه ثم غاب وعيه فانحنى إليه «المسيح» وربت على كتفه فأفاق وأقامه وهو يقول له «ثق يا رجل فإن الصبية ستقوم. إنها فقط نائمة وسأذهب لأوقظها» «لقد أتعبها المرض وستتعافى منه بإذن الله». ارتسمت على وجوه الخدم الذى جاءوا من بيت رئيس المجمع ضحكات السخرية من هذا «المعلم» الذى يدعى علم الغيب ويقول أن الله يعلّمه وهو لا يستطيع أن يدرك أن البنت قد ماتت بالفعل وأن النسوة هناك يصرخن ويلطمن الخدود عليها لكن «يايروس» صدق ما قال «المسيح» فقام وسار معه وهو يجر ساقيه اللتين لا تكادان تستطيعان حمله والخدم من وراءهما يتبادلان الهمسات المستهزئة والنظرات الساخرة من هذا «المعلم» «الأفاق» الذى سوف يصطدم بعد خطوات قليلة بالموت وجها لوجه فماذا يفعل معه ؟

عندما اقتربوا من بيت رئيس المجمع كان بوسع الجميع أن يسمعوا صياح النسوة وهن ينحن على الصغيرة التى ذهبت مسرعة بلا عودة إلى الأبد. تقدم «المسيح» ومعه بطرس ويعقوب ويحيى ابنا زبدى ولم يسمح لأحد بالدخول إلى الغرفة إلا أم الطفلة وأباها. .

إقترب من جثمان الصبية الذى يرقد فى إسترخاء بلا حراك على السرير. كان وجهها البرىء ساكنا وقد ثبتت عليه إلى الأبد دهشة غريبة وعيناها المتسعتان قد جمدتا على نظرة شاخصة إلى «الروح» الصاعد إلى صاحبه. إقترب «المسيح» وانحنى إليها وهو يهمس بكلمات لم يسمعها أحد فقبلها بين عينيها فعاد «الروح» لينزل فى الجسد وأرتعشت العينان كأنهما تحتضنان «الروح» العائد وأمسك «المسيح» بيد الصبية وقال بصوت ملأه الفرح «ياصبية أقول لك باسم الله قومى» فانتبهت ونهضت لتجلس فى السرير وعيناها تدوران فى أرجاء الغرفة حتى استقرتا على وجه «المسيح» الذى كان يزداد تألقا وأطلقت الأم صيحة الفرح وهوت عند قدمي «المسيح» تقبلهما وعيناها تفيضان وأسرع «المسيح» يخرج من الغرفة وهو يقول لأبيها «إعطوها لتأكل فإنها الآن جائعة» وهرول وراءه تلاميذه وأندفع الناس المنتظرون فى الخارج ليملأوا الغرفة ويشهدوا آية عودة الروح وقيامة الأموات .

تذكر «المسيح» أن أمه كانت تريده فأسرع إليها فوجدها تبكى عند جثمان «يوسف» زوجها الذى غادر البيت عائدا إلى ربه فى رحلة الأبد فقبل وجه الرجل الذى أحبه أكثر من أبنائه الذين من صلبه وجلس يبكى مع أمه على الرجل التقى الذى رحل .

لكن «عيسى» لم يستطع أن يمكث بجواره أمه لأن كثيراً من رسله عادوا إليه ليخبروه بما صنعوا فاستأذن أمه وخرج ولم يستطع أن يمكث فى بيت «متى» لأن الجموع الكثيرة التى ظلت تتوافد عليه خاصة بعد ذيوع نبأ إحياء بنت رئيس المجمع حالت بينه وبين الجلوس مع رسله ليسمع منهم وينظر كيف تصرفوا فأسر إليهم أن يخرجوا من الناصرة ويسبقوه إلى «بيت صيدا» على بحر الجليل وتزود الرسل العائدون للطريق وخرجوا سرا لينتظروه فى مكان منعزل ثم انسل «المسيح» من الناصرة بعد ما صرف الجموع التى احتشدت حوله وشق طريقه متخفيا ليلتقى برسله .

لقد إنتهى رجال الهيكل إلى أن الطريقة المثلى للخلاص من «عيسى» و «يحيى» هى تأكيد مزاعمهم أن المدعو «عيسى الناصرى» يعمل على إعلان نفسه ملكا لليهود ويدعو إلى خلاص الشعب من الخضوع للسلطة الرومانية وأن قريبه «يحيى» يساعده وذلك بإثارة القلاقل الإضطرابات خاصة فى «أورشاليم» عن طريق جررسل «عيسى» وأتباعه الذين أظهروا إيمانهم به إلى إبداء رأيهم فى آلهة «الرومان» وسيندفع «المتحمسون» إلى سباب آلهة الرومان وتحقيرها وسيجدون من كلام «عيسى» ما يؤيد هذا السباب ثم ينقلبون إلى الحديث عن خطيئة الرضى بخضوع «شعب الله» لقوم كافرين يعبدون الأصنام وبهذا يتهيأ الجو للتحرش بالجنود الرومانيين الذين لن يقصروا فى الدفاع عن مجد آلهتهم وهيبه «القيصر» الذى يحكمون بإسمه. وأندلعت الاضطرابات فى أورشاليم ، وذهب رجال الهيكل إلى «بيلاطس» يقولون له ها هو الرجل الذى ظللنا نحذركم منذ وقت طويل من خطورته هاهم رسله وأتباعه يدعون الشعب للثورة على سلطة روما ولا بد أن تفعل شيئا لتحفظ النظام وتبرهن على ولائك للجالس على العرش فى «روما المقدسة» وهكذا إندفع بيلاطس

يُظْهِر قدرته على البطش بكل من تسول له نفسه الخروج على سلطة «روما» وأبدى فى ذلك قسوة غير معتادة منه لأن كبير الكهنة وشيوخ الفريسيين ألحوا إلى إضطرارهم لإبلاغ «روما» بما حدث فى «أورشاليم». بهذا التحول حقق رجال الهيكل أول خطوة فى طريق نجاحهم في التخلص من «عيسى» إذ أقنعوا «بيلاطس» بمشاركتهم فى المعركة ضد «ملك اليهود» المنتظر وبالنسبة «لهيرودوس» رئيس الجليل فقد كان تدبيرهم أن يجروا الناس للحديث عن مباذل «هيرودوس» وإستهانته الفظيعة بشريعة الله وتقاليد الآباء المقدسة وكان الناس فى كل مكان فى الجليل يتحدثون بالفعل فى هذا ولكن المطلوب هو أن تعلو هذه الأصوات التى تتحدث عن خروج رئيس الجليل على شريعة الله وإحتقاره لتقاليد الشعب حتى تصل إلى سمع «هيرودوس» بإستمرار عن طريق جواسيسه ولا بأس من تشجيع هؤلاء «الهيرودوسيين» على الإفاضة والمبالغة فى تصوير الأمر للحاكم الذى يطمع فى إسترداد عرش أبيه وهكذا وجد «يحيى» نفسه مضطراً للإجابة عن سؤال ظل يطارده فى كل مكان ينزل فيه «ما حكم الشريعة فيما يفعله «هيرودوس» حيث يعاشر أمرأة أخيه معاشر ة الأزواج وهى تقيم علنا فى قصره هى وإبنتها التى يقال أنه يطمع فى الزواج بها رغم أنه عمها ؟ »

ثم يساق الحديث إلى صلاحية «هيرودوس» لمقام الحكم ثم يبلغ «الرئيس» بكل شيء أولا بأول حتى شعر كل من «هيرودوس» وهيروديا » بخطورة الرجل على مستقبلهما بل على حياتهما وذهب «يحيى بن زكريا» إلى الناصرة ليقوم بتعزية «مريم» فى وفاة زوجها وكانت الخطة أن يتم إستدراج الرجلين «يحيى» و «عيسى» للكلام عن «هيرودوس» فى حضور جواسيسه وجنوده فيتم القبض على الرجلين ويتخلص رجال الهيكل من العدو الذى يهدد مكانتهم وينذر بزوال سلطانهم لكن «عيسى» لم يكن فى الناصرة عند قدوم «يحيى» إذ خرج سرا ليقابل رسله فتم القبض على «يحيى» وحده وأودع السجن. لقد فر الناس الذين تجمعوا حول «يحيى» حين جاء جنود «هيرودوس» ليمسكوا به. أسرع كل

واحد منهم إلى بيته وأهله وأغلق عليه بابه تاركا «النبى» فى قبضة أعدائه. ربما بكى عليه بعضهم سرا داخل الغرف المغلقة ولكن أكثر الناس ارتدوا عن إيمانهم به إذ رأوا فى هزيمته أمام جنود «هيرودوس» دليلا يؤكد كذبه «لو كان حقا نبيا مرسلا من الله لأنتصر على أعدائه». زال إيمان الشعب بنبوة «يحيى زكريا» فى لحظة واحدة عندما داهمه جنود «هيرودوس». وجاءت ليلة الإحتفال بيوم ميلاد «هيرودوس» وكان قد أعد لذلك اليوم «العظيم» حفلا هائلا دعا إليه كثيرا من أهل النفوذ وأصحاب القرار في «روما المقدسة» ليريهم أنه حقا جدير بلقب «الملك» وجاءت المفاجأة المذهلة من الفاتنة «سالومى» إذ وعدت «الملك» أن ترقص في الحفل رقصة تخلب بها ألباب ضيوفه العظماء القادمين من «روما» وأن تهب له نفسها شريطة أن يابى لها كل ما تطلب فوعدها وأقسم لها بشرفه أنه يعطيها لها كل ما تطلب إن أوفت بوعدها .

ورقصت «سالومى» عارية لا يكاد يغطى جسدها البديع إلا غلالة شفافة حمراء اللون تكشف مفاتنها وتزيدها سحرا .

وكانت الخمر قد لعبت برأس «هيرودوس» إذ أخذ يعب منها وهو يمنى نفسه بليلة لا تنسى مع معبودته «سالومى» وكان جسدها البديع وهو يهتز ويتثنى على أنغام الموسيقى أقوى من كل خمر فلم يتمالك «هيرودوس» نفسه وهو يلتهم بعينيه الشاخصتين «الفتنة» التى لا تقاوم. قال لها وهى تقترب منه في دلال «بماذا تأمرني ياآلهى» قالت «أريد رأس يحيى بن زكريا على طبق» (٣٠٠)

وصدمه الطلب حتى أوشك أن يفيق لكنها اقتربت منه أكثر وأسكره قربها وهو يمعن النظر إلى جسدها وهو يتموج فصرخ بأعلى صوته ليميت ما بقي من همس ضميره

«فلتأتوا برأس «يحيى بن زكريا» على طبق» .

واضطرب الحفل. أسرعت «سالومى» تدخل غرفتها حيث كانت أمها فى أنتظارها

فقبلتها مهنئة وأسرع الجنود إلى السجن حيث وجدوا «يحيى بن زكريا» ساجدا على الارض يناجي ربه فسهَّل لهم سُجُودُه ذبحه فهوى أحد الجنود بالسيف على عنقه فسقطت الرأس الشامخة التي لم تسجد إلا لله واندفعت الدماء الزكية فاختطف جندى آخر الرأس المقطوعة وأسرع إلى «هيرو دوس» حيث قدمها له كما أمر على طبق ولكنه لم يطق النظر إليه فاغمض عينيه والتفت بعيدا وقال «اذهبوا به» فذهب الجنود الى «سالومى» وأمها فتعالت ضحكاتهما ثم أمرت «هيروديا» بإعادتها إلى جسده الملقى على الأرض فى أحد غرف السجن المظلمة (٣٠١).

أما ضيوف «هيرودوس» فقد أفزعتهم تلك الرأس المقطوعة والجنود يدخلون بها إلى القاعة يحملونها علي طبق. كانت قسوة بشعة لا نظير لها فاحتج بعضهم وتذمر آخرون وانتهى الاحتفال البهيج أسوأ نهاية وظل «هيرودوس» جالسا على كرسيه مذهولا ساهم النظرات شارد الفكر لا يعرف بالضبط ما الذى حدث ؟ !

كان «المسيح» يجلس مع رسله يسألهم. قال لهم «أخبرونى ماذا صنع الله بكم ؟» قالوا : «يا معلم لقد أبرأنا عددا لا يحصى من المرضى وأخرجنا شياطين كثيرين كانوا يعذبون الناس (٣٠٢)

قال : «يغفر الله لى ولكم يا أخوتى من الخطأ أن نقول أبرأنا وأخرجنا لأن الله هو الذى فعل ذلك كله وليس لنا من فضل إلا أن وهبنا أن نكون شهودا عليه» .

قالوا: «لقد تكلمنا بغباوة فاغفر لنا وعلمنا كيف نتكلم قال : يغفر الله لنا جميعا، فى كل عمل صالح يجب أن تقول صنع الله كذا وفى كل عمل ردىء ينبغى أن تقول صنعت كذا إذ أخطأت فعملت كذا ».

ثم قال : «ماذا يقول الشعب عنى الآن وقد رأوا أن الله يصنع كل هذه الآيات على أيديكم كما صنع على يدى» ؟ قالوا يقولون «إنك نبى مرسل من الله» قال وقد تهلل وجهه

«الحمد لله القدوس الذي لم يحتقر طلب عبده» وقال بعضهم فى فرح «يا معلم لقد رأينا الشياطين تخضع لنا بإسمك» .

فقال لهم: «يمكنكم أن تأخذوا من الله سلطاناً أكبر من هذا حتى أنكم تدوسون الحيات والعقارب وكل جنود الشياطين ولا يضركم شيء ولكن لا تفرحوا بهذا بل يجب أن تفرحوا إنْ كُتِبتْ أسماؤكم فى سفْر الحياة» .

إنهم إذن لم يتحدثوا عن التوبة ولم يذكروا التبشير بالملكوت فأين الرسالة التى بُعِثُوا من أجلها إلى بنى أسرائيل ؟!. لكن الناس خرجوا يبحثون عن المسيح فى كل مكان كانوا كغنم لاراع لها حتى عثروا عليه جالسا مع رسله فى مكان خال فاتجهوا إليه يطلبون شفاء مرضاهم جم غفير من المرضى مع ذويهم صاروا يأتون إليه ويمكثون عنده. ومالت الشمس إلى الغروب وكان الطعام قد نفد فقال له التلاميذ إصرف الجموع إلى القرى والمدن لعلهم يبتاعون طعاما قبل هبوط الليل .

قال : «ولكنهم مكثوا معنا ثلاثة أيام وأخشى أن أصرفهم الآن وهم جائعون – فتخور قواهم ومعهم اطفالهم فيهلكون» .

«أعطوهم أنتم ليأكلوا ؟»

قالوا «ليس معنا طعام»

قال «أليس معكم شيء»

قالوا «ليس إلاسبعة أرغفة وبعض الأسماك الصغيرة» ؟

قال : «فأتونى بما معكم من طعام وَأجلِسوا الناس فى جماعات» فأحضروا السبعة أرغفة والأسماك الصغيرة فشكر الله ثم بارك الطعام بيده وأخذ يعطى التلاميذ ليناولوا الناس حتى أكل الجمع كله وبقيت أرغفة تملاء سبعة سلال فأمر تلاميذه أن يجمعوها(٣٠٣) رغم أن «هيرودوس» حاول قدر جهده أن يتكتم نبأ ذبح «يحيى بن زكريا» فأمر جنوده

بدفنه سرا وأوصى رجاله بالإنتباه والحزم للقضاء على أى فتنة فى مهدها قبل أن تستفحل وزاد من الحراسة حول قصره وأمر كلا من «هيروديا» وأبنتها «سالومى» أن تختفيا من الجليل كله والأفضل أن تعودا إلى «فيليبُس» فى بادية الشام حتى لا يهيج بقاؤهما فى قصره غضب الشعب الذى كان يحترم «يحيى» ويعده بمثابة نبى إن لم يكن نبيا مرسلاً من الله رغم كل ذلك فقد أنتشر خبر ذبح «يحيى» فى السجن فى كل القرى والمدن وعرف به «المسيح» ورسله فأصاب الرسل فزع رهيب لهذه النهاية القاسية التى أنتهت بها حياة «يحيى». خافوا أن يصيبهم مثل ما أصابه وشعروا بخطورة صحبتهم «للمسيح» وبدأت الرغبة فى التخلص من الإنتماء إليه تجتاح قلوبهم حتى أنهم نسوا أن يحملوا معهم خبزا فذهبوا الى الشاطىء ينتظرونه علي مضض إذ وعدهم أن يلحق بهم بعد أن يصرف الجموع التى أتت إليه زاحفة من كل القرى والمدن .

عادت الحيرة لتعصف بقلوبهم من جديد والخوف من المستقبل المجهول والمصير الغامض الذى ينتظرهم عاد ليملأ قلوبهم بالأضطراب .

الى أين سنذهب مع هذا «المعلم» الغريب الذى لا يكف عن الترحال ؟ تُرى ماذا يخبىء لنا القدر فى قبضته ؟. لمَّا صعد إلى السفينة معهم قال لهم «انتبهوا وتحرزوا من خمير الفريسيين وخمير الصدوقيين وهيرودوس. (٣٠٤)

لقد نسوا أن يأخذوا خبزا معهم وحزنوا لذلك فقالوا فى أنفسهم «عن أى خمير يتكلم. إننا نسينا أن نحضر خبزا معنا». ولم يفهموا فقال لهم «يا قليلى الإيمان لماذا تحزنون لأنكم نسيتم أن تأخذوا خبزا معكم» .

«ألاَ تذكرون كم أطعمت خمسة أرغفة وكم قفه أخذتم .»

«ألاَ تذكرون كم أطعمت سبعة أرغفة وكم سلة ملأتم .»

«أحتى الآن لم تفهموا عن أى خبز أتكلم ؟ ما أغلظ قلوبكم. لكم أعين ولا تبصرون

ولكم آذان ولا تسمعون. خمير الفريسيين هو الرياء وخمير الصدوقيين وهيرودوس هو حب الدنيا.» وشعروا بالإهانة لتوبيخه وأطبق عليهم الصمت وهم صاغرون. كانوا يعانون من عجزهم عن فهمه والخوف من المصير المجهول يبدد أفكارهم .

لقد أدرك «المسيح» أن رجال الهيكل قد أعلنوا الحرب عليه فهاهم قد سعوا إلى قتل «يحيى» كما قتلوا أباه من قبل ولابد أنهم يسعون الآن لتدبير التخلص منه. إنهم العقبة الكؤود التي تحول بين الناس وبين «الإيمان» ولا بد من إزالتها . فى هذه اللحظة عزم «المسيح» على أن يجوب قرى ومدن بنى اسرائيل بنفسه وبصحبته من يبقى معه من تلاميذه ورسله.

إن رجال الهيكل لن يهدأوا إلا بعد أن يتمكنوا من إبطال رسالته وإخراس صوته إلى الأبد ولا بد من المواجهة. لقد صارت الحرب بينه وبين رجال الهيكل أمرا لا مفر منه. هؤلاء التلاميذ والرسل لم يستطيعوا رغم طول صحبتهم له وكثرة ما قاله وأفاض فى شرحه لم يستطيعوا أن يفهموه ولا أن يدركوا معنى رسالته. لابد أن يسير بنفسه إلى الشعب فى كل مكان من أطراف الجليل وحتى أقصى جنوب اليهودية وفى أورشاليم نفسها ليقول للشعب من هو ولماذا جاء إلى الدنيا. إنّ من أكلوا معه وشربوا وساروا معه واستمعوا إلى كلمة الله من فمه لم يعرفوه حتى الآن ولم يؤمنوا به ولم يعرفوا لماذا أرسله الله الى الدنيا لقد بهرتهم «معجزات الشفاء» وإحياء الموتى وأعجبتهم فصاحته وقدرته التى لا نظير لها على فهم كلام الله وعلى إفحام خصومه إذ لم يستطع واحد منهم مجاراته أو الثبات فى مجادلته ولكن ماذا بعد هذا ؟! لا شيء بل ربما جعلوا منه صنما وما أسوأه من مصير .

عليه أن يبدأ رحلة جديدة مرة أخرى، رحلة طويلة تنتهى فى «أورشاليم» ليقوض سلطة رجال الهيكل إلى الأبد ويحرر «المعبد» من السوق الخبيثة التى ابتلعته فى باطنها

المظلم. هذا ما انتهى إليه «المسيح» وهو جالس فى السفينة الصغيرة التى تسبح فى بحر الجليل منفردا بنفسه مبتعدا عن رسله وتلاميذه الذين تجمعوا على الجانب الآخر وقد أطبقت عليهم الحيرة وأغرقهم الإضطراب ينظرون الى ذلك المعلم الغريب الذى يحدق فى الماء وقد بدا لهم أنه يبتعد عنهم بُعْدَ تلك السماء التى لا يستطيعون الوصول إليها عن هذه الأرض التى تركوها وما عادوا يقدرون على الرجوع إليها .

وأشار إليهم أن يتجهوا إلى «كفر ناحوم» .

كان «المسيح» يسير مطرقا صامتا وقد علت الكآبة وجهه ومن معه من التلاميذ والرسل يسيرون على مسافة منه ويتبادلون النظر والهمس يتساءلون عن سر حزنه ويتلاومون كل منهم يدعى أن غيره هو سبب غضب «المعلم» عليهم وتطور اللوم الهامس إلى سباب ومشاجرة ولم يلتفت إليهم «المسيح» بل ظل يواصل سيره إلى «المجمع» فى كفر ناحوم .

عندما دخل المجمع وأتباعه من ورائه بوغت الناس به وأفصحت وجوههم ونظرة الفزع فى عيونهم عن رغبتهم فى إبعاده عن قريتهم الصغيرة التى كانت مسكنا لعدد من كبار الضباط الرومانيين وكان نبأ ذبح «يحيى بن زكريا» قريب «عيسى الناصرى» قد انتشر فى كل القرى وتهديدات «هيرودوس» بقتل كل من يثير الأضطراب تملأ قلوبهم بالخوف .

لقد هموا بالإنصراف مسرعين تاركين المجمع ليهربوا إلى بيوتهم ويغلقوا عليهم أبوابهم .

قال لهم «المسيح» : «أيها المتعبون بالأحمال الثقيلة تعالوا إلىَّ لأضع عنكم الأحمال التى تثقلكم. تعالوا إلىَّ وستجدون راحة نفوسكم فإننى وديع ومتواضع. تعالوا إلى لتتعلموا منى إحملوا نيرى بدلا من أوزاركم فإن نيرى هين وحملى خفيف (٣٠٥).

لكن القوم لم يسمعوا له وأسرعوا يخرجون وقد أخذ كل رجل ينادى على أهله

وأطفاله ويأمرهم بالإسراع إلى البيت واندفع رجال منهم يقولون له «ما الذين جاء بك إلى قريتنا. إبتعد عنا أيها الغريب. إننا لا نريدك ولا نريد المتاعب أخرج من قريتنا». لم يبق إلاّ الأطفال الذى اندفعوا نحو «المسيح» يريدون تقبيله ومصافحته فأخذ أتباع «المسيح» ينتهرونهم ويأمرونهم أن يبتعدوا عن «المعلم» ولا يزعجوه فانتهر «المسيح» تلاميذه قائلا «دعوا الأطفال يأتون إليَّ ولا تمنعوهم عنى (٣٠٦) فلمثل هولاء يعطى الله ملكوته» .

«الحق أقول لكم إنكم لن تظفروا بملكوت الله حتى ترجعوا أطفالا فمن لا يُقْبِل على ملكوت الله كطفل يهرول إلى أبيه العائد إليه بعد غياب طويل فلن يظفر به» .

وراح يضع يده على الأطفال الذين كانوا يتجمعون حوله ويلتصقون به ويقبلهم وقال لتلاميذه ورسله الذين كانوا ينظرون فى دهشة «انتبهوا لا تحتقروا واحداً من هؤلاء الصغار الذين آمنوا بى لأنى أقول لكم إن حراسهم من الملائكة فى السموات ينتظرون أمر الله إن أصابهم أحد بمكروه». (٣٠٧)

«الحق أقول لكم إن من أعثر واحدا من هؤلاء الصغار المؤمنين بى كان من الخير له لو علق فى عنقه حجر الرحى أو أغرق فى لجة البحر من أن يعثر طفلا صغيرا من هؤلاء. من أجلهم يمهل الله الدنيا لكى تتوب» .

«بماذا كنتم تتكلمون فى الطريق ؟» (٣٠٨)

«أكنتم تتشاجرون أيكم أعظم ؟»

وأخذ «المسيح» طفلاً صغيرا كان يقف شاخص العينين مشدوها ينظر الى «المسيح» فقبله وأقامه وسطهم وقال موبخا لهم :

«لو أننى أرسلت طفلا كهذا فمن قبله فإنما يقبلنى ومن يقبلنى فإنما يقبل الذى أرسلنى. من وضع نفسه مثل هذا الطفل فهو الأعظم عند الله» .

ثم قال : «لك الحمد يارب السموات والأرض لأنك أظهرت حقيقتى للأطفال وأخفيتها عن الذين يزعمون أنفسهم حكماء وفهماء هكذا أقتضت حكمتك (٣٠٩) .

ثم تقدم وخرج من المجمع واتجه إلى الشاطىء يريد ركوب السفينة فأسرع إليه واحد من الأثرياء كان يهرول نحوه ليدركه ثم توقف وهو يلهث أمامه. قال بصوت متقطع «يا معلم» ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟»

قال «المسيح»: «إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا»(٣١٠)

قال الرجل الغنى : «أية وصايا .»

قال «المسيح» : «ألاَّ تعرف الوصايا لا تقتل .لا تزن . لا تسرق . لا تشهد الزور . أكرم أباك وأمك وصايا موسى".

قال الغنى وقد بدا عليه الإستخفاف بما قاله «المسيح» : «هذه كلها قد حفظتها منذ حداثتى»

فنظر إليه «المسيح» نظرة متفحصة ثم قال له : إن أردتَ أن تدخل الحياة وتكون كاملا فإنه يعوزك شىء ؟ »

قال الرجل : «ما هو ؟ »

قال : «إذهب فبع كل أملاكك ووزعها على الفقراء والمحتاجين وتعالى لتتبعنى وثق أنه سيكون لك كنز فى السماء خير لك من كل ما بعته"».

فاغتم الرجل وبدت على وجه الكآبة وأطرق الى الأرض ثم انسحب راجعا إلى بيته فقال المسيح لمن معه

«ما أعسر دخول الأغنياء إلى الجنة» .

«إن مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من دخول غنى إلى الملكوت» .

فاغتم كل الذين سمعوا «المسيح» وصاح بعضهم «فمن الذى يستطيع إذن أن ينجو»؟

قال «المسيح»

«لا يوجد شىء غير مستطاع لله فما يظنه الناس عسيرا غير مستطاع يكون يسيرا على قدرة الله القادر على كل شىء» .

«يا أبنائى ما أعسر دخول المتكلين على أموالهم إلى ملكوت الله»

«كان إنسان غنى له حقول وبساتين فاختار واحداً ليكون وكيلا له فى أملاكه. لكن أحد الأشرار الذين يحسدون الوكيل وشى به عند «السيد» متهما أياه بأنه يبذر أموال سيده فغضب «السيد» على وكيله وأرسل إليه ينذره بأن يسلم المفاتيح والأوراق للعبد الذى سوف يرسله لأنه قد أنهى وكالته إذ علم أنه غير أمين على أملاك سيده .

ففزع الوكيل وأخذته الحيرة ماذا يفعل الآن ؟

لقد قرر «السيد» أن يأخذ منه الوكالة وليس له ما يعيش به بعد طرده لأنه لم يدخر لنفسه شيئا .

إنه لايستطيع أن يتحول إلى لص يقتحم المنازل ، كما أنه لا يستطيع أن يجلس فى القرية يسأل الفلاحين الصدقة وهو الذى كان بمثابة السيد الذى يحكمهم بإسم سيده صاحب الأملاك فماذا يفعل ليعيش بعد طرده من الوكالة؟!

وبعد حيرة شديدة هداه تفكيره العميق إلى الحيلة التى يخرج بها من الورطة التى وقع فيها بسبب وشاية الخبيث .

استدعى المزارعين الواحد بعد الآخر وأعطى كل واحد صك دينه الذى للسيد صاحب الأملاك فقال للأول كم عليك لسيدى ؟

قال المدين الأول مائة .

قال : خذ صكك وأكتب خمسين .

ففعل المدين وهو يشكر للسيد الوكيل حسن صنيعه إليه .

وقال للثانى ماذا عليك لسيدى ؟

قال : مائة جوال من القمح

قال : فخذ الصك وأكتب ثمانين .

وهكذا فعل مع كل المدينين لسيّده فشكروا له رحمته بهم وقال فى نفسه والآن إن أرسل إليّ السيد ليطردنى من الوكالة أمكننى أن أنزل ضيفاً على أهل القرية كلهم لأننى أحسنت إلى الجميع يمكننى أن أجد الطعام والمأوى دائما لدى واحد منهم لأن الجميع سوف يقبلوننى فى بيوتهم لأننى أحسنت اليهم .

ثم جاء «السيد» صاحب الأملاك بنفسه ليستطلع الأمر فوجد أن أهل القرية مسرورين به وبوكيله لأنه رفع عن كاهلهم بعض أثقالهم وظنوا أنه فعل ذلك بأمر سيده.

وفكر «السيد» صاحب الأملاك فى أنه لو طرد وكيله الذى يحبه أهل القرية فربما لا يجد من هو أفضل منه فبالرغم من عيوبه الكثيرة إلاّ أنه أفضل من غيره فأمر «السيد» صاحب الأملاك وكيله بالبقاء فى وكالته لأن أهل القرية يحبونه ولا شك أن ذلك ييسر العمل فى المزارع ومدحه على حسن صنيعه وحبطت وشاية الحاقد وخرج الوكيل من الورطة التى وقع فيها .

وأنا أقول لكم أصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم الذى معكم حتى إذا جاءكم الفناء وأوشكتم علي الهلاك وجدتم من يقبلكم في المظال الأبدية أم أن أهل الدنيا يظنون أنفسهم أكثر حكمة من أبناء النور فى جيلهم »(٣١١) .

وركبوا السفينة ليبتعدوا عن كفر ناحوم .

بعد تردد شديد قال «بطرس» «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا سيكون لنا؟! وما هو مصيرنا ؟ (٣١٢) .

قال «المسيح» وقد أفصح صوته عن الأسف «كل من ترك شيئا من هذه الدنيا في سبيل الله مبتغيا وجهه فسوف يأخذ من الله مئة ضعف بل أضعافا مضاعفة ثم في الآخره يرث الحياة الأبدية» .

«من ترك أمرأته أو أبناءه أو حقوله أو أملاكه أو أمه أو أباه أو أخوته أو اصدقائه من أجل التبشير فسوف يعوضه الله بأفضل مما ترك من أجل الله في هذه الدنيا وفي الدهر الآتي ولكن الأولين آخرون والآخرين أولون فإن ملكوت الله يشبه رجلاً رب بيت له حقل فخرج في الصباح ليستأجر فعلة للعمل في حقله .

فاتفق مع الفعلة الذين قابلهم في الساعة الأولى على دينار في اليوم ثم أرسلهم إلى الحقل للعمل .

ثم خرج في الساعة الثالثة ورأى قوما آخرين واقفين في السوق بطالين بلا عمل فأمرهم بالذهاب إلى الحقل على أن يعطيهم ما يحق لهم كما اتفق معهم وخرج في الساعة السادسة ثم التاسعة وفعل أيضا نفس الشيء فلما أقبلت الساعة الحادية عشرة وأوشك النهار على الإنصرام خرج فوجد قوما بطالين في السوق فقال لهم .

لماذا وقفتم النهار كله هكذا بلا عمل .

قالوا له «لأنه لم يستأجرنا أحد» فقال لهم إذن أسرعوا بالذهاب إلى الحقل لتعملوا قبل أن تغيب الشمس وستأخذون ما يحق لكم أجر يوم فقبلوا وأسرعوا فلما غابت الشمس وجاء الليل أرسل صاحب الحقل إلى وكيله وقال له أدع الفعلة ليأخذوا أجرتهم على أن

تبدأ من الآخرين إلى الأولين فدعا الوكيل أصحاب الساعة الحادية عشرة وأعطى كل واحد منهم ديناراً كما اتفق معهم وطفق يدعو الفعلة ويعطى كل واحد ديناراً حتى جاء أصحاب الساعة الأولى الذين عملوا أكثر من غيرهم فظنوا أنهم سيأخذون أجراً أكبر لكنهم أُعْطوا كل واحد منهم دينارا فتذمروا واحتجوا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخرين لم يعلموا إلا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا نحن الذين عملنا من أول النهار وأحتملنا المشقة اليوم كله .

فاختار واحدا منهم ليكلمه وقال له ياصاحب ما ظلمتك ألم اتفق معك على دينار واحد فى اليومْ وها أنذا قد وفيت فخذ ما أتيتك واذهب لأننى أريد أن أعطى غيرك أيضا مثلما أعطيتك ولكن الأجير تذمر فغضب رب البيت عليه قائلا أوَلا يحل لى أن أفعل بمالى ما أريد أتغضب لأننى رحيم إذن فإن عينك شريرة لأننى لم أخطىء .

وكذلكم يكون الآخرون أولين والأولون آخرين فإن الكثيرين يدعون ولكن الذين يُخْتَارون قليلون»(٣١٣) وعاد إلى بيت صيدا حيث رفض الناس أن يستقبلوه وطلبوا منه أن يبتعد عن قريتهم ولم يقبله إلاّ رجل أعمى مع أهله جاءوا إليه طلبا لشفائه فأخذ بيد الأعمى وسار به إلى خارج القرية ثم تفل فى عينه ووضع يديه عليهما ثم رفعهما وقال له هل تبصر شيئا فأخذ الرجل يتطلع إلى الأشياء بعينيه شاخصتين وقال أرى كأن الناس أشجار تتحرك فأخذه وتفل فى عينه مرة اخرى ووضع يديه عليهما ثم قال له هل ترى شيئافقال نعم : أبصر كل شيء جيدا وبوضوح فأرسله ليعود الى بيته (٣١٤)

وترك السفينة واتجه إلى «كورزين» حيث طرده الناس ولم يسمحوا له بدخول قريتهم فعزم «المسيح» على العودة إلى قريته الناصرة وأخذ يوبخ القرى التى رفضته رغم أنه قد صنع فيها بإذن الله آيات كثيرة ....

«ويل لك ياكورزين» ويل لك يا بيت صيدا فلو صُنِعَت في صور وصيدا قديماً الآيات

التى صنعت فيكما لتابتا ولم يمسسهما العذاب ولكن صور وصيداستكون لهما يوم القيامة حالة أفضل مما لكما .

«وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء بكبريائك ستهبطين إلى الهاوية فلو صُنِعَت في ثمود الآيات التى خُلِقت فيك لما هلكت ولبقيت حتى اليوم ولكن الحق أقول لكم أن ثمود ستكون أفضل حالة من كفر ناحوم حين يأتى أوان الحساب أمام الله» (٣١٥).

رجع إلى الناصرة حيث وجد فى انتظاره بقية تلاميذه ورسله الذى أتوا من القرى والمدن ليخبروه عما وقع لهم كما كان ينتظره جمع من الكتبة الفريسيين. كان النقاش محتدما بين أتباع «المسيح» والكتبة حول إخراج الشياطين من جسد الإنسان إذ كان رجل قد أتى بابنه الذى يتلبسه الشيطان وكان قد قدمه إلى تلاميذ «المسيح» ليعالجوه ولكنهم فشلوا وسخر منهم الكتبة القادمون من «أورشاليم» وقالوا لهم «إن معلمكم هو الذى يستطيع وحده إخراج الشياطين لأنه يعمل بقوة رئيس الشياطين الذى يؤيده ولذلك تخضع له الشياطين أما أنتم فلا !!».

وأندلع الجدل ولم يصل الطرفان إلى شيء بل كادوا يشتبكون بالأيدى حينما أقبل «المسيح» فهرول تلاميذه وأتباعه إليه ليرحبوا به ولكنه ظل مكتئبا وأسرع نحوه الرجل والد الشاب الذى فشلوا فى علاجه وجثا على ركبتيه أمام «المسيح» وهو يبكى متضرعا .

قال «أيها «المعلم » العظيم أقدم لك ابنى. إنَّ به شيطان أخرس كثيراً ما ألقاه فى الماء حتى أشرف على الغرق عدة مرات أو يلقى به فى النار حتى أوشك على الهلاك أكثر من مرة. إنه يتلبسه فيتشنج جسده ويرتجف ويتخشب ويصر على أسنانه ويقطع لسانه ويخرج من فمه زبد مخيف. قدمته إلى تلاميذك فلم يستطيعوا أن يخرجوا الشيطان منه ».

قال «المسيح» «أيها الجيل الملتوى غير المؤمن إلى متى أحتملكم إلى متى أبقى معكم قدموه إليَّ (٣١٦) .

فـأندفع الرجل وأهله يسـوقـون الشـاب إلى «المسـيح» وعلى حين فـجـأة أمـسك به الشيطان فأخذ جسده يتلوى وتهاوى على الأرض يتمرغ فى التراب ويجأر بصوت مخيف والزبد يخرج من فمه فقال «المسيح» لأبيه «منذ متى وهو على هذه الحال» ، قال الرجل : «منذ صباه .كان طفلا رائعا لاشىء فيه ثم فجأة بدون سبب وجدناه قد أصيب بما ترى» .

«يا سـيد لقد أوشك على الموت أكثر من مرة لولا رحمة الله التى جعلتنا ننقذه فى اللحظة المناسبة فإن كنت تقدر أن تصنع من أجلنا شيئا فتحنن علينا وأعنا» .

قال «المسيح» : «إن كنت تؤمن أن الله قادر على خلاص إبنك من قبضة الشيطان فإن شـفـاء ابنك مـسـتطاع فكـل شىء مـيـسـور للمؤمن باللـه القـادر على كل شىء» فـبكى الرجل وهو يقول : «أبسبب عدم إيمانى كان هذا ؟»

«الآن يا سيد أؤمن أن الله قادر على كل شىء .»

فقال «المسيح» «أيها الشيطان الأبكم الأصم بإسم الله آمرك. أخرج من هذا الإنسان ولا تعد إليه مرة أخرى» فأندلع من الشاب صراخ شديد وأستولت الرجفة على جسده ثم سكن الجسد كأنه ميت حتى أن جموع الناس التى اندفعت وتزاحمت لترى ما يحدث قالوا «لقد مات .»

لكن «المسيح» إنحنى إلى الشاب وأخذ بيده فأقامه فوقف الشاب هادئا وأخذ يتكلم بألفاظ مفهومة ويسمع ويرى فى وضوح فاستولت الدهشة على الجميع وشخصت أعينهم وهم يسبحون الله وهوى الرجل على يد «المسيح» يقبلها وهو يبكى ثم أخذ غلامه وهرول عائداً.

قال «المسيح» مخاطبا تلاميذه والجمع المحتشد «هل يستطيع العدو أن يدخل بيت القوى الذى تسلح وأن ينهب أمتعته ؟ »

«كلا إلاَّ إذا تمكن من أن يوثق صاحب البيت وأن ينزع منه أسلحته فحينئذ فقط يمكنه أن يدخل وأن ينهب الأمتعة التى يريد .»

«إن الشيطان هو عدو «الإنسان» وهو يريد أن يدخل جسده ليستحوذ على قلبه ولكنه لا يستطيع أن يفعل هذا إلا إذا ربط الإنسان ونزع أسلحته فإذا أُخْرِج الشيطان فإنه يتحرك فى الأماكن القذرة التى ليس فيها ماء يطلب الراحة ولا يجدها فيقول لنفسه لماذا لا أرجع إلى بيتى الذى طردت منه لعلى أجد هناك راحة فيرجع فيجد الإنسان مهيئا لقبوله كبيت أعد لإستقبال الضيوف فيأخذ ذلك الشيطان سبعة شياطين آخرين أكثر منه شرا معه ويدخلون عائدين إلى الإنسان الذى تصير آخرته أسوأ من بدايته كهذا الجيل الملتوى غير المؤمن» ـ وأشار إلى الكتبة القادمين من «أورشاليم» ـ «الذى جاء يطلب آية ولن تعطى له» وبوغت الكتبة بما قال لأنهم بالفعل قد جآءوا من «أورشاليم» موفدين من الهيكل ليطلبوا من «المسيح» أن يعطيهم آية واضحة لاشك فيها على أنه هو «المسيح» المنتظر إذ كان رجال الهيكل يريدون حسم الإختلاف الذى لم يزل يطل رأسه فيما بينهم. قلة قليلة من شيوخ الفريسيين وبعض الكتبة يقولون أنه ربما كان المدعو «عيسى الناصرى» صادقا لعله هو مسيح الله المكتوب عنه فى الأسفار لأن الآيات التى صنعها أكبر من أن يزورها ساحر مهما كانت قدرته وعلمه بنصوص الكتب لا نظير له وفهمه الدقيق لها لا يجارى وكان «يحيى بن زكريا» قبل موته يؤكد ذلك فلكل هذه الأسباب يجب علينا أن نجلس إليه وأن نستمع منه أما الأكثرية من رجال الهيكل فرأت أن «عيسى» ليس إلا ساحراً قديراً أوتى مقدرة عجيبة على خداع الناس والإستحواذ على قلوبهم وأذهانهم وأن بقاءه فى الشعب كارثة على الهيكل حصن شريعة الله وهذا يعنى ضياع شعب الله وفقدان الأمل فى إسترداد مجده فيجب التخلص من المدعو «عيسى الناصرى» لإنقاذ الناس من الضلال الذى ينشره والذى يهدد بفناء الشعب الذى اختاره الله. وحتى يحسم رجال الهيكل خلافهم ويبرىء الذين يريدون هلاك «المسيح» ضميرهم المثقل من «دمه» الذى أوشكوا أن

يصدروا.فتوى بحله اتفقوا على أن يرسلوا إليه وفداً يطلب منه أن يظهر لهم آية لا غموض فيها على أنه هو حقا «المسيح» المنتظر ففاجأهم «المسيح» بعلمه بالغرض الذى جآوا من أجله لكنهم استشاطوا غضبا لأنه أهانهم أمام الشعب وذكر أن آخرتهم ستكون أكثر سوءً من أولا هم فتذمروا وأنصرفوا والغيظ يملأ قلوبهم وكانت هناك أمرأة تراقب ما يحدث فاندفعت تقول بحماسة «الإيمان» «طوبى للبطن التى حملتك والثدين اللذين أرضعاك» فترقرقت عينا «المسيح» بالعبرات وهو يتذكر أمه التى صارت الآن أرملة إنه لم يرها منذ وقت بدا له فى هذه اللحظة دهرا كاملا فقال بصوت يحاول مقاومة البكاء «بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه.»

ولما انفرد تلاميذه به سألوه «لماذا لم نستطع نحن أن نخرجه ؟ »

قال: «لعدم إيمانكم. إن الشيطان قد اتخذ من ذلك الإنسان بيتا فلن تستطيعوا إخراجه منه إلا إذا كنتم أقوى منه إلى حد أنكم تربطونه وتنزعون سلاحه ولا يكون ذلك لكم إلا بالصلاة والصوم إن هذا الجنس من المخلوقات لا يخرج إلا بالصلاة والصوم» قالوا «يا معلم زدنا إيمانا .»

فأجابهم معترضا: «بل لو كان لكم قطرة واحدة بل مثقال ذرة من الإيمان الحقيقى لصار كل شىء لديكم ممكنا كنتم تقولون للجبل قم من مكانك ولا يملك إلاَّ أن يطيعكم فبالايمان ترجع الأشياء جميعا للخضوع للإنسان ولا يصبح ثمة شىء غير ممكن». فبهتوا من كلامه وأطبق عليهم الصمت .

(٢٣)

«الطريق الضيق»

«وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين»

(يوسف ١٠٣)

كان مقتل «يحيى بن زكريا» قريب «المسيح» وأكبر مؤيديه نقطه التحول في الدعوة المسيحية اذ أدرك «المسيح» بحق أنه بمثابة تأكيد دموى من رجال الهيكل أنهم مصرون على موقفهم وأنهم لا يتورعون عن شىء فى سبيل المحافظة على مصالحهم الدنيوية إلى حد قتل الأنبياء لا أمل فى إصلاحهم إن «ذبح» «يحيى» هو إنذار له وتهديد. إنهم قد يحاولون الضغط عليه لإجراء «مصالحة» معهم تنتهى بتضييع رسالته مقابل المحافظه على حياته . حياة الجسد وهى كل ما يعنى رجال الهيكل. لا ريب أنهم هم العدو. إنهم أخطر أعدائه وأشدهم خبثا وأقواهم تسليحا على الرغم من ضعفهم الظاهر إذ يبدون وكأنهم لا حول لهم ولا قوة. إن الرومان على الرغم من قوتهم الظاهرة ليسواهم أقوى أعدائه بل لعلهم يكونون أضعفهم لأنهم عدو ظاهر لا يخفى عداوته بل يجاهر بها إنهم لا يطلبون أكثر من إخضاع الشعوب لسلطانهم طمعاً فى المال وتحقيقا لسيادتهم الموهومة على الأرض. ربما حاربوا معتقدات الشعب وتقاليده وحاولوا فرض معتقداتهم ونمط حياتهم كما فعل أسلافهم اليونانيين من البطالمة والسلوقيين من قبل إن بدالهم أن ذلك ييسر لهم اخضاع الشعب ويستأصل روح التمرد من قلبه ولكنها فى الحقيقة حرب مفيده ومضمونة النتيجة إذ تدفع الشعب المغلوب على أمره إلى البحث عن مصدر قوته ونبع حياته. فى نار المواجهة مع أعدائه يكتشف الإنسان حقيقته ويعرف سر قوته وممكن ضعفه .

لو أعلن الرومان الحرب على «التوراة» وحاولوا إبطال شريعة الله لكانت تلك الحرب

هى أفضل خدمة يقدمها الرومان للتوراة وأكبر قوة يعطونها لشريعة الله لأن تلك الحرب ستجبر الشعب الذى يدعى التمسك بكلام الله ويزعم القيام بشريعته ستجبره على إمعان النظر فى حقيقة موقفه وستضطره إلى إكتشاف زيفه ومن ثم فقد يندفع إلى تصحيح موقفه ويرغب فى التطهر طلبا للنصر على أعدائه. تحت وطأة المذلة والهوان قد يهرول الشعب المقهور إلى نبع حياته ومصدر قوته. إلى الله الذى وهبه الحياة بكلماته. في نار المواجهة قد يتمكن الشعب من تمييز الطيب عن الخبيث وفى هذا نجاته. ليس الرومان هم العدو بل لعلهم يكونون أشد الاصدقاء لو أنهم أعلنوا حربا على الشعب راغبين في محو عقيدته وإبطال شريعته لأنهم بتلك الحرب يعينون «الإنسان» على اكتشاف حقيقة نفسه .

أما رجال الهيكل فهم العدو الحقيقى لأنهم صاروا أعداء الحقيقة .

هم الذين يقفون عقبة أمام الشعب يحولون بينه وبين الإتصال بنبع حياته بل أنهم يسممون هذا النبع بتشويه رسالة «الله» وتقديم تعاليم زائفة وطقوس فاسدة تهلك الإنسان إذ تدفعه بعيدا عن رحمة الله ويجنون هم ثمناً قليلا من المال الحرام وإن كثر .

إنهم يعلنون الحرب على رسل الله الذين هم لسان الله فى خلقه بإسم الله نفسه الذى أرسل هؤلاء الرسل. يسرقون مجد الله ويغتصبون سلطته. يحاربون الله مدعين أنهم يحاربون أعداءه وفى هذا تكمن قوتهم ويختفى خبثهم وتتعسر مقاومتهم فهم كالشيطان يأتى الإنسان من داخله لا من خارجه فيسهل عليه نزع أسلحته وإبطال دفاعه عن نفسه فيتاح له أن يقيده بالاغلال ثم يلقى به مستهزأ إلى الجحيم .

جاء إلى السيد «المسيح» بعض الفريسيين موفدين من «هيرودوس» بالإتفاق مع رجال الهيكل جاؤه فى ثوب الناصح الأمين يعرضون عليه أن يهرب لأن «هيرودوس» قد أنتوى قتله (٣١٧) كما فعل بإبن خالته «يحيى بن زكريا» «ليس من الحكمة في شئ أن يلقى الإنسان بنفسه فى مصيدة الموت» لهجتهم تنضح بالثقة فى أنفسهم والسخرية منه ونظرة

عيونهم وملامح وجوههم المسرورة تفضح زيف حزنهم عليه وتباكيهم الكاذب على مصيره البائس .

كان لسان حالهم يقول له : «أيها الفأر المذعور لا تخف سوف نفتح باب المصيدة ونسمح لك بالهروب متظاهرين بأننا لا نراك وأنت تهرب ليكون فى فرارك المذعور وأنت تعدو وتتلفت عبرة لكل من تسول له نفسه التمرد على سلطة الهيكل المقدس أو الخروج على سلطان روما «المقدسة» التى لا تقهر».

يريدون تحطيمه فى أعين أتباعه المعجبين به وبهذا يزول فى ظنهم كل خطره لاح على شفتى «المسيح» شبح إبتسامة ساخرة أفصحت عن استهزائه بهم وبمن أرسلهم بقدر ما أفصحت عن شعوره بالمرارة وعميق أسفه لإستحالة ايمانهم .

كان يحدق البصر فى «مكر الله» الذى جعل شيوخ الفريسيين أصحاب الدعاوى العريضة فى المحافظة على شريعة الله وتراث الشعب المقدس. «مكر الله» الذى جعلهم يسارعون إلى «هيرودوس» يتعاونون معه على كتم كلمة الله رغم أن «هيرودوس» لم يكن يكره ويحتقر شيئا أكثر من الفريسيين وتراث الشعب المقدس ذلك الذى يحول بينه وبين التمتع بكل الملذات التى يتحرق شوقا للظفر بها .

ما أشد خفاء حكمة الله وما أعجب القدر .

قال «المسيح» «قولوا لهذا الثعلب إن «للمسيح» مهمه سيؤديها فى «أورشاليم» وإنه وإن خرج من الجليل فليس خوفا منك لأنك لا تستطيع شيئا لم يشأ الله خلقه ولكن سيخرج ليبلغ كلمة الله إلى الذين لا يحبون سماعها ليكون فى ذلك شهادة عليهم أمام الله الذى يعلم مافى قلوبهم».

وأنصرف الوفد حاملا الخيبة والفزع فلم يحقق الغرض المنشود وها هو يخبر أنه

سيسير الى «أورشاليم» من أجل مهمة سيؤديها ، هل سيجهز جيشاً من أتباعه المفتونين به!؟

أيمكنه التغلب على جيش روما ؟ حقاً إن جيش روما قوى ولكنه «ساحر» شديد المراس صنع أشياء عجيبة فهل سيكون نصره على روما هو أحدى عجائبه ؟ ياله من رجل غريب يحير الأذهان لا يستطيع أحد سبر غوره ولا معرفة سر قوته التى تمده بكل هذه الثقة ؟! .

أسرع الرجال إلى «هيرودوس» يبلغونه رسالة «المسيح» وذهب اخرون إلى «أورشاليم» ينذورن الهيكل بما ينتوى «المسيح» عمله ليستعدوا ويتجهزوا للمواجهة .

كان «المسيح» يدرك بوضوح تام أن «هيرودوس» لن يجرؤ على قتله لأنه أوشك أن يفقد تمالكه لنفسه بعد قتله «يحيى». لقد أصبح سجين الكوابيس المرعبة التى لم تكف عن بث الفزع فى نفسه. بات عليه أن يستيقظ من النوم مفزوعا أكثر من مرة فى الليلة الواحدة ليفلت من قبضة الكابوس الذى يطبق عليه ليجد نفسه يصرخ فى ظلمه الليل وحيدا فى غرفته التى صار ينام فيها بمفرده لأن امرأته قد هجرته وأيقنت أنه على وشك الجنون فخافت على نفسها منه وكانت قد كرهته حتى الموت لتبذله السفيه الذى أهان كبرياءها كامرأة وحط من مكانتها كزوجة لرئيس الجليل الذى يطمع فى أن يصير ملكا للبلاد كلها .

وأصبح «هيرودوس» يشك فى كل أحد. لقد أرتكب جريمته الكبرى ليحافظ على خطته الرامية لا ستعادة ملك أبيه فكانت جريمته نفسها هى الشىء الذى أفسد تلك الخطة فساداً لا أمل فى إصلاحه إذ بدأ السادة الرومان يفقدون ثقتهم فيه كرجل يستطيع أن يحافظ على الإستقرار فى تلك البقعة المزعجة من العالم التى تعج بالفتن وتموج بالأضطرابات .

وضاعت منه «سالومى» إلى الأبد فلم يعد فى قدرته إستدعائها ليروى بصره الظامىء إلى جمالها الذى لا يستطيع نسيانه .

لقد طرد من جنتها وحرم من لذة وصالها فى نفس اللحظة التى أوشك فيها على أن يقطف ثمرتها .

خطفتها من يده رأس «يحيى» التى قطعها من أجل أن ينالها .

«ياله من حظ سىء وخطة خبيثة محكمة وقعت يا «هيرودوس» فى مصيدتها . ولقد أغلق بابها إلى الأبد.» تهاوى الأمل فى إسترداد عرش أبيه ولم يعد يهتم بذلك. لا يعنيه الآن إلا أن يسترد سروره الذى كان له قبل أن يرى تلك الرأس المقطوعة ولكنه لا يستطيع .يفرط في شرب الخمر ويطلق لنفسه العنان لينال كل مايشتهي لكن دون فائدة.

يقوم من النوم مفزعا ويصرخ ويستغيث ولكن لا مجيب. كل الذين فى القصر أدركوا أن السيد الرئيس قد وقعت عليه لعنة رأس «يحيى» التى ستظل تطارده إلى الموت .

مثل هذا يستحيل أن يصدر مرة أخرى قراراً بالموت. هل من ينتوى أن يقتل أحدا يرسل إليه ليحذره ؟ !

وجاء الى «المسيح» رجال آخرون يخبرونه بالمذبحة الرهيبة التى صنعها «بيلاطس» حاكم «أورشاليم» ومنطقة اليهودية إذ أصر على أن يذبح بعض الرجال الجليليين الذين أثاروا الشغب فى «أورشاليم» وأصر على أن يخلط دماءهم بدماء ذبحائهم التى قد موها إلى الهيكل (٣١٨)

كان المتحدثون يريدون قطع أمل «المسيح» فى أن يستنجد «ببيلاطس» فى صراعه ضد رجال الهيكل فها هو الحاكم الرومانى قد رضخ لإبتزاز الهيكل .

لقد أضطر الحاكم الرومانى بإلحاح الكهنة والشيوخ أن يشاركهم معركتهم ضد «ملك اليهود» القادم من ناصرة الجليل التى يحكمها «هيرودوس» العدو اللدود «لبيلاطس» والدى يرى أن الحاكم الرومانى قد أغتصب عرش أبيه «هيرودوس» الكبير ، وربما ظن «بيلاطس» أن «هيرودوس» هو الذى يهيج «الناصرى» وأتباعه لإثبات أنه غير جدير بالحكم عاجز عن الأمساك بزمام الأمر .

تحدث الرجال بصوت ينبيء عن شعورهم بأن الذين ذبحوا وخلطت دماؤهم بدماء قرابينهم لا ريب أنهم كانوا خاطئين وإلاَّ لَمّاَ سمح الله أن يلقوا مثل هذه النهاية البشعة وأنتاب نفس الشعور الذين إستمعوا إلى هذه الأنباء المرعبة وهم يمتلاؤن بالفزع أن يصيبهم مثل ما أصاب أصحابهم وعزموا على الفرار من الإنتساب إلى المدعو «عيسى» الناصرى وهذا هو الهدف الذى جاء من أجله الذين أخبروا «المسيح» بالأنباء وأفاضوا فى وصفها لينشروا الرعب فى القلوب الواجفة .

قال «المسيح» «أوَ تظنون أن هؤلاء الذين ذُبحوا ذبح الأغنام وخالطت دماؤهم دماء أغنامهم كانوا خاطئين أكثر من كل الجليليين الذين لم يكابدوا مثل هذه النهاية القاسية».

«كلاً ، أفكان النبى «يحيى» بن زكريا » الشهيد ابن الشهيد أكثر خطأ من كل بني اسرائيل حتي أنه ذبح وهو في السجن ووضعت رأسه على طبق تلبيه لرغبة غانية كانت تبيع جسدها .»

«كلا. فما أعظم «يحيى بن زكريا » عند الله. هو الآن مع أبيه وسائر النبيين والصالحين ولعله يشكر الذين ذبحوه وقطعوا رأسه لأنهم قد دفعوه دفعاً إلى النعيم المقيم الذى لا يزول ».

«ما أهون الدنيا على الله ولكنكم قوم لا تعلمون ؟ أوَ تظنون أن الثمانية عشرة الذين سقط عليهم البرج فى «سلوام» وهشم أجسادهم أتظنون أن هؤلاء كانوا خاطئين أكثر من جميع سكان «أورشاليم» الذين لم يصبهم مثل ذلك.»

«كلا. الحق أقول لكم إن الهلاك الحقيقى ليس هلاك الجسد بالموت فإن «الروح» يبقى بعد الموت إما إلى الجنة أو الى النار» .

«لكن الهلاك الحقيقى هو مفارقة النفس لرحمة الله. ذلك هو الموت الأبدى الذى لا رجعة منه إلى الحياة .

إن الأموات الذين فارقت أنفسهم أجسادهم بقبض «الروح» سوف يعودون أحياءً مرة أخرى أما الأموات الذين فارقت أنفسهم رحمة الله وحُبِست إلى الأبد فى جهنم فإنهم لا يرجعون أحياء مرة أخرى وذلك هو الهلاك الذى ينبغى أن نفر منه وأن نحاذر من الوقوع فى قبضته أما الموت الذى يحملنا إلى حياتنا إذ يسوقنا إلى الله فما أكرمه من ضيف عزيز يحل علينا وليته يسرع فى مجيئه ؟ »

«فتوبوا إلى الله جميعا وإلا ستهلكون ».

وقام «المسيح» وأنفض الناس من حوله وهم واجمون .

ذهب «المسيح» الى أمه يريد رؤيتها قبل رحيله ولقيه أخوته وكانوا لا يؤمنون به ويعتقدون أنه يلقى من الإهتمام فوق ما يستحق بكثير. قد ظل يسرق منهم أباهم حتى مات والمرة الوحيدة التى كان يمكنه فيها أن يصنع شيئا مفيدا للرجل الذى أحبه أكثر منهم رغم أنهم أبناؤه من صلبه فى تلك المرة الوحيدة لم يستطع أن يفعل شيئا بل تركه يموت ولم يتكرم عليه حتى بالقيام من مجلسه وسط الحمقى الذين أتوا إليه من كل مكان بل ظل جالسا معهم ورفض أن يخرج إلى أمه وأخوته عندما ذهبنا إليه لعله يستطيع شفاء من يزعم أنه يحبه .

قالوا له والسخرية تكاد تقفز من وراء كلماتهم «لماذا لا تنتقل من هنا وتذهب إلى «أورشاليم» حيث الهيكل ليرى الناس أعمالك التى يقولون أنك تستطيع عملها.»

«لا أحد يبقى مختفيا فى قرية صغيرة ، وهو يريد أن يصير مشهورا فإن كنت تفعل كل ما سمعنا عنه فلماذا لا تذهب الى «أورشاليم»(٣١٩) وها هو «عيد المظال» قد أقترب وسوف تزدحم «أورشاليم» بالناس القادمين من شتى القرى والمدن الذين يمكنك أن تبهرهم بأعمالك .أظهر نفسك للناس ».

يريدون أن يقولوا له جم غفير من السوقه والحمقى سوف تمتلأ بهم «أورشاليم» فلماذا لا تعرض هناك ألاعيبك العجيبة فمن المؤكد أنك ستجد جمهورا أكبر وكانوا يريدون إبعاده عنهم تجنباً للمضايقات الكثيرة التى يمكنه أن يجلبها عليهم إن بقى معهم وأسرّها «عيسى» فى نفسه ولم يبدها لهم .

قال متغاضيا عن السخرية والكراهية «إن وقتى لم يحن بعد أما وقتكم فحاضر فى كل حين. يمكنكم أن تذهبوا إلى «أورشاليم» فى أى لحظة أما أنا فلا. إن أهل أورشاليم وأهل الدنيا كلهم لا يبغضونكم ولكنهم يبغضوننى لأننى أشهد عليهم بأن أعمالهم شريرة.» من يظن نفسه هذا المخبول ؟ لقد عاد إلى الهذيان مفصحا عن أوهامه التى لا وجود لها إلا فى رأسه المريضة ، الدنيا كلها تكرهه ياله من مجنون لا يعرف ماذا يقول ؟! وانصرفوا وهم ممتعضون .

تركوهما معا «المسيح» وأمه. وتطلع الوجهان كلٌ إلى صاحبه. لم يكن أحدهما فى حاجة إلى أن يقول شيئا للآخر. يعرفان بعضهما دون أن يتكلما . وفاضت الدموع إنها لحظة الفراق .

كانا يدركان معا أن الأرض لم تعد تحتمل لقاءهما وأن موعدهما السماء فتعانقا عناق الفراق .

فى ظل الإرهاب انفض عن «المسيح» أغلب أصحابه. ذاب أكثر الرسل فى صخب الدنيا ولم يبق معه إلا أثنى عشر رجلاً هم الذين أصروا على البقاء معه وإن لم يتبينوا فى وضوح ما هى الغاية من بقائهم معه وما هو الهدف الذى يسعون لبلوغه .

مازال يتردد فى الأسواق والمجامع أنه قد يكون «ملك اليهود» الموعود الذى يرد المُلْكَ لبنى إسرائيل ويعيد المجد الذى هوى ومازال الناس البسطاء ينادونه «يا بن داود» وهو يجيبهم ولا يرفض هذه التسمية مع أنه يسمى نفسه فى أغلب الأحيان «إبن الانسان» ويقول أنه «إبن مريم» يا له من معلم غريب لا نعرف بالضبط كيف جاء إلى اليهود ؟ أتراه

ذاهباً إلى «أورشاليم» لهذا الهدف وكيف سيصبح ملكا؟ هل سيكون جيشا يحارب به روما؟!

أم أنه بقدراته الخارقة سيستطيع التغلب عليهم ؟ هل سنصبح حاشية الملك ووزرائه أم سنذبح كالأغنام مثل «إبن زكريا» الذى يقول عنه أنه أعظم عند الله من كل اليهود هل؟ وكيف؟ ولماذا؟.....

وأمر «المسيح» من بقى معه أن يستعدوا للرحيل من الناصرة فرضخوا للأمر وساروا صامتين يتفكرون .

مر «المسيح» مع تلاميذه على قرية فى السامرة فأرسل بَعْضَهم إلى أهل القرية يخبرونهم أن «المسيح» يريد أن يدخل القرية ليمكث فيها قليلا وهو فى طريقه إلى «أورشاليم» لكن شيوخ القرية رفضوا (٣٢٠) أن يدخلها «المسيح» لأنهم علموا أنه متجه إلى «أورشاليم» وكانت قد وصلت إلى أسماعهم أقوال عن أنه سوف يعلن نفسه ملكا لليهود. فطلب منهم رسل «المسيح» أن يبيعوهم خبزا فرفضوا ذلك أيضا وطردوهم شر طردة مهددين أياهم بالقتل .

فرجع الرسل إلى «المسيح» وأخبروه بما حدث لهم من أهل القرية فغضب التلاميذ غضبا شديدا وأندفع يعقوب ويحيى (يوحنا) ابنا زبدى يقولان «يا معلم» ألاَ يجب أن نصلى لله ونضرع إليه أن يرسل نارا من السماء على أهل هذه القرية كما فعل نبى الله «إيلياس»." فالتفت إليهما «المسيح» غاضبا وقال لهما «إنكما لا تدريان أى روح يدفعكما إلى أن تقولا هذا الكلام. إن «ابن الانسان» قد جاء إلى الدنيا لينقذ أنفس الناس من الهلاك لا ليهلكها . ألا تذكرون قصة «يونس» مع أهل نينوى عندما غضب منهم وتركهم دون إذن من الله الذى أرسله إليهم غير عابىء بما سوف يحل عليهم من نقمة الله. وخرج يريد الخلاص منهم فدبر الله له بمكره الذى لا يستطاع فهمه أن يُلْقَى فى البحر وأن يبتلعه الحوت حيث مكث فى بطنه ثلاثة أيام. ثم صعد به الحوت وقذفه إلى الشاطىء غريبا وحيدا

بلا أنيس فأنبت له الله يقطينة تظلله فكانت له الصديق الذى يبدد وحشته ثم هلكت اليقطينة فحزن عليها «يونس» حزناً شديدا لأنه فقد صديقه الوحيد الذى يزيل غربته فحينئذ قال له «الله» إنك قد حزنت على شجرة واحدة هلكت وأنت لم تخلقها فكيف لا تحزن على هلاك قرية كاملة بكل ما فيها من خلق الله وكيف يكون الله الذى خلقهم ؟ فلما عاد «يونس» إلى أهل نينوى وقد عرف رحمة الله بخلقه وعرف قومه آية الله فى عودته ناداهم للتوبة فتاب الله عليهم. قولوا لى إذا أصيب أخ لكم بجنون فهل تشجون رأسه أو تقتلونه لأنه يتكلم بالسؤ ويؤذى كل من يقترب منه فيسبب لكم المتاعب ويجلب لكم العار ؟ ألاّ تحاولون أن تسترجعوا سلامة عقله بالأدوية والطرق التى تظنون أنها كافية لهذا الغرض ».

«إنكم بالفعل تحاولون ذلك ».

«لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته إن الخاطىء مجنون قد أصيب ذهنه بالمرض فوجب على أخوته الخاطئين مثله أن يحاولوا إسترجا ع صحته بدعوته إلى التوبة والصلاة لله من أجله لا أن يضطهدوه محاولين قتله فإن هذا منهم هو أشد الجنون قولوا لى أأنتم خلقتم أهل هذه القرية الذين رفضوا دخولنا إليها ؟ ».

«كلاً ولكن الله الذى خلقها والذى يعلم أنها رفضت دخول رسوله إليها لم يزل يرزقها ويفيض عليها من رحمته فكيف تودون أنتم إهلاكها وحرمانها من الرحمة وأنتم لم تخلقوها ولم تعطوها أى شىء »

«ويلٌ للذين يطلبون النقمة لأنها تحل بهم. إن كل انسان يستحق نقمة الله لولا رحمته».

قالوا «يامعلم أتريد أن نصلى ونضرع إلى الله أن يهدى أهل هذه القرية إلى التوبة؟ »

قال : «نعم. إن هذا هو العمل الجدير حقا بتلميذ «للمسيح» أن يضرع إلى الله من

أجل الذين يفعلون الشر والذين يسيئون إليه ألم تقرأوا ما صنعه نبى الله «داود» عندما لعنه «شمعاى» ورماه بالحجارة ؟ ».

«إن الذين يحبون «داود» إندفعوا إلى «شمعاى» يريدون قتله وأمسك به «أيوب» يريد خنقه لأنه أهان نبى الله الملك «داود» لكن «خليفة الله» قال له ماذا يعنيك أنت يا أيوب لماذا تريد أن تقتل «شمعاى» دعه يلعننى لأن هذا إنما يقع بإرادة الله الذى سيحول برحمته هذه اللعنات إلى بركة تدوم الى الأبد» .

«هكذا فعل «داود» وكذلكم فعل كل إنبياء الله مع الذين آذوهم وأرادوا قتلهم. كذلكم فعل «إشعياء» و«أرميا» و«حزقيال» و«دانيال» وكذلكم فعل «زكريا» الذى قتل فى الهيكل؟»

«قل لى أيها الإنسان من هو عدوك ؟ »

«ليس عدوك هو من يؤذيك أو يسبك أو حتى يحاول قتلك. كلاً عدوك الحقيقى هو نفسك التى تأمرك بالسوء وتسول لك معصية خالقك. عدوك هو جسدك الذى يدعوك إلى ارتكاب الخطايا عدوك هو من يمدحك ويثنى عليك ولا يوبخ خطاياك ».

«الحق أقول لكم لو كان الانسان سليم القلب صحيح العقل لقبل يد الذين يعيرونه وقدم هدايا للذين يضطهدونه ويوسعونه ضربا لماذا ؟ »

لأنه لاشىء من ذلكم يقع إلا بارادة الله فإن ورقة واحدة من شجرة واحدة لا تتحرك إلا بإرادة الله المهيمن على كل شىء ولا يصيبك من الأذى إلا بسبب خطاياك الكثيرة التى لا تعد ولا تحصى فكلما عُيِّرت واضطُهِدت وأصابك الألم فى هذه الدنيا بسبب خطاياك فافرح لأن ذلك يخفف من أثقالك يوم القيامة ».

«وإذا كان الناس قد اضطهدوا الأنبياء وأساؤا إلى الصديقين وشوهوا سمعة الصالحين وإذا كان الله قد سمح بهذا فماذا تنتظر أنت أيها الإنسان الخاطىء الذى يستحق الجحيم ؟ أتظن نفسك أفضل من أصفياء الله ؟ وإذا كان الأنبياء والصديقين

والشــهـداء والصـــالحين قـد صـبـروا على مـا أصـــابهم بإذن الله وصلوا من أجل الذين أضطهدوهم فلماذا تسخط أنت أيها الانسان الخاطىء وتريد أن تهلك الذين لم يصيبوك بمقدار ما تستحق ؟ !»

«فإذا كنتَ فى ضيق فلا تفكر فى مقدار ما أحتملت ولا تلعن من أصابك بمكروه بل تأمل كم تستحق من العذاب فى الجحيم على يد الشياطين بسبب خطاياك وأنظر إلى رحمة الله الذى عجل لك عذابك فى هذه الدنيا التى أودع فيها قطرة من رحمته فخفف من عذابها وأنقذك بهذا من العذاب الأبدى الذى لا رحمة فيه ».

«إنكــم حـانقــون على هـذه القـريـة التى لم تقـبلنا ولم تبع لنا خبـزا وتودون هـلاكـهـا فقولوا لى :

«هل أنتم الذين خلقتموهم ووهبتموهم قريتهم ؟ »

«هل هؤلاء القوم عبيدكم ؟ »

«هل أنتم الذين زرعتم لهم قمحهم أو ساعدتموهم فى حصاده ؟ »

«كلاً ثم كلاً ثم كلاً ».

«فإنكم ليسوا أكثر من غرباء فقراء مروا على هذه القرية ذات يوم فلماذا كل هذا الكبرياء وما هذه الأقوال التى نطقتم بها ».

فصمت الإثنا عشر رجلا ثم قال «يعقوب» و«يحيى» «يا سيد لقد أخطأنا فليرحمنا الله ويغفر لنا» .

قال «المسيح» «أمين»(٣٢٠)

«سمعتم أنه قيل للقدماء عين بعين وسن بسن .

«أما أنا فأقول لكم : لا تردوا على الإساءة بمثلها ،

«فمن لطمك على خدك الأيمن فقدم له خدك الأيسر أيضا »

«ومن أراد أن يغتصب منك ثوبك فاتركه له وأعطه رداءك أيضاً معه. إعطوا كل من سألكم حتى الذين حرموكم فإن أحسنتم الى الذين يحسنون اليكم فقط فأى فضل يكون لكم إن الخطاة يفعلون ذلك فإنهم يحسنون إلى من يحسن اليهم ».

«وأقرضوا كل الذين يطلبون منكم ولا تردوهم فإن اقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم أموالكم فأى فضل يكون لكم إن الخاطئين يفعلون ذلك أيضا ».

«ومن أخذ منكم شيئا فلا تطالبوه. عاملوا الناس كما تحبون أن يعاملوكم. إفعل ما تحب أن يُفْعَل بك ».

«سمعتم أنه قد قيل أحب قريبك وأبغض عدوك أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى الذين يسيئون إليكم وصلوا من أجل الذين يضطهدونكم ويطردونكم ، لأنكم إن أحببتم الذين يحبونكم فقط فأى فضل يكون لكم إن الخاطئين يفعلون ذلك أيضا وإن سلمتم على الذين يسلمون عليكم فقط فأى فضل يكون لكم إن الخاطئين يفعلون ذلك أيضا ».

«لأنكم يجب أن تكونوا كاملين متشبهين بإلهكم فإنه يشرق بشمسه على المتقين والفجار ويفيض برحمته على المحسنين والمسيئين وينعم على الشاكرين والجاحدين فإنكم حينئذ تستحقون أن تكونوا أبناء له .فكونوا رحماء كما أن إلهكم رؤوف رحيم .(٣٢١)

وذهب «المسيح» مع تلاميذه ومن قَبِلَ صحبته إلى شاطىء الأردن حيث كان «يحيى بن زكريا» يبشر قبل قتله وأندلعت الشائعات تقول أن «يحيى» قد بُعِثَ من الموت وأنه عاد

ليسير عند شاطىء الأردن كما كان يفعل قبل أن يقطع «هيرودوس» رأسه وأن الآيات التى يتوالى ظهورها فى القرى والمدن حول الأردن إنما يصنعها «يحيى» العائد من الموت(٣٢٢).

إن الشعب الذليل الذى أهان «يحيى بن زكريا» حقا عندما تخلى عنه وتركه فريسة سهلة فى أيدى أعدائه ليلقى حتفه تلبية لرغبة أمرأة فاجرة رقصت عارية فى حفل صاخب امتلأ بالمجون طلبت رأس «النبي» ثمنا لبيع جسدها. ذلك الشعب الذليل أراد أن يعوض النبى بأن يكرمه بالباطل بعد أن أهانه بالفعل.

لقد تلقف الجهال بعض أقوال «المسيح» التى ابتدأ يفصح بها عن رفعه من الأرض وعودته إليها قرب نهاية الدنيا وأن «يحيى» و«إدريس» سوف يسبقانه بالعودة إلى الأرض ويكون رجوعهما بعد الموت دليلا على صدق الله الذى أخبر أن الموتى يبعثون وتمهيدا لرجعة «المسيح» فشوهوا الأقوال ولم يحفظوها. تلقفوا نبأ عودة «يحيى» فتوهموا أن عودته قد وقعت، وخرجوا يبحثون عنه بشاطىء الأردن يريدون أن يتحققوا من صدق ما قيل ويكفروا عن خطيئتهم الثابته فى حق «ابن زكريا» بوهم لا يَثْبت نَبَتَ فى قلوبهم المظلمة التى لم تعد تحتمل قبول النور.

خرجوا ليقابلوا «يحيى» ويظهروا له إيمانهم حتى لا ينساهم عندما يصعد على العرش لكنهم فوجئوا بأن الذى يبشر عند الأردن هو المدعو «عيسى الناصري» كانوا يتوهمون أن «يحيى» العائد لا بد أن يكون لابساً أفخر الثياب التى تليق بأهل الجنة و بملك يستولى على العرش وظنوا أنه لا بد أن ينتقم من «هيرودوس» الذى ذبحه ذبح الاغنام ولا بد أن ينصب نفسه ملكا لليهود ليعيد إليهم المجد الذى ضاع.

لقد ذاعت تلك الأقوال إلى حد أن «هيرودوس» نفسه أوشك أن يفقد ما بقى من عقله وهم يخبرونه أن «يحيى» ربما يكون قد قام من الأموات وأمتلأ الرجل بالفزع لأنه لو صحت هذه المزاعم فسوف يكون عليه أن يحارب شبحا خارجا من ظلمات الموت فأنى له

مـقـابلتـه وأخـذ يصـيح «كـيف تقـولـون هذا. إننى قطعت رأسـه بالسـيف ورأيت هذه الرأس البشعة والدماء تقطر منها فكيف تدعون أنه قد رجع» لكنه في قرارة نفسه كان يخشى أن يكـون قد عـاد بالفـعل فمـا أعـجب الحيـاة ومـن ذا الـذى يسـتـطيع أن يكـون مـتـأكدا من أى شىء؟!

لقد صدمت رؤية «المسيح» الجموع التى خرجت لرؤية «يحيى» وأخذوا يطيلون النظر إلى وجهه وملابس الخشنة التى لا تفصح عن أي نعيم ولا تشير إلى أى مُلك منتظر .

فـقـال لهـم «المسـيح» «لقـد خـرجـتم إلى البـرية فـمـاذا أردتم أن تنظروا؟ أقـصـبةً تحركها الريح ؟ !»

«ماذا خرجتم لتنظروا ؟ ».

«إنساناً لا بساً ثياباً ناعمة ؟» .

«لديكم من يلبسون الثياب الناعمة فى بيوت الملوك والرؤساء ؟ ».

«ماذا خرجتم لتنظروا ؟» .

«أنبياً أردتم أن تنظروا ؟ »

«نعم كان نبيا بل أفضل من نبى لأنه قد قتل فى سبيل الله ».

«الحق أقول لكم أنه ليس فى بنى اسرائيل من هو أفضل من «يحيى بن زكريا»...»

«ولكن الأصغر (يقصد نفسه) أعظم عند الله. إن الأنبياء منذ بدء الدنيا وحتى «يحيى بن زكريا» كانوا يبشرون بملكوت الله ولكن الغاصبون يحاولون اختطافه كل منهم يحاول أن ينسبه لنفسه وقد أرسلنى لأبشر بقرب مجيئه فإن أردتم أن يقبلكم الله فآمنوا وطوبى لمن لا يعثر فىَّ فها هو أحمد (إيليا) قد أزمع أن يأتى. تزول السماوات والأرض ولا تزول كلمة واحدة بل ولا حرف واحد من كلام الله الذى نطق به أنبياؤه حتى يكون الكل.»

ومن له أذنان للسمع فليسمع.

لكن الجموع التى خرجت لترى «يحيى» العائد بملابس الملوك للإنتقام خاب أملهم برؤية «المسيح» الجالس عند نهر الأردن بملابس العبيد فأنفضوا من حوله وتركوه مع تلاميذه .

وجاءه جمهور غفير من الذين سمعوا عن معجزاته وعلموا أنه يتقدم سائرا نحو «أورشاليم». كانوا يسيرون معه ويستمعون إليه يريدون أن يروا المعجزات. ونفد الطعام الذى كان مع تلاميذه وانتظر الجمع أن يظهر معجزاته كما سمعوا. فوقف «المسيح» يقول لهم (٣٢٣)« الحق أقول لكم أنكم تطلبوننى ليس من أجل أن تسمعوا كلام الله فتؤمنوا بل لأنكم تريدون أن تأكلوا خبزا فتشبعوا دون أن تعملوا. الخبز هو ما تريدون لا كلمة الله» .

«إعملوا للطعام الدائم الذى لا يفنى. الطعام الذى يهبكم الحياة الأبدية ذلك هو خبز الله الذى صنعه الله بيده وهذا هوالعمل الذى يطلبه الله منكم.» قالوا «ما هو العمل الذى يطلبه الله منا ؟.»

قال «أن تؤمنوا بالذى أرسله وأن تعملوا بما يقوله لكم » .

قالوا «فاصنع لنا آية نراها لكى نؤمن بك ؟»

«قل لنا ماذا ستصنع لنا » ؟! .

«أباؤنا أكلوا المن فى البرية كما هو مكتوب «لقد أعطاهم خبزا من السماء ليأكلوا.»

قال «المسيح» «أباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا» .

«وليس ذلك هو خبز الله النازل من السماء لأن من يأكل خبز الله لا يموت أبداً بل تكون له حياة أبدية» .

قالوا «وما هو خبز الله الذى من يأكله لا يموت أبدا ؟»

قال : «كلام الله الذى يهب من يؤمن به الحياة الأبدية. أنا خبز الله النازل من السماء لأننى كلمة من الله فآمنوا بى يعطيكم الله الحياة الأبدية. كل من يؤمن بى تكون له حياة لا تفنى. نزلتُ من السماء لأ نفذ مشيئة الذى أرسلنى فمن يُقْبِل علىّ ويؤمن بى فإننى أهبه الحياة الأبدية وإن مات وأقيمه فى اليوم الآخر لكى لا يموت من بعد ذلك أبدا ».

«هذا هو خبز الله النازل من السماء الذى يهب من يؤمن به الحياة الأبدية» فتذمر الجمع الغفير من كلمته وقالوا من هذا الذى يقول عن نفسه أنه خبز الله أليس هو «عيسى» ابن يوسف النجار الذى سمعنا كثيرا ما يقال عن أمه وكيف حملت به من يظن نفسه هذا المجنون ؟! .

أيستطيع هذا المأفون أن يمنع المؤمنين به من الموت ؟!

وأنفضوا من حوله وهم يسخرون منه كيف سنأكله هذا الخبز النازل من السماء إنه يجوع ويأكل الخبز. حقاً ما أغرب كلام المجانين. إن الخبز يأكل نفسه .

قال لهم «لا تتذمروا. لا يستطيع أحد أن يقبل إلىّ ويؤمن بى إلا الذى جذبه من أرسلنى ».

«أولئك الذين استمعوا إليه من قبل أن يولدوا وأصطبغوا بصبغته. هؤلاء هم الذين يقبلون علىّ ويؤمنون بى .»

وتركه كل الذين جاؤا إليه وحتى التلاميذ تذمروا فيما بينهم وقالوا هذا كلام صعب من يستطيع أن يسمعه أو يفهمه فناداهم وقال لهم «أهذا الكلام يعثركم فاسمعوا جيدا لكى تفهموا »(٣٤٥) .

«الروح» هو الذى يُحْيِى فلا حياة بدون «الروح.»

«أما الجسد بمفرده فليس ألا قبضة من التراب تعود إليه عندما يُسْلَب الروح منها»

«أليس هذا صحيحاً» ؟

قالوا «بلى» .

قـال : «كـلام الله الذى ينطق به الأنبـيـاء إنما يتلقـونه من «روح الله» الذى وهـب كل شىء الحياة فمن يؤمن به فإن قلبه يَحْيَى إلى الأبد لأن النور المنبعث من «روح الله» يستقر فى قلبه. هذا هو الإيمان وبهذا يتصل القلب بسر الحياة فيبقى حياً على الدوام أما الجسد فإنه يموت بزوال الروح منه عند مفارقة النفس. فالذين يؤمنون يظفرون بالحياة الدائمة وإن مـاتت أجسـادهم فى الدنيـا ولا بد أن تموت لأن الله قد كَتَبَ الموتَ على كل نفس ولكنـهم عندما يقومـون فى البعث فإنهم يظفـرون بالخلود فى رحمة الله لأن قلوبهم ظلت بعد مـوت أجسادهم حية بما أودع فيها من الإيمان» .

«والكلام الذى أكلمكم به الآن هو من «روح الله» الذى يتكلم بلسـانـى فـمن يؤمـن به فإنه يحيى على الدوام حتى وإن دفن جسده فى التراب أتفهمون ؟!»

قالوا «نعم» .

قـال: «قـولوا لي... أين يذهب الأنبـيـاء بعـدمـا يموتون هنا على الأرض. أين ذهب «زكريا» وأين ذهب «يحيى» وأين ذهب من قبلهم إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب وأين يكون موسى الآن؟! »

«إنهم فى السمـاء رغم أنهم قد دفنوا فى التراب هنا على الأرض ولقد أقترب موعد ذهابى إلى السماء أتفهمون ؟! »

قالوا «نعم»

قال « ولكن فيكم من لا يؤمنون» ؟! .

تراجع كل الذين صحبوه حتى التلاميذ فكروا فى ان يتركوه وبدأوا يتملصون فقال لهم وقد شعر بما يدور فى قلوبهم : «لعلكم تريدون أنتم أيضا أن تذهبوا فإن أحببتم أن

تتركونى فأمضوا » فبكى بعضهم وقال «بطرس» «يا معلم أين نذهب وكلام الحياة الأبدية معك فقام «المسيح» ليمضى فى طريقه الى قرية أخرى وفى الصمت المثقل بالخوف من المجهول وتحت وطأة الانتظار والترقب قالوا له «يا معلم أقليل هم الذين ينجون ؟ .»

قال «إجتهدوا لكى تسيروا فى الطريق الضيق ولكى تدخلوا من الباب الضيق فإنه يفضى إلى سعة لا حدود لها. إن الطريق الرحب والباب الواسع يؤدى إلى الهلاك وكثيرون يدخلون منه ».

«ما أعسر الطريق وما أضيق الباب الذى يؤدى إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه».

«الحق أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولكن لا يقدرون لأن رب البيت يكون قد قام وأغلق الباب وحينئذ تجدون أنفسكم فى الخارج مطرودين والباب مغلق فتأخذون فى قرع الباب وتصرخون يارب أفتح لنا » فيأتيكم الجواب «من أين جئتم إننى لا أعرفكم ».

فتصرخون وتصرخون «يا رب أفتح لنا ».

ويأتيكم الجواب «من أين جئتم إننى لا أعرفكم ».

«أبتعدوا عنى أيها الظالمون ».

وها هم آخرون يكونون أولين وأولون يكونون أخرين (٣٢٥) ومن له أذنان للسمع فليسمع .

(٢٤)

فضل الله

ولا اقول للذين تزدرى اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله اعلم بما فى انفسهم

(هودا ٣١)

سأقترب «المسيح» من أريحا ومعه التلاميذ الإثنا عشر وجمع من الناس الذين آثار فضولهم سير «المسيح» الى «أورشاليم» وأخذ بأذهانهم التعجب من كثرة الآيات التى سمعوا عنها كانوا يريدون أن يروا ماذا سيفعل فى «أورشاليم» هل حقا سيصبح ملكا لليهود ؟! .

وعلى الطريق المؤدى إلى أريحا كان «بار تيماوس» الأعمى جالسا باسطا يده إلى الناس يسألهم الصدقة فلما قرع سمعه دبيب الأقدام التى تقترب سأل المتسولين الذين يجلسون بجواره عما يحدث وما سبب هذا الضجيج فقالوا له أن «عيسى الناصرى» يتقدم فى جمع من أصحابه. «سمعنا منذ أيام أنه سيذهب إلى «أورشاليم» . وكان قد سمع عن معجزات «الشفاء» التى قام بها المدعو «عيسى الناصرى» فأخذ يصيح بأعلى صوته «يا بن داود أرحمنى يا بن داود أرحمنى .»

فأنتهره الجالسون بجواره والسائرون فى المقدمة «أصمت أيها الأعمى من ذا الذى يسمعك فى هذا الضجيج» لكنه ظل يصرخ ويزيد من صياحه حتى انتبه إليه «المسيح» فتوقف وقال لمن فى جواره «أئتونى به ».

فهرولوا إليه وهم يقولون «اسكت فإنه قد سمعك. كف عن الصياح. هو ذا ينادى عليك» فانتفض الأعمى مسرورا حتى أنه ترك ردآءه المخرق على الأرض. ودفعوه ليقف أمام «المسيح» فقال له «ماذا تريد.»

قال «يا سيد أن أبصر» .

قال: «أتؤمن أن الله قادر على أن يرد إليك بصرك كما قد أخذه منك من قبل ؟».

قال: «نعم يا سيد أؤمن»

قال : « أبصر فإن إيمانك قد شفاك». (٣٢٦)

إندفع النور إلى الأعمى فأبصر فأخذ يعدو وهو يكاد يطير من الفرح ويصرخ «انتبهوا يا قوم فإن نبى الله قد جاء.»

«قوموا فإن ابن داود قد جاء اليكم» «لقد حضر ملك اليهود» وظل الرجل يصيح وهو يطرق الأبواب وينادى على الناس أن يخرجوا لاستقبال إبن داود ملك اليهود .

فخرج الناس ليروا ما يحدث وأخذوا يتجمعون حول «المسيح» وهو يتقدم نحو المجمع فى أريحا .

كان «زكا» العشار جالسا فى بيته يعد نقوده. إنه لم يعد يشعر بالسعادة التى كانت تملأ قلبه من قبل وهو يمتع قلبه وعينيه ويديه يعد النقود ثم يضعها فى الخزانة كأنه يضع طفله الوحيد على سريره بعد أن يهدهده ثم يغلق الخزانة بإحكام ليغطى إبنه الوحيد يريد حمايته من غوائل الزمن وعيون الحاسدين .

كان «زكا» هو رئيس العشارين فى مدينة أريحا . لقد صار ثريا مثل كل العشارين الذين أدركوا أكثر من غيرهم أهمية المال فى عصر صار فيه المال هو الإله المعبود. عرفوا أنهم بإستحواذهم على «الصنم» المعبود يستطيعون أن يظفروا بالإحترام وأن يجبروا الناس على أن يزيلوا من عيونهم نظرة الإزدراء التى كانت تطل عليهم بإعتبارهم حثالة المجتمع والرمز المجسد للشيطان فى الصورة الآدمية .

لقد استطاع الكثير من العشارين أن يكنزوا الأموال إذ عرفوا كيف يأخذون أكثر مما

فُرِض فيختسلون لأنفسهم نصيباً مفروضا وكيف يبتزون الكثيرين بالتهديد بالوشاية بهم إلى أهل السلطة .

وأصبحوا يعيشون معيشة الأثرياء ولكن إحترام الناس لهم لم يزد كثيرا بل ربما تحول الإحتقار إلى كراهية بسبب الحقد عليهم لثرائهم الذى حصلوا عليه بطرق خبيثة، وكان «زكا» أكثر حظاً إذ استطاع أن يكنز مالا وفيرا أثار حسد الآخرين لكنه بدأ يفقد ولعه بالمال وبحثه عن الإحترام وحرصه على إذلال الآخرين عندما يُضْطَرون للمجيء إليه للإقتراض. بدأ يشعر أن الزمن يمضى بسرعة وأن كل المال الذى جمعه لن يحميه من قبضة الموت عندما تمتد إليه يده ولن يؤنسه فى وحشة القبر عندما يهيلون التراب عليه. كان الإيمان بعودة الروح والبعث من القبور قد بدأ يتسرب إلى قلبه ربما فى اللحظات القصيرة التى تسبق استغراقه فى النوم أو عند ما يتأمل على حين فجأة غروب الشمس ثم يتذكر أنها غداً ستشرق مرة أخرى .

سمع عن «المسيح» النبى القادم من الناصرة الذى يجلس مع العشارين ويأكل معهم فانفتح باب الأمل فى قلبه وعندما أرتفع الصوت الذى ينادى على الناس بالخروج للقاء «عيسى الناصرى» انتفض من مكانه وأطل من النافذة فكانت دهشته فوق الوصف عندما رأى «بارتيماوس» الشحاذ الأعمى يَعْدُو فى الطريق وهو يصرخ وَيَبْدُو من حركته أنه يبصر جيداً. نظر على البعد فرأى جمعا من الناس يسيرون نحو المجمع وأدرك أن لابد أن «عيسى الناصرى» فى هذا الجمع وأستولت عليه الرغبة فى رؤية الرجل الذى سمع عنه كثيرا . كان بدينا جداً وقصير القامة إلى حد أثار سخرية الناس منه طوال عمره وكانت تلك السخرية المريرة هى أشد الأشياء إيلاما له وأقوى الأسباب التى تدعوه إلى المبالغة فى إذلال الذين يجيئون ليقترضوا منه المال .أيقن أنه بقامته القصيرة هذه لن يستطيع أن يرى «النبى» القادم فماذا يفعل وقد استولت عليه الرغبة فى رؤيته. نزل بسرعة وصعد إلى شجرة جميز على الطريق ليرى «المسيح» وهويسير. ظل هناك بين الأغصان يحدق البصر

فى الجمع المقترب نحوه غافلاً عن جسده البدين غير شاعر بالألم. لقد تحول إلى «عين» صنعتها رغبة جارفة فى رؤية «المسيح» ولم يكن يضايقها إلا ذلك الغبار الذى تثيره الأقدام الزاحفة الى المجمع لأنه يمنعها من الرؤية الواضحة .

اقترب الموكب وشخصت «العين» تريد أن تستبين وجه «المسيح» فى ذلك الغبار ثم وقعت الواقعة إذ وقف «المسيح» على حين فجأة عند الشجرة وتطلع بعينيه إلى القابع بين الأغصان وقال بصوت واضح :

«إنزل يا «زكا» لأننى سأقيم فى بيتك »(٣٢٧) .

لم يصدق «زكا» أذنيه ولا عينيه ونزل مهرولا دون أن ينتبه إلى جسده البدين حيث احتضن «المسيح» وقَبّلَهُ وأسرع إلى البيت ليعد للسيد القادم من الناصرة متكئا لا ئقا .

دخل «المسيح» مع تلاميذه إلى بيت «زكا» الذى كان لا يتمالك نفسه من الفرح وأعد «للمسيح» وليمة عظيمة لم يُسْمَع بمثلها فى «أريحا» دعا إليها وجهاء القرية والشيوخ الفريسيين وأعلن أنه يرحب فى بيته بكل إنسان يحب أن يأتى تكريما للسيد «المسيح» الذى تحنن عليه ورضى أن ينزل عليه ضيفا .

تذمر الفريسيون لأن ذلك «المعلم» الغريب يصر على إهانتهم وإهانة شريعة الله التى يرون أنهم هم أهلها وحفظتها بإختياره بيت عشار خاطىء ليقيم فيه ويقبوله أن يأكل وأن يجالس الخاطئين مفضلا أياهم على الفريسيين رجال الحق المتمسكين بشريعة الله .

لكنهم ذهبوا إلى الوليمة التى صنعها «زكا» يدفعهم الفضول والرغبة فى رد الإهانة بإحراج ذلك المعلم الدعى الذين يهين الله بإهانة رجاله الحافظين لكتبه وشريعتة «سوف يظهرون للشعب أنه جاهل لا يعرف شيئا لعل الجهلاء الآثمين من العوام يخرجون من أوهامهم ويتبينون «الحق» الذى يعرفه الفريسيون وحدهم .»

فـأجـأهـم «المسـيح» بقـوله «لعـمـر الله الذى تقف نفسـي فى حـضـرته إن الله يرسل الأنبـيـاء والرسل من أجل أن يتـوب الخطاة ولو كـان الناس أطـهارا لا يحـتـاجون التـوبة مـا أرسل الله المرسلين فـإن الطاهـر لا يحـتـاج إلى الإغـتـسـال. لذلك أقول لكم لو أنكم كنتم فـريسيين حـقـيـقـيين للأكم السـرور بدخـولى على الخـاطئين ليـتوبوا من أجل خلاصـهم من الجحيم الواقعين فى قبضته (٣٢٨) .

هكذا بدأت المعركة. لقد باغتهم ونزع عنهم الشرف الذى يدعون حمل رايته فها هو يقول لهم أنهم ليسوا فريسيين حقيقيين فمن يكونون إذن ؟! .

ثم واصل هجومه .

«أتعـرفـون من هـم الفـريسـيـون ؟! ومـا هو أصلهم ومـاذا تعنى كلمـة «فـريسى» » وألجمتهم المفاجأة .

فـأستـأنف حديثـه بصـوت المعـلم الحـقـيقى الذى يحب من كل قلبه أن يهدى أخوته من البشر .

قال «أصيخوا السمع إلى كلامى فإنكم حقا لا تعرفون ».

«إن كلمـة «فـريسى» تعنى يطلب الله وقـد أطلقت فـى البـداية على سـبيل السـخـرية والتـهكم من الرجـال الذين يعـتـزلون النـاس وينأون بأنفـسـهم فـى الجبـال والكهـوف يريدون الإنقطاع لعبادة الله ».

«كان المستهزئون بهم يريدون أن يقولوا لهم أيها المجانين الذين «تفرزون» أنفسكم عن بقية الناس العقلاء الذين وجد كل واحد منهم صنماً يعبده عم تبحثون ؟! ».

«لقد ظفر كل واحد منا بإله يراه فلمـاذا خرجتم إلى الجبال والكهـوف .إنكم لن تروا شيئا لعلكم تبحثون عن الهواء فعودوا إلى العقل وأرجعوا إلى بقية الناس ».

«لكن الفريسيين الحقيقيين كانوا أشد «جنونا» مما تصور «العقلاء» ولذلك استمروا

فى «جنونهم» حتى ظفروا بالفردوس ولم يحصل «العقلاء» إلاَّ على الجحيم أتعرفون ماذا تعنى كلمة «الفردوس» ؟ !.

وأطبق الصمت على الجميع .

وانطلق صوت «المسيح» «إنها تعنى ظفر بالله» .

«لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته لقد كان فى زمن النبى إيلياس (إيليا أو إيلياهو) الذى عاصر ملك إسرائيل الفاسق «أخاب» كان فى زمنه ما يقارب سبعة عشر ألف فريسى يحيون فى الجبال يطلبون الله خالقهم وربما لم يكن بينهم منبوذ واحد» .

«أما الآن فإننا نعلم أن فى بنى إسرائيل ما يزيد عن مائة ألف فريسى فلعل أن يوجد بينهم فريسى واحد صادق غير منبوذ من كل ألف من المنبوذين »(٣٢٩) .

وصاح الفريسيون الحاضرون فى حنق «أنحن منبوذون وديانتنا منبوذة ؟!» .

قال : «إنى لا أعد ديانة الفريسيين الحقيقيين منبوذة بل إنها الديانة الحقيقية وإننى عن طيب خاطر أقدم نفسى فى سبيلها» .

«الحق أقول لكم إن كل أنبياء الله ورسله كانوا فريسيين ولكن بالفعل وليس بالإدعاء مثلكم لأن الأنبياء والرسل قد طلبوا الله خالقهم وأحبوه حتى أنهم تركوا كل شىء فى سبيل معرفته. من كان منهم غنيا كان يبيع كل أملاكه ويعطيها للفقراء حبا فى الله فهل أنتم تفعلون مثلهم بل تعالوا لننظر هل أنتم فريسيون حقاً ؟ »

«لو كنتم فريسيين لعرفتم الكتاب الذى كتبه نبى الله «إيلياس» إستجابة لتضرع تلميذه النبى اليسع (أليشع) وأودع فيه الحكمة الفريسية كلها فى ألفاظ بسيطة .فهل تعرفون هذا الكتاب وماذا كتب فيه ؟ هل تعرفون كتاب «إيلياس» أصل الطائفة ؟! ».

واستولى الفزع عليهم فها هى فضيحتهم قد أصبحت مشهودة لكل الحاضرين من السوقة فإنهم لم يكونوا يعلمون أن «إيلياس» الذى تنتمى إليه الطائفة فى أصلها قد كتب

كتاباو أخذ كل واحد منهم يتهيأ للإنصراف ويبحث فى ثنايا ذهنه المضطرب عن ذريعة يخرج بها من هذه المحاكمة القاسية. وعندما هموا بالإنصراف وقد اصطاد كل واحد منهم المبرر الذى يخرج به واصل «المسيح» هجومه الكاسح ولم يكن فى وسع واحد منهم أن يوقفه :

قال «لو كنتم فريسيين حقيقيين لتركتم كل شغل وجلستم لتعرفوا ماذا كتب أبوكم لأن الفريسى الصادق هو الذى يطلب الله وحده وأين سنجد الله إلافي كلام الأنبياء ألاَ تحبون أن تعرفوا ماذا كتب أيلياس ؟ !،، .

«فاسمعوا هذا المثل ». أرتبكوا وأضطروا أن يعودوا للجلوس وهم صاغرون .

قال (٢٣٠) «إنسان عظيم صنع عرساً لإبنه. أعد وليمة عظيمة وأرسل عبيده ليدعوا أهل المدينة لكنهم كانوا لا يحبونه وإن كانوا لا يستطيعون أن يعلنوا ذلك ولذلك كرهوا أن يحضروا عرس الابن وأخذ كل واحد منهم يبحث عن سبب يعتذر به عن تخلفه فقال واحد لقد اشتريت حقلا جديداً وأنا ذاهب الآن لأنظره فقل لسيدك أن يعفينى من حضور العرس وقال الثانى لقد اشتريت خمسة أزواج من البقر وأنا ماضٍ الآن لأمتحنها فقل لسيدك أن يقبل عذري لأنني لا أستطيع أن أحضر العرس وقال ثالث لقد تزوجت أمرأة وأحب أن أدخل عليها الآن » .

«وهكذا. وكان هناك من هم أسوأ من أولئك المعتذرون وهم الذى بلغ بهم الغيظ والحقد على الإبن أن أخذوا يشتمون عبيد السيد ويضربونهم. وأرسل السيد عبيدا آخرين يحثون المدعوين على الإسراع قائلين لقد أُعد كل شىء .الثيران والمسمنات قد ذبحت والأطعمة كلها قد أعدت والمائدة قد جهزت فهلموا إلى العرس لكنهم أبوا. فلما عاد العبيد إلى سيدهم وأخبروه بكل ما وقع لهم غضب السيد العظيم على المدعوين وقال لعبيده .إذا كان المدعوون غير مستحقين لحضور العرس فإن العرس قد تهيأ ولا بد من حضوره فاذهبوا إلى الطرق البعيدة والمفارق والسياجات وأحضروا كل من وجدتموه وألبسوه ثوب العرس

وأدخلوه ليذوق طعامي. فخرج العبيد فأحضروا الفقراء والمساكين والعمى والجرحى والطرش والمبتورين وألبسوهم ثوب العرس وأجلسوهم على المائدة. ثم قام السيد لينظر فقال له عبيده لقد تم كل ما أمرت. أحضرنا كل من وجدناه وألزمناهم بالدخول وألبسناهم ثوب العرس فنظر السيد فوجد هناك واحداً من المدعوين الذين أبوا أن يحضروا أولاً وقد تسلل إلى البيت ولذلك لم يكن عليه ثوب العرس فأمر جنوده أن يحضروه أمامه ثم سأله موبخاً «كيف دخلت إلى هنا أيها الغريب لا بد أنك تسللت كالسارق ولذلك ليس عليك ثوب العرس ».

فشعر اللص بالمهانة وأطرق ذليلا إلى الأرض فقال السيد بصوت غاضب «ربطوا رجليه ويديه وألقوه فى الخارج فقد أقسمت ألا يذوق طعامى واحد من الذين دعوتهم فلم يستجيبوا لى» .

«هناك يكون البكاء وصرير الانسان» .

«الحق أقول لكم إن كثيرين يدعون ولكن قليلين هم الذين يُخْتارون». (٣٣١) ولم يطق الفريسيون المكوث أكثر فبدأوا ينصرفوا وقلوبهم تشتعل نارا من الحقد على هذا «المعلم» الذى أهانهم كما لم يفعل أحد من قبل وواصل «المسيح» حديثه «هذا هو ما كتبه «أيلياس» (٣٣٢).

«إيلياس عبد الله يكتب هذا لكل من يريد أن يسير مع الله ».

«من يريد أن يتعلم كثيرا فعليه أن يخشى «الله» قليلا ومن يخشى الله يكتفى بأن يعلم ماذا يريد الله منه ».

«من يطلب كلاما مزوقا فإنه لا يطلب الله لأن الله لا يفعل إلا توبيخ خطايانا ».

«على من يريد أن يكون صالحا أن يحاسب نفسه فقط لأنه لا يفيد الإنسان شيئا إن يربح الدنيا ويخسر نفسه فلا يحكم إلا على نفسه ».

«على من يحب أن يجد الله أن يبحث عنه فى نفسه فإنه لن يجد الله خارجه وعليه أن يُحْكِم إغلاق أبواب ونوافذ بيت الله حتى لا يخرج الله من بيته. ألاَ أن بيت الله هو قلب الانسان والله يكره أن يوجد خارج بيته ».

«على من يريد تعليم الآخرين أن يكون أفضل من الآخرين بالفعل فى حياته لا بالادعاء فإن الانسان لا يستفيد شيئا ممن هو أقل منه كيف يتوب الخاطىء إذا تلقى النصيحة ممن هو شر منه ؟! »

«على من يريد أن يجد الله وأن يكلمه الله أن يفر من محادثة البشر والإختلاط معهم فإن موسى بن عمران كان وحده على جبل سيناء حين تلقى كلام الله ».

«ولأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده دائماً فى هذه الدنيا فعليه أن يقلل من إنشغاله بشئون معيشته فى قليل من الوقت ففى يوم واحد يمكن أن يدبر معيشته لمدة عامين ».

«عليه إذا أكل أن يقوم عن المائدة قبل أن يشبع وأن يكتفى بثوب واحد من جلود الانعام وعلى التراب ينام فإنه كان كتلة من التراب ويكفيه قليل من النوم كل ليلة وألاَ ينتظر الغد وإذا تكلم فليقل ماهو ضرورى فقط وإلا فليزم الصمت وأن يقضى وقته كله فى التفكير فى آيات الله ومتى صلى فلينظر إلى موضع سجوده ولا يكثر من الكلمات وليتصور أنه واقف أمام الله فى يوم الحساب فلينظر إذن ماذا يقول حينئذ وماذا يريد ».

«وعليه ألاَّ يبغض أحداً إلا نفسه التى تسول له الخطيئة فإن فعل كل ذلك متمسكا بشريعة الله فلا بد أن يجد الله وحينئذ سيشعر فى كل وقت وفى أى مكان أن الله فيه وأنه في الله».

كان الفريسيون يواصلون التسلل فرارا من الإستماع وقال «زكا» أنظر يا معلم فإننى أعطى نصف أموالى للفقراء وإن كنت قد وشيت بأحد فإننى عن طيب خاطر أرد أربعة

أضـعاف ما أخذت حبا فى الله وأرد أربعة أضـعاف ما أخذت بالربا لعل الله يغفر لعبده الذى أخطأ كثيراً (٣٣٣) وجلس «زكا» وهو يبكى كطفل فتهلل وجه «المسيح» وقال : «اليوم ظفر هذا البيت بالخلاص وهو الآن إبن لإبراهيم ».

«حقاحقا إن كثيراً من العشارين والزوانى والمرذولين سيحضرون إلى الجنة بعد ما يموتون وسيذهب الذين يتوهمون أنفسهم أبرارا ليكابدوا نيران جهنم» فاستبد الحنق بمن بقى من الفريسين وأندفع أحدهم وقد استشاط غضبا «كيف تقول هذا عن الخاطئين لا بد أنك واحد منهم »(٣٤٥) .

فقال «المسيح» «لماذا تنظر إلى القشة التى فى عين أخيك ولا تنتبه إلى الخشبة التى تخترق عينك وتكاد تشج رأسك ».

«كيف تقول لأخيك دعني أخرج القشة من عينك وها هى الخشبه فى عينك تعميك فلا تستطيع أن ترى. يا مرأئى أخرج الخشبة من عينك أولاً وحينئذ فقط تستطيع أن ترى وتعرف كيف تخرج القشة من عين أخيك الخاطىء مثلك لا تدينوا لكي لا تدانوا لأنكم بالكيل الذي تكيلون به يكال لكم »

ولم يتمالك من بقى من الفريسيين أنفسهم فأندفعوا يخرجون وهم يتميزون من الغيظ وحاول بعض الحاضرين أن يهدئوهم ويطيبوا خاطرهم يدعونهم للبقاء للإستماع الى «المعلم» لكنهم أشاحوا عنهم بوجوهم وهم يلوون أعناقهم لا يطيقون الإستماع إلى أحد .

فقال «المسيح» «لا تطرحوا الجواهر الثمينة أمام الخنازير لكيلا تدوسها بأقدامها الملوثة ثم تلتفت إليكم فتمزقكم ».

«أتركوهم فإن «القُدسّ» لا يعطى«روحه» للكلاب (٣٢٥) .

«ماذا تظنون ؟!» .

«كان لإنسان إبنان فقال لهما أذهبا إلى الحقل اليوم لتعملا بدلا منى فقد صرتما الآن قادرين على ذلك ».

«فقال الأول يا أبت أتركنى فإننى اليوم لا أريد وذهب ليلعب وقال الثانى سمعا وطاعة يا أبى ثم أنصرف ولكنه لم يذهب للحقل ليعمل بل ذهب أيضا للسوق ليلعب .

ولكن الأول ندم فأسرع دون أن يقول لأحد إلى الحقل وأخذ يعمل قبل أن تغيب الشمس أما الثانى فظل يلعب حتى غابت فأى الإبنين أطاع أباه؟» قالوا «الأول» .

قال «المسيح» «الحق أقول لكم إن العشارين والزوانى وكل الخاطئين الذين ندموا على أنهم قد عصوا الله يسبقون أولئك الذين قالوا بألسنتهم سمعنا وأطعنا وهم لم يسمعوا ولم يطيعوا فويل لهم .لقد جاء «يحيى بن زكريا» سائراً فى طريق الحق فمن الذى آمن به؟! ؟! إنهم العشارون والزوانى هم الذين آمنوا به فندموا على ما فعلوه أما الذين يظنون أنفسهم أبراراً فلم يندموا ولم يؤمنوا فسحقا لهم ».

«ماذا تظنون» ؟! (٣٣٦) .

«إن كان لأحدكم مائة خروف ثم ضاع واحد منها أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال فى البرية ويذهب ليبحث عن الضال حتى يجده وإن وجده أفلا يفرح به أكثر من التسعة والتسعين حتى أنه يضعه على منكبيه ويمضى فرحاً إلى بيته ويمر على أصدقائه وجيرانه ويقول لهم تعالوا لتفرحوا معى بالضال الذى وجدته ».

«دلونى على امرأة ليس عندها إلا عشرة دراهم إن ضاع منها واحداً ألا توقد السراج وتكنس البيت وتفتش عنه باجتهاد حتى تجده !! فإن وجدته فإنها تفرح به أكثر من الدراهم التى لم تضع منها ».

«الحق أقول لكم إن الله يفرح بخاطىء واحد يتوب أكثر من ذلك الرجل وتلك المرأة ».

«وإنه يكون فى السمآء فرح بتوبة خاطىء واحد أكثر من عبادة تسعة وتسعين من الذين يظنون أنفسهم بارين غير محتاجين الي التوبة،، »

«إندفع واحد من المتكئين معه على المائدة يقول : «طوبى لمن يأكل خبزا عند الله (٣٣٧).

فقال «المسيح» «كان لإنسان إبنان فجاء الأصغر وقال له يا أبت أعطنى نصيبى من المال فحزن الأب لأنه علم أن أبنه يريد مفارقته وأنه سيشقى بعيدا عنه ولكنه لم يشأ أن يرفض طلبه فقسم لهما المال وأعطى كل واحد منهما نصيبه فبقى الأكبر فى جوار أبيه أما الأصغر فلم يلبث إلا قليلا ثم باع نصيبه من ملك أبيه لأنه كان يريد أن يعيش كما يهوى وسافر إلى قرية بعيدة وأخذ يشرب الخمر ويعاشر الزانيات وينفق بالإسراف حتى نفدت كل أمواله ولم يعد معه شىء ثم حدث جوع شديد فى تلك القرية البعيدة ولم يجد ما يأكله فالتصق بأحد الأهالى من تلك القرية وطلب أن يعمل عنده أجيراً فأمره أن يذهب ليرعى له الخنازير فكان يملأ بطنه عندما يستبد به الجوع من البقايا التى تتخلف من طعام الخنازير وحزن التعيس على المصير البائس الذى آل إليه وقال فى نفسه عند أبى أرزاق كثيرة ويعمل عنده الكثير من الأجراء الذين يأكلون الخبز النظيف والفاكهة إن ما يتبقى من الواحد منهم يكفينى أوَ أمكث هنا حتى أهلك من الجوع وعند أبى كل هذه السعة؟ كلاَّ سأذهب إلى أبى وسألقى بنفسى عند قدمه وأقول له حقا يا أبت لقد أخطأت فاغفرلى إننى لا استحق أن أدعى ابنا لك .....

..... فأتضرع إليك أن تقبلنى كأحد خدمك وعبيدك الذين يعملون بالأجر عندك وبالفعل فر التعيس من تلك القرية البعيدة وذهب إلى أبيه لكنه لم يجسر على الدخول عليه فظل واقفا غير بعيد عن البيت لا يعرف كيف يذهب إليه وبأى وجه يستطيع مقابلته .

وحدث أن الأب خرج من البيت فرأى إبنه واقفاً غير بعيد منكس الرأس فهرول الأب إلى ابنه وركض الإبن نحو أبيه ثم ألقى بنفسه عند قدميه يريد تقبيلهما فرفعه الأب إليه قائلاً .

«قم يا بنى فليس هذا مقامك .»

قال الأبن «يا أبت لست مستحقاً أن أُسمَّى أبنا فاقبلنى كأحد أجرائك» قال الاب : لا تقل هذا يا بنى فإنك ابنى لا أسمح أبداً أن تصير عبدا لى ».

ثم نادى الأب على خدمه وعبيده قائلاً «ألبسوه أفضل الأثواب وأجعلوا الخاتم فى يده وأعطوه نعلين جديدين وأذبحوا العجل المسمن وليكن الآن فرح وطرب لأن أبنى هذا كان ضائعا فوجدته وميتا ثم عاد إلى الحياة ».

وبينما كان الجميع يفرحون فى البيت حيث تعالت الضحكات وأصوات الغناء كان الأبن الأكبر قادما من الحقل بعد أن ظل يعمل حتى غروب الشمس فلما اقترب من البيت أدهشه ما يرى ويسمع فقال لأحد الخدم الواقفين عند الباب :

«لماذا هذا الطرب ؟»

قال الخادم «لقد عاد أخوك فذبح له أبوك العجل المسمن وقال ليكن الآن فرح وطرب».

فأغتاظ الأكبر غيظا شديدا وأندفع غاضبا إلى أبيه الذى قام له وهو يضحك ويقول له تعالى يا بنى لتفرح معنا فإن أخاك قد عاد فقال الأكبر : «لقد خدمتك خير خدمة سنين طويلة فلم تذبح من أجلى حملا صغيرا . إننى لم أتركك ولم أخالف أمرك وعملت كل ما أمرتنى به ومع ذلك لم تفرح ولم تصنع لى مثل ما صنعت مع هذا الخسيس الذى هجرك وأنفق أموالك على الزانيات وجلب لك العار ولكنه ما أن جاءك حتى فرحت به وذبحت له العجل المسمن ...

قال الأب «يا بنى إنت معى فى كل حين وكل أموالى تحت يدك ولم أبخل عليك بشىء ولكن أخاك هذا كان ميتا فعاد إلى الحياة وكان ضائعا فوجدناه فتعالى معنا لنفرح سويا».

لكن الأكبر ازداد غضبا من كلام أبيه وقال له «إجلس أنت لتأكل أما أنا فلا أجلس على مائدة الزناة» وأنصرف من البيت دون أن يأخذ حتى قطعة واحدة من النقود وترك القرية حيث ضاع الى الأبد .(٣٣٨)

(٢٥)

روح القدس

«أم خلقوا من غير شيء»

«أم هم الخالقون ؟»

(الطور ٣٥)

خرج «المسيح» من أريحا قاصدا جبل الزيتون فى طريقه الى «أورشاليم» وكانت أنباء مسيرته قد انتشرت فى كل القرى والمدن من الجليل شمالا إلى اليهودية جنوبا مرورا بالسامرة وعبر الأردن. زلزلت تلك المسيرة «أورشاليم» التى كانت تستعد لإستقبال ضيوفها فى عيد المظال الذى كان على الأبواب .

وكان الهجوم الشديد الذى شنه «المسيح» على الفريسيين فى «أريحا» قد قطع كل رجاء في إمكان إبرام «مصالحة» بينه وبين رجال الهيكل إذ أسرع الفريسيون الذين تلقوا صفعاته على مائدة «زكا» بالهرولة إلى الهيكل لإ بلاغ كبار الكهنة والشيوخ بالسباب المقزع المهين الذى كاله المدعو «عيسى الناصري» للطائفة وللهيكل دون حساب وتغلب الرأى الذى ينادى بالقضاء على «عيسى الناصري» بقتله حماية للشعب من الضلال ومحافظة على «الهيكل» المقدس وأضطر القليل من شيوخ الفريسيين الذين كانوا يحترمون «المعلم» في قرارة نفوسهم إلى كتم ما يعتقدون فى صدورهم وهم يرون الغضب الشديد يجتاح الكهنة والشيوخ إذ أصبح بقاء «المسيح» حيا أمرا يهددهم بفقدان كل شيء .

وبدأ رجال الهيكل فى التخطيط واتخاذ التدابير للخلاص من هذا «الساحر» الخطير. والطريقة معروفة ومجربة ومضمونة النتيجة. إرسال بعض «الجواسيس» إلى حيث يعلم

الرجل المطلوب إصطياده لمعرفة القضايا التى يتكلم فيها ، ثم يرتدى هؤلاء «الجواسيس» ثوب المؤمنين المتحمسين الراغبين فى معرفة الحق ومن ثم يبدأون في إلقاء أسئلتهم ذات المغزى ليتلقوا الإجابة التى يمكن تأويلها إن لم تكن صريحة لبيان أن ذلك «المعلم» يعطى الشعب تعليما فاسداً يدعوه للتمرد على السلطة وحبذا لو كانت الإجابات صريحة لا تحتاج لجهد كبير فى التأويل وفى حضور رجال السلطة حيث يُسهِّل ذلك إثبات الجريمة و «أذل الغنم» لن يفعلوا شيئا ليفسدوا تلك الخطة المحكمة. لقد نجحت الطريقة مع «يحيى» وستنجح مع «عيسى»، أبلغ رجال الهيكل «بيلاطس» بأن مثير القلاقل المدعو «عيسى الناصرى» يزمع أن يقتحم «أورشاليم» فى عيد المظال الوشيك وأنه الآن فى جبل الزيتون يستعد مع رجاله فعليه هو الآخر أن يستعد حتى لا يفاجأ بالأمر وعليه أن يبرهن على ولائه لروما المقدسة التى يحكم بإسمها وأن يثبت أنه جدير بهذه المهمة العسيرة وإلا فإن هناك كثيرين مستعدين لإثبات ذلك .

وبدأت «أورشاليم» تتحدث عن مجيىء «المسيح» إليها فهل سيكون ذلك اقتحام الفاتحين المنتصرين ؟! وأى جيش ذلك الذى يستطيع «عيسى الناصرى» أن يكونه ليصمد أمام جيش روما فى «أورشاليم» وعاودت القلوب ذكريات فتح «أورشاليم» على يد الملك «داود» فهل سيثبت «عيسى» أنه حقا جدير بأن يكون إبناً لداود ؟! هل رضى الله أخيرا عن شعبه وسيعود المجد القديم بعد طول انتظار ؟! ولم تطق «أورشاليم» صبراً ولا ضيوفها القادمين للإحتفال بعيد المظال فأخذت الجموع تتوافد على جبل الزيتون تبحث عن «المسيح» وتستمع إليه وتفكر كيف سيدخل «الملك» ابن داود عاصمة أبيه لينتزع عرشه من لغاصب الغريب وتتساءل فى حيرة واضطراب «تُرى أين يخبىء جيشه ؟! .»

إننا لا نرى خيولا ولا سيوفا أو دروعا كالتى كان «داود» يتقن صنعها . «أين يخبىء جيشه ؟!» فى هذه الجموع كانت «العيون» تنقل الأخبار للمتربصين فى الهيكل الذين

ملاهم السرور لأن «المعلم» كان يتناول فى بعض أحاديثه خطايا «أسرائيل» التى يعاقبه الله عليها بالحكام الظالمين والجبابرة الذين لا رحمة عندهم وهو إتجاه يفيد الخطة الموضوعة مع حثه لبيان حكم الشريعة المقدسة وتشجيعه على إقامة حدود الله بهذا يدخل المصيدة ونرتاح من ازعاجه إلى الأبد .

وبدأ التلاميذ الملتفون حول «المعلم» فى الجيل يفقدون قدرتهم على التماسك وهم واقعون تحت ضغوط الخوف من المصير المجهول إذ أن المستقبل بالنسبة أليهم أما أن يكون حاشية الملك المحيطة بالعرش حيث السلطة والمال والوجاهة أو أن يكون «الصليب» حيث يلقون حتفهم معلقين على خشبة وهم محتقرون وملعونون مثل قطاع الطرق والمشاغبين الذين تمسك بهم السلطة الرومانية إذا فشلت الخطة ؟ ولكن أى خطة إنهم لا يعرفون لماذا جاء بهم هذا «المعلم» الغريب إلى هنا تاركين أهليهم وأعمالهم وأملاكهم حقاً لماذا جاء إلى هنا ولماذا يريد أن يذهب الى «أورشاليم» ؟ .

إنه لم يقل لنا فلماذا أخفى عنا هذا . ألسنا تلاميذه الذين تبعناه تاركين كل شىء من أجله فلماذا أخفى عنا ؟! .

لقد ذهب بعضهم إلى «أورشاليم» ليبتاعوا طعاما وهناك عرفوا أن «أورشاليم» تستعد للقائه وسمعوا عن الملك المنتظر وعن رياح المجد التى هبت لكنه لم يخبرهم عن شىء من هذا فلماذا ؟! .

هل سيتخلى عنهم ويستغنى عن خدمتهم بعد أن يظفر بعرش أبيه ؟

هل سيكون ذلك جزاؤهم بعد أن تركوا كل شىء من أجله ؟

كيف سيواجه الجيش الرومانى ؟

إنه لم يُعدّ لذلك شيئا . صندوق المال الذى وضعه فى يد «يهوذا الإسخريوطى» ليس

فيه ما يكفى لشراء شىء من الأسلحة اللهم إلاَّ قليلا من السيوف فهل سيفتح «أورشاليم» بسيفين أو ثلاثة ؟

بل إنه حتى لم يأمر بشراء شىء من الأموال التى جمعناها من تبرعات وصدقات الأثرياء الطيبين إلا الطعام فقط فكيف سيحارب وهل سيأمرنا بالقتال. نحن لم نقاتل أبدا من قبل ولم يطلب منا أن نتدرب على القتال. أم تراه سينزل ملائكة من السماء ليقاتلوا معه نسمعه يتحدث مع من لا نراه فهل أتفق مع الملائكة أن ينزلوا من السماء فى اللحظة المناسبة ليفاجئوا الجيش الرومانى ويأخذوه على حين غرة ؟!

ولكنه أيضا لم يخبرنا عن شىء من ذلك حتى يطمئن قلوبنا على الأقل. فلماذا يتركنا فى كل هذا الفزع ويجلس هادئا يعلم القادمين إليه أو يصلى غير عابىء بنا وقد وضع مصيرنا فى مهب الريح ؟ .

جاءه رجل يشكو من سوء خلق أمرأته وأنها تسىء إليه وطلب مشورته هل يطلقها ؟. فأمره «المسيح» أن يمسكها وحذره من مغبة طلاقها . وحينئذ إندفع واحد من الفريسيين الذين جاءوا إليه يريدون أن يصطادوه بخطأ لعلهم يستطيعون أن يردوا إليه بعض الإهانات التى أفرط كثيرا فى صبها عليهم قال وقد أحسوا أن الفرصة قد جاءت أخيرا للنيل من هذا «المتغطرس» الذى لا يحترم أحدا . «أوَلا يحل للرجل أن يطلق أمرأته ؟»(٣٣٩).

قال «المسيح» «أما قرأتم أنَّ الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى. ذكراً واحداً وأنثى واحده وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه يلتصق بامرأته ويكون الإثنان واحداً» .

«إذن فقد صار الإثنان بكلمة الله واحداً.لقد جمع الله الإثنين وجعلهما واحداً فكيف يمكن للإنسان المخلوق أن يفرق ما جمعه الله الخالق ».

فاعترض الفريسى الحانق قائلا «فلماذا إذن أمر «موسى» بالطلاق وأوصى أن تُعْطَى المطلقة كتاب طلاق ؟»

فصدمه «المسيح» بقوله : من أجل غلاظة قلوبكم أذنَ لكم أن تطلقوا نساءكم ولكن فى البدء لم يكن الأمر هكذا .،،

فصمت الفريسى ولم يجد ما يقوله إنه لم ينقض شريعة «موسى» أو يخطئها بل أقر بها ولكنه بَيَّنَ أن الطلاق إنما شرع ليمارسه غلاظ القلوب الذين لم يرتفعوا ليدركوا سر الزواج ويتذوقوا مودة الله ورحمته التى تفيض عند جماع الذكر والأنثى الذى جعله الله طريقا لمعرفة التوحيد وصولا إلى مطالعة الوحدة المترفعة وراء أحجبة الكثرة الظاهرة. أفحتى فى هذه المسألة وعند هذه اللحظة التى بدت مواتية استطاع أن يصفعهم مرة أخرى دون أن يقدروا على رده وانصرفوا ساخطين. عندما أنفرد التلاميذ «بمعلمهم» فى الليل سألوه عن هذه المسألة أيضا إذ استعصى عليهم أن يفهموا سر بغضة للطلاق فأخذ يشرح لهم كيف أنه من قسوة القلب أن يهجر الرجل المرأة التى أختارها الله له والتى أعطته نفسها وكشفت له راضية عن عورتها وتخلت معه عن حيائها متنازلة عن كبريائها وهى تفصح عن رغبتها فى الإتصال وأخذت منه ميثاقا غليظا أن يكون لها وتكون له وفى لحظة الوصال يصير الإثنان كما قال الله واحداً وتحمل له أبناءه الذين هم مخلوقات الله فى بطنها فيتغذون من جسدها ثم يرضعون من ثديها فكيف يجرؤ بعد كل هذا على أن يطلقها وكيف يجرؤ على أن يحرم أماً من أطفالها ثم قال لهم «فليرضى كل رجل بالمرأة التى اختارها الله له وليصبر على عيوبها فإن ذلك له أفضل .»

فقال التلاميذ وقد تعسر عليهم فهم كلامه وقبوله «إن كان شأن المرأة مع الرجل كما تقول فالأفضل ألا يتزوج الرجل حتى لا يأثم»

فقال «المسيح» «ليس جميع الناس يستطيعون أن يتحملوا هذا الا الذين أُعْطِى لهم

فكما أنه يوجد خصيان ولدوا على هذا النحو من بطون أمهاتهم ويوجد خصيان خصاهم الناس فإنه أيضا يوجد خصيان خصوا أنفسهم من أجل الملكوت ومن استطاع فليفعل ولكن إذا كنتم قد سمعتم أنه قيل لا تزن فأنا أقول لكم إن من نظر الى أمرأة لا تحل له بشهوة فقد زنى بها فى قلبه .»

لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل (٣٤٠) .

أقترب العيد ولم يفصح لهم «المعلم» عن شيء وزاد من فزعهم كثرة «الغرباء» الذين كانوا يندسون وسط الجموع التى أقبلت على «المسيح» تنتظر تحركه نحو «أورشاليم» .

كان هؤلاء «الغرباء» يكثرون من الأسئلة ويمعنون النظر فى كل شيء وبتدقيق شديد وتردد التلاميذ على «أورشاليم» يتتبعون الأخبار ويحاولون قراءة المستقبل المفعم بالغموض. ولم يتغير فى «المعلم» شيء فهو على حاله يطيل الصلاة والسهر وبالليل يناجى ربه ويتكلم مع من لا يرى وفى الصباح يستقبل الذين يأتون إليه لأسباب شتى ولم يعد فى إمكانهم أن يصبروا أكثر من هذا على صمته المريب فأندفعوا يقولون : يا سيد من المؤكد أن الفريسيين قد أتفقوا مع الكهنة ولا بد أنهم سيصنعون شيئا فماذا سنفعل ؟ .

قال «المسيح» فى هدوء (٣٤١) : «الحق أقول لكم إن الرؤساء وشيوخ شعبنا من الكهنة والفريسيين يتربصون بى يريدون قتلى ولقد اقتربت لحظة مغادرتى الدنيا لأعود إلى السماء؟! ».

استولى الفزع على الجميع إذن فلن يكون هناك مجد مُسْتَرد ولا عرش مُنْتَزَع بل لن يكون هناك قتال بل قتل، قد جئنا إلى هنا وتحرشنا بالجميع لكى تذبح فى النهاية ذبح الاغنام ربما لنصير مثل «يحيى بن زكريا» الذى لا يوجد له مثيل فى بنى أسرائيل .

آه من جنون الإنسان وما أشد حماقتنا أن إنسقنا وراء هذه الأوهام، ماذا سنفعل الآن ما هو مصير رعاياك يا ملك اليهود المزعوم ؟!.

وصرخ «بطرس» وهو يدفع معلمه «قائلا هيا فلنهرب الآن لن نذهب إلى «أورشاليم»، كان كالطفل المذعور الذى استولى عليه الخوف يريد أن يجذب أباه بعيدا عن الوحش المسعور الذى يراه فدفعه «المسيح» بعيداً عنه وقد أحمر وجهه من الغضب وعلا صوته «إذهب بعيدا عنى يا شيطان. إنك عثرة لى. أتخشى الناس ولا تخشي الله الذى خلقك وخلق جميع الناس إنك لغبى ولا تدرى ماذا يقول لسانك ؟!»

«ألاَ تعلم أنه يجب علّى أن أحتمل الإضطهاد كما أحتمله كل الانبياء والصديقيين ولن أقول لك ما قاله «داود» «إذا كان الله معنا فمن يكون علينا ولكننى أقول لك لا تكن جبانا إلى هذا الحد فإنه على الأقل يوجد قوم معنا كما يوجد قوم علينا .»

وأنصرف «المسيح» غاضبا وواصل صعوده على الجبل حتى أختفى عن أعينهم .

«قوم معنا وقوم علينا»إذن هى الحرب بم سنحارب ولم يجهز أسلحة لم يطلب إلا سوطاً جدلناه له من الحبال أفبهذا السوط سيهجم على جنود روما المدججين بالسلاح .؟!

وجلس التلاميذ يفكرون فى الهاوية السحيقة التى دُفِعُوا إلى حافتها يوشكون أن يسقطوا فيها .

ربما فر من هنا وتركنا وحدنا فى هذا الجبل كما فعلها من قبل فيأتى جنود «بيلاطس» وخدم الهيكل ليأخذونا الى السجن ثم إلى الصليب أو السيف لنصبح أعظم رجال بنى اسرائيل. ياله من مجد عظيم جآءنا على غير انتظار .!!

وأوشك النهار أن ينصرم فأندفع «بطرس» و «يعقوب» و«يحيى» ابنا زبدى» و «برنابا» ليروا أين ذهب «المسيح»، كان الفزع يملأ قلوبهم أن يكون قد فروتركهم كما فعلها من قبل عند «قيصرية «فيليبُس» حيث هرب إلى دمشق. كلاَّ إن هذه المرة جد مختلفة فإن الكهنة والشيوخ يشحذون السكاكين. يجب أن نعثر عليه وأخذ الأربعة يقتفون أثره يريدون الحصول عليه صاعدين على الجبل وعلى حين فجاة وجدوه قائما يصلى على قمة الجبل

وهيئته تتغير (٣٤٢) إذ أبيض وجهه وتلألأ كأنه الشمس وأبيضت ثيابه كأنها قد صنعت من الثلج وجاء الغمام فغشيهم ولمحت أعينهم الشاخصة كأن رجلين قد أتيا فى الغمام ثم غاب كل شيء ولم ينتبهوا إلاّ على يد «المسيح» وهى تقيمهم لأنهم سقطوا فأخذوا يفركون عيونهم كأنهم يستيقظون من «رؤيا» وبعد أن أفاقوا ... قالوا «للمسيح» «من الرجلان اللذان ظهرا كالشمس وسط الغمام ؟ »

قال «هما أحمد (ايليا) وموسى قد آتيا يتكلمان معى عما سيحدث عندما أعود إلى الأرض بعد أن أرتفع من هنا» ولم تزدهم أجابته إلا تعجباً. «ايليا» الذى لم يولد بعد و «موسى» الذى مات منذ أكثر من ألف عام جاءا معاً ليتحدثا إليه على هذا الجبل وما معنى أن يعود الى الأرض بعد أن يصعد كما يقول من هنا ؟ .

أيتحدث عن البعث من القبور وقيامه الأموات ؟! .

فإن كان هذا صحيحاً فمتى سيأتى «إيليا» الذى يقول عنه «أحمد» وأصابهم الدوار فسألوا «يا معلم فلماذا يقول الكتبة إن «ايليا» يجب أن يأتى أولاً .قبل قيامة الأموات؟(٣٤٤).

قال «المسيح»: «حقاً إنه سيأتى قبل قيامة الأموات. يجب أن يأتى أولاً ليبين كل شيء ثم أنزل أنا ثم تنتهى الدنيا لنقوم مع الأموات .»

ما كل هذه الحيرة وما معنى هذا الاضطراب. عمن يتحدث هذا الرجل. آهٍ من هذا الكلام الذى لانستطيع أن نفهمه لكن رؤيته وهو يتحول إلى البياض ومجيىء الغمام والرجلين المشرقين كالشمس فى وسطه كانا أكبر من أن يجحدا فوقع فى قلوبهم أنه صادق وأنَّ كلامه صحيح وإن لم يفهموا بوضوح ما يعنيه. كانت هذه هى أول آية تحدث لهم ويكونون شهداء عليها على نحو يخالف شهودهم للمعجزات الأخرى .لقد شاركوا فى هذه «المعجزة » فقد رأوه وهو يتلألأ وغشيهم الغمام وسقطوا مغشيا عليهم بعد أن عجزت عيونهم عن أن تواصل الرؤية وثقلت آذانهم عن الأستماع لكنهم تاكدوا أن ثمة شئ حقيقى

قد وقع وأن هذا «الشيء» قد مسهم وشعر هؤلاء الشهود بالفخر فقال: «بطرس»: «جميل يا «معلم» أن كنا هنا فإن شئت صنعنا على هذا الجبل ثلاث «مظال» لك ولموسى ولإيليا». كانوا يريدون تخليد هذه اللحظة لكن «المسيح» واصل صمته وهم ينزلون إلى بقية التلاميذ الذين كانوا ينتظرون في حيرة وقد هبط الليل فلما أحسوا أن «المعلم» قد جاء وأنه لم يهرب ويتركهم زايلهم بعض خوفهم وبات الجميع ليلتهم وهم يتقلبون يفكرون «تُرى ماذا سيحدث في الغد ؟ ..»!

في الصباح وقف «المسيح» خطيبا أمام الجمع الذي زحف إليه وكان قد عزم على السير إلى «أورشاليم» فقال :

«من أراد أن يتبعني فلينكر نفسه وليحمل صليبه وإلاَّ فليتركني. فإن من يرد أن ينجو بنفسه يهلكها ومن يبذل نفسه في سبيل الله ينقذها. ماذا ينفع الإنسان لو ربح الدنيا كلها وخسر نفسه. إنه لا يستطيع حينئذ أن يستردها لأن الله لا يقبل فداءاً عن نفس الانسان .

«فماذا ستعطي يا أيها الإنسان فداء عن نفسك وأنت لا تملك حينئذ شيئا ؟ .»

«الحق أقول لكم أنه من آمن بي في هذا الجيل الفاسق فإنه سيحصل على الحياة الأبدية عند ما يأتي إبن الانسان مع الملائكة يوم يحاسب الله كل انسان على عمله ».

«الحق أقول لكم أنه يوجد قوم لا يذوقون الموت بعد أن يفلتوا من قبضة الأرض حتى يروا أبن الانسان عائداً .أولئك هم الذين نالوا حقا نعمة الله (٣٤٤) إنهم يصعدون بعد أن يخلعوا أجسادهم بالموت ويتكئون مع الأنبياء والرسل ويشهدون «ملكوت الله» عندما يأتي.»

وتوهجت الحماسة في قلوب المستمعين وزحفوا خلف «المسيح» إلى «أورشاليم» ولكن التلاميذ كانوا يتلفتون من الحيرة والخوف. لا يعرفون ماذا يُراد بهم. كان الجمهور الصاخب الذي أنضم الى المسيرة يتوهم أن «المسيح» سيعلن نفسه «ملكاً» لليهود في الهيكل وأن المجد العتيد قد صار على بعد خطوات قليلة فأخذ يعلو صوتهم «مجدنا في

الأعالى مباركة مملكة «داود» ومباركة مملكة أبنه. استعدى يا «أورشاليم» قد جاءك الملك. ها هو ملكك يابنت صهيون قد أتاك منصورا (٣٤٥) .

وأنضم إلى المسيرة الصاخبة كل الذين كانوا يقصدون «أورشاليم» حتى أن كثيرا من الفريسيين وإن أكل قلوبهم الحقد على هذا «الملك» إنضموا أيضا للمسيرة الصاخبة حتى لا تفوتهم الفرصة .

وبلغ «الحماس» ببعضهم أن فرشوا ثيابهم على الأرض حتى يسير عليها «المسيح» وذهب آخرون وأحضروا أغصانا من الشجر وكانت الأصوات تتعالى حتى خيل للجميع أن «أورشاليم» تهتز وأخذ الناس يقولون «هذا هو النبى القادم من الناصرة .»

وأندفعوا يتزاحمون ليعرفوا ماذا سيفعل فى «أورشاليم»وأسرع كثيرٌ من الفريسيين ليكونوا فى الصف الأول بالقرب من «المسيح» رغم النار التى تشتعل حسدا فى قلوبهم من هذا الرجل الذى لم يترك فرصة واحدة إلا وأهانهم يحاولون أن يكونوا فى الواجهة حتى تقع عليهم عيناه ولكنهم لم يتمالكوا أنفسهم لما تعالت صيحات الناس مرحبة «بالمسيح» وهو يدخل «أورشاليم» فقالوا له «يا «معلم» قل لإتباعك أن يكفوا عن هذا الصراخ «المزعج» فنظر إليهم «المسيح» بإذدراء وقال لهم : «لو سكت هؤلاء فإن هذه الحجارة ستصرخ .»

وأسرعت «العيون» تبلغ رجال الهيكل بالمسيرة التى تقترب وأسقط فى يد الكهنة والشيوخ ولم يعرفوا ماذا يصنعون. إن الرجل قد أتى فى جمع من الناس لا يحمل سيفا ولا درعا فلا يستطيعون أن يتهموه بأنه أتى ليستولى على الهيكل بالقوة وليس مع أحد من رجاله أى سلاح وفوق كل ذلك فإنهم لا يعرفون ماذا يريد بالضبط؟ لماذا جاء الى «أورشاليم» فى هذا العيد؟ ماذا ينوى أن يفعل؟ هذا ما عجزوا تماما عن الوصول إليه أو حتى تخمينه وهم لا يستطيعون أن يرسلوا إليه من يقتله وهو فى هذا الحشد من أتباعه الذين يتفجرون بالحماس، لم يكن أمامهم إلا الانتظار والترقب .

على باب «أورشاليم» وقف «المسيح» فجأة فاضطرب الجمع المندفع ثم توقف وأشار «المسيح» لمن حوله أن يجلسوا وأن يصمتوا ففعلوا ثم أخذ الجميع يجلسون وهم يتحيرون حتى إذا خيم الصمت على الجالسين وهم يتطلعون إلى «مشرق الوجه» بعيون شاخصة .

قال : (٣٤٦) «إنسان شريف الأصل أصابه السأم لأن أهل قريته لم يقدروه حق قدره فأراد أن يسافر إلى مدينة بعيدة فيها ملك البلاد كلها ليأخذ منه شارة الإمارة ثم يرجع إلى قريته لعلهم يقبلونه «ملكاً» عليهم بعد أن يروا «العلامة» التى وهبها له الملك .

«ولكنه لم يشأ أن يترك أهل قريته الذين أحبهم رغم أنهم لم يحبوه دون أن يترك لهم شيئا فأختار من بين خدمه عشرة عبيد من أهل القرية وقال لهم سأعطى كل واحد منكم قطعة نقود واحدة لتتاجروا فيها حتى أرجع من غيابى الذى سيطول كثيرا فتاجروا بنقودي حتى أعود إليكم ».

«أما أهل قريته فقد كانوا يبغضونه حتى أنهم أرسلوا وراءه رسلاً إلى الملك يقولون له لا نريد أن يرجع هذا إلينا ليكون ملكا علينا فلا تعطه شيئاً لكن الملك رفض طلبهم لأنه يعلم أنهم أشرار فأعطى الإنسان الشريف «العلامة» وعاد إليهم رغما عنهم ملكا عليهم ».

«أول شيء فعله بعد أن عاد هو أنه استدعى عبيده العشرة الذين أعطاهم نقوده قبل أن يسافر ليعرف ماذا فعلوا بفضته أثناء غيابه ».

«فجاء الأول وقال يا سيد قد تاجرت وها هى قطعة نقودك قد ربحت عشرة فقال «الملك» نعما أيها العبد الصالح .لأنك كنت أمينا فى القليل الذى أخذته فسوف أعطيك الكثير فأذهب وليكن لك سلطان على عشر مدن ».

«ثم جاء الثانى فقال ياسيد قد تاجرت كما أمرتنى وها هى قطعة نقودك قد ربحت خمسة فأعطاه سلطانا على خمس مدن وظل يستدعى عبيده ويسألهم ويكافئهم على قدر أمانتهم فيما تركه لهم حتى جاء الأخير فقال يا سيدى هاهى قطعة نقودك قد وضعتها فى

منديل ودفنتها فى التراب حتى تعود فأردها إليك لأننى كنت أخاف منك لأنك إنسان صارم وقاس فكيف تريد أن تأخذ منى ما تعبُت أنا فيه أتريد أن تحصد مالم تزرع إن هذا لظلم!!

فقال الملك «من فمك أدينك أيها العبد الشرير .

كيف عرفت أننى قاس أريد أن آخذ مالم أتعب فيه وأحصد ما لم أزرع .؟!

لو كان الأمر كما تقول فلماذا قبلت قطعة النقود منى ؟

ولماذا احتفظت بها وأخفيتها . كان جدير بك أن تضعها على موائد الصيارفة وتتركها فكنت استردهامع ما ربحت عندما أعود .

ثم قال الملك لجنوده خذوا قطعة النقود منه وأعطوها لمن ربح عشر قطع .

فتعجب الجنود كيف يعطى من عنده أكثر .؟!

فقال لهم الملك إن من عنده أكثر يأخذ ومن ليس عنده فالذى معه يؤخذ منه ويطرح مع أعدائى .أولئك الذين لم يحبوا أن أصبح ملكا عليهم .

أيها الجنود أئتونى بهم وأذبحوهم أمام عينى .»

لم يكن محتاجا بعد هذا المثل البليغ إلى أن يقول أنه قد أوشك أن يرحل من الأرض وأنه لم يأت إلى «أورشاليم» قاصدا أن ينصب نفسه مَلِكًا فإن وقت مُلْكِه لم يأت بعد فلا بد أن يرتفع إلى السماء صاعدا إلى ربه الذى سوف يعطيه الملك ثم يعود إلى الأرض ليكون مَلِكًا يحكم بإسم الله وأن قومه لم يؤمنوا به بل مقتوه إلى حد أنهم لا يحبون عودته وأنه لن يترك لهم إلا «التعليم» الذى علمه الله له ولن يعطيه إلاَّ لبعض خلصائه الذين أختارهم من قومه المبغضين له وأنه عندما يرجع من سفره الطويل سوف يحاسب الذين أئتمنهم على «تعليمه» فيكافىء الذين كانوا أمناء فى حفظ رسالته ونشرها صحيحة بين الناس وهذا هو معنى التجارة فى المثل وسوف يعاقب الذين خانوا رسالته فيكون مصيرهم مثل

مصير أعدائه الذين كرهوه وأعلنوا الحرب عليه. فكلا الفريقين سيكون مصيره الهلاك. لم يكن محتاجا إلى أن يقول شيئا لأن المثل كان واضحا حتى للذين لم يفهموه على نحو دقيق. نبرة الحزن فى صوته والدموع التى فاضت من عينيه وهو يلتفت إلى «أورشاليم» لم تكن تحتاج إلى شرح أو تفسير.

لقد أراد أن ينبه الشعب السادر فى غيه إلى أنه لم يأت إليهم لينصب نفسه ملكا وأن«الملكوت» الذى جاء الى بنى اسرائيل ليبشرهم به ليس هو أن يصبح ملكا عليهم ليرد إليهم المجد الذى ضاع منهم وإنما هو النبوة الكاملة التى ستظهر للدنيا فى صورة «النبى» الذى يختم الأنبياء «النبى» الذى سيرسله الله إلى الناس جميعا. إلى كل الشعوب والقبائل ليدعوهم الى الدخول فى رحمة الله هذا هو «الملكوت» الذى جاء الى «أورشاليم» ليبشر به ويدعوهم للإيمان به واعدا أياهم بأن من يؤمن بنى بدعوة نبى آخر فأجر نبى يأخذ. جاء الى الدنيا ليقول لهم أن «روح القدس» الذى خلق الله منه كل شىء قد أوشك أن يأتى وأن مجيئه هو نفسه من العذراء التى لم تكن تعرف الرجال دليل على أن «روح القدس» يسعى للظهور لكنهم لم يكونوا يريدون «النبوة الكاملة» بل يريدون الدنيا يتحرقون شوقا لعودة المجد الدنيوى الذى أسرع بالضياع من بين أيديهم. لقد ضاع المجد لأن الذين يستحقون المجد قد ماتوا لكن القوم كانوا يصرون على أنهم يستحقون المجد مهما كانت خطاياهم.فأنيّ يجدون رحمة الله؟! .

لقد سكبت خطبته ماء باردا على حماسهم المشتعل ثم جاءت دموعه وهو يتجه حزينا الى «أورشاليم» مقتربا من الهيكل لتطفىء البقية الباقية من حماسهم .

زالت حماستهم وخمدت الأصوات وتباطأت الخطوات وأضطربت القلوب وسَمِعَه الذين فى جواره وهو يقول باكيا كأنه يرثى المدينة التى كانت تتربص به «آه لو علمتِ ما هو لسلامك .آه لو تعرفين من الذى تحملين الآن فى يومك هذا لكنه قد أُخْفِى عن عينيك

ستأتى الأيام التى يحيط فيها بكِ أعداءك يحاصرونك من كل جانب. سيهدسونك ويشتتون أبناءك ولا يتركون فيك حجرا على حجر لأنكِ بقسوة قلبك لم تعرفى زمان افتقادك (٣٤٧). وفر الفريسيون من جانبه وذابوا وتراجعت الجموع عن السير حتى التلاميذ تباطئوا عنه وهو يتقدم نحو الهيكل .إنه فى الحقيقة كان يسير وحده !! .

دخل الهيكل بمفرده حتى تلاميذه وقفوا على مبعدة منه وأنهال ضربا بالسوط على التجار الواقفين فى الهيكل مع أبقارهم وأغنا مهم ففروا من أمامه وقد أمتلأت قلوبهم بالرعب منه وهم يجذبون أنعامهم ثم التفت إلى باعة الحمام فأنتهرهم وأمرهم أن يأخذوا بضاعتهم إلى خارج الهيكل ثم قلب موائد الصيارفة وكب الدراهم على الأرض وصرخ فيهم :

«بيت الله قد جُعِل للصلاة وأنتم قد حولتموه إلى مغارة لصوص» (٣٤٩) وهوى الصيارفة على الأرض يحاولون جمع قطع النقود التى تبعثرت على الأرض مع الصكوك التى سجلت عليها الديون ثم أسرعوا يهربون الى الخارج وهم ينظرون للكهنة والشيوخ الذين كانوا واقفين مذهولين قد ألجمتهم المفاجأة «كيف تسمحون لهذا الرجل بفعل هذا». كانت عليه مهابة لا يستطاع وصفها ويتصرف بسلطان من يعرف أنه لا يمكن مقاومته أو اعتراضه. فرض مشيئته على الجميع واندفعت الجموع الى داخل الهيكل لترى ما يحدث اذ أثار فضولهم خروج الباعة مع أنعامهم والصيارفة وهم يمسكون بنقودهم وصكوكهم .يفرون هاربين كأن زلزالا قد حدث داخل الهيكل فأطبقت الدهشة على الجميع وهم يرون «المسيح» يضرب بالسوط وينتهر الجميع ولا أحد يملك أن يقاومه حتى الكهنة والشيوخ وقفوا وقد سُلِبت أرادتهم لا يستطيعون قولاً أو فعلا .

ثم أفاق الكهنة والشيوخ من «قهرهم» وتقدم إليه كبير الكهنة وقد انتبه إلى أن مهابة رجال الهيكل فى عيون «الرعاع» قد أهتزت بعنف.

كان يحاول أن يتمالك نفسه يستجمع أشلاء شجاعته التى تبعثرت على الأرض وهو يتقدم نحو السيد «المسيح» الذى وقف شامخا كأنه الجبل .

وحاول رئيس الكهنة أن يعطى صوته المهابة التى تليق بكبير الكهنة ولكن دون فائدة فخرج صوته مرتعشا يقطر بالمذلة قال : «من أعطاك سلطاناً لتصنع ما صنعت ؟! .

قال «المسيح»: «الله الذى أيدنى «بروح القدس» وبه أصنع ما رأيت .»

قال كبير الكهنة: «وما هو «روح القدس» هذا ؟! .»

قال «المسيح»: «القوة التى خلق الله بها كل شىء. النور الذى أعطى كل نبى نبوته وكل مؤمن إيمانه .«روح الله» الذى وهب كل شىء حياته .

قال الكاهن «أوَتَجرؤ يا هذا على الزعم بأن قوة الله معك .»

قال «المسيح» «نعم. الحق أقول لكم إننى لا أحمل قوة الله بل إن قوة الله هى التى تحملنى فإن «روح القدس» الذى وهبنى حياتى هو الذى وهبكم حياتكم أيضاً ولكنكم لا تعلمون .

قال الكاهن «ومادليلك على ما تقول ؟! .

أرنا آية تبرهن بها على صدق ما تدعيه !! ».

قال «المسيح» «**أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن «الله»** (٣٤٩)

وأندفع «المسيح» يخرج من الهيكل وأندفع الجميع وراءه يريدون أن يتحققوا من صدق ما قاله .

إنحنى إلى الأرض فاقتطع قطعة من الطين ثم سكب عليها بعض لعابه وأخذ يشكلها

فى صورة طائر بأصابعه كأنه صانع تماثيل ثم قرب الطائر الطينى من فمه فنفخ فيه فإذا بالطين يتحول إلى طائر بديع يطير بجناحيه. إنطلق طائر «المسيح» وطفق يحرك جناحيه كأنما يؤكد للجميع أنه طائر حقيقى وأن «مسيح» الله صادق ثم أخذ يُحَوِّم فوقهم والعيون شاخصة إليه قد أسرها سلطان «الروح» الذى وهب الطين حياة طائر خرجت من فم «المسيح». كانت آية الله أكبر من أن تجحد فبُهِتَ الكهنة والشيوخ وأنبهرت الجموع التى شهدت «المعجزة» واستعاد التلاميذ والأتباع شجاعتهم فاندفعوا يتسابقون نحو «المسيح» الذى أمر بألاَّ يجتاز أحد مهما كان «حرم الهيكل» وهو يحمل متاعاً. وأسرع يدخل متجهاً نحو دكة الوعظ ليلقى على الشعب كلمة الله .

قال (٣٥٠) إنسان رب بيت خرج من بيته وأعد حقلا أحاطه بسياج حتى لا تدوسه الأنعام وبنى فيه برجا ثم سلمه إلى فعلة اتفق معهم على أن يزرعوا الحقل ويأكلوا منه نظير أن يؤدوا إليه نصيبا من الثمار يرسل بعض عبيده ليتسلموها منهم ثم سافر عائدا إلى بيته ».

«فلما جاء وقت الثمار أرسل عبيده إلى فعلته يطلبون نصيبه لكن الفعلة ضربوا العبيد وجَلَدُوهم وصرفوهم من الحقل خالين ».

«وصبر رب البيت لعل الفعلة يرجعون عن خطيئتهم وجاء وقت الثمار فى العام التالى فأرسل عبيده لكن الفعلة أهانوهم فرجموا بعضهم وقتلوا بعضهم وأرسلوا الباقين خالين وصبر رب البيت لعلهم يرجعون .»

«أخذ يرسل عبيده فى مواسم الحصاد لكن الفعلة لم يعطوه نصيبه المتفق عليه معهم وأخيرا قال رب البيت أرسل إليهم ابنى لعلهم عندما يرونه يهابوننى فيرجعون عن خطيئتهم ويعطون النصيب المتفق عليه لكن الفعلة لما رأوا الإبن قالوا فى أنفسهم لقد أرسله ليأخذ الحقل منا فهذا هو الوارث الذى يستغنى به رب البيت عنا هلموا نقتله لنصبح نحن ملاك

هذا الحقل فأمسكوا بالإبن ودفعوه الى خارج الحقل يريدون قتله وعلم رب البيت بما يريدون فعله فأرسل جنوده. قولوا لى متى جاء رب البيت ماذا يفعل مع هؤلاء الفعلة ؟ .

قال أحد الحاضرين : «إنه يقتلهم شر قتلة ويسلم الحقل لفعلة آخرين يعطونه الثمار فى أوقاتها .»

قال «المسيح» «أمَا قرأتم قط فى الكتب الحجر الذى تركه البناؤن قد صار رأس الزاوية ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط عليه الحجر يسحقه. من عند الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا. الحق أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تؤدى أثماره ويل لكم لأنكم كفرتم بالأنبياء وقتلتموهم (٣٥١)

واشتعلت قلوب الكهنة والشيوخ بالحقد عليه لأنهم عرفوا أنه يقصدهم بهذا المثل ويخبر أن الله ينزع النبوة من بنى إسرائيل ولكن ماذا يفعلون له والجموع التى شهدت تحقق صدقة قد أندفعت نحوه تريد أن تلمسه أو تقبل يده بينما كان يشق طريقه إلى خارج الهيكل. وخرج إلى المدينة فتقدم إليه المرضى من كل نوع يسألونه أن يصلى من أجلهم ثم شق طريقه إلى جبل الزيتون يتبعه التلاميذ وجم غفير من الذين شهدوه فى الهيكل .

كانت سيطرة «الساحر» القدير على الجمهور أكبر من أن يستطيعوا مقاومتها كما أن دخولهم فى مواجهة صريحة معه أمام الناس سوف يفقدهم ما بقى لهم من احترام فى أعين الناس لأن «الساحر» القدير لن يتورع عن إهانتهم وقد أيقنوا أنهم لن يستطيعوا مجاراته ولذلك اتفق كبار الكهنة والشيوخ على ألاَّ يتركوه ينفرد بالشعب المنبهر «بمعجزاته» عليهم أن يشغلوه على الدوام بالأسئلة الجرحة التى تؤدى به إلى إغضاب السلطة الرومانية. هذا هو أفضل طريق للإطاحة به دون أن يتحملوا أمام الشعب إثم دمه المسفوك تماماً كما صنعوا فى «يحيى بن زكريا» الذى يظن الشعب أن «هيرودوس» وحده

هو الذى قتله ومن ثم فهو يصب جام غضبه ولعناته على رئيس الجليل «الفاسق» الذى ذبح الرجل الصالح ويخرجون هم من حمأة الأثم دون أن تتلطخ سمعتهم عند الناس. وإن لم يحققوا نجاحهم بهذه الطريقة السهلة فعليهم أن يلجأوا الى إثارة الخلافات وتهييج الفتنة فى الشعب فيُمْكِن إتهامه أمام السلطات بأنه مثير للقلاقل وعلى السلطة أن تتخذ الإجراءات التى تضمن أستقرار الأمور أو على الأقل فإن تلك الأسئلة الكثيرة الصعبة قد تظهر بعض نقاط ضعفه فتقلل من تأثيره على الشعب .

وبدأ تنفيذ المكيدة، اقترب «المعلم» مع تلاميذه ومن صحبوه يريد دخول الهيكل وأندفع المرضى من كل جانب يريدون أن يجعلوه يلمسهم أو يصلى عليهم أو حتى ينظر إليهم لعلهم يجدون شفاء لأمراضهم .

ودخل الهيكل جمع كبير من النساء وهن يحملن أطفالهن وتعالى بكاء الأطفال وصراخهم واختلط بأصوات الصياح التى كان يطلقها أطفال آخرون يقولون «المجد لأبن داود» يحاكون الأصوات التى هزت «أورشاليم» بالأمس .

واستشاط الكهنة والفريسيون غضباً مدعين المحافظة على وقار الهيكل وهم الذين كانوا حتى الأمس فقط يسمحون للأبقار والأغنام أن تدنس الهيكل بمخلفاتها ويأذنون للتجار والصيارفة بممارسة نشاطهم داخل الحرم :..... صاحوا فى غيرة زائفة على الهيكل قائلين له «أتسمع هؤلاء» وأشاروا إلى الأطفال ،

فقال فى هدوء «نعم أما قرأتم قط فى الكتب من أفواه الأطفال والرضع هَيَّأْتُ تسبيحا(٣٥٢) ثم تركهم وأنصرف فقابله جماعة من الفريسيين وقالوا فى تأدب كاذب يتصنعون أنهم قد جاءوا يطلبون معرفة الحق «يا معلم نعلم أنك صادق وأنك تنطق بالحق وتعلم الناس بالحق شريعة الله وأنك لا تنظر إلى وجوه الناس ولا تبالى بأحد لأنك لا تخشى إلا الله وحده فقل لنا بالحق أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا ؟»

نريد أجابة محددة نعطى أم لانعطى ؟!(٣٥٣).

قد أخذوا يكيلون له الثناء ليدفعوه إلى إجابة عنيفة ليظهر أمام الجمهور فى صورة القائد البطل الذى لا يخشى قوة «ورما» وجبروتها وبهذا يحصلون على هلاكه بأبسط وسيلة وأخذ هو يمعن النظر إلى وجوههم وقلوبهم الخبيثة ثم قال فى بساطة «يامراؤون لماذا تريدون الفتنة». صدمتهم أجابته ولكنه واصل قائلاً : «أرونى معاملة الجزية» فأسرع كل واحد منهم يخرج بعض قطع النقود من جيبه فتناول «المعلم» ديناراً من أحدهم وعلى أحد وجهيه صورة قيصر وتساءل مدعيا ُالجهل « لمن هذه الصورة ؟! .»

فقالوا : «لقيصر »

قال : «إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

ألجمتهم أجابته فلم يستطيعوا أن يصطادوه. إنه لم يُفت بإباحة أن يعطى الشعب الجزية إذ لم يصرح بجواز إعطائها لأنه تحدث عن الصورة المرسومة على العملة فإنهم إن أشاعوا أن «المعلم» الذى يدعى العلم بالشريعة يبيح أن يعطى «شعب الله» الجزية لحاكم كافر وقد بنى الفريسيون «مجدهم» عند الشعب بإدعاء أنهم يرفضون خضوع «شعب الله» للحكام الغرباء ذلك الخضوع الذى يتمثل أوضح ما يكون فى دفع الجزية .إن فعلوا ذلك لكانوا هم الذين يحرضون الشعب على الإمتناع عن دفع الجزية لأنهم يوبخون الذى أباحها ومن ثم يظهرون هم فى صورة المتمرد على سلطة «روما» وفى نفس الوقت فإن إجابته الماكرة لم ترفض إعطاء الجزية هكذا وقفوا واجمين لا يستطيعون أن يقولوا شيئا .

لقد أراد «المسيح» أن يفضحهم أمام الشعب الذى تجمع لينظر فَهَاهم الذين يدَّعون أنهم يرفضون الخضوع للحاكم الغريب ويدعون أنهم يريدون العودة إلى تقاليد الشعب المقدسة هاهم يتعاملون مع السلطة الكافرة كأوثق ما يكون التعاون ويحرص كل واحد منهم على أن يحتفظ بأكبر قدر يمكنه الحصول عليه من عملة السلطة الكافرة وهم يقبلون

دفع الجزية فعلاً ولا يجسرون على المجاهرة برفضها فليس سؤالهم الإ للإيقاع به وهو مالم يستطيعوا الظفر به .

لقد فشلت الطريقة الأولى فلنجرب الثانية .

تقدم إليه جماعة من الصدوقيين الذين لا يؤمنون بقيامة الأموات وحجتهم فى ذلك أن أسفار موسى الخمسة كما تسلموها لا تذكر البعث من القبور ولا تنبىء عن خلود الروح أو قيامة الأموات .

قالوا (٣٥٤) «يا معلم» لقد كتب لنا «موسى» أنه إن مات رجل دون أن ينجب فعلى أخيه أن يتزوج أمرأته ليقيم منها نسلا لأخيه وكان عندنا سبعة أشقاء تزوج الأول امرأة ثم مات دون أن يكون له أطفال فتزوجها الثانى ومات دون أطفال فتزوجها الثالث وهكذا ظل السبعة يتعاقبون عليها دون أن تنجب أطفالا ثم فى النهاية ماتت المرأة فإن قام الأموات لمن تكون تلك المرأة فى القيامة وقد كانت للسبعة فى الدنيا ولم تنجب من أى واحد منهم ؟ ».

قال «المسيح» «إنكم تضلون ضلالا بعيدا إذ تجهلون كلام الله الذى نطق به انبياؤه وإذ لا تعرفون قدرة «الله» خالقكم القادر على كل شىء .»

إن الناس فى الدنيا يتزوجون ويتناسلون لأنهم يموتون فلا أحد من الخلق لا يموت. التكاثر بالزواج هو الطريق التى منحها الله للمخلوقات لكى يقاوموا الموت الذى لا ينجو منه أحد من الخلق وبذلك يحفظوا الحياة على الأرض مدة مكْث الدنيا ».

«أما فى الآخرة عندما تزول الدنيا فإن الناس سيصبحون مثل الملائكة. فمنذ البعث من القبور لن يموت أحد من الذين أُعْطُوا أن يكونوا أهلاً للحياة الأبدية فمن وهبه الله أن يكون صالحا للبقاء فى رحمته لن يذوق الموت أبدا. إذن فلن تكون هناك حاجة إلى التناسل والتكاثر على النحو المشهود فى الدنيا لأنه لن يكون هناك موت. وفى الجنة حيث السعة

التى لا حدود لها والوفرة التى لا تنتهى يعطى الله كل واحد من مختاريه الحياة التى يرضى بها ولن يكون هناك غل أو حسد. إنكم تضلون ضلالاً بعيداً إذ تجهلون كلام الله الذى نطق به أنبياؤه وإذ لا تعرفون قدرة خالقكم القادر على كل شيء. أما من جهة قيامة الأموات التى تنكرونها فقد ثبتت من كلام «موسى» الذى تزعمون أنكم تؤمنون به !!

وأصابهم الفزع «كيف؟!» قال «ألم يصف الله نفسه عندما نادى موسى قائلاً أنا إله إبراهيم واسحق ويعقوب فلو كان ابراهيم واسحق ويعقوب ينعدمون بالموت ولا يبقى منهم شيء وهم الآن كما نعلم أموات فكيف يصف الله نفسه بأنه إله لهم أيكون إلهاً للأموات؟! أيكون إلها للعدم؟! كلا ».

«إذن فلا بد أن أبراهيم واسحق ويعقوب أحياء يعبدون الله ولذلك وصف نفسه عندما نادى موسى بإنه إله لهم وإذا كانوا أحياء أفلا يكون بوسعهم أن يعودوا إلى أجسادهم عندما يشاء الله الذى وهبهم الحياة. إنهم الآن أحياء عند ربهم فى السموات مثل الملائكة وسيعودون إلى أجسادهم عندما يبعثهم «روح الله» من القبور ».

وبهت الصدوقيون إذ نقض إعتقادهم بنفس النص الذى يدعون أنهم يؤمنون به وأنصرفوا خائبين .

وكان هناك بعض الفريسيين الذين أعجبهم رده على الصدوقيين وأدهشتهم قدرته الفريدة على فهم النص وإستخلاص المعانى منه. لقد جادلوا الصدوقيين كثيراً فى أمر قيامة الأموات ولم يلتفت واحد منهم إلى أن أسفار موسى كما دُونت يمكن أن تبرهن على قيامة الأموات على هذا النحو البديع الذى أظهره «المعلم». كم مرة قرأوا قول الله «أنا إله ابراهيم وإسحق ويعقوب» ولم يدركوا أن هذه الكلمات نفسها تثبت قيامة الأموات .

وأندفع إلى «المعلم» واحد من الكتبة الفريسيين الذين طاب لهم إفحام خصومهم الصدوقيين فقال له «حسنا أجبت يا «معلم» فهل تسمح بأن تخبرنا أى الوصيا أعظم فى

الناموس (٣٥٥) كان هذا الكاتب الفريسى هو «نيقود يموس» أحد شيوخ الفريسيين الذين يخطبون فى الشعب. قال «المسيح» :

«أول الوصايا وأعظم الوصايا هى قول الله إسمع يا اسرائيل الربُ إلهك واحد يجب أن تحب الرب إلهك من كل قلبك وبكل فكرك وبكل قدرتك هذه هى الوصية الأولى وهى أولى الوصايا بالإتباع .

ثم بعدها الوصية الثانية تحب قريبك كنفسك بهاتين الوصيتين يقوم الناموس كله ومن أجلهما جاء كل الأنبياء .

قال الفريسى الكاتب «حسنا يا «معلم» أجبت. فإن الله واحد ولا إله سواه ومحبته من كل القلب وبكل الفهم وعلى قدر الجهد ومحبة القريب كالنفس أفضل عند الله من جميع المحرقات والذبائح.»

فنظر إليه «المسيح» بإمعان وأحبه وقال له : ياأخى إنك لست بعيداً عن الملكوت» ولكن الفريسيين الآخرين الذين كانوا يشهدون هذا الحوار خافوا أن يظن الناس أن الفريسيين قد آمنوا بنبوة المدعو «عيسى الناصرى» فاندفع واحد منهم قائلا «ومن هو القريب ؟ من هو قريبى ؟! .»

كان يريد أن يقطع سريان المودة الذى سال بين «المعلم» والكاتب الفريسى «نيقود يموس» الذى أُعْجِب به يحاول أن يثير الخلاف القديم بين اليهود العبرانيين والسامريين والذى أدى فى النهاية وبعد صراع طويل وحروب مريرة إلى القطيعة الكاملة حيث اعتبر شيوخ اليهود أن «السامريين» قوم مرتدون عن شريعة الله ولا يستحقون أن ينالوا شرف الإنتماء إلى «شعب الله» المختار بينما أعتبر السامريون أن أنبياء «بنى اسرائيل» الذين جاءوا من بعد موسى ليسوا بأنبياء صادقين مرسلين من الله بل هم ملوك ورؤساء للشعب العبرانى وليس أكثر وأن الأسفار المقدسة الجديرة بالإعتبار هى أسفار موسى فقط اما ما

زاد على ذلك فهو تاريخ للشعب اليهودى العبرانى لا يعنيهم فى شىء وكان من بين الإتهامات التى قرر الكهنة والشيوخ أن يلصقوها «بالمسيح» إتهامه بأنه رجل سامرى غير معروف الأصل من جهة أبيه فالأرجح أن يكون سامرياً والدليل على ذلك أنه يدخل قرى السامريين ويتعامل معهم ويخالف بذلك أوامر الشيوخ التى يقولون عنها بألسنتهم أنها شريعة الله لذلك سأل الفريسي الغليظ القلب «المعلم» من هو قريبى ؟ ليكون هذا السؤال مقدمة للكلام عن السامريين الذين يستحيل دخولهم تحت إسم «القريب» لأنهم مرتدون عن شريعة موسى ويُتَّهم «المسيح» بأنه يؤيد السامريين ويندلع الخلاف وتهتز صورة المعلم» فى عيون المعجبين به من اليهود وقرأ «المسيح» بإسم الله ما يدور فى قلب الفريسى لذلك أجاب على سؤاله قائلا : (٣٥٦).

«كان انسان نازلاً من «أورشاليم» إلى «أريحا» فوقع بين لصوص أمسكوا به وجردوه من ثيابه وضربوه حتى أشرف على الهلاك ثم تركوه على الطريق بين الحياة والموت .

وحدث أن كاهنا مر بالطريق عند ذلك الموقع فلما رأى الجريح الذى أوشك على الهلاك لم يأبه به وسار فى طريقه حتى دون أن يلقى عليه التحية ثم مر عليه «حَبْرٌ» من سبط «لاوى » فألقى عليه نظرة ثم مضى فى طريقه دون أن يفعل له شيئا .

ثم مر رجل سامرى فلما رأى الجريح ملقى على الأرض بين الحياة والموت تحنن عليه فنزل من فوق فرسه ثم أخذ الجريح فطهر جراحه ببعض الخمر الذى كان معه ثم دهنها بالزيت وضمدها ثم حمله ووضعه على فرسه وسار به الى أول نزل قابله فسلمه لصاحب النزل ليعتنى به وفى الصباح لما أراد ان يذهب اعطى صاحب النزل بعض النقود وقال له : « إعتني بهذا الجريح حتى يبرأ ولاتبخل عليه بشئ ومهما أنفقت عليه فإننى عند رجوعى سوف أدفع لك كل شئ أنفقته عليه ..

ثم قال للمصاب «لاتحزن يا أخى. إصبر حتى أعود اليك فإننى سأرجع من سفرى وسأذهب بك الى بيتى لتعيش معى»

«قل لى أى الثلاثة كان قريبا للرجل الجريح»

فأضطر «الفريسى» أن يقول «الذى صنع معه رحمة»

قال «المسيح» «بالحق أجبت فإن قريبك هو الذى صنع معك رحمة وأقرب أقربائك هو أرحم من رحمك فاذهب يا أيها الفريسى وأصنع كما صنع السامرى فإن لك فيه أسوة حسنة »

نزلت كلمات «المسيح» كالخنجر فى قلب الفريسى لأن «الفريسى» يرى أنه من الإهانة التى لاتغتفر أن يشبهه أحد بسامرى فما بالك بالذى يجعل السامرى مثلا وقدوة تحتذى. لم يستطع أن يقول شيئا فلقد أبطل «المسيح» بالمثل الذى ضربه. الكلام الذى كان ينوى أن يقوله بعد سؤاله.

وقال الفريسى غليظ القلب لنفسه إن الشيطان يركب ظهر هذا «الساحر» الماكر وينبئه بكل شئ !!

وانقضى النهار كله فى جدال أرادوا به اصطياد «الساحر» القدير وتشويه صورته فى أعين الجمهور الذى احتشد فى الهيكل ولكن لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا !!

(٢٦)

الأكمه

«فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

(الحج ٤٦)

جاء «المسيح» من جبل الزيتون يحيط به تلاميذه الإثنا عشر الذين صاروا يلتفون حول «المعلم» الذى أظهر قدرة لانظير لها فى التغلب على خصومه وأعدائه وصنع أشياء لايستطيع أحد غيره أن يقوم بها . وبجوار التلاميذ كان يتزاحم الناس الذين أتوا من كل مكان يريدون رؤية «النبى» القادم من ناصرة الجليل الذى صنع « المعجزات » .

وأصبح «المسيح» يفرض سلطانه على الهيكل فلم يعد أحد يستطيع أن يتجاوز «الحرم» وهو يحمل متاعا ولم يعد تجار الأنعام أو الصيارفة يجرأون على الإقتراب من «حرم» الهيكل وأصاب الكهنة والشيوخ غم شديد بسبب هذا «الساحر» الغريب الذى يتصرف بسلطان لاحدود له ولكن لم يكن فى أيديهم شئ للقضاء عليه بطريقة مأمونة العواقب.

إن الحل الحاسم هو قتله ولكن كيف السبيل الى ذلك «الخلاص». إنهم لايستطيعون أن يستأجروا بعض القتلة المحترفين لأن الجميع صاروا يرهبونه ويعتقدون فى قرارة نفوسهم أنه مزود بقدرة خارقة. حتى الكهنة والشيوخ يعترفون بذلك لإنفسهم ولبعضهم البعض ويقولون عن ذلك أن الشيطان الأكبر رئيس الشياطين يركب ظهره ويخبره عن كل شئ يدور فى الخفاء فكيف يمكن محاربة الشيطان الأكبر مع ضمان الفوز عليه أو على الأقل تحقيق الهدف المطلوب بأقل خسائر .

كيف يمكن قتله وهو فى وسط هذه الجموع التى لاتفارقه أينما سار ولايتركونه إلا فى الليل عندما لايستطيعون أن يقاوموا التعب ويأخذهم النوم فى سلطانه. ويسهر هو فى

جبل الزيتون . لايمكن الوصول إليه إلا إذا أنفردنا به فى مكان محصور يمكن السيطرة عليه عندما يكون بمفرده أو وسط عدد قليل من أتباعه . أما فى هذه الجموع الصاخبة فمن ذا الذى يستطيع قتله .

ثم ماهو رأى «بيلاطس» الوالى الرومانى. إن الكهنة والشيوخ لايستطيعون أن يتخذوا قرارا بإعدام المدعو «عيسى الناصرى» لأن السلطة الفعلية فى يد «روما» التى يمثلها «بيلاطس» فى «أورشاليم واليهودية» و «هيرودوس» فى «الجليل» المنطقتان التى يتحرك «عيسى الناصرى» فى نطاقهما .

يجب أن نقنع كلا الرجلين بخطورة هذا «الساحر» والحمد لله لقد نجحنا فى هذا وإن كان «بيلاطس» على وجه الخصوص يحتاج إلى ضغط أكبر لإقناعه بضرورة المشاركة «بحماس» فى القضاء على الفتنة التى يثيرها هذا الرجل المتمرد على كل سلطة ... سلطة «روما» وسلطة الكهنة وسلطة الشيوخ «المتغطرس» العنيد الذى لايأبه بأحد.

واتفق قادة الشعب؛ كبار الكهنة وشيوخ الفريسيين والوجهاء على ضرورة أن يبذلوا جهدا أكبر فى تأليب كلا من «هيرودوس» فى الجليل و «بيلاطس» فى «أورشاليم» ضد المدعو «عيسى» بالضغط المستمر على مقولة أنه يدعو لتنصيب نفسه ملكا لليهود داعيا لتمرد الشعب اليهودى على كل سلطة أجنبية .

وأعترض «نيقود يموس» على هذا الإسلوب الذى يليق بالقتلة واللصوص لا برجال دين يبثون الحق ويجتهدون فى الوصول الى الحقيقة فهدده كبير الكهنة وزملاءه الشيوخ بأنه ربما يكون من أنصاره وسألوه «هل أنت من الجليل أيضا» وكانوا يعرفون أن «نيقوديموس» رغم أنه يسكن فى «أورشاليم» إلا ان أصوله تعود إلى منطقة «وادى قدور» على الحدود بين السامرة والجليل فأضطر الرجل الى كتم رأيه وكظم غيظه من رجال الدين الذين انحدروا ليكونوا قتلة ولصوص كذابين.

وفكروا فى أن يبعثوا إلى «روما» يشكون من القلاقل التى يثيرها هذا «الساحر»

ولكنهم خشوا أن يعد «بيلاطس» هذا العمل منهم تجاوزا لسلطته فيأخذه العناد ويركب رأسه فيعمد إلى الإساءة إليهم ويعطف على «الساحر» الشرير خاصة وقد كانوا يحسون بإحترامه له وتعاطفه معه منذ أن استمع إليه في المحاورة التى جرت من قبل عندما ظهر «المسيح» على شاطئ الأردن بعد اختفاءه وهم يريدون أن يضمنوا تأييد «بيلاطس». العقبة الأساسية كانت هى الأمر الذى أصدره مجلس الشيوخ الرومانى بشأن «عيسى الناصرى» «نبى اليهود» والذى يهدد بالقتل كل من يثير شغبا بشأن «عيسى الناصرى» وهو الأمر الذى صدر عندما وقعت الفتنة فى الشعب اليهودى بسبب الخلاف حول «طبيعة» الرجل القادم من الناصرة المولود من العذراء.

فإن بعض الشيوخ خشى أن تكون محاولة قتله أو حتى الشكوى منه هى نوع من الشغب فى شأنه والذى توعدت «روما». مَن يرتكبه بالقتل خاصة إن لم ينل الأمر تأييد «بيلاطس» الوالى الرومانى الذى يحكم بإسم «روما». لذلك استقر رأى المجتمعين للبحث عن وسيلة للخلاص من «الساحر» على أن يعملوا ما فى وسعهم لضمان تأييد «بيلاطس» لمسعاهم ولا بأس من دفع النقود على سبيل التشجيع والتلميح إلى تصعيد الأمر إلى «روما» على سبيل التهديد. هذا هو الطريق الوحيد المأمون للقضاء على «الساحر». «سنجد طريقة ما للإيقاع به فلا شئ غير ممكن أمام قدرة الله». وحتى يجدوا الطريقة المثلى فعليهم كل يوم أن يحاولوا.

دخل «المسيح» الهيكل فى يوم السبت ثم اعتلى دكة الوعظ وقال :(٣٥٧) «كان لإنسان رب بيت بستان أمام بيته وقد زرع فيه شجرة تين وأوصى البستانى الذى يعمل عنده أن يعتنى بها جيدا حتى تثمر.

وفى السنة الأولى جاء فلم يجد عليها ثمراً فقال لعبده البستانى لماذا لم أجد ثمراً فاعتذر العبد البستانى وقال دعنى أعتنى بها عاما آخر لعلها تثمر.

وبعد سنة جاء مرة ثانية فلم يجد ثمراً فقال لعبده استأصل هذه الشجرة الرديئة من

بستانى وألق بها فى الخارج لأنها تثقل على الأرض وتؤذى بقية الأشجار فضلاً عن أنها تخفى واجهة بيتى فتشوه صورته وتحجب رؤيته.

فقال العبد : "ياسيدى دعها فإنها شجرة جميلة" فقال السيد «اسكت فإنك لاتعلم ماتقول. ثم إننى لايهمنى جمالها الذى ترى إن كان بلا ثمرة فقد كان عندى فى صحن دارى شجرتان نخلة وبلسان وكانا أجمل من هذه التينة الخبيثة وقد زرعتهما بنفسى فى بيتى وأحطتهما بسياج ثمينة لكنها لم يحملا ثمرا بل أوراقا أخذت تتراكم حتى خشيت أن تفسدا البيت فأخرجتهما من بيتى. أفتريد أيها الجاهل أن أعفو عن تينة رديئة لم تعط ثمراً مرتين وأنا لم أعف عن الشجرتين الجميلتين اللتين كانتا فى بيتى.؟!"

إن هذه الشجرة تثقل على الأرض وتؤذى الاشجار الأخرى ولم أعد أحتملها بعد. فانزعها من الأرض.

وتضرع العبد إلى سيده أن يتركها سنة أخرى فقط قائلاً «دعنى أصلح التربة فأزيل منها الأسمدة الكثيرة وأشذب الأغصان لعلها تثمر هذه المرة الاخيرة .»

فقال السيد «فاذهب وأصنع كما قلت وإننى منتظر أيكون ثمر أم لا ؟ أفهمتم هذا المثل؟»

والتفت «المسيح» إلى الجمع المندهش وقد شخصوا بأبصارهم الى «وجهه المشرق» فقال : «رب البيت وصاحب البستان هو الله وأنا العبد الذى استعمله والتينة الرديئة هى هذا الشعب الذى أغلق قلبه عن كلمة الله. أنتم التينة الخبيثة التى لاتعطى ثمراً بل أوراقا لافائدة فيها والنخل والبلسان هما أبليس والإنسان. فإذا كان الله قد طرد «إبليس» من رحمته لأنه أصر على خطيئته وطرد الانسان من جنته لأنه أكل من الشجرة المحرمة. لقد حوله من مخلوق كامل يتنعم فى جنة الله إلى رجل يكابد الشقاء والموت لأنه عصى الله مرة واحدة فماذا يصنع الله بكم وأنتم تصرون على خطاياكم وترفضون رسالته. أفمن طرد

«أدم» من الجنة لأنه عصاه مرة واحدة لايطردكم «كأبليس» من رحمته وأنتم تقتلون أنبياءه ورسله .ألاّ فلتعلموا أن هذه هى المرة الأخيرة لكم.»

«فأقول لكم جاهدوا أنفسكم وأعرفوا خطاياكم لتتوبوا عنها».

وأطبق الصمت على الجمهور وأطرقوا ثم بدأوا ينصرفون. وشعر كبار الكهنة والشيوخ بالسعادة لخمود حماسة الشعب وإنصرافهم متبرمين من خطبة «المسيح» كما أخبرتهم «عيونهم» بما حدث فى الهيكل لأنهم كانوا قد استقروا على أن يتركوا الهيكل له يتحدث فيه ولايدخلونه إلاّ بعد أن ينصرف هو منه ليحاولوا محو تأثيره على الناس «وإصلاح ما أفسده». كانوا يتركون فى الهيكل الخدم وبعض صغار الكهنة يستعملونهم كجواسيس تخبرهم بما يحدث أولاً بأول. ثم بدأت المحاولات الجديدة.

تقدم بعض الجنود الرومانيين الى «المسيح» ليتحرشوا به كما أتفقوا مع الكهنة والكتبة وأخذوا منهم نقوداً كثيرة نظير ذلك.

قال الجنود : «أيها السيد هل يجوز إشعال الحرب »(٣٥٨)

كانْ من الواضح لكل ذى عينين أن هؤلاء الجنود لايجيدون تمثيل الدور المكلفين بأدائه إذ تقدموا إلى «المسيح» فى إرتباك وتكلموا مضطربين. من الواضح أنهم مدفوعون من قِبَل رجال الهيكل للقيام بهذا ولكن المسألة الهامة تتوقف على إجابة «المسيح» فإن قال «نعم» يكون السؤال التالى «من هم الذين تجب محاربتهم» ثم «هل يجوز شرعا محاربة الرومان الكفرة عباد الأصنام الذين يفرضون على شعب الله الجزية ؟»

وتندلع الفتنة ويُقبض على «المسيح» بإعتباره مثيرها .

وإن قال «لا». لايجوز إشعال الحرب «فسيندفع» بعض الكهنة والكتبة ليقولوا «ولماذا أشعل موسى وأنبياء الله جميعا الحرب وبهذه الطريقة أيضاً تندلع الفتنة لكن «عيسى»

أجاب : «إن ديننا يقول لنا أن حياتنا على الأرض هى حرب مستمرة». لم تستطع الأسئلة الأخرى أن تنطلق لكن الجنود قالوا له وقد تذكروا تحريض الكهنة والشيوخ لهم:

«أيها السيد هل تريد أن نترك ديننا وأن تحولنا إلي دينك».

«أتريد أن نعبد إلهك الذى تقول عنه أنه واحد ونترك آلهتنا الكثيرة ولاأحد يعرف أين يكون إلهك هذا لأنه غير منظور على عكس إلهتنا فإننا نراها. ربما يكون إلهك ليس إلا وهماً تتخيله»!!

كان الجنود يتكلمون مثل التلاميذ الصغار الذين يحاولون تذكر مالقنه لهم معلموهم «والمسيح» يطيل النظر إليهم ويفكر فى الهاوية السحيقة التى ألقى الكهنة والكتبة فيها أنفسهم إذ بدلاً من أن يبينوا لهؤلاء الوثنيين خطأهم صاروا يحسّنون لهم عبادة الأصنام ويقولون لهم أن الاصنام الكثيرة التى نراها أفضل من الله الواحد الذى لانراه.

ماذا يستطيع أن يقول الشيطان أسوأ من هذا ؟!.

قال «المسيح» «لو كنتُ أنا الذى خلقتكم لحاولت تغييركم لكن إلهنا هو الذي خلقكم كما خلقنا وخلق كل شئ فإن أراد تغييركم لَفعل». قالوا: «كيف تقول أنه خلقنا ولا أحد يعلم أين هو ونحن لا نراه ولا أحد رآه. إرنا آلهك الذى تزعم ونحن مستعدون أن نصير يهوداً مثلك.»

قال «المسيح» : «لو كانت لكم عيون لكنتُ أريتكم آلهنا ولكنكم عميان فكيف أستطيع أن أجعلكم ترونه.»

قالوا: «حقاً إنك لمخبول كما قالوا ويبدو أن التعظيم الشديد الذي تلقاه من شعبك المفتون بك قد أصابك بالجنون. أيها الأبله ألاّ ترى أن لكل واحد منا عينان فى رأسه فكيف تقول عنا أننا عميان يامجنون.»

قال: «إن عين الجسد لاتبصر إلاّ الصور ومن ثم فإنها لاتستطيع أن ترى إلا الآلهة

الزائفة الخشبية أو الحجرية أو الفضية أو الذهبية التى تعبدونها مع أنها لاتفعل لكم ولا لغيركم شيئا ولاحتى لأنفسها وكما قال النبى «داود» إن إلهة الأمم من ذهب وفضة من صنعة يد البشر ليس لها عين تبصر ولا أذن تسمع ولا لسان يتكلم ولا قدم تسعى عليها ولايد تبطش بها وسيكون مثلها عاجزاً كل من يصنعها بل كل من يعبدها أو يتوكل عليها . يا للكبرياء التى لم يُسْمَع بمثلها قط كبرياء الإنسان الذى ينسى خالقه ويود أن يصنع له آلها أخراً حسب هواه لايأمره بشئ مع أنَّ الله هو الذى خلقه من تراب. حقا إنه يستهزئ بهدوء وبكل بساطة بالله ويقول بعمله أن لافائدة من عبادة الله فانظروا إلى أى هاوية سقطتم أما نحن اليهود فلنا عيون أخرى تتكون لنا من تقوى الله وتمكننا من رؤية آلهنا فى كل مكان.»

قال الجنود فى غضب «إحذر أيها السيد أن تحتقر آلهتنا وإلا سلمناك ليد الوالى الذى ينتقم لآلهتنا القادرة على كل شئ»

قال «المسيح»: «لو كانت قادرة على كل شئ كما تقولون فاسمحوا لى أن أعبدها.» فاندهش الجنود لكلامه ولم يعرفوا ماذا يقولون له ولاماهو سر تغيره المفاجئ وبدأ السرور يخالط دهشتهم لكنه عاد ليقول «ولكننا هنا لسنا فى حاجة إلى كلمات لافائدة منها بل إلى أعمال فاطلبوا من آلهتكم أن تخلق الآن ذبابة واحدة وإنى على استعداد أن أسجد لها الآن ؟!»

وألجم الجنود ولم يعرفوا ماذا يقولون. حقا إن هذه التماثيل لايمكنها أن تخلق شيئا فنحن الذين خلقناها قال «المسيح» «فإذا كانت إلهتكم التى تزعمون لاتستطيع أن تخلق ذبابة واحدة فإننى غير مستعد لأن أترك إلاله الوحيد الذى خلق كل شئ بكلمة واحدة من أجل تلك الأوهام التى لاتعنى شيئا .إن ذكر إسم آلهنا يروع جيوشا».

فقال الجنود «لنرى الآن كيف يستطيع آلهك أن ينقذك من أيدينا» وأنقضوا عليه ليمسكوا به لكن «المسيح» دعا ربه فى سره فتدحرجت الجنود على الارض ثم قاموا وقد

ملأ الر   م فأخذوا يجرون بسرعة وهم يلعنون الكهنة والكتبة الذين إشاروا عليهم وشجعوهم بالمال على الدخول فى هذه المصيدة المخيفة.

خاب رجاء الكهنة والشيوخ وملأهم الغيظ وهم يقولون إنما فعل هذا بقوة الشياطين التى توحى إليه بكل هذه المعرفة وتمده بكل هذه القدرة.

كان «المسيح» مايزال على دكة الوعظ فقال(٣٥٩) «لقد أمر إلهنا بالاّ نسرق قريبنا ولكن هذه الوصية قد أُنتِهَكت حرمتها فامتلأت الدنيا بالخطيئة التى لاتغفر إلاّ إذا رُدَّ إلى صاحبه ماأُخِذَ ظلماً.»

فقال أحد الكتبة وقد أمتلأ بالغيظ من هذا «المعلم» المتعالى الذى يتحدث بكلمات غامضة عسيرة الفهم «كيف ملأت السرقة الدنيا مع أنه لايوجد بنعمة الله إلا القليل من اللصوص والمشاغبين وهم لايجرأون على الظهور لأن الجنود يمسكونهم ويحكم الوالى بصلبهم». قال «المسيح»: «من لايعرف المال لايستطيع أن يعرف السرقة أو اللصوص. الحق أقول لكم إن أكثر الناس يسرقون ولكنهم لايعلمون ولذلك كانوا أكثر خطأ من الذين يسرقون وهم يعلمون لأن المريض الذى لايعرف مرضه لايُشْفَى أبدا إذ أن المرض غير المعروف لايُعَالَج أبدا». فاحتدم الكاتب لعجزه عن الفهم وقال «إن كنتَ وحدك تعرف الحق فعلمنا»

قال «المسيح» «لا أقول لكم أنى وحدى أعرف الحق.»

«ولقد اخطأت أيها الكاتب بذكرك لفظ «وحدك» لأنها تختص بالله وحده فالله وحده هو الذى يعرف الحق وإن ادعيتُ ذلك أكون قد صرت أعظم سارق لأننى أكون قد اغتصبت مجد الله لنفسى. أيها الكاتب إنك قد أخطأت بقولك وإن كنت قد تكلمت تريد الفتنة فخطيئتك قد تضاعفت مرتين.»

فألقم الكاتب الحجر فى فيه ولم ينطق بينما كان «المعلم» يواصل «ومع أنى لست

الوحيد الذى يعرف الحق إلاّ أننى الوحيد الآن الذى له أن يتكلم لأن الله قد أعطانى كلمته فأصيخوا السمع إليّ لأنكم سألتمونى ولأنكم حقا لاتعلمون».

«إن الله هو مالك الأشياء كلها وحده فلايحق أن يدعى الإنسان أنه يملك أى شئ حتى نفسه أو جسده أو أى عضو من جسده. »

«ولذلك يحق لله أن يتصرف فى جميع الأشياء كما يريد لأنه مالكها الوحيد لكن الإنسان عندما يتصرف بالحرية التى وهبها الله له فى الأشياء التى يملكها الله لاكما يحب الله بل بما يخالفه أفلاَ يكون بهذه المعصية مدعيا أنه يملك شيئا هو فى الحقيقة ملك لله وحده. فكل من يرتكب الخطيئة مهما كان ذنبه هو لص لأنه يسرق النَّفْسَ والحياةَ والوَقْتَ وكل ماوهبه الله من أجل أن يعبده ويعطيه للشيطان عدوه فهو بذلك يكون أسوأ لص ».

«بل عندما تقولون سنفعل ذلك غدا أو سنذهب باكرا إلي فلان فأنتم حينئذ لصوص لأنكم تدعون ملكية ما لا تملكون فلا أنتم تملكون غدا ولا تملكون أن تفعلوا فيه ما تقولون. قولوا لى أليس الساخط الذى يتذمر من قضاء الله لصاً لأنه لا يقبل حكم الله فهو إذن يدعى «مشاركة الله فى الحكم بل يدعى ما هو أسوأ من ذلك وهو أنّ حكمه هو الموهوم أفضل من حكم الله الحق فهو إذن أكبر مذنب والذى يستمع إليه راضياً عما يقول مذنب أيضاً. إن الشيطان يقبل لسان الأول الذى ينطق بالسخط ويقبل أذن الثانى الذى يستمع إليه راضياً. »

«ألم يأمر الله بحفظ الأموال والأنفس والأعراض ؟

«فإن حاول أحد أن يسرق أموالك أو يقتلك فقاومته وقتلته ألا يعد صنيعك هذا شيئا حسنا ؟»

«نعم هو كذلك لأن الله أمر به ؟»

وإن حاول أحد أن يسرق عِرْضَك ألا يأمرك الله بالدفاع عن شرفك ؟ أم أن المال أفضل من العِرْض ؟!»

«فماذا يكون جزاء المتذمرين الذين يسرقون مجد الله الذين ينتهكون شرف الله. «إن آباءنا كُتِبَ عليهم أن يكابدوا فى الصحراء أربعين سنة من أجل أنهم تذمروا ولم يرضوا بحكم الله»

ولم يجد الكتبة شيئا يمكنهم أن يخطئوه به فامتلأوا بالحقد عليه.

وأرسل رئيس الكهنة من مخبئة بعض رجاله ليسألوا «المسيح» لعله يتلعثم ويضطرب فتهتز صورته أمام الناس.

قال الأول «أيها المعلم الصالح لماذا منع الله أبوينا من الأكل من الشجرة بعد أن جعلهما يريانها كان الأجدر به أن يسمح لهما بالأكل منها وإلاَّ فكان يجب عليه أن يخفيها عنهما إن كان لايريد أن يطردهما من الجنة».

قال «المسيح» : «لاتدعنى صالحا لأنك تخطئ فإن الله هو الصالح وحده وإنك أشد خطأ لأنك تريد أن يعمل الله طبقاً لإرادتك أنت المخلوق الذى خلقه الله من التراب.»

«هل يخطئ الله لأنه لم يعمل طبقا لهواك يالكبرياء الباطلة.»

«هل يجب على الله أن يوفق عمله ليتفق مع أهوائنا.»

«من الذى يعتمد على الآخر الخالق أم المخلوق ؟.»

«يجب على الانسان ألاَّ يطلب راحة نفسه بل يجتهد ليتفق عمله مع مايحبه خالقنا ولكنى مع ذلك أجيبك.»

«لو أعطى الله الإنسان كل شئ لظن نفسه ندا لله كما فعل «إبليس» فكان يتوهم نفسه سيد الجنة ويطلب كما فعل «إبليس» أن يصير إلها ندا لله. فلو لم يخطئ «آدم» ماعرفنا أنا ولا أنت رحمة الله. إن الله خلق الانسان حرا قادرا على أن يكون صالحا لينال

خلاصه أو يكون شريرا لينال لعنته فلو لم يخلق الله الانسان قابلاً للخطيئة مانال الإنسان رحمة الله الكاملة لأنه لاينالها إلا بالتوبة عن خطاياه التى تخلصه من كبريائه فكبرياء الإنسان الباطلة هى التى تطرده من الرحمة.»

«من كان له نور فى قلبه فإنه يرى بالنور الذى معه فى الظلمات أم الأعمى فإنه لايدرك إلا الظلمات فى النور» فبُهِتَ رسول الكاهن وانصرف مرتبكا

ونزل «المسيح» من فوق دكة الوعظة وخرج الى رواق «سليمان» وجلس ينتظر الصلاة فى الظهيرة(٣٦٠)

فاقترب منه كاهنين شيخين وهو جالس ليستريح وسط تلاميذه وجمع من الناس قال أحدهما «لماذا أكل الإنسان من الشجرة هل أراد الله ذلك أم لا ؟ وكان ظن «رئيس الكهنة» أن يعجز «المسيح» عن الرد. فإن قال أراد ذلك قالا له فلماذا نهاهما وإن قال بل أكلا بدون أرادة الله أو ضد أرادة الله قالا له « إذن فأنت تقول أن الإنسان أعظم من الله لأنه يفعل مالايريد الله فعله بل ضد ما يريد الله».

نظر «المسيح» إليهما بإمعان وهو يتأمل ملامح وجهيهما.

«شيخان كبيران طعنا فى السن ولايزالان يعبثان فى الدنيا يلهوان بكلام الله ويبحثان عن فتنة رسوله وإضلال خلقه. ما أشد ضياع شعب يكون هؤلاء هم قواده.»

قال «المسيح» «إن سوءالكما يبدو لى كطريق مخوف على جبل عال له حرفان عن اليمين وعن الشمال إن ملت لأحدهما سقطت وهلكت لذلك فأنا أسير فى الوسط».

فلما استمع الشيخان إلى كلام «المعلم» أدركا أنه قد قرأ ما فى قلبيهما.

وواصل «المسيح» كلامه: «إن الله لايعمل ليسد حاجة فى نفسه بل هو يفيض بجوده كما يهب الملك عبده حريته ويعطيه ماله ليُظْهِر ثروته وليجعل عبده أشد حبا له بسبب عطائه الذى لاحاجة له إليه ولاضرورة فيه. لذلك خلق الله الإنسان حرا يمكنه كبح الشر فى

نفسه كما يمكنه عمل الخير ولو أراد الله أن يمنع الخطيئة لمنعها ولكنه رغم قدرته على ذلك لم يزد لأن جود الله لايتناقض مع قدرته إذ ليس عند الله تناقض فلم يقاوم الخطيئة في الإنسان من أجل أن ينال الانسان رحمته ويعرف محبة الله له التى لايظفر بها إلا بالتوبة من الخطيئة فيحب آلهه الذى أحبه وآية صدقى أن رئيس الكهنة قد أرسلكما لتسألانى هذا السؤال وهذه هى ثمرة عمره الذى قضاه فى «الكهنوت».

وأخرست المفاجأة الرجلين فهرولا مرتبكين يسرعان إلى رئيس الكهنة الذى احتدم من الغيظ وهو يقول لمن معه من رجال الهيكل «إن وراء هذا «الساحر الملعون» شيطان يلقنه كل شئ وهو يطمع أن يصير ملكاً علينا ولكننا حتما سنجد طريقة للخلاص منه ونفوض فيه الأمر لله. ».

لما صلى فى الظهيرة خرج من الهيكل فرأى شابا أكمها (ولد أعمى) يجلس عند أحد أبواب الهيكل يسأل الناس الصدقة

فقال له تلاميذه: «يامعلم» من الذى أخطأ فيه فأصيب هذا بالعمى منذ ولادته أمه أم أبوه(٣٦١) ؟ يظنون أن العمى هو عقاب على خطيئة ولما كان قد وُلِدَ به فيستحيل أن يكون هو المخطئ.

قال «المسيح»: «لا أمه ولا أبوه ولكن لتظهر آية الله فيه». إذ أوحى الله إليه أنه يَرُد بصر هذا الأكمه «إن الله قد خلقه على هذا النحو ليظهر آيته لتكون شهادة لتبشيرى» وطلب من تلاميذه أن ينادوا على الشاب ، فأسرعوا إليه يقولون قم فإن «عيسى الناصرى» النبى القادم من الجليل ينادى عليك فقام الشاب مهرولا حيث دفعوه أمام «المسيح» الذى أخذ قطعة من الطين وتفل عليها ثم وضعها على عينيى الرجل وقال له «إذهب الى بِرْكَة «سلوام» وأغتسل ترتد بصيرا»

وأسرع الرجل الى البِرْكَة وأغتسل ولم يصدق نفسه وهو يرى الأشياء لأول مرة فى حياته الماء والسماء والسحاب والأشجار والناس.

فخرج من الماء يجرى وهو يصيح «لقد صرت بصيرا» «لقد شفانى النبى القادم من الناصرة» وتعجب الناس الذين رأوه وهم لايصدقون أنه ذلك الأعمى الذى كان يجلس عند باب الهيكل يسأل الناس الصدقة وأمسك به بعضهم وسأله «ألستَ أنت الرجل الأعمى الذى كان يجلس عند باب الهيكل يتسول »؟!

قال «نعم أننى أنا هو» قالوا «فكيف صرت بصيرا». قال «نادى علىَّ رجل وأخذ بعض الطين اللزج ووضعه على عينى ثم أمرنى بالإغتسال فى البركة ففعلت كما أمرنى فصرت بصيرا كما تروننى فالحمد لله».

فأخذه الناس رغمًا عنه إلى الهيكل ليعرضوه على الكهنة والشيوخ حيث كان رئيس الكهنة وكبار الشيوخ قد عادوا الى الهيكل لما أُبلغوا أن «عيسى» قد خرج منه ففوجئوا بالناس يدفعون الرجل الذى كان أكمهاً وأوقفوه أمام «قيافا» كبير الكهنة ومعه جمع من كبار الكهنة وزعماء الفريسيين وقصوا عليهم ماقاله الرجل.

فطلب «قيافا» من الرجل أن يتقدم نحوه وأن يقف باحترام وأن يتكلم بالصدق مؤديا شهادة أمام الله.

ثم سأله «هل وُلدتَ أعمى أيها الرجل »؟

قال الرجل وهو يرتجف من الخوف «نعم»

قال «قيافا» فأعط مجداً لله وأخبرنا أى نبى من أنبياء الله ظهر لك فى المنام وأعطاك نوربصرك»..........

«هل هو أبونا إبراهيم أم موسى صاحب الشريعة أم نبى آخر ؟!»

كان «قيافا» يحاول أن يُوحِى إلى الرجل بالإجابة التى يجب أن يقولها ويتمنى من كل قلبه أن ينطق الرجل بالكذب فيختار واحداً من الأنبياء الذين ذكرهم له وعلى سبيل التحذير ختم بقوله «فإن واحداً غير هؤلاء لايستطيع أن يفعل شيئا كهذا ؟"

قال الرجل «ياسيدى الكاهن العظيم إننى لم أكن نائما ولارأيت أحداً فى حلم ولكننى كنت جالسا كما اعتدت عند باب الهيكل أسأل الناس أن يعطوننى لأننى كما قلت ولدتُ أعمى فلم استطع أن أكسب عيشى من أى مهنة وجاءنى رجال طلبوا منى أذهب إلى رجل فقمت معهم ثم صنع الرجل ماقد سمعته فصرت بصيرا وهذا هو كل شئ»

قال «قيافا»: «قل لى ماذا فعل بالضبط "؟

قال الرجل متحيراً «وضع شيئاً من الطين اللزج على عينى ثم أمرنى بالإغتسال فى بركة «سلوام» أمام الهيكل ففعلت كما أمرنى فصرت بصيرا. هذا هو كل ما أعرفه.»

«لقد ذهبت بالطين على عينى ثم عدت بنور عينى كما أخبرنى هو بالضبط ولا أعرف ماذا اقول أكثر.»

قال «قيافا» «هل تعرف اسمه ؟.»

قال «سمعتهم يقولون «عيسى» النبى القادم من الناصرة.»

قال قيافا «هل تعرفه هل رأيته من قبل»؟!

قال الرجل «ياسيدى الكاهن إننى ولدت أعمى وظللت أعمى حتى ذهبت إلى البركة منذ لحظات كما أمرنى فكيف أكون قد رأيته من قبل والله إننى حتى هذه اللحظة لم أره.!!»

«وإن كان واقفا الآن بيننا فإننى لاأستطيع معرفته»

قال «قيافا» «متى حدث هذا ؟!»

قال الرجل وقد بدأ ينفذ صبره « الآن ياسيدى منذ لحظات قصيرة كما قلت»

قال «قيافا» : «إذن فقد أبرأك فى السبت».

قال الرجل «إن كان اليوم هو السبت فقد أبرانى فى السبت»

فقال «قيافا» : انظروا أيها الناس إلى الرجل الخاطئ الذى لايحفظ السبت.»

ولم يتمالك الفريسيون الواقفون أنفسهم فأخذوا يسألون الرجل مرات كثيرة عما حدث وكيف حدث ولماذا يظن أن «عيسى» القادم من الناصرة هو الذى أبرأه وكيف يكون قد أبرأه وهو لايعرفه وهل وَضْعُ الطين على العين يعد وسيلة لعلاج العمى وعشرات من الأسئلة التى جعلت الرجل يفقد أعصابه ثم سألوه «ألا تعتقد أن الذى يبرئ فى السبت يعد خاطئا لأنه لايحفظ سبت الله» فصاح الرجل غاضبا :.

«إننى لست أعلم إن كان خاطئا أم لا. لا أعلم شيئا أكثر من أننى كنت أعمى منذ ولدتنى أمى فصرت بصيرا وأن هذا حدث اليوم مع هذا الرجل الذى وضع الطين على عينى ولاأستطيع أن اقول شيئا أكثر من هذا.»

ولكن الفريسيين لم يصدقوا وطلبوا من كبير الكهنة أن يرسل إلى والدَىْ الرجل ليعطيا الشهادة فأرسلوا إليهما وحذرهما .المرسلون من مغبة الثناء على «عيسى الناصرى» أمام رئيس الكهنة والشيوخ وإلاَّ تعرضا للحرمان من الهيكل وجيئ بالوالدين وتم التحقيق معهما بكل تدقيق فلم يجد الأب ولا الأم محيصاً غير قول أنهما لايعلمان شيئا عن كل ما يقال وأنَّ هذا هو إبنهما كما يعتقدان وإن كان إبنهما قد وُلِد أعمى أما هذا الرجل الذى يقف أمامهما فإنهما على الرغم من اعتقادهما أنه إبنهما إلاَّ أنهما لايستطيعان التأكيد على ذلك لأنه بصير أما إبنهما فإنه أعمى وأنه لايجب سؤالهما عن شئ لأن الرجل الواقف أمامهما بالغ ورشيد فيمكن أن يُسْأَل وأن يجيب عن نفسه.

وجن جنون الرجل الذى كان أكمها من كل هذا الجحود والعناد والجدال الذى لامعنى له فقال فى صوت واضح أفصح عن الغضب بقدر ما أفصح عن الاحتقار:

«ياسيدى الكاهن وأنتم أيها الشيوخ الأجلاء من المؤكد إننى كنت أعمى وأننى الآن بصير بفضل هذا الرجل الذى تقولون عنه أنه خاطئ لكننى أعلم أنه منذ خلق الله

والسموات والأرض لم ينل رجل ولد أعمى نور عينيه إلا بفضل الصلاة وأن الله لايجيب صلاة الخطاة»!!

وأحنقهم أن يعلمهم هذا الشاب المتسول فأخذوا يعيدون سؤاله عما حدث فقال لهم « «لقد أخبرتكم أكثر من مرة فلماذا تسألون أخرى أتريدون أن تصبحوا تلاميذاً له ؟»

فاستشاط بالغضب الفريسيون والكهنة وشتموا الرجل ولعنوه قائلين «مثلك يكون تلميذا لمثله أما نحن فتلاميذ موسي وأبناء ابراهيم .إن الله كلم موسى وأعطاه الشريعة أما هذا الذى تتكلم عنه فلا نعرف من أين جاء ولامن أبوه ولا من الذى يكلمه؟!»

فقال الرجل : «لو لم يكن هذا الرجل نبيا مرسلا من الله لما استطاع أن يفعل مافعل».

قالوا « فى الخطيئة وُلِدتَ وعشت بجملتك أفتأتى أيها الملعون لتعلمنا ؟ أغرب عن وجوهنا الآن » وأخذ خدم الهيكل يضربون الرجل ويسبونه وهم يطردونه.

وأمر رئيس الكهنة بطرد الرجل من الهيكل وأن يحظر عليه الصلاة مع الطاهرين من أبناء اسرائيل «لقد صار اليوم ملعونا ومطرودا من شعب الله لإيمانه بالمدعو «عيسى الناصرى» وعزم الكهنة والشيوخ على أن يطلبوا من «بيلاطس» أن يستصدر من «روما» أمراً يهدد كل من يؤمن «بعيسى» ويتحزب له بالموت واستقروا على أن هذه هى أقوى وسيلة لتخويف الناس وإجبارهم على الإبتعاد عن «عيسى» «الساحر الملعون.»

جلس الرجل على الارض يبكى فجاء إليه «المسيح» وقال له : «لاتبكِ فإنك لم تكن مباركاً فى يوم من الأيام أكثر منك فى يومك هذا لأن «روح الله» الذى تلكم بلسان «داود» قال «هم يلعنون وأنا أبارك» وتكلم بلسان ميخا فقال «إنى ألعن بركتك وأبارك لعنتك»

فقال الرجل : «من أنت ؟»

قال «المسيح» «ألا تعرفنى ؟»

قال «أنت «عيسى الناصرى» النبى القادم من الجليل..

فتهلل وجه «المسيح» وقال «أتؤمن ؟»

قال الرجل : «نعم » وهوى عند قدميه ساجداً يبكى.

(٢٧)

«والأبرص»

«قل ياعبادى الذين أسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله

إن الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم»

(الزمر ٥٣)

قال «المسيح»: «من أجل إدانة هذه الأمة الآثمة أرسلنى الله لأكون فى يوم الحساب شاهدا عليهم»

«لقد جئتُ إلى الدنيا لكى يبصر الأعمى ويعمى الذين كانوا يبصرون. (٣٦٢) قال بعض الفريسيين الذين استمعوا إليه «لعلك تعدنا عميانا لكننا بنعمة الله مبصرون» .

قال «لوكنتم عمياناً لما حُسِبَت عليكم خطيئة ولكنكم بألسنتكم تقولون أنكم مبصرون إذن فخطيئتكم باقية لا تزول» .

ومضى فى طريقه يتبعه التلاميذ وكل الذين يريدون سماعه أو يطلبون الشفاء على يده .

وأصبحت آية «الأكمه» مصدر إزعاج شديد لرجال الهيكل لأن الرجل ظل يجلس بجوار الهيكل وكلما مر عليه قوم من الذين كانوا يرونه من قبل كانوا يسألونه عن «المعجزة» التى أعادت النور إلى عينيه وكان الرجل يتحدث فيتساءل الناس هل يمكن لخاطىء أن يرد النور إلى أكمه ؟! لو كان «عيسى الناصرى» يعمل بقوة الشيطان فكيف يعطى نوراً للأعمى. إن الشياطين قد تصيب بالعمى أو الصمم أو الشلل أما أن تعيد النور لرجل ولد أعمى فهذا ما لم يسمع به أحد من قبل .

وإذا لم يكن ذلك «الناصرى» نبيا فمن يكون إذن ؟! هل الأنبياء الذين قرأنا وسمعنا

عنهم هل فعلوا أكثر مما فعل ؟! وإذا لم يكن هو «المسيح» المنتظر فمن يكون ؟! هل يمكن «للمسيح» إذا جاء أن يصنع معجزات أكثر من هذا . لكنهم يقولون أنَّ «المسيح» إذا جاء الى الأرض فلا بد ألاَّ يعرف أحد من أين جاء ولا كيف أماً هذا فنحن نعرفه ونعرف من أين جاء !! (٢٣٦)

تلك الأسئلة كانت تصدع رؤوس الكهنة والكتبه الذين رفضوا «المسيح» وتشد من أزر القلة الضئيلة التى كانت تحترم «المسيح» وتقدر علمه الذى لا نظير له بالأسفار وأحس الشيوخ أنه لا بد من عمل حاسم وسريع لإستئصال هذه الفتنة من جذورها قبل أن يستفحل أمرها وتدمر الهيكل فزادت المساعى المحمومة من جانب رجال الهيكل لدى «بيلاطس» وحاشيته من إجل استصدار أمر يكفل تخويف الناس من المدعو «عيسى الناصرى» والأفضل إصدار أمر بحبسه فى السجن أو منعه من دخول «أورشاليم» حتى يتسنى القضاء عليه .

«المهم أن يتم حصاره وكف إضلاله للناس حتى نجد الفرصة المواتية ».

أما «عيسى» الذى علم من الله أن أجله قد أقترب وأن بعثته الأولى قد أشرفت على نهايتها فقد أشتد حماسه لإعطاء آخر وصاياه إلى تلاميذه محاولا قدر جهده أنقاذ ما يمكن أنقاذه من الأمة التى حل عليها غضب الله لنقضها «ميثاقها» معه. أصبح يعلن تحديه السافر لسلطة الهيكل ولا يترك فرصة لإستفزازهم الا وتشبث بها مؤكدا بكلامه وأفعاله أنه لا يخشى إلا الذى أرسله وأنه مطمئن إلى مصيره وكان يظن أنه سيلقى حتفه مقتولا ليظفر بشهادة القتل فى سبيل الله كما ظفر بها من قبل «زكريا» و «يحيى» فوق شهادة النبوة .

كان يعد نفسه للقتل فى سبيل الله عالما أن الله سيرفع جسده بعد موته إلى السماء ولن يدع جسده فى أيدى أعدائه .كما رُفِعَ جسد «إدريس» من قبل (٣٦٤) وسيظل هناك فى السماء الثانية مَلَكاً مقرباً حتى تُمْسِي الدنيا مقتربة من نهايتها وتوشك «الساعة» أن تلقى

بمرساها فحينئذ ينزل إلي الأرض ليؤدي وسالته الثانية التي سيحصل فيها على «شارة» المُلكِ من مَلِكِ السموات والأرض إذ يصير خليفة لله يحكم بشريعته مدة أربعين سنة ثم يموت ويدفن فى الأرض ينتظر البعث كما أخبر تلاميذه الأربعة على الجبل حين رأوه وهيئته «تتغير» عندما أتى إليه «أحمد» (إيليا) و«موسى» في الغمام.

كان يتنسم عطر الجنة ولقاء الأحبة فيفيض الحنين وتومض الذكريات الموغلة فى القدم ويتوهج حماسه وهو يجوب القرى والمدن حول «أورشاليم». يبيت أكثر لياليه فى جبل الزيتون وكلما واتته الفرصة للدخول إلى الهيكل وإلقاء الخطبة على دكة الوعظ أو أجابة أسئلة المستفسرين عن كلام الله لم يضيعها مما زاد من حقد رجال الهيكل وأشعل مساعيهم المحمومة للقضاء عليه.

تقدم إليه رجل من «بيت عينا» وهى قرية صغيرة تقع جنوبى «أورشاليم» وجثا على ركبتيه أمامه وقال بصوت متضرع «يا نبى الله إن شئتَ أن تطهرنى فأتضرع إليك أن تفعل محبة فى الله» ورفع إليه وجها تفيض منه الدموع .

كان الرجل وأسمه «سمعان» مصابا بالبرص الذى كان ينتشر على وجهه وجسده كله بصورة بشعة .

وتحركت الرحمة فى قلب «المسيح» وقال «بسم الله تطهر» ووضع يده على رأس الرجل فتغير جلدُه كله فى طرفة عين حتى صارت بشرته جميلة ناعمة كأنها بشرة طفل عمره أيام قليلة. تحولت صورة الرجل وأوشك ألاّ يعرفه كل الذين جاءوا معه أو شهدوا تضرعه إلى السيد «المسيح» .

ونهض الرجل فقبل يد «المسيح» فقال له «لا تمض من هنا قبل أن تذهب إلى الهيكل وترِىَ نفسك للكهنة وتقدم القربان الذى أمر به «موسى» شكرا الله الذى طهرك وشهادة عليهم إلى يوم القيامة»(٣٦٥)

فقام الرجل وقد إمتلأ قلبه بحماسة «الإيمان» فدخل إلى الهيكل وفعل كما أمره «المسيح» وأخذ يقص على الناس فى فرح لا يمكن كبحه ما حدث والكهنة يزدادون غيظا على غيظهم وزيادة فى النكاية بهم أعلن «سمعان» الأبرص - كما كان يُعْرَف - أنه يستضيف السيد «المسيح» نبى الله وتلاميذه وكل من يحب فى بيته وخرج ورجا «المسيح» أن يَقْبَلَ دعوته فقبلها «المسيح» وسار معه وبصحبته التلاميذ إلى «بيت عنيا».

وإتجه الباحثين عن الشفاء أو التوبة أو الراغبين فى الجدال أو الذين بهرتهم المعجزات وأرادوا التمتع بمشاهدة المزيد منها إلى «بيت عنيا» حيث يذهبون إلى منزل «سمعان» الأبرص كما أن جواسيس الهيكل كانوا أيضا يذهبون .

وعندما أعد «سمعان» الذى كان أبرصا وليمة فاخرة تكريما «للمسيح» وتلاميذه ودعا إليها كل من يريد جاءت «مريم» أخت «مرثا» و «ليعازر» وإذ دخلت بيت «سمعان» وسارت وسط الجمع المحتشد إمتعض الناس لحضور هذه «المومسة» التى كانت سمعتها السيئة على كل لسان. كانت قد تركت «بيت عنيا» منذ سنوات وأصبحت تقطن فى «المجدل» لكنها كانت غانية مشهورة شاهدها الكثيرون فى «أورشاليم» فى المواسم والأعياد «الدينية» وهى بصحبة الضباط الرومانيين أو فى صحبة الأثرياء من اليهود وغيرهم .

وكان أشد الناس امتعاضا هو «سمعان» نفسه صاحب البيت الذى كره أن يتلوث بيته بحضور هذه المرأة القذرة فيه .

«إمرأة رائعة الجمال لا يبدو عليها أنها مصابة بأى مرض ولم تزل تحتفظ بجمالها ونضارتها فما الذى جاء بها ؟! » كان هذا هو حديث الذين لا يعرفونها .

ووسط دهشة الجميع أندفعت «مريم» المجدليه لتقف خلف «المسيح» ثم هوت بجسدها عند قدميه حيث بكت بكاء حارا حتى أن صوت نحيبها الذى كانت تحاول كتمه بكل قوتها دون جدوى صار مسموعا لكل الذين فى الحجرة رغم الإزحام وتساءل جميع الذين يعرفونها كيف يسمح «المعلم» لمثل تلك «القذارة» أن تلوث قدميه وتذمر كثير من الحاضرين

فانصرفوا إذ «كيف يقبلون أن يبقوا فى مكان واحد مع زانية» حتى «المسيح» الذى كان يتحدث مع الجالسين توقف إذ أدرك أن الجمع صار يلتفت إلى القابعة عند قدميه وتحركت «مريم» قليلا إلى الوراء ولكنها ظلت تضع وجهها على قدمي «المسيح» وتبكى فى صمت وهى تحاول أن تمسح بشعرها قدمي «المسيح» من قطرات الدموع التى تفيض من عينيها وتدهنهما بالطيب الذى أحضرته فى قارورة. لم تقل شيئا ولم تطلب من «المسيح» بلسانها أى شيء ظلت تبكى وتمسح قدمي «المسيح» بشعرها وتدهنهما بالطيب وتقبلهما بحرارة وهى تواصل الصمت. «إن كان نبيا حقا لعرف من هى وماذا تصنع. كيف يقبل أن تلمسه أمرأة «مومسة» ؟! .

قال «المسيح» «إسمع يا سمعان عند شيء أقوله لك» (٣٦٦)

فقال «سمعان» «قل يا معلم فإننى أحبك وأحب كلامك» .

قال «المسيح»: «كان لإنسان مدينان الأول مدين بخمسين فلساً والآخر بخمسمائة قطعة من الذهب ثم جاء موعد السداد فذهبا إلى السيد صاحب الأموال الغنى وأخذا يعتذران له عن عدم قدرتهما على الوفاء ويطلبان أن يمهلهما بعض الوقت وألاّ ينزل بهما العقوبة.

وتجنن الغنى عليهما إذ نظر الى دموعهما وعرف فقرهما ، ولما كان يدرك أنهما فى الحقيقة غير قادرين على الوفاء أبداً فمن أين يأتيان بالأموال وهما فقيران لا مال لهما تحركت الرحمة فى قلبه وسامحهما. أسقط الدَّيْنَ عن كليهما بالكلية ففرح المدينان لرحمة سيدهما وشكراه .»

«فقل لى يا «سمعان» من تظن أنه كان أكثر معرفة برحمة السيد الغنى وأشد حباً وأكثر شكرا له ؟!»

قال «سمعان» «أظن يا «معلم» أنه المدين بالأكثر لأن السيد الغنى رفع عن كاهله العبء الأكبر». قال «المسيح» «بالحق أجبتَ يا «سمعان». فانظر الآن إلى نفسك وإلى هذه

المرأة السّاجدة عند قدمي. لقد كنت مصاباً بالبرص بسبب الخطايا التى عليك وهى دَيْنُكَ عند ربك فجئتَ متضرعاً تطلب الشفاء فعفا الله عنك ورفع عنك دَيْنَك فبرأتَ من البرص بصلاتى إلى ربى .

وهذه المرأة مصابة بالخطيئة التى هى بمثابة «برص النفس» وهو أثقل عبئا من برص الجلد لأن الخطيئة تدفع الإنسان للهلاك الأبدى. جاءت متضرعة تبكى تطلب التوبة دون أن ينطق لسانها بكلمة واحدة تريد أن تُشْفى من «برص النفس» فتحنن ربنا عليها فغفر لها ذنوبها وتاب عليها فهى الآن طاهرة ولأنه رفع عنها العبء الأكبر لذلك فهى تحب الله أكثر منك وتعرف رحمته وتشكر له أكثر منك فأنظر إليها لقد جلست عند قدمي تبكى وغسلتهما بدموع عينيها وبكاء قلبها ومستحتهما بشعر رأسها ودهنتهما بالطيب الذى معها وقبلتهما أما أنت فلم تعطنى ماء لأغسل قدمى وقبلة واحدة لم تقبلنى وبزيت لم تدهن رأسى .

لذلك أقول لك أنها قد غُفِرَت لها خطاياها الكثيرة لأنها أحبت أكثر فمن يُغْفَر له القليل يحب قليلاً ومن يُغْفَر له الكثير يحب كثيرا .

«قومى يا أمرأة قد غُفِرَت خطاياك وأذهبى فى سلام من الله إن ايمانك قد خلصك .»

فقال «سمعان» «اغفر لى يا «معلم» فإننى قد أخطأت .»

قال «المسيح» «استغفر الله فإليه قد أخطأت.»

دخل «المسيح» ذات يوم الى الهيكل يريد الصلاة وأنتظر فى رواق «سليمان» فدنا منه «نيقوديموس» الكاتب وقال له «يا معلم» لقد وقفت مرات عديدة خطيباً وفى خاطرى آية من الكتاب لا أستطيع فهمها»(٣٦٧).

قال «عيسى» «وما هى ؟»

قال «نيقوديموس» «هى قول ربنا لأبينا إبراهيم أنى أكون جزاءك العظيم فكيف وبأى شىء يستحق الإنسان هذا الجزاء وما معناه ؟»

فتهلل وجه «المسيح» وقال «حقا إنك غير بعيد عن الملكوت إعطنى سمعك حتى تفهم ما أقول. إنك تقول إن الإنسان مخلوق كائن محدود وله نهاية.فكيف يحصل على الله جزاءً له والله غير محدود وليس له نهاية .»

«أليس هذا هو موضع شبهتك ؟»

فبكى «نيقوديموس» وهو يقول «يا معلم» إنك تقرأ قلبى وتعرف ما يدور فيه فأخبرنى بالحق فإننى أحب أن أعرفه ؟ .»

فقال «المسيح» : الحق أقول لكم إن الإنسان لا يستحق حتى النَّفَس من الهواء الذى يتناوله دون مشقة كل لحظة .»

فأصاب الذهول كل من يستمع إليه وأعترض التلاميذ فى قلوبهم قائلين فى أنفسهم كيف قال لنا من قبل أنه مهما بذلنا فى سبيل الله فسوف نأخذ من الله مائة ضعف بل ربما أكثر ونظفر بالحياة الأبدية وها هو يقول إن الإنسان لا يستحق شيئاً حتى النَّفَس من الهواء.

ملأتهم الحيرة وأخذوا ينظرون فى شك إلى تقلب «المعلم» وتغير كلامه من وقت لآخر .

قال «المسيح» «صديق غنى أقرضكم مائة قطعة من الذهب فأخذتم قرضه ثم بدأتم تنفقونه بإسراف شديد حتى نفد ثم شعرتم بحاجتكم إلى بيت تستقرون فيه وليس معكم مال لتشتروه و فذهبتم إلى صديقكم الغنى وقلتم له «يا صاحب أعطنا بيتاً نستقر فيه بعد التعب وسوف نعطيك ثمناً له ورقة عنب متعفنة!! »

«هل تستحقون ذلك البيت الذى تطلبون بهذه الورقة العفنة ؟! هل ورقة عنب عفنة لا معنى لها ولا فائدة تعد ثمنا للبيت الذى تريدونه؟ هل يجب على صاحبكم الغنى أن يعطيكم البيت الذى له مقابل الثمن الذى تعرضونه عليه. إنكم حتى لم تردوا الدين الذى أخذتموه؟.!

قال «نيقوديموس» : «كلاً يا «معلم» بل يجب أن نرد الدين أولاً ثم إذا أردنا أن نشترى شيئا فعلينا أن ندفع ثمنا لا نقا بماذا تنفع ورقة متعفنه ؟! .

قال «المعلم» : بالحق أجبت أيها الأخ فانظروا الآن أن الله خلق الأنسان بعد أن كان لا شيء ووهبه كل شيء لأن هذه السماوات والأرض بكل ما فيها مسخرة لخدمة الإنسان ، ولكن الإنسان صرف كل هبات الله له فى محاربة الله بالمعصية فانقلبت الأشياء لتكون حربا على الإنسان فكان الشقاء الذى يكابده فى الدنيا,ثم هو يطلب من الله البقاء الدائم فى الرحمة ولا يقدم ثمنا لذلك إلا أعمالاً عفنة أفسدتها .الخطيئة لأن الخطيئة تفسد كل عمل الإنسان لذلك قال «أشعياء» النبى . «إن صلاحنا ليس أفضل من خرقة حائض .»

«كيف يكون للإنسان استحقاق عند ربه وهو غير قادر على ترضيته بل هو يصر على إسخاطه بإصراره على المعصية .»

«فهل هناك إنسان لا يخطىء ؟.»

«هل تظنون الإنسان لا يخطىء ؟ .»

«إليكم ما قاله «داود» نبى الله «إن الصدِّيق يخطىء فى اليوم الواحد أكثر من سبع مرات ؟ فكم مرة يخطىء الفاجر ؟!»

«واذا كان صلاحنا مكروها فاسداً بخطايانا فكم يكون فجورنا ممقوتا .»

«إن أوجب شيء على الإنسان أن يتركه هو قوله إنى «أستحق» فلو عرف الإنسان حقيقة ما قدمته يداه لأدرك على الفور أنه لا يستحق إلا الجحيم»

«الحق أقول لكم .....

إن كل عمل صالح يقوم به الإنسان هو هبة من الله .»

«إن الله خلق الإنسان وأرسل إليه الأنبياء ليعلموه طريق النجاة ويحفظونه من

الشيطان وسخر كل شيء لخدمته حتى الملائكة فانظروا كم يكون الدّيْنُ الذى علينا كبيرا وأنظروا هل يمكننا رده حتى نقول أننا نستحق بعد ذلك الحياة الأبدية. ومن جود الله الذى لا يستطاع وصفه أنه لا يريد فقط أن يمنحنا جنته بل يريد أيضاً أن يمنحنا «روحه» لنتمكن من رؤيته ونعرفه فنحيى به ويتجلى فينا وبهذا يكون الله هو جزاؤنا العظيم كما قال «لابراهيم». إن «إبراهيم» لا يستطيع أن يقول هذا جزائى أو أنى استحق بل يقول هذه هبة الله. إن الله يحب التواضع الحقيقى ويمقت الكبرياء .»

شكر «نيقوديموس» «المعلم» وكان قد عزم أثناء حديث «المسيح» إليه أن يتخلص من «النفاق» فأخذ قراراً بأن يستضيف «المسيح» فى بيته مع تلاميذه قائلاً «ياسيدى هل تسمح لى أن أنال شرف نزولك عندى فى البيت فإن خادمك يريد أن يقدم لك ولتلاميذك طعاما » ، وأراد «المسيح» أن يكافئه على شجاعته فقال «أذهب الآن معك على أن تعدنى أن تدعونى أخاك وليس سيدك فإنك أخى لا خادمى .»

ذهب «المعلم» مع تلاميذه ليقيموا فى بيت «نيقود يموس». خرجوا من الهيكل بعد الصلاة والكهنة والكتبة يتميزون من الغيظ بما فعله «نيقود يموس» الذى كان يعد أعلم شيوخ الفريسيين وأكثر الكتبة فقها وها هو ينخدع بسحر «الساحر» ويستضيفة فى بيته.

أما بسطاء الناس فقد تعجبوا وأخذوا يتساءلون هل اقتنع رجال الهيكل أخيراً أن هذا القادم من الناصرة هو «المسيح» فعلاً وهل آمنوا بنبوته وهل سيتعاون رجال الهيكل مع «الناصرى» ويساعدونه لتنصيبه ملكا لليهود ؟

وبينما كان «المعلم» مع تلاميذه على مائدة «نيقود يموس» الذى ملأه السرور بنزول «المعلم» فى بيته سأله «يا «معلم» ما معنى التواضع الحقيقى وهل هناك تواضع كاذب أو غير حقيقى ؟!» (٣٦٨)

قال «المسيح» «التواضع الحقيقى هو أن تعود طفلاً صغيراً .

ولن تدخلوا الملكوت إلا إذا عدتم أطفالاً.»

وتعجب الجمع من كلامه فقالوا : «وكيف نرتد أطفالاً .إنّ هذا كلام عسير .»

قال «المسيح» «إذا سألتم طفلاً عن ثوبه من الذى أعطاه له فيقول لكم أبى وإذا سألتموه عن البيت وعن الحذاء وعن الطعام وعن أسمه وعن كل شىء له يقول لكم إنه لأبى وأبى هو الذى أعطانيه فإذا قلتم مالنا نرى رأسك معصوبة بالأربطة. من الذى شج رأسك وكيف سقطت ؟! .»

«يقول لكم أنا الذى سقطت لأن أبى علمنى المشى ولكننى أحببتُ أن أسرع قبل أن أتعلم جيدا فوقعت لأننى لم أكن مستندا إلى أبى فشُجّت رأسى وجاء أبى ليضمدها لى وعصبها بتلك الأربطة.»

«هكذا يشعر ويقول الطفل الصغير عن أبيه وكذلكم ينبغى أن يكون شعور الانسان المخلوق إزاء الله خالقه .»

«التواضع الحقيقى هو أن يشعر الإنسان أن آلهه الذى خلقه ووهبه كل شىء هو مصدر الخير الوحيد وأن نفسه نفس الانسان هى مصدر كل شر لأنها هى التى تأمره بالسوء وتسول له المعصية .»

«أما التواضع الكاذب فهو إدعاء التواضع فإن الكاذب يقول بلسانه أنه متوغل فى الخطيئة ويعد نفسه أكبر المذنبين لينال استحسان المستمعين إليه فإذا قال له واحد يا خاطىء أو إنك مخطىء امتلأ بالغضب وأخذ يضطهده. هو الذى يقول أن الله قد أعطاه كل شىء وأجزل له العطاء ولكنه من جانبه لم يقصّر فقد صنع كل شىء بإحكام واتقان حتى حصّل كل هذا الثراء بسبب صلاحه ومجهوده كما هو حال الفريسيين فى هذا العصر التعس .»

وانفجر الكاتب الفريسى «نيقود يموس» باكيا وهويقول : «أيها الزمن القديم كم كنت

قاسيا معنا إذ أخذت منا الفريسيين الحقيقيين وتركت لنا الكاذبين الذين انتحلوا لأنفسهم إسم الفريسيين وثيابهم ولكنهم فى الحقيقة ليسوا أكثر من كنعانيين عبدة أصنام وليت شرهم يقف عند حدودهم بل هو يتعدى إلى غيرهم لأنهم يُضلون البسطاء الذين لا يعلمون الكتاب ويجبرون غيرهم من الذين يريدون أن يقولوا الحق على الصمت بما لهم من سيطرة.»

قال «المسيح» : «يغفر الله لك ياأخى إن الزمن لم يقسو علينا ولم يأخذ منا شيئا بل هو الذى أعطانا كل شئ وعبادة الله الحق بالحق ممكنة فى كل وقت ولكن الناس يفسدون بالإندماج فى العادات الرديئة والتقاليد الفاسدة والتعاليم الزائفة.»

كان «المسيح» يتحدث فى بيت «نيقوديموس» مجتهداً أن يبلغ الناس آخر ماعنده من كلام الله حين طرقت الباب «مريم» المجدلية حيث ألقت بنفسها عند قدمي «المسيح» باكية وهى تقول بصوت يقاوم النحيب «يانبى الله إن أخى لعازر قد سقط مريضاً ولقد تركته مشرفا على الموت وخرجت أبحث عنك فى كل مكان فى «أورشاليم» حتى دلنى بعضهم على هذا البيت فإن شئتَ يانبى الله أن تأتى معى لتضع يدك عليه وتصلى من أجله لينال شفاءه(٣٦٩) ثم غلبها البكاء على أمرها فقال لها «المسيح» : «إهدئى يامريم ولاتخشى شيئا فإنه سيَستعيد صحته أين بيتك وإنى أذهب الآن إلى هناك إن شاء الله» قالت : «ياسيدي إن بيتى فى «المجدل» ولكننى تركته وتركت كل شئ هناك منذ أن نلت رحمة الله بصلاتك وأننى أعيش الآن مع أخى «ليعازر» وأختى «مرثا» فى «بيت عنيا».

فقال لها «المسيح» : «فاذهبى الآن إلى إخيك وأمكثى فى جواره وإنى آتى لأشفيه بإذن الله فأذهبى بسلام». فخرجت المرأة مسرعة ومكث «المسيح» فى بيت «نيقوديموس» يومين يعلم التلاميذ طريق النجاة محاولاً أن يصلح ما أفسدته التعاليم الفاسدة والنصوص الخاطئة .

(٢٨)

إخراج الموتى

« ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب »

(الحج آية ٥)

ثم تذكر «المسيح» «لِيعازر» ووعده «لمريم» فاستأذن من «نيقوديموس» ليذهب ليرى المريض الذى ينتظره.

وكان «نيقوديموس» قد أخبر «المسيح» والتلاميذ بما يحاول الكهنة وكبار الكتبة القيام به للتخلص من «المعلم» فامتلأ التلاميذ بالرعب وقالوا «يامعلم إن الشيوخ والكهنة يطلبونك فدعنا نهرب من هنا» فلم يلتفت إليهم «المسيح» وقال «أعلم أن ساعتى قد اقتربت وأعلم أنهم يدبرون لقتلى لكن الذى يمشى فى النور يعلم من أين أتى وإلى أين سيذهب ولذلك فإنه لايخاف لأنه يمشى فى النور أما من يمشى فى الظلمة فإنه لايعرف إلى اين سيذهب ولابد له أن يخاف لأن النور ليس معه ومن المؤكد أنه سيعثر.» (٣٧٠)

«أليس النهار إثنتي عشرة ساعة . فلماذا لانعمل مادام هنا نور. يجب أن نعمل بطاعة الله مادام معنا نوره لأنه سيأتى الوقت الذى ينزل فيه الظلام ويستحيل علينا العمل».

ثم سكت لحظات وعاد ليقول «إن «لِيعازر» حبيبنا قد نام لكنى سأذهب بإذن الله لأوقظه» فقال التلاميذ ولم يزل الخوف يملأ قلوبهم يودون الفرار من «اليهودية» كلها «يامعلم» مادام قد نام فلابد أن يكون قد استراح فهو سَيُشْفَى من مرضه» يقصدون فلاداعى للذهاب إليه وتعريض أنفسنا للخطر. ربما قبض علينا رجال الهيكل وأسلمونا للسلطة تحت أية تهمة.

فقال «المسيح» ليصحح خطأ فهمهم «إن ليعازر قد مات» و«أنا أفرح من أجلكم لتؤمنوا.»

وتحمس «توما» وقال للتلاميذ «يجب أن نذهب مع «المعلم» وإن قتلوه فلنمت معه.»

وسار الجمع الصغير متجها إلى «بيت عنيا» لإخراج «ليعازر» من قبضة الموت (٣٧١)

عندما وصلوا الى مشارف «بيت عنيا» إتجه «المسيح» الى القبور وأرسل بعض تلاميذه يسألون عن بيت «مريم» ويخبرونها أن «المعلم» قد جاء وأنه ينتظرها عند القبور.

ووصل رسل «المسيح» حيث وجدوا البيت يزدحم بالزوار الذين جاءوا يعزون «مريم» وأختها «مرثا» فتقدموا الى «مريم» وأختها وأخبروهما بما قاله «المعلم» لكن «مريم» كانت حزينة جدا وغاضبة من «المعلم» الذى وعدها أن أخاها لن يموت وهاهو قد مات ودفن منذ أربعة أيام ووعدها أنه سيأتى ليرى أخاها المريض الذى يحبه والذى كان فى أمس الحاجة إليه ولكنه تأخر ولم يف بوعده حتى فات الوقت ولم يعد فى الإمكان إرجاع ماقد ذهب الى الأبد. رفضت أن تقوم لتذهب إلى «المعلم» فاضطرت «مرثا» أن تذهب مع التلاميذ رسل «المسيح» إلى القبور حيث قابلت «المعلم» معاتبة وقالت «لو كنت معنا أيها المعلم ما مات أخى » « لو أنك جئت فى موعدك لربما كنت تستطيع أنقاذه لكنك تأخرت كثيرا حتى..» وغلبها بكاء حار ومرير يعبر عن أسف عميق لايمكن علاجه فقال لها «المسيح» «لاتبكِ ولاتحزنى فإن أخاك سيقوم من رقاده .إنه راقد الآن وقد جئت لأوقظه».

قالت «أيها السيد لقد مات ودفن منذ أربعة أيام».

قال «ثقى يابنية أنه سيقوم من رقاده ».

قالت «يامعلم إننى أعلم أنه سيقوم من رقاده الذى تقول عندما يبعث الله من فى القبور. أعلم أنه سيقوم فى يوم الحساب عندما ينفخ الملاك فى البوق.» «تقصدإنْ كنتَ جئت لتلقى علينا موعظة فى الموت والبعث فلسنا فى حاجة إليها فإننا نؤمن بما تنوى قوله.»

لكن «المسيح» فاجأها بقوله : «صدقينى أنه سيقوم الآن من رقاده وليس يوم القيامة لأن الله قد أستمع لصلاتى وأعطانى قدرة على رقاده»

فألجمت المفاجأة «مرثا» وقبل أن تفيق من ذهولها قال لها «أذهبى وأخبرى «مريم» أن المعلم ينتظرها عند القبور».

فهرولت «مرثا» إلى أختها وأسرّت إليها بما قاله «المعلم» فأسرعت «مريم» تعدو خارجة من البيت والذين جاءوا إليها لتعزيتها تعجبوا وهم يرونها تجرى وتتركهم فبعضهم انتظر فى البيت ولكن كثيرين منهم ذهبوا وراءها لأنهم ظنوا أنها تذهب الى القبر لتبكى على أخيها الشاب الذى رحل قبل الأوان «إن موته المفاجئ قد ذهب بعقلها».

اقتربت «مريم» من «المسيح» وخرت عند قدميه وبكت «ياسيد لو كنت ها هنا معنا ما مات أخى لماذا لم تأت كما وعدتنى».

وبكت المرأتان فى حرارة وبكى «المسيح» لبكائهما وبكى بعض الحاضرين تأثرا وقالوا «أنظروا كيف كان يحبه».

ثم قال «المسيح» «لاتبكوا. كفوا عن البكاء إنه ليس أكثر من رقاد وقد أتيت لأوقظه».

فقال بعض الفريسيين الذين جاءوا وراء «مريم» «ليتك ترقد أنت هذا الرقاد» همسوا بذلك فيما بينهم ساخرين لكن «المسيح» أدرك ماقالوا فالتفت إليهم وقال لهم «لاتتعجلوا فإن ساعتى لم تأت بعد ولكن متى جاءت فإنها لاتتأخر لحظة واحدة ولاتتقدم وسأصعد ثم أعود».

فذابت الإبتسامة الساخرة من وجوههم وتحيروا من كلامه الذى يشبه كلام المجانين

ثم قال «لاتبكِ يا «مريم» فإنه سيقوم إنني سأوقظه لماذا إذن قد جئتُ إليكِ الآن».

توقف الجميع عن البكاء وانتظروا متربصين يريدون رؤية «المعجزة».

قال «المسيح» «دلونى على القبر» فقالت «مريم» و «مرثا» «ياسيد له أربعة أيام لابد أنه قد أنتن»(٣٧٢)

قال «المسيح» فى إصرار «دلونى على القبر».

فتقدم بعضهم نحو القبر ورفع الحجر من فوق فوهته كما أمر «المسيح» إذ كان القبر يشبه المغارة وأنبعثت رائحة نتنة من الفوهة فابتعد الجميع لأن الرائحة كانت شديدة تزكم الأنوف وشخصوا بأبصارهم لينظروا ماذا سيفعل ذلك الانسان «الغريب».

وقف المسيح قريبا من القبر ونطق بصوت سمعه كل الذين كانوا حاضرين قال «رب إنى أشكرك إذ أجبت نداء عبدك ليؤمنوا أنك قد أرسلتنى بالحق اللهم رب ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب أرحم هاتين المرأتين وأعط مجداً لإسمك القدوس».

ثم صاح بصوت مهيب «ليعازر هلم خارجا».

فصدم عيونهم منظر الميت الملفوف بالأقمطة يغطى رأسه المنديل وهو يندفع من القبر كأن شيئا قد قذفه الى الخارج وطفق يحاول جاهدا أن يفك الأربطة حول جسده والمنديل الملفوف حول رأسه يغطى وجهه ويضايق تنفسه فقال «المسيح» «فكوا أربطته» فاندفع التلاميذ يحررون «لعازر» من قيوده فسار نحو «المسيح» فى هدوء وثقه وانحنى ليقبل يده فمسح «المسيح» على رأسه بيده وقال « «تبارك القدوس الذى يحيى الموتى » وعاد «المسيح» الى بيت «لعازر» وسط الجمع الفرحان بعودة الميت الى الحياة ليُفَاجأ الذين قدموا لتعزية «مريم »و«مرثا» فى شقيقهما بالمتوفى يرجع الى بيته مع الرجل القادم من الناصرة وتلاميذه.

وأسرع الكثيرون الى «أورشاليم» ينشرون الخبر وزاد اضطراب رجال الهيكل وحقدهم على هذا «الساحر» الذى لايتوقف عن إظهار ألاعيبه وعجائبه التى تبهر الناس خاصة وأن «الفصح» كان على الأبواب وبدأ الكثيرون من كل القرى والمدن يذهبون الى «أورشاليم» للتطهر وحضور العيد فى الهيكل. اجتمع الكهنة والكتبة ليتدبروا أمرهم وفكروا فى قتل «لعازر»(٣٧٣)

لأن حركته فى الطرق وأكله وشربه بين الناس كان يجدد الحديث عن معجزات «الناصرى» ومال الكثيرون ليكونوا «نصارى» لكن قتل «ليعازر» ربما أثار فتنة أكبر وأعطى «الناصرى» تأييدا يمكن أن ينقلب فى لحظة واحدة إلى نقمة عارمة تحل على رجال الهيكل القتلة من الشعب الذى يتوهم أن «الناصرى» قد أتى لخلاصه ورد المُلك إليه.

جلس «المسيح» على المائدة فى بيت «ليعازر» حيث أقام العائد من الموت وليمة كبيرة تكريما «للمسيح» وابتهاجا برجوعه إلى الحياة وحضرها مع التلاميذ جمع كبير من الذين كانوا قد جاءوا للتعزية في «ليعازر» من أهل «بيت عنيا» والقرى التى حولها ومن «أورشاليم» نفسها وجلست «مريم» أخت «ليعازر» عند قدمي «المسيح» لم تفارقه أبدا. ظلت تجلس إلى جواره وهو على المائدة لاتريد أن تبتعد عنه لحظة واحدة وهى تصيخ سمعها الى مايقول وتمعن النظر فى معنى كلامه وترمقه بين الحين والاخر بنظرة متطلعة كأنها كانت تودعه إذ أحس قلبها الذى تطهر بالنور أن «المسيح» على وشك مغادرة الدنيا الفاجرة التى لم تؤمن به رغم كل الصخب الذى يظهرونه إزاء رؤية «المعجزات».

وكانت «مرثا» منشغلة جداً بإعداد الطعام وتجهيز الصحاف إلى حد الارتباك فنظرت إلى أختها القابعة فى هدوء تستمع فى صمت الى «المسيح» وقالت «أنظر يامعلم الى «مريم» إنها لاتبالى بك ولاتتعب نفسها فى خدمتك وخدمة الضيوف تتركنى أعمل وحدي فمرها أن تقوم لتساعدنى»

قال «المسيح» : «انتبهى يا «مرثا» فإنك إنما تضطربين وترتبكين لإنشغالك بأمور كثيرة ولكن الحاجة دائما إلى واحد فانظرى يا «مرثا» إلى «مريم» لتعرفي مايجب عليك أن تفعليه إن «مريم» قد اختارت نصيبها الصالح الذى لن ينزع منها إلي لابد.»

ولم تفهم «مرثا» وظلت تغدو وتجيئ لتعد المائدة.

قال «المسيح»: «إخوتى لم يبق لى معكم على الأرض إلاَّ لحظة قصيرة من الزمن لأن موعد انصرافى قد اقترب لذلك أحب أن أوصيكم فاذكركم بكلام الله بلسان «حزقيال»

النبى عندما قال «أقسم بذاتى أنا الحى الذى لايموت إن النفس الخاطئة تموت ولكن إذا تاب الخاطئ فإنه لن يموت بل يحيى الى الأبد» «إعلموا ياأخوتى أن موت الجسد الذى نشهده بحواسنا فى هذه الدنيا ليس هو الموت الحقيقى الذى قصده الله فى كلام «حزقيال» بل الحق أقول لكم إن هذا الموت لايُعد إلا نهاية لموت طويل استمر سنوات طويلة هى كل عمر الانسان فى هذا الجسد ».

«إنَ الجسد عندما يفقد «الحس» بالغيبوبة فإنه ينتظر أن يرجع إليه «الحس» ليقوم وكذلكم المدفون فإنه ينتظر أن تعود إليه «نَفسُه» بقوة «الروح» ليقوم كما قام «ليعازر» وأنت تشهدون».

«موت الجسد ليس إلا أن يُسلَب منه «الروح» لتفارقه «النَفسُ» راجعة الى الغيب. إنَّ النفس ترتبط بالجسد كما تمسكُ اليد بالعصفور بواسطة الخيط فإن أمر «الرأسُ» اليَد أنْ تفلت العصفور انبسطت اليد وانطلق العصفور وكذلكم تنتقل النفس عائدة الى ربها تحملها الملائكة الذين وكلهم الله بقبض الأنفس.»

«لكن الموت الحقيقى هو مفارقة النفس لرحمة الله. إن أنفسنا طالما ظلت فى رحمة الله فهى كما قال النبى «داود» «كعصفور أفلت من الصياد». «إن الأصدقاء يبكون عندما يموت صديقهم مع أن «الله» هو الذى حَكَم بهذا ولايجب أن نعترض ولكنهم لايبكون عندما يخطئون مع أن النفس بالخطيئة تفارق الحياة إذ تفارق رحمة الله وهو الحياة الحقيقية.»

«وإذا كان الجسد الميت يصير شيئا بشعا كريها لمجرد أن النفس الحاضرة بقوة «الروح» قد فارقته فكم تكون النفس التى أهلكها الله بشعة كريهة إذ تفارق رحمة الله. أمعنوا النظر إلى جثة متعفنة ثم حاولوا أن تدركوا كيف ستكون النفس التى أنفصلت عن ربها بشعة ممقوتة. كان الله هو الذى يُجَمِلُها لأنه هو الجمال الحقيقى. إنه هو حقيقة الجمال(٣٧٤)

فقال «ليعازر» : «يانبي الله هذا البيت وكل ماأملك قد صار لله خالقي الذي وهبني الحياة وقد وهبت كل ماأملك لخدمة الفقراء فإن كنتَ يانبي الله في يوم من الأيام محتاجاً ولك تلاميذ كثيرون تعولهم فتعالوا إلى هنا متى شئتم وأنني أخدمكم حبا في الله».

قال«المسيح(٣٧٥)

«انظروا ما أطيب الموت. إن «لعازر»مات مرة واحدة فقط لبضعة أيام ولكنه قد تلقى تعليما لايعرفه الحكماء الذين أفنوا عمرهم بين الكتب.»

قال «يحيى بن زبدى» «يامعلم لماذا لم ينعم الله على الناس بأن يموتوا مرة واحدة ثم يرجعوا كما حدث مع «ليعازر» إنهم بهذا يعرفون أنفسهم ويعرفون خالقهم ؟!»

فأجاب «المسيح»: « كان هناك رب بيت لديه حقل نمت فيه أشجار كثيرة حتى حجبت بيته عن الناظرين».

«فاستأجر عاملا وأعطاه فأساً جديدة وقال له إذهب الى الحقل وشذب الأشجار» فذهب العامل ولكنه نسي الفأس الجديدة التي أعطاها له رب البيت وأخذ يشذب الأشجار بيديه فأصابه عنت شديد وأخذ يقول لنفسه ماذا لو أعطاني السيد فأساً حتى لو كانت قديمة لتساعدني في عملي. لقد أخطأ رب البيت وكان قاسياً معي إذ لم يعطني فأسا قديمة. فجاء رب البيت وقال له ياأحمق أنسيتَ الفأسَ الجديدة التي أعطيتها لك ثم ضربه بها على رأسه وقال له «لقد أُعْطِيَت فأسا جديدة لتعمل دون تعب فنسيتها وها أنت تطلب الأن فأساً قديمة مع أنها ستضطرك للتعب ولن يكون عملك متقنا لأنني أريد الأخشاب المقطوعة أن تكون مستقيمة فبماذا تنفعك القديمة وقد تركت الجديدة» ثم قال «أليس صاحب البيت على حق».

قال «يحيى»: «نعم هو على حق ».

قال «المسيح»: «الفأس الجديدة هي منظر دفن الميت وتحول الجثة إلى شيء بشع فلو

استعمل الإنسان هذه الفأس في إزالة الغشاوة من على قلبه لأزال غاية الخطيئة من نفسه دون ألم ونال رحمة الله ونعمته فظفر بالحياة الأبدية دون مشقة لأن أعماله سوف تكون صالحة ولكن الناس يغفلون عن الموت وهم يدفنون كل يوم إنسانا. يضعونه في التراب وينسون أنهم سيموتون مثله ثم يقولون آه لو رأينا العالم الآخر لعملنا أعمالا صالحة يا يحيى ما أحكم الذين يتعلمون من سقوط الآخرين كيف يقفون على أقدامهم .»

«أما الذين ينتظرون ويسوفون فإن الله سينزل عليهم غضبه وليضربنهم بالموت ولن ينالوا خيرا من بعده أبداً.»

تضاربت أفكار ومشاعر الذين استمعوا الى حديث «المسيح» فبينما استولى الحزن على بعضهم إذ أعلن أن موته قد أوشك استولى الفزع على آخرين لأنه تحدث كما تحدث «نيقود يموس» عن تدبير رجال الهيكل لقتله ، لأن التنكيل بأتباعه وتلاميذه الذين لازموه سيكون أمرا محتماً وبدأ كل واحد من التلاميذ يفكر في المصير التعس الذى انتهى إليه سيرهم. هل يا ترى سيُذبَحون بالسيف أم سيصلبون كالمشاغبين طبقا للقانون الروماني ؟!

وأستولت خيبة الأمل على الجميع خاصة التلاميذ الذين كانوا يأملون في صعود «ملك اليهود على العرش .أطبق الصمت وزالت الفرحة بعودة «ليعازر» من الموت. حل مكانها الغم الذى ملأ القلوب. لقد نصبت مصيدة الموت .هل يهربون وإلى أين وكيف يستطيعون الإختفاء؟؟؟ و ماذا سيعملون بعد هروبهم؟! أسئلة كثيرة أخذت تدور في الرؤوس وتديرها حتى أوشك الجميع أن يفقدوا تمالكهم .

قامت «مريم» من عند قدمي «المسيح» وأختفت قليلا. نظروا إليها دون إهتمام لأن الإهتمام الحقيقي كان بالمصير المجهول الذى يفتح فمه ليبتعلهم ثم عادت في هدوء وهي تحمل قارورة تمتلأ بالعطر فسكبتها على رأس «المسيح» وجسده .(٣٧٦)

لقد فاحت رائحة العطر النادر حتى ملأت البيت كله ولم يتمالك التلاميذ أنفسهم

خاصة «يهوذا الأسخريوطى» وكان «المسيح» يترك معه صندوق المال الذى تُجْمعَ فيه الهدايا والصدقات التى تقدم «للمسيح» لينفق منها على نفسه وتلاميذه والمحتاجين .

اندفع يهوذا وقد بدأ يفقد أعصابه بعد حديث «المسيح» عن الموت الوشيك قال غاضبا «ما هذا يا أمرأة إن عطرا كهذا يساوى أكثر من ثلثمائة قطعة من الفضة...

«لماذا هذا الإتلاف الذى يحرمهُ الله كم فقير كان يمكنهم أن يأكلوا بثمن هذه «القارورة». كان يمكنك أن تبيعينها وتعطيننى ثمنها لأضعه فى الصندوق». أضطربت المرأة وأصابها الفزع من غضبة يهوذا الإسخريوطى ونظرت «للمسيح» تستغيث به .

قالْ «المسيح» «أسكت يا يهوذا ودعها. لماذا تمنعها. إن الفقراء معكم فى كل وقت أما أنا فلا .»

«إنها فعلت ذلك من أجل تكفينى .»

. «الحق أقول لكم أنه حيثما يذكر «المسيح» فى الدنيا فإن ما فعلته هذه المرأة سيذكر ليظل تذكارا خالدا لها .»

كانت «مريم» لا تحب شيئا أكثر من العطور وتحتفظ دائماً بأثمنها. فلما أدركت أن «المسيح» أوشك أ ن يغادر الدنيا حزينا لكفر الناس به ورفضهم لتبشيره أرادت توديعه ومواساته فأعطته أفضل ما تملك. أثمن زجاجة عطر عندها سكبتها بين يديه تعزية له عن سفره الشاق وقد أوشك أن يعود صفر اليدين .

أما «يهوذا» فظل يقول «يا معلم كان يمكن أن يبا ع بثلاث مائة قطعة من الفضة فانظركم فقير كان يمكن أن يأكل منه .»

ولمْ يلتفت «يهوذا» إلى ما قاله «المسيح» لأن كل قلبه كان يمتلأ بخيبة الأمل التى حاقت به فبعد أن كان يأمل أن يصير وزيراً على الأقل فى مملكة «عيسى» ملك اليهود واستبشر خيراً لأن السيد «المعلم» قد جعله أمينا لصندوق المال فكان يأخذ لنفسه العُشْرَ

من كل ما يُعْطَى «للمسيح» بإعتباره «المقدار الشرعى» الذى يجب للهيكل أن يأخذه من أموال رعاياه لكن ها هو «المعلم» الغريب يقضى على كل أماله بحديثه الذى لا معنى له عن الموت .

أبعد أن تركنا أهلنا وأموالنا وسرنا على الأقدام متنقلين من قرية الى أخرى ومن مدينة الى أخرى ننام فى أى مكان كالكلاب الضالة التى لا صاحب لها ونأكل على موائد الآخرين كأننا متسولون وكنا نصبر حتى يتحقق الحلم ويتغلب ملكنا الموعود على أعدائه لنظفر بالمال وبالسلطة ونعوض كل أيام الشقاء يأتى هكذا فى لحظة واحدة لينهى كل شىء بحديث ممجوج لا معنى له عن «الموت». لماذا لم يتكلم صراحة. ليقل إننى خائف من رجال الهيكل وإنهم سوف يقتلوننى وإننى لا أستطيع الدفاع عنكم يا تلاميذى الأعزاء فقد زال عنى «السحر» الذى كان يهبنى قوتى وعُدتُ شخصا عاديا لا حول ولا قوة له .

كان يجب أن يكون شريفا وصادقا معنا نحن الذين تركنا كل شىء من أجله .

لقد تحرش بكل القوى وأهان جميع الطوائف حتى جلب على نفسه وعلينا بغض الجميع ولكنه قد أدرك مؤخرا أنه لا قِبَل له بمواجهة جبروت «روما» وسلطة الهيكل ففضل أن يتحدث عن هزيمته المحتمه بطريقة نبيلة تخفى المذلة التى سوف يعانيهالكنه إذا كان قد أختار أن يموت بشرف كما يتوهم فإننى يجب أن أنجو بنفسى وأعيش شريفاً كما أريد ولا سبيل إلى ذلك إلا باللجوء إلى رجال الهيكل والتعاون معهم .

عزم «يهوذا الأسخريوطى» على أن يذهب سراً إلى رئيس الكهنة ويتفق معه على أن يساعدهم على الإمساك بالمدعو «عيسى الناصرى» مقابل ثمن معقول فإن كانت الغلبة للهيكل فقد فُزْتُ بالمال والحظوة عند رجال الهيكل بعد زوال «الساحر» وإن كان الفوز من نصيب «معلمنا» فمن سيذكر إتفاقى مع الهيكل بعد زوال سلطانه ؟! يجب أن أسرع قبل أن يسرع غيرى من الذين ينافقونه و «المخبول» يتوهم أنهم يؤمنون به ومستعدون للقتال معه .

وقام «المسيح» يودع «ليعازر» و«مريم» و«مرثا» واعداً أياهم بأن ينزل عندهم ضيفا كلما حل بالقرب من «بيت عنيا» ثم شق طريقه إلى جبل الزيتون إذ استولت عليه الرغبة فى الإعتزال والصلاة استعدادا للإبتلاء القادم. كان يريد أن يجهز نفسه ويتطهر للقاء الله.

وبينما كان «يهوذا الأسخريوطى» فى «أورشاليم» لشراء بعض الطعام «للمعلم» وزملائه التلاميذ تسلل متخفيا إلى «رئيس الكهنة» الذى كان فى اجتماع مع كبار الكهنة والشيوخ يفكرون كيف يصطادون «الساحر» الناصرى بعد أن نجحوا أخيرا فى إستصدار أمر يهدد بالموت كل من يدعى أن «عيسى الناصرى» «ملكا لليهود». لقد استراب الكاهن الأكبر وبقية المجتمعين معه فى هذا الشخص الغريب الذى يكاد يخفى وجهه كله ويطلب أن يجتمع مع كبير الكهنة على انفراد لأمر هام جدا وبعد تردد شديد وافق كبير الكهنة على اللقاء فى غرفة منفصلة بعد أن أتخذ التدابير الكافية لأنه كان يخشى أن يكون هذا الغريب القادم فى الليل متخفيا هو أحد أتباع «عيسى» وقد جاء للإنتقام إذ لا بد أن «شياطينه» وجنوده قد أبلغوه بالأمر الذى استصدره «بيلاطس» والذى كان على وشك إعلانه فى الهيكل منقوشا على لافته من النحاس كالأمر السابق الذى سبق إصداره والذى كان يهدد بالموت كل من زعم أن «عيسى الناصرى» هو الله أو إبن الله .

طلب كبير الكهنة من زائره أن يكشف له عن وجهه قبل أن يتكلم معه إذ لا يُعْقَل أن يتكلم كاهن الله مع رجل يتخفى فى حضرته والإفليذهب دون لقاء فأضطر «يهوذا» إلى الكشف عن وجهه وخشية أن يكون كبير الكهنة قد رآه من قبل فى صحبة المدعو «عيسى الناصرى» أو علم من أحد بأنه من الذين يلازمون «المعلم» الناصرى فى تجواله الذى لا ينقطع بادر «يهوذا» يقول فى صوت ذليل «يا سيدي الكاهن الأكبر إننى واحد من الذين كانوا مخدوعين فى المدعو «عيسى الناصرى» ظناً منى أنه رجل صالح وحكيم جاء يعلمنا شريعة الله حتى تبين لى أنه رجل مخادع جعلنا نترك كل شىء من أجل أوهامه المجنونة.»

كان «كبير الكهنة» يمعن النظر إلى وجه «يهوذا» الذى يحاول أن يبدو فى صورة العبد الخاطىء الذي جاء مستغفراً يريد أن يتوب .

لكن «كبير الكهنة» ظل يرتاب فى أمره ويريد أن يعرف سر هذه الزيارة الغريبة فاسرع «يهوذا» يحقق المطلوب قائلاً : «لكننى لما تبينت خطأه إذ رأيته يهين الهيكل ولا يوقركهنة الله وشيوخ الشعب لما تبين كل ذلك لى أسرعت بالمجىء إليكم عازما على التكفير عن خطيئتى وحماقتى بإتباعه أثناء انخداعى به وذلك بأن أُسلِّمَه إليكم مقبوضاً عليه فى فرصة مواتية وأعتقد أنكم ستقدرون لى هذه الخدمة التي أؤديها للهيكل المقدس ورجاله العظام... نعم ستقدرونها خير تقدير خاصة إذا علمتهم أننا بسببه تركنا أهلنا وأموالنا وتحولنا إلى متسولين يجوبون القرى والمدن ويأكلون علي موائد الأغراب.».....

«أعتقد أنه من حقى أن أحصل على تعويض عن فترة الضياع تلك .»

«مجرد خائن باحث عن المال» هذا ما حدَّث به كبير الكهنة نفسه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة جمعت بين فرحته بالنجاح الوشيك الذى تعددت طرق الوصول إليه وبين الشماته فى ذلك «المعلم» المتغطرس الذى لم يحترم أحداً والإحتقار لهذا الخائن الذى باع سيده لكنه رحب «بيهوذا» قائلاً «مرحبا بك يا بنى وأنت تعود إلى صوابك ولا شك أن الهيكل المقدس سيقدر لك هذه الخدمة الجليلة التى تقدمها له وستجد التعويض الكافى عن ضياعك الذى تحدثت عنه أثناء انخداعك بذلك «الساحر» الشرير الذى يبدو أن سحره قد زال أخيرا .»

وأبتسم «يهوذا» وهو يسمع أنباء التعويض الكافى لكن كبير الكهنة عاد ليقول «ولكنك تعلم يا بنى أن الفصح بعد يومين فقط ، بل أقل من يومين فها نحن فى آخر الليل وأوشك الفجر أن يأتى ولاشك أن «أورشاليم» المقدسة ستمتلأ بضيوفها الذين يأتون إليها زاحفين من كل القرى والمدن للتطهر وحضور الفصح ولا شك أيضا أن نسبة كبيرة من كل هؤلاء قد أنخدعوا مثلك بأوهام «الساحر» الناصرى ولذلك فإن القبض عليه فى مثل هذه الظروف

أمر يهدد بإشعال فتنة فى الشعب لا يعرف أحد إلى أين ستنتهى .»

وأجاب «يهوذا» وهو يشعر أن كبير الكهنة يساومه لتقليل قدر التعويض المطلوب «بالطبع يا سيدي الكاهن الأكبر فإننا لن نتمكن من الإمساك به في مثل هذه الظروف ولكن عندما تأتي فرصته مواتية »......

«ولا بد أنك تعلم يا سيدى الكاهن الأكبر أنه غالبا ما يبيت فى العراء فى جبل الزيتون أو تحت الأشـجـار على الطريق وفى الأمكان النائيـة ولا شك أننا نسـتطيع بإذن الله أن نمسك به فى واحد من تلك المواقع ثم » (وحرك يهوذا يده على رقبته إشارة للذبح) وواصل كلامه « وينتهى كل شىء .»

وأنتبه الكاهن إلى ما فى كلام الخائن من إحتقار له فهو يكلمه كما لو كان صديقا له فى عصبة من القتلة وصاح غاضبا «ماذا تقول أيها الأحمق .»

ففزع «يهوذا» «ما الذى أغضبك يا سيدي الكاهن العظيم .»

قال «أوَ تظن أننا نريد قتله كما تقول .»؟!

«أيها الخاطىء الغبى إننا نريد أن نمسك به ونقدمه إلى محاكمة عادلة تنزل بـ القصاص العادل لفتنته وإضلاله للشعب الذى خُدِع به» فقال «يهوذا» متملقا الكاهن المنافق «نعم نعم ياسيدى الكاهن ولكن السؤال هو كيف يمكن تقديمه لمحاكمة عادلة كما تقول يا سيدي» .

قال الكاهن وقد هدأ قليلاً وبدأ التفكير يستولى على ذهنه «إنك لا تعلم أن أمراً قد صدر بالقبض على كل من يزعم أن «عيسى الناصرى» هو ملك اليهود ونحن الآن ندبر كيف يمكن إثبات أنه يدعو لتنصيب نفسه ملكا أمام بعض الشهود الذين سوف يرضون بأداء الشهادة أمام «بيلاطس» ويقوم «بيلاطس» بصلبه بإعتباره مشاغبا متمرداً على سلطة «روما». على هذا النحو يمكننا الخلاص منه دون أن نلوث أيدينا أو نثقل ضمائرنا الطاهرة

بدمه. ليتحمل «بيلاطس» قتله وليظل الهيكل يا بنى نظيفا مقدسا . إننا نريد أن ننقذ الشعب المخدوع من ضلاله».

قال «يهوذا» وهو ممتلأ بالغيظ من هذا الكاهن المنافق الملعون الذى يريد أن يستغنى عن خدمته ليضيّع عليه المكافأة المطلوبة أو على الأقل يساومه لتقليلها «نعم يا سيدى ولكن السؤال هل ستستطيعون أن تصطادوه؟! حقا يا سيدى . إنه ضال ولكننا يجب ألا ننكر أنه ماكر جدا . إنه مثل الحية التى لا يستطيع أحد الإمساك بها. يروغ ممن يطلبه مثل الثعلبً وينتبه للفخ المنصوب له فى الخفاء فيدوسه دون أن يقع فيه وأخشى يا سيدى ألا تنجحوا فيما ترمون إليه. الأفضل «عمل مباشر» فى ظرف مناسب ولا تخش الشعب يا سيدى فإنه لن يفعل شيئا وهل فعل شيئا وقد ذُبِحَ «يحيى» فى السجن ذبْحَ الأغنام. لم يزل «هيرودوس» رئيساً للجليل كما نعلم». وابتدأ الكاهن يفكر بعمق فيما قاله «يهوذا». حقا يبدو أن هذا «الخائن» على حق. وأرتسمت على وجه «يهوذا» إبتسامة ساخرة وهو يدرك أنه قد استطاع أن يستعيد الكاهن الأكبر إلى المصيدة حتى لا تضيع المكافأة .

قال الكاهن» «نعم يا بني. ربما كان ما تقول صواباً ولكن ينبغى الحذر والحرص ومراعاة كل الظروف والإحتمالات حتى لا تفلت الأمور من أيدينا .»

قال «يهوذا» وقد تأكد من فوزه بالغنيمة «سَيُرَاعى كل ذلك ياسيدى الكاهن لاتخش شيئا .سيكون كل شئ على مايرام»

فتساءل الكاهن فى حيرة «كيف يابنى ؟!

قال «يهوذا» فى ثقة «عليكم الآن أن تدبروا قوة كافية من خدم الهيكل وبعض الجنود الذين يمكن ضمان حماستهم ببعض الأموال ولاشك أن أموال الهيكل كثيرة – أليس كذلك ياسيدى ؟!» فتغاضى الكاهن عن سؤاله الوقح وقال له فى غضب «أكمل ثم ماذا ؟ »

قال «لتكن هذه القوة تحت الطلب بحيث يمكن استدعاؤها فى أى لحظة ولتزود بأسلحة كافية ومشاعل لأنه من الأفضل أن يكون وقت القبض عليه ليلا حتى إذا كان فى مكان محصور يمكن السيطرة عليه والوقت ليلا والناس نيام انقضضنا عليه وأمسكنا به ثم لتقدمه بعد ذلك للمحاكمة العادلة التي تراها. ولاشك أنك لن تعدم شهودا على التهم التى تريد أن تلصقها به فأموال الهيكل كثيرة ياسيدى الكاهن أليس كذلك » ؟!

«أيها الخائن الطمّاع» ولكنه كتم مشاعره وأخذ يفكر فيما قاله «الخائن الطماع».

فوجد أنه تدبير حكيم جدا. يجب أن نمسك به أولاً ثم ماأسهل تدبير محاكمة عادلة تنتهى بصلبه والتخلص من شره.

فقال «ليهوذا» «حقا يابنى سيشكر الله لك ماصنعتة من أجل خدمة هيكله المقدس وسنكون نحن كهنة الله مسرورين جدا بك».

«أين المكافأة» «أين التعويض المناسب. ماذا سأفعل أنا بسرور كهنة الله» قال «يهوذا» للكاهن «بلاشك ياسيدى الكاهن ولكننا لم نتفق بعد ؟!»

«كيف يابنى لقد اتفقنا على كل شئ سأذهب لتوى لأبشر بقية الكهنة والشيوخ وسأدبر لإعداد قوة كافية لتكون تحت الطلب».

فقاطعه «يهوذا» «ولكن أين المكافأة أين تعويضى عن زمن ضياعى. لم تقل لى كم ستدفع ؟» - «يابنى سأدفع لك كل ماتطلب ولكن بعد أن أراه مقيدا بالأغلال وأسلمه الى الوالى الرومانى ليصلبه فلاتخف سأعطيك كل ماتطلب».

- «ومن يضمن لى ياسيدى الكاهن أنك لن تنسى فى غمرة فرحك بالقضاء على «الساحر» الشرير تنسى أن تعطينى أجرى».

- «بالطبع يابنى لن أنساك»

ـ «ولكن من يضمن لى»

ـ «ومن يضمن أن خطتك المحكمة هذه ستنجح فعلاً وسنمسك بالمدعو «عيسى الناصرى» في أيدينا ؟!

ـ «إذن فأنتم لاتثقون فى»

ـ «كلاً يابنى ليست مسألة عدم ثقة فيك لكن المسألة هى أننا يجب أن ندفع ثمنا حقيقياً مقابل شئ حقيقى. إننا ندفع الثمن مقابل البضاعة التى نتسلمها من البائع وليس مقابل وعد بتسليم البضاعة لقد وعدتنا أن تسلمنا «عيسى الناصرى» بالقوة التى سنعطيها لك ونحن وعدناك بأن نعطيك ماتطلب إذا فعلت هذا فكما ترى نحن على ثقة تامة فى وعدك فكن على ثقة كاملة فى وعدنا ، والله على مانقول شهيد».

«الكاهن الملعون يريد أن يحصل على طلبه دون أن يدفع شيئا!. كلا هذه خيانة قذرة!! لابد أن يدفع شيئا» قال «ياسيدى الكاهن لابد أن أحصل على شئ حتى استطيع أن أفكر جيداً وأنا اتحسس النقود فى جيبى»

ـ «كم تريد ؟!»

ـ «يمكنك ياسيدي أن تقدر قيمة هذه الخدمة وأنظركم خسر الهيكل منذ طَرد «الساحر» الشرير منه الصيارفة وتجار الأبقار والاغنام والحمام ؟!

« أيها الخائن الطماع تريد أن تسرقنا» وقال له : «قل كم تريد ؟»

ـ «لن أثقل عليك أعطنى ثلاثين قطعة من الفضة الآن لأننى خسرت بالفعل هذا المبلغ منذ قليل ولكن هذا سيكون مجرد تقدمة أما الأجر الكامل فسيكون ثلاث مائة قطعة من الذهب وأظن أن «الساحر الشرير» يساوى أكثر من هذا كما أن الهيكل المقدس لديه الاموال الكثيرة ويمكن بعد أن يرجع الصيارفة والتجار إليه أن يحصّل أكثر من ذلك بكثير أضعافا مضاعفة».

ـ «الآن ؟! كيف وأنت لم تقل لنا أين هو الآن ومتى ستأتى به وكم جنديا تطلب و...»

«إن خطتك البارعة لم تزل في رأسك وليس من العدل أن ندفع نقوداً حقيقية مقابل بعض الأفكار الرائعة التى لاتعنى شيئا إلا إذا تسملنا «الساحر» الشرير فى أيدينا»

«أيها البخيل الملعون وهل هى أموالك أو أموال أبيك. إنكم لصوص تبيعون للناس الأوهام وتأخذون أموالهم مقابل أفكار رائعة لاتعنى شيئا علي الإطلاق. ولكن لابأس سنتفق وسأحصل على أجرى كاملا منك أيها الملعون البخيل» قال «ياسيدى يجب أن نتفق الآن حتى يمكنني أن أستمر فى خدمتى وإلاّ فلننسى كل ماقيل الآن وكأن شيئا لم يكن».

وأضطرب الكاهن «ماذا يريد هذا الخائن الطماع » ؟!

وعاد «يهوذا» ليقول : «وصلتُ إلى حل وسط ستعطينى ثلاثين قطعة من الفضة يوم أن آتى إليك لآخذ الجنود على أن تعطينى بقية أجرى عندما تتسلم ماتريد. اتفقنا ؟».

قال الكاهن : «اتفقنا»

وخرج «يهوذا» محاولا تغطية وجهه لأن الليل كان قد أوشك أن يذهب ونور الفجر يتقدم. كان يسرع بالخروج من بيت رئيس الكهنة قبل أن يراه أحد ليلحق «بالمعلم» المنقطع للصلاة فى جبل الزيتون.

وأسرع كبير الكهنة الى الذين كانوا ينتظرونه على أحر من الجمر ويتساءلون فيم كل هذا التأخير حتى ضاع الليل كله .

(٢٩)

الإنذار الأخير

«وماكان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون إن الله بكل شئ عليم»

(التوبة ١١٥)

مكث «المسيح» فى الصلاة بينما التلاميذ يتبعثرون فى جبل الزيتون تشتتهم الحيرة ويمزقهم الخوف وهم يفكرون ماهو المصير ؟

وأين المفر ؟!

لقد تركوا كل شئ المال والأهل والسكن وظلوا يجوبون الطرق من الجليل بل من بادية الشام (الجولان) شمالا حتى حدود أدومية جنوبا يتنقلون من قرية إلى مدينة ومن مدينة إلى قرية يستمعون إليه وهو يعظ فى المجامع وفى الهيكل ويشهدون عجائبهومعجزاته.

لقد بهرتهم قدراته الخارقة وطلاقة لسانه ومقدرته التى لانظير لها على إفحام خصومه والهروب من الفخاخ التى تنصب له فى يسر ومهارة حسده الجميع من أجلها لكنه هاجم الجميع وأستهزأ بكل الطوائف والفئات ولم يترك له وليا . جلب على نفسه وعلينا نحن الذين لازمناه عداوة الجميع ولكننا كنا نقول سيهزم الجميع وسيصعد فوقهم ملكا متوجا لايستطيع أحد أن يغتصب منه عرشه وسنصعد إلى جواره فى المجد الذى ناله لكن هاهو يتركنا بمفردنا بلاحول ولاقوة فى مواجهة الجميع الذين شحذوا سيوفهم وكشروا عن أنيابهم ليأكلونا كذبيحة العيد فى هذا الفصح.

سنكون ذبيحة هذه السنة وإلى الأبد. نعم لابد أن يقتلونا بعد أن ينتهوا منه.

فأين المفر ؟ هل نهرب والي أين؟!

كانت «أورشاليم» تميد من صخب زوارها الذين أتوها ليشهدوا العيد وكان الجميع يتساءلون أين ذهب السيد «الناصرى» الذى قالوا أنه «ملك اليهود» الذى سيرد إليهم مجد أبائهم ويستعيد ملك أبيه «داود». هل تُراه فر هاربا ولم يجد نفسه أهلاً لمحاربة الرومان الذين أصدروا أمراً بقتل كل من يزعم أن «عيسى» هو ملك اليهود. لقد علقوا اللافتة النحاسية فى الهيكل التى سجل عليها هذه الأمر ، فهل تراه آثر السلامة لينجو بنفسه.

إن فراره سيذبح آمال كل الذين تطلعوا إلى وجهه وتنسموا نسيم المجد العائد بعد طول غياب أم أنه سيظهر فجأة ممتطيا ظهر جواده الذى لايكبو رافعا سيفه الذى لايقهر مناديا بأعلى صوته «أنا الملك» «المجد لإسرائيل شعب الله».

هل لم يكن أكثر من مغامر طائش استطاع أن يسرق حواس جمهوره ويسلب أفئدتهم «بسحره» ثم زال سحره فعاد عبداً مسكينا من الشعب اليهودى الذى يرعى فى مملكة «روما» «المقدسة» .

وخرج «المسيح» من صلاته.

انتبه التلاميذ إلى ظهوره من الكهف الذى كان يصلى فيه فأسرعوا إليه يريدون أن يعرفوا أين سيدفع بهم هذه المرة الأخيرة. كان وجهه شاحبا ممتقعا . كل شئ فيه يقول «لقد تعبت وأريد أن استريح» ورغم ذلك أشار بوجهه إلى أنه ذاهب إلى «أورشاليم». هل هذا وجه ملك يستعد لتسلم عرشه وهل هذه مشية فاتح يريد أن يقتحم «أورشاليم» «سيدة المدن» ويستردها من الرومان «لقد هلكنا ورب الهيكل. نحن الآن نسير رغما عنا الى حتفنا .

ظل «المسيح» يسير هادئا صامتا مطرقاً إلى الأرض ينظر إلى الطريق الحجرى الذى يعبره وتحيط به الصخور القاسية من كل جانب والتلاميذ يسترقون النظر الى وجهه من حين لآخر .

وجهه الحزين وصمته المخيف ونظرة عينيه كل ذلك كأن يقول لهم بأفصح عبارة «إننا نقترب من الكارثة».

(٣٧٧) وأعتصره ألم الجوع. إنه لم يتناول شيئا منذ عاد من «بيت عنيا» فسار هادئاً إلى شجرة تين بدت له على البعد. كانت مشيته تفصح عن تعبه وسار التلاميذ وراءه. عندما اقترب من التينة لم يجد إلا ورقا ولم يجد فيها ثمراً فقال لها «منذ الآن لن يكون منك ثمر إلى الأبد» وبدأت التينة في الحال تعانى من التيبس أخذت تجف وتضمر وهى تئن كأنها ميت يُحْتضَر والتلاميذ ينظرون ويتعجبون.

وشعر بالتعب فجلس على الأرض

(٣٧٨) وأرسل إثنين من تلاميذه قائلا «ستجدان هناك» – وأشار بيده – «جحشاً مربوطا فحلاه وأتيا به إلىَّ وإن وجدتم أحداً من البشر هناك وسألكم ماذا تفعلان أو لماذا تحلانه فقولا له إن «المعلم» محتاج إليه فسوف يتركه لكم.»

جلس ينتظر وبقية التلاميذ يتعجبون كيف عرف أن هناك جحشاً مربوطاً ويتساءلون هل يدخل الملك راكبا جحشاً صغيراً ليفتح سيدة المدن ؟!

عندما وجد التلميذان الجحش كما وصف «المعلم» بالضبط بكيا بكاءً مراً لأنهما سخرا فى الطريق من «المعلم» الذى أذهب الجوع والخوف بعقله وفرشا ثيابهما على الجحش الصغير إذ أحبا أن تلامس ملابس السيد «المسيح» ملابسهما لعلهما يظفران ببركة «مسحته».

وجاء الجحش الصغير يتقدم التلميذين الباكيين فتهلل وجه «المسيح» وقام نشيطا ليدخل «أورشاليم» التى كانت تنتظره فى إضطراب. دخل «المسيح» سيدة المدن راكبا جحشه الصغير اخترق السوق وسط دهشة الجموع الغفيرة التى كانت تنظر إليه فى تعجب أهكذا يدخل «الملك» مدينته.؟!

لقد فرح الذين كانوا يقولون أنه لابد أن يأتى إذ يستحيل ألاّ يكون فى «أورشاليم» فى الفصح وخاب أمل الذين توقعوا هروبه وظنوا أنه فر خوفا من أمر «بيلاطس» المعلق فى الهيكل ومن كيد رجال الهيكل لكن وجهه الحزين وجحشه الصغير صدما الجميع الذين فرحوا به والذين خاب أملهم.

ونزل «المسيح» عن جحشه وأسرع الى الهيكل والجموع الغفيرة تسرع ورائه لتنظر ماذا يحدث ؟

استولى الإضطراب على رجال الهيكل الذين كانوا قد أوشكوا على الراحة لإعتقادهم أن المدعو «عيسى» قد هرب لينجو بنفسه ورغم أنهم كانوا قد أعدوا كل شئ لإيقاعه فى المصيدة إلا أن هروبه وذوبانه فى صخب الدنيا الواسعة كان أفضل لهم حتى من نجاحهم فى إصطياده لأن هروبه كان يعنى هزيمته الى الأبد. كان يعنى موته حقيقة وإن استطاع أن ينفذ بجلده من أحد ثقوب المصيدة التى أعدوها له . لو كان قد هرب لكانوا قد حققوا فوزا غاليا دون أدني تعب.

أما الآن فإن عليهم مرة أخرى أن يحاولوا اصطياده من جديد.

«مادمت قد عدتَ يا «عيسى» وأصررت على المواجهة فلا بأس أنت وماتريد. أنت الذى تصر على أن تجعل معركتنا حتمية ودموية ولابد فيها من منتصر ومن مقتول.»

وأخرجوا الفخاخ التى كانوا قد أعدوها لإصطياده(٢٧٩)

تقدم إليه واحد من الجمع باكيا يقول له «يامعلم قل لأخى أن يعطينى نصيبى من الميراث». المطلوب هو أن ينطق «المعلم» بحكم الشريعة ويدعو الأخ الظالم لإعطاء حق الله الى المظلوم وبهذا يمكن إحضار «الشهود» الذين يشهدون صادقين على أنه كان يحاول أن ينفذ حكم الله فى الشعب فهو إذن يظن نفسه ملكا يحكم رعيته.

قال «المسيح» «أيها الإنسان من الذى أقامنى عليكما قاضيا أو مقسّماً». ثم ألتفت للجميع وقال «انتبهوا وأحذروا من الطمع. هل حياة الإنسان بأمواله ؟»

«هل الذى عنده مال أكثر يحيى أكثر من غيره ؟»

«هل المال يقى صاحبه من الموت ؟»

«إسمعوا هذا المثل».

«كان انسان غنى أخصبت أرضه وفاض محصوله حتى لم يجد مكانا فى مخازنه يضع فيه الثمار الكثيرة التى استطاع جمعها وبدلا من أن يتصدق على الفقراء بما زاد حتى على مايمكنه تخزينه. بدلا من أن يفعل الخير قال لأبنينّ مخازنا جديدة واسعة تكفى لتخزين كل هذه الثمار الوفيرة ثم أخذ يهدم مخازنه القديمة ليبنى مكانها أخرى أوسع وهو يمنى نفسه بأنه سيستطيع أن يجمع فى مخازنه كل مااستطاع أن يحصده. ستكون مخازنى الجديدة كافية لحفظ كا ماأحتاجه حتى آخر عمرى فاكل وأشرب واستريح سنين طويلة بلا كد ولاتعب ونام وفى هذه الليلة نفسها التى جدد فيها مخازنه جاءه «الموت» وقال الله له «أيها الغبى ستؤخذ منك نفسك الآن فتلك المخازن الجديدة قل لى لمن أعددتها».

«وهذا هو حال المستغنى بماله عن «الله» الذى خلقه». وفشلت الخطة ولكن لابأس من المحاولة مرة اخرى.

دخل «المسيح» إلى الهيكل واتجه ناحية الخزانة حيث جلس على الأرض يريد أن يعلم الناس الذين اجتمعوا إليه فأشار إليهم أن يجلسوا على الأرض وقبل أن يبدأ وعظه(٢٨٠)

اندفع إليه بعض الفريسيين ومن بينهم كتبة وهم يدفعون أمامهم إمرأة مكشوفة الشعر مهلهلة الثياب قد بدا الرعب فى وجهها. أخذوا يجرونها فى غلظة حتى أوقفوها فى الوسط وفى أصوات غليظة قاسية صاحوا «يامعلم هذه المرأة قد أمسكت فى زنا. أمسكت

وهى فى ذات الفعل وهؤلاء هم الشهود الذين يشهدون عليها. لقد أوصانا موسى فى الناموس أن مثل هذه ترجم فماذا تقول أنت يا «معلم» ؟[٢٨٠]

«هل نرجمها أم لا ؟»

المهم أن يصدر حكماً سواء وافق الشريعة أو خالفها لأن المطلوب هى أن يشهد بعض الناس أنه يتصرف كما لو كان ملكا يقضى بحكمه بين أبناء شعبه.

وأخذوا يصيحون ماذا تقول يا «معلم» ؟

«ماهو حكمك على هذه الزانية الفاجرة ؟ أنرجمها أم لا ؟ »

ظل «المسيح» جالسا مطرقا وهو يكتب على الأرض بأصبعه كأنه يرسم والكتبة والفريسيون يلحون عليه ويصيحون «قل لنا حكمك» "ما هو حكمك؟!"

ثم قام وأشار بيده إلى الموضع الذى كان يرسم فيه بأصبعه وقال «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر» ورغما عنهم نظروا إلى موضع إشارته فبدا لأعينهم كأن هناك مرآة ظهرت عليها سيئاتهم فرأى كل واحد منهم رجسه فأخذوا يجرون بسرعة من أمامه كأن أسدا قد أقبل عليهم والناس من حولهم تنظر فى دهشة ولاتعرف ما السبب فى هروبهم المذعور هذا ولامايجرى بالضبط أما المرأة الواقفة فى مذلة فقد أخذت تبكى فى صمت وهى تشعر بالمهانة وفى غمرة الدموع التى أغرقت قلبها انساب فى الظلمات نور هادئ كأنه يأتى من بعيد يشق طريقه فى صمت ودون صخب يبدد الظلمات التى لاتستطيع أن تحتمل حضوره.

قال لها «المسيح» «أيتها المرأة أين المشتكون عليك أما أدانك أحدٌ منهم ؟!»

قالت وهى تحاول أن تنظر الى وجهه المشرق الحنون من وراء المطر الذى ينزل من عينيها .

«لا أيها السيد قد انصرفوا جميعاً فإن صفحت عنى فإنى لا أخطئ أبداً بعد الآن»

قال «المسيح»: «تبارك الله القدوس ولا أنا أدينك وقد غفر الله لك. اذهبى فى سلام الله ولاتخطئى من بعد.»

وتجمع الناس حوله ورؤساء الكهنة والشيوخ لايعرفون ماذا يفعلون. كان ذعر الذى ذهبوا بالمرأة الزانية سبباً فى قلب كل خططهم رأسا علي عقب فمن الذى سيجرؤ الآن على الذهاب لإصطياده ، هل يستطيع أحد أن يدُخِل هذا «الساحر» القدير فى المصيدة ؟!

يبدو أنه لابد من «العمل المباشر» «لنرسل بعض خدم الهيكل» وأخذوا يغرونهم بالمال ليمسكوه.

(٣٨١) وجاء بعض الأغنياء يختالون فى مشيتهم وراحوا يلقون النقود فى الخزانة وهم يضحكون وتتعالى أصواتهم والجميع ينظرون إليهم وإلى كثرة أموالهم وجاءت إمرأة عجوز فأخرجت من منديلها فلسّين وألقتهما فى الخزانة فى هدوء وذابت فى صمت وسط الجمع المحتشد حول خزانة الهيكل فلفت «المسيح» انظار تلاميذه والجمع الملتف حوله وقال «أنظروا الى هذه الأرملة المسكينة. الحق أقول لكم أنها وضعت فى الخزانة أكثر مما ألقى كل هؤلاء الأثرياء لأنها أعطت كل مالها قربانا للرب. ألقت فى الخزانة كل معيشتها ، أما هؤلاء فإنهم يلقون مافاض بعد كل إنفاقهم.».

ووقف الخدم الذين جاءوا ليمسكوا «بعيسى» يستمعون إلى مايقول «وسحرهم» بوجهه المشرق وصوته الحنون الحزين والحكمة التى ينطق بها لسانه «ليس هناك انسان آخر فى هذا الهيكل يتكلم بمثل هذا السلطان. لاأحد منهم يستطيع. فليذهبوا هم ليمسكوا لو استطاعوا أمّا نحن فلا».

ورجع الخدم إلى رئيس الكهنة والمجتمعين معه دون أن يمسكوا «بالمسيح» فصاح فيهم غاضبا لماذا لم تأتوا به ؟

(٣٨٢) قـالوا «لانسـتطيع. مـا رأينا إنسـاناً قط يتكلم مـثله» فـصـاح كـبـير الكهنة هل ضللتم أنتم أيضا أيها الملاعين ؟».

وصاح الشيوخ المجتمعون فى غضب «إن هذا الشعب الملعون الذى لايفهم الناموس سوف يلقى به فى جهنم.»

ولم يتمالك «نيقوديموس» نفسه من الغضب فصاح «هل ناموسنا الطاهر يدين إنسانا لم نسمع منه. لنسمع أولاً مايقول. إننا لم نعرف مـاذا فعل بل فى الحقيقة لم نسأله من أنـت ومـاذا تريـد. هـل نـامـوسنا الطاهـر يبـيح قـتـل إنسـان لـم نسـأل أنفـسنا من هو ؟ وماذا يريد ؟»

فاندفع الشيوخ الآخرون والكهنة يقولون «لعلك قد ضللت أنت أيضاً يا «نيقوديموس» «ولم لا ألستَ من الجليل أصـلاً ؟ ألاَ فلـتـعلم أنه لم يقم قط نبى من الجليل. قـد أصـبـحت «ناصريا». ربما كنت من الناصرة أيضا ؟!»

«إذهب وفـتش. لم يقم نبى من الجليل هذا مـؤكـد». وكتم «نيـقـوديموس» غـيظه وذهب إلى بيته ولم يجد كبير الكهنة والمجتمعون معه بداً من الخروج إليه لمواجـهته. كان لابد من المواجهة الحاسمة فها هو أحد كبار الكتبة يؤمن به ويعلن ذلك في حـضور كبير الكهنة والشيوخ وهاهم الخدم خدم الهيكل يقولون مارأينا أحداً مثله والناس قد التفت حوله غير عابئة باللافتة التى تتوعد بالموت كل من يزعم ان «عيسى الناصرى» هو ملك اليهود.

وجاء كبير الكهنة وبطانته

(٣٨٣) قالوا «إن كنتَ أنتَ «المسيح» «فقل لنا علانية إلى متى تعلق نفوسنا» ؟!

قـال «قد قلتم لكم ولكنكم لاتؤمنون والأعمـال التى يظهـرهـا الله بى تشـهـد لى ولكنكم لاتريدون أن تـصـدقـوا». قـالوا «كـيف تكون أنت «المسـيح» والمسيح يجب أن يكون مـن نسل

داود ويخرج من القرية التى وُلد فيها داود، من بيت لحم يجب أن يأتى مسيح الله أما أنت فإننا لانعرفك ولانعرف من أين جئت ولامن هو أبوك ؟!»

قال : «تكذبون إذ تقولون أنكم لاتعرفون من أنا ولامن الذى أرسلنى»

«وها أنذا أقول لكم إننى «المسيح» «عيسى بن مريم» أرسلنى الله إليكم فلم آت إليكم من تلقاء نفسى بل الله هو الذى أرسلنى إليكم ولكنكم لاتؤمنون به ولذلك لاتؤمنون بى».

فاندفع بعض الفريسيين يقولون له «أنت تشهد لنفسك »(٣٨٤) «فشهادتك ليست حقا؟!»

قال : «وإن كنتُ أشهد لنفسى فإن شهادتى حق لأننى أعرف من أين أتيت وإلى أين أمضى أما أنتم فلا تعرفون من أين اتيتم ولا إلي أين تمضون ولكن فى ناموسكم أن شهادة رجلين تكفى وقد شهد لى «زكريا» وأبنه «يحيى» أفتنكرون ؟!»

وأطبق الصمت على الجميع ولم يستطع أحد أن يعترض وواصل «المسيح» كلامه «وسيشهد لى «رسول الله» الذى سيرسله الله رسولا إلى الناس أجمعين ولكنكم لاتعرفونه لأنكم لم تؤمنوا بى فلو آمنتم بى لعرفتموه !!»

قالوا : «من أنتَ ومن هو أبوك ؟ ألست ابن الزنا الذى حملته أمه سفاحا ؟!»

قال :«منذ كم من الوقت وأنا اقول لكم من أنا أفحتى الآن لاتعلمون. أبى هو «روح القدس » الذى أعطى كل شئ حياته وأعطى كل نبى نبوته وكل مؤمن ايمانه. ولدتنى أمى دون أب من البشر آية للناس أجمعين ليعلموا كيف خُلِقُوا وكيف تخلق الاشياء وليعرفوا قدرة ربهم القادر على كل شئ الذى خلق الإنسان من طين وخلق «آدم» دون أب يحمله فى صلبه ودون أم تنبته في رحمها. أنا «ابن الانسان» الذى أظهر «روح القدس» للدنيا وسيشهد لى «روح القدس» عندما يبعثه الله رجلاً بشراً رسولاً إلى كل الشعوب والقبائل. لو آمنتم بى عرفتم الحق والحق يحرركم.»

(٣٨٥) قالوا «إننا أبناء إبراهيم ولسنا عبيداً لأحد فكيف تحررنا أنت ؟»

قال : «الحق أقول لكم إن كل من يعمل خطيئة فهو عبد للخطيئة فإن آمنتم بى كما يحب الله وتحررتم من الخطيئة صرتم بالحق أحرارا وكما أن رب البيت لايُبْقى فيه إلاَّ أبناءه لأن العبيد لابد أن يخرجوا فكذلكم لن تبقوا فى رحمة الله إلاَّ بالإيمان بى لأن من يؤمن بىَ فإنما يؤمن بالذى أرسلنى .»

«إننى أعلم أنكم ذرية ابراهيم ولكن هل أنتم حقاً أبناءه ؟»

«إن الابن يعمل أعمال أبيه فهل أنتم تعملون أعمال إبراهيم. إننى إنسان أكلمكم بالحق الذى سمعته من الله.»

«أليس هذا هو ماصنعه ابراهيم ؟.»

«إننى أكلمكم بما رأيت وسمعت من الله ولم آت إليكم من تلقاء نفسى بل الله هو الذى أرسلنى إليكم وآياته التى صنعها بيدى تشهد لى فلماذا لاتفهمون كلامى. إنكم تكرهوننى لأنى أكلمكم بالحق لذلك لاتستطيعون أن تسمعوا لى. أنتم تريدون قتلى.»

«فهل هذا هو ماصنعه إبراهيم. هل إبراهيم كان قاتلا لكنكم مثل «أبليس» لأنه منذ بدء الدنيا كان قتألا للناس ولم يثبت فى الحق مثلكم ومتى تكلم فإنه يتكلم بالكذب مثلكم.»

«من منكم يستطيع أن يبكتنى على خطيئة؟!»

«فإن كنتم تكرهوننى لأننى أقول الحق وأعمل به وتكذبون وتريدون قتلى فأنتم إذن أبناء «أبليس» وشهوات أبيكم الملعون تعملون لأن الذى من الله يسمع كلام الله ويؤمن به ولكن لأنكم ابناء «أبليس» فلذلك لاتسمعون كلام الله ولاتؤمنون به فانظروا الآن أبناء من أنتم». قالوا :«نحن أبناء الله ولم نولد من زنا ».

قال : «لو كنتم أبناء الله حقاً لكنتم آمنتم بى وأحببتمونى ولكنكم لاتؤمنون وتريدون قتلى».

١٠

قال «كبير الكهنة»: «حقا إنك مجنون من ذا الذى يريد أن يقتلك بلا شك أنت سامرى يركب الشيطان ظهره فهو يضلك ولذلك لاتحترم كاهن الله ولاشعب الله وتتهمنا كذباً بأننا نريد قتلك».

قال «المسيح» : «حقاً إننى لست سامرياً ولايركب الشيطان ظهرى ولكننى أريد أن أطرد الشيطان من هذا الهيكل الذى انحدر ليكون بيتا للشيطان بعد أن كان بيتا الله ولهذا يثير الشيطان ضدى حربا شعواء»

(٣٨٦) قال كبير الكهنة : «فما المراد إذن ياعيسى بالمجيئ إلى الهيكل بكل هذا الجم الغفير من الناس ؟ أتريد أن تجعل نفسك ملكا لليهود، هل أنت ملك شعب إسرائيل. إحذر من أن يحل عليك خطر عظيم من إدعائك هذا!!»

قال «المسيح» : «لو كنت أطلب المُلْكَ وأريد نصيبا من هذه الدنيا مافررت من أهل «نايين» حينما أرادوا أنْ ينصبونى ملكا، إننى لاأطلب مجد نفسى بل مجد الذى أرسلنى، حقا لست أطلب شيئا من هذه الدنيا ولذلك يثير الشيطان ضدى حربا شعواء ولوكنت أطلب مجدى وأريد أن أصبح ملكا لإسرائيل لعبدتنى أنت وأمثالك ولكنني أقول الحق لذلك تبغضوننى وتريدون قتلى.»

(٣٨٧) «أصيخوا إلىَّ السمع أخبركم من الذى يركب ظهره الشيطان؟!»

«إنه الذى يعمل مايحبه الشيطان هذا هو الذى ركب الشيطان ظهره ووضع عليه لجام إرادته فهو يديره أنىَّ شاء حاملاً أياه على الإسراع إلى كل إثم ورغم أن البشر جميعاً من طينة واحدة فإنهم يختلفون حسب إرادة الذى يعمل فيهم فالذين تعمل فيهم إرادة الشيطان هم بحق أبناء الشيطان»

«إن كنتُ قد أخطأت فلماذا لم توبخنى كأخ بدلاً من أن تبغضنى كعدو ؟»

«وإن كنت لم أخطئ فلماذا لاتسمعون لقولى»؟!

«حقاً إن المؤمنين كلهم مثل أعضاء الجسد الواحد. إن أعضاء الجسد الواحد تحس جميعها بالألم الذى يشتكى منه عضو منها لماذا ؟!»

«لأنها جميعاً ترتبط بنفس «الرأس». فلو كنتم ترتبطون بنفس الرأس الذى كان إبراهيم يرتبط به لآمنتم بى ولو كنتُ قد أخطأت كنتم توبخوننى كأخ وحينئذ تكونون طائعين لله لكن لاأحد فيكم يمكنه أن يوبخنى على خطيئة فلماذا تكرهوننى لماذا تريدون قتلى ؟!»

«حقا إنكم لستم أبناء ابراهيم كما تتوهمون ولستم أبناء الله كما تزعمون بل أنتم أبناء أبليس ؟!»

«أتزعمون أنكم أبناء ابراهيم وهو الذى لم يكتف بتحطيم الأصنام وقضاء عمره كله مهاجراً فى سبيل الله تاركا المال والأهل والوطن بل عزم أيضا على ذبح إبنه البكر طاعة لله؟.

حينئذ قال «رئيس الكهنة» وقد وجدها فرصة ليوقف هجوم «عيسى» الكاسح وربما استطاع أن يؤلب الشعب عليه.

«ياهذا لسنا نريد قتلك ولكننا نريد سؤالك ؟»

قال «عيسى» «سؤالى عن ماذا ؟»

قال : «من إبن ابراهيم الذى كان سيذبحه ؟»

قال : «عيسى» «إن كنتم تريدون الكذب فإننى لاأكذب »

ثم احتدم وعلا صوته «يالله إن غيرة شرفك تؤججنى هل يمكننى أن أسكت. كلاً. الحق أقول لكم إن إسماعيل كان هو ابن ابراهيم ومن سلالته ينبغى أن يأتى النبى الذى تتبارك به أمم الأرض جميعاً كما وعد الله خليله».

فقال «رئيس الكهنة» فى حنق وهو يمتلأ بالغيظ «انظروا إلى هذا الفاجر الذى يجدف على شريعة الله وعلى موسى».

فقاطعه «عيسى» «الحق أقول لكم إن من يؤمن بكلامى فله الحياة الأبدية»

(٣٨٨) فأندفع الكهنة والفريسيون يقولون «الآن علمنا أن فيك شيطان. قد مات ابراهيم والأنبيـاء من بعـده وأنت تقـول أن مـن يؤمن بك لايموت أبدا . هل تظن نفـسك أعظم من إبراهيم إن الانبياء جميعا قد ماتوا فمن تجعل نفسك »؟!

قال «المسيح» : «آه من قلوبكم القاسية التى لاتريد أن تؤمن وأفئدتكم المظلمة التى لا تقبل النور .لستُ أمجد نفسى لأن الله الذى أرسلنى هو الذى يمجدنى.»

"إنكم تزعمون أنه آلهكم ولكنكم لستم تعرفونه أما أنا فأعرفه لأنه هو الذى أرسلنى إليكم ولو قلت أنى لاأعرفه صرت مثلكم كاذبا ولكننى أعرفه واحفظ كلامه الذى قاله لى. إن أباكم ابراهيم تهلل يوم مولدى وتمنى أن يرى يومى فرأى »

«قالوا» «لم تبلغ الخمسين سنة وتزعم أنك رأيت ابراهيم ؟»

قال : «الحق أقول لكم إننى كنت في السماء قبل أن يكون ابراهيم على الأرض».

فلـم يتمـالكـوا أنفسـهم مـن الغضـب ولكنه واصل كـلامـه بينمـا بدأوا يستـعدون «للعمل المباشر».

«الحق أقول لكم إنكم تطلبون قتلى ولكنكم ستـهلكون بخطيئتكم وحيث أمضى أنا فإنكم لاتستطيعون أن تصلوا لأن الله سيرفعنى الى السماء كما كنتُ قبل أن أولد من رحم أمى أما أنتم فستبقون فى الأرض ولن تستطيعوا أن ترتفعوا .»

«الحق أقول لكم إنه لايدخل من البـاب إلاّ الراعى. أمـا السـارق فـإنه يأتي من موضع آخر» (٣٨٩)

«راعى الغنم يأتى من الباب والبواب يفتح له والخراف تعرفه فهى تسمع صوته وهو

يناديها بأسمائها فتستجيب له وتخرج معه ويسير فتسير وراءه أما السارق فإنها تهرب منه ولا تتبعه»

«الحق أقول لكم إنني أنا الراعي الصادق لذلك أتيتُ من الباب ولم أقفز من موضع آخر إن السارق يأتي ليسرق ثم يذبح أو يضيع أما أنا فقد أتيت لأهب الحياة لمن يؤمن بي ويتبعني. إن خرافي تعرفني وتسمع صوتي وتفهم كلامي ولذلك فهي تتبعني ولي خراف أخرى ليست من هذه الحظيرة ولابد أن أرجع إليها لآخذها وأهبها الحياة لتكون في النهاية رعية واحدة وراع واحد» .

وزاد الإنشقاق بسببه فمن قائل لاتستمعوا له إنه مجنون قد مسته الشياطين وقال آخرون ليس هذا بكلام مجانين ولامن به مس الشياطين .

وقال بعضهم : «أرنا آية نؤمن بك ».

قال : «الآيات التي أظهرها الله على يدي تشهد لي ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي ولذلك ستهلكون ولن تكون لكم الحياة الأبدية أما خرافي فلن يستطيع أحد أن يخطفها من يدي».

«قالوا» «أرنا آية نؤمن بك ؟».

قال «إهدموا هذا الهيكل وأنا أبنيه لكم في لحظة واحدة دون أن استعمل يداً واحدة». وألجمتهم المفاجأة ولم يستطيعوا أن يقولوا شيئا .

صاح بعضهم «هذا الهيكل الذي بني في سنوات عديدة تبنيه أنت ودون أن تستعمل يدا واحدة»

قال «اهدموه ولنرى !!»

ماذا سنفعل مع هذا الساحر القدير الذي لايستطيع أحد أن يمسك به» وبينما بدأ

رئيس الكهنة ومن معه يتيقنون أنه ما من سبيل إلا «العمل المباشر» كان المسيح يواصل هجومه الكاسح وقد علا صوته ولا أحد في الهيكل يستطيع أن يرد عليه. صاح قائلا(٣٩٠)

«على كرسى «موسى» جلس الكتبة فكل ماقالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وأعملوا به ولكن حسب أعمالهم هم لاتعملوا لأنهم منافقون يقولون مالا يفعلون».

«إنهم يحزمون أحمالا ثقيلة ويلقونها على اكتاف الناس ولكنهم لايريدون أن يمسوها بأطراف أصابعهم. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المرآوون تعرضُّون عصائب رؤوسكم وتطيلون أهداب ثيابكم وتحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس والصفوف الأولى فى المجامع والتحيات فى الأسواق وأن يقول لكم الناس ياسيدى ياسيدى».

«أيها المرآوون يامن تأكلون أموال اليتامى والأرامل وَلعِلّةٍ تطيلون الصلاة أمام الناس كل أعمالكم تحبون أن ينظرها الناس لذلك فإنكم ستنالون عقابا أعظم من كل الناس»

«وأنتم أيها الكهنة»

«أيها القادة العميان القائلون من أقسم بالهيكل فلا يلتزم ولكن من أقسم بذهب الهيكل وجب عليه الوفاء أيها العميان أيهما أعظم الهيكل أم الذهب. إن الهيكل هو الذى يقدّس الذهب».

«تقولون أن من حلف بالمذبح فليس بشئ ولكن من حلف بالقربان الذى على المذبح يلتزم.»

«أيها الجهال أى شى أعظم القربان أم المذبح الذى يقدس القربان. من حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله والجالس عليه.»

«أيها القادة العميان الجهال إنكم تطوفون البر والبحر لتكسبوا قطعة فضة واحدة ومتى حصلتموها كنزتموها لتجعلوا منها إبنا لجهنم حيث يتضاعف هناك به عذابكم. أيها

القادة العميان الجهال إنكم تدققون فى البعوضة وتبلعون الجمل. أيتها الحيات السامة يا أبناء الأفاعى من الذى أوهمكم أنكم ستفلتون من قبضة جهنم».

«لقد أرسل الله إليكم أنبياء ورسلا فكذبتموهم وقتلتم بعضهم وطاردتم آخرين من مدينة إلى مدينة. يا أبناء قتلة الأنبياء إنكم ستملأون كأس أبائكم. الحق أقول لكم إنه سيحل عليكم غضب من ربكم».

«يا أورشاليم» يا «أورشاليم»

«ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. كم مرة أردتُ أن أجمع أبناءك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولكنكم لم تريدوا. أيتها المدينة القاسية القلب لقد ضل عقلك. كذلكم يقول لكم الرب الذى أرسلنى إليكم «لقد أرسلتُ إليكِ عبدى لكى يعيدكِ إلى طريقى ويخرجك من الظلمات، ولكنك يامدينة البلبلة قد نسيت كل ماأنزلته بالجبارين الذين عاندوا. نسيتِ فرعون وماوقع لمصر والآن تطلبين قتل عبدي الذى جاء لينقذك من غضبى»

«أتظنين أنك تبقين وحدك دون عقوبة ؟»

«أتتوهمين أنك تعيشين إلى الأبد ؟»

«هل تنقذك كبرياؤك من يدى ؟»

«كلا سيأتى إليكِ الجبارون بالجيوش فيحيطون بك وسأسلمكِ إلى أيديهم لتهبط كبرياؤك إلى الجحيم.»

«لاأصفح عن الشيوخ ولا الارامل.»

«لا أصفح عن الأطفال.»

«سأسلمكم جميعاً إلى الجوع والسيف والسخرية. الهيكل الذى كنت أنظر إليه برحمتى سأدمره حتى تصيروا مثلا بين الأمم».

وتوقف لحظة كمن رأى شيئافجأة ثم قال «هاهو بيتكم يترك لكم خرابا ليس فيه

حجر علي حجر». ولم يكن هناك بد من «العمل المباشر وقد أعدوا لذلك عدتهم فقال رئيس الكهنة «ارجموا الفاجر الذى يجدف على الله وشريعة موس»(٣٩١) فاندفع الراجمون يلقون بالحجارة التى جهزوها وينقضون عليه يريدون إهلاكه.

لكنه ذاب من أعينهم فأخذ بعضهم يضرب فى بعض إذ توهم كل ضارب أنه يرى المدعو «عيسى الناصرى» بينما كان «المسيح» قد خرج من الهيكل. أخذوا يشتبكون بالأيادى مع بعضهم كأن جنونا عارما قد أصابهم ورئيس الكهنة والقواد ينظرون فى ذهول إلى مايحدث ويصرخون فى الجمع المجنون أن يهدئوا وأن يكفوا عن هذا العبث فلم يهدأوا إلاّ بعد أن سقط الكثيرون علي الأرض وسالت الدماءفأفاقوا من جنونهم ووقفوا مذهولين لايعرفون ماالذى حدث بالضبط وكيف أفلت من أيديهم وكيف شُبِّه لهم حتى أن كل واحد منهم كان يراه وهو يضرب بالحجر وينقض يريد قتله.

(٣٩٢) لما خرج «عيسى» من الهيكل والجمع المجنون يموج فى الداخل بعضه فى بعض رآه التلاميذة فأسرعوا وراءه. وكانوا يتعجبون جدا من كلامه. لايصدقون أن هذا الهيكل العظيم سوف يهدم فقالوا له لما أدركوه «أنظر يا «معلم» الى هذا الهيكل العظيم ماأشد بنيانه وأقوى أحجاره وأنظر يا «معلم» إلى زخارفه وزينانه ما أبدعها ؟ »

يريدون أن يقولوا له هل يمكن أن يُهْدَم كل هذا ، فنظر إليهم «المسيح» وهو يتعجب من قلة إيمانهم وغلظة قلوبهم وقال مؤكداً نبوءته:

«الحق أقول لكم إن هذا الهيكل قد أوشك أن ينقض ولن يُتْرَك فيه حجر على حجر» وسار «المسيح» حزينا مطرقاً مذهولا من قسوة قلوبهم وكان التلاميذ مأخوذين بما شهدوا لايصدقون ماسمعوا وما رأوا أهذا الهيكل العظيم سيهدم؟ ومامعنى أنه سيرتفع الى السماء ثم يعود مرة أخرى قبل أن تنتهى الدنيا وعن أى حظيرة أخرى يتحدث؟ ماكل هذا الاضطراب؟ لكنهم ظلوا صامتين طوال الطريق لأن غضب «المسيح» وصوته المحتدم في الهيكل قد أرعب الجميع .

بينما كان «المسيح» يجلس بمفرده على جبل الزيتون ينظر إلى «أورشاليم» التى تغرق فى الظلام اقترب منه التلاميذ الحائرون وبعد تردد طويل سألوه «يامعلم» متى يحدث هذا الذى قلته اليوم وماهى علامة رجوعك وانقضاء الدنيا (٣٩٢) ؟

قال «المسيح» : «إنتبهوا وأصيخوا إلىَّ السمع حتى لايضلكم أحدٌ لأن كثيرين سوف يأتون بإسمى قائلين كل واحد منهم أنا «المسيح» ويضلون كثيرين. سيقول كل واحد منهم أنا هو «المسيح» وأن الزمان قد اقترب فلا تصدقوهم ولاتمشوا وراءهم.»

«ينبغى أولاً أن يتألم «إبن الإنسان» ويرفض من هذا الجيل ليرتفع إلى حيث كان قبل أن يولد».

«وينبغى أن يبشر «بالإنجيل» فى جميع الأمم وحينئذ سيلقون عليكم الأيادى ويسلمونكم الى الضيق ويقتلونكم وتكونون مبغضين من جميع الأمم من أجل إسمى . سيأتى وقت يظن فيه من يعذبكم أنه يؤدى خدمة لله. سيطردونكم ويسلمونكم إلى المجامع والسجون وتساقون أمام الولاة والملوك الظالمين من أجل إسمى فيؤول كل ذلك لكم شهادة فلا تهتموا حينئذ كيف تدافعون عن أنفسكم ولا ماذا تقولون لهم وكيف تحتجون لأن «روح القدس» سيعطيكم حينئذ الحكمة التى لايستطيع جميع معانديكم أن يقاوموها أو يناقضوها . ولكن لاتتكلوا على أحد من الخلق لأن الأب سوف يسلم أبنه والإبن يسلم أباه وسيقوم الأخ على أخيه والأقرباء والاصدقاء على بعضهم البعض وهذه كلها هى مبتدأ الأوجاع.لكن الذى يصبر إلى النهاية فذلك هو الذى ينجو فبصبركم إقتنوا أنفسكم فإن شعرة واحدة من رؤوسكم لاتهلك. ولكن فى هذه الفتن لابد أن يعثر الكثيرون ويسلمون بعضهم البعض ويقوم الأنبياء الكذبة يفسدون تبشيرى (انجيلى) ويضلون كثيراً من الناس وتبرد محبة الكثيرين وترون «أورشاليم» محاطة بالجيوش فحينئذ إعلموا أنه قد اقترب خرابها.»

«وسوف تسمعون بحروب وأنباء حروب فانتبهوا وانتظروا ولاترتاعوا لأنه لابد أن يكون

كل هذا وليس هذا هو المنتهى لأنه لابد أن تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ويبشر ببشارة «الملكوت» فى كل الأرض شهادة لجميع الأمم ثم يأتى المنتهى».

«فتكون مجاعات وزلازل فى أماكن كثيرة وتكون رجسة الخراب التى قال عنها «دانيال» النبى قائمة فى المكان المقدس حيث لاينبغى فحينئذ ليهرب الذين فى «اليهودية» الى الجبال والذين فى وسطها فليفروا الى الخارج لأن هذه ستكون «أيام إنتقام» كما هو المسطور فى الكتاب. وويل للحبالى يومئذ والمرضعات. فى تلك الأيام سيكون ضيق وسخط شديد على هذا الشعب سيقع بكلمة السيف ويسبى إلى جميع الأمم وتكون «أورشاليم» مداسة من الأمم حتى تكتمل الأزمنة وسيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون أيات وعجائب لكى يضلوا لو استطاعوا المختارين أيضا وسيكون حينئذ ضيق لم يكن أبداً مثله منذ بدء الدنيا ولو لم يقصر الله تلك الأيام من أجل مختاريه مانجا أحد ولكنه من أجل المختارين قصَّرها ثم ينزل حينئذ «إبن الانسان» ليقضى على تلك الفتن وتكون رعية واحدة وراع واحد. من أجل ذلك يحبنى الله. ها أنا قد سبقت وأخبرتكم فإن قالوا لكم هاهو فى البرية فلا تخرجوا وإن قالوا هاهو فى المخادع قد جاء الى بيوتكم فلاتصدقوا.»

«لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر فى المغارب كذلكم يكون أيضا مجيئ «إبن الانسان» حين يعود إلى هنا ومن شجرة التين تعلموا فعندما ترون أغصانها طرية وقد أخرجت أوراقها علمتم أن الصيف قريب كذلكم يجب أن تحدث كل هذه الأشياء التى ذكرتها لكم قبل عودتى فإن رأيتم هذه العلامات صائرة علمتم إننى على الأبواب. هاأنذا قد سبقت وأخبرتكم فلا تضلوا من بعدى إن قالوا لكم هاهو «المسيح» فى البرية أو هاهو فى المخادع فلاتصدقوا ولاتسيروا وراءهم». (٣٩٣)

«ثم تأتى بعد ذلك «النهاية» فتكون علامات فى السماء تظلم الشمس والقمر لايعطى نوره والنجوم تتبعثر وأبنية السموات تتزعزع وتضطرب الأمم فى الكرب والحيرة والبحر

يصـرخ والأمـواج تضـج ويغـشـى النـاس خـوف ممـا ينتظر الأرض وتنوح جـمـيع الشعوب والقبائل.»

«أما ذلك اليوم تلك «الساعة» التى تنتهى فيها الدنيا فلا أحد يعلم بها لا أبن الإنسان ولا الملائكة المقربون ولاأحد من الخلق فإنه لايعلمها إلاّ الله وحده. كما كان الناس فى أيام نوح يأكلون ويشربون ويتزوجون الى اللحظة التى ركب فيها الفلك مع المختارين ثم جاء الطوفان وهم لايعلمون فأخذ الجميع كذلك تأتى النهاية.»

«وكما كان الناس فى أيام لوط يأكلون ويشربون ويرتكبون الفاحشة ويبيعون ويشترون الى اليوم الذى خرج فيه لوط مع بناته ثم نزل المطر الحارق من السماء فأهلك الجميع كذلك تكون «الساعة» التى تنتهى فيها الدنيا .»

«فمن كان على السطح فليهرب ولاينزل الى البيت ليأخذ حاجاته ومن كان فى الحقل فليجرى ولايرجع الى البيت واذكروا امرأة لوط التى نظرت وراءها لتتحقق من العذاب وترى هل ستنجو منه أم لا فأخذها فى قبضته.»

«الحق أقول لكم أن من يطلب أن ينجو بنفسه يهلكها ومن يطلب أن يهلكها فى سبيل الله ينقذها.»

«ستكون اثنتان تطحنان فتؤخذ واحدة وتترك الأخرى ويكون اثنان فى الحقل يزرعان فيؤخذ واحد ويترك الآخر سيكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ واحد ويترك الاخر»

قالوا : «أين يكون ذلك يامعلم؟ »

فأجاب «حيثما تكون الجثة تجتمع النسور».

«ثم يُنْفَخ فى البوق ويأتى ابن الانسان فى مجد أبيه مع الملائكة ليجمع الله مختاريه فمتى رأيتم ذلك فانتصبوا وأرفعوا رؤوسكم لأن نجاتكم بدأت تقترب.»

«السمآء والارض تزولان ولكن كلام الله لايزول فاحترزوا لأنفسكم لكيلا تغفل قلوبكم

فى مشاغل الحياة الدنيا فيصادفكم ذلك اليوم بغتة وأنتم عنه غافلون. إنه مثل الفخ المنصوب لجميع السائرين على وجه الأرض فاسهروا وتضرعوا فى كل حين لكى تُحْسَبوا أهلاً للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون.»

«إسهروا لأنكم لاتعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم. لو عرف رب البيت فى أى هزيع من الليل يأتى السارق لاستراح الليل كله وأستيقظ فى الوقت الذى يعلمه ولم يدع بيته يُنْقَب ولكنه لايعلم متى يأتى. لذلك عليه أن يسهر الليل كله حتى لايدع بيته ينقب كذلكم يجب أن تكونوا مستعدين.»

«كأنما إنسان رب بيت أراد أن يسافر فترك بيته فى يد عبده بعد أن أوصاه برعاية البيت وحدد لكل واحد من الخدم عمله وأوصى البواب أن يسهر. فإن قال العبد الردئ فى نفسه إن السيد رب البيت يبطئ قدومه ولذلك يأخذ فى الأكل والشرب باسراف ويترك البيت ويسهر مع السكارى ثم يضرب العبيد الاخرين رفقاءه فى البيت ويؤذيهم ثم يفاجأ برب البيت عائدا فى وقت لايتوقعه فيمسك به واقعا فى معصيته فيطرده من البيت ويحبسه مع أعدائه المرآئين. هناك حيث البكاء وصرير الاسنان.»

«طوبى لذلك العبد الأمين الحكيم الذى يأتى سيده فى يوم لايعلمه وساعة لايعرفها فيجده قائما بكل ماأمره يرعى الخدم ويعطيهم طعامهم فى حينه. الحق أقول لكم إنه يقيمه على كل أمواله»

«فاسهروا لأنكم لاتعلمون متى يأتى رب البيت.»

«أمساءً ؟ أم نصف الليل ؟ أم صياح الديك ؟»

«لكيلا يأتيكم بغتة فيجدكم نياما. اسهروا»....

قال بطرس «يامعلم هل هذا المثل تقوله لنا أم للجميع ؟»

قال «المسيح» : «ماأقوله لكم أقوله للجميع»

(٣٩٤) «حينئذ يشبه «الملكوت» عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس. وكان منهن خمس حكيمات وخمس جاهلات فأما الجاهلات فقد أخذن المصابيح دون أن يكون معهن زيت.»

«أما الحكيمات فقد أخذن المصابيح وزيتاً فى آنيتهن.»

«وأبطأ العريس وتأخر قدومه فغلبهن النعاس ونمن جميعا . وبينما هن راقدات انتبهن على صوت صراخ «هوذا العريس قد أقبل فأخرجن للقائه» فقامت جميع العذارى وأخذت كل واحدة مصباحها وأصلحته لينير لها الطريق لكن الجاهلات لم يجدن زيتا فقلن للحكيمات أعطيننا من زيتكن لأن المصابيح تنطفئ ولانعرف كيف نتقدم فقالت الحكيمات ولكننا نخشى أن يكون الزيت الذى معنا لايكفى للطريق «فارجعن وأطلبن زيتا ثم إئتين» وفيما هن راجعات ليطلبن الزيت جاء العريس فأخذ المستعدات ودخلن معه ثم أغلق الباب فلما جاءت الجاهلات وجدن أن الباب قد أغلق فأخذن يصرخن قائلات «ياسيد افتح لنا» فجاءهم النداء من وراء الباب المغلق «من أنتن. الحق أقول لكن أنى ما أعرفكن.»

«فاسهروا واستعدوا لأنكم لاتعرفون الى متى يبطئ ولاتعرفون اليوم ولا الساعة »

«ليس كل من يقول يارب يدخل «الملكوت» بل الذى يطيع الله. كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم أليس بإسمك قد بشرنا وبأسمك أخرجنا الشياطين وبإسمك صنعنا آيات كثيرة فحينئذ أصرخ فيهم «إنى لم أعرفكم قط. «اذهبوا بعيدا عنى يافاعلى الإثم»(٣٩٥)

«احترزوا من الانبياء الكذبة والمسحاء الكذبة الذين يأتونكم فى ثياب الحملان ولكنهم فى قلوبهم ذئاب خاطفة.»

«من ثمارهم تعرفونهم »(٣٩٦)

«هل يجنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا وكذلكم كل شجرة طيبة تعطى ثمارا

طيبة وكل شجرة خبيثة تعطى ثمارا خبيثة لاتقدر الشجرة الطيبة أن تعطى ثمارا خبيثة وكل شجرة لاتعطى ثمارا طيبة تقطع وتلقى فى النار فمن ثمارهم تعرفونهم.»

«إنكم مثل أناس ينتظرون رجوع سيدهم من العرس الذى ذهب إليه حتى إذا عاد إليهم وقرع الباب يفتحون له. فلتكونوا مستعدين.»

«طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم وجدهم ساهرين .الحق أقول لكم إنه يتمنطق ويُجْلِسهم على الآرائك ويتقدم هو ليخدمهم وإن أتى فى الهزيع الثانى من الليل أو أتى فى الهزيع الثالث من الليل.»

«أما ذلك العبد الذى يعلم أوامر سيده ولايعمل بها ولايستعد لرجوعه فإنه يجب أن يضرب أكثر من غيره من الذين لايعلمون فمن أخذ أكثر فإنه يطالب بالأكثر.»

«ومتى جاء «الله» ليحاسب خلقه فى يوم الدين فإنه يميِّز بينهم كما يميِّز الراعى بين الخراف والجداء فيجعل الخراف على اليمين ويضع الجداء على اليسار ثم يقال للذين على اليمين تقدموا أيها المباركون لترثوا الجنة التى أعدت لكم قبل خلق السماوات والأرض لأننى جعت فأطعمتمونى وعطشت فسقيتمونى كنت عريانا فكسوتمونى ومحبوسا فأتيتم إلىَّ لتخرجونى وغريبا فآويتمونى ومريضا فزرتمونى.»

«فيقول الصالحون حينئذ يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشانا فسقيناك ومتى رأيناك عريانا فكسوناك أو محبوسا فأتينا إليك ومتى رأيناك غريبا فأويناك أو مريضا فزرناك»

«فيقول لهم الملك «الحق أقول لكم بما أنكم قدِ فعلتم كل ذلك بواحد من عبادى فبى قد فعلتم.»

«ثم يقال للذين على اليسار إذهبوا بعيداً عنى أيها الملعونون الى النار الأبدية المعدة قبل خلق السموات والأرض لإبليس وجنوده.»

«لأننى جعت فلم تطعموني وعطشت فلم تسقوني وكنت عريانا فلم تكسونى ومحبوسا فلم تأتوا إلىّ وغريبا فلم تأوونى ومريضا فلم تزورونى فيتعجبون قائلين يارب متى رأيناك جائعا أو عطشانا أو غريبا أو محبوسا أو عريانا أو مريضا ولم نخدمك فيقول الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوا ذلك بواحد من عبادى فبى لم تفعلوا». فيمضى الذين على اليمين إلى الحياة الأبدية ويذهب الذين على اليسار الى العذاب الابدى(٣٩٧)

«وكل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبهه برجل حكيم بنى بيته على الصخر فلما هبت الريح وهطلت الأمطار وأنهمرت السيول ظل هذا البيت قائما لم يسقط لأنه كان مؤسسا على الصخر وكل من يسمع أقوالى هذه ولايعمل بها يشبه رجلاً أحمقاً بنى بيته على الرمل فلما هبت الريح وهطلت الأمطار وانهمرت السيول صدمت ذلك البيت فاقتلعته فسقط وكان سقوطه عظيما » (٣٩٨)

«وهاهوذا بيتهم يُتْرَك لهم خراباً لن يبقى فيه حجر علي حجر.»

كان الليل يمضى ذاهبا يريد أن يرحل فقال «المسيح» لتلاميذه الذين كانوا يستمعون إليه بعيون شاخصة تحدق في الظلام «دعونى أدخل الآن فى الصلاة لأننى سأعود لأفك أسر المحبوسين هناك».

وأشار إلى أورشاليم» التى كانت قد غرقت فى الظلام فتركه التلاميذ وحيداً لصلاته ونزلوا إلى السفح لايعرفون ماذا يفعلون قد أطبق عليهم الصمت وأصابتهم الحيرة بالدوار.

(٣٠)

الفتنة الأخيرة

«هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا»

(الأحزاب ١١)

بعد ما استطاع كبير الكهنة ومن معه من الكهنة والشيوخ أن يعيدوا الهدوء إلى الهيكل بعد ذهاب «المسيح» صعد إلى دكة الوعظ وأخذ يطلب من الحاضرين أن يكفوا عن الصخب وأن يصمتوا حتى خيم الصمت عليهم فقال : «ماذا نفعل أيها الأخوة »؟(٣٩٩)

«كما رأيتم لقد أضل الشعب بعمله الشيطاني وبسحره الخبيث جعلنا نشتبك مع بعضنا ويضرب بعضنا بعضا حتى سالت الدماء فى هذا الهيكل المقدس. لقد دنس الهيكل المقدس بعمله الشيطانى!!»

«انظروا كيف جعلنا نؤذى بعضنا واختفى هو عن أعيننا دون أن ندرى فإذا لم يكن ساحرا خبيثا فمن يكون ؟!»

«لقد جدف على الله وعلى كتاب موسى وعلى كتب الأنبياء».

«انظروا كيف أهان كهنة الله وشيوخنا الأجلاء.»

«ولقد جدف على «مسيح الله» الذى هو أمل اسرائيل وأنظروا كيف أهان شعب الله وأدعى كذبا أنّ الله ينزع منه النبوة. إنه «إسماعيلى» ملعون لذلك يقول ان «الملكوت» يكون فى سلالة «إسماعيل» ابن الجارية. انظروا كيف يدعى أن الله يفضل تلك الأمة الجاهلة الغبية على شعبه المختار لذلك أقول لكم إذا لم يُقْتلَ هذا الكذاب الملعون ويُسْتَأصل من الدنيا كلها فإن الله يغضب علينا لأننا تركناه يعيش بعد أن دنس الهيكل المقدس وأهان شعب الله وبمعونة الله سوف نتمكن من القضاء عليه فأطمئنوا وكونوا على ثقة فى رجال هيكل الرب المقدس.»

واقتنع الحاضرون بما قاله كبير الكهنة وأعرضوا عن «عيسى» خاصة وأن كبير الكهنة قد تكلم بثقة كبيرة عندما تحدث عن الخلاص من «عيسى» فمن ذا الذى يؤيد ملكا مهزوما أو يناصر قائدا خسر المعركة.« لقد قتلوا من قبل زكريا ثم أبنه «يحيى» فلماذا لايكون فى استطاعتهم قتل المدعو «عيسى الناصرى» .

وذهب رئيس الكهنة ووفد كبير من كبار الكهنة ورؤساء الشيوخ إلى «بيلاطس» الوالى الرومانى وذكروا أن المدعو «عيسى» الناصرى قال أنه «ملك لليهود» وأن الشعب اليهودى لاينبغى أن يدفع الجزية لقيصر وطلب من الناس أن يهدموا الهيكل الذى بناه «هيرودوس» تحت رعاية «روما» المقدسة وأنه قادر على أن يبنى هيكلا آخرا أفضل منه دون أن يستعمل يدا واحدة بل بمجرد أن ينطق بفمه لأنه أعظم من الامبراطور الرومانى نفسه بل أعظم من كل مخلوق وأنه لايخاف من أحد من البشر لا من الوالى ولا من الامبراطور ولا من أى أحد على الاطلاق وقد اندلعت معركة عنيفة بين أنصاره الذين يؤيدون مزاعمه وبين رجال الهيكل وقد سالت الدماء فى الهيكل بسبب هذا ويمكنك أن تسأل فى هذا الجنود والضباط الرومانيين الذين شهدوا هذه المعركة العنيفة داخل حرم الهيكل.»

لكن «بيلاطس» الذى استمع إلى «عيسى الناصرى» من قبل ووقع فى قلبه احترامه لم يستطع أن يجارى رئيس الكهنة فى حملته الشعواء ضد «عيسى» إلا أنه لايستطيع بحكم منصبه أن يتجاهل الأمر بالكلية لأنه عندما تحدث المعارك ويشتبك الناس بالأيدى والأحجار وتسيل الدماء فمعنى هذا أنه حاكم غير جدير بمنصبه. إنه متأكد أن الكهنة والشيوخ يحقدون على «عيسى» وأنهم بالأموال قادرون على شراء الشهود الذين يُدينون الرجل لكن ماذا يفعل؟! لابد أن يتخذ قرارا. لو كان الأمر بيده لأصدر أمراً بقتل كل هؤلاء الكهنة والشيوخ الحاسدين الذين يسببون له ازعاجا دائماً ولأصدر قراراً بهدم هذا «الهيكل المقدس» الذى لايرى له أية فائدة غير أنه قد أصبح مصدرا للإضطراب المستمر فى هذه البقعة الغريبة من الأرض. لكن ماذا يفعل فليس الأمر بيده ولابد من ترضية هؤلاء الأوغاد

الحاقدين ولو بكلام الشفاة فقال لهم : «إن استطعتم أن تمسكوا به وأن تأتوا بالشهود الذين يقررون بكل وضوح أنه قد أدعى ذلك وكان سببا فى كل ماقلتم أنه حدث فإننى أصدر أمرا بصلبه ليكون عبرة لمن يتجرأ على سلطة «روما» المقدسة» وضغط على الكلمات الأخيرة من حديثه حتى لايشى به القوم عند السادة فى «روما» مدعين أنه لايظهر الولاء الكافى للقيصر الذى يحكمهم بإسمه. وخرج الوفد من عنده وهم غير راضين ولكنهم لم يكونوا ساخطين كل السخط. كانوا يفضلون أن يصدر قرارا لضباطه وجنوده بالبحث عنه وإلقاء القبض عليه ثم صلبه أمام الناس وبهذا يتخلصون منه دون أن تتحمل ضمائرهم المثقلة عبء قتله ولكن هاهو «الماكر» يكلفهم مشقة البحث عنه ومحاكمته وإدانته ثم يقوم هو بصلبه دون أن يتحمل «إثمه» فهو حينئذ ليس إلاً منفذا لإرادتهم. لكن لابأس فهو على الأقل قد وعد بمشاركتهم المعركة وألاً يعارضهم فيما يفعلونه.

خرج رجال الهيكل من عند «بيلاطس» وهم أشد اقتناعا بأن خطة «يهوذا الاسخريوطى» هى أحكم الخطط فطفقوا يتفقون مع بعض خدم الهيكل وبعض الجنود على أن يكونوا تحت الطلب فى أى وقت وخزائن الهيكل المليئة بخيرات الله ستكون تحت أيديهم إن نجحوا فى اصطياد «الساحر» الملعون ابن الزنا الذى دنس هيكل الرب

عاد «عيسى» إلى الهيكل رغم معارضة التلاميذ الذين قالوا له «كيف تذهب الى الهيكل مرة أخرى وقد رجموك بالحجارة» وكان «بطرس» هو أشدهم صراحة فى الإعتراض ولكن «المسيح» لم يلتفت إليهم وشق طريقه من جبل الزيتون إلى «أورشاليم» قاصداً الهيكل صامتاً هادئاً والتلاميذ من ورائه يسيرون في خوف يتلفتون إلى كل ناحية خشية أن ينقض عليهم من يريدون قتلهم.

وكان بعض الناس قد حملوا مرضاهم الى الهيكل منتظرين «المسيح» لعله يأتى فيشفى مرضاهم فلما رأوه مقبلاً أسرعوا إليه وهم فرحين وطلبوا إليه أن يصلى من أجل مرضاهم وأن يلمسهم فذهب «المسيح» الى المرضى وصلى عليهم ولمسهم فنالوا شفاءهم

بإذن الله والناس تسبح الله فى «همس» لأن جواسيس الهيكل كانوا ينتشرون ويبلغون الأخبار ولكن السيد «المسيح» كان يتكلم بصوت عالٍ ويتصرف بهدوء ووضوح وثقة. قال(٤٠٠) «ألاَ تعلمون أن هناك مرضى آخرون. من له مريض فليأت به لينال بإذن الله شفاءه.»

«لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته إن أصحاء القلب فى «أورشاليم» أقل عددا بكثير من مرضى الجسد»

وجاءه قوم يبكون لما سمعوا عن غضب الله على «أورشاليم» وتضرعوا إليه أن يصلى لله من أجل أن يرحم المدينة المقدسة فقال لهم «المسيح» «لو بكت «أورشاليم» على خطاياها وجاهدت لتعود إلى طريق ربها فإنه يغفر لها ناسيا آثامها ولايُنْزِل بها شيئا مما ذكرتُ ولكن «أورشاليم» تبكى على دمارها لاعلى إهانتها له لذلك ازداد غضب الله عليها وأقسم قائلا «أقسمت بذاتى أنا الحى القيوم الذى لايموت لوصلى من أجل هذا الشعب إبراهيم وموسى وصوئيل وداود ودانيال وأيوب فإن غضبى على «أورشاليم» لايهدأ»

فانتفض القوم الذين جاءوه فزعين وقد جفت دموعهم قائلين فى أنفسهم «حقا إنه «إسماعيلى» ملعون كما قال كبير الكهنة لذلك فإنه يكره «أورشاليم» ويكره هيكل الرب المقدس.»

(٤٠١) وتقدم إليه بعض الفريسيين قائلين «يامعلم إنك تبشر بالتوبة وتدعو إلى المغفرة وإننا خطاة لذلك فإن الله سيرحمنا».

فقال لهم «المسيح» وهو يعلم أنهم قد جاءوه من أجل الجدال لا أكثر وأنهم يستهزءون به لأن الفريسى يعتقد أن أكبر إهانة يمكن أن توجه إليه هى أن يقال له إنك خاطئ.

قال «إن كنتم خاطئين وتزعمون أنكم ابرار منكرين خطيئتكم فأنتم غير أبرار وإذا كنتم تحسبون فى قلوبكم أنفسكم أبراراً وتقولون بألسنتكم أنكم خطاة فقد تضاعفت خطيئتكم

مـرتين. أين الأبرار فى جيلكم الفاجـر هذا؟! لعمـر الله الذى تقف نفسى فـى حضـرته إن عـدد الفـجار الذين يظنون أنفسـهم أبرارا لعظيم جـدا فى هذا الجيل الفاجـر وإن حـالهم لتشبه حال «ابليس».

فقال له بعضهم(٤٠٢) «متى يأتى «الملكوت» الذى تبشر به ؟!»

قـال : «لايأتى «ملكوت الله» بمراقـبة فـإنه يأتـى على غـير انتظار. لايسـتطيع أحـد من الخلق أن يقول هاهوذا ، ولكن لماذا تنتظرون مجيئه وأنتم تشكون فيه وهاهوذا فى أنفسكم. إنه الآن ماكث معكم أليس هو الذى وهبكم الحياة ويعطيكم الحياة الأبدية لو أمنتم به» فلم يجد واحد منهم شيئا يقوله. لقد جف ينبوع الجدل عندهم كما جفت دموع الذين جاءوه متضرعين وكان لابد من حسم الأمر فشق «المسيح» طريقه فى داخل الهيكل حيث اعتلى دكة الوعظ ووقف شامخا ينتظر حتى ساد الصمت وتطلعت الأعين الشاخصه الى «وجهه المشرق» وانتظر الجميع ماذا يقول.

حينئذ انساب النور من بين شفتيه قائلا :

«يابنى اسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول ياتي من بعدي إسمة احمد»(٤٠٣)

قد جئتكم بآية من ربكم

انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وابرئ الأكمه والأبرص واحيى الموتى بإذن الله

وأنبئكم بما تاكلون وماتدخرون فى بيوتكم

إن فى ذلك لاية لكم إن كنتم مؤمنين »

«ومصدقا لما بين يدى من التوراة

ولأحل لكم بعض الذى حرِّمَ عليكم

وجئتكم بآية من ربكم

فاتقوا الله واطيعون»

«إن الله ربى وربكم فاعبدوه

هذا صراط مستقيم(٤٠٤)

وأنتظر«عيسى» إجابتهم على هذا النداء....

وطال أنتظاره ولم يقل واحد منهم شيئاً.

«فلما أحس عيسى منهم الكفر».(٤٠٥) وأراد أن يستخرج منهم المؤمنين علا صوته فى الهيكل الذى أطبق عليه الصمت.

«قال من أنصارى إلى الله ؟(٤٠٥)

من ينضم إلىَّ فى طريقى الى الله. من يتقدم ليسير معى فى الطريق الى الله. وحينئذ أوحى «الله» لمختاريه الحواريين أن يأمنوا. ألقى إليهم «روح القدس» **«أن آمنوا بى وبرسولى»** (٤٠٥)

فاندفع الحواريون القوم المختارون من الحاضرين وأسرعوا نحو «المسيح» الواقف عند دكة الوعظ ومدوا إليه أيديهم يبايعونه.

«قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا واشهد بأنا مسلمون»

«ربنا امنا بما أنزلتَ واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين» (٤٠٧)

فبايع «المسيحُ» من تقدم إليه ولم يستطع الكهنة والكتبة والشيوخ أن يفعلوا شيئا فقد كف الله أيديهم عن «المسيح» والذين آمنوا به وخرج «المسيح» من الهيكل والذين آمنوا به يسيرون وراءه ورجال الهيكل ينظرون مذهولين فقد سلبهم «القهار» إرادته (٤٠٨)

وذهب «المسيح» والذين بايعوه الى «بيت عنيا» حيث أقاموا عند «لعازر» الذى أقامه من الأموات وفى الليل(٤٠٩) جاءه «نيقوديموس» سراً وقال له إن رجال الهيكل قد عزموا على قتلك وأنهم قد اتفقوا مع «بيلاطس» على صلبك وحتى لو تخلى «بيلاطس» عن الاتفاق معهم فإنهم مصرون على الخلاص منك بأى وسيلة وبأى ثمن فقد أدركوا أن «أورشاليم» لاتحتمل بقاء كما معا فإما أنت أوهم. كان «نيقوديموس» لم يزل مترددا فهو يعتقد أن «المسيح» رجل صادق عليم بكلام الله ولكنه بإعتباره شيخا من شيوخ الفريسيين لم يكن يحتمل تعاليم «المسيح» التى تريد أن تقتلع تقاليد وطقوس مرت عليها مئات السنين حتى استقرت فى القلوب جيلا بعد جيل وعاش عليها الكهنة والشيوخ والشعب من حولهم.

كان يرفض الكيد الخبيث الذى يدبره الكهنة والشيوخ ويتحسر على رجال الله الذى هووا إلى مباءة القتل والكذب والخيانة والرشوة لكنه كان يطمع فى حل مستحيل إذ كان يتوهم أنه يمكن اجراء مصالحة بين «المسيح» ورجال الهيكل بحيث يتعاون الطرفان على إصلاح الشعب وتخليصه من المهانة التى سقط فيها.

جاء إلى «المسيح» متخفيا بالليل وقدم لحديثه معه بقوله «يامعلم أعلم أنك قد أتيت من الله لتعلمنا إذ يستحيل فى نظرى أن يستطيع أحد من الخلق أن يفعل ماأنت قد فعلته مالم يكن مؤيدا من الله....»

فأحب «المسيح» أن يختصر له الطريق ويساعده على التخلص من تردده ليرى استحالة الحل الذى يتوهم إمكانية تحققه.

قال «المسيح» : «الحق أقول لك إن لم يولد الإنسان مرة أخرى فلن يستطيع أن يدخل ملكوت الله»

فقال «نيقوديموس» وقد عجز عن فهم كلام «المسيح» «يامعلم كيف يولد من صار شيخا أيستطيع أن يدخل بطن أمه من جديد حتى تلده مرة أخرى؟ !»

قال «المسيح» : "لا أتكلم عن ولادة الجسد ولكننى أتكلم عن ولادة الروح عن انطلاق الروح من أسر الجسد وصعوده من القلب. لا أتكلم عن الولادة التى تحدث فى الرحم بل عن الولادة التى تحدث فوق حيث تنبعث الريح. إن الريح تنبعث وتهب الى حيث تشاء وأنت تسمع صوت سيرها أفلاً تعلم من أين أتت ولا إلى أين تذهب كذلكم يكون الروح»

قال «نيقوديموس» «يا «معلم» لاأعلم كيف يكون هذا ؟!»

قال «المسيح» «أنت معلم اسرائيل ولست تعلم هذا لقد كلمتهم بما سمعت ومارأيت عند الله·ولكنهم لم يقبلوا شهادتى»

قال «نيقوديموس» «يا «معلم» إنهم عازمون على قتلك وقد أتفقوا مع «بيلاطس» على صلبك وسوف يمثلون بجسدك ليجعلوا منك عبرة لكل من يتمرد على سلطان الهيكل» .

قال «المسيح» «لن يظفروا بجسدى لأن الله سيرفعنى إلى السماء حيث لايستطيعون أن يصلوا إلى سأُرْفَعُ كما رُفِعَ إدريس (إخنوخ) من قبل. صدقنى كما رَفَع «موسى بن عمران» الحية فى سيناء فعادت كما كانت عصاته كذلك سيعود ابن مريم ليكون فى السماء كما كان قبل أن يولد ولن يصلوا إلى حيث امضى. لن يستطيعوا أن يأتوا كما قلت لهم فى الهيكل. كل من يعمل السيئات يبغض النور ولايحب أن يأتي إليه حتى لاتُفْضَح أعمالُه لذلك أحب الناس الظلمة لأن أعمالهم شريرة. إن الجمل لايذهب ليشرب من العين الصافية حتى لايرى قبح وجهه بل يذهب ليشرب من الماء العَكِر. أما الذين يعملون الصالحات فإنهم يحبون النور ويسعون إليه لأنه في النور يتبين أن الله هو الذى عمل كل شئ.»

لم يستطع «نيقوديموس» أن يفهم ماقاله «المسيح» ولم يستطع أن يتقبل أبداً مسألة الرفع وعودة الحية إلى أن تكون عصا فى يد «موسى» كما كانت قبل. ولكنه كان يحترم «المسيح» ويؤمن أنه رجل صادق ولذلك أحب من كل قلبه أن ينقذه من النهاية البشعة التى يعدها له رجال الهيكل وظل فى قلبه الأملُ رغم كل ما يعلم فى إمكان إتمام هذه المصالحة الموهومة بين «المسيح» وخصومه!!

فقال له : «يامعلم إن لى بيتا وبستانا وراء جدول «وادى قد رون» فأضرع إليك أن تذهب إليه مع من تحب من تلاميذك وأن يختبأ بقية أتباعك هنا فى «بيت عنيا» الى أن يزول حقد الكهنة عليك وإننى سأقدم لك ولتلاميذك كل ماتطلبون لأن الله يعول الجميع ومن يحب أن يمكث فى بيتى الذى فى «أورشاليم» فمرحبا به.»

وكان «المسيح» قد أدرك أنه لن يؤمن به إلاّ من قد آمن وأن رسالته الأولى على الأرض قد أشرفت على نهايتها فقبل عرض «نيقوديموس» وأختار أثنى عشر رجلاً من الذين اختارهم من قبل رسلاً عندما خرج من كهفه بجبل الزيتون. كان يريد أن يحمِّل هؤلاء التلاميذ آخر وصايا قبل أن يرحل فأخذهم وأرتحل سرا من بيت «لِعازر» فى «بيت عنيا» قاصدا وادى قدرون ليمكث فى بيت «نيقوديموس» إلى أن تأتى اللحظة الموعودة التى لاتتأخر لحظة ولاتتقدم عن ميعادها المحتوم.

كان التلاميذ الذين اختارهم «المسيح» ليكونوا شهود نهايته وحملة وصاياه الى الناس يسيرون خلفه وقد امتلأت بالخوف قلوبهم من النهاية التى صارت وشيكة جداً ومحتومة ومجهولة لأنهم رغم كل ماقاله لهم لم يستطيعوا أن يتبينوا فى وضوح كيف ستكون النهاية وماهو مصيرهم بعد كل هذا وفاض الحزن من نفوسهم المتعبة على هذا الأمل الذى سرعان ماخبا فى اللحظة التى بدا لهم أنه على وشك أن يتحقق.

لقد ذاب «ملك اليهود» فى الظلمات وهاهو يسير متخفيا وسط الحقول وفى الطرق الموحشة قاصدا «وادى قدرون» ليلقى هناك حتفه. قال لهم «المسيح» محاولاً إنزال السكينة فى قلوبهم المضطربة (٤١٠) «لاتخف أيها القطيع الصغير لأن الله معنا. ولاتحزن لأن الله قد سره أن يعطيكم ملكوته. طوبى للحزانى لأنهم يحصلون على عزائهم من الله. طوبى للباكين الذين ينوحون فى هذه الحياة الدنيا لأنهم سيضحكون كثيراً عند الله وويل للضاحكين الآن لأنهم سيحزنون ولايجدون عزاء وسيبكون دون أن يكون لبكائهم فائدة.»

«طوبى للجياع والعطاش فى سبيل الله لأن الله هو الذى يطعمهم ويسقيهم على مائدته والملائكة المطهرون تقوم على خدمتهم.» «طوبى للإنقياء القلب لأنهم يعاينون الله.»

«طوبى للرحماء لأن الله يرحمهم.»

«طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض.»

«طوبى للمساكين المطرودين من أجل الله لأنه يعطيهم «الملكوت» وويل للأغنياء الشيعانين المستكبرين لأنهم قد أذهبوا كل طيباتهم فى حياتهم الدنيا وسيجوعون ويهانون إلي غير نهاية.»

«طوبى لكم إذا ابغضكم الناس وعيّروكم وطردوكم وأعلنوا أسماءكم كأشرار كما فعلوا بإبن الانسان افرحوا حينئذ وتهللوا لأنهم كذلكم يفعلون بالأنبياء المرسلين من الله وأعلموا حينئذ أن أجركم عظيم عند الله.»

«وويل لكم إن أثنوا عليكم وأجمعوا على إطرائكم فإنهم كذلكم يفعلون بالأنبياء الكذابين»

«أنتم ملح الأرض الذى يحفظها من الفساد والملح جيد لأن كل ذبيحة يجب أن تحفظ بالملح ولكن إن فسَدَ الملحُ نفسه فبماذا يملح ؟ إنه لايصلح لشئ بعد إلاّ أن يلقى على الأرض ويداس بالاقدام.»

«لايوجد أحد يوقد سراجا ثم يضعه تحت السرير أو تحت المكيال لأن السراج ينبغى ألاّ يُخْفَى بل يضعه على المنارة ليضيئ لجميع الذين فى البيت والبعيدون يرون بنوره فيأتون ليدخلوا. أنتم نور الدنيا. المصابيح التى أوقدها الله فليضئ نوركم الطريق أمام الناس بأعمالكم الصالحة فيمجدوا ربكم الذى أناركم فانظروا كيف تسمعون.»

«سراج الجسد هو العين» فإن كانت عينك بسيطة فان جسدك كله يصبح نيراً وإن كانت عينك شريرة فإن جسدك كله يصير مظلما.»

«إن كان النور الذى فيك ظلاماً فالظلام الذى فيك كم يكون ؟ »

«لاتثقلوا قلوبكم بشهوات الجسد الذى يشدكم الى الارض ولاتهتموا بحاجات الجسد قائلين من يطعمنا ومن يكسونا أن الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس»

«انظروا إلى الطيور إنها لاتزرع ولاتحصد ولاتجمع الى المخازن ولكن الله يعطيها رزقها كل يوم ولاينساها . ألستم أنتم ياأبناء الإنسان الذين أحب أن يعطيكم «روحه» أفضل عنده من طيور كثيرة تأملُّوا زنابق الحقل كيف تنمو. إنها لاتتعب ولاتغزل ولكن الحق أقول لكم إن «سليمان» نفسه نبى الله والملك العظيم لا يستطيع بكل مجده أن يلبس كواحدة منها . فإن كان نبات الحقل الذى يعيش اليوم ثم يطرح غداً فى التنور يلبسه الله هذه الأثواب البديعة أيكون الله أقل حفاوة بكم؟! يا لقلة إيمانكم.!!»

«من منكم إذا أهتم أبلغ إهتمام وبذل كل مافى وسعه يستطيع أن يضيف إلى قامته بوصة واحدة أهناك أصغر من ذلك.؟! فإن كنتم لاتقدرون على الأصغر فلماذاتهتمون بما هو أصعب ؟»

«لاتطلبوا ماتأكلون وماتشربون وماتلبسون ولاتهتموا بكل ذلك فهذه الأشياء يطلبها الناس جميعاً فى كل الأمم وآلهكم يعلم ماتحتاجون إليه أكثر مما يعلم الأب بحاجات إبنه فأطلبوا أولاً «ملكوت الله» وكل هذه الاشياء يعطيها الله لكم بل يزيد لكم أكثر مماتحتاجون دون أن تسألوه فهو يعلم حاجاتكم قبل أن تحتاجوها أو تسألوها .»

«اذكروا كيف أطعم الله آباءكم فى البرية المن والسلوى وكيف سقاهم من الحجر واذكروا كم أطعمت سمكتان وخمسة أرغفة وكم أطعمت سبعة أرغفة وكم وكم وكم.»

«كونوا فى الدنيا كسياح عابرى سبيل هل يتخذ السائح لنفسه على الطريق قصوراً أو يشترى حقلا ؟»

«كلا بل إنه يحمل أشياء خفيفة تكون ذات نفع له فى طريقه .»

«ومن كان بيته فى «أورشاليم» لايبنى لنفسه قصرا ويشترى حقلا فى «السامرة» وكلما زاد الإنسان من جمع حطام هذه الدنيا فأعلموا أن لا شئ له فى الآخرة.»

«لاتهتموا بما يكون فى الغد لأن الغد يهتم بما لنفسه يكفى اليوم شره.»

«لايستطيع عبد أن يخدم سيدين لأن بقاء سيدين على اتفاق أمر محال ومن ثم فإن العبد مضطر إلى أن يبغض أحدهما ويتركه ليلازم الآخر الذى يحبه أكثر. كذلكم لاتقدرون أن تخدموا الله والمال فإما الله أو المال أما الإثنان معاً فمحال.»

«إن الدنيا قد نبتت فى الخطيئة وتزدهر فى النفاق والجشع لذلك لايجد المؤمن راحة فى الدنيا بل يجد دائما إضطهادا ومشقة فماذا على المؤمن أن يفعل ؟!»

«عليه أن يحتقر الدنيا ويعبد الله وحده حينئذ يجد راحة قلبه ويظفر بنفسه.»

«أصيخوا السمع إلى كلامى فإنى أخترتكم لتكونوا تلاميذى وخلفائى من بعدى فإن أبغضتكم الدنيا فأنتم بالحق تلاميذى لأن الدنيا أبغضتنى والناس دائماً كانوا أعداء عباد الله الصادقين تذكروا الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله وانظروا ماذا صنع الناس لهم. أواه من الدنيا الفاجرة التى لاتعرف الله !!»

«ولكن صدقونى عندما أقول لكم إن الدنيا كلها ترهبكم إذا حفظتم كلامى لأنها لو لم تكن تخشى فضح فجورها لما أبغضتكم واضطهدتكم.»

«فإذا رأيتم الناس يستهينون بكلامهم ويستهزئون بكم فلا تحزنوا بل أنظروا كيف أن الله وهو أعظم منكم قد استهان به الناس أيضاً حتى حُسِبَ كلامه أوهاماً وعُدَت حكمته جهالة فكونوا كإلهكم الذى ينشر رحمته على البر والفاجر والمحسن والمسئ ولاتجازوا الإساءة بالإساءة بل جازوا الإساءة بالاحسان فإن النار لاتُطْفَأ بالنار بل بالماء يطفئون

النار. كذلكم لاتغلبوا الشر بالشر بل بالخير وحده». «لاتكنزوا لكم كنوزاً فى الارض حيث يُفْسِدِ السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون.»

«بل أكنزوا فى السماء عند الله حيث لاسوس ولاصدأ ولا لصوص فإن قلبك يتبع كنزك وحيثما يكون كنزك يكون هناك قلبك فانظر أين تحب أن تجد قلبك.»

«إن العبد يلبس الأثواب التى ترضى سيده ولاتنفره. أثوابكم هى أرادتكم فأحذروا ان تريدوا شيئاً لايرضى عنه ربكم وتاكدوا أن الله يبغض بهرجة الدنيا وشهوات الجسد التى يهلك الناس فى اللهاث وراءها.»

وتوقف المسيح وتركهم ليستريحوا وابتعد عنهم ليصلى. وعاد بطرس للشجار مرة أخرى مع أخيه «اندراوس» ثم تقدم إلى «المسيح» وهو جالس فى الطريق ليستريح قائلاً «يا معلم كم مرة يخطئ إلىَّ أخى وأنا أغفر له».

فنظر «المسيح» إليه بإمعان وهو يتعجب كيف يتخاصم الشقيقان وهما فى صحبة المعلم الذى أختارهما ليكونا من بين خلفائه وشهداء على صعوده السماء ثم قال (٤١١)

«أراد الملك ان يحاسب عبيده فلما ابتدأ فى المحاسبة دفِع إليه بمدين عليه عشرة آلاف وزنة ولم يكن للعبد المدين مايمكنه من سداد دينه فهو فقير جدا حتى أنه لو باع نفسه وأمرأته وأولاده ما وفَّى دَيْنَ الملك فخر العبد عند مليكه ساجدا وتضرع اليه قائلا ياأيها الملك تمهل علىَّ حتى أو فى كل ماعلىَّ فتحنن الملك عليه ولما كان يعلم أن ليس بمقدوره الوفاء أسقط الدَّيْنَ وأطلقه حراً فلما خرج العبد قابل أحد رفقائه وكان مدينا له بمئة وزنة فطالبه بردها ولكن رفيقه لم يكن عنده مايوفِّى فامسك به وأخذ يعنفه مصراً على الوفاء قائلا فى غلظة «أوفنى ماعليك وإلاَّ وضعتك فى السجن» فخر العبد الرفيق عند قدميه قائلا يارفيق تمهل علىَّ حتى أوفى كل ماعلىَّ» لكنه لم يرحمه بل مضى به إلى الشرطى وأبقاه فى السجن حتى يوفى الدين الذى عليه. فلما رأى العبيد الآخرون رفقاهما ماحدث

حزنوا جدا وذهبوا ليبلغوا الملك بما صنع عبده فاستدعاه بين يديه وقال له أيها العبد الشرير تركتُ لك كل الدين الذي كان عليك لأنك رجوتني متضرعا . أمَا كان ينبغي عليك أن ترحم رفيقك كما رحمتُك أنا .»

«وغضب سيده عليه وسلَّمه إلى المعذبين فألقوه في السجن حتى يوفي كل ماعليه ولن يستطيع إذ هو فقير ليس عنده حتى مايكفيه .»

(٤١٢) «حينما تذهب مع خصمك إلى الحاكم فابذل كل جهدك وأنت في الطريق لتتخلص من المخاصمة لئلا يدفعك إلى القاضي ويسلمك القاضي الى الملك فيلقيك في السجن الحق أقول لك أنك لاتخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير فكن دائما مراضيا لخصمك مادمتا في الطريق.»

«سمعتم أنه قيل للقدماء لاتقتل ومن قتل يكون مستوجب القتل أما أنا فأقول لكم إن من يغضب على أخيه بالباطل ومن قال لأخيه ياأحمق يكون مستوجب نار جهنم.»

«إن قدمت قربانك إلى المذبح في هيكل الرب وتذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فاترك القربان وأذهب سريعا لتصالح أخاك وبعدئذ تعالى لتقدم قربانك.»

وقام «المسيح» ليواصل الطريق وقد أطرق حزينا وهو يقول «كيف تطلبون من الله أن يغفر لكم وأنت لاتتركون للناس زلاتهم إن غفرتم للناس غفر الله لكم.»

قال بطرس(٤١٣) «هانحن قد تركنا كل شئ وتبعناك فماذا يكون جزاؤنا ؟!»

قال «المسيح» وصوته يقطر أسفا «الحق أقول لكم إنكم إن صدقتم فإنكم تجلسون يوم الحساب على الكراسي لتشهدوا على أسباط إسرائيل الإثنى عشر.»

كان الليل قد نزل فجلس «المسيح» صامتا ثم قال وقد كشف صوته في الظلام عن حزنه(٤١٤) «سمعان سمعان هو ذا الشيطان قد طلبكم ليغربلكم مثل الحنطة. إن كنتم

مؤمنين حقا فإن الشيطان يستعمل كل قوته ليهلككم ولكنني تضرعت من أجلكم الى الله لكى لايهلك إلاَّ الذى يلقى لِيَ الحبائل"

صاح «يحيى بن زيدى» : «يامعلم كيف النجاة» فقال «المسيح» لا تخافوا فإنه سيحاربكم مثل كلب مربوط لأن الله قد استمع لصلاتى.»

(٤١٥) «الحق أقول لكم إن المؤمن لابد أن يُمْتَحن وكما قال نبي الله «سليمان» عليك يامن تريد أن تتقى الله أن تستعد للتجارب» هكذا اقتضت حكمة الله وعدله الذى لايظلم مثقال ذرة.

«قولوا لى إذا أعطاكم «هيرودوس» رئيس الجليل بيتا لتحفظوه له حتى يرجع إليه فيقيم فيه أتسمحون وأنتم عبيد «هيرودوس» «لبيلاطس» الوالى الرومانى وعدو «هيرودوس» اللدود بأن يدخل بيته ويضع فيه متاعه ؟! إن كنتم عبيدا مخلصين حقاً «لهيرودوس» فإنه ينبغى عليكم أن تمنعوا «بيلاطس» من الإقتراب من البيت لا أن يدخل فيه ويضع متاعه»

«بيت الله هو قلب الإنسان الذى يريد الله من الإنسان أن يحفظه طاهراً بإقامة شريعته ومحبته وحده حتى يعود الله للإقامة فيه إلى الأبد فينبغى أن يمنع الشيطان عدو الله من الإقتراب من بيت الله ولانسمح له بدخوله ووضع متاعه فيه ومتاع الشيطان هو الأفكار الشريرة التى يبثها فى القلب ولاسبيل إلى ذلك إلا بأن يمتحن الإنسان الأفكار كما يمتحن الصراف قطعة النقود ؟»

قال «يحيى» «وكيف يكون إمتحان الفكر مثل إمتحان النقود ؟»

قال «المسيح» : «ألم تنظروا الى الصراف وهو يقلب قطعة النقود فى يده عدة مرات ليرى هل هى سليمة أم زائفة ويمعن النظر فى صورة قيصر عليها هل هى صحيحة أم خاطئة ثم يفحص العيار ليرى كم تزن وكذلكم يجب أن يكون إمتحان كل فكرة. هل هى تتفق مع تقوى الله أم تنافيها ثم هل هى تتطابق أو تتماثل مع سلوك الأنبياء المرسلين من

الله أم تخالفه لأنهم القدوة التى يجب احتذاؤها مثل صورة القيصر الصحيحة على العملة ثم كم تزن هذه الفكرة فى ميزان محبة الله لأن حب الله هو الغاية من كل الشريعة التى جاء من أجلها جميع الأنبياء فإذا سار الإنسان على هذا النحو فى امتحان الأفكار فإنه بإذن الله يستطيع أن يحفظ بيت الله الذى هو قلبه طاهرا مهيئا لعودة الله إليه. قالوا «وكيف يستطيع الإنسان أن ينجح فى هذا الامتحان ؟!"

قال «المسيح» «بالتمرن الكثير وترك الكسل والصمت الطويل وترك اللغو وإدامة الصلاة التى لايجب أن تنقطع أبدا وألاّ تكون صلاتك مقتصرة على حركات البدن بل بقلب متدبر»

«لايكفى للنجاة من الشيطان والتغلب على الشر مجرد العلم بل يجب العمل بالطاعات»

(٤١٦) «كان هناك رب بيت استأجر ثلاثة عمال ليزرعوا له حقله فأما الأول والثانى فكانا لايعرفان كيف يزرعان وأما الثالث فكان عليما بالزراعة. فمضى الأول إلى حقله الذى استأجره من سيده ولم يفعل شيئا لأنه لم يكن يعلم كيف يزرع.»

«أما الثانى فذهب إلى الثالث ليعلمه فشرح الثالث له بكل تفصيل كيف يزرع وقام الثانى بتنفيذ ماتعلمه.»

«واكتفى الثالث بتعليم الثانى وظل يتحدث حتى مر الوقت وجاء موعد الحصاد حيث يجب على كل مستأجر أن يدفع قدراً مما عليه من الدين فى صورة مقدار من الثمار يجب أعطاؤها للسيد صاحب الأرض. جاء الأول فاعتذر لأنه لم يكن يعرف كيف يزرع فوبخه سيده قائلاً أكنتَ وحدك فى هذه الدنيا الواسعة لماذا لم تذهب لتسأل وتتعلم ؟!»

«فإن تحنن عليه سيده بسبب جهله فإنه سيأخذ منه الأرض و يستغنى عن خدمته.»

وجاء الثانى فأعطى سيده من ثمرة محصوله دَيْنَ سنتين لأن الحصاد كان وفيراً فلما

جاء الثالث تعجب «السيد» لأنه لم يستطع أن يسدد من دينه شيئا وكيف لم تعط الأرض غلة رغم أن العبد عليم بالزراعة ؟!.»

«فسأل السيد صاحب الأرض العبدالثانى مندهشاً كيف استطاع الحصول على غلة وفيرة رغم أنه كان جاهلاً بالزراعة بينما لم يحصل الثالث على شئ بالرغم من علمه فقال العبد الثانى «ياسيد إن زراعة الحقل لايكفى فيها العلم والكلام لأنه لابد من حرث الأرض ووضع البذور ورعاية النبات بالماء ثم اجتثاث الحشائش الضارة وتشذيب الأغصان. لابد لمن يريد أن يحصل على ثمر أن ينضح منه كل يوم عَرَقَ قميص،.»

«ولاريب أيها السيد لو أن عبدك العليم بالزراعة قد عمل كما يعلم لأستطاع أن يعطيك أجرة خمس سنوات ولكنه اكتفى بالكلام،،

«فأوقف السيد صاحب الأرض العبد الثالث ووبخه ساخرا منه قائلا لا ريب أنك؛ تستحق منى مكافأة عظيمة «أيها الخدم خذوه فألقوه فى السجن ليضربه الجلاد الغليظ القلب كل يوم» ولم يرد أبداً أن يطلقه رغم شفاعة الأصدقاء.

«قولوا لى هل أعطانا الله الشريعة لنعمل بها أم لنعلمها ونتكلم بها. إن الحكمة هي أن تعمل بما تعلم»

«لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته إن الذى يعلم الحق ويعمل بما يناقضه ينزل به عذاب شديد حتى أن الشياطين نفسها التى لاتعرف الرحمة طريقا إليها ترثى له من شدة عذابه».

ثم علا صوت «المسيح» فى ظلمات الليل وهو يتكلم كأنه يحذر ويهدد

«إنك لأشد جنونا من كل المجانين أيها الإنسان الذى تعرف الله بإدراكك ولكنك تختار الدنيا بهواك وتعرف السماء بإدراكك ولكنك تختار الأرض بيديك وتعرف ملذات الجنة بإدراكك ولكنك تختار شقاء الجحيم بأعمالك فويل لك ثم ويل لك ثم ويل لك»

«إن الذى فى الظلام يشتهى النور ليرى الطريق فيسير آمنا إلى بيته ولكنك أيها الشرير لم تمتنع فقط عن الذهاب الى البيت فى النور الذى وهبه الله لك بل أحتقرت النور أيضامفضلا عليه الذهاب الى الظلمات.».

«ماأشقاك وماأجدرك بالمهانة والإحتقار يامن لاتكتفي فقط بالإمتناع عن فعل الخير بل تستخدم ماتعرف من الخير لتفعل الشر فإنك تشبه الذى يستخدم الهبات ليقتل بها الواهب» .

«إن ثمرة من يطيع الشيطان هى أن يحصل على النيران الابدية» وسكت «المسيح» وأطبق الصمت المفعم بالإضطراب على الجمع الصغير الجالس فى الظلمات.

وفي نور الصباح طفق « المسيح» يلقي عليهم وصاياه مؤكداًلهم أهمية أن يتعلموا شريعة الله وأن يقتدوا بالانبياء واذا كان الأنبياء أنفسهم مثل ابراهيم وأيوب لم يتعلموا فذلك لأنهم أهل العُرْسِ الذين لايدعون إلى حضوره لأنهم فى البيت الذى فيه العرس يسكنون .

«إن الرغبة فى عبادة الله ومعرفته قائمة أبداً فى قلب الإنسان وإن خبا نورها بالخطيئة فإنه لاينطفئ لذلك فإن جميع البشر فى كل الأمم يطلبون الله وإن أخطأوا الطريق إليه فعبدوا بدلاً منه الآلهة الزائفة ».

«إن الله قد أرسل الأنبياء ليعلّموا البشر الطريق إلى الله ويساعدوهم على السير فيه. إنهم النور الذى أغاث به الرحيم عباده ليعرفوه كما أن الأعمى والذى في عينه رمد يجب أن يُقَاد بالبصير حتى يصل الى البيت فإنه هناك يبصر وحده. وإن الأنبياء وإن ماتوا فإن كلامهم وسيرتهم مدونة فى الكتب فيجب المحافظة على كلام الأنبياء دون زيادة أو نقص حتى لايضل الناس من بعدهم كما ضل بنو اسرائيل.»

«إن الله قد أعطى الشريعة لتكون طريقا إليه فهى ليست الغاية بل معرفة الله هى

الغاية وهى غاية يستحيل الوصول إليها بدون الحب فهدف الشريعة أن تثمر فى القلب محبة الله.»

«إن الأمم التى لم يرسل الله إليها الأنبياء ليست بعيدة عن رحمة الله لأن إرسال الأنبياء إبتلاء يظفر فيه بالرحمة من آمن ويبوء بالعذاب من كفر وإن الإنسان الذى يعيش على فطرته مهتديا ببقية النور الذى فى قلبه لايفعل للآخرين مالا يحب أن يفعلوا له. مِثْلُ هذا الإنسان غير بعيد عن رحمة الله بل هو قريب ربما كان أقرب كثيراً من كثير من الذين أعطاهم الله شريعته بواسطة أنبيائه»

«كان إنسان صاحب أملاك كبيرة من بينها أرض قاحلة لاتنبت إلاّ الشوك والأشياء التى لاثمار لها وحدث ذات مرة بينما كان سائراً أنه عثر وسط تلك الأرض القاحلة على نبات غريب بديع الهيئة شهى الثمر فتعجب كثيراً من حسنه وأمرعبيده أن يأخذوا هذا النبات الحسن ويضعوه فى بيته رغم أنه كان قد عزم على إحراق كل تلك الأرض التى لاتعطى أى ثمر. فاعلموا أن رحمة الله واسعة لاتترك من كان فـي قلبه مثقال ذرة من الخير».

وأنتهى الطريق وجاء بيت «نيقوديموس» وبستانه خلف الجدول فى «وادى قدرون» على الحدود بين الجليل والسامرة.

عندما خطا «المسيح» داخل البستان وجال ببصره فى أرجائه ثم نظر إلى المنزل القائم فى وسطه أدرك بوضوح أنْ هاهنا تكون نهاية الرحلة وبداية الرحلة الأخرى.

ههنا سَيُقتل ليظفر بشهادة القتل فى سبيل الله وسيُرفع جسده الى السماء ليبقى هناك حتى تشرف الدنيا على نهايتها فحينئذ يُدفع به إلى الارض مرة أخرى ليَقْتُل «المسيح» الكذاب «ملك اليهود» البشع الأعور الذين يتحرقون شوقا لرؤيته ليعيد إليهم المجد الذى أبى الله ألاّ يعود.

هـهنا سيـذوب جسده فى النور ويرتفع ليصير ملكا مقربا فى السماء الثانية ليلحق بالشهيدين «زكريا» و«يحيى» ويلقى الأحبة الذين يعرفونه ويحبونه ويحزنون لبعاده ويستبشرون بإيابه. لقد أتى إلى هنا من أجل هذه اللحظة. جاء بهؤلاء الرجال ليشهدوا آية الله فيه. لقد ألقى الله إليهم «روحه» فى الهيكل فبايعوه وهو الآن يريد أن يعطيهم آخر وصاياه ليحفظوا تعليمه الذى جاء الى الدنيا ليعلمه للناس وليكونوا خلفاء له من بعده يحملون كلمة الله إلى الناس جميعا ويبشرون الذين ينتظرون رحمة الله أن «ملكوت الله» قادم لامحالة وأنَّ «عيسى بن مريم» الذى أوشك أن يرحل من شهود الدنيا الآن هو آية مسعاه للظهور. جلس «المسيح» مستندا إلى شجرة جامعا تلاميذه حوله يريد أن يخبرهم عما سيشهدونه بعد قليل ويهيئهم ليكونوا رسله بعد ذهابه الى لقاء ربه، وهو يتذكر نبى الله يعقوب وقد حضره «الموت» فجمع أبناءه الأسباط الاثنى عشر آباء هؤلاء التلاميذ الاثنى عشر. قال لهم «إن لى كأساً عند الله لابد أن أشربها ولى صبغة لابد أن أصطبغ بها فكيف أُحْصَرَ فى الارض قبل أن اصطبغ بها. فلابد لى إذن أن اعود بعد ماارتفع من هنا».

(٤١٧) واندفع يعقوب ويحيى ابنا زبدى ليقولا له قبل أن يكمل حديثه الذى لم يكن فيهم واحد يفهمه قالا «يامعلم نريد أن نطلب منك شيئاً. ونريد أن تعطينا أياه مهما طلبنا منك ؟!»

فقال «المسيح» وهو يتأسف لعدم فهمهما كلامه وعجزهما عن إدراك حقيقة اللحظة التى هم فيها الآن «ماذا تريدان »؟!

قالا : «نريد أن نجلس واحد منا عن يمينك والآخر عن يسارك عندما تأتى فى مجدك يوم القيامة».

يريدان المقعدين الملاصقين لمقعد السيد «المسيح» من المقاعد الإثنى عشر التى وعدهم

بإعتلائهما عند الله إن ثبتوا على الإيمان به ليكونوا شهودا على الأسباط الاثنى عشر شعوب اسرائيل.

إذن لقد ضاعت سدى نصائحه التى ظل يكررها موبخا الفريسيين الذين يحبون المتكئات الأولى فى المجالس والصفوف الاولي فى المجامع.

إن الكبرياء التى تدفع الانسان ليرفع نفسه فوق أخوته من البشر فى الدنيا هاهي قد تركت الدنيا وتسللت إلى الآخرة كما تسلل «إبليس» إلى الجنة ليفتن آدم وحواء ويعمل على طردهما من رحمة الله. كان «المسيح» يريد منهما أن يسألاه عن «الكأس» وعن «الصبغة» لكنهما كانا مشغولين بأمر آخر كانا مشغولين بالكبرياء التى تطرد الإنسان من رحمة الله فقال لهما وصوته الحزين يقطر أسفاً :

«أتستطيعان أن تشربا الكأس التى أعدها الله لى وأن تصطبغا بالصبغة التى سأصطبغ بها».

يريد أن يجعلهم يفكرون وأن يسألوا إن كانوا لايعلمون ولكن يعقوب ويحيى إندفعا بدون أن يفهما المراد من الكأس والصبغة فقالا «نستطيع» هكذا إذ ظنا أن ذلك شرط لإعتلائهما المقعدين المرموقين.

فعاد «المسيح» ليقول وأسفه لم يزل يفيض «نعم. فأما الكأس التى سأشربها فستشربانها وأما الصبغة التى سأصطبغ بها فأرجو أن تصطبغا بها فلا نجاة لأحد بغيرها أما الجلوس عن يمينى ويسارى فلا أملكه لكما لأنه للذين أُعِدَّ لهم منذ البداية عند الله.»

«الكأس هى الموت والصبغة هى أن نسلم وجوهنا لله هذه هى الكأس التى لابد لكل نفس أن تشربها وتلك هى صبغة الله التى وهبها لمختاريه الذين يحبهم ويحبونه فأرجو أن أكون منهم وأرجو لكما أن تكونا». لقد صدمهم كلامه ورغم أنه لم يضمن للشقيقين تحقق

مايطلبان إلاّ أن بقية التلاميذ العشرة الآخرين ابتدأوا يغتاظون بسبب رغبة يعقوب ويحيى فى الإرتفاع عليهم وأخذوا يتذمرون ويتفرقون من حوله «والمعلم» الحزين الذى جاء بهم الى هنا ليشهدوا نهايته وآية الله فيه يتعجب متأسفا ونادى عليهم «تعالوا إلى هنا ياتلاميذى اقتربوا منى ياأبنائى» فأخذوا يتجمعون تحت ضغط ندائه.

(٤١٨) ثم قام وأحضر بنفسه دلو ماء ومنشفة من البيت وأخذ ينادى على تلاميذه واحداً بعدَ الاخر فيجلسه ويصب الماء على قدميه ويغلسهما ثم يمسحهما بالمنشفة التى كان متزرا بها والتلاميذ مذهولين مما يرون إلى جاء الدور على «بطرس» الذى كان اسمه «سمعان» وقد عاد «المسيح» فى النهاية ليناديه بإسم «سمعان» مرة أخرى فقال : «ياسيد أأنت تغسل قدمى والله لايكون هذا أبدا».

قال «المسيح» : «والله لست تعلم ماتقول الآن ولاأنت تفهم ماأقول ولا ماأصنع لك ولعلك تفهم فيما بعد».

لكن «سمعان» أصر وهو مندهش «لن تغسل قدمى أبدا » فهدده «المسيح» قائلاً : «إن كنتُ لاأغسل قدميك الآن فلن يكون لك نصيب معى بعد الان ؟! فأندفع «بطرس» باكيا وقال : «لا ياسيدى ليس فقط قدمى بل إليك يدى ورأسى وكل جسدى» .

قال «المسيح» : «من طهَّر قلبه فقد طهر جسده كله ولم يعد فى حاجة إلا إلى غسل قدميه لأنهما لم يزلا على الأرض».

ثم أجلسهم وجلس ليقول لهم «أتفهمون ماقد صنعت لكم. أنتم تدعوننى معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأننى معلمكم وسيدكم إذ يعلمكم الله بلسانى وأقودكم إلى رحمة الله على طريقه المستقيم. ولكننى وإن كنت أنا المعلم والسيد قد غسلت أقدامكم فكيف يجب عليكم أن تعملوا مع بعضكم البعض. ها أنذا أعطيكم المثل وكما صنعت معكم فاصنعوا مع بعضكم ولعلكم تذكرون أننى قلت لكم من قبل أن ليس عبد أفضل من سيده ولاتلميذ أفضل من

معلمه ولارسول أفضل من الذى أرسله. غاية العبد أن يكون كسيده والتلميذ كمعلمه والرسول أن يطيع الذى أرسله طوبى لكم إن علمتم هذا وحفظتموه».

«ملوك الأمم ورؤساؤها يتسلطون على الناس ويرفعون أنفسهم عليهم والناس تدعوهم صالحين ومحسنين وهم ليسوا كذلك فلايجب أن يكون الأمر فيكم كما فى الأمم.»

«من أراد أن يكون سيدا للجميع فعليه أن يخدم الجميع ومن أراد ان يكون أولاً فليتأخر ولايقدم نفسه ومن أراد أن يكون أعظم الجميع فليتصرف بإعتباره أقل شأنا من الجميع.»

(٤١٩)« ياأولادى أنا معكم لحظة قصيرة وبعدها لن تكونوا معى ولاتستطيعون أن ترونني أو تأتوا إليَّ وكما قلت فى الهيكل سأمضى إلى حيث لاتستطيعون أن تأتوا إليَّ فدعونى أعطيكم الآن وصية جديدة آخر وصاياى قبل أن أذهب» «أحبوا بعضكم بعضا. كما أحببتكم أنا أحبوا بعضكم بعضا بهذا فقط يعلم الجميع أنكم تلاميذى» فقال له «سمعان بطرس» «ياسيد إلى أين تذهب» قال «المسيح» «إلى حيث لاتقدر أن تأتى إليَّ»

قال «بطرس» «أينما تمضى ياسيد فإننى أتبعك»

قال «المسيح» «إنك لاتقدر أن تتبعنى الآن ولكنك ستتبعنى أخيراً لأننى ياسمعان صليت من أجلك» «فتعجب سمعان وقال محتجا «ياسيد لماذا لاأقدر أن أتبعك الان ؟!»

«أينما تمضى أذهب معك وإن جاءوا يقتلونك فإننى أضع نفسى فداء عنك يامعلم إننى مستعد أن امضى معك الى السجن أو الموت»

فقال «المسيح» : «أتضع نفسك عنى ؟!»

«الحق الحق أقول لك قبل أن يصيح الديك ستنكرنى يا سمعان ثلاث مرات وتلعننى ثلاث مرات» فألجمت المفاجأة «سمعان» والآخرين وأطبق عليهم الصمت انتظاراً للكارثة الوشيكة وتحيروا من هذا الإصرار من «المسيح» على أنهم لايحبونه ولايؤمنون به بالقدر

الكافى للنجاة ولكن «المسيح» واصل كلامه مفضيا إليهم بآخر وصاياه قال : (٤٢٠) «أنا شجرة حقيقية وأبى هو الزارع».

«هل يستطيع غصن أن يأتى بثمر إذا لم يثبت فى الشجرة. كلاَّ»

«فأنا الشجرة وأنتم الأغصان فاثبتوا فىَّ ياأغصانى ولاتتركونى فتهلكوا. من يثبت فىَّ يأتى بثمر كثير ويحبه الزارع ولكنكم بدونى لاتستطيعون أن تفعلوا شيئا. لاتستطيعون أن تأتوا بثمر وكما أن كل غصن ميت لايأتى بثمر ينزعه الزارع من الشجرة ويلقى به على الأرض حتى يجف ثم بعد ذلك يطرحه فى النار. كذلكم يكون كل من تركنى منكم بتركوصاياى.»

«فاثبتوا فىَّ بحفظ وصاياى وحينئذ تأتون بثمر كثير وكل من يأتى بثمر فإن الزارع ينقيه حتى يأتى بثمر أكثر وأكثر وبهذا يتجمد الزارع. إن ثبتم فىَّ بحفظ وصاياى فإنكم بإذن الله تستطيعون أن تفعلوا كل ماكنُت أستطيع بإذن الله أن أفعله. بل كل ماتطلبونه تجدونه وكل ماتريدونه يكون لكم. كما أحبنى الله أحببتكم أنا فأحبونى كما أحببتكم وأثبتوا فى محبتى بحفظ وصاياى احفظوا وصاياى كما حفظتُ أنا وصايا الله وأثبتوا فى محبتى كما ثبت أنا فى حب الله؟».

«لستم أنتم الذين أخترتمونى بل أنا الذى أخترتكم وأقمتكم وجعلتكم رسلا لتذهبوا وتأتوا بثمر وليدوم ثمركم. أكلمكم بهذا لكى يثبت فرحى بكم ويكتمل.»

«إن أحببتمونى كما أحببتكم صرتم بالحق أحبائى ولن أسميكم بعد ذلك عبيدا لأن العبد لايستطيع أن يدرك مايفعل سيده.

لقد علمتكم ماسمعته من الله من أجلكم فأحفظوه وعلموه لغيركم وبهذا تصيرون بالحق أحبائى ولاتصيرون بعد عبيداً»

«هذه هى وصيتى لكم. أحبوا بعضكم البعض.»

«إذا كان العالم سيبغضكم فلا تحزنوا لأنه قد أبغضنى من قبلكم. الدنيا تعرف أهلها وتحبهم الحب الذى يهلكهم فلاتكونوا من أهلها. أذكروا ماقلته لكم ليس عبد أفضل من سيده ولاتلميذ من معلمه ولارسول من الذى أرسله.»

«فإذا كانوا قد أبغضونى وأضطهدونى ويريدون الآن قتلى فسيبغضونكم ويضطهدونكم ويريدون قتلكم.»

«وإذا كانوا لم يؤمنوا بكلامى ولم يقبلوا تبشيرى فلن يؤمنوا بكلامكم ولن يقبلوا تبشيركم. بقدر ماحفظوا كلامى سيحفظون كلامكم ولكن عليكم أن تقولوه شهادة عليهم عند الله.»

«لو لم أكن قد جئتُ إليهم ماكانت عليهم خطيئة ولكننى قد جئت فتحققت خطيئتهم»

«لو لم أكن قد أظهرت لهم من الآيات مالم يفعله أحد قبلى ماكانت عليهم خطيئة لكنهم الآن قد رأوا الآيات ولم يؤمنوا فتأكدت لعنتهم سيبغضونكم ويضطهدونكم ويريدون قتلكم إن كنتم حقا تلاميذى ومن يبغضكم فإنما يبغضنى أنا لأنكم لى ومن يبغضنى فإنما يبغض الذى أرسلنى ليتأكد ماقيل فى الناموس أنهم قد «أبغضونى بلا سبب.»

«لماذا أنتم حزانى هكذا ؟»

«ألأننى قلت لكم أننى ذاهب تحزنون ؟ أتحزنون لحسن حالى ! هل يحزن صديق حقيقي لحسن حال صديقه؟!»

«لو كنتم تحبوننى حقا لكنتم حفظتم تعليمى وكنتم الآن تفرحون لأننى أمضى إلي ربى وهو أعظم منى فأنا الآن سأترك الارض وأرتفع الى السماء فلماذا تحزنون ؟!»

«ماذا تعطى الدنيا جزاءاً لأهلها ؟!»

«إن الإنسان يولد عريانا فيلفه أهله بالأقمطة ويموت عريانا فيلفه أهله بالأكفان هذا

هو الجزاء الذى تعطيه الدنيا ،لاشئ وإن أعطت قليلا من المسرات فإن مسراتها لاتدوم فأصيخوا إلىَّ سمعكم لتعرفوا ماذا يعطيكم ربكم فى الجنة إلتىٌ تدوم مسراتها؟!»

«لقد رأى «داود» مجد الجنة فلما عاد إلى نفسه غطى عينيه بكلتا يديه وصاح باكيا «لاتنظرى بعد ياعيناى إلى شئ فكل ماعلى الارض باطل وكل مافى الدنيا ليس فيه شئ طيب».

«وقال «أشعياء» عن نعيم الجنة «لم ترعينا إنسان ولم تسمع اذناه ولم يخطر على قلبه ماأعده الله للذين يحبونه»

«أتعلمون لماذا لم ير الناس ولم يسمعوا ولم يدركوا بقلوبهم مجد الجنة؟! لأنهم يكونون في الدنيا محاصرين في إبدانهم غير مؤهلين للمشاهدة. إن «داود» رأى ولكن ليس بعيني جسده الترابى بل رأى بنفسه التى تحررت من أسر جسده وصارت متحدة «بروح الله» الذى له أن يعاين مابنفسه.»

«هل تستطيع جرة صغيرة أن تحتوى ماء البحر المحيط ؟!»

«كلا وكذلكم لايستطيع إنسان أن يحيط بنعيم الجنة ومجدها .»

(٤٢١) «أنظروا إلى الفلاح فى زمن الصيف وقد أثمرت حقوله. ماأجمل الدنيا فى مساء الصيف حيث يحمل كل شئ ثمرا .»

«إن الفلاح من فرط نشوته لايتمالك نفسه فيغنى مسرورا حتى أن الجبال والأودية لتردد رجع غنائه لأنه يحب ماصنعت يداه كل الحب.»

«أنظروا إلى هذا ثم أرفعوا قلوبكم من الارض لتشهدوا مجد الجنة فإن هذا ظلٌ لذلك»

«لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته إن هذا يكفي تماماً من يريد أن يعرف

الجنة... البيت الذي يخزن الله فيه مسراته للذين يحبونه. إن الأرض التي يدوسها الصالحون المباركون في الجنة لغالية جداً حتى أنّ درهما واحدا منها يكون أثمن من ألف كون من الأكوان التى تتعاقب على الأرض»

«وكما أنّ العبد المحب لربه لايريد أن يجعل لعبادته نهاية فإن الرب المحب لعبده لايريد أن يجعل لجزائه لعبده نهاية.»

«كيف يعطى «هيرودوس» رئيس الجليل واحداً من أشرف أخلائه ؟»

قال «يحيي»: « إن مايعطيه لواحد من هؤلاء يكفى مائة من المساكين مدى الحياة ؟»

قال «فماذا يعطى فقير لايجد قوت يومهِ «لهيرودوس» إن أراد أن يتقرب إليه ؟!»

قال «يحيى» «فلسا أو فلسين»: قال «المسيح» «فكما يعطى الفقير «لهيرودوس» تعطى الدنيا لأهلها وكما يعطى «هيرودوس» لصديقه الشريف يعطى الله لعباده فى الجنة فأنظروا وتأملوا.».

قال «بطرس» «أيذهب جسدنا إلى الجنة ؟»

قال «المسيح» «إحذر ياسمعان أن تصير صدوقيا لأن الصدوقيين هم الذين يقولون أن الجسد لايبعث ولاتوجد ملائكة ولذلك حرم الله عليهم دخول الجنة».

«ألم تقرأوا ماقاله أيوب «أعلمُ أن إلهي حيٌ وأننى سأقوم فى يوم القيامة بجسدى وسأرى بعينى إلهى منقذى أذكروا ماقاله أيوب جيدا حتى لاتصيروا صدوقيين».

«ماجدوى الثمار التى فى الجنة ومامعنى الأنهار الأربعة؟ إذا لم يكن هناك جسد فمن الذى سيأكل الثمار ويشرب من الأنهار ويتزوج من النساء المطهرات».

«رجلان تعاونا على خدمة سيدهما. واحد كان ينظر ويتأمل ثم يأمر والآخر ينفذ مـاأمر به الأول أفمن العدل عندما يريد السيد أنْ يكافئ خدمه أن يجازىَ الأول الذى فكر

وقـدر ويـتـرك الآخـر بـلا مكافـأة وهـو الـذى نفـذ؟!مـن العـدل أن يجـازى الاثنـين كذلكم النفس والجسد»

قال «بطرس» «يامعلم إن الجسد هو الذى يدعونا للخطيئة ؟»

قـال «المسيح» «وهل يمكن للجسد أن يخطئ دون «نَفْسٍ» تأمره بالخطيئـة هل يمكن شهود جسد دون نَفْسٍ هذا مـحال وكذلكم لايمكن شهود نفس دون جسد وإن لم يذهب الجسد الى الجنة فمن المحتم أنه سيدخل الجحيم فإما الجنة أو الجحيم وإن حكمت على الجسد بالجحيم فأنت تحكم على النفس أيضا.»

قال «بطرس» «وكيف يخرج الطعام دون نجاسة ؟»

قال «المسيح» «إن الجسد فى الدنيا يأكل أطعمة قابلة للفساد فلابد أن تخرج منه النجاسة ولكنه عندما يأكل أطعمة طيبة غير قابلة للفساد يستحيل أن تنتج نجاسة فإنه لن يخرج نجاسة وهل هناك نجاسة فى الجنة؟!»

«لقد طُرد آدم من الجنة لأنه أكل طعاما قابلاً للفساد وكان لابد أن يخرج نجاسة فكان لابد أن يخرج من الجنة.»

«قال «أشعياء» متحدثا بإسم الله «يجلس عبادى على مائدتى في بيتى ويتلذذون» مبتهجين وسط أصوات السرور»

«أما أنتم ياأعدائى فتطرحون خارج البيت بعيداً عنى حيث تموتون فى الشقاء وكل جنودى يمتهنونكم»....

«ماذا يعنى قوله «يتلذذون»؟ إنه يعنى دخول الجسد الى الجنة.»

«لكن صدقونى إن جسدنا هذا يتطهر لأن قلوبنا ستتطهر من كل نية شريرة فيعود جسدنا كما كان قبل أن يعصى آدم ربه ويأكل من الشجرة المحرمة. قال : «برتولوماوس» «ولكن يامعلم أيكون مجد الجنة لجميع من فيها سواء. ؟»

«إن كانوا على السواء فهذا ظلم لأنهم كانوا مختلفين وإن لم يكونوا على السواء حسد الأصغر الأكبر وفي هذا ألم لايجوز في الجنة التي يجب أن تكون مبرأة عن كل شر؟!»

قال «المسيح» «لن يكون على السواء لأن الله هو العدل ولكن يا«برتولوماوس» سيكون كل واحد قانع بما هو فيه.»

«تأمل سيداً غنيا عنده كثير من الخدم رجال وأطفال ونساء وقد ترك لهم ملابس كثيرة ليلبسوها فهل يفرض على الجميع زياً واحداً إذن سيحزن الأطفال الصغار لأن الزى لو كان على قياس الكبير سيعدون ذلك استهزاء بهم وسخرية ولو كان على قياس الصغار فإنه لن يليق بالكبار إرفع قلبك «يابرتولوماوس» ووسعه لترى أن للجميع في الجنة مجداً واحداً وعلى كونه واحداً إلاً أنه يكون كثيراً لواحد وقليلاً لآخر دون أن يتولد من ذلك حسد لأن القلوب قد تطهرت فلم يبق فيها إلا «الروح». قال «برنابا» «هل في الجنة نور ؟!»

قال «المسيح» «يا «برنابا» إذا كان الله ينور بالشمس والقمر سماء الدنيا المظلمة التي يعيش على أرضها الخاطئين أفلا ينور بيته الذى أعده للصالحين ؟»

«يا «برنابا» إن الهنا هو شمس الجنة «ورسول الله» هو القمر والأنبياء هم النجوم وكما أن كل البشر نالوا خيراً من الأنبياء في الدنيا لأنهم أضاءوا لهم الطريق فكذلكم ينالون الخير من الأنبياء في الجنة . لأنهم يكونون بمثابة المصابيح التي تضئ لهم بيوتهم» وأراد «المسيح» أن يعود إلى وصاياه لكن «بروتولوماوس» قال له : «يامعلم كن طويل الاناة؟»

قال «المسيح» «قل ماتريد ؟»

قال « برتولوماوس» «لابد أن الجنة ستكون واسعة جداً»

قال «المسيح»: « نعم ولايستطيع أحد أن يدرك سعتها ». قال «برتولوماوس» و«إننا نرى فيها ربنا لأنك قلت أنه هو شمس الجنة»

قال «المسيح» «نعم»

فاندفع «بطرس» يقول: «إذن فالجنة أكبر من الله لأننا نراه فيها »

قال «المسيح» « اسكت فإنك تجدف على غير هدى».

والتفت «المسيح» كأن أحداً لايراه التلاميذ قد كلمه هامسا فتغير لونه ثم قال : «أسجدوا لربكم وعفروا وجوهكم فى التراب».

وبعد الصلاة نادى «المسيح» على بطرس والتلاميذ وقال: «يا «سمعان» إنك ترى بعين واحدة الشمس وهى أكبر من الأرض التى تحملك عدة مرات إنما الجنة وسيلة نرى بها الله فهى العين التى نرى بها ربنا ولو لم يكن جسدنا يذهب الى الجنة فأين سيذهب جسدى الآن بعد أن يُرْفَع من هنا ؟»

وأضطرب «يهوذا الأسخريوطى». هل أزمع الساحر أن يختفى الآن؟ ألعله قادر على الصعود الى السماء؟ إذن فقد ضاعت الثلاثين فضة والثلاثمائة ذهب. «أين سيذهب جسدك ؟! إلى أيدى الكهنة بالضبط ليفعلوا به مايحلو لهم ويعطوننى مايحلولى. قال «المسيح»: « بعد قليل سوف اختفى عن عيونكم ولن تستطيعوا أن ترونى ولكنكم بعد قليل سترونني وتستطيعون أن تأتوا إلّى »

(٤٢٢) «بعد قليل لن يرانى العالم أيضاً أما أنتم فيمكنكم رؤيتى إن حفظتم وصاياى وثبتم فى محبتى وستعرفون حينئذ أننى حى وبحياتى هناك تكون حياتكم. الذى يُحبنى حقا هو الذى يحفظ وصاياى وهذا هو الذى أظهر له ذاتى فيعرف أننى عند الله حى ويأتى إلّى لنبنى سويا عند الله بيتا ولكن الذى لايحبنى فإنه لايحفظ وصاياى ولن يعرف أين أنا ولن يعرف الطريق ولن يأتى إلّى بل لن يعرف من أنا!!

الكلام الذى أقوله لكم الآن «الله» هو الذى يقوله لكم بلسانى إن الله قد أرانى كتابه الذى سطر فيه كل شئ وما أراه أقوله

قالوا : «أفأنت الآن تقرأ ؟!»

قال : «نعم وقد أوشكت أن انتهى من قراءتى.» قالوا «ياسيد إلى أين تذهب وماذا حدث حتى أنك تقول أنك مزمع أن تختفى عن أعيننا وعن العالم أيضا»

قال : «بعد قليل سأموت وسيصعد ابن الانسان إلى السماء ينبغى لإبن الإنسان أن يرتفع إلي السماء»

قالوا :(٤٢٣) كيف تقول أنك ستموت وسمعنا من الكتبة أنَّ الناموس مكتوب فيه أن «المسيح» لايموت بل يبقى إلى الابد وكيف تقول أن ابن الانسان ينبغى أن يرتفع من هو ابن الانسان هذا ؟!»

قال «المسيح» وهو كالمذهول «بقيتُ معكم زمانا هذا طوله ولاتعرفون من هو ابن الانسان ؟!»

قال (٤٢٤) فيلبُس «ياسيد من هو أبوك أرنا أباك فقط وكفانا» ؟!

قال «المسيح» «صحبتكم زمانا هذا طوله ولم تعرفنى يا «فيلُبس» لو عرفتمونى حقا لعرفتم أبى ».

«الذى رآنى فقد رأى أبى فأنا صورته التى تنوب عنه. فكيف تقول «يافيلبس» أرنا أباك ألسَت تؤمن أننا واحد إننى صورته وهو الذى وهبنى حياتى الكلام الذى أقوله لكم الآن يتكلم الله به على لسانى فصدقونى من أجل الآيات التى أظهرها الله على يدى. هذه الأعمال تشهد بصدقى لأن الله هو الذى يعملها بى. إننى ماضٍ الآن إلى الله فمن يؤمن بى فإنه يمكن أن يصنع أكثر مما صنعت أنا فبقدر الإيمان يكون لك». وأصابهم الوجوم وأطبقت عليهم الحيرة من كل جانب وأخذوا يتذمرون.

(٤٢٥) مـاهذا الذى يقـوله لنا. بعد قليل لن ترونني وبعـد قليل سـتـرونني وتأتون إليَّ ماهذا القليل الذى يتحدث عنه إننا لانفقه كثيراً مما يقول !! لانعلم عما يتكلم وأرادوا أن يكلموه ولكن وجهه كان يتغير وبدا عليه حزن شديد وهو يقول لهم :ـ

«الحق الحق أقول لكم أنكم ستـبكون وتنوحـون بينمـا الدنيا الفاجـرة تضـحك أنتم ستحزنون ولكن حـزنكم سيتـحول إلى فـرح يدوم ولن يستطيع أحد أن يسلبـه منكم أما ضحك الفجار فإنه سينقلب إلى بكاء أبدي .»

«المرأة حين يأتيها المخاض تحـزن وتبكى لأن ساعتـها قد جاءت ولكن متى وضـعت حملها لاتعود تذكر تلك الشدة التى كانت فيـها لشدة الفرح الذى ينسيـها كل ألم لأن انسانا قد ولد وأنتم الان تحزنون وستبكون من الشدة ولكن الشدة ستزول وسيتـحول كل شئ الى فرح ولن يُنْزَع منكم ذلك الفرح.»

«قد كلمتكم بأمثال ولكن قد أتت اللحظة التى لاأكلمكم فيها بأمثال بل علانيَة. كلاً بل إن «روح الله» يكلمكم عـلانيـة وقد طلبتُ من أجلكم هنا أشيـاء ولكن قـد أتت اللحظة التى تطلبون فيها أنتم من ربكم فيعطيكم كل شئ تريدونه. لاأقول لكم أننى أسأل الله لكم بل إنكم أنتم الذين تطلبون وربكم هـو الذى يجيبكم أن ثبتم فى محبته يعطيكم ماتسألون ولكى تؤمنوا أننى أكلمكم بكلام الله وأننى من الله قـد جـئت إلى الدنيـا وإلى الله أخـرج من شـهودها لأعود اليـها وهى تشرف على النهاية. من أجل أن تصدقوا أننى سأرتفع الى السـمـاء وأن «روح اللـه» سـيـأتـى إلى الأرض من بعـدى من أجل أن تؤمنوا بى وبكل ماقلت لكم ....»

(٤٢٦) «اطلبوا من الله بإسمى أى شئ وهو يعطيه لكم».

«أطلبـوا أى شئ يُعْطَى لكم حتى تؤمنوا». وسكتوا ولم يعرفوا ماذا يقولون أو ماذا يطلبون ولكنه عاد ليقول «من أجل أن تؤمنوا أطلبوا أى شئ يُعْطَى لكم !!»

«حتى الآن لم تطلبوا شيئا ؟!» (٤٢٧)

«أطلبوا لتؤمنوا وليكون فرحكم كاملاً.» وفكروا ثم قالوا.

«يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء ؟ (٤٢٨)

وصدمه طلبهم وصدمه أكثر طريقة الطلب التى تقطع بقلة إيمانهم وسوء تقديرهم لقدرة الله الذى أظهر أمامهم اكثر من غيرهم كثيراً من عجائبه. لم يقولوا «يامعلم» أو «يانبي الله» بل قالوا «يا عيسي ابن مريم»

«قال إتقوا الله إن كنتم مؤمنين »(٤٢٩)

«قالوا نريد ان ناكل منها»

«وتطمئن قلوبنا»

«ونعلم أن قد صدقتنا»

ونكون عليها من الشاهدين (٤٣٠)

ورحم «عيسى» قسوة قلوبهم وغلظة أفهامهم وأقتنع بحججهم. إنهم خلق الله هكذا خلقهم وهم أعلم بهم.

«قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا (الذين شهدوا رسالتي الأولى) **وآخرنا** (الذين يشهدون رسالتى الثانية)

وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين (٤٣١)

ولم ينتظر «عيسى» الإجابة لأن المائدة كانت تنزل من السماء وعليها من ثمار الجنة

بمجرد أن أنهى «عيسي» كلامه. «**قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى اعذبه عذابا لااعذبه احدا من العالمين** (٤٣٢)

ومد «الحواريون» أيديهم إلى المائدة وهم مذهولون كأنهم فى «رؤيا» وأخذوا يأكلون وهم لايصدقون أيديهم التى تتناول الثمار وأسنانهم التى تطحنها.

وحينئذ أوحى الله إليه أن «يهوذا الاسخريوطى» أحد هؤلاء الآكلين معك على مائدة الله قد اتفق على تسليمك الى رجال الهيكل مقابل ثلاثين فضة سيأخذها من رئيس الكهنة الذى أعد الخدم وبعض الجنود من أجل هذا ونظر «المسيح» إلى «يهوذا» الذى كان فى أشد اضطراب وهو يمد يده الى المائدة .

فأضطرب «عيسى» وامتقع لونه وقال فجأة :ـ

(٤٣٣) «الآن نفسى قد اضطربت. الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمنى» ففزع التلاميذ وتوقفوا عن الأكل وأخذ كل واحد منهم ينظر لصاحبه ثم ينظر «للمعلم» الذى كان يقطر وجهه حزنا وهو يقول : «الذى يأكل معى رفع علّى عقبه. الذى يده على المائدة معى يسلمنى» فصرخوا «من هو يامعلم قل لنا من هو ؟» قل لنا من هو حتى أخنقه بيدى» «أود أن اقتله الآن» ولم يستطع «يهوذا الأسخريوطى» أن يتمالك نفسه أكثر من هذا.

لقد بغتته كلمات «المسيح» ولايعرف ماذا يفعل. كان يقول لنفسه من المؤكد أن «المعلم» لا يعرف حقيقة ما دار بينه وبين رئيس الكهنة وإلاّ لما تركه يذهب معه ويختاره ليكون إلى جواره فى النهاية التى يتحدث عنها وكان ذلك سبباً فى استهزاء «يهوذا» «بالساحر» القدير. إن «الساحر» لا يعلم عدد الأموال التى يأخذها «يهوذا» من الصندوق الذى أعطاه له ليكون أمينا عليه ، بينما يدعى أنه يعلم ما يدور فى السماوات وما سيحدث على الأرض حتى نهاية العالم ولكنه الآن وبعد أن فضح «المعلم» حقيقة إتفاقه وقد كشر التلاميذ عن أنيابهم لم يعد هناك معنى للبقاء هنا أكثرَ من اللازم وانتفض «يهوذا» قائماً وأسرع يجرى هاربا و «المسيح» يقول له : «إفعل ما أنت فاعله يا «يهوذا» ولكن أسرع !!» .

وكـان «يهـوذا» بـالفـعل يريد أن يسـرع لأنه خـشى أن يـهـرب «المسـيح» من بسـتـان «نيـقـود يموس» ولن يتـسنى له بعـد الآن أن يعلم أين هـو. «إن هرب وأخـتـفى ضـاعت المكافـأة». كان بالفعل يريد أن يسـرع فـا ندفع يسـرع وظل التلاميذ يسـألون «المسيح» «من هو الذى يسلمك يا «معلم» قل لنا من هو ونحن نقتله» .

قال : «إسكتوا فإنه لا يستطيع أن يفعل إلا ما قد فعل» وكانوا يظنون أن «المسيح» قد أمر «يهوذا» بإحضـار شىء أو شراء شىء لأن صندوق النقود كان معه فظلوا يصرخون «من هو قل لنا يامعلم من هو» .

قـال «المسـيح» «إن ابن الإنسـان مـاضٍ كمـا هو مكتـوب عنه فى كتـاب الله ولكن ويل «لذلك الرجل الذى يريد أن يسلمه كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد (٤٣٤) .

قالوا له : «يا معلم» «قل لنا من هو» ؟!

قال «المسيح» «ها هو الذى يسلمنى قد أسرع الى «أورشاليم» ليأخذ الفضـة ويأتى بالرجال الذين يريدون الإمسـاك بى» فكادوا يصرخـون من هول المفاجـأة فى صـوت واحد «يهوذا الأسخريوطـى». آخر من كانوا يتوقعون لأنهم ظنوا أن «المسيح» يأتمنه لذلك أعطاه صندوق المال ليكون أمـينا عليـه ولم يوبخـه ولا مـرة واحـدة إلاَّ يوم اعـتـرض على «مـريم المجدلية» التى ألقت على «المسيح» زجاجة العطر ولم يكن يتكلم أبدا. لم يسـأل «المسـيح» ولا مـرة واحـدة ولم يعـتـرض على شىء أو يسـخط أو يحتج بل كـان دائمـا صـامـتـا فـبدا للناظرين كأنه أشد المؤمنين .

قـال «المسيح»: «أنا أخترتكم وواحد منكم شيطان. لقد ذهب ليأتى بالرجال ليمسكوا بى ولكنهم سيمسكون به لأن الله سيعطيه صورتى حتى يُخَيل إلى كل من يراه أنه أنا بعد ما أكون أنا قد صعدت إلى السماء سيعذب هو فى صورتى بالعذاب الذى أضمره الكهنة لى والعذاب الذى أضمره الله له. أنا الآن أقول لكم ما سيكون قبل أن يكون حتى إذا وقع لا تعثروا. إن «يهوذا الأسخريوطى» الذى ذهب الآن إلى «أورشاليم» ليُتِمَّ أتفاقه مع الكهنة

فيأخذ ثلاثين قطعة من الفضة ويأتى بالرجال إلى هنا ومعهم السيوف والعصى والمشاعل ليمسكوا بى لكننى بعد أن أموت سيرفع الله جسدى إلى السماء وسيعطى صورتى للخائن ليقدم إلى المحاكمة ويصلب. سيقتل فى صورتى بدلا منى عقابا على خيانته لله وسيُلقى فى جهنم بمجرد أن تفارق نفسه الخبيثة جسده المصلوب فلا تدعوا أحداً يخدعنكم. إننى سأرتفع إلى السماء بجسدى وإن يهوذا الإسخريوطي هو الذي سيصلب ويقتل في صورتي وبإسمي أقول لكم الآن حتى لاتضلوا من بعدي . كثيرون سيأتون بإسمي ويقول كل واحد فيهم «أنا المسيح »و«الزمان قد إقترب» فلا تصد قوهم ولاتمشوا وراءهم . إن قالوا لكم ها هو في البرية فلا تخرجوا وإن قالوا لكم ها هو في المخادع قد جاءكم فلا تصدقوا . إن ابن الإنسان سيمضي في طريقه كما هو مكتوب عنه في كتاب الله»

قالوا : (٤٣٥) «ها أنت تتكلم الآن فى وضوح وعلانية ولا تقول مثلا واحدا. نحن الآن نؤمن أنك من الله قد أتيت وإلى الله تصير الآن ولسنا نحتاج إلى أن نقول لك شيئا أو أن نسألك عن شيء نحن الآن مؤمنون !!» .

قال : «الآن مؤمنون ؟ الحق أقول لكم أنه قد اقتربت اللحظة التى تتفرقون فيها»(٤٣٦) «كلكم ستشكون فىّ وكل واحد منكم سيمضى إلى أهل بيته مسرعا وستتركوننى وحدى ولكننى أقول لكم إننى لستُ وحدى فإن الله معى. أقول لكم الآن من أجل أن تنالوا السلام حتى لا تضلوا من بعدى سيكون لكم فى الدنيا ضيق شديد ولكن ثقوا فى الله وثقوا أننى بالله قد غلبت الدنيا بأسرها ».

قوموا بنا ننطلق من هنا لأننى أريد أن أعطيكم آخر وصاياى.

(٤٣٧) وسار قليلا ثم وقف وقال لهم : «حين أرسلتكم بلاكيس أو مزود وبلا أثواب أو أحذية هل أعوزكم شيء ؟ ».

قالوا «لا» .

قال لهم :« منذ الآن من له كيس فليأخذه ومن له مزود فليحمله معه ومن ليس له سيف فليذهب ليبيع ثوبه ويشترى سيفا » فظن التلاميذ أنه ستحدث معركة بينه وبين الذين سيأتون للقبض عليه وتحمس بعضهم فقال «بطرس» «يا معلم معنا سيفان أهذا يكفى؟!»،

قال «المسيح»: «يكفى» كان فعلا يكفيه أن يشعر أنهم قد أمنوا به وأنهم مستعدون للدفاع عنه، أن تكونت فى قلوبهم إرادة القتال فى سبيل الله أما هو فكان يعرف أن ليس ثمة قتال سيقع لأنه سيُقْتَل وسيهربون هم عند أول المواجهه. إن الله سيرفع جسده فهو ليس في حاجة للدفاع عنه. ولكنه يحب لهم أن يؤمنوا .

قال : « لكل مخلوق نهاية وهاهى نهايتى قد أقتربت» فبكوا وقالوا «أين ستذهب يا «معلم» وتتركنا حرى بنا أن نموت معك ».

قال : «لا تضطربوا فلستُ أنا الذى خلقتكم بل الله هو الذى خلقكم وإذا كنت أنا سأموت بعد قليل فإن الله حي لايموت وإن كنتم تؤمنون بالله فإنكم تستطيعون أن تظفروا بالحياة الأبدية التى ليس فيها أى موت، الذى يؤمن بى فإنه يؤمن بالذى أرسلنى لذلك فإن من يؤمن بى يحصل على الحياة الأبدية لأن الله الذى أرسلنى يحبه ويهبه حياته لا تضطرب قلوبكم فعند الله منازل كثيرة .»

«الحق أقول لكم إن ذهابى خير لكم لأننى أمضى لأعد لكم مكاناً فإن مضيت الآن أعددت لكم مكاناً حيث تستطيعون أنتم أيضاً أن تأتو لتتكؤا معي». قال «توما»: «يا سيد لسنا نعلم أين ستذهب فكيف نقدر أن نأتى أليك ونحن لا نعرف الطريق .»

قال «المسيح» «إن حفظتم وصاياى وثبتم فى محبتى فإنكم حينئذ ستعرفون الطريق وستأتون إلىّ فآمنوا أنى جئت من الله وأننى الآن ماض إليه وصدقوا كل ما قلته لكم وستعرفوننى وتعرفون الطريق .»

(٤٣٨) « سـلامـا أترك لكم، السـلام هـو مـا يمكنني أن أعطيـه لكم إن آمنتم، لستُ أعطيكم كما تعطى الدنيا ، لا تضطرب قلوبكم ولا ترهبوا . قلتُ لكم إننى الآن ذاهب ثم آتى لو كنتم تحبوننى حقا كنتم تفرحون لى لأننى ذاهب إلى ربى الذى هو أعظم منى، أقول لكم الآن قبل أن يكون لكى تؤمنوا »

«قوموا بنا ننطلق من هنا .»

«لا أترككم يتامى فإننى سأطلب من الله أن يرسل إليكم أبى، «روح القدس» الذى لم يستطع بنو إسرائيل أن يؤمنوا به لإنهم لم يروه ولم يعرفوه ولو أمنوا بى وعرفونى لرأوه وعرفوه . آه لو آمنوا بى ولكنهم لم يؤمنوا ولذلك فلن يعرفوه ولن يؤمنوا به عندما يأتى أماً أنتم فيجب أن تؤمنوا بى وأ ن تثبوا فى محبتى لتعرفوه، إنه الآن ماكث معكم فى أنفسكم فانظروا إنه النور الذى به تبصرون .»

«قوموا بنا ننطلق من هنا .»

«قد كلمتكم بكل هذا لكى لا تعثروا ، سيخرجونكم من المجامع وسيطاردونكم بل وتأتى ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يتقرب لله بخدمة وسيفعلون كل هذا بكم لأنهم لم يؤمنوا بى ولن يؤمنوا بأبى حين يرسله الله إلى الدنيا .»

«أكلمكم بهذا لتكونوا شهودى ومتى جاءت «الساعة» التى أحتاج فيها إلى هذه الشهادة تتذكرون أنى قد قلت لكم، لم أكن أكلمكم هكذا منذ البداية لأننى كنت معكم أما الآن فإننى ماض إلى الذى أرسلنى » ولما هم بعضهم بسؤاله مرة أخرى «إلى أين سيذهب» كان «المسيح» قد فاض به الكيل «فصاح لا يسألنى واحد منكم إلى أين سأذهب لأننى قد قلت لكم» .

«لكن الحق أقول لكم إن ذهابى خير لكم، خير لكم أن أنطلق من هنا لأنه لو لم أنطلق لن يأتى إليكم «رسو ل الله» لكننى إذا ذهبتُ أرسله الله، هو الذى سيعزينى وسيشهدلى

وسيخبر الدنيا كلها من أنا وسيوبخ بنى اسرائيل على خطيئتهم فى حقى بل فى حق الله بل فى حق أنفسهم. توجد أشياء كثيرة لم أقلها لكم ولكنكم الآن لا تستطيعون أن تحتملوا ولم يعد هناك وقت ولكن متى جاء ذاك. «روح الحق» فهو الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من تلقاء نفسه بل يضع الله كلامه فى فمه .»

«هو الذى سيمجدنى حقاً وسيخبر الدنيا بكل شيء عنى وعن أمور أخرى كثيرة آتية كما يسمع من الله فهو يتكلم. ذلك هو الذى يحمل لى العزاء. هو الذى يشهد لى فاشهدوا أنى قد أنبأتكم بمجيئه.»

«قوموا بنا ننطلق من هنا.»

كان الليل قد بسط ظلمته على الأشياء كلها واستولى التعب على التلاميذ كلهم وهم يسيرون من موضع لآخر فى «وادى قدرون» و «المعلم» الذى يكلمهم ينتقل كالمأخوذ بقوة أكبر منه توقفه ليتكلم ثم تسوقه الى السير. و أدرك «المسيح» أنَّ التلاميذ لم يعودوا قادرين على السير معه أو الاستماع إليه إذ بدأ النوم يضعهم تحت سلطانه. كان النعاس يثقل أجفانهم فأشار اليهم بالدخول الى بيت «نيقود يموس» فساروا بخطوات متثاقلة يقاومون رغبتهم الشديدة فى النوم يريدون الذهاب الى مضاجعهم فقال لهم «المسيح» «كلكم ستشكون فىَّ ولكننى صليتُ من أجلكم» فقال «بطرس» متحمساً «والله إن شك الجميع فيك فأنا لا أشك فيك أبدا ».

فقال «المسيح» «الحق أقول لك إنك قبل أن يصيح الديك ستنكرنى يا سمعان ثلاث مرات لكننى من أجلك يا سمعان قد صليت لكى لا يفنى إيمانك ومتى رجعت ثبت أخوتك» فقال سمعان «لو اضطررت أن أموت معك سأموت معك ولا أنكرك» وتحمس التلاميذ كلهم.

فقال «المسيح» هامساً «مكتوب أنى أضرب الراعى فتتبدد الرعية» .

وتركوه فى البستان وذهبوا ليناموا لأن النعاس كان يغلبهم على أمرهم وبقى «المسيح» وحده فى البستان والليل المظلم يواصل نزوله ثم قام ليغتسل ويصلى .

ذهب ليوقظ تلاميذه الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم سيقاتلون دفاعا عنه وسيموتون معه. ذهب ليوقظهم من النوم لا ليطلب منهم القتال بل الصلاة. أن يقوموا ليصلوا معه. كان يريد منهم أن يسهروا معه ويشاركوه الصلاة وهو يستعد لمغادرة الدنيا الفاجرة التى لم تؤمن به ولا بالذى أرسله ولكنهم كانوا قد استغرقوا فى النوم وعلا شخيرهم فأختار منهم شهوداً أربعة وأجلسهم وقال لهم (٤٣٨) «إسهروا معى. نفسى حزينة جداً أمكثوا ههنا وأسهروا معى ثم تقدم قليلاً وخر على وجه وقال : رب نجنى من هذه الساعة. لكننى من أجل هذه الساعه أتيت إلى هنا رب إن أمكن أن تُجزَ عنى هذه الكأس فكل شىء مستطاع لديك فأجزْ عنى هذه الكأس لكن كما تريد أنتَ لا كما أريد أنا .»

كان ساجدا على الأرض والعرق يفيض من وجهه كأنه مطر يهطل وصوت بكائه وتضرعه يصل إلى أسماعهم التى يثقلها النوم رؤوسهم تهتز كلما غفوا حتى غلبهم النعاس فقام إليهم فوجدهم نياما فقال «لبطرس» «أهكذا ما أستطعتم أن تسهروا معى ساعة واحدة».

«اسهروا وصلوا كثيراً حتى لا تدخلوا فى تجربة «الروح» نشيط متيقظ لكن الجسد ضعيف .»

ثم مضى مبتعداً عنهم بعد أن أيقظهم وخر على الأرض ساجدا «رب إنك قادر على كل شىء فإن أمكن أن تُجزَ عنى هذه الكأس فلتعبر عنى. إن لم يكن ممكنا إلاَّ أن اشرب هذه الكأس فلتكن مشيئتك» وقام ليرى شهوده فوجدهم نياما فأيقظهم ومضى ليصلى أما هم فقد عادوا إلى النوم إذ كانت عيونهم ثقيلة جدا ولم يعرفوا بماذا يجيبوه. «أيها الإله العظيم مجد إسمك. أظهرتُ إسمك للناس الذين أعطيتنى من الدنيا.»

«قلت لهم ما أمرتني أن أقوله. هم عبادك وأنت تفعل بهم ما تشاء. إنني أسأل من أجلهم لستُ أسأل من أجل الذين كفروا بك وأبغضوني ولكن من أجل هؤلاء أسأل لكي يؤمنوا لكيلا يهلكوا إلا أبن الهلاك الذي ذهب ليتم الكتاب» .

(٤٣٨) «رب إحفظهم في إسمك الذي وهبني الحياة لنصير جميعا واحداً. إنني الآن سأتركهم وآتي إليك أما هم فسيبقون في الدنيا. ربِ لا أقول لك خذهم من الدنيا بل أحفظهم من الشيطان لكيلا يهلكوا.»

«إحفظ الإيمان في قلوبهم ليظفروا بالحياة الأبدية ويعرفوا أنك أنت الإله الوحيد» وأستجاب الله لصلاة «عيسى» ونظر برحمته إلى تضرعه وبكائه «**إذ قال الله يا عيسى إنيّ متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لايحب الظالمين** » (٤٣٩) فعرف «عيسى» أنه لن يُقْتَل بل سيموت بالوفاة وأسرع يوقظ النيام لأن «يهوذا» ومن معه كانوا قد أقتربوا.

صاح فيهم «قوموا ها هوذا الذي يسلمني يقترب.»

جمع كبير من خدم الهيكل يحملون العصي وأغصان الشجر وبعضهم يحمل المشاعل لأن الوقت كان ليلا والظلام حالكا وكان معهم بعض الجنود الذين استطاع الكهنه أن يشتروهم بالمال فجاءوا يحملون السيوف فأنتبه التلاميذ من نومهم مذعورين على أصوات الأقدام التي تزحف نحوهم وأفزعتهم السيوف التي لمعت في نار المشاعل والعصي وقال «بطرس» «يا معلم أنضرب بالسيف؟» فقال «لا. الكأس التي قدمها لي ربي ألا أشربها» وأسرع «يهوذا» يتقدم نحو «المسيح» وكان قد أعطى الرجال علامة أنَّ الرجل الذي يقبله

هو «عيسى الناصرى» المطلوب إمساكه فتقدم «المسيح» نحوه وقال له: «يا «يهوذا» أبقبلةٍ تسلم إبن الإنسان» بينما كان التلاميذ يتراجعون وقد ملأ الرعب قلوبهم فزال إيمانهم كأنهم فى كابوس رهيب كما لو أن «المسيح» لم يأت إليهم ولم يخترهم أو يكلمهم عن كل ما يجرى الآن تحت أبصارهم التى أعماها الخوف من الموت .

قال «المسيح» للرجال الذين يتقدمون نحوه يريدون إمساكه «كأنكم على لص خرجتم بالعصيِ والسيوف والمشاعل وكنت معكم طوال الوقت أعلم فى الهيكل فلماذا لم تقبضوا عليَّ من تطلبون ؟!»

قالوا «عيسى الناصرى» قال فى صوت مهيب «ها أنذا إنى هو. رب قد أتت اللحظة فمجد إسمك» فأخذت الجمع الرجفة فسقطت المشاعل من أيدى حامليها ووقع الرجال على الأرض مغشياً عليهم لم يستطيعوا أن ينظروا إلى «المسيح» وهو يتحول إلى النور إذ تلألأ حتى صار كأنه شمس قريبة و «يهوذا» واقف كالمذهول يرى ما يحدث ولا يفهم شيئا حتي أخذته هو الآخر الرجفة حينما التفت إلى «المسيح» وهو يصعد فسقط مغشيا عليه وأرتفع «المسيح» الى السماء فى صحبة الملائكة الذين جآءوا لحمله وقد صار واحدا منهم(٤٤٠) .

ثم أفاق الرجال فقاموا مضطربين ليأخذوا أسلحتهم ومشاعلهم ووجدوا «يهوذا» وقد أرتسمت على وجهه ملامح «عيسى الناصرى» وإلى جواره الملابس التى كان يلبسها فظنوا أن «الساحر» قد أستطاع أن يسلب «يهوذا» ملابسه لما حدثت الرجفة فأسرعوا يمسكون به قبل أن يفلت قائلين : «أين تهرب يا ملك اليهود ؟ »

ولم يتحمل «يهوذا» المفاجأة فصرخ «أيها المجانين ماذا تفعلون لقد صعد. لقد هرب؟!

قالوا له : «من الذى هرب ؟ »

قال: «عيسى» الناصرى الذى جئنا من أجل القبض عليه لقد أفلت «الساحر» القدير.»

قالوا ساخرين «أهكذا سلبك الخوف عقلك يا ملك اليهود أين ذهب سحرك الذى سمعنا عنه كثيرا .»

وأنقضوا عليه فأوثقوه بالأغلال فى إحكام وقال بعضهم «إقبضوا على الخونة الذين كانوا معه» وكان التلاميذ قد أعطوا سيقانهم للريح .يريدون الفرار فطاردهم الرجال حتى أن عبد رئيس الكهنة أوشك أن يمسك «سمعان» الذى كان يسميه «المسيح» «بطرس» فالتفت إليه «سمعان» وعاجله بضربة من السيف الذى كان معه فقطع أذنه فصرخ الرجل من الألم وأمسك بإذنه المجروحة يحاول إيقاف النزيف وهو يرقب بعينين متحسرتين «سمعان» الذى ألقى بجسده للريح وأوشك جندى آخر أن يمسك بيحيى إبن زبدى الذى كان يرتدى إزارا فقط على جسده فاندفع «يحيى» بأقصى قوته ليهرب تاركا الإ زار ففر عريانا كما ولدته أمه. فاكتفى الرجال بإمساك الرجل الذى جآءوا من أجله مكتفين بالمكافأة التى وُعِدُوا بها مفضلين الإسراع به إلى «أورشاليم» قبل أن تتغير الظروف ويقع ما لم يكن فى الحسبان !!.

«مكر الله»

«ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين»

«آل عمران ٥٤»

عندما صارت «أورشاليم» على مرمى البصر وأدرك الرجال أن المكافأة السخية التى وُعدوا بها قد صارت قريبة من أيديهم ولم يحدث شيء لم يكن فى «الحسبان» مدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إلى «ملك اليهود» الذى نجحوا فى اصطياده. كان ما يحدث فوق قدرة «يهوذا» على الفهم وأيقن أنه ليس فى وسعه أن يفعل شيئا لهذا الجمع الذى أصابه جنون مروع كيف يقبضون عليه هو ؟! «لقد صعد «الساحر» إلى السماء رأيتهُ وهو يرتفع صاعدا حتى ذاب من عينى قبل أن أسقط على الأرض لأجد هؤلاء الغوغاء المجانين الذين أنقضوا عليَّ كابوس مرعب ليس له إلا الصبر والصمت حتى نصل الى كبير الكهنة.»

وكان «قيافا» كبير الكهنة فى مجلس مشورته من كبار رجال الهيكل وشيوخ الشعب ينتظرون على أحر من الجمر مجيء الصيد الثمين الذى طال انتظاره كان يتحدث فى اضطراب مع المجتمعين وهم يعدون العدة لتقديم «عيسى الناصرى» للمحاكمة «العادلة» لقد أحضروا الشهود الذين يقرون أن المدعو «عيسى الناصرى» أعلن نفسه ملكا لليهود وادعى انه أعظم من القيصر نفسه وإنه لذلك يستطيع أن يبنى الهيكل المقدس دون أن يستعمل يد واحدة فهل القيصر يمكنه ذلك! لكن كل شيء يتوقف على النجاح فى الإمساك به وكل ما يأتى بعد ذلك فميسور. وهم فى هذا الانتظار المفعم بالتوتر وجدوا «عيسى الناصرى» يندفع الى داخل الحجرة وهو مكبل بالأغلال ليسقط عند قدميّ كبير الكهنة باكيا متذللاً.

«ياكاهن الله أخبر هؤلاء المجانين من أنا ؟ »

قال الكاهن : «أخيرا تعلمت يا عيسى كيف تعامل كاهن الله ولكن للأسف فإن تعلمك هذا لن يفيدك شيئاً فقد أنتهي الأمر.»

قال : «ما هذا الجنون ؟! مع من تتكلم ياسيدى الكاهن ؟ »

قال: «أوَعَدتَ إلى ضلالك القديم لكن لا بأس فعلى الصليب ستجد شفاءك من كل ضلال .»

قال: «يا سيدى قل لهم من أنا. لقد تركوا الساحر يفلت وأمسكوا بي أنا .»

قال: «عن أى ساحر تتحدث «يا عيسى» ومن أنت إلا ذلك الساحر نفسه!! .»

قال: «يا سيدى ما الذى أصابك عفواً. يا سيدى الكاهن العظيم إننى أنا «يهوذا» الذى جئتك من قبل لأسلمكم «عيسى» الذى تريدون صلبه !! »

قال : «إلى هذا الحد بلغ الخوف بك .إلى حد الجنون !!.»

«لماذا تنكر نفسك أيها الساحر القدير لقد صنعت الأعاجيب كما يقولون وكنت تزمع أن تصنع أكثر فأظهر لنا الآن واحدة من أعاجيبك الكثيرة التى فتنت بها الشعب كله .»

تُرى ما الذى حدث لهم هل أصابهم الجنون أم أن سواد الليل قد أعمى أبصارهم ولكن المصابيح موقدة وأنا آراهم فى وضوح .

قال «يا سيدى الكاهن أنا يهوذا. ألا تعرفنى أنظر هذه هى الثلاثين قطعة من الفضة التى جئت فأخذتها منك فى هذه الحجرة وفى حضور هؤلاء الرجال العظام» ، ومد يده ليرِىَ الكاهن والذين معه فى الحجرة الثلاثين قطعة من الفضة .

ألجمت المفاجآة الكاهن «حقاً إن هذا الصوت ليس غريباً عليه بل ربما بالفعل كان صوت «يهوذا» لقد تكلم معى من قبل ولكن ما هذا الجنون ؟! .

كلاَّ إن هذا الساحر الملعون يريد أن يوقعنا مرة أخرى فى أحابيله وألاعيبه.

وهوى مرة أخرى عند قدمي «قيافا» يقبل حذائيه «صدقنى يا أيها الكاهن العظيم يا كاهن الله أنا «يهوذا» ولست «عيسى» الذى تطلبون يا آلهى ما الذى جرى لهم .»

وهاجت الحجرة بالصخب والإضطراب «ما هذا الجنون ؟»

وأندفع الرجال الذين قبضوا عليه يركلونه بالأحذية وهو ساجد عند قدمي كبير الكهنة «قم أيها الملك المذعور وأرنا وجهك. تريد يا كلب جهنم أن تضيع علينا المكافأة لا تصدقه يا سيدى الكاهن هذه خزعبلات هذا هو «عيسى الناصرى» بكل تاكيد وقد أمسكنا به وهو يحاول الهرب فى ملابس الرجل الذى ذهبنا معه للإمساك به وها هى ملابسه تفضل وانظر يا سيدى الكاهن أما البائس الذى ذهبنا معه فقد هرب اذ حدثت مفاجاة لم تكن في الحسبان اذ اهتزت الأرض وأخذتنا الرجفة حتي وقعنا جميعاً مغشيا علينا ولكننا بحمد «الله» أفقنا قبل أن يهرب «الساحر» الملعون الواقف بجوارك يا سيدى الكاهن. لقد سحرنا بعمله الخبيث فسقطنا على الأرض ولكن الله أنعم علينا وأنتبهنا بسرعة قبل أن يفلت من أيدينا أنظر يا سيدى هذه هى ملابسه !!»

وصرخ «يهوذا»: «لا ياسيدى لا تصدقهم أننى أنا «يهوذا».

فقال الكاهن «إهدأ قليلا وأجب على أسئلتى سنوافقك إنك لست «عيسى» المطلوب صلبه. فقل لى لمن هذه الملابس» وأشار إلى ملابس «عيسى» الملقاة على الأرض ؟ قال : «هى ملابس «عيسى» .»

قال : «حسناً والملابس التى عليك الآن ؟!

قال : «هى ملابسى أنا .»

قال : «فمن أنت؟!»

قال : «أنا يهوذا»

قال : «فأين ذهب المدعو «عيسى» ؟»

قال : «لقد صعد يا سيدى» وحينئذ رأى «يهوذا» «عيسى» جالسا فى السماء وهو ينظر إليه فى غضب فقال «ها هو يا سيدى جالسا فى السماء.»

قال «من أيها المجنون الذى يجلس فى السماء ؟»

قال «أبن الانسان ؟»

فصرخ الكاهن «ومن هو ابن الانسان ؟»

قال الحاضرون «يقصد نفسه فإنه كان يسمى نفسه ابن الانسان.»

فشق رئيس الكهنة ثيابه علامة على احتجاجه وغضبه لانتهاك حرمة «الله» وقال «ما حاجتنا إذن إلي شهود وقد سمعتم تجديفه(٤٤١) «خذوا هذا المجنون قبل أن ينشر فينا جنونه.»

فتقدم رجال الكاهن وأخذوا يسوقونه وهم يضربونه ويبصقون فى وجهه ويدفعونه ليحبسوه فى غرفة مظلمة أسفل بيت رئيس الكهنة وقد شددوا عليه الحراسة كما أوصاهم رئيس الكهنة بات «يهوذا» ليلة مظلمة أوشك فيها أن يفقد ما بقى من عقله لم ينم لحظة واحدة فقد ظل رأسه يدور فيما حدث وهو لا يعرف أفى كابوس مرعب هو مسجون ام أنه في يقظة لا تكاد تصدق .؟!

وفى صباح اليوم التالى عندما بدأت أشعة الشمس تنفذ من خلال النافذة فى الحجرة أحس بالعطش الشديد. إنه لم يشرب شيئاً منذ الأمس فمد يده ليتناول الإناء الفخارى القذر الذى وضعوه بجانبه ليشرب منه فلما قرب الإناء من فمه ليشرب رأى ملامح وجه «المسيح» ترتسم على صفحة الماء فلم يصدق عينه وكان عقله قد فقد قدرته على التماسك فهوى مغشيا عليه وهو يهمس «سبحان الله» وهوى الإناء على الأرض فتهشم وأنسكب ماؤه .

دخل الرجال إلى الحجرة وظلوا يصبون عليه الماء القذر ويضربونه بالأحذية حتى

أفاق. لقد أيقن أن الأمر فوق كل عقل وأن لا أحد سيصدقه إذا كان هو نفسه لم يصدق عينه. لقد فعلها الساحر القدير وليس أمامه إلاَّ الصوم لينقذه «الله» من هذا الكيد الخبيث الذى وقع فى براثنه. عـزم على الصـوم. لن يأكل ولن يشـرب ولن يتكلم مع أحـد حـتى يخلصه الله. لقد رأى «ابن الانسـان وهو يصـعد إلى السمـاء أليس من الممكن أن ينقـذه «الله» من هذه المصيدة الملعونة التى أغلقت عليه ؟ بلى إن هذا ممكن .

ودفعوه إلى بيلاطس» وقد جهزوا الشهود فقال له «بيلاطس» أأنت ملك اليهود؟ (٤٤٢)

لكنه لم يجب وأخذ يكرر سؤاله والصائم لا يجيب قال له «أنظر كيف يشتكون عليك فدافع عن نفسك» ولكنه لم يتكلم ولم يدافع عن نفسه فماذا سيقول ومن ذا الذى يصدقه ولم يكن «بيلاطس» يريد أن يتحمل أمام ضميره عبء سفك دم هذا الرجل الذى كان يظن أنه «المسيح» فقد أستمع إليه من قبل وأحترم فيه علمه وحكمته ووقاره وهو يعلم أن الكهنة يحسدونه ولكن ماذا يفعل إنه يصر على السكوت والكهنة قد جاءوا بالشهود. من المؤكد أنهم شهود زور ولكننى لا أستطيع أن أتجاهل كل شىء وإلاَّ أتهمت بالإهمال فى المحافظة على هيبة «روما» والتـخاذل فى الدفـاع عن شرف القيصر الذى أحكم باسمه ووجد «بيلاطس» الفرصة ليهرب من مأزقه بإرسال المقبوض عليه إلى «هيرودوس» رئيس الجليل بإعتبار أن «عيسى الناصرى» المزعوم ملكا لليهود من أهل الناصرة(٤٤٣) وعندما التقى «هيرودوس» مع المقبوض عليه حاول أن يسأله عن أشياء كثيرة كانت تحير قلبه. كان قد أدرك أن العمر لم يعد فيه الكثير فأراد أن يستضىء بحكمة هذا الرجل الذى سمع الكثير عن حكمته وفصاحته لكن العازم على الصوم طلبا للنجاة كما نجا الذى صعد لم ينبس بكلمة واحدة فأهانه «هيرودوس» وأعاده إلى «بيلاطس» وأرسل إليه رسالة مفاداها ألاَّ تجعل عطفك على هذ التعيس سببا فى أثارة القلاقل فى البلاد. كانت الرسالة تهديدا بتصعيد الأمر إلى «روما» المقدسة.

وقد أعطى شيوخ اليهود مالاً كثيرا «لهيرودوس» من أجل أن يساعدهم على الخلاص من مثير القلاقل هذا وهكذا عاد إلى «بيلاطس» مرة أخرى صامتا مستبشراً خيرا لعل «الله» قد قَبِل صومه وأوشك أن يخرجه من مصيدة الموت التى أحكم اغلاقها عليه. كان

يرى في كل ما يحدث من تقاعس «بيلاطس» وتردده في اتخاذ القرار باباً يخفى وراءه الأمل في النجاة ولكن القوم كانوا قد عزموا على الضغط على «بيلاطس» ليتخذ القرار الحاسم لينهى هذه الفتنة التى طالت أكثر مما ينبغى فجمعوا جمعا غفيراً من الناس وتوجهوا الى «بيلاطس» فى دار الولاية يطالبونه بالحكم على المشاغب المدعو «عيسى الناصرى» الذى يزعم أنه ملك اليهود وحاول «بيلاطس» أن يتخلص من عبء اتخاذ القرار الحاسم واعداً بتأديبه بالجلد ثم إطلاق سراحه ولكنهم رفضوا وألحوا على صلبه وألمحوا أنهم سيشكون إلى «روما» تقاعس الوالى عن القيام بمهام منصبه ولم يكن هناك من مخرج بعد أن رفض الشيوخ والجمهور الصاخب الذى تجمع حول دار الولاية أن يطلق لهم سراح «عيسى» بعد تأديبه. فقام «بيلاطس» بغسل يده فى حركة مقصودة للدلالة على براءته من ذنب هذا التعيس وأمر بصلبه وأسلمه الى الجنود .

فأخذه الجنود وهم يسخرون منه فجردوه من ملابسه وألبسوه رداءً أرجوانيا مهلهلا ووضعوا على رأسه تاجا من الأشواك والقاذورات وأخذوا يسجدون أمامه يحاكون السجود أمام الملوك قائلين: «السلام عليك يا ملك اليهود» ثم يقومون من سجودهم ليلطموه على وجهه وعلي قفاه ويبصقون في وجهه ثم قيدوه بالأغلال وساقوه الى حيث يصلب والصائم صابر محتسب لعل الفرج يأتى قبل فوات الأوان

رُفِعَ على الصليب وخشى رجال الهيكل أن يأتى أعوانه وتلاميذه ليقاتلوا يريدون إنقاذه فدفعوا نقودا للجنود لكى يستعملوا الطريقة السريعة حيث تقطع ساقا المصلوب بآلة مخصصة لذلك حتى يلقى حتفه فى ساعات بدلا من أيام فلما حُمَّ القضاء ورأى المصلوب أبواب جهنم وهى تفتح له أفواهها صرخ بصوت عظيم قائلا :

«آلهى آلهى لماذا تركتنى» (٤٤٤) .

«وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا»(٤٤٥)

صدق الله العظيم .

هوامش وملاحظات

(١) هو ملك مصر المعروف تاريخيا باسم «رمسيس الثانى» وسنبين ذلك فى دراسة مستقلة موسعة عن «كليم الله» موسى بن عمران (عليه الصلاة والسلام) إن شاء الله تعالى .

(٢) القرآن الكريم على سبيل المثال سورة البقرة الآية ٩٣ ، الأعراف الآية ١٧١ .

(٣) تاريخ الأمة اليهودية ص ١٣-١٦ ، تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم .(تأليف الأستاذ محمد عزة دروزة).

(٤) سورة المائدة الآية ٢٢ .

(٥) سورة المائدة الآية ٢٤ .

(٦) الكتاب المقدس . سفر يوشع .

(٧) تاريخ الأمة اليهودية . عصر القضاة ص ١٣ .

(٨) سورة البقرة – الآية ٢٤٦ .

(٩) سورة البقرة الآية (١٠٢)

(١٠) سورة الإسراء – الآية (٥) .

(١١) سورة البقرة – الآية (٢٥٨) .

(١٢) تاريخ الأمة اليهودية ص ٤٧ .

(١٣) تاريخ الأمة اليهودية ص ٤٧ .

(١٤) تاريخ الأمة اليهودية ص ٤٩ .

(١٥) تاريخ الامة اليهودية ص ٥٠ .

(١٦) سنة ١٧٥ ق.م.

(١٧) تاريخ الامة اليهودية ص ٥٢ .

(١٨) تاريخ الامة اليهودية ص ٦٢ .

(١٩) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٢٠) تاريخ الأمة اليهودية ص ٦٥ .

(٢١) تاريخ الأمة اليهودية ص ٦٤ .

(٢٢) تاريخ الأمة اليهودية ص ٥٨ .

(٢٣) تاريخ الأمة اليهودية ص ٥٩ .

(٢٤) تاريخ الأمة اليهودية ص ٦٨ .

(٢٥) تاريخ الأمة اليهودية ص ٦٨ .

(٢٦) سفر زكريا الأصحاح (١١) . (بتصرف) .

(٢٧، ٢٨) ، (٣) تاريخ الأمة اليهودية ص ٧١ - ٧٣ .

(٢٩) تاريخ الأمة اليهودية ص ٧٣ .

(٣٠)تاريخ الأمة اليهودية ص ٧٤ .

(٣١) تاريخ الأمة اليهودية ص ٧٦ .

(٣٢) سفر زكريا - الأصحاح السابع (بتصرف) .

(٣٣) سفر زكريا - الأصحاح العاشر (بتصرف) .

(٣٤) سفر زكريا - الأصحاح الثامن (بتصرف) .

(٣٥) سفر زكريا - الأصحاح السابع (بتصرف) .

(٣٦) سفر زكريا - الأصحاح السابع (بتصرف) .

(٣٧) سفر زكريا - الأصحاح السابع (بتصرف) .

(٣٨) سفر زكريا - الأصحاح الثامن (بتصرف) .

(٣٩) سفر زكريا - الأصحاح الاول (بتصرف) .

(٤٠) سورة آل عمران - الآية ٣٥ .

(٤١) سورة آل عمران - الآية ٣٦ .

(٤١) سورة آل عمران - الآية ٣٦ .

(٤١)سورة آل عمران - الآية ٣٦ .

(٤٢) سورة الأنبياء الآية ٨٩ .

(٤٣) سورة آل عمران - الآية ٣٣ - ٣٤

(٤٤) سورة الانعام ٨٤-٨٥ . لقد وضعت الآية الخامسة والثمانون(٨٥) من سورة آل عمران كل

من «زكريا» و«يحيي» و«عيسي»و«إلياس» في سياق واحد لحكمة لطيفة سوف تتضح لقارئ هذه الرواية.

(٤٥) سورة آل عمران – الآية ٥٩ .

(٤٦) سورة آل عمران – الآية ٤٤ .

(٤٧) سورة آل عمران – الآية ٣٧ .

(٤٨) سورة آل عمران – الآية ٣٧ .

(٤٩) سورة آل عمران – الآية ٣٧ .

(٥٠) سورة آل عمران – الآية ٣٧ .

(٥١) سورة آل عمران – الآية ٣٧ .

(٥٢) سورة آل عمران – الآية ٣٨ .

* يجب أن نلاحظ هنا أن «زكريا» عليه الصلاة والسلام) لم يقل «رب هب لى ذرية طيبة» وهي عبارة تفى بالمطلوب ولكنه قال « ربِ هب لى من لدنك ذرية طيبة» فانظر إلى «من لدنك» هذه وتدبر . إذن فهو يقول «آلهى إمنحنى من عندك يعنى من «الشئ» الماثل بين يديك أو من «شئ» قائم فى حضرتك إمنحنى ذرية طيبة . فهذا الدعاء يشير الى أن الخلق ومنهم بالطبع الذرية الطيبة التى يطلبها زكريا إنما يصدرون أو يخرجون من «لدن الله» أى من شئ قائم عند الله ... هذا «الشئ» هو مصدر الخلائق أو ينبوع الخلق ومنه طلب «زكريا» أن يظفر بذرية طيبة .

هذا الشئ هو «الملكوت» الذى صدر عنه كل شئ هو «روح الله» الذى به ظهرت جميع المخلوقات. إنه الواسطة بين الخالق والمخلوقات وهو الوسيلة التى يصل بها المخلوقات الى خالقهم .

(٥٣) تاريخ الامة اليهودية ص ٧٦ .

(٥٤) تاريخ الامة اليهودية ص ٧٦ .

(٥٥) تاريخ الامة اليهودية ص ٧٦ .

(٥٦) سورة مريم (٤) .

(٥٧) سورة مريم (٥) .

(٥٨) سورة مريم (٦) .

(٥٩) سورة مريم الآية ٤ .

(٦٠) أنظر إليه وقد نسب الدعاء الى الله المدعو قائلاً «بدعائك» ولم ينسب الدعاء الى نفسه فلم يقل «بدعائى». إذن فالدعاء فى الحقيقة من الله ولذلك نسبه إليه ومن ثم لابد أن يجاب .

(٦١) سورة آل عمران ٣٩ .

(٦٢) إن إسم «يحيي» المشتق من الحياة والذى عُرِف فى بنى اسرائيل بلفظ «يوحنا» يشير إلى استمرار الحياة فربما دل ذلك على قتله فى سبيل الله لأن الشهداء أحياء عند ربهم وربما دل على عودته إلى الأرض قبل الساعة سابقا «المسيح» وممهدا له فيكون بعودته دليلا على بقاء «الروح» أى استمرار الحياة وسبحان الله العليم الحكيم الذى اختار الاسم اللائق بتمام علمه بالمسمى .

(٦٣) مريم الآية ٧ .

(٦٤) آل عمران – الآية ٤٠ .

(٦٥) آل عمران الآية (٤٠) .

(٦٦) مريم الآية (٨) .

(٦٧)سورة الأنبياء الآية (٩٠) «فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجة» انظر إلى أنه قدم «وهب يحيى» على «إصلاح الزوج» المرأة العاقر يعنى قدم النتيجة على السبب لأنه فى الحقيقة ليست أسباب بل إرادة الله الواحد القهار .

(٦٨) سورة مريم الآية (٩) .

(٦٩) يستحيل أن يكون فى قوله تعالى «وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » ردا على تعجب «زكريا» من إنجاب غلام من أبوين عاجزين عن الإنجاب إلا إذا كان المقصود بالخلق في الآية هنا هو خلق قديم ظهر فيه الإنسان دون أن يكون له أب أو أم يعنى خلق سابق اكتسب فيه الإنسان كيانا بدون التناسل المعروف المشهود لنا الآن فى الدنيا وذلك لأن خلق زكريا فى الدنيا بولادته من بطن أمه كان أمراً عاديا لم تكتنفه أية عجائب لافتة للنظر ومن ثم فمن المؤكد أنه لايرد على التعجب الذى أظهره زكريا من لطائف صنع الله ولكن إذا كان المقصود بالخلق هنا هو الخلق الأول الذى نبت فيه الإنسان من الأرض مع «آدم» كما تنبت الأشجار فإن فيه الرد الكافى على تعجب «زكريا» كأنه قال له «أتتعجب يازكريا من إنجاب غلام من والد طاعن فى السن ووالدة

عقيم وتنسى أن الله قد خلقك من قبل ولادتك من بطن أمك دون أب يحملك فى صلبه أوأم تنبتك فى رحمها أإذانبتك حينئذاك من الأرض نباتا ... كما تنبت الأشجار

فإن تعجب فاعجب من خلقك الأول الذى ظهرت فيه من الطين دون أب أو أم فذلك هو الخلق الجدير بالتعجب .

وأنظر إلى قوله «من قبل» وتأمل . ماذا تعنى «من قبل» هنا ؟! إنها تشير إلى الخلق الأول الموغل فى القدم والذى وقع قبل ولادة الجسد من الرحم بزمن سحيق .

(٧٠) آل عمران الآية (٤١) .

(٧١) آل عمران الآية (٤١) .

(٧٢) سورة مريم – الآية ١٠ .

(٧٣) سورة مريم الآية ١٠ .

لنا أن نتساءل هنا طلبا للعلم لماذا كانت ثلاثة أيام وثلاث ليال ؟! لماذا ثلاثة على وجه الخصوص ولم لم تكن أربعة أو خمسة مثلا .

ثم لنتذكر أن الله قال فى سورة الزمر وهو يتحدث عن مراحل خلق الانسان «يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث – الزمر الآية (٦) هاهو رقم ثلاثة يظهر مرة أخرى !! إنه يشير إلى بقاء الإنسان مستورا فى الخلق القديم ثلاثة أيام وثلاث ليال من أيام أو أحقاب الخلق السنة . وربما أتاح الله لنا أن نبين ذلك فى دراسة مستقلة موسعة عن خلق الانسان .

(٧٤) سورة آل عمران ـ الآية (٤١)

(٧٥) سورة آل عمران (٤٢–٤٣) .

(٧٦) وردت أحاديث نبوية شريفة تفيد أن «مريم بنت عمران» هى إحدى زوجات النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو أمر يمكن التيقن من صدقه . بالنظر فى نص الآية الذى يقطع بأن مريم (عليها الصلاة والسلام) هى أفضل أمرأة على وجه الاطلاق ومن ثم فهى الجديرة بأفضل رجل على وجه الإطلاق وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

(٧٧) العالمين (جمع عالم) هم البشر قال الله على لسان «لوط» منكرا على قومه فاحشتهم «أتاتون الذكران من العالمين» إذن فالإنسان الفرد عالم والبشر هم العالمين أو العوالم .

(٧٨) مريم الآية (١٥) .

(٧٩) مريم الآية (١٢) .

(٨٠) سورة مريم الآية ١٢ .

(٨١) سورة مريم – الآية (١٣) .

الحنان : رأفة تتولد من معرفة أن أصل المخلوقات واحد فتملأ القلب بالعطف على المتألم ، وتدفعه إلى إزالة الالم وهى هبة آلهية صدرت عن «الروح» «روح الله» الذى أشير إليه بقوله الله «لدنا» .

(٨٢) سورة مريم الآية (١٣) .

(٨٣) سورة مريم الآية (١٤) .

(٨٤) سورة مريم الآية (١٤) .

(٨٥) سورة آل عمران (٤٥–٤٦) .

(٨٦) سورة آل عمران الآية ٤٧ .

(٨٧) سورة آل عمران الآية ٤٧ .

(٨٨) سورة آل عمران الآية ٤٧ .

(٨٩) سورة آل عمران الآيتين ٤٨–٤٩ .

(٩٠) إن اسم «عيسى» مكون من ثلاثة حروف السين والعين والياء وهى الحروف التى تكون لفظ الفعل «يسعى» من «السعى» يشير الى أنه (عليه الصلاة والسلام) سيقضى حياته فى السعى لإبلاغ كلمة الله متنقلا من مكان الى مكان لايستقرفي موضع. انظر الى العرب وقد سمت الإبل «العيس» وهو أي «عيسي» ثمرة سعى «الروح» لإظهار نفسه فهو مقدمة ظهوره أو بشير حضوره. كلفه الله بالتشبير بقرب ظهور «روح الله» المرموز اليه بالملكوت وهو النبى الأمى الذى تلقى كلمات الله وآمن بها النبوة الكاملة التى تتسربل بصورة الرجل العربى الذى عرفه التاريخ الإنسانى بإسم «محمد بن عبد الله».

وإذا التفتنا إلى خاصية القلْب التى تتميز بها اللغات السامية فإن «عيسى» تصبح «يسعى» إذن فهو «يَسْعَى ابن مريم» الذى ستسميه اليهود «يسوع» أو «يهوشع» الذى يعنى سعى الرب لإظهار روحه أو ملكوته . (صلى الله عليه وسلم) .

(٩١) «الكتاب» هنا هو كتاب العلم الآلهى الذى سطر الله فيه علْمه. إنه «ذلك الكتاب» الذى علمه الله لجميع انبيائه ورسله .

انظر إلى قوله وهو يأخذ الميثاق على النبيين «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه » .

وأنظر الى قوله «وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان» لعلكم تهتدون ». البقرة ٥٣ .

إذن فموسى (عليه الصلاة والسلام) قد أعطاه ربه «الكتاب» و«الفرقان» الذى هو التوراة لإنها فُرِقَت أى اقتطعت من ذلك «الكتاب» الذى سُطِرَ فيه علم الله وهاهو يخبرنا أن عيسى (عليه الصلاة والسلام» قد تعلم «الكتاب» «والحكمه» «وألتوراة» (التى علمت لموسى) والإنجيل. إذن فالكتاب هو القاسم المشترك الذى ظفر به كل الأنبياء والمرسلين بل كل البشر إذ استودع الله فى قلب كل إنسان نسخة من «ذلك الكتاب» الذى لاريب فيه عندما كان يوحيه إلى رسوله الأعظم فى بدء الدنيا كاشفا عن علمه بعد تمام خلق السماوات والأرض التى سوف تكون بمثابة المجال الذى «يتحقق» فيه علم الله . إنه «ذلك الكتاب» الذى جاء «الرسول» ليذكرنا به لأننا قد نسيناه عند ولادتنا إذ تغطت القلوب بالأبدان فانطمس العلم المسطور فى ذلك الكتاب بظلمة النسيان . قال الله امراً رسوله «فذكر إنما أنت مذكر» وطلب منه هو نفسه أن يتذكر إذ كرر أمره «واذكر فى الكتاب» فالتذكر يكون لما سبق علمه أو تعلمه.

(٩٢) سورة مريم (١٦-١٧) .

(٩٣) سورة مريم ١٨ .

(٩٤) سورة مريم (١٨)

يجب أن نلاحظ أن القرآن المجيد يستعمل «إن» بمعني النفى كما أنه يستعمل فى المقابل «ما» بمعنى «إن» الشرطية.

(٩٥) سورة مريم الآية (١٩) الزكاة تعنى الطهارة والرفعة والنمو . قال «إلا مازكيتم» يعنى ماطهرتم وقال «فلاتزكوا أنفسكم» يعنى لاترفعوا أقدار أنفسكم فوق ماتستحق والزكاة هى المال الذى ينمو وتعنى شرعا القدر الذى يفرضه الله على كل مال ينمو يؤخذ ليصرف فى المصارف الشرعية .

(٩٦) سورة مريم الآية ٢٠ .

(٩٧) سورة مريم الآية ٢١ .

(٩٨-٩٩) سورة مريم الآية ٢١ - إنظر إلى تحول الخطاب من صيغة المفرد الغائب «قال ربك هو

على هين» إلى صيغة الجمع المتكلم الحاضر «ولنجعله آية للناس ورحمة منا» إذن قد تحول الغائب الى حاضر بفضل «الروح» الذى تمثل بشرا سويا وجاء الى مريم فى الحجاب يكلمها بكلام الله ويهبها الغلام الذى خلقه الله .

(١٠٠) مريم - الآية ٢١ .

(١٠١) سورة مريم الآية (٢٢) .

(١٠٢) سورة مريم الآية (٢٣) .

(١٠٣) سورة مريم الآية ٢٣ .

(١٠٤) سورة مريم (الآيات ٢٤-٢٦) .

أمرها صوت «عيسى» إبنها المستور فى رحمها أن تدفع عنها فضول السفهاء إن رأت من البشر أحداً بقولها أنها قد نذرت أن تصوم لله ولذلك فهى تمتنع عن الكلام. هذه هى الطريقة التى تعتذر بها عن الحديث مع البشر فى يوم مولده (عليه الصلاة والسلام) إن رأت منهم أحدا وبالطبع فمن المستحيل أن يأمرها إبنها الذى يتلقى الوحى من الله بالكذب. محال أن يأمرها بإدعاء الصوم أمام الناس هروبا من الكلام معهم بينما هى فى الحقيقة غير صائمة أمام الله. إذن فهذا الأمر هو توجيه لها بالصوم فى يوم مولده (عليه الصلاة والسلام) ومعنى هذا أنها سوف تكون قادرة علي الصوم أى أنها لن تكون نفساء فهذا الأمر هو تبشير لها بأنها لن تنزف في الولادة ومن ثم تكون لائقة للصوم. لأن شريعة الله تمنع النفساء عن الصوم بهذا التبشير أدركت مريم (عليها الصلاة والسلام) أن وضع غلامها سوف يكون بفضل الله ميسرا بلا دماء.

أنظر إلي قوله «نذرت». إن النذر لايكون إلا بعبادة شرعية لأنه عبادة اختياريةيفترضها العبد على نفسه شكرا لله على حصوله على مايحب كأن يظفر بمرغوب أو ينجو من مكروه. إذن فالصوم المذكور فى الآية هو صوم شرعى كما تفترضه شريعة الله الواحدة سواء جاءت فى التوراه أو القرآن ويفهم من الآية أن «الصمت» بمعنى الإمتناع عن الكلام مع الآخرين هو من آداب الصوم توقياً من الوقوع فى خطايا اللسان المهلكة كالكذب والغيبة والنميمة واللغو.

(١٠٥) سورة التحريم ـ الآية (١٢)

أنظر إلي قوله« كلمات ربها وكتبه» فقد فرق هاهنا بين «الكلمات» والكتب هنا تعني رسالات الله التي يحملها الأنبياء والرسل فما معني « الكلمات» هنا؟! إنها تعني المخلوقات... الكائنات التي

صنعها الله والمعني أن «مريم» قد آمنت بأن المخلوقات هي كلمات لله... المخلوقات في حقيقتها هي كلمات نطق بها الله وإبنها «عيسى» هو الآية على ذلك وهذا هو معني تصديقها بكلمات ربها.

(١٠٦) سورة مريم الآية (٢٧) .

(١٠٧) سورة مريم الآية ٢٨ .

(١٠٨) سورة مريم الآية ٢٩ .

(١٠٩) سورة مريم الآية ٣٠ .

(١١٠) سورة مريم الآية ٣١ .

البركة هى دوام الحياة يعنى الاحتفاظ الدائم بسر الحياة الذى هو «الروح». «مُبَآرك» متصف باستمرار الحياة أى متمتع بالحياة الأبدية التى هى رحمة الله «تبارك الله» تعنى دامت حياته ولم تنقطع لأنه لايموت فهو حى على الدوام والشئ «المبارك» هو الشئ الذى دام اتصاله بسر الحياة وهو «روح الله» فاكتسب صفة بقاء الحياة أى الخلود فى رحمة الله التى تفيض من روحه.

(١١١) سورة مريم الآية ٣١ .

(١١٢) يفهم من الآية أن الصلاة والزكاة مفروضتان على عبد الله «عيسى ابن مريم» منذ كان جنيناً فى بطن أمه لأنه هناك فى الرحم يكون حيا ويصح بوصفه بأنه حى. إذن فليست الصلاة هى تلك الحركات الجسدية والألفاظ التى ينطق بها اللسان إذ يستحيل على الجنين المحبوس فى الرحم أن يقوم أو يركع أو يسجد ومحال أن يُسْمَع له صوت يتلو النصوص المقدسة وإنما الصلاة هى رغبة القلب فى الإتصال بربه الخالق وهى رغبة تتولد فى قلب المخلوق أياً كانت صورته جنيناً محبوسا فى الرحم أو طيرا يطير فى السماء أو حتى حجر فى جدار وليست الألفاظ والحركات التى تفرضها الشريعة فى واجبات الصلاة إلا تعبيراً عن قيام تلك الرغبة فى القلب . فمن أدى واجبات الصلاة فقرأ النصوص وقام بالحركات دون أن تكون فى قلبه الرغبة فى الاتصال بخالقه فلا صلاة الله .

ومحال أن يكون الوليد الملفوف بالأقمطة قادراً على إخراج قدر من ماله ليعطيه الى المحتاجين إليه كما تفترض شعيرة الزكاة فهذا الملفوف بالأقمطة لامال له بل هو يعتمد فى رزقه على اللبن

الذى أودعه الله ثدى أمه . إذن الزكاة ليست هى القدر المفروض من المال الذى تلزم الشريعة الغنى بإخراجه لإنفاقه فى مصارف الزكاة بل الزكاةفى حقيقتها هى رغبة القلب فى التطهر وليست الزكاة المفروضة على الأموال إلا تعبير عن تلك الرغبة القلبية فى التطهر. إنها مظهر أو صورة تلك الرغبة وليست حقيقتها وإلا فمامعنى الزكاة بالنسبة لغلام حديث الولادة يعيش على ثدى أمه أو جنين محبوس في ظلمات الرحم.

(١١٣) سورة مريم الآية ٣٢ .

(١١٤) سورة مريم الاية ٣٣ .

يفهم من نزول «السلام» على «عيسى» عندما يبعث حيا أن ذلك البعث يكون فى الدنيا حيث لم يزل «إبليس» وجنوده يشنون حربا شعواء على أولياء الله لأنه فى الآخرة يزول سلطان «إبليس» اذ يسترد الله كل شئ. إذن فعيسى (عليه الصلاة والسلام) يذكر هنا فضل الله عليه عندما يبعثه الله الى الأرض مرة أخرى قبل قيام الساعة إذ يقول أن الله سيتفضل عليه بنزول «السلام» فيحميه من أذى «إبليس» وجنوده الذين يكونون حينئذ فى أشد هياج إذ تشرف الدنيا على نهايتها ويقترب المصير المحتوم الذى قبله «إبليس» يوم أعلن تمرده على الله ورفض السجود للإنسان خليفة الله ومن فضل الله على «عيسى» وعلي الناس أن سيمكنه من التغلب على الشرير وأعوانه فى تلك المعركة الأخيرة حيث لايكون بعدها لإبليس وجنوده إلاّ إنتظار أبواب جهنم أن تفتح عليهم أفواهها .

السلام هو إنتفاء الصراع أو زوال التناقض والاختلاف بذوبان إرادة المخلوق فى إرادة الله الخالق فلا تُشْهَد إلا إرادة واحدة هى أرادة الله الخالق التى لم تزل باقية وبهذا يتم سحق «إبليس» ويكتمل الفوز عليه لأنه هو الذى يؤجج فى قلب الانسان نار الحرب ضد الله «والسلام» هوهبة الله لمختاريه الذين اصطفاهم ليكونوا شهداء وحدانيته فهو يفيض عليهم بإسمه السلام أو يتجلى لهم به فيشهدون وحدة الإرادة ويكتسبون القوة التى تنزع من «إبليس» سلطانه وبهذا لايملك اللعين ألاّ أن يفر من وجوههم مذعوراً إذ يفقد أمامهم قدرته على الغواية ويتحقق بهم قول الله له «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين .»

(١١٥) سورة مريم الآية (٣٦) .

(١١٦) سفر أشعياء الإصحاح السابع – الفقرة (١٥) .

(١١٧) سفر ملاخى – الاصحاح الثالث

(١١٨–١١٩) أنجيل لوقا الاصحاح الثالث .

(١٢٠) سفر زكريا الاصحاح (١١) (بتصرف)

(١٢١) سفر زكريا الاصحاح (١٣) (بتصرف)

(١٢٢) سفر زكريا الاصحاح (١٤) (بتصرف)

(١٢٣) سفر زكريا الاصحاح (١٣) (بتصرف)

(١٢٤) سورة المؤمنون الآية (٥٠) .

(١٢٥) تاريخ الامة اليهودية ص ٧٩ .

(١٢٦) تاريخ الامة اليهودية ص ٧٩ .

(١٢٧) أنجيل لوقا – الاصحاح الثانى .

(١٢٨) أنجيل لوقا – الاصحاح ٣ .

(١٢٩) أنجيل لوقا – الاصحاح ٣ .

(١٣٠) أنجيل لوقا – الاصحاح ٣ .

(١٣١) أنجيل لوقا – الاصحاح ٣ .

(١٣٢) سفر التكوين – الاصحاح ٤٩«لايزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب»

(١٣٣) سفر ملاحى – الاصحاح ٤ «هاأنا أرسل إيليا النبى قبل مجئ يوم الرب اليوم العظيم والمخوف .

(١٣٤) نلاحظ هنا أن أنجيل «متى» قال على لسان «المسيح» فى الاصحاح (١١) «وإن أردتم أن تَقْبَلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتى .من له اذنان للسمع فليسمع» هاهو كاتب الانجيل يذكر على لسان «المسيح » نفس الإسم «إيليا» ويصفه بأنه مزمع أن يأتي يعني سوف يأتى بعد «المسيح» .فهذا نص صريح في متي بأن عيسى «عليه الصلاة والسلام» بشَّر برسول يأتى من بعده أعطاه كاتب الإنجيل إسم «ايليا» وهو الإسم الذى أشتُهر بين اليهود على أنه إسم لرسول سوف يأتى حتي أننا نلاحظ أن سؤالاً مثل «هل ظهر إيليا» أو «هل أنت إيليا» وهم يخاطبون

يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) كان يتردد على ألسنة القوم ويدور في الأذهان كما يفهم بوضوح من نص الاناجيل .

وإذا انتبهنا إلى أن «إيليا» يساوى «أحمد» بحساب الجمل . ذلك الإسلوب الغريب الذى كان كتاًب الأسفار «المقدسة»؟! يلجأون إليه عند كتابة أسماء الاشخاص الذين تدور حولهم نبؤات المستقبل أقول إذا انتبهنا إلى هذا فإننا نستطيع بكل وضوح وثقة أن نقول أن نص الأناجيل المتداولة بين أيدينا الآن يدل على نحو قاطع أن المسيح عليه الصلاة والسلام بشر «بأحمد» (إيليا) المزمع أن يأتى ولقد أتى (صلى الله عليه وسلم) ولله الحمد والمنة .

(١٣٥) إنجيل لوقا الاصحاح ٣ .

(١٣٦-١٣٧-١٣٨) إنجيل يوحنا الأصحاح (١) .

إنظر الى سؤالهم عن «إيليا» وعن «النبى» لنعلم ىن اليهود كانوا ينتظرون .

(١٣٩) إنجيل متى الأصحاح (٣) .

(١٤٠) وُصِف النبي محمد « صلي الله عليه وسلم بأنه أول المسلمين؛ في سورة الأنعام الأية ١٤ « قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم» إذن فقد صدر إليه الأمر من الله ليكون أول كائن يسلم نفسه لله وهو ما أكده في نفس السورة (الآية ١٦٣) بقوله« وأنا أول المسلمين» وعاد في « الزمر» ليقول « وأمرت لأن أكون أول المسلمين» ثم أعلنها صريحة في « الزخرف» إذ قال « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» (الزخرف ـ ٨١) فهذا نص صريح بأن محمداً (صلي الله عليه وسلم) هو أول من عبد الله والمعني « إن جاز أن يكون لله الذي وسع كل شئ في رحمته ولد فينبغي أن يكون أنا (محمد) لإنني أول من عبد الله فأستحق بتلك الأولية شرف البنوة لله إن صح أن ينسب لله ولد وهو مالا يصح كما أوضحت الأيات بنصوص قاطعة في أكثر من موضع لكن الأية تصرح أن «محمداً» هو أول من عَبّدَ الله (صلي الله عليه وسلم)فهو أول كائن يعبد الله ولما كانت عبادة الله لا تتحقق إلا بمعرفته ومعرفته محال أن تتحقق إلاّ بوحيه إذ يستحيل أن «يُعْرف» إلا بكلامه فمحمد (صلي الله عليه وسلم) هو أول من تلقى كلام الله فعرفه وعبده . إذن فهو أول نبي أو بالأحري مصدر النبوة . ولست بالطبع محتاجاً لان أقول أنني لا أتحدث عن الجسد البشري الذي ولد من آمنة بنت وهب بمكة في القرن السادس بعد الميلاد لأن ذلك الجسد الذي دفن في المدينة المنورة هو صورة هذا النبي أو ظله الذي ظهر

علي الأرض ولكن الكلام عن حقيقة النبي أو « روحه» الأبدي والحديث عن ذلكً يحتاج إستفاضة لا يسمح بها المقام الآن فنكتفي بهذا المقدار إلي حين ولعل الله يأذن بفرصة مواتية.

(١٤١) أنجيل متى – الأصحاح (٤) ، أنجيل مرقس الأصحاح (١) ، أنجيل لوقا الاصحاح (٤) .

(١٤٢) إنجيل يوحنا – الاصحاح (٥) وإنجيل برنابا الفصل (٦٥) .

(١٤٣) إنجيل يوحنا – الأصحاح (٥) .

(١٤٤) إنجيل برنابا – الفصل الثانى عشر .

(١٤٥) سورة الصف – الآية (٦) .

(١٤٦) إنجيل برنابا – الفصل الثانى عشر .

إنجيل برنابا – الفصل الثانى عشر .

(١٤٧-١٤٨) سورة الزخرف الآية (٦٣) .

(١٤٩) إنجيل برنابا – الفصل الثانى عشر .

(١٥٠) سورة الزخرف الآيتين (٦٣-٦٤) .

(١٥١) سورة الصف – الاية (٦) .

(١٥٢) إنجيل يوحنا – الأصحاح (٥) .

(١٥٣) إنجيل يوحنا – الأصحاح (٥) .

(١٥٤) إنجيل يوحنا – الأصحاح (٥) .

(١٥٥) إنجيل يوحنا – الأصحاح (٥) .

(١٥٦) إنجيل يوحنا – الأصحاح (٥) .

(١٥٧) إنجيل يوحنا – الأصحاح (٥) .

(١٥٨) سورة الزخرف الآية (٦٥) .

(١٥٩) إنجيل يوحنا – الأصحاح (١) .

(١٦٠) إنجيل يوحنا – الأصحاح (١) .

(١٦١) إنجيل يوحنا – الأصحاح (١) .

(١٦٢) إنجيل متى – الاصحاح (١٩) وأنجيل برنابا الفصل (٦٦) .

(١٦٣) إنجيل برنابا الفصل (٦٦) .

(١٦٤) إنجيل برنابا الفصل (٦٧) .

(١٦٥) إنجيل برنابا الفصل (٦٧) .

(١٦٦) إنجيل برنابا الفصل (٦٨) .

(١٦٧) إنجيل برنابا الفصل (٦٩) .

(١٦٨) إنجيل برنابا الفصل (٦٩) .

(١٦٩) إنجيل برنابا الفصل (٦٩) .

(١٧٠) أنجيل متى الاصحاح (١٢) وأنجيل لوقا الاصحاح (١١) وانجيل برنابا الفصل (٦٩) .

(١٧١) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٧) .

(١٧٢) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٤) .

(١٧٣) إنجيل برنابا الاصحاح (٢٦) .

(١٧٤) إنجيل برنابا - الفصل (٢٦) .

(١٧٥) إنجيل برنابا - الفصل (٤٣) .

(١٧٦) إنجيل برنابا - الفصل (٤٤) .

(١٧٧) سفر التكوين - الاصحاح (٢٢) النص حرفيا يقول «خذ إبنك وحيدك الذى تحبه .. إسحق وأذهب الى أرض المُرّيا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك» بالطبع إن كلمة اسحق مقحمة على النص لأن المعنى يتم بحذفها ولكن حذفها يؤدى بالقطع الى صرف المعنى إلى اسماعيل لأنه بالإجماع هو بكر ابراهيم فهو الابن الوحيد الذى جاء عليه وقت كان فيه هو وحيد إبيه الذى يحبه ويؤكد هذا أن نص الأصحاح يقول بعد ذلك أن الله عندما تحنن على ابراهيم وأراد أن ينقذ ابنه قال له بنص الاصحاح «الآن علمت أنك خائف (متقى) الله فلم تمسك إبنك وحيدك عنى» انظر إلى الإصرارعلى أنه الوحيد وفي نهاية الأصحاح يقول الله «إنى من أجل أنك فعلت هذا الامر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك كثيرا كنجوم السمآء وكالرمل الذى على شاطئ البحر ويرث نسلك باب أعدائه ويتبارك فى نسلك جميع أمم الارض من أجل أنك سمعت لقولى». فى أول الأصحاح وفى وسطه وفى نهايته يصر على وصف الإبن المقدم قربانا لله بإنه وحيدك وهو إصرار مقصود لتحديد شخصية الذبيح اسماعيل (عليه الصلاة والسلام) ولننظر الآن إلى المكان الذى ذكر الأصحاح أنه كان الموضع الذى حدث فيه

هذا الامتحان الالهى «أرض المُريا» الا يشير هذا اللفظ «المُرِّيا» إلي المروة... جبل المروة الذي بمكة ولنتذكر أن ... الكتاب المقدس الموجود بين أيدينا هو ترجمة عربية لنسخة يونانية يعنى لابد أن حدث تغيير فى نطق الألفاظ الدالة على الاماكن أو الاشخاص. لاشك عندى أن جبل ارض المرِّيًا هذه هو المروة القائم بجوار الكعبة المشرفة ولاشك أن اسماعيل عليه الصلاة والسلام هو المقدم قربانا له لأنه هو الإبن الوحيد الذى يصح وصفه فى وقت من الاوقات بأنه وحيد ابراهيم الذى يحبه .»

(١٧٨) إنجيل يوحنا - الاصحاح (٤) .

(١٧٩) أنظر الى قول المسيح كما جاء فى إنجيل متى - الاصحاح (١١) «ومن أيام يوحنا المعمدان إلى الآن ملكوت السموات يغصب والغاصبون يختطفونه». إنه يشير إلى إدعاء كل فريق أنه يحمل كلمة الله الاخيرة أو النبوة الكاملة التى عُبِرّ عنها «بالملكوت» .

(١٨٠) إنجيل يوحنا الاصحاح (٤) وانجيل برنابا الفصول (٨١) ، (٨٢) ، (٨٣) .

(١٨١) إنجيل برنابا الفصل (٤٣) وإنجيل متى الاصحاح (٢٢) .

(١٨٢) بالحق لم تنطبق هذه النبوءة إلا على محمد (صل يالله عليه وسلم) لأنه هو النبى الرسول الذى حقق إنتصارا ساحقا على أعدائه وانتهت حياته على الارض وهو سيد قومه بلا منازع ثم صار اتباعه فى أقل من مائة عام هم سادة الدنيا كلها .

(١٨٣) إنجيل برنابا الفصل (٨٣) .

(١٨٤) إنجيل برنابا الفصل (٨٤) .

(١٨٥) إنجيل برنابا الفصل (٨٥) .

(١٨٦) إنجيل برنابا الفصل (٨٦) .

(١٨٧) إنجيل برنابا الفصل (٨٧) .

وإنجيل متى الاصحاح (٥) ، إنجيل مرقس الاصحاح (٩) .

(١٨٨) إنجيل برنابا الفصل (٨٩) .

(٣١) أنظر الى قول المسلمين فى صلاتهم عندما يجلسون جلسة «التشهد» إنهم يقولون «السلام عليك يا أيها النبى ورحمة الله وبركاته» فهم يخاطبون الرسول النبى الامى خطاب الحاضر أمامهم وهم يجلسون فى الصلاة بين يدى الله . إذن النبى قائم دوما بين يدى الله ولذلك وجب

علي المؤمنين أن يلقوا إليه بالتحية عندما يقفون بين يدي ربهم فى الصلاة .

(١٩٠) إنجيل برنابا الفصل (٤٣) .

(١٩١) «القُدُسُ» إسم يشير الى محبة الله أن يُعْرَف أى يكشف عن نفسه و«روح القدس» هو رسول الله المعبر عن هذه الارادة فى الكشف فهو رسول ذلك المقام الإلهى الذى يتعرف فيه الخالق الى مخلوقاته أو تتعرف به المخلوقات على خالقها فهو واسطة المعرفة. إنه روح النبى الامى الذى تلقى علم الله قبل أن يكون آدم على الارض. منه نَفَخَ الله فى الطين فقام آدم بشراً سويا وإليه نلقى بالتحية ونحن فى الصلاة. قائلين « السلام عليك أيها النبي»

(١٩٢) إنجيل برنابا الفصل (٤٤) .

(١٩٣) إنجيل برنابا الفصل (٤٤) .

(١٩٤)إنجيل متى الاصحاح (١٨) ، إنجيل برنابا الفصل (٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩) .

(١٩٥) إنجيل متى – الأصحاح (٨) إنجيل لوقا الاصحاح (٧) ، إنجيل برنابا الفصل (٣١) .

(١٩٦) إنجيل متى – الأصحاح (١٦) ، إنجيل لوقا الاصحاح (١٢)

(١٩٧) إنجيل متى – الأصحاح (١١) ، إنجيل لوقا الاصحاح (١٢)

(١٩٨) إنجيل لوقا الاصحاح (٤) .

(١٩٩) سورة الزخرف – الأيتين (٦٣ ، ٦٤) .

(٢٠٠) إنجيل لوقا – الاصحاح (٤) .

(٢٠١) إنجيل لوقا الاصحاح (٤) .

(٣٠٢) انجيل متى الاصحاح (٤) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٥) ، إنجيل مرقس الاصحاح (١) .

(٢٠٣) انجيل متى الاصحاح (١٨) ، إنجيل مرقس الاصحاح (١) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٤) .

(٢٠٤) انجيل متى الاصحاح (١٣) ، إنجيل مرقس الاصحاح (٤) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٨) ، وأنجيل برنابا الفصول (٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤) .

(٢٠٥) أنظر الى الاية الاخيرة من سورة الفتح «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يتبغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم (أى وصفهم) فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار» لقد وصف المسيح المؤمنين بأنهم

«زرع طيب» أنبته الله ورعاه وهاهو القرآن يؤكد صدق ماورد فى الانجيل فى هذا الشأن إذ يذكر أن وصف المؤمنين كما ورد فى الإنجيل الذى يقر به الله هو أنهم يشبهون زرعاً طيباً قوياً يخرج الثمار التى تعجب الزراع إن هذا المقطع من آية سورة الفتح يشير إلى ذلك المثل الذى نطق به «المسيح» وهو جالس على سفينة سمعان فى بحيرة طبرية يبلغ الناس الذين اصطفوا على الشاطئ رسالة ربه .

(٢٠٦) إنجيل متى الاصحاح (٨) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٩) .

(٢٠٧) إنجيل متى الاصحاح (٨) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٩) .

(٢٠٨) سماه «المسيح» بالارامية التى كان يتكلم بها «صَفَا» التى تعنى بالعربية «صخراً» وترجمت الى اليونانية «بطرس» فالكلمة التى خرجت من فم المسيح هى «صَفَا» وربما أراد «المسيح» بهذا الاسم توجيه سمعان الى أن يكون صخرة ..الإيمان ثابتاً لا يتزعزع كأنه قال له كن ثابتاً في الإيمان كأنك «صخر»

(٢٠٩) إنجيل متى – الاصحاح ١٣ ، إنجيل مرقس – الاصحاح (٤) ، إنجيل لوقا الاصحاح(٨).

(٢١٠) إنجيل برنابا – الفصل (٤٩) .

(٢١١) سورة ص – الاية (٢٦) .

(٢١٢) إنجيل برنابا الفصل (٥) .

(٢١٣) إنجيل برنابا الفصل (٨٨) .

(٢١٤) إنجيل برنابا الفصل (٥١) .

(٢١٥) إنجيل متى الاصحاح (٨) ، إنجيل مرقس الاصحاح (٤) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٨) إنجيل برنابا الفصل (٢٠) .

(٢١٦) رنجيل متي الأصحاح (١٨) مرقس الأصحاح (٥) ، لوقا الأصحاح (٨) برنابا الفصل(٢١)

(٢١٧) إنجيل برنابا الفصل (٤٨) والفصل (١٣٨) وإنجيل لوقا الاصحاح (٧) .

(٢١٨) إنجيل متى الاصحاح (١٥) ، إنجيل مرقس الاصحاح ٧ وإنجيل برنابا الفصل ٢١ ، والفصل (٢٢) ، (٢٣) .

(٢١٩) إنجيل متى الاصحاح (١٦) ، إنجيل مرقس الاصحاح (٨) ، إنجيل لوقا – الاصحاح (٩).

إنجيل برنابا - الفصل (٧٠) .

(٢٢٠) ذكرت الأناجيل هذا الحديث على النحو التالى

- فى إنجيل مرقس «فأجاب بطرس وقال له أنت «المسيح» فانتهرهم كى لايقولوا لأحد عنه الاصحاح (٨) .

- وفى إنجيل لوقا الاصحاح (٩) فأجاب بطرس وقال مسيح الله»

يعنى أنت مسيح الله فانتهرهم وأوصى أن لايقولوا ذلك لأحد وبالطبع فليس فيما قاله بطرس طبقا لهاتين الروايتين مايستدعى غضب المسيح (عليه الصلح والسلام) حتى أنه انتهرهم وأوصاهم الأ يقولوا ذلك لأحد فإذا لم يكن قد جاء إلى الدنيا ليخبر الناس إنه هو المسيح أو مسيح الله فلماذا جاء إذن وإذا لم يقل التلاميذ للناس أن معلمهم هو «المسيح» «مسيح الله» فماذا إذن سيقولون لهم ولماذا آمنوا أو بالأحرى بماذا آمنوا إذ لم يؤمنوا أنه المسيح مسيح الله.

أما فى إنجيل متى فقد وردت القصة على النحو الاتى فى الاصحاح (١٦) «فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحى فأجاب يسوع وقال له طوبى لك ياسمعان بن يونا» هنا لم يكن غضب ولا انتهار ولاتحذير من نشر هذا الوصف ولكن بعد بضعة سطور فقط يقول كاتب الانجيل «حينئذ أوصي تلاميذه أن لايقولوا لأحد أنه يسوع المسيح» ولا أدرى ماذا يجب على التلاميذ أن يقولوا للناس عن معلمهم وبعد قليل من السطور أيضا فى نفس الأصحاح وبخ المسيح بطرس وقال له «إذهب عنى ياشيطان أنت معثرة لى» ولاأدرى كيف يمكن لنبى راسخ العلم أن يتقلب علي هذا النحو من التطويب إلي اللعنه فى موقف واحد أبعد أن يقول «طوبى لك ياسمعان بن يونا إن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ماتربطه على الارض يكون مربوطا فى السموات وكل ماتحله علي الارض يكون محلولا فى السموات» أبعد هذا يقول له إذهب عنى ياشيطان أنت معثرة لى» أيمكن أن يعطى المسيح مفاتيح الملكوت لشيطان ؟! إن صدقنا الاولى فيجب علينا أن نكذب الثانية وإن صدقنا الثانية يجب علينا أن نكفر بالأولى إذ يستحيل علينا نحن المؤمنون بعيسى

مسيح الله ورسوله أن نصدق أنه يعطى مفاتيح الملكوت لمن وصفه بأنه شيطان يحاول أن يضل المسيح نفسه «أنت معثرة لى» يعنى وسيلة لوقوعى فى الخطيئة .

من الواضح إذن أن بطرس سمعان بن يونا (غفر الله لنا وله) إندفع متحمسا لمعلمه العظيم فوصفه بأنه المسيح ابن الله الحى وأن ذلك الوصف أغضب المسيح فانتهرهم وأوصاهم أن لايذكروا ذلك لأحد وفى هذا الغضب الذى إجتاح المسيح غيرة على شرف الله قال لسمعان «إذهب عنى ياشيطان أنت معثرة لى» هذا هو السياق المنطقى الوحيد الذى يمكن به فهم هذه الايات من الانجيل ولكن حدث حذف وإضافة أدت إلي تناقض الروايات في الأناجيل الثلاثة .

(٢٢١) إنجيل برنابا – الفصل ٩١ .

(٢٢٢) إنجيل برنابا – الفصل (٩٢) .

(٢٢٣) إنجيل برنابا – الفصل ٩٢ .

(٢٢٤) إنجيل برنابا – الفصل ٩٣ .

(٢٢٥) إنجيل برنابا – الفصل ٩٣ .

(٢٢٦) إنجيل برنابا – الفصل ٩٤ .

(٢٢٧) إنجيل برنابا – الفصل ٩٥ .

(٢٢٨) إنجيل برنابا – الفصل ٩٦ .

(٢٢٩) إنجيل برنابا – الفصل ٩٧ .

(٢٣٠) نبوة باهرة لسيدى المسيح (عليه الصلاة والسلام) حققها التاريخ أتم تحقيق إذ من «روما» جاء الظلام إذ انطلقت حملات القمع والاضطهاد التى أدت بالفعل كما تنبأ المسيح الى تغيير تعاليمه وتدنيس إنجيله (تبشيره) وحتى بعد أن دخل الرومان فى الديانة التى آلت اليها المسيحية فإن دخول الأباطرة فى الدين الجديد كان سببا فى مزيد من الفوضى العقدية والصراع السياسى الذى إصطبغ بالصبغة المذهبية وأدى فى النهاية الى الانقسام والتحزب والتعصب والحروب التى لطخت ومازال تلطخ وجه الانسانية التعيسة البائسة .

(٢٣١) إنجيل برنابا – الفصل ٩٧ .

(٢٣٢) إنجيل برنابا – الفصل ٩٩ .

(٢٣٣) إنجيل لوقا الاصحاح ٩ ، إنجيل مرقس الاصحاح (٦) ، إنجيل متى الاصحاح (١٤) وإنجيل برنابا الفصل ٩٨ .

(٢٣٤) إنجيل برنابا - الفصل ١١٦، ١١٧، ١١٨

(٢٣٥) إنجيل يوحنا الأصحاح (٣)

(٢٣٦) إنجيل متى - الأصحاح (١٠) «من يقبل نبياً بإسم نبى فأجر نبى يأخذ» نص صريح يقطع بأن «عيسى» يعد نفسه نبيا قد أتى يبشر بمجى نبى آخر وهو يَعِدُ من يؤمن بذلك أن يظفر بثواب الأنبياء عند الله وإنظر إلى قوله «بإسم نبى» إذن هو يعد نفسه صورة لذلك النبى الذى جاء ليبشر به فهو «إسم» ظهر تحته ذلك «النبى» المُبَشَّر به وكذلكم كان كل الأنبياء. إنهم لم يكونوا أكثر من أسماء ظهر بها النبى الكامل أو صورٍ قدم بها نفسه قبل حضوره الذى تجلى فى الرجل العربى الذى ولد بأم القرى مكة وبعث إلى الناس فى الأربعين متخذا فى التاريخ إسم «محمد» (صلى الله عليه وسلم).

(٢٣٧) إجيل برنابا ـ الفصل (١٠٠)

(٢٣٨) إنجيل برنابا ـ الفصل (١٠١)

(٢٣٩) إنجيل برنابا -الفصل (٢٣٩)

(٢٤٠) إنجيل برنابا -الفصل (١٠٣)

(٢٤١) إنجيل برنابا -الفصل (١٠٤)

(٢٤٢) إنجيل برنابا -الفصل (١٠٥)

(٢٤٣) إنجيل برنابا -الفصل (١٠٧)

(٢٤٤) إنجيل متى - الأصحاح (٦)

(٢٤٥) إنجيل برنابا - الفصل (١٠٨)

(٢٤٦) إنجيل برنابا -الفصل (١٠٨)

(٢٤٧) إنجيل برنابا -الفصل (١٠٩)

(٢٤٨) إنجيل برنابا -الفصل (١١٠)

(٢٤٩) إنجيل برنابا -الفصل (١١١)

(٢٥٠) إنجيل برنابا - الفصل (١١٤)

(٢٥١) إنجيل برنابا - الفصل (١١٥)

(٢٥٢) إنجيل برنابا - الفصل (١١٦)

(٢٥٣) إنجيل برنابا - الفصل (١١٨)

(٢٥٤) إنجيل برنابا -الفصل (١١٩)

(٢٥٥) إنجيل برنابا - الفصل (١١٩)

(٢٥٦) إنجيل برنابا - الفصل (١١٩)

(٢٥٧) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٠)

(٢٥٨) إنجيل برنابا - الفصل (١٢١)

(٢٥٩) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٢)

(٢٦٠) الذى يطلق عليه فى القرآن - «الفؤاد»

(٢٦١) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٢)

(٢٦٢) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٥)

(٢٦٣) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٥)

(٢٦٤) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٣)

(٢٦٥) إنجيل برنابا الفصل (١٢٤)

(٢٦٦) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٤)

(٢٦٧) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٥)

(٢٦٩) إنجيل متى الأصحاح (١٠) إنجيل مرقس الأصحاح (٦) إنجيل لوقا الأصحاح (٩)

(٢٧٠) إنجيل متى الأصحاح ١٤ إنجيل مرقس الأصحاح ٦ أنجيل برنابا الفصل ٢٠

(٢٧١) إنجيل متى الأصحاح (٩)نجيل مرقس الأصحاح (٢) إنجيل لوقا الأصحاح (٥)

(٢٧٢) إنجيل كتى الأصحاح ٩ إنجيل مرقس الأصحاح ٢ إنجيل لوقا الأصحاح ٥

(٢٧٣) لوقا الأصحاح ١٨ وبرنابا الفصل (١٢٨)

(٢٧٤) برنابا - الفصل (١٢٩)

(٢٧٥) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٧)

(٢٧٦) إنجيل برنابا - الفصل (١٣١)

(٢٧٧) إنجيل متى - الأصحاح (١٢) وإنجيل لوقا الأصحاح (٦) وإنجيل مرقس - الأصحاح(٢)

(٢٧٨) إنجيل لوق - الأصحاح (٨)

(٢٧٩) إنجيل متى الأصحاح (١٣) ، الأصحاح (١٥) إنجيل مرقس الأصحاح (٧)

إنجيل لوقا الأصحاح (٦) ، الأصحاح (١١) ، الأصحاح (١٤)

إنجيل برنابا - الفصول ٣٢، ٣٣، ٣٤

(٢٨٠) إنجيل لوقا الأصحاح (١٤)

(٢٨١) إنجيل لوقا الأصحاح (١٦) وإنجيل برنابا الفصل (٢٤)

(٢٨٢) إنجيل برنابا - الفصل (٢٣)

(٢٨٣) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٤)

(٢٨٤) إنجيل متى الأصحاح ١٢ ، الأصحاح ١٥ إنجيل مرقس الأصحاح (٧)

(٢٨٥) إنجيل برنابا - الفصل (٣٨)

(٢٨٦) إنجيل برنابا الفصل (٣٦)

(٢٨٧) إنجيل برنابا - الفصل (٣٧)

(٢٨٨) إنجيل برنابا الفصل ٣٦

(٢٨٩) إنجيل لوقا الأصحاح ١٨

(٢٩٠) إنجيل لوقا الأصحاح (١٨) حرفياً يقول «ولكن متى جاء ابن الإنسان ألعله يجد الأيمان على الأرض ؟!» وهذا نص يفيدا أنه (عليه الصلاة والسلام) لم يجد الإيمان على الأرض بل وجد الكفر فصلى لله كثيرا من أجل أن يجد الأمة التى تؤمن به وتقدره حق قدره كما يريد الله فوعده الله أن يظفر بتلك الأمة حين يعود إلى الأرض مرة أخرى فى بعثته الثانية قبل قيام الساعة حيث سيجد أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) التى ستؤمن به وتقدره حق قدره وعلى هذا الوعد الآلهى عاش «عيسى» عليه الصلاة والسلام يتحمل عنت قومه صابر ا لحكم الله منتظراً تحقق وعده إنه لا يخلف الميعاد .

(٢٩١) إنجيل لوقا - الأصحاح (١١)

(٢٩٢) إنجيل متى الأصحاح (٧) وإنجيل لوقا الأصحاح (١١)

(٢٩٣) إنجيل متى الأصحاح (٦) وإنجيل برنابا الفصل (٣٦)

(٢٩٤) إنجيل متى الأصحاح (٦) ، إنجيل لوقا الأصحاح (١١) إنجيل برنابا الفصل (٣٧)

النص فى «متى» «ولوقا» حرفيا يقول «آبانا الذى فى السموات» وهو يؤكد أن البنوة لله المذكورة فى النص هي بنوة معنوية أو بالأخرى روحية فكل المؤمنين يُعَدُّون أبناءً لله بهذا النص إذ يطلب منهم أن يتجهوا الى الله بقولهم «آبانا» والمسيح عيسى ابن مريم إبنا الله بهذا المفهوم الذى وُجد أيضا عند المسلمين فى مثل قولهم «الفقراء عيال الله» أو قولهم لأى أمرأة عند النداء عليها «يا أمةَ الله» فإنهم بالقطع لا يقصدون أن الفقراء هم أطفال الله الذين أنجبهم أو أن تلك المرأة المجهولة هى صاحبة الله التى يجامعها تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا أو قولهم «أخي في الله» أو «يا أختي في الله» فهذ التعبير يعني أن المتكلم يرى أن المخاطب أوالمخاطبين هم بمثابة أشقاء له في أسرة أو عائلة واحدة «الله» هو ربها أي أنه (سبحانه وتعالي) هو «الأب» بهذا المفهوم الروحي وهو قول ينطق به الخطباء في المساجد من فوق المنابر دون أدني حرج وهو المعني الذي ينطق به الإنجيل وهو يخالف بالقطع المفهوم الشاذ والدنس الذي اعتمدته «الديانة» التي آلت إليها المسيحية.

(٢٩٥) إنجيل برنابا – الفصل ٤٦ وإنجيل لوقا الأصحاح الأصحاح (١٣)

(٢٩٦) إنجيل متى الأصحاح (٩) ، إنجيل مرقس الأصحاح (٢)

إنجيل لوقا الأصحاح (٥) والأصحاح (٨)

(٢٩٧) إنجيل متى الأصحاح (١١) ، إنجيل لوقا الأصحاح (٧)

(٢٩٨) إنجيل متى الأصحاح (١١) إنجيل لوقا الأصحاح ٨) وإنجيل مرقس الأصحاح (٣)

(٢٩٩) إنجيل متى الأصحاح (٩) ، إنجيل مرقس الأصحاح (٥) وإنجيل لوقا الأصحتاح (٨)

(٣٠٠) إنجيل متى الأصخاح (١٤) وإنجيل مرقس الأصحاح (٦) وإنجيل لوقا الأصحاح (٣)

(٣٠١) يؤيد هذه القصة وصف محمد (صلى الله عليه وسلم) ليحيى بن زكريا بأنه «الشهيد ابن الشهيد» يعنى أنهما الأب والإبن قد ماتا مقتولين فى سبيل الله وقوله (صلى الله عليه وسلم) «إن من هوان الدنيا على الله أن يحيى ابن زكريا قد قطعت رأسه تلبيه لرغبة أمرأة زانية كانت تبيع جسدها – (الجامع الصغير للسيوطى)

(٣٠٢) إنجيل مرقس الأصحاح (٦) وإنجيل لوقا الأصحاح (٨) ، (١٠)

وإنجيل برنابا الفصل (١٢٦)

(٣٠٣) إنجيل متى الأصحاح (١٥) ومرقس الأصحاح (٨)

(٣٠٤) متى - الأصحاح (١٦) وإنجيل مرقس الأصحاح ٨
وإنجيل برنابا - الفصل (١٥١)
(٣٠٥) إنجيل متى الأصحاح (١١)
(٣٠٦) إنجيل متى الأصحاح (١٩) ، وإنجيل مرقس الأصحاح (١٠) وإنجيل لوقا الأصحاح(١٨)
(٣٠٧) إنجيل متى الأصحاح (١٨) ، وإنجيل مرقس الأصحاح (٩) ، وإنجيل لوقا الأصحا (١٧)
(٣٠٨) إنجيل مرقس الأصحاح (٩) وإنجيل لوقا الأصحاح (٩) وإنجيل متى الأصحاح (١٨)
(٣٠٩) إنجيل متى الأصحاح (١) وإنجيل لوقا الأصحاح (١٠)
(٣٠١) إنجيل متى الأصحاح (١٩) ، مرقس الأصحاح (١٠) ولوقا الأصحاح (١٨)
(٣١١) إنجيل لوقا -الأصحاح (١٦)
(٣١٢) متى الأصحاح (١٩) مرقس الأصحاح (١٠) لوقا الأصحاح (٨)
(٣١٣) متى الأصحاح ٢٠

هذا المثل تبشير واضح بأمة محمد (صلى الله عليه وسلم). «أمة الملكوت» فانظر إلى قول المسيح (عليه الصلاة والسلام) «أولون يكونون آخرين وآخرون أولين » الذى تكرر فى أكثر من موضع فى الأناجيل وتذكر قول محمد (صلى الله عليه وسلام) واصفاً أمته «نحن الآخرون الأولون والأولون الأخرون» يعنى الآخرون فى الظهور بالدنيا الأولون عند الحساب بين يدى الله يوم القيامة كما وضّح المثل الرائع الذى ضربه «المعلم» (عليه الصلاةوالسلام).

(٣٢٤) إنجيل مرقس الأصحاح (٨)
(٣١٥) متى الأصحاح (١١) ، لوقا الأصحاح (١٠)
(٣١٦) إنجيل متى الأصحاح (٧٨) ، مرقس الأصحاح (٩) ، لوقا الأصحاح (١١) والأصحاح(١٧)
(٣١٧) لوقا الأصحاح (١٣)
(٣١٨) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٣)
(٣١٩) إنجيل يوحنا - الأصحاح ٧
(٣٢٠) إنجيل لوقا الأصحاح (٩) ، إنجيل برنابا الفصل (٦٣) ، (٦٤)
(٣٢١) إنجيل متى الأصحاح (٥) ، لوقا الأصحاح (٦)

هذه الوصايا ليست بدعة نصرانية خاصة كما يتوهم الأدعياء وليست «سلبية» كما يزعم المتعالمون الغوغاء وما علينا إلا أن نتذكر وصايا القرآن الكريم الذى أمر المؤمنين الذين يرغبون فى أن يكونوا محسنين أن يكظموا غيظهم وأن يعفوا ويصفحوا ويغفروا والعفو ترك العقاب أى التخلى إختياريا عن حقك فى الرد على من أساء إليك والصفح ترك الملام والمغفرة نسيان الإساءة وآمرهم أن يحسنوا إلى من أساء إليهم ولذلك عاتب أبابكر الصديق «رضى الله عنه» عندما عزم على أن يحرم أحد الرجال الذين شاركوا فى تشويه سمعة السيدة الطاهرة أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر فعزم أبوها على حرمان ذلك الرجل من النفقة التى كان يعطيها لها فنزل القرآن معاتبا له قائلا « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا ليصفحوا ألاَ تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » سورة النور الآية ٢٢. إذن فقد أمره بالإحسان إلى من أساء إليه .

ولنتذكر وصايا الرسول الأعظم «صلى الله عليه وسلم» إلى خليله أبى ذر «أوصانى خليلى أن أعفو عمن ظلمنى وأن أعطى من حرمنى وأن أصل من قطعنى» انظر إنها نفس الوصايا التى أمر بها المسيح (عليه الصلاة والسلام) تلاميذه ليكونون كاملين. حقا إنها رسالة واحدة من الله الواحد نطق بها جميع الأنبياء من لدن آدم حتى الخاتم (صلى الله عليه وسلم) .

(٣٢٢) متى -الأصحاح (١١) والأصحاح (١٤) ، ولوقا الأصحاح ٩ ومرقس الأصحاح (٦) ، ويوحنا الأصحاح (١٠)

(٣٢٣) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٦)

(٣٢٤) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٦)

(٣٢٥) لوقا - الأصحاح (١٣)

(٣٢٦) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٨) ، إنجيل مرقس الأصحاح (١٠)

(٣٢٧) إنجيل لوقا الأصحاح (١٩) ، وإنجيل برنابا الفصل (١٤٣)

(٣٢٨) إنجيل برنابا - الفصل (١٤٤)

(٣٢٩) برنابا - الفصل (١٤٥)

(٣٣٠) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٤)

(٣٣١) إنجيل متى الأصحاح (٢٢)

(٣٣٢) إنجيل برنابا الفصل (١٤٥)

(٣٣٣) إنجيل لوقا الأصحاح (١٩) وإنجيل برنابا الفصل (١٤٦)

(٣٣٤) إنجيل متى الأصحاح

(٣٣٥) متى الأصحاح (٢١)

(٣٣٦) متى - الأصحاح (١٨) ولوقا الأصحاح (١٥)

(٣٣٧) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٤)

(٣٣٨) إنجيل لوقا الأصحاح ١٥ ، إنجيل برنابا الفصول (١٤٦) ، (١٤٧)

(٣٣٩) إنجيل متى الأصحاح (١٩) ، إنجيل مرقس الأصحاح (١٠)

(٣٤٠) إنجيل متى الأصحاح (٥)

(٣٤١) إنجيل متى الأصحاح (١٦) وإنجيل مرقس الأصحاح (٨) وإنجيل لوقا الأصحاح (٩) وإنجيل برنابا الفصل (٤٢)

(٣٤٢) إنجيل متى الأصحاح (١٧) وإنجيل مرقس الأصحاح (٩) ولوقا الأصحاح (٩) وبرنابا الفصل (٤٢)

قد وضحنا قبل ذلك أن الرجل الذى أعطاه كتاب الأنجيل إسم «إيليا» هو الرسول الذى يزمع أن يأتى أى سوف يأتى بعد المسيح كما نص إنجيل «متى» وهو الرسول الذى يرسله الله قبل يوم القيامة كما نص سفر ملاخى وهو أحمد (صلى الله عليه وسلم) .

(٣٤٣) نص إنجيل «متى» يقول «وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع قائلا لا تعلموا أحداً بما رأيتم حتي يقوم ابن الإنسان من الأموات وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغى أن يأتى أولا فأجاب يسوع وقال لهم إن إيليا يأتى أولا ويرد كل شىء - الأصحاح (١٧) انظر إلى هذا النص وتأمل فيه لتعلم أن إرسال «إيليا» قبل البعث من الأموات وهو المعنى الذى فهمه التلاميذ من قيام ابن الإنسان من الأموات كان قولا شائعا يعلّمه الكتبة للشعب وقد أقره المسيح أيضاً كما يتضح من رده على تلاميذ ه . كانت عقيدة شائعة فى الشعب أما قيامه من الأموات أو بالأحرى رجوعه إلى الأرض فالمقصود به عودته رسولا من الله إلى الناس قبل الساعة وهو أمر سيقع بعد إرسال «إيليا» الذى أُرسِل فعلاً بإسم محمد بن عبد الله (صلى

الله عليه وسلم) وردٌ كل شيء أى أعادكل شيء إلى أصله ووضع الكون كله على طريق العودة إلى خالقه .

وبالقطع طبقا لهذا النص من إنجيل «متى» فإن قيامة المسيح من الأموات ليست هى القيامة التى قيل أنها وقعت يوم الأحد التالى للصلب لأن «إيليا» الذى أقر المسيح أنه يجب أن يأتى أولا لم يقل أحد أنه قد جاء فى الفترة بين حادثة الصلب التى قيل أنها وقعت يوم الجمعة والقيامة المزعوم حدوثها صباح الأحد التالى فى تلك الفترة من مساء الجمعة حتى صباح الأحد لم يأت أى رسول من الله ليرد كل شيء أمَّا فهمه التلاميذ أن المعلم يقصد «يحيى بن زكريا» فهو ليس أكثر من عجز عن فهم المقصود من كلام السيد «المعلم» وهو أمر تكرر منهم طوال حياة المسيح (عليه الصلاة والسلام) وأتضح فى أكثر من موضع فى سياق الأناجيل كلها. لقد كانوا يعانون عجزا دائما عن فهمه. لكنه حقاً ما أغرب أن يقال أنهم فهموا أن يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) هو «إيليا». لقد عرفوا يحيى وقابلوه أو سمعوا عنه وبعضهم رآه كما تنص الأناجيل فكيف يمكن إستنتاج أنه هو المقصود بإيليا. من المؤكد أن ثمة خطأ قد وقع إذ يستحيل طبقاً لنص الإنجيل نفسه أن يتوهم التلاميذ الذين عاصروا يوحنا المعمدان أنه هو «إيليا» الذى رأوه فى الغمام مع موسى وهما يتكلمان مع «المسيح». من الواضح أن كاتب الإنجيل حاول أن يخفى شخصية «إيليا» فأضاف تلك الكلمات. «حينئذ فهم التلاميذ أنه يقول عن يوحنا المعمدان» هذه الكلمات أضافها كاتب الإنجيل الذي لم يعاصر الأحداث محاولاً إخفاء شخصية «ايليا» لأن التلاميذ عاصروا «يوحنا المعمدان» فلا يمكن أن يختلط في ذهنهم مع «إيليا» ذلك الرجل الذي يزمع أن يأتي ولو كان الذي رأوه في الغمام مع «موسي» هو «يوحنا المعمدان» لعرفوه في الحال ولسألوا عن الآخر فقط (موسي) لإنه مات قبل هذا الوقت الذي حدثت فيه هذه الحادثة بأكثر من ألف عام (في حدود القرن الثالث عشر قبل الميلاد).

(٣٤٤) إنجيل متى – الأصحاح (١٦) ومرقس الأصحاح (٨) ولوقا الأصحاح (٩) والكلام عن «المقربين»وهم عباد الله الذين ينالون الحياة بعد الموت إنهم الرفيق الأعلى «الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحون ».

(٣٤٥) متى الأصحاح ٢١ ، مرقس أصحاح ١١ ، لوقا الأصحاح (١٩)

(٣٤٦) إنجيل لوقا – الأصحاح (١٩) وإنجيل متى الأصحاح (٢٥)

(٣٤٧) لوقا - الأصحفاح (٩)

(٣٤٨) إنجيل متى الأصحاح ٢٠ وإنجيل مرقس الأصحاح ١١ وإنجيل لوقا الأصحاح (١٩)

(٣٤٩) سورة آل عمران - الآية (٤٩)

(٣٥٠) إنجيل متى الأصحاح ٢١ ، إنجيل مرقس الأصحاح (١٢) وإنجيل لوقا الأصحاح (٢٠)

(٣٥١) أنظر إلى قول الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) «مثلى ومثلى الأنبياء من قبلى كرجل بنى بيتا أو جدارا إلا موضع لبنة (أى حجر) فجعل الناس ينظرون إلى الجدار ويقولون لولا وضع تلك اللبنة فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبين»إنه (صلى الله عليه وسلم) هو الحجر الأخير فى بناء النبوة وهذا هو مقصود النبى «عيسى» (عليه الصلاة والسلام) .من النص الذي أشار إليه وهو مأخوذ من المزامير.

(٣٥٢) متى الأصحاح (٢١)

(٣٥٣) متى الأصحاح (٢٢) ، مرقس الأصحاح ١٢ ، لوقا الأصحاح (٢٠) وبرنابا الفصل (٣١)

(٣٥٤) متى الأصحاح (٢٢) ، ومرقس الأصحاح (١٢) ، لوقا (٢٠)

(٣٥٥) متي الأصحاح (٢٢)

(٣٥٦) إنجيل لوقا الأصحاح (١٠) وإنجيل برنابا الفصل (٣٠)

(٣٥٧) برنابا - الفصل (١١٣) والفصل (١١٤) ولوقا الأصحاح (١٣)

(٣٥٨) برنابا - الفصل (١٥٢)

(٣٥٩) برنابا الفصل (١٥٣) ، الفصل (١٥٤)

(٣٦٠) إنجيل برنابا - الفصل (١٥٥)

٣٦١) إنجيل يوحنا الأصحاح (٩) وإنجيل برنابا الفصل (١٥٦) والفصل(١٥٧)

(٣٦٢) يوحنا - الأصحاح (٩)

(٣٦٣) يوحنا - الأصحاح (٧)

(٣٦٤) أنظر إلى قول الله فى شأن إدريس «ورفعناه مكانا عليا» سورة مريم الآية (٥٧) وبينت إحاديث المصطفى «صلى الله عليه وسلم» أنه فى السماء الرابعة ثم أنظر إلى قول الله لعيسى عند نهاية حياته على الأرض

«يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىَّ » لقد استعمل لفظ الرفع هاهنا فتأمل !!

(٣٦٥) متى الأصحاح (٨) ، ومرقس الأصحاح (١) ، لوقا الأصحاح

(٣٦٦) إنجيل لوقا – الأصحاح (٧) وإنجيل برنابا الفصل (١٢٩) الفصل(١٣٠)

(٣٦٧) إنجيل برنابا – الفصل (١٨٠) والفصل (١٨١) والفصل (١٨٢)

(٣٦٨) برنابا – الفصل (١٨٣) ، الفصل (١٨٤) ، الفصل (١٨٥)

(٣٦٩) إنجيل برنابا – الفصل (١٩٢)

(٣٧٠) إنجيل يوحنا – الأصحاح (١١)

(٣٧١) إنجيل يوحنا – الأصحاح ١١ ، وإنجيل برنابا الفصل (١٩٣)

(٣٧٢) يجب أن نلاحظ هنا أن الكتبة والفريسيين عندما طلبوا من المسيح (عليه الصلاة والسلام) آية يتبرهن علي صدقه فإنه وبخهم وأتهمهم «جيل شرير يطلب آية ولا يؤمن فلن تعطي له إلاّ آية النبي يونان (يونس) (عليه الصلاة والسلام) فكما بقي في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال ثم خرج حياً فكذلك يكون ابن الإنسان في قلب الأرض (يعني مدفوناً) ثلاثة أيام وثلاث ليال» يقصد ثم يخرج حياً آية من الله. هذه الآية التي تكلم عنها المسيح (عليه الصلاة والسلام) لا تنطبق بالحق إلاّ علي «لعازر» شقيق «مريم» و«مرثا» من قرية «بيت عنيا» لأنه بنص إنجيل يوحنا مكث في القبر ثلاثة أيام وثلاث ليال فكانت المدة بين وفاته وإحياء المسيح (عليه الصلاة والسلام) له بإذن الله هي أربعة أيام كما صرحت شقيقتاه «للمعلم» كما جاء في إنجيل يوحنا. إذن فإبن الإنسان الذي بقي مدفوناً في الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال ثم خرج حياً بإذن الله آية من الله على صدق إرساله للمسيح «عيسي بن مريم» هذا الإنسان هو «ليعازر» وهي آية أعطيت بالفعل للجيل الفاسق ولم يؤمن كما أخبر السيد المسيح. ونحب أن نلفت النظر هنا أن الأناجيل الثلاثة (متى، ومرقس ولوقا) التي ذكرت قضية الأيام الثلاثة والياالي الثلاثة لم تشر من قريب أو بعيد إلي قصة إحياء المسيح للرجل المسمي «ليعازر» مع أنها ذكرته بالإسم كأحد الذين صاحبوا المسيح ولازموه فترة من الوقت في آخر حياته.... حياة المسيح والإنجيل الوحيد الذي ذكر قصة إخراج «ليعازر» من القبر هو إنجيل يوحنا بالإضافة بالطبع إلي إنجيل برنابا الذي أفاض في ذكر قصة «لعازر» ومكوث «المعلم» في منزله «ببيت عنيا» وهذان الإنجيلان (يوحنا وبرنابا) لم يذكرا موضوع الأيام والليالي الثلاثة لا من قريب ولا من بعيد.

وبالتأمل نستطيع أن نقطع أن قصة إخراج «ليعازر» من القبر قد حذفت من الأناجيل الثلاثة التي

ذكرت قضية الثلاثة أيام والثلاث ليال لأن الذين أعادوا صياغة قصة «المسيح» بعد رحيله وأحدثوا التغييرات التي تتطلبها الديانة الجديدة التي أقاموها علي أطلال تعاليم «المعلم» الذي رفع أرادوا أن ينزلوا تلك الآية (=العودة إلي الحياة أو القيامة من الموت) علي السيد المسيح نفسه وهو أمر مستحيل طبقاً لنص الإنجيل نفسه لإنهم يزعمون أنه قد صلب يوم الجمعة عند العصر أي بعد الظهر وأنزل من الصليب ووضع في القبر يوم السبت وعندما ذهبت بعض النسوة من أتباعيه لتطييب الجثة ودهنها صباح الأحد وجدوه قد قام من الأموات إذن فالمدة بين الصلب والقيامة المزعومة هي من مساء الجمعة حتي صباح الأحد التالي مباشرة ومهمنا حاولنا فإنها لن تكون إبداً ثلاثة إيام وثلاث ليال. إذن فالذي قام من الأموات بعد أن دفن في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال هو «ليعازر» شقيق «مريم» التي سكبت العطر علي «المعلم» تعزية له وليس «المسيح» نفسه الذي دفع الله جسده إلي السمآء ولم يدعه في أيدي أعدائه إستجابة لصلاته.»

(٣٧٣) برنابا الفصل (١٩٤) وإنجيل لوقا الأصحاح (١٠)

(٣٧٤) إنجيل برنابا الفصل (١٩٥)

(٣٧٥) برنابا - الفصل (١٩٦) ، الفصل (١٩٧)

(٣٧٦) متى الأصحاح (٢٦) ومرقس الأصحاح (١٤) وبرنابا الفصل(٢٠٥)

(٣٧٧) إنجيل متى - الأصحاح (٢٠) إنجيل مرقس - الأصحاح (١١)

(٣٧٨) إنجيل متى الأصحاح (٢١) إنجيل مرقس الأصحاح (١١) إنجيل برنابا - الفصل ٢٠٠

(٣٧٩) إنجيل لوقا الأصحاح (١٢)

(٣٨٠) إنجيل يوحنا الأصحاح ٨ إنجيل برنابا الفصل (٢٠١)

(٣٨١) إنجيل لوقا الأصحاح (٢١)إنجيل مرقس الأصحاح ١٢

(٣٨٢) إنجيل يوحنا الأصحاح (٧)

(٣٨٣) إنجيل يوحنا الأصحاح (١٠)

(٣٨٤) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٨)

(٣٨٥) إنجيل يوحنا الأصحاح (٨)

(٣٨٦) إنجيل برنابا الفصل ٢٠٦

(٣٨٧) إنجيل برنابا الفصل (٢٠٧) ، (٢٠٨)

(٣٨٨) إنجيل يوحنا الأصحاح ٨

(٣٨٩) إنجيل يوحنا الأصحاح (٨) ، الأصحاح (١٠)

(٣٩٠) متى الأصحاح (٢٣،) برنابا الفصل (٢٠٣)

(٣٩١) إنجيل برنابا - الفصل ٢٠٨

(٣٩٢) إنجيل متى الأصحاح (٢٤)إنجيل مرقس الأصحاح (١٣) إنجيل لوقا الأصحاح (٢١)

(٣٩٣) كرر المسيح عليه السلام التحذير ولكن كثيرين جاءوا بإسم المسيح قائلين كل واحد أنا هو وصدقهم التلاميذ فضلوا وأضلوا .

(٣٩٤) إنجيل متى الأصحاح (٢٥)

(٣٩٥) متى الأصحاح (٧)

(٣٩٦) لوقا الأصحاح (٦)

(٣٩٧) متى - الأصحاح (٢٥)

(٣٩٨) متى - الأصحاح (٧)

(٣٩٩) إنجيل برنابا الفصل (٢١٠)

(٤٠٠) إنجيل برنابا الفصل ٢٠٤ ص ٢٩٦ (طبعة المنار ١٩٠٨ - ترجمة خليل سعادة)

(٤٠١) إنجيل برنابا الفصل ٢٠٢ ص ٢٩٤(طبعة المنار ١٩٠٨ - ترجمة خليل سعادة)

(٤٠٢) إنجيل لوقا الأصحاح ١٧

(٤٠٣) سورة الصف - الآية (٦)

(٤٠٤) آل عمران ٤٩-٥١

(٤٠٥) آل عمران ٥٢

(٤٠٦) المائدة ١١١

(٤٠٧) قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا وأشهد بأنا مسلمون آل عمران (٥٢ - ٥٣)

«قالو آمنا وأشهد بأننا مسلمون» (المائدة ١١١)

(٤٠٨) «وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلاسحر مبين» سورة المائدة - الآية ١١٠.

(٤٠٩) إنجيل برنابا الفصل ٢٠٨ إنجيل يوحنا الأصحاح ٣

(٤١٠) إنجيل لوقا الأصحاح (١٢) إنجيل متى الأصحاح (٦.٥) إنجيل برنابا (١٦)

(٤١١) إنجيل متى الأصحاح ١٨

(٤١٢) إنجيل متى الأصحاح ٥ إنجيل لوقا الأصحاح ١٢

(٤١٣) إنجيل لوقا الأصحاح ١٨. ٢٢

(٤١٤) لوقا الأصحاح (١٨) برنابا الفصل (٧٢)إنجيل لوقا الأصحاح (١٨)، برنابا الفصل٧٢

(٤١٥) إنجيل برنابا الفصول ٧٣-٧٥ ص ١١ وما بعدها من طبعة المنار ١٩٠٨م.

(٤١٦) إنجيل برنابا الفصول ٧٦-٧٩ ص ١١٦-١٢١من طبعة المنار ١٩٠٨م.

(٤١٧) إنجيل مرقس الأصحاح (١٠) إنجيل متى الأصحاح (٢٠)

(٤١٨) إنجيل يوحنا الأصحاح (١٣) إنجيل مرقس الأصحاح (١٠) إنجيل متى الأصحاح (٢٠)

(٤١٩) إنجيل يوحنا الأصحاح (١٣)

(٤٢٠) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٥

(٤٢١) إنجيل برنابا الفصول (١٦٩-١٧٩) ص ٢٥٨ وما بعده (طبعة المنار ١٩٠٨)

(٤٢٢) إنجيل يوحنا الأصحاح (١٦)

(٤٢٣) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٢

(٤٢٤) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٤

(٤٢٥) يوحنا الأصحاح ١٦

(٤٢٦)إنجيل يوحنا الأصحاح ١٤

(٤٢٧) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٦

(٤٢٨) سورة المائدة الآية ١١٢

(٤٢٩) سورة المائدة الآية ١١٢

(٤٣٠) سورة المائدة الآية ١١٣

(٤٣١) سورة المائدة الآية ١١٤

(٤٣٢) سورة المائدة الآية ١١٥

(٤٣٣) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٣ إنجيل متى الأصحاح ٢٦ إنجيل مرقس الأصحاح ١٤

(٤٣٤) إنجيل متى الأصحاح ٢٦ إنجيل مرقس الأصحاح ١٤

(٤٣٥) يوحنا الأصحاح ١٦

(٤٣٦) متى الأصحاح ٢٦ مرقس الأصحاح ١٤ لوقا الأصحاح ٢٢ يوحنا الأصحاح ١٣

(٤٣٧) لوقا الأصحاح ٢٢ ومرقس (١٤) ومتى الأصحاح (٢٦)

(٤٣٨) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٧

(٤٣٩) سورة آل عمران - الآية ٥٥ ـ ٢٥٧

(٤٤٠) يقول الله فى سورة الزخرف (٥٧-٦٠)

ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ، (٥٧)

وقالوا ءآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون، (٥٨)

«إن هوإلا عبد أنعمنا عليه وجعلنا مثلا لبنى إسرائيل ، (٥٩)

ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلقون ، (٦٠)

أنظر إلى قوله «سبحانه وتعالى» تعليقاً على الجدل الذى أثاره الكفار حول عيسى بن مريم ، قال «ولو نشأ لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون» يعنى يخلفونكم أى يخلفون هيئتكم البشرية (الآدمية) والمعنى أنه لو أرد الله أن يحولكم أيها البشر إلى ملائكة لأستطاع أن يفعل لأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء يقصدكما فعل مع عيسى بن مريم . فالآية إذن إشارة واضحة لمن يتدبر القرآن إلى أن عيسى بن مريم قد صار ملكا يحيى فى السماء الثانية التى تعلو السماء الدنيا (أى الأولى) كما رآه الذى لا ينطق عن الهوى وهو يحيى هناك في السموات مع الأنبياء وسائر المقربين الذين أنعم الله عليهم بالحياة بعد الموت والنعيم قبل البعث مع الرفيق الأعلى. الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون وحسن أولئك رفيقا إنهم أرواح حية تتنعم بالجنة بعد الموت.

(٤٤١) إنجيل متي الاصحاح (٢٦)، إنجيل مرقس (١٤)، إنجيل لوقا (٢٢)

(٤٤٢) إنجيل متي الاصحاح (٢٧)، إنجيل مرقس الأصحاح (١٥)، إنجيل لوقا (٢٣).

(٤٤٣) إنجيل لوقا الأصحاح (٢٣)

(٤٤٤) إنجيل متي الأصحاح (٢٧)، إنجيل مرقس الأصحاح (١٥)

(٤٤٥) سورة الأنعام ـ الآية ١١٥